

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد التاسع - المجلد الأول

مارس ٢٠٠١ م

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

هيئة التحرير

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور (رئيس هيئة التحرير)
أ.د. حسنين محمد ربيع
أ.د. عبد اللطيف عبدالله بن دهيش
أ.د. سهيل محمد ذكار
أ.د. مصطفى محمد رمضان
د. سليمان إبراهيم العسكرى

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى :

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات شركة الخليج

تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه المجلة

- * علمية تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
- * تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية.
- * البحوث التى تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية.
- * تصدر مؤقتا سنوياً فى مارس من كل عام؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.
- * لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة.
- * تخصص أقسام فى المجلة- حسب الإمكانيات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات.
- * البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.
- * يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية. ولاعلاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية.

* * * * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس / ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

صفحة

كلمة الافتتاح ٧

رئيس الاتحاد

الهوية الشمودية فى النقوش النبطية ١١

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد

الصلات القدية بين أوربا والبلاد العربية الإفريقية ٢١

د. حسن بكر الشريف

ضبط سنى الأحداث التاريخية لبلاد المغرب

فى عصر الفتح الإسلامى (٦٢-٩٢هـ / ٦٨٢-٧١١م) ٣٩

د. تؤدة محمد الشريف

القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط على عصر سلاطين الممالك ٥٥

د. ناجلا محمد عبد النبى

دعوة التوحيد وأثرها فى تغيير مجرى السياسة فى الدولة الإسلامية فى الأندلس ... ٦٩

د. نورة محمد التويجى

غوردون وسياسة إخلاء السودان (١٣٠١-١٣٠٢هـ / ١٨٨٤-١٨٨٥م) ١١٣

د. عمر سالم عمر بابكور

توقيعات صناع المعادن ومدلولاتها ١٥٣

(من بداية القرن ٧هـ / ١٣م إلى منتصف القرن ٨هـ / ١٣م)

د. عبد العزيز صلاح سالم

منهج المقرئى فى كتابه «القنى الكبير» ٢١٩

د. يسرى أحمد عبدالله زيدان

أوضاع السودان الغربى فى عهد منساموسى

٢٦١ (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧ م)

د. جمال فوزى محمد

٢٨٧ النشاط الفاطمى المغربى فى صقلية وجنوب إيطاليا

أ.د. محمد أحمد زيود

المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثمانى

٣١٧ حتى نهاية القرن ١٣ هـ / ١٩ م «دراسة أثرية وثائقية»

د. عبدالله كامل موسى عبده

٣٤٩ العلاقات التجارية بين مصر والصين فى عصر دولة سلاطين المماليك

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى

٣٦٩ خاتمة الوجود الإسلامى فى غرب الأندلس

د. محمد محمود أحمد النشار

أوروبا (الحضارة والحرب) فى كتابات

٤٠١ المثقفين المصريين إبان الحرب العالمية الثانية

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر

٤٢٥ الحملة الفرنسية على مصر حلقة فى التنافس التجارى الدولى

أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم

٤٤٩ أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها

د. مجاهد توفيق الجندى

منهجية ابن العبرى التاريخية تجاه أحداث الحروب

٥٢٥ الصليبية مقارنة بمنهجية ابن الأثير

د. حمود بن محمد بن على النجيدى

حقاً... إنها جميلة...

إنها اللسان العربى المبين، الذى نزل به القرآن الكريم، والذى لا يدانيه لسان آخر فى قوته وتأثيره وبلاغته وجمال بنيانه.

إن جمال اللغة العربية لا يقف عند حد غنى هذه اللغة بالمرادفات وقابليتها للنحت، وطواعيتها للاشتقاق، وإنما يتخطى ذلك إلى قدرتها على التحوير فى صياغة الألفاظ، بل وفى معنى اللفظ الواحد، فتتعدد الكلمات والمعنى واحد، وتتعدد المعانى واللفظ واحد... وكل هذه المزايا والصفات ساعدت لغتنا الجميلة على أن تكون أداة لأعظم حضارة عرفها العالم فى العصور الوسطى.

نحن لا ننكر أن الحضارة العربية الإسلامية ولدت فى محيط ضيق، وأنه كان لا يمكن لهذه الحضارة عند مولدها أن تقارن بالحضارات القديمة التى سبقتها - كالحضارات الفارسية، والهندية، واليونانية، وحضارات مصر والشام، والعراق، وغيرها. ولم يكن للحضارة العربية الإسلامية - عند مولدها - نصيب من إنجازات الحضارات القديمة، وخاصة فيما نعرفه باسم العلوم العقلية أو التجريبية. لكن ظهر الإسلام ليدفع العرب - وغير العرب من شعوب الدولة الإسلامية الجديدة - إلى الأمام للتعبير عن طاقة حضارية بناء جديدة.

ولا يقلل من شأن الحضارة العربية الإسلامية أنها أفادت من غيرها من الحضارات السابقة، لأن سنة التطور الحضارى تطلبت أن يستفيد الخلف من جهود السلف، بحيث يحاول كل جيل أن يضيف إلى البناء الحضارى ويرتفع به. وهذا عكف المسلمون على دراسة وفحص إنجازات

غيرهم فى شتى الميادين، فأخذوا منها ما لا يتعارض وأحكام الإسلام وآدابه، وعدلوا ما يتطلب التعديل والتقويم، أو التصحيح. واستبعدوا كل ما لا يتفق وروح الإسلام وشريعته وأحكامه.

وتحت مظلة الإسلام ، أقبل العرب وهم مزودون بسلحين على دراسة ما أنجزه السابقون . أما هذان السلاحان ، فأولهما الرغبة فى التحصيل ، والقدرة على سرعة التعلم والالتقاط . وقد ساعد على ذلك أن الإسلام حث على طلب العلم المفيد النافع من أوسع أبوابه ، وكرم العلم والعلماء ، ورفع الله الذين أوتوا العلم درجات. وأما السلاح الثانى الذى تزودت به الحضارة الإسلامية لتشق لنفسها طريقًا متميزًا ، فكان اللغة العربية وهى خير أداة أتاحت للعرب القدرة على التعبير عن معان وأفكار ومصطلحات لم يكن لهم بها علم، فعربها العرب وغدت مألوفة فى عالم اللغة العربية. يقول الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الأعجمى «إن الكلمة إذا أخذها العرب من غيرهم، وصاغوها على أوزان حروفهم، ودارت فى أشداقهم، ومرت عليها ألسنتهم ، صارت من لغتهم بالنقل والاقتباس » . وهكذا استخدم العرب مصطلح أرثماطيقا للدلالة على الحساب، وعرفوا الهندسة باسم جومطريا، وعرفوا الفلك باسم اسطرونوميا ... وكلها أسماء يونانية عربها العرب.

وفى وسط خضم كبير من الأسماء والمصطلحات التى دخلت اللغة العربية عن طريق التعريب، احتل علم التاريخ مكانة مرموقة، بوصفه العلم الذى امتدت جذوره فى أعماق العصور، لتحكى أخبار الأنبياء والأديان، وسير الملوك والحكام، وحوادث الدهور والأيام. ومنذ مولد الإسلام احتل التاريخ مكانته البارزة، حيث قص القرآن الكريم على المسلمين العديد من القصص الذى يرتبط بأخبار السابقين. وحسبنا أن إحدى سور القرآن الكريم تحمل اسم «سورة القصص» ، كما جاء فى سورة أخرى قوله تعالى «نحن نقص عليك أحسن القصص» . وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم إنما استهدف العظة والعبرة، وربما حمل معه من أخبار الأولين ما لا يمكن معرفته من مصدر آخر.

وقد تميز علم التاريخ عند المسلمين بالأمانة وصدق الأحكام وطلاوة العبارة، والحرص على اختيار اللفظ المناسب الذى يشد الباحث ويستثير إعجاب القارىء . ومن أهم ما عنى به المؤرخ العربى انتقاء العنوان الصالح لمؤلفه أو كتابه، بحيث يجذب العنوان مشاعر القارىء . ومن هذه العناوين «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك»، وكتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر

والقاهرة»، وكتاب «غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى» وكتاب «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ... وغير هذا من العناوين الجميلة الجذابة، التى تشد القارىء، وتلتصق بفكره ومشاعره، بفضل ما تتميز به من جمال العبارة وسحر البيان.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن كتابة التاريخ، بما تتضمنه من حوادث مثيرة ومواقف متشدة أو عاطفية، تتميز بصبغة لغوية يغلب عليها الطابع الأدبى فى كثير من الحالات. وكثيراً ما نرى المؤرخ يستعرض واقعة من الوقائع، فتغلب على أحاسيسه النزعة الأدبية فيستشهد بالشعر والأمثال والحكم، مما يسبغ على كتابته مسحة أدبية واضحة ولا تنكر إننا نعانى بعض الحيرة عندما نحاول تصنيف كتاب أو موسوعة مثل «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، أو كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» أو كتاب «مسالك الأبصار». وربما ساءل الواحد نفسه: هل يدخل القلقشندى، أو النويرى أو العمري فى قائمة الأدباء أو فى سجل المؤرخين؟ لقد جعل كل منهم كتابه موسوعة أدبية تاريخية: العنوان يعبر عن الاتجاه الأدبى ولكن المحتوى يضم الكثير من ألوان المعرفة التاريخية: جوانب من التاريخ السياسى، والتاريخ الاقتصادى، والأوضاع الاجتماعية، ونظم الحكم والإدارة، وحياة السلاطين والحكام... كل ذلك إلى جانب الكتب والرسائل والسجلات والتقاليد.

وهنا تحضرنى عبارة دونتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً فى مقدمة كتاب «فهارس صبح الأعشى» نصها: (الواقع إن القارىء لكتاب «صبح الأعشى» يسترعى انتباهه أن مؤلف هذا الكتاب يتمتع بحاسة تاريخية قوية. فهو إلى جانب كونه أديباً وفقياً، يبدو دائماً فى صورة المؤرخ الواسع الأفق، المحيط ببواطن الأمور، المستوعب لكثير من كتب السير والتاريخ. وهو عندما يتعرض لعلم التاريخ، يقول ما نصه (أعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له. وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه، ما بين مختصر ومبسوط...).

وهكذا تودى لغتنا دوراً كبيراً فى الربط بين فروع العلم والمعرفة، لتجعل منها سلسلة متداخلة الحلقات متكاملة البنيان.

نعم، حقاً إنها جميلة

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد *

الهوية الثمودية فى النقوش النبطية

أولا : الطابع العام للنقوش الثمودية

من المعروف أن اللغة الثمودية هى لهجة عربية شمالية تنحدر من اللغة العربية الشمالية التى انحدرت منها لغتنا العربية الفصحى ولكنها تختلف عنها فى نوع الخط الذى كتبت به، فبينما اشتق الخط العربى من الخط النبطى الذى اشتق بدوره من الخط الآرامى الذى انتشر فى الشام بوجه خاص، فقد اشتق الخط الثمودى من الخط الدادانى الذى انتشر فى العلا والذى اشتق بدوره من الخط المسند اليمنى.

وقد تتبع فان دن براندن نشأة الحروف الثمودية واشتقاقها من الحروف الدادانية وخاصة حروف الألف والجيم والذال والذال والهاء (Branden 1950, p.25-27) ثم حروف الياء والألف واللام والميم والسين والفاء والصاد والقاف والشين (Op. cit., p. 29-32) .

والوصف الأكثر انطباقا على الخط الثمودى أنه خط «مخريشات» (Scribbles) حفر حروفه على الصخر أشخاص تتفاوت طريقة وأسلوب كتابة كل شخص بتفاوت ثقافته ومهارته فى الكتابة كما تتفاوت اتجاهات سطوره إذ لا توجد قاعدة محددة يسير عليها الكتاب الثموديون فى حفر نقوشهم فأحيانا تتجه السطور من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين أو من أعلى لأسفل أو حتى من أسفل لأعلى بل وأحيانا تتجه السطور فى شكل دائرى.

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

ولعل السبب فى ذلك أن الشموديين لم ينتظموا فى دولة تحدد طرق الكتابة فى نظام موحد. وتنسق شئونهم فكان أن دون كل كاتب خطه بالطريقة التى تناسبه أو تحلو له فتفاوتت بذلك أشكال الحروف تفاوتاً كبيراً.

وعلى هذا فاللغة الشمودية لم تكن لغة أدبية، وإنما كانت لغة تخاطب والخط الشمودى لم يكن خطاً رسمياً بل كان خطاً شخصياً ولعل هذا يشبه إلى حد كبير اللغة العامية أو الدارجة التى يستخدمها مختلف الشعوب العربية فى التخاطب. كما أن الخطوط الشمودية المحفورة على صخور الجزيرة العربية بما تتميز به من تفاوت فى أشكالها وموضوعاتها من تحية شخص لآخر أو تمنيات برحلة سالمة (نظراً لأن الشموديين كانوا تجار قوافل ورعاة إبل فى المقام الأول) لعلها تشبه ما يسطره الأفراد فى أيامنا هذه ممن يجوبون المناطق الأثرية فى الدول العربية فيسجلون على هذه المناطق مختلف العبارات التى تبدأ بكلمة «للذكرى» (ولو أنها عادة ذميمة تشوه الآثار حيث بدأت الهيئات الحكومية فى هذه الدول فى التصدى لها).

ثانياً : نتائج عدم وجود خط منتظم لدى الشموديين:

لعل عدم الانتظام فى الخط الشمودى وعدم وجود لغة أدبية لديهم يقدمان لنا حلاً لمشكلة كثيراً ما واجهت الباحثين وهى تسجيل الشموديين بعض شئونهم بخط آخر ولغة أخرى غير خطهم الشمودى ولغتهم الشمودية وهما الخط النبطى واللغة النبطية .

والأمثلة على ذلك نقشان أحدهما فى مدينة مدائن صالح والآخر فى بلدة «روافة» الواقعة جنوب غرب مدينة «تبوك» بحوالى ١٠٠ كيلو متر، فأما النقش الأول فهو يخص سيدة تدعى بالشمودية «ل ق ش / ب ن ت / ع ب د / م ن ت» وبالنبطية «رقوش برت عبد منوتو» وهذا النقش بخطين أحدهما الخط النبطى وهو من تسعة أسطر أفقية كتبت بطريقة منتظمة من اليمين إلى اليسار شأن سائر النقوش النبطية والخط الآخر هو الخط الشمودى وهو من سطر واحد كتب رأسياً إلى يمين النص النبطى وبنفس ارتفاعه تقريباً (شكل ١ وشكل ٢) والنص النبطى يسجل ملكية السيدة رقوش للقبر المدون اسمها بجانبه وهو عبارة عن فجوة مستطيلة محفورة فى الصخر بالقرب من قمة الضريحين اللذين يقع بينهما وترجمة هذا النص ببعض التصرف هى «هذا (ال) قبر نحتته كعب بن حارثة لرقوش بنت عبد مناة والدته التى توفيت فى الحجر (مدائن صالح) سنة مائة واثنين وستين من شهر قموز وليعلن إله العالم من يعتدى على هذا

القبر أو من يفتحه فيما عدا ولدها (اللقراءة والترجمة الحرفية للنقش أنظر شكل ٢)
(Contineau 1978, II, p. 38).

أما النص الثمودى الذى يتكون من سطر واحد رأسى فقراءته هى «ذ ن / ل ق ش / ب ن
ت / ع ب د / م ن ت» وترجمته هى : «هذا (قبر) لقوش بنت عبد مناة» (شكل ١).

ومن هذا يتضح أن صاحبة هذا القبر ثمودية الهوية وأن ابنها استخدم لغته الثمودية والخط
التمودى للإفصاح عن هوية أمه بينما استخدم الصيغة النبطية لإثبات ملكية أمه للقبر حتى
لا يعتدى عليه أحد وهذه الصيغة هى الصيغة الشائعة فى الكتابات المدونة على واجهات
أضرحة مدائن صالح الأخرى أى أنها تشبه ما نسميه فى عصرنا «نموذج إثبات ملكية» ولو
أنها تختلف فى بعض عباراتها ولكن مفهومها العام واحد لأن جميعها تقريبا تبدأ بعبارة
نبطية واحدة ترجمتها هى «هذا قبر» ثم تذكر اسم صاحب القبر وأحيانا أسماء من يوصى لهم
بالدفن فى قبره ثم يذكر نص اللعنة ضد كل من يعتدى عليه ويختتم أغلب هذه الصيغ بإثبات
التاريخ وهو سنة حكم الملك النبطى الذى نحت القبر فى عهده (ولو أن النص الذى نحن بصدده
اختلف فى استخدام تقويم بصرى الذى اتبع عند انتهاء دولة الأنباط سنة ١٠٦ م فالنص مؤرخ
بما يعادل ٢٦٧ ميلادية).

ولعلنا نستنتج من ذلك أن الثموديين استخدموا هذا النموذج أو هذه الصيغة النموذجية
النبطية المتعارف عليها فى تسجيل أحد شئونهم الرسمية وهو إثبات الملكية بينما استخدموا
خطهم التمودى ولغتهم الثمودية فى الإفصاح عن هويتهم.

والحقيقة أن هذا ليس المثال الوحيد لاستخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى
شئونهم الرسمية فقد استخدموها فى معبد روافه الذى ذكرناه وذلك فى النص التالى «دنه
نوسا دى عبتت شركت ثمودو» (Milik 1971, p. 44) وترجمته هى «هذا (هو) الهيكل
الذى شيدته قبيلة (أو اتحاد قبائل) ثمود» وهذا النص مؤرخ بتقويم بصرى بما يعادل ١٦٦
ميلادية.

ومن الواضح أن هذا النص قصد منه إثبات ملكية الثموديين لهذا المعبد ولو أنهم أهده
إلى اثنين من أباطرة الرومان المعاصرين لهم.

ومن هذا يتضح ما أشرنا إليه سابقا من أن سبب استخدام الثموديين للخط النبطى واللغة
النبطية فى هذين المثالين رغم أنه كان لهم لغة وخط خاصين بهم هما اللغة (أو اللهجة)

الشمودية والخط الشمودي- سبب ذلك أن اللغة الشمودية كانت لغة تخاطب أكثر منها لغة تسجيل أو لغة أدبية وقد استخدم الشموديون خطهم ولغتهم في التفاهم بين بعضهم البعض ومن هنا وجدنا آلاف النقوش أو المخريشات الشمودية محفورة على صخور الجزيرة العربية، ولهذا لم يكن هذا الخط الشخصي غير المنتظم يصلح في تسجيل الشئون الرسمية مثل تسجيلهم ملكية مقبرة أو معبد فاستخدموا خطا منتظما له أصول وقواعد متعارف عليها وهو الخط النبطي وتبع ذلك استخدامهم اللغة المكتوبة بهذا الخط وهي اللغة النبطية واللذان كانا ينتشران في منطقة الحجاز حيث قامت دولة الأنباط التي امتدت في عصر ازدهارها من حدود الشام شمالا مروراً بالبتراء العاصمة الأولى لدولة الأنباط حتى مدائن صالح جنوباً التي كانت بمثابة العاصمة الثانية لدولة الأنباط. وبطبيعة الحال فإن دولة منظمة كهذه كان لها خطها المنتظم ولغتها الأدبية ولعلها تشبه عندنا الخط العربي المنتظم الذي يلتزم أصوله الخطاطون (سواء كان نسخاً أو رقعة أو غيرهما) كما أن اللغة النبطية تشبه اللغة العربية الفصحى كلغة كتابة وأدب (ولو أنه لم يصل للعلماء نصوص أدبية باللغة النبطية، وما يسمى في المملكة العربية السعودية بالشعر النبطي ليس به من اللغة النبطية عبارة واحدة فهو شعر عامي باللهجة السعودية الدارجة).

ثالثاً: سبب استمرار استخدام الشموديين للخط واللغة النبطية رغم زوال دولة الأنباط:

كما يدل على انتظام الخط النبطي وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية أن الشموديين استخدموها بعد زوال دولة الأنباط على أثر إسقاط الرومان لعاصمتها البتراء عام ١٠٦ ميلادية أي أن التراث النبطي في الخط واللغة استمر بعد ذلك التاريخ بحوالى مائة وستين عاماً (نقش رقوش المؤرخ بما يعادل سنة ٢٦٧ ميلادية كما ذكرنا).

غير أن هذا التفسير وحده أي استمرار استخدام الخط النبطي وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية وحدهما لدى الشموديين لا يبرر تمسك الشموديين بهما هذه المدة الطويلة أي بعد زوال النفوذ النبطي بما يزيد على قرن ونصف وإنما لابد أن هناك سبباً آخر عزز من ذلك، هذا السبب هو في رأيي وجود رابطة قرابة قوية بين الشموديين والأنباط تفسرها لنا الآيات الواردة في القرآن الكريم عن الشموديين فقد نسبت هذه الآيات إنشاء الأضرحة النبطية في الحجر (مدائن صالح) إلى قوم ثمود (سورة الفجر، آية ٩ . وسورة الحجر، آية ٨٠ . وسورة الأعراف، آية ٧٤) لا إلى الأنباط رغم ما على واجهاتها من كتابات بالخط النبطي واللغة النبطية مما

يرجح أن الأنباط كانوا في الأصل قبيلة من القبائل الثمودية اجتذبت أفرادها ثروة التجارة المتدفقة عبر الطريق التجارى العظيم (أو طريق الذهب والبخور) القادم من اليمن والمتجه إلى الشام فانسلخت هذه القبيلة من الشعب الثمودى واستقرت فى منطقة البتراء الغنية بالمياه الباطنية والواقعة على هذا الطريق حيث استنبطت هذه القبيلة المياه بحفر الآبار وأطلق رجالها على قبيلتهم اسما يشير إلى هذا الاستنباط وهو «نبطو» فإن هذه الكلمة عربية قديمة وردت فى النصوص العربية الجنوبية بالصيغة «ن ب ط» وأحيانا «ه ن ب ط» بنفس المعنى أى مما يدل على استنباط الماء (Beilla 1982, p. 290) وقد أضاف إليها الأنباط حرف الواو النهائى الذى هو من خصائص أسماء الأعلام النبطية (Contineau 1978, II, p. 165) وصار ملكهم يلقب بـ «ملك نبطو» (Op. cit., p. 119).

وكما هو معروف فقد انتحل الأنباط اللغة الآرامية والخط الآرامى واستخدموها عوضا عن خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية لكى يسهل عليهم التعامل مع أسواق الشام التى كانت تسود فيها هذه اللغة وهذا الخط والتى كانت تصب فيها السلع الثمينة القادمة من الجنوب والتى أصبحوا يتحكمون فيها بحكم موقع عاصمتهم البتراء. وليس أدل على الأصل الثمودى (أو العربى الشمالى) للأنباط من أن اللغة العربية الشمالية بدأت بمرور الوقت تتغلغل فى لغتهم الآرامية المنتحلة فإن المقارنة بين نصوصهم المبكرة المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح والتى ترجع إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، والتى تسود فيها الكلمات والتعبيرات الآرامية- بمقارنتها بنصوصهم المتأخرة المدونة على واجهات هذه الأضرحة وعلى غيرها فى كل من العلا (نقش شمعون المؤرخ بما يعادل ٣٠٧ م، JS 1909) II, Atlas, pl. CXXI) ومدائن صالح (نقش رقوش المشار إليه) يلاحظ غلبة الكلمات العربية الشمالية (القريبة من العربية الفصحى) على الكلمات والتعبيرات الآرامية.

هذا الارتباط فى الأصل بين الثموديين والأنباط هو الذى يفسر تمسك الثموديين باللغة والخط النبطيين بعد زوال دولة الأنباط بوقت طويل كما يفسر سبب إطلاق القرآن الكريم اسم ثمود على أصحاب أضرحة مدائن صالح رغم الكتابات النبطية التى عليها فمن الواضح أن القرآن الكريم خاطب الشعب العربى الأصلى وهو الشعب الثمودى الذى تنتمى إليه القبيلة أو القبائل النبطية ولم يخاطب الأنباط الذين انسلخوا منه وغيروا لغتهم العربية وخطهم العربى واستبدلوا بها خطأ ولغة غريبة على العرب ولعل هذا يفسر اعتبارهم «أعاجم» فى نظر الإخباريين العرب.

المراجع

- Branden 1950 :

Van den Branden, ALB; Les inscriptions Thamoudéennes, Louvain.

- Cantineau 1978 :

Cantineau, J., Le Nabatéen , 2 vols. Paris, 1930-1932 .

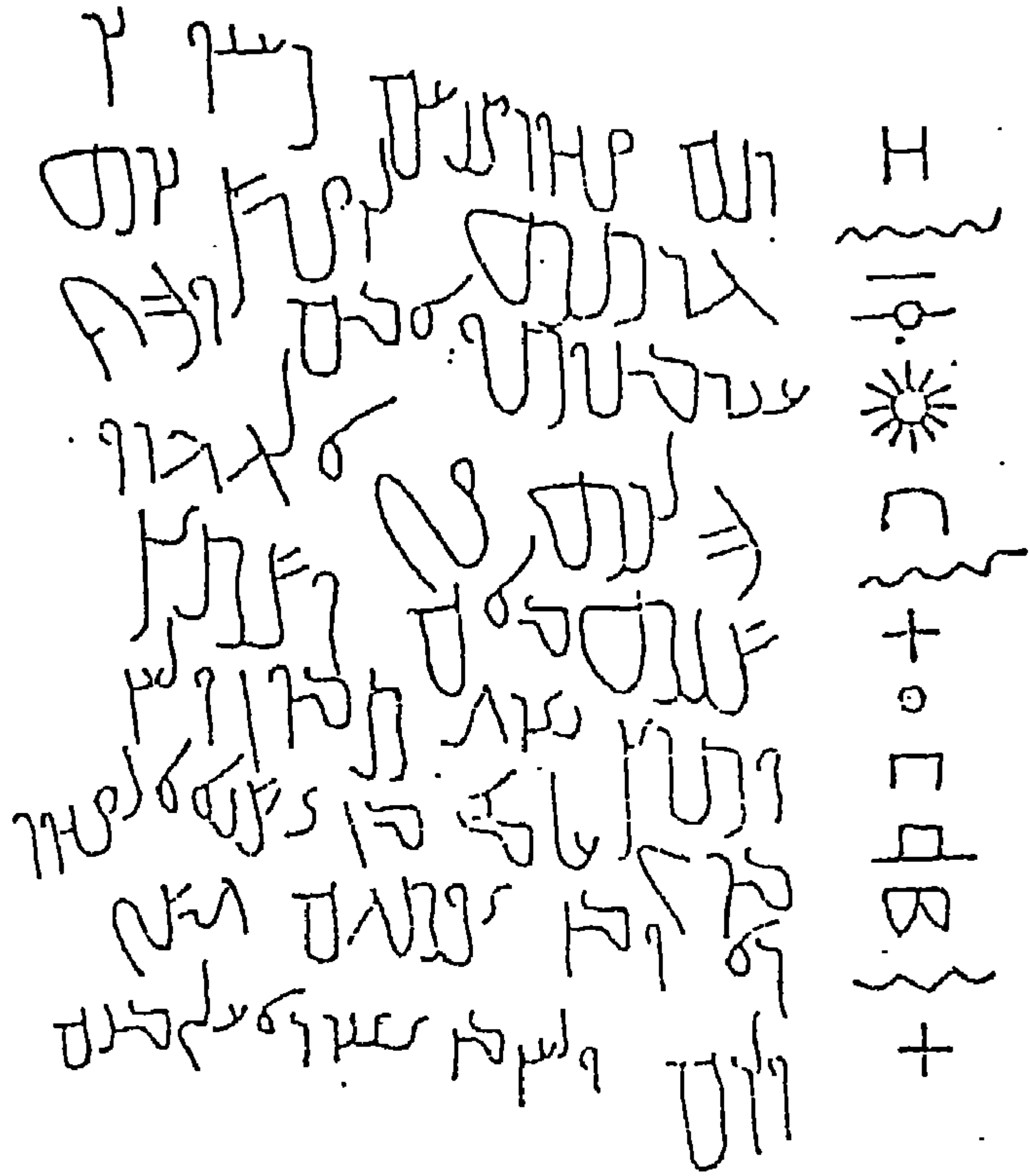
- JS 1909 :

Jassen & Savignac,

Mission Archéologiques en Arabie, 4 Tomes, 1909-1914 .

- Milik 1971 :

Milik J.T "Inscriptions Grecques et Nabateennes de Rawafah " Bulletin of the Institute of Archaeology, No. 10 , London .



(شكل ١) النقش المحفور على واجهة مقبرة السيدة رقوش الشمودية في منطقة قصر البنت بمداين صالح ويتكون من تسعة سطور أفقية بالخط النبطي واللغة النبطية (لغة الشئون الرسمية عند الشموديين) ومن سطر واحد رأسى بالخط الشمودي واللغة (أو اللهجة) الشمودية وهي لغة التخاطب عند الشموديين.

الآن من قبله
سبب

سطر ١ : القراءة : ته قبر وصنعه كمبر بر
الترجمة : هذا (ال) قبر صنعه (نحته) كمبر بن

حارث حرم

سطر ٢ : القراءة : حرثت لرقوش برت
الترجمة : حارثة لرقوش بنت

عبد منو عبد

سطر ٣ : القراءة : عبد منو عبد
الترجمة : عبد مناة أمه (والدته) وهى

الآن من قبله

سطر ٤ : القراءة : هلكت فى الحجرو
الترجمة : هلكت (توفيت) فى الحجر

الآن من قبله

سطر ٥ : القراءة : سنت ماء وستين
الترجمة : سنة مائة وستين

(شكل ١٢) تفصيل النقش النبطى (المنشور فى شكل ١) وقراءة وترجمة السطور من ١ إلى ٥

٦٦٦ ٨٧٨ ١١٦٦ ١١٦٦

سطر ٦

القراءة : واتنين بيرح تموز ولعن
الترجمة : واتنين فى شهر تمود ولعن

٦٦٦ ٨٧٨ ١١٦٦ ١١٦٦

سطر ٧

القراءة : مرى علما من بنأ القبر
الترجمة : سيد العالم من بنأ القبر

(يعتدى على)

٦٦٦ ٨٧٨ ١١٦٦ ١١٦٦

سطر ٨

القراءة : دا و . من يفتح حشى
الترجمة : هذا (ده) ومن يفتح حاشا

٦٦٦ ٨٧٨ ١١٦٦ ١١٦٦

سطر ٩

القراءة : ولده ولعن من بغير دا على منه
الترجمة : ولدها ولعن من بغير هذا (الذى) أعلاه

(ربما المقصود هذه الكتابة)

د. حسن بكر الشريف *

الصلات القديمة بين أوروبا والبلاد العربية الإفريقية

للقوف على الصلات المبكرة بين أوروبا والعالم العربى لابد من أن تكون نقطة البدء هى الاتجاه نحو الأقطار العربية الواقعة فى نطاق حوض البحر المتوسط. وعلى وجه التحديد تلك الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية والشرقية ، فى عقد تلك الصلات، وذلك لما يتوفر لها من إمكانية إقامة صلات مباشرة فيما بينها وبين جنوب أوروبا**.

ويبدو أن هذه الصلات لم يكن لها وجود فى عصر ما قبل التاريخ. ولكنها أخذت فى الظهور منذ أواخر العصر أى فى فجر العصر التاريخى العام للشمال الأفريقى.

وفى ساحة السباق الحضارى لكل من العالمين : الأوربى والشمال الأفريقى؛ يبدو أن كلا منهما كان يتمتع بشخصية حضارية مستقلة تماما عن الآخر. على الرغم مما كان يحدث

* أستاذ مساعد بكلية التربية بدمهور- جامعة الاسكندرية.

** الواقع أن الجغرافيين يتحدثون عن ثلاثة معايير يمكن أن تكون طرق وصل فيما بين الجنوب الأوربى والشمال الأفريقى، تلك هى شبه جزيرة البلقان وجزر إيجا، ومقدمة شبه الجزيرة الإيطالية ورأس بونو فى تونس عبر جزيرة صقلية، ثم مضيق جبل طارق.

أحيانا، وفي بعض المراحل من ظهور توهج حضارى -بلامقدمات- فى أحد العالمين ، دون يكون له أى صدى فى العالم الآخر المقابل له.

ويسهل على الدارس المتتبع للتطور الحضارى لكل من العالمين - الأفريقى والأوربى- أن يلحظ هذه الحقيقة، وأن كلا منهما سار فى طريق حضارى مستقل تمامًا عن الآخر، دون أن يؤثر أو يتأثر بالجانب الآخر، على أنه يمكن القول إن أقطار العالم أخذت فى التباين الحضارى، أو ما يمكن أن نعهده تمايزاً إقليمياً، فى مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط. ففي تلك الحقبة شهدت أوربا صناعات خاصة بها، أخذت مسمياتها من مواقع أوروبية حقيقية، عرفت بالصناعات المستيرية أو المستيرية- اللفلوازية. ويبدو أن هذه التقنيات الجديدة كانت بمثابة مرحلة حضارية عمت جميع أنحاء العالم القديم، وارتبطت بظهور إنسان نياندرتال، لأننا نلاحظ أن أقطار الشمال الأفريقى شهدت هذا التطور العام، ولكنها سرعان ما اتخذت لنفسها خطأ تقنيا خاصا، حيث ينبثق من أحد مناطقها صناعات محلية متميزة، تبعتها عما شهدته بقية مناطق العالم الأخرى .

وهذه الصناعات الجديدة، عرفها المشتغلون بعصور ما قبل التاريخ باسم الصناعات العاتيرية نسبة إلى مكان كشفها ، وتميزت بأداة خاصة يسهل التعرف عليها. والعجيب فى أمر هذه الصناعات أنها غطت كل أرجاء الشمال الأفريقى وصولاً إلى وادى النيل شرقاً^(١)، واتجهت جنوباً متخطية ما يعرف حالياً بالصحراء الكبرى (أنظر الخريطة) ولكنها شمالاً لم تتعد خط الساحل .

وفى حقبة العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليتى الأعلى) شهدت أقاليم غرب أوربا ازدهارا حضاريا متألقا فى حقب حضارية ثلاث متتالية: مرحلة الحضارة الأورنياسية -Au-rignacien، ثم السوليتيرية Solutrèen وأخيرا المجدالينية Magdalénien وتتسم هذه المراحل الثلاث بتفجر طاقة تقنية وإبداع فنى، شهدت به مجموعات الأدوات الحجرية والعظمية المنقوشة، وفن حوائط الكهوف الذى خلفه إنسان ذلك العصر*. وكان هذا التطور يجرى بينما

* شهدت أقطار الشمال الأفريقى بعامة ظاهرة فنية أخرى ، مضاهية لظاهرة فن حوائط الكهوف، وهى ظاهرة النقوش والرسوم الصخرية . لكن ينبغى التنويه بوجود فروق جوهرية بين الظاهرتين ، يبعد أى شبه علاقة بينهما :

أقطار الشمال الأفريقي تمر بمرحلة تطور حضارى محلى تماما، تمثل فى تطور تقنى للصناعات العاتيرية التى كانت فى العصر الحجري القديم الأوسط، تخطو نحو صناعات حجرية بدائية فى خواتيم العصر الحجري القديم الأعلى، وبالنسبة لانتاجها من الأدوات العظمية جاء فقيرا فى تنوعه وخاليا من النقوش.

وليس معنى ذلك أن هناك فواصل ظلت قائمة بين أوربا والشمال الأفريقي بحيث اتجه كل منهما وجهة حضارية خاصة به.

وهناك رأى درج عليه بعض الباحثين ^(٢)، يفسر الصناعات القفصية* Capsien، التى انتشرت فى أرجاء الشمال الأفريقي، فى حدود الألف السابع ق.م. تقريبا، على أنها النظير الأفريقي للصناعات الأورنياسية الأوربية، وهى أولى المراحل الحضارية للبالبوليتى الأعلى الأوربي؛ والذي يقدر له علماء ما قبل التاريخ أنه بدأ فى أوربا منذ أربعين ألف عام أو خمسة وثلاثين ألفا من وقتنا الحاضر. واعتمد أصحاب هذا الرأى على وجود مشابهة بين أداة (الإزميل أو المحت) فى كل من الصناعتين. والمحت هو أداة الصناعات الأورنياسية المميزة، وكان أساسا أداة النقش على الأدوات العظيمة، وخاصة تلك التى من قرون الرنة.

= - تعاصر فن رسوم الكهوف فى أوربا، مع آخر عصر جليدى فى أوربا، والذي انتهى منذ حوالى عشرين ألف عام، فجاءت موضوعاته الحيوانية مقتصرة على حيوانات مرحلة الصيد . بينما فى شمال أفريقيا فإن هذه الظاهرة، لاتذهب عند أكثر الآراء تفاؤلا أبعد من الألف العاشر ق.م ثم هى تستمر فى التواجد لترصد بعد مرحلة الصيد مرحلة الرعى ثم مرحلة الحصان ثم مرحلة الجمل الذى عاصر الجفاف.

- اقتصر الأعمال الفنية فى أوربا على حوائط الكهوف وأسقفها ، واستخدامها للرسم فى التعبير مع استخدام ألوان طبيعية. بينما كان الحال فى شمال أفريقيا الاقتصار فى المراحل الأولى على أعمال النقش ، ثم فيما بعد مرس الرسم، وجاءت هذه وتلك فى مناطق مكشوفة بعيدة عن الكهوف .

- اقتصرت الظاهرة فى أوربا على تصوير حيوانات وبعض مشاهد الصيد ، بينما فى الشمال الأفريقي صور الإنسان، إلى جانب مشاهد الصيد ، والعديد من الموضوعات الأخرى من حياته وممارساته الطقسية، أنظر للباحث:

«الفن الصخرى فى بلاد المغرب» مجلة المؤرخ العربى، العدد السادس، المجلد الأول، القاهرة ، ١٩٩٨، ص٦٢ وكذلك:

«النقوش والرسوم الصخرية كسصدر للتاريخ» ، الدورية السابقة ، العدد السابع، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤١-٦٩ .

* نسبة إلى قفصة فى جنوب تونس .

ويدخل ضمن هذا الرأي ، موضوع صناعات حجرية عشر عليها أحد المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ فى مصر وهو الفرنسى فينيار Vignard^(٣) ، بالقرب من مصنع قصب السكر فى نجع حمادى بصعيد مصر . وأسماء لذلك بموقع (حقل القصب) Champ de Bagasse وكان وجود نسبة كبيرة من المحتات، أهم ما يميز هذا الموقع. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الأداة هى أداة الصناعات الأورنياسية المميزة.

وكان أن نسب فينيار الموقع المذكور إلى الصناعة الأورنياسية الأوربية، على الرغم من أن فينيار لم يعثر فى موقعه هذا على أى أثر لمحاولات نقش على قطع عظمية، بل لم يعثر أصلا على مثل هذه القطع.

بل إن فينيار ذهب فى تأويلاته المتعلقة بموقع نجع حمادى إلى حد القول بأن أصحاب هذا الموقع ليسوا أصليين، وأن أدوات نجع حمادى إنما هى ذات علاقة بقفصية تونس، وبالأدوات الأورنياسية الأوربية بمعنى أنها جميعا صناعات من أصل واحد، يرجع أصحابها فى أصولهم إلى آسيا، الذين أخذت هجرتهم وجهتين: وجهة فى اتجاه أوربا عن طريق وادى الدانوب والنمسا حيث أوجدوا الأورنياسية الأوربية. ووجهة أخرى نحو سوريا . وبالنسبة لقفصية تونس فإنها جاءت بها إما عن طريق شبه الجزيرة الإيطالية - صقلية - تونس، أو عن طريق الشرق من سوريا. أما بالنسبة لموقع نجع حمادى فإنه يرجع قدوم أصحابه عن طريق سوريا - فلسطين - مصر، دون استبعاد للطريق الآخر.

وهكذا صار علينا أن نتخيل العالم القديم فى ذلك الزمان وقد غدا ساحة مفتوحة خالية ترح فيها تلك القبيلة الأورنياسية كيف تشاء!

ويدخل ضمن الربط بين ما هو موجود فى أوربا وبين ما هو فى الشمال الأفريقى، ما عرف بالمشكلة السيبكية ، نسبة إلى موقع برج S'baika جنوبى مقاطعة قسنطينة بالجزائر ، حيث عثر ريجاس Rugasse^(٣) ، على عدد وفير من الأدوات الحجرية (٨٠٠٠ قطعة تقريبا) ، عرفها ريجاس على أنها تقنية تصنيع جديدة تمثل تطورا خاصا فى صناعة قبضة اليد Coup de poing الأشولية - صناعة الباليوليتى الأسفل - إلى الأداة الورقية الشكل السوليترية، التى هى ثانى مراحل الباليوليتى الأعلى الأوروبى، دون المرور بالصناعات المستيرية والأورنياسية .

وقد واجه هذا الرأي استهجانا واسعا من قبل أغلب المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ للشمال الأفريقى ، أمثال فوفري Vaufrey وبالو Balout واليمان Alimen. الذين أشاروا إلى غياب الأدلة الكافية للمجموعة الحيوانية، مما يشكك فى الوضع الطبقي للسيبكية^(٥).

وربما كانت آخر الآراء ، ما أثاره الباحث الفرنسى بلارى Pallary ، من بلبله فى تعريفه لأدوات حجرية، كان قد تم الكشف عنها فى مواقع أفريقية على الساحل الأطلنطى ، ثم تبين أنها تنتشر فى مواقع ساحلية أخرى، تمتد غربا من ساحل الأطلنطى إلى خليج قابس شرقا فى تونس* . وقد اعتقد بلارى أن هذه الصناعات الحجرية ذات علاقة بصناعات أخرى فى الجنوب الأيبانى، لذا أراد تمييز سمتها الجديدة، فأطلق عليها اسم الصناعات : Ibéro- maurusien ويتضح من تركيب الاسم الرغبة فى الإيحاء بوجود علاقات تقنية بين ما هو فى جنوب أسبانيا وما عثر عليه على سواحل المغرب، وهذا ما ثبت خطأه فيما بعد، ورغم تراجع بلارى عن أرائه، إلا أن التسمية ظلت مستعملة بحكم قانون الأسبقية^(٦).

* * *

ونتقل بعد ذلك إلى مشكلة ترتبط بهذا الموضوع ، هى مشكلة ذلك الانتشار الواسع للأدوات القزمية أو الميكروليثية Mécrolithiques ، الذى غطى كل من أوربا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، الأمر الذى أثار الافتراض بوجود موطن أصلى خرجت منه إلى بقية مناطق العالم القديم. وكان هذا الموضوع ضمن أهداف المؤتمر الدولى للأنتروبولوجيا وأثار ما قبل التاريخ الذى عقد فى جنيف سنة ١٩١٢ .

وفى هذا المؤتمر أعلن عالم ما قبل التاريخ الفذ بريل Breuif أنه إذا ما أريد البحث عن أصل هذه الصناعات القزمية، فإنه يتعين علينا البحث عنها فى مكان ما جنوب البحر المتوسط^(٧). والذى حدث بعد هذا المؤتمر وهذا الإعلان بحوالى عقد من الزمن، أن كشف فينيار Vignard فى وادى كوم أمبو بصعيد مصر، عن أشهر مواقع ما قبل التاريخ فى مصر بالقرب من قرية «سبيل» الواقعة فى هذا الوادى، وهو ما عرف فيما بعد بالصناعات السبيلية^(٨).

وترجع أهمية هذا الكشف إلى أنه جاء على مستويات ثلاث متدرجة ومتوالية فى الزمن، حيث يعبر المستوى الأول عن صناعات موسديرية صميّة- باليوليتى أوسط- والمستوى الثالث عن أدوات ميكروليثية هندسية الشكل- باليوليتى أعلى- أما المستوى الثانى فيمثل الانتقال من الموسديرية إلى الميكروليثية.

* هذه الصناعات التى ارتبطت بمواقع ساحلية كونت مع الصناعات القفصية القائمة فى الداخل، ما يعرف فى حضارة المغرب القديم بمرحلة آل épipaléolithique وهى تمثل المراحل الختامية للعصر الباليوليتى الأعلى للشمال الأفريقى.

ويتضح فى «سبيل» بما لا يدع مجالا للشك، التطور التقنى من صناعات الشظايا فى الباليوليتى الأوسط، إلى صناعات شفرة فى الباليوليتى الأعلى، وهو الوضع الذى يجعل من «سبيل» الموقع الوحيد فى العالم، الذى يجسد هذا الوضع الطبقي الصريح.

ويبدو أن فينيار Vignard استحضّر دعوة بريل Breuil السابقة إذ يعلن أنه عثر فى «سبيل» على أصل الأدوات الميكروليثية فى العالم. وأنه من «سبيل» خرجت هذه الصناعات إلى سوريا وأوربا وأفريقيا بل وصلت إلى الهند . وأن صناعات هذه المناطق ليس لها نقاط مشتركة مع المستوى الثالث فى «سبيل» ، بل هى مستقة منه.

والحقيقة الماثلة هى أنه منذ اكتشاف فينيار فى «سبيل» لم يبق أمامنا فى مجال الكشف العلمى لعصور ما قبل التاريخ أكثر مما عثر عليه فى كوم أمبو، الأمر الذى يجعل من آراء فينيار عن «سبيل» أمرا من المحال تجاهله .

* * *

ثم كان أن حلت مرحلة العصر الحجري الحديث وظهور الفخار فى الشمال الأفريقى .

ويكتسب الفخار فى الدراسات القديمة، أهمية خاصة، تميزه عن غيره من المواد الأخرى، كالحجر أو العاج أو العظم ، فهذه كلها مواد صلبة تفرض خصائصها الطبيعية، على الصانع، حتى مع نهجه نهجا معينا أو ابتداعه لتقنية خاصة فى تصنيعها. وبسبب ذلك كثيرا ما تتقارب تقنيات التصنيع وتشابه الأدوات، مما يكون مدعاة لكثرة التفاسير.

والواقع أن هذا يوضح لماذا تكثر الآراء وتتعدد أحيانا وقد تتضارب أحيانا أخرى عند تفسير طبيعة هذه المواد المصنوعة من الحجر أو العظم أو ما شابه ذلك. وبالنسبة لأقطار الشمال الأفريقى فإنها شهدت مثل هذه القضايا الخلافية، لأنها قامت فى أساسها على اتخاذ مادة الحجر عنصرا رئيسيا فى تطورها الحضارى. ولتفسير ذلك نقول إنه لكى يتم تصنيع الأنية الفخارية ، فإنه يتعين على الصانع أن يقوم بتصنيع عجينة لينة، يتم تجميع عناصرها من مواد محلية فى أغلب الأحيان. والذى يحدث أن هذه العجينة تكون بين أصابع الصانع قابلة لأن يشكلها حسبما يتراء له. فعملية التشكيل هنا غالبا ما تكون قريبة من نفسية الصانع ، حيث يطبع فيها شخصيته وأحاسيسه ، وربما انفعالاته الوجدانية، وسرعان ما يتكون فى جلاء غط محلى يسود الإقليم، ويكون واجهة له ثم يصيح من اليسير التعرف على الأنماط المختلفة وتحديد مناطقها، ورصد أى أنماط غريبة ومعرفة أصولها.

ونستطيع أن نطبق هذا فى حالة فخار المغرب القديم. حيث فى الإمكان، التعرف فى جلاء وكثير من اليقين ، على العناصر الأجنبية الوافدة من خارج أقاليم المغرب وتحديد مواطنها. والحقيقة الماثلة فى حالة فخار المغرب القديم، أنه رغم اتساع رقعة أقطار الشمال الأفريقى، إلا أن الفخار الذى خلفته جاء فخارا خشنا ضعيف البهجة فى الغالب الأعم. وقد عزت الدراسات التى تناولته سبب ذلك إلى منافسة بيض النعام. ويتضح ذلك بشكل جلى فى الأقاليم التى كانت ضمن نطاق الحضارة القفصية، إذ يبدو أن أصحاب هذه الحضارة كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم التى ورثوها قبل ظهور الفخار فى العصر الحجرى الحديث. ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن طائر النعام يعد من الطيور الحيوانية التى تأكد وجودها فى الشمال الأفريقى، ربما حسبما يعتقد فوفريى Vaufrey منذ مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل^(٩). والواقع أنه قلما تخلو طبقة أثرية فى بلاد المغرب من تواجد بيض النعام أو قشوره. ويبدو أن هذا الطائر كان من أوائل الأنواع التى تم استئناسها وتربيتها فى حظائر خاصة.

والواقع إن الفخار فى المغرب عانى كثيرا من منافسة بيض النعام، فلم تخرج الأوانى فى تكوينها عن القاع المخروطى، مما يصعب تصور الكيفية التى كان يتم بها تثبيت الإناء فى وضع مستقر. على أنه كان يتم حمله داخل سلة من نسج الحلفاء ويعلق، وربما كانت هذه هى الطريقة التى كان يتم التعامل بها مع بيض النعام، الذى استخدم كقوارير بشكل شائع فى مناطق المغرب. ويبدو أن إنسان المغرب ألف مثل هذه العادة، ولم يشأ أن يبدلها وهذا قد يفسر البطء الشديد الذى اتسم به تطور الفخار المغربى.

والغريب أن كلا من الفخار وبيض النعام تبادلا تأثيرات سلبية ، فى مرحلة العصر الحجرى الحديث أخذ دور بيض النعام فى التضائل ، ونتيجة لظهور تقنية جديدة ذات إمكانيات إضافية تتمثل فى الفخار، وفى المقابل عانى الفخار من منافسة بيض النعام، مما كان سببا فى بطء تنطوره ، فجاءت تكويناته محدودة للغاية ، تفتقر إلى دقة التنفيذ وقلّة أساليب الزينة وفى الحقيقة أن هذه هى الصفات التى اكتسبها الفخار المغربى داخل نطاق الأقاليم، وخضعت للتأثير القفصى. أما بعيدا عن هذه المناطق، فى اتجاه الشمال نحو الساحل فى الجزائر، وامتدادا غربا حتى سواحل الأطلنطى فى المملكة المغربية أى بعيدا عن التأثير القفصى، فإن هذه المناطق كانت أكثر استجابة ومسايرة للتطور وتأثرت بالمأثورات الأجنبية .

وهكذا أمكن تحديد الطبقات الأثرية، في الجهات التي أشرنا إليها، والتي ثبت بشواهد أثرية يقينية أنها تأثرت بالفعل، بما كان يدور على الساحل الآخر المقابل، في الجنوب الأسباني، وعلى وجه الخصوص ساحل المرية*.

ويعبر فخار هذه الأماكن عن تنوع ملحوظ للنماذج، فجاءت الآنية بعيدة عن الشكل المخروطي، تحمل تقنيات جديدة لتحقيق زينة الجدران^(١٠)، وجرى الحديث عن نوع من الفخار حمل اسم الفخار الكارديالي Cardiale، نسبة إلى وحدة الزينة التي على جدران الآنية، والتي تمت بواسطة طبع صدفه ال Cardium. كما عرف نمط آخر من الفخار سمي بالفخار ال Cannelée حيث يتم عمل حروز عريضة على جدار الآنية فتبدو في شكل قنوات هي إلى التجاعيد أقرب.

وهناك نمط ثالث، ربما كان أكثر شهرة من سابقه في حوض البحر المتوسط، ويعرف بالفخار الكأسي Campaniforme، وفيه تكون الآنية كالكأس أو الجرس المقلوب، وربما يلاحظ أن هذا النوع أخذ تسميته من شكل الإناء وليس من أسلوب الزينة، وإن كان لزاما على الصانع اتباع أسلوب زينة محدد بواسطة المشط، مع استخدام وحدات خاصة على جدار الإناء أصبحت مرتبطة بهذا النوع^(١١).

أما على الساحل الأطلنطي، فلا بد من الإشارة بصفة خاصة، إلى جبانة الكفن El Kiffen من نواحي قماريس، حيث تم الكشف عن مقبرة جماعية، يمثل فيها الفخار كمنقولات جنائزية، وهي حالة فريدة تخالف ما وجدت عليه بقية الطبقات الأثرية في دول المغرب العربي القديم: تونس، والجزائر، والمملكة المغربية. وأمكن الحصول من هذه المقبرة، على عدد من الأواني كبيرا نسبيا (٥٨ آنية سليمة أو يمكن ترميمها) وقد لوحظ أن الأواني لها أشكال جديدة، غير ما كانت عليه في بقية مواقع الشمال الأفريقي. ومن المعتقد أن هذه المقبرة، وربما كانت تعود زمنيا إلى العصر الحجري الحديث المتأخر^(١٢).

وجاءت حالة مقبرة الكفن، حالة فريدة. ولذا تحاول الدراسات البحث عن أصل هذا الفخار وعن مدى انتشاره. وإن كان الاعتقاد الغالب أنه يعود في أصوله إلى الساحل الأسباني وخاصة ساحل المرية.

* جاء في تحديد أشهر هذه الطبقات الأثرية في إقليم وهران: كهف أشكار Achakar والخويل Elkhiril ومحطة كاحل Car Kahel وكهف تحت المحطة Caf that el gar، أما في الساحل الأطلنطي فهي جبانة الكيفن ElKiffen (قماريس) والمهدية ودار السلطان.

خاتمة البحث

إن أقطار الشمال الأفريقى العربية كانت بمثابة العالم القديم الحقيقى فيما قبل العصور التاريخية وقبيل انبثاق الحضارات القديمة. ذلك أنها كانت تعيش حضارة حقيقية بتقنياتها المبتكرة فى مجال تصنيع الأدوات، وعندما شارفت هذه العصور على نهايتها تفجرت فى أرجاء هذا العالم الخاص، طاقة فكرية وفنية إبداعية، هى الفريدة من حيث ثراء موضوعاتها أو تعدد أساليبها .

وقد أظهر الواقع الأثرى لمجتمعات شمال أفريقيا أنها كانت لها حضارتها الخاصة، وأن هذه الحضارة كانت ذات خصوصية انفرادية إلى حد ما. والملاحظ على هذه المجتمعات أن ميلها نحو عقد الصلات، إنما كان فى حدود الشمال الأفريقى - عالمها الخاص - دون إبداء الرغبة فى النظر إلى ما وراء البحر المتوسط، أو معرفة ماذا يدور شماله*.

قد يكون السبب فى ذلك، راجعا إلى عظم مساحة الشمال الأفريقى، وتجاور مجتمعاته، وتنوعها وسهولة المسالك ووفرته فيما بينها، مما أغناها عن التفكير فى مخاطر ركوب البحرا ويمكن القول بقدر كبير من اليقين، إنه فيما قبل العصر الحجري الحديث العام للشمال الأفريقى، عاش كل من العالمين : الشمال الأفريقى والأوروبى، حياته المستقلة، منفصلا عما يدور فى العالم الآخر. ولايسعنا فى هذا الصدد إلا الأخذ بالأسباب البيئية واختلافها فى كلا العالمين. فقد عاشت أوربا تحكمها ظاهرة عبور الجليد التى يتخللها فترات دفء، وهذه أو تلك كانت تغير من الوسط البيئى بكل عناصره الحيوانية والنباتية، وكان على الإنسان أن يشكل استجاباته بما يتلاءم ومقتضيات الأجواء .

وشواهد الأحوال تظهر أن إنسان العصر الحجري القديم الأعلى فى أوربا، الذى عاصر آخر عصر جليدى، مع اضطرابه إلى المكوث طويلا فى الكهوف، اكتملت مداركه الفكرية، وتكونت هواجسه الدينية! وقلكته الرغبة فى التعبير، فأخرج فنا راقيا ورائعا، بلغ به ذروة لم يبلغها غيره فى أى مكان آخر فى زمانه .

* ربطت كثير من الدراسات بين صلات وعلاقات حضارية بين مناطق تقع فى قلب الصحراء حاليا، كم منطقة تبستى وبين مراكز حضارية فى وادى النيل كمرمدة والفيوم ومناطق أخرى (مصر) وحضارة الخرطوم (السودان) .

أما في شمال أفريقيا فقد كان الحال مغايرا تماما، إذ تتابعت على أقاليمه ظاهرة مناخية مختلفة عما في أوروبا، عصور من المطر الغرير، يفصلها فترات جفاف، وكان يمكن في مثل هذه الحالات، أن يحدث لمظاهر الحياة الحيوانية والنباتية أن تهاجر إلى الجنوب، لتعاود رجوعها عند تحسن ظروف المناخ. وكانت الكهوف الكثيرة التي تميز بها الشمال الأفريقي بشكل عام، ملاذا نموذجيا لإنسان هذا الوسط، فلم تنقطع حضاراته، وداومت مجتمعاته على البقاء.

ومع حلول مرحلة العصر الحجري الحديث، وما جاءت به من وفرة في إنتاج الطعام، دعت الحاجة إلى تصريف الزائد منه .. ومقايضته ببعض الاحتياجات الأخرى الضرورية، في الوقت الذي سمحت به هذه المرحلة المهمة في تطور المجتمعات، أن يقوى التنظيم الاجتماعي للكائنات القائمة، أي بمعنى أشمل أنه قد تم تهيئة الأسباب لعقد الصلات الخارجية وتبادل العلاقات عبر مناطق لم تكن مألوفة من قبل.

والواقع أنه لا يمكن الجزم بالكيفية التي تمت بها هذه الصلات أو متى تمت على وجه التحديد، وعما إذا كانت قد تمت بواسطة اتصال مباشر بين مناطق جنوب أوروبا وشمال أفريقيا أم أنها تمت بشكل غير مباشر، وهو على ما يبدو الأرجح. ونحن في هذا الصدد لانستطيع أن نغفل نمو الدور الفينيقي في حوض البحر المتوسط، وتزايد مع ازدياد نشاط المدن الفينيقية، وخصوصا في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وانتشار المحطات الفينيقية في جزر وعلى شواطئ البحر. خاصة أن من حسن الطالع أن يترك لنا الفينيقيون دليل وجودهم على أرض الشمال الأفريقي ربما فيما يعتقد أنه حوالي ١٢٠٠ ق.م*. ويبدو أن الصلات تمت بين جنوب أوروبا، وشمال أفريقيا في شكل تبادل لسلع يسهل حملها عن طريق التجارة، أو استعارة تقنيات تتعلق بصناعة الفخار وتزيينه. ولكن حالة مقبرة الكفن ElKiffen، تشير إلى أن هذه الصلات أخذت شيئا فشيئا طابع علاقات محكية بين العالمين، وخصوصا عندما نجد ضمن مقتنيات عشر عليها في بعض المواضع أشياء لا يتضح لها استخدامات عملية، أو منحوتات على هيئات رمزية، كما في حالة أشكال كهف أشاكار أو كهف المعبودات^(١٣)، أو صنعت من مواد جلبت من خارج أقاليم المغرب، مما يعني أن أقطار المغرب العربي القديم، قد خرجت من عزلتها الاختيارية السابقة، وأخذت في الاندماج مع التيارات الثقافية الحديثة التي كان يوج بها عالم البحر المتوسط حينذاك.

* تمثلت هذه الشواهد في بعض الأدوات المعدنية عشر عليها في طبقات أثرية على الساحل، وكذا في طبقات أثرية في المغرب الأقصى وبين النقوش الصخرية لجبال أطلس العظمى في موقع مراكش.

Vaufrey, R., Op. cit, p. 339 . Alimen, H., Op. cit, p. 90 .

الهوامش

- 1- El Cherif, H., " Outils Lithiques a Danfik" (Nagade), A.S. A.E., t. LXXII, Le Caire, 1993, p. 100, pl. VI no . 5 et 6 .
- 2- Morgan, J. de., Capitan , L. et Boudy, P. Etude sur les stations prehistoriques du sud tunisien. Revue de l'Ecole d' Anthropologie t. 20, L 910, pp. 105-196, 206-228, 267-286, et 335-347, t. 21, 1911 , pp. 217-228 .
- 3- Vignard, E., " Une station Aurignacienne à Nag Hammadi".
(Haute Egypte) Station du champ de Bagasse. "B. I.F. A.O., XVIII, 1921 .
- 4- Reygasse, M. Les ages de la Pierre dans l'Afrique du Nord (Algerie) . Une brochure in -8 de 34 pages, extraite de " Histoire et Historiens de l' Algeria". Chapitre II. Collection du Centenaire de l' Algerie (1830-1930), publiee par le soin de la Revue historique , pp. 37-70 1931 ,
- 5- Vaufrey, R., Prehistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1955, pp. 121-123 .
- Balout, L., Prehistoire de l'Afrique du Nord , Paris, 1955, p. 454 .
- Alimen, H., Prehistoire de l'Afrique, Paris, 1966, p. 65 .
- 6- Vaufrey, R., Op. cit., p. 257 .
- 7- Breuil (H.) Les subdivisions du Paleolithique superieur et leur signification . Congres international d' Anthropologie et d' Archeologie prehistoriques. Compte rendu de la XIV Session, Geneve, 1912, pp. 165-238 , 47 figures.
- 8- Vignard, E., "Une nouvelle industrie lithique Le sebilien ", B. I. F A.O., XXII, 1923 , pp. 1-76, avec 24 pl .
- 9- Vaufrey , R., Op. cit., p. 383 .
- 10- Camps- fabrer, H., MATIERE ET ART MOBILIER dans la prehistoire nord - Africaine et Saharienne , Paris, 1966, p. 391 , ff.
- 11- Tarradell, Notica sobre la excavacion de Gar Gahal. Tumude, II, 1954, pp. 344-358 .
- Id., Avance de la Primera campana de excavaciones en Caf Taht el Gar Ibid.. III, 1955 , pp. 307-325 .
- Id., Gar cahal y su aportacion al concimiento de la Edad del Bonce en el extremp

occidental del Mediterraneo- IVe Congr . nacion . de Arqueol, Burgos, 1955, pp. 101-112 .

- Id ., Caf Taht el gar . Cueva neolotica en la region de Tetuan (Marruecos) Am-
puries, 19-20 , 1957-1958 , pp. 137-166 .

وكذلك أعمال A. Jodin فى:

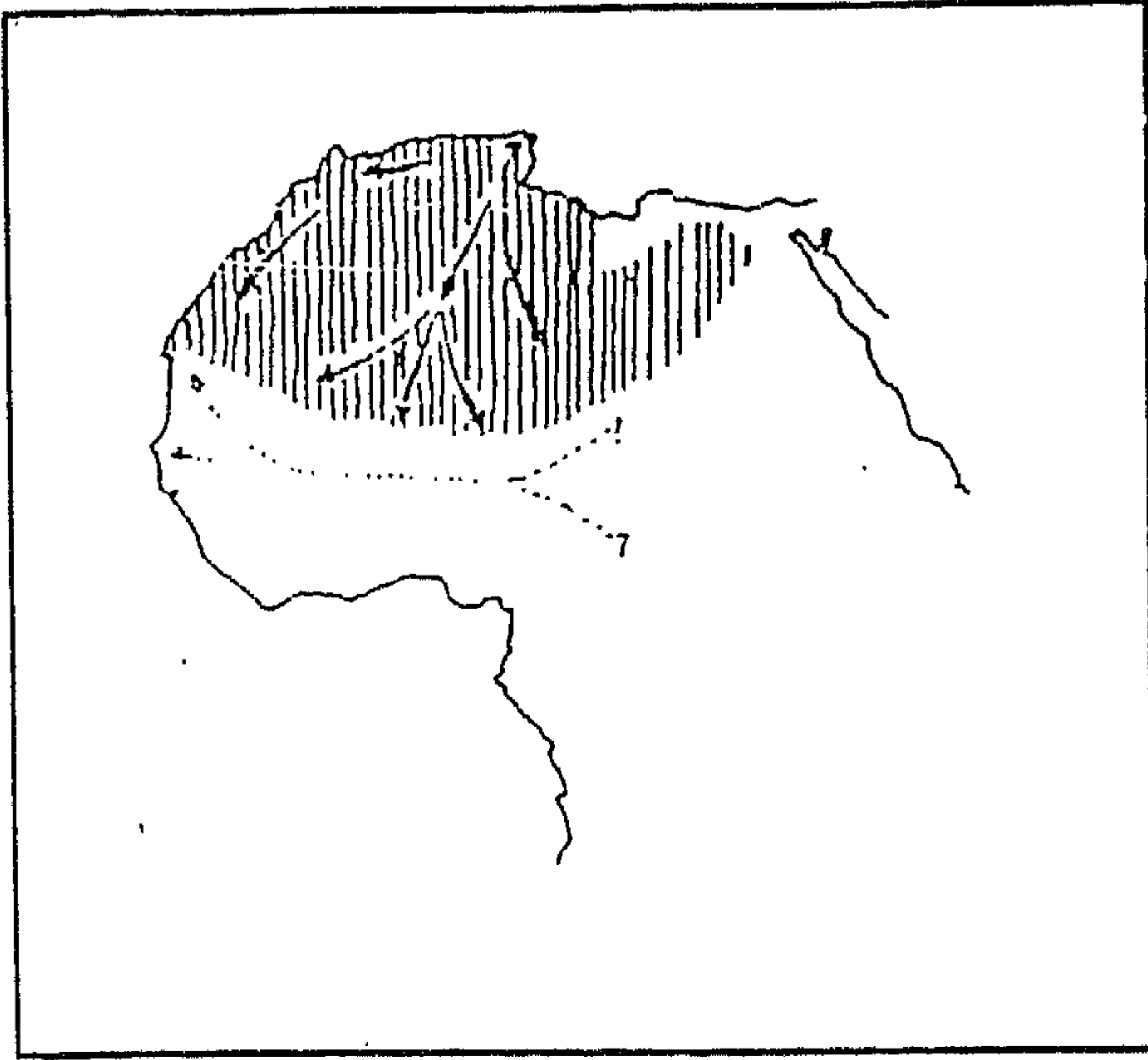
- Jodin, A., les grottes d'El-Khril a Achakar, Bull. d'Archeol. Maroc . t., 3, 1958-
1959, pp. 250-313 .

- Id., Nouveaux documents sur la civilisation du vase campaniforme au Maroc. XVIe
congr. prehist . De France, Monaco, 1959, pp. 677-687 .

بالإضافة إلى :

- Camps, G., en collaboration avec Souville , g., La civilisation du vase cam-
paniforme (intervention au colloque atlantique de Brest, Septembre 1960) . Les civil-
isations atlantique du Neolithique a l' age du Fer , Rennes, 1963 .

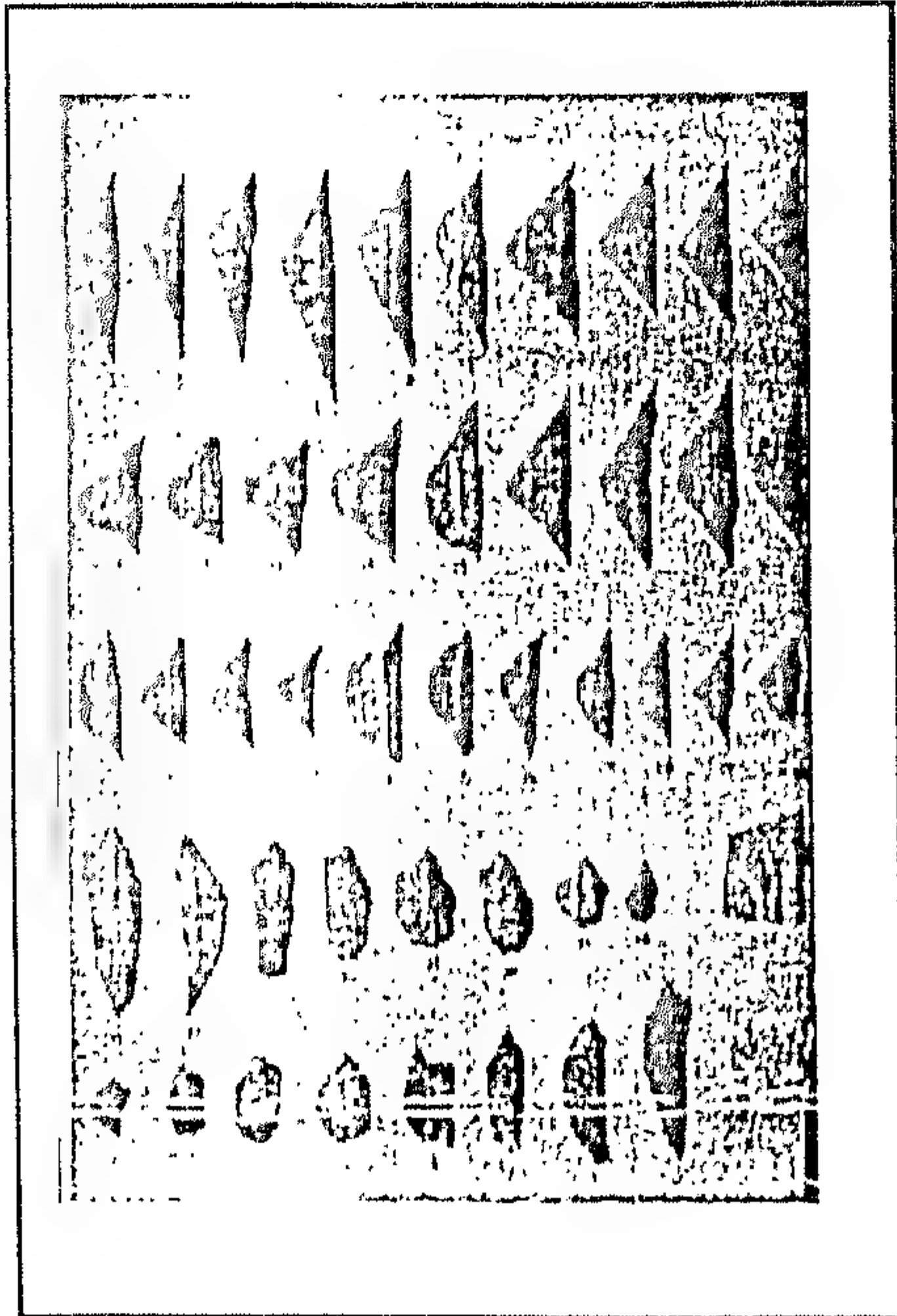
12- G. BAILLOUD et P. MIEG DE BOOFZHEIM , avec la collaboration de H. BAI. FET
et Ch. KIEFER, La necropole neolithique d'El- Kiffen pres des Tamaris (Province
de Casablanca, Maroc). Libya, Anthropol. Prehist. Ethnogr., t. XII, 1964 , pp. 95-171.



مناطق عاتيرية

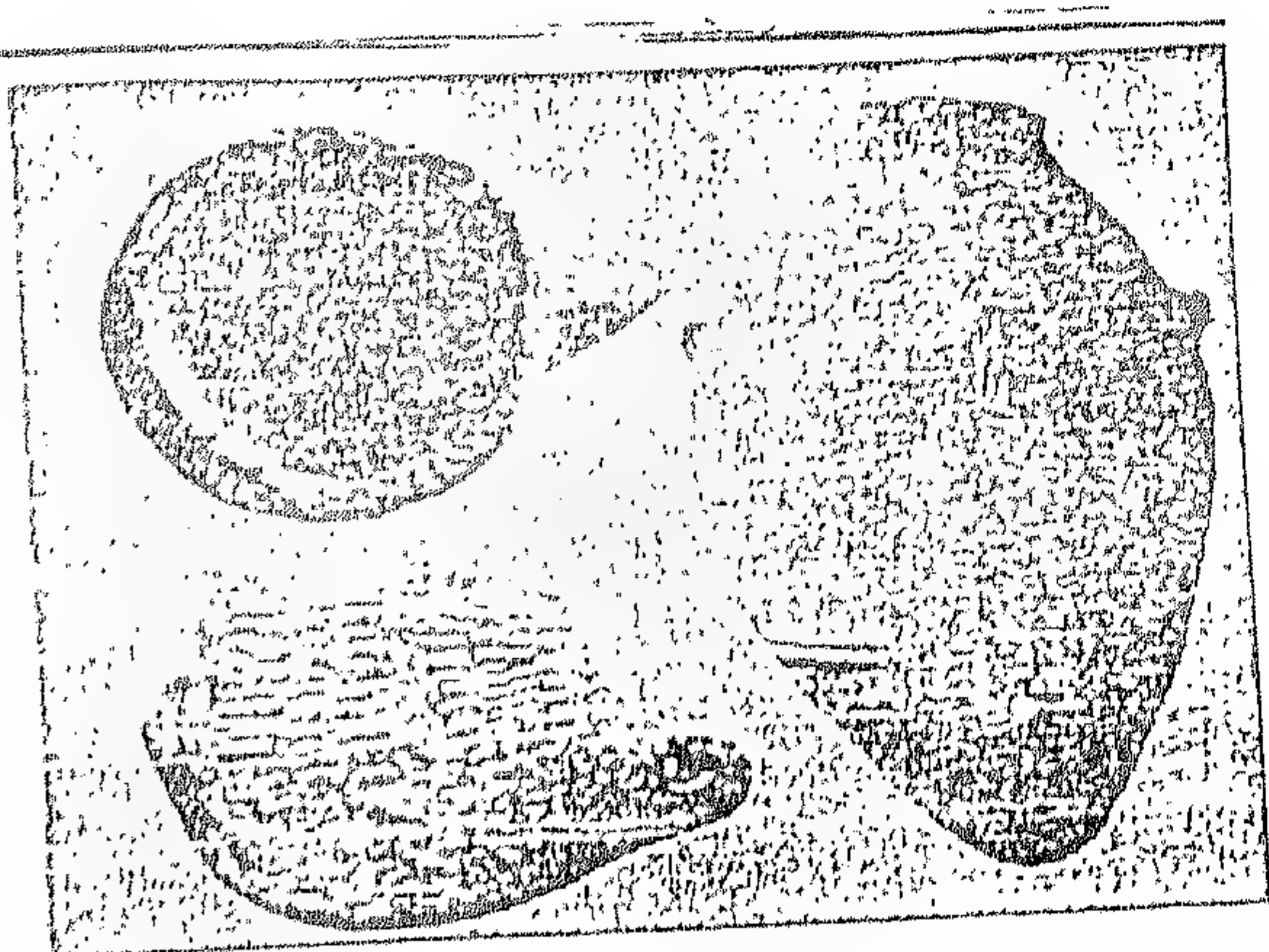
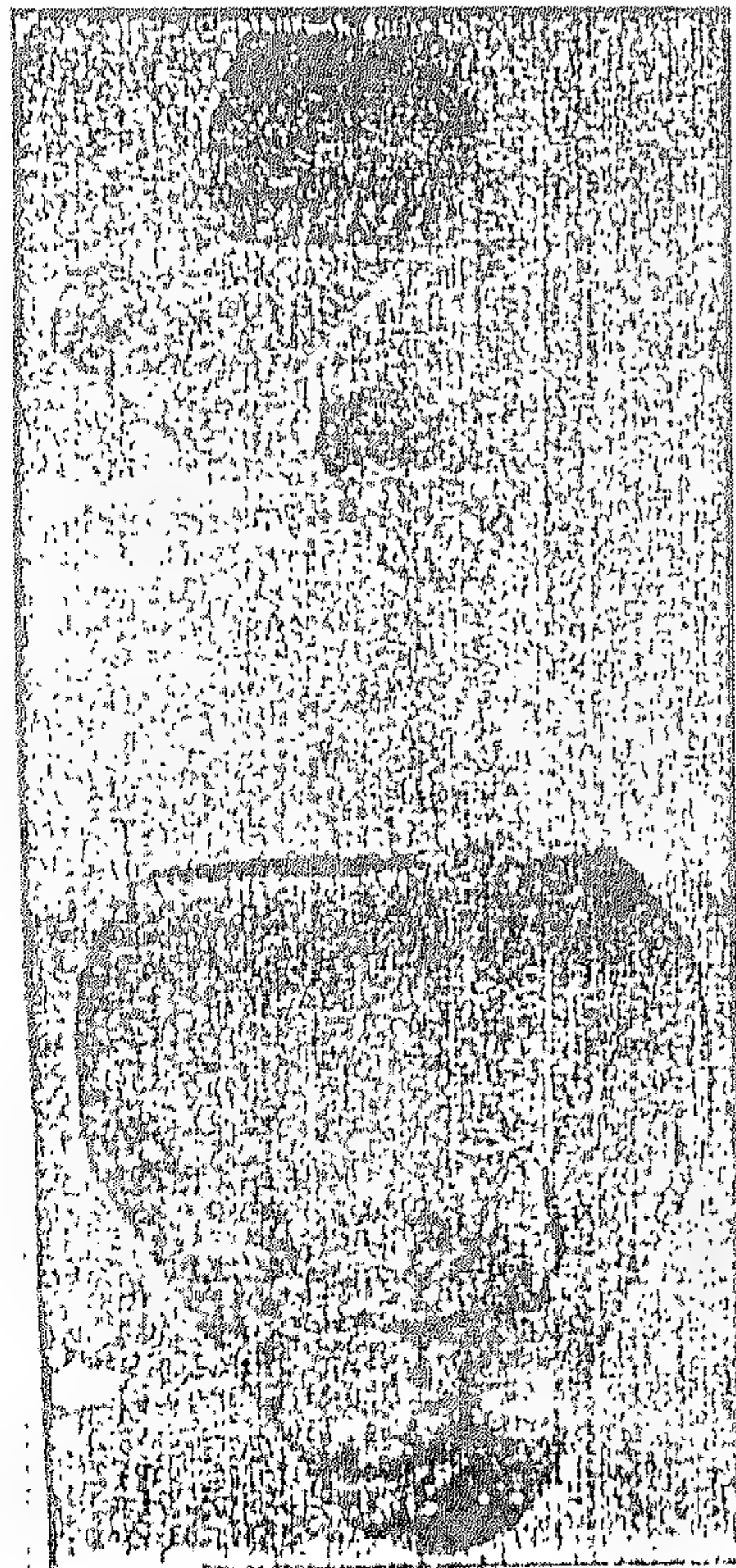
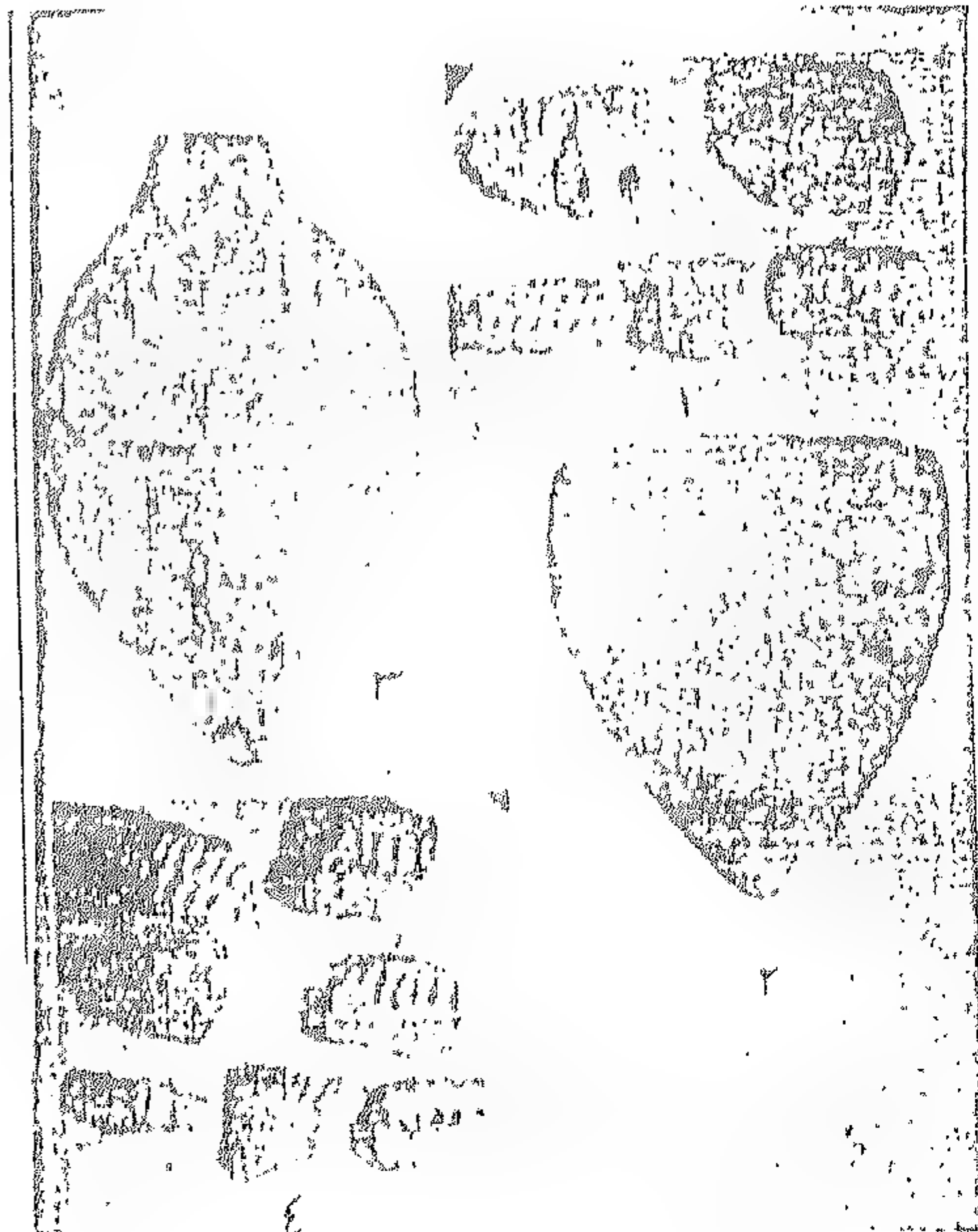
مسار الحضارة العاتيرية (افتراضى)

مسار المؤثرات الحضارة المستيرية الجنوبية . عن : J. Tixier

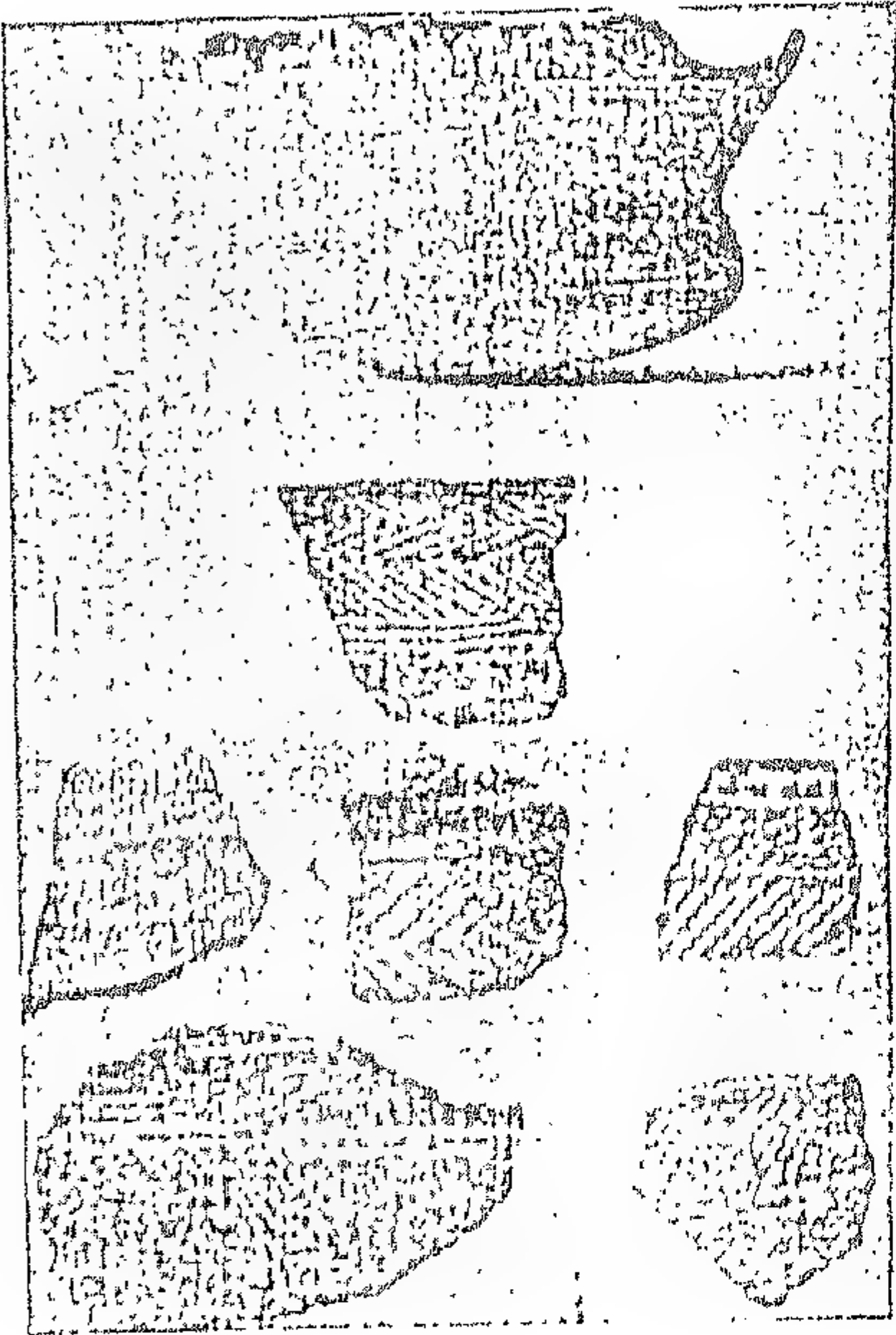


الصناعات القفصية وقد كثرت بها المحتات (الصفان الأخيران) . عن : Vaufrey

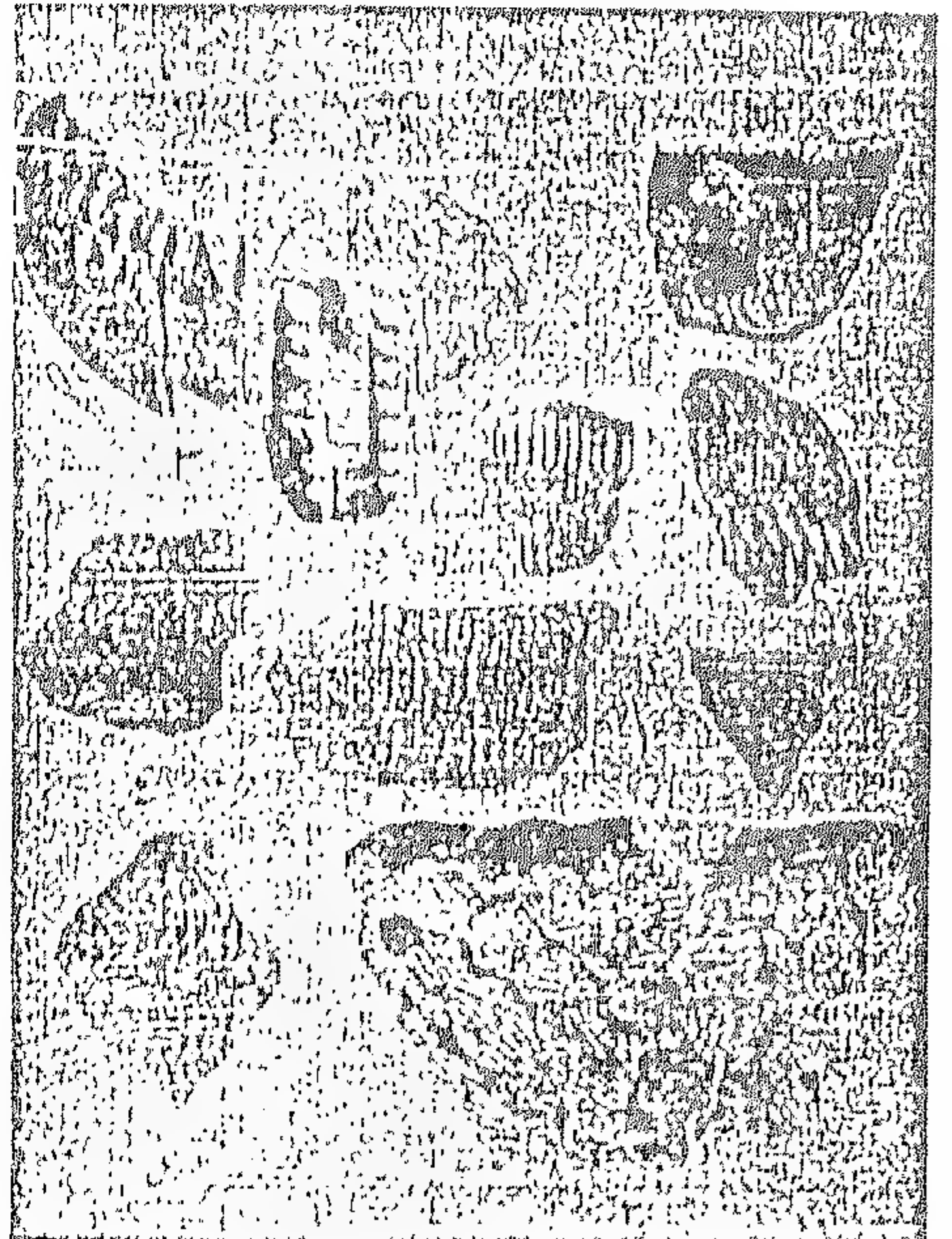
نماذج من الفخار المحلي للمغرب القديم
ويلاحظ انعدام أو قلة الزينة وبساطة الإلهام وقلة حذق التنفيذ.



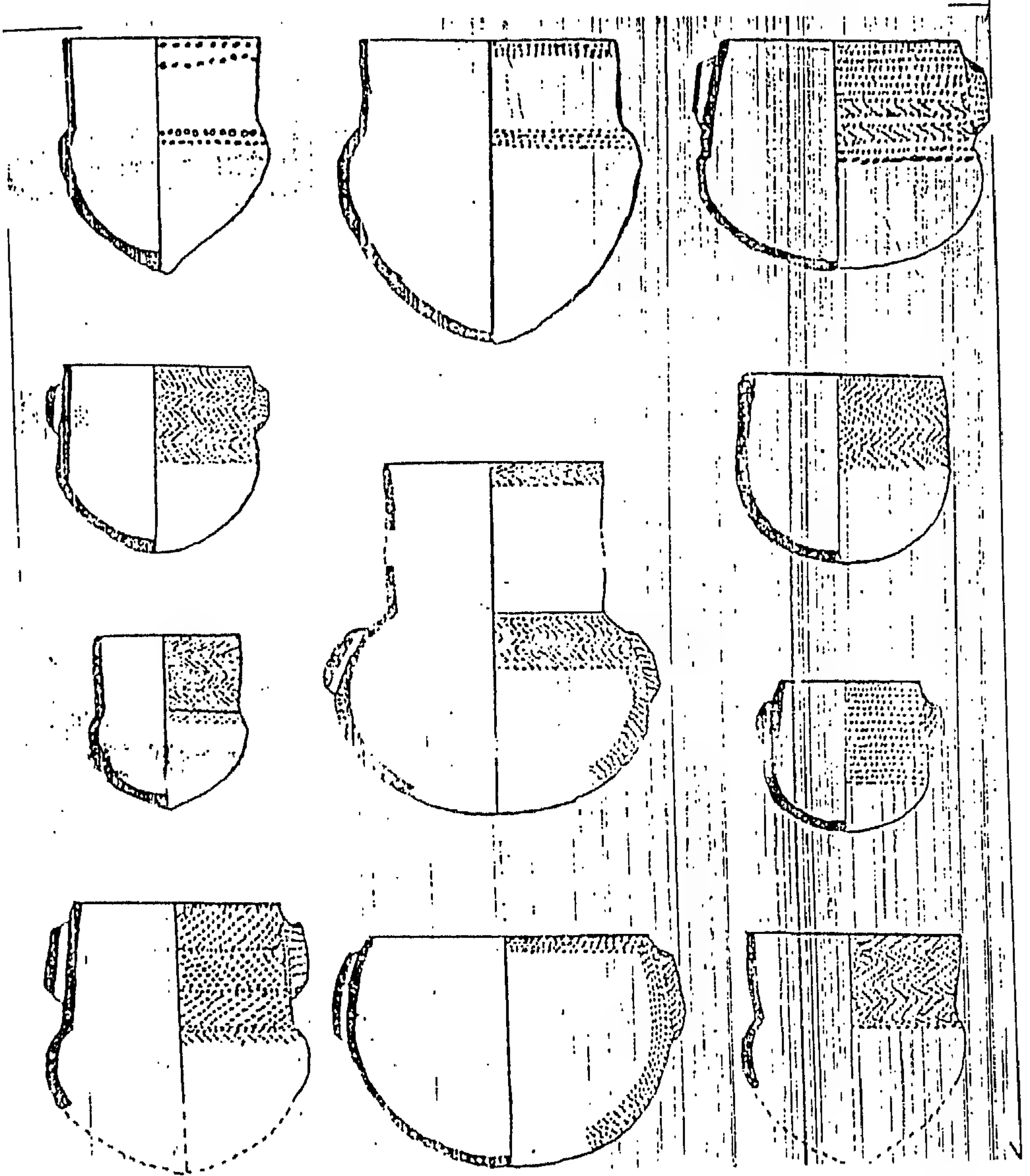
أشكال هذه اللوحة واللوحة التالية عن : H. Camps- Fabrer



آنية دار السلطان
وهي النموذج الوحيد الكامل من الفخار الكأسي

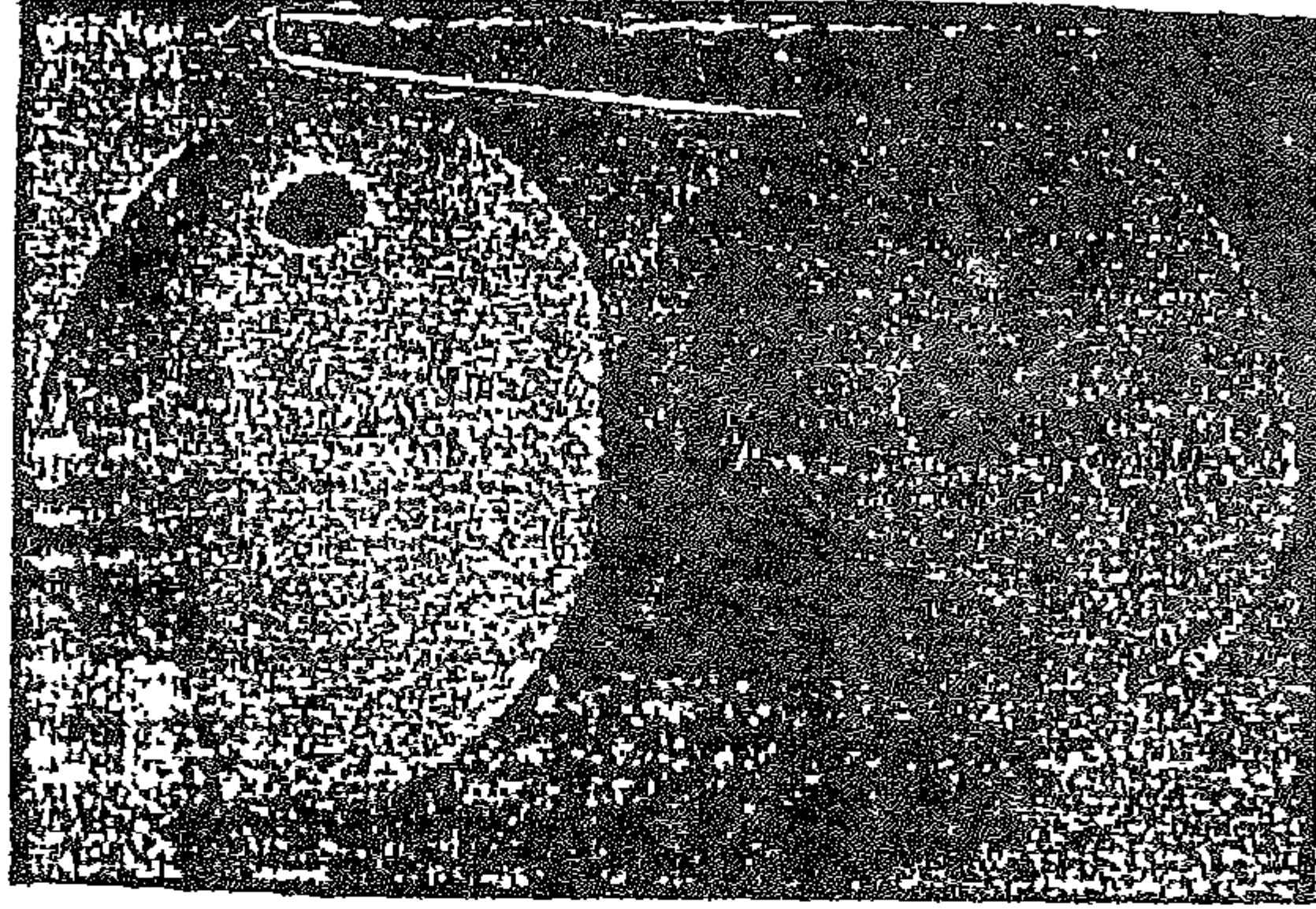


فخار طبقة الخريل - أشكار
الزينة تمت بواسطة صدفة الكارديوم

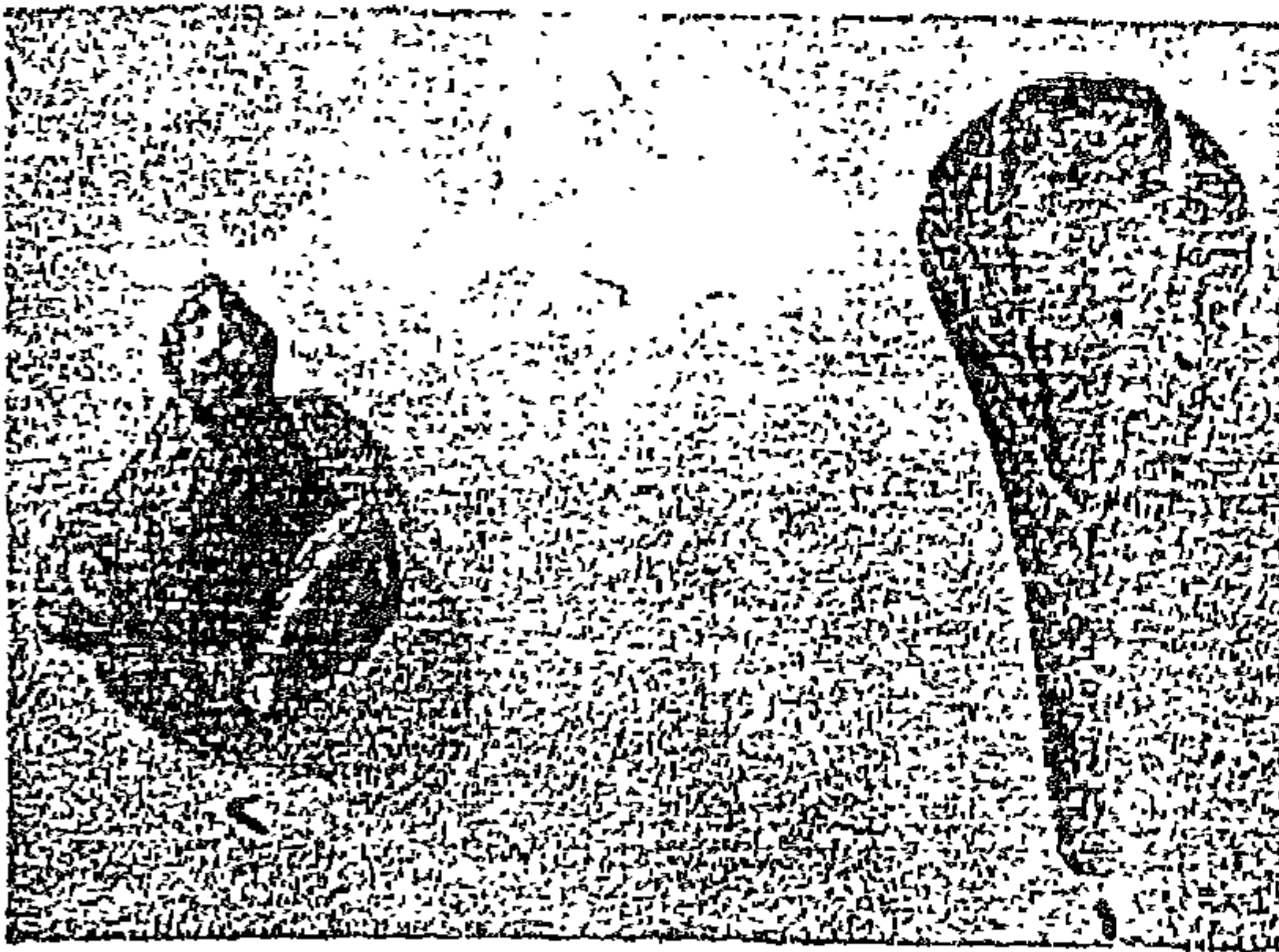


فخار المقبرة الجماعية في الكفن

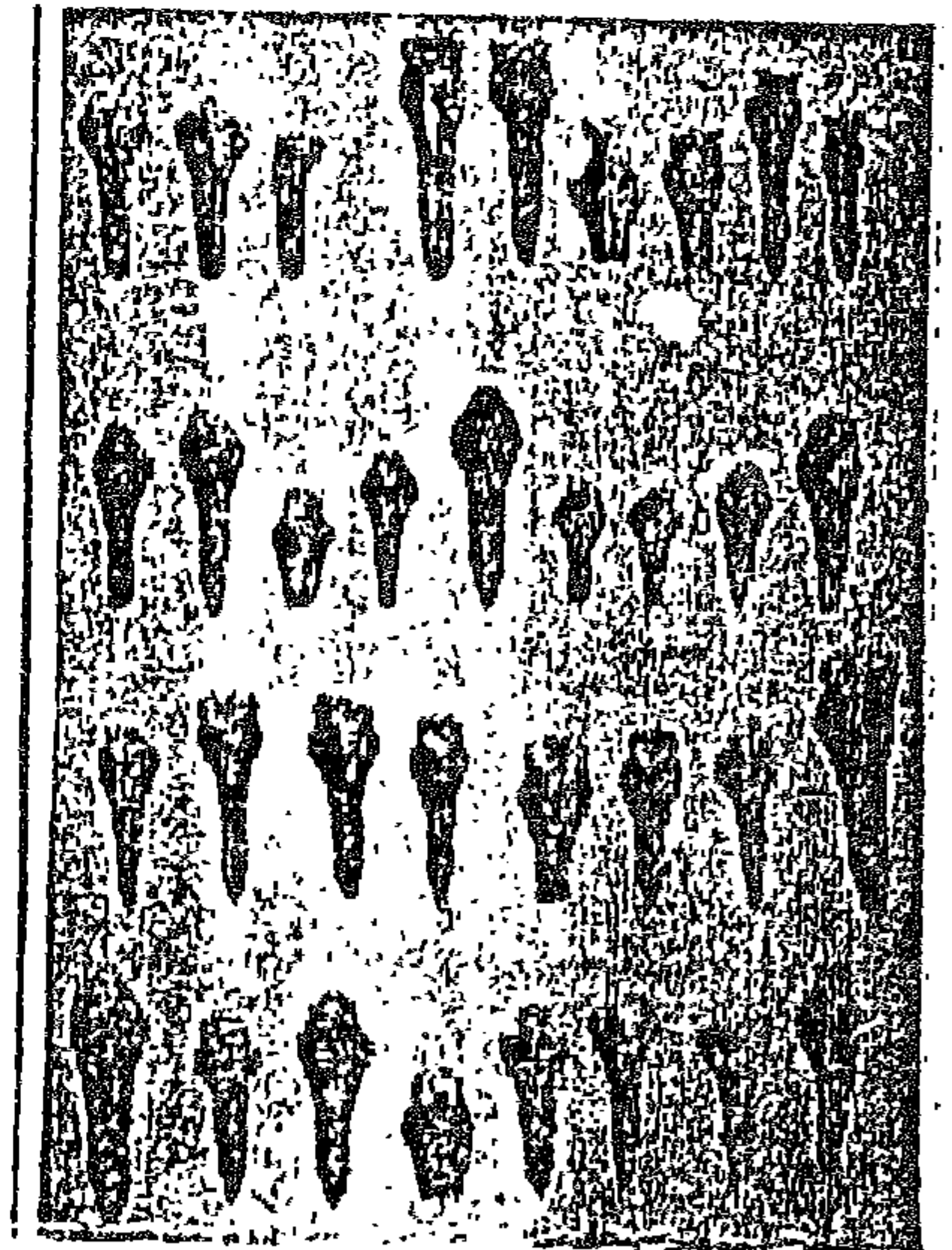
ويتميز بتنوع تكويناته وإن كانت الزينة ذات رتبة ملحوظة
وقمت بواسطة المشط إلا استثناءات قليلة واللازمة قليلة التنوع



استخدام إنسان الحضارة القفصية بيض النعام كقوارير بعد
ثقبها وتفرغ ما بها، وكان ذلك قبل توصله لصناعة الفخار.



تمثال آخر من الحجر يشبه أشكال أشاكار مع
تمثال آخر (على اليسار) ولكنه أخذ هيئة
مغايرة (هيئة تمائيل بوذة؟)



تمثل أشكال كهف المعبودات (أشاكار)
تأثر بعض مناطق المغرب القديم بالتيارات
الثقافية التي سادت عالم البحر المتوسط.
وتؤخذ على أنها إما تمائيل أمومة أو رموز
قضيبيية ترتبط بمعنى الخصوبة

د. توفيق محمد الشريف *

ضبط سنى الأحداث التاريخية لبلاد المغرب فى عصر الفتح الإسلامى (٦٢-٩٢هـ / ٦٨٢-٧١١م)

اختلفت مصادر التاريخ الإسلامى فى ضبط سنى الأحداث التاريخية، التى وقعت فى عصر الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، وذلك منذ ولاية عُقبة بن نافع الفهرى الثانية على إفريقية والمغرب سنة ٦٢هـ / ٦٨٢م، إلى بداية فتح بلاد الأندلس فى ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب سنة ٩٢هـ / ٧١١م. وقد حدثت فى هذه الفترة التى تزيد على ربع قرن - نحو ٣٠ سنة - أحداث مهمة وإنجازات عظيمة، غيرت مجرى التاريخ فى بلاد المغرب، الأمر الذى لفت نظرى فيما اطلعت عليه من مراجع حديثة^(١)، وقد استرعى نظرى على وجه الخصوص نقد الدكتور صابر دياب لهذه الظاهرة^(٢).

وقد أجمعت بعض المصادر التاريخية التى تمكنت من الاطلاع عليها، والتى تعنى بتاريخ المغرب فى هذه الفترة، على تحديد ولاية عُقبة بن نافع الفهرى الثانية لبلاد المغرب بسنة ٦٢هـ / ٦٨٢م، وذلك من قبَل الخليفة الأموى يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ / ٦٨٠-٦٨٣م)^(٣). فلما قدم عقبة بن نافع إلى القيروان، استخلف عليها زهير بن قيس البلوى

* قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

وخرج بجنده غازياً في نواحي بلاد المغرب ، حتى دوح البربر في حروب متصلة، ووصل إلى السوس الأقصى، وفي طريق عودته إلى القيروان، توقف بمدينة طُبنة قاعدة بلاد الزاب، وفرق جنده إلى فرق ليعودوا لأهليهم، وسار هو بعدد قليل منهم إلى تهودة إحدى مدن بلاد الزاب. فلما رآه الروم، في قلة من الجند طمعوا فيه، وأرسلوا إلى كُسَيْلة^(٥) وأعلموه بحاله، فأسرع كُسَيْلة فجمع قومه من البربر وأقبل لقتالهم، فقتل عقبة وأكثر أصحابه في سنة ٦٦٣هـ / ٦٨٣م^(٦)، وقصد كُسَيْلة القيروان، واستولى عليها^(٧). وكان أن اضطر زهير إلى مغادرة القيروان، والانسحاب إلى برقة، وبقيت القيروان في يد كُسَيْلة نحو خمس سنين، وأمن من كان بها من المسلمين^(٨).

لما استقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٦٨٥م) بعث إلى زهير بن قيس الذي كان لا يزال مرابطاً ببرقة ، وأمره بالاستعداد لقتال البربر، وأمدّه بالسلاح والعتاد^(٩). وقد حددت بعض المصادر التاريخية سنة ٦٦٩هـ / ٦٨٨م، تاريخاً لولاية زهير بن قيس لغزو المغرب وقاتل كُسَيْلة^(١٠) ولكن هذا التاريخ يناقض ما جاء في مصادر أخرى ، ذكرت أن وفاة زهير بن قيس حدثت في سنة ٦٦٧هـ / ٦٨٧م^(١١)، لذا فمن المرجح أن زهير بن قيس كان يتولى المغرب بالنيابة منذ مقتل عقبة بن نافع الفهري. ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، أقره على الولاية، وأمره بالتعبئة لقتال البربر واستعادة القيروان^(١٢). حيث أنه من المستبعد بقاء بلاد المغرب فترة طويلة من غير وال يتولى أمرها، ولكن يبدو أن الظروف الحرجة والاضطرابات السياسية التي كانت تعاني منها الخلافة الأموية آنذاك ، أخرت وصول الإمدادات إلى زهير، مما اضطره للبقاء مرابطاً ببرقة ينتظر حتى تستقر الأوضاع الداخلية للخلافة ، فلما وصلت الإمدادات اللازمة، توجه إلى القيروان في سنة ٦٦٧هـ / ٦٨٧م^(١٣) وهي السنة المرجح فيها حدوث قتال كُسَيْلة ، ومن ثم فإننا نرجح استشهاد زهير ببرقة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً : تحديد بعض المصادر سنة ٦٦٧هـ / ٦٨٧م لوفاة زهير بن قيس البلوي.

ثانياً: استبعاد أن تكون ولاية زهير بن قيس البلوي في سنة ٦٦٩هـ / ٦٨٨م، وذلك لأنها تدخل في زمن ولاية حسان بن النعمان الغساني، الذي خلف زهيراً على ولاية المغرب. وقد خاض- أي حسان بن النعمان- في هذه السنة عدة معارك مشهورة في قتال الروم والكاهنة^(١٤).

ثالثًا: احتمال أن يكون ذلك تحريفًا من النساخ، ذلك أن رسم كلمة «تَسْع» يشبه إلى حد كبير رسم كلمة «سَبْع» فوق النُّسَاخ في هذا اللبس، وتسببوا في خلل ضبط الأحداث التي حدثت بعد ذلك^(١٥).

نعود إلى تتبع الأحداث، حيث امتثل زهير بن قيس لأمر الخليفة، وتوجه قاصداً القيروان، فخرج له كُسَيْلَة والتقى فتقاتلا ، وانتهت المعركة بقتل كُسَيْلَة وهزيمة من كان معه من البربر، وعاد سلطان الخلافة الأموية على إفريقية والقيروان. وتذكر الروايات إن زهير بن قيس لم يبق طويلا في القيروان بعد فراغه من قتال كُسَيْلَة واستعادتها ، فقد ذكرت أكثر المصادر التاريخية أنه خرج منها متوجهاً إلى المشرق، زاهداً في الإمارة^(١٦)، ولعله كان في نيته الاستعفاء منها، فلما وصل برقة، اجتمعت عليه الروم، وقاتلوه ، وكان معه نفر قليل ، فقتلوه ومن معه ، في نفس السنة التي غزا فيها المغرب ، والتي يرجح كما ذكرنا أن تكون سنة ٦٧هـ / ٦٨٧م. ولما علم عبد الملك بن مروان ، بمقتل زهير بن قيس البلوى على يد الروم ببرقة، سارع بتولية حسان بن النعمان الغساني ، وكان حينذاك مقيماً بمصر بأمر الخليفة على رأس حامية من الجند تحسباً لما قد يحدث^(١٧). وأمره الخليفة بسرعة التوجه إلى بلاد المغرب، فسار حسان بن النعمان بمن معه من الجند إلى القيروان في محرم سنة ٦٨هـ / ٦٨٧م^(١٨) وتجهز منها، ثم اتجه لحرب الروم في قرطاجنة^(١٩)، وانتصر على من كان بها، حتى ألجأهم إلى الفرار منها^(٢٠). وخاض حسان بن النعمان بعد ذلك عدة معارك أخرى مع الروم والبربر، حتى خافه أهل إفريقية، واضطر البربر والروم إلى اللجوء إلى حصونهم، وكان الجند المسلمون قد أبلوا بلاء حسناً في تلك المعارك التي خاضوها ، وكثرت الجراح فيهم، فقرر حسان بن النعمان العودة بهم إلى القيروان ، وأقام بها مع جنده مدة حتى استراحوا والتأمت جراحهم^(٢١). ثم غادر حسان وجنده القيروان في سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م، وتوجه بهم إلى جبل أوراس^(٢٢) لقتال الكاهنة ، التي كان البربر والأفارقة، قد تجمعوا حولها وملكوها زمام أمرهم بعد مقتل زعيمهم كُسَيْلَة . ودارت بين الطرفين معارك ضارية، هزم فيها حسان وقتل عدد كبير من جنده، كما يروى أن البربر أسروا نحو ثمانين رجلاً منهم^(٢٣)، مما اضطر حسان للإسحاب ، وأرسل إلى الخليفة بالخبر، فأمره بالبقاء في مكانه حتى تأتية أوامر أخرى. وكان حسان بن النعمان في ذلك الوقت قد وصل بقواته إلى منطقة عُرفت فيما بعد باسم «قصور حسان»^(٢٤) فنزل وابتنى بها وابتنى له ولجنده وأقام بها نحو خمس سنين^(٢٥).

لما فرغ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، من القضاء على عبد الله بن الزبير بمكة المكرمة، عام ٧٣ هـ / ٦٩١ م، عبأ جيشاً جراراً قدره بعض المؤرخين بنحو أربعين ألف رجل، ووجهه إلى حسان بن النعمان الفسائي وولاه قيادته ، وأمره بالتوجه بهم لقتال الكاهنة، فسار حسان إليها وانتصر عليها وقتلها في سنة ٧٤ هـ / ٦٩٢ م^(٢٦). وأقام حسان في بلاد المغرب، حتى سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م ونظم خلال هذه الفترة أمور البلاد الإدارية والمالية، ثم غادرها في أواخر تلك السنة متوجهاً إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان محملاً بغنائم وأموال كثيرة، كانت سبباً - أي تلك الغنائم والأموال - في غضب عبد العزيز بن مروان وإلى مصر وبلاد المغرب عليه^(٢٧)، فقام عبد العزيز بن مروان بعزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية وبلاد المغرب، وولى مكانه موسى بن نصير^(٢٨). الذي قدم إلى إفريقية في أوائل السنة التالية، وبالتحديد في شهر صفر سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م^(٢٩). وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى استشهاد حسان ابن النعمان الفسائي غازیاً بأرض الروم بعد ذلك بنحو عام، أي في سنة ٨٠ هـ / ٦٦٩ م^(٣٠).

أما الرواية التي تقول، إن عزل حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير للمغرب، تم في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م) دون تحديد ذلك بسنة معينة^(٣١) أو الرواية الأخرى التي حددت ذلك بسنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م^(٣٢)، فالأرجح أن هاتين الروایتين خلطتا بين ولاية موسى بن نصير الأولى لبلاد المغرب في عهد تبعيتها لوالی مصر عبد العزيز بن مروان، في خلافة عبد الملك بن مروان ، وبين ولايته الثانية عليها في خلافة الوليد بن عبد الملك، الذي فصلها عن والی مصر، حيث أصبحت بلاد المغرب في خلافة الوليد بن عبد الملك إحدى الولايات الكبرى التابعة للخليفة مباشرة، وأقر عليها موسى ابن نصير^(٣٣). ومن المرجح أن فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر، وإقرار موسى بن نصير على ولايتها من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م كان سبباً لهذا الخلط. ومما يزيد في ترجيح ولاية موسى بن نصير على إفريقية وبلاد المغرب طول المدة التي ذكرناها ، والتي تمتد من سنة ٧٩-٩٦ هـ / ٦٩٨-٧١٥ التي انقسمت كما سبق أن بينا ، إلى فترتين كانت الأولى نحو عشر سنوات، وهي من سنة ٧٩-٨٩ هـ / ٦٩٨-٧٠٥ م، عندما كانت بلاد المغرب خلالها تابعة لوالی مصر في حين كانت الفترة الثانية نحو سبع سنوات، من سنة ٨٩-٩٦ هـ / ٧٠٨-٧١٥ وهي فترة ولايته المباشرة من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد فصل ولاية المغرب عن والی

مصر . وقد أشارت بعض المصادر إلى أن المدة التي قضاها موسى بن نصير في ولايته للمغرب بلغت، أكثر من ستة عشر عاماً^(٣٤)، غزا فيها البربر بالمغرب الأقصى، وأخضع المغرب كله للإسلام، وفتح بلاد الأندلس، وكان موسى بن نصير قد بدأ غزواته منذ قدومه إلى المغرب في جمادى الأولى سنة ٧٩هـ / ٦٩٨م^(٣٥) فسبى وغنم أموالاً كثيرة وحاز رضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، بعد أن كان واجداً عليه^(٣٦). وظل موسى بن نصير على ولايته للمغرب، حتى توفي عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، فولى الخليفة عبد الملك ابنه عبدالله بن عبد الملك (٨٥-٨٩هـ / ٧٠٤-٧٠٨م) على مصر وجميع بلاد المغرب^(٣٧).

ولما توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م، وتولى ابنه الوليد الخلافة من بعده، فصل الوليد بن عبد الملك بلاد المغرب عن ولاية مصر سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م، وأقر موسى بن نصير على ولاية المغرب، وبقي موسى على ولايتها حتى نهاية خلافة الوليد بن عبد الملك. وكانت الأموال والغنائم الكثيرة التي توجه بها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك في مرضه الذي توفي به ، في سنة ٩٥هـ / ٧١٤م^(٣٨)، سبباً في عزله عن ولاية المغرب، ذلك أن سليمان بن عبد الملك أرسل إلى موسى بن نصير وطلب منه أن لا يجد في السير ويتمهل، حتى يموت أخوه، ويقدم بالأموال والغنائم في خلافته، ولكن موسى لم يعبأ بطلب سليمان وسارع في القدوم على الوليد في أواخر أيامه. فلما توفي الوليد في سنة ٩٦هـ / ٧١٥م، وتولى سليمان الخلافة، سارع بعزل موسى بن نصير عن ولايته على بلاد المغرب في نفس تلك السنة. وقد توفي موسى بن نصير حاجاً في موسم سنة ٩٨هـ / ٧١٧م^(٣٩).

الهوامش

١- انظر، سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م، ج ١ ص ٢٠٨ ، ٢١٤-٢١٩ ، ٢٣٦ ، خطاب ، محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، بيروت، دار الفكر، ط ٧ / ١٤٠٤ / ١٩٨٤، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦-٢٢٨ ، السامرائي، خليل وآخرون ، تاريخ المغرب العربي، الموصل ، دار الكتب للطباعة، ص ٨٢-٩١ ، عنان، عبدالله ، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ٤، ص ٢٠-٢٤ ، مؤنس ، حسين ، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ .

٢- دياب، صابر محمد، بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١١٠ .

٣- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥ / ١٩٩٥ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ابن الأثير، على بن محمد ، الكامل في التاريخ ، بيروت، دار صادر ، ١٣٨٥ / ١٩٩٥م، ج ٤ ص ١٠٥ ، ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان ، وأ. ليفي بروفنسال ، بيروت، دار الثقافة ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠، ج ١ ص ٢ ، النويري، أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ج ٢٤ ص ٢٥ ، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٦م، ج ٦، ص ٢٩٧ .

٤- خليفة بن خياط ، التاريخ ، ص ٢٥١ ، ابن عبد الحكم، الفتوح ، ص ٢٢٦ ، الرقيق ، إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلي الزيدان، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م، ص ٩ ، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠٨ ، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ، ص ٢٦ .

- زهير بن قيس البلوي يقال له صحبة، شهد فتح مصر وسكنها ، قتله الروم ببرقة سنة ٧٦هـ [ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة ، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، ط ١ ، ١٣٢٨هـ، ج ١ ص ٥٥٥ ، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمري ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١ ، ١٤٠١ / ١٩٨١ ، (وفيات ٦١-٨٠) ص ٤٠٤.]

٥- كُسييلة بن لمزم الأوربي، كان زعيم قبيلة أوربة البربرية . أسلم في ولاية أبي المهاجر دينار، على بلاد المغرب، ولما تولى عقبة بن نافع بلاد المغرب، لم يعبأ بكسييلة ، واستخف به وأهانته ، فأسرها كُسييلة

فى نفسه، ولما سئحت له الفرصة انتقم منه. انظر ابن عذارى البيان، ج ١ ص ٢٩، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٩٧، ٢٩٩-٣٠٠.

٦- خليفة، التاريخ، ص ٢٥١، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠٦-١٠٨، ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٢٨، ٢٩، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣١.
٧- ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٣٠.

٨- خليفة، التاريخ، ص ٢٥١، الرقيق، التاريخ، ص ١٦، ١٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠، ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٣٠، ٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣٢، ابن خلدون، العبر، ج ٤ ص ٤٠٠، ج ٦ ص ٢١٧، ٢٩٩.

٩- الرقيق، التاريخ، ص ١٧، المالكى، عبدالله بن محمد، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ج ١، ص ٤٦، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس، المطبعة العربية التونسية، ١٣٢٠هـ، ج ١ ص ٥٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠٨، ابن عذارى، البيان، ص ٣١، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣٢، ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢١٧.

١٠- المالكى، رياض النفوس، ج ١ ص ٤٦، الدباغ، المعالم، ج ١ ص ٥٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠٨، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣٣.

١١- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٢٨، البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر دى نسلان، ١٨٥٧م، ص ٧ الرقيق، التاريخ، ص ١٨، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٢ (فى رواية ذكرها عن الرافدى)، ابن خلدون، العبر، ج ٤ ص ٤٠٠، ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، ط ٣، ص ٣٢، ابن الأبار، محمد بن عبدالله، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٣٣٠.

- أشارت بعض المصادر المتقدمة السابقة إلى أن وفاة زهير حدثت فى سنة ٦٧ هـ، إلا أن د. مؤنس يوافق رأى القائل بأن حملة زهير حدثت فى سنة ٧٩ هـ، ويرى بأن ابن خلدون قد شذ عندما جعل تأريخ حملة زهير فى سنة ٦٧ هـ انظر مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٢١٨.

١٢- راجع ابن الحكم، الفتوح، ص ٢٨٨، حيث أرخ ولاية زهير بن قيس للمغرب بسنة ٦٤ هـ راجع أيضاً المالكى، رياض النفوس، ج ١ ص ٤٦، ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٣١، وقد حددنا ولايته فى سنة ٦٥ هـ.

١٣- حدد ابن خلدون توجه زهير بن قيس لقتال كُسَيْلَة ، فى سنة ٦٧هـ [انظر العبر، ج ٦ ص ٢١٧ ، ٢٩٩].

١٤- قال البكرى: « لما قتل زهير بن قيس بئرقة، استعمل عبد الملك، حسان بن النعمان على إفريقية ، فخرج إليها فى المحرم سنة ثمان وستين . » [انظر البكرى، المغرب، ص ٧ ، انظر أيضاً، الدباغ، معالم الإيمان، ج ١ ص ٥٥] . وهذا يرجع أن مقتل زهير، حدث فى أواخر سنة ٦١٧هـ.

١٥- يلاحظ ورود وقوع الخلط بين النساخين عند قراءة وكتابة هاتين الكلمتين «سبع» و«تسع» فى الكتابات المخطوطة، مثال على ذلك، قارن رواية تحديد تاريخ مولد وفاة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، فى طبقات كل من أبى العرب والدباغ، انظر [أبو العرب، محمد بن أحمد التميمى، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابى، تونس الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م، ص ٩٩، والدباغ، معالم الإيمان، ج ١ ص ١٧٦] .

١٦- الرقيق ، تاريخ إفريقية، ص ٢٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان، ج ١ ص ٥٣ ، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ١٠٩ ، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٣ ، ابن خلدون ، العبر، ج ٤ ص ٤٠٠ ، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٣٣ .

١٧- ابن عذارى ، البيان، ج ١ ، ص ٣٤ ، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٤ ، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٣٣ .

١٨- البكرى، المغرب، ص ٧ .

١٩- قرطاجنة من المدن القديمة المشهورة بإفريقية بالمغرب ، فيها آثار وعجائب البنيان ما ليس فى بلد آخر، بين قرطاجنة وتونس عشرة أميال أو نحوها، ومرسأهما واحد. [الحميرى، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢ ١٩٨٤م، ص ٤٦٢] .

٢٠- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٢٨، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٦٩، ابن عذارى، البيان ، ج ١ ص ٣٤ ، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٥ ، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢١٨ .

٢١- ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٠، النويرى ، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٥ ، ابن أبى دينار، المؤنس، ص ٣٤ .

٢٢- جبل قريب من باغاية بإفريقية، وبينه وبين نقاوس ثلاث مراحل وهو المتصل بالسوس، وهو قطعة من جبل درن بالمغرب، ومتصل به وطوله مسيرة نحو اثنى عشر يوماً مياهد كثيرة وعمارته متصلة [الحميرى الروض، ص ٦٥] .

٢٣- ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٢٨، المالكي، رياض النفوس، ج ١ ص ٥١، الرقيق، تاريخ إفريقية، ص ٢٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٠، ابن عذاري، البيان، ج ١ ص ٣٦، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢١٨ = اسمها ذهباً بنت ماتبية بن تيفان، ملكة جبال أوراس، وقومها من جراوة، ملوك البتر وزعماؤهم. [انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢١٨].

٢٤- منهل معروف بهذا الاسم، يبعد عن طرابلس بأربعين ميلاً، انهزم إليه حسان بن النعمان بعد هزيمته من الكاهنة، فأمره الخليفة عبد الملك بن مروان بالإقامة فيه بجندة فبنى فيه حسان قصرين وأقام به نحو خمس سنين، انظر [البكري، المغرب، ص ٨، الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٩ / ١٩٨٩، ج ١ ص ٢٩٨].

٢٥- الرقيق، التاريخ، ص ٢٦، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٠، ابن عذاري، البيان، ج ١ ص ٣٦، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣٦، ابن أبي دينار، المؤنس، ص ٣٤.

٢٦- خليفة، التاريخ، ص ٢٧٠، الرقيق، التاريخ، ص ٢٦، ٣٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٢، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢١٩. ولعل بما يؤيد مسير حسان إلى إفريقية في سنة ٧٤هـ، ما جاء في رواية لأبي العرب، تقول: «ولد عبد الرحمن بن أنعم ببرقة والجند داخلون بإفريقية سنة خمس أو أربع وسبعين». [أبو العرب، الطبقات، ص ٩٩، انظر أيضاً، الدباغ، معالم الإيمان، ج ١ ص ١٧٦].

٢٧- ولي الخليفة الأموي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر وبلاد المغرب سنة ٦٥هـ، وبقي عبد العزيز على ولايتها حتى وفاته في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان، في جمادى الأولى سنة ٨٥هـ انظر [الكندي، محمد بن يوسف، ولاية مصر، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار صادر، ص ٧٠، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف، ج ٩ ص ٥٧، ٥٨، ٥٩ القلقشندي، أحمد بن علي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٩٦٤م، ج ١ ص ١٢٦، ١٣٠].

٢٨- الكندي، ولاية مصر، ص ٧٤.

٢٩- خليفة، التاريخ، ص ٢٧٧، ٢٩٨، ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزيني، بيروت دار المعرفة، ج ٢، ص ٥٠، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٢٩، ٢٣١، ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٥٣٩، ٥٤٠، الذهبي، التاريخ، (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص ٣٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ ص ١٧١.

- وما يرجح تولى موسى بن نصير للمغرب في سنة ٧٩هـ، الرواية التي تقول إن موسى بن نصير، استقضى أبا الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي بالقيروان سنة ثمانين للهجرة. انظر [المالكي، رياض النفوس، ج ١ ص ١١٠، الدباغ، معالم الإيمان، ج ١ ص ١٥١].

٣٠- ابن الأثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٧٢، ج، النويري نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٣٩، الذهبي محمد بن

أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ، ج٤، ص١٤٠، ٢٩٤، الذهبى، تاريخ الإسلام (وفيات ٦١-٨٠هـ) ص٣٩٣، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٥.

- بالرغم من اتفاق المصادر السابقة على تحديد السنة التى توفى فيها حسان بن النعمان، فإننا نلاحظ أن د. مؤنس يقدر وفاته بأوائل سنة ٨٦هـ- انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢٢٦].

٣١- الرقيق، التاريخ، ص٢٦، ٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٣٩، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٨، ٣٩، القلقشندى، أحمد بن على، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨٣ / ١٩٦٣، ج٥ ص١١٨، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٥.

- ومما يلاحظ أن الدكتور مؤنس قد تبنى هذه الرواية رغم ما ورد فيها من خلط واضح لأحداث مشهورة، حيث قدمت وفاة عبد الملك بن مروان على وفاة أخيه وولى عهده عبد العزيز، كما خلطت بين ولاية كل من عبد العزيز بن مروان، وابن أخيه عبدالله بن عبيد الملك لمصر، فجعلت عبد العزيز بن مروان على ولاية مصر، فى خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر [مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢٦٤، ٢٦٥].

٣٢- البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت، مكتبة الهلال، ١٣٩٨هـ / ١٩٦٣م، ص٢٣٢، ابن الأثير، الكامل، ج٤ ص٥٣٩، انظر أيضاً، ابن أبى دينار، المؤنس، ص٣٥، السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤م، ج١، ص٨٥.

٣٣- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥٨، الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذارى، البيان، ج١، ص٤١، انظر أيضاً، سديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبي، ط٢، ١٣٨٩، ص١٥٧.

- راجع أيضاً إشارة الكندى إلى خلافات ومراسلات وقعت بين عبدالله بن عبد الملك وبين موسى بن نصير، ويبدو أنها كانت من أسباب فصل بلاد المغرب عن ولاية مصر إدارياً، ثم أعقب ذلك عزل عبدالله بن عبد الملك عن ولاية مصر، انظر [الكندى، ولاية مصر، ص٨١-٨٣].

- بعد وفاة عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ، ولى الخليفة عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك على مصر والمغرب، ولما توفى عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك، كتب الوليد بن عبد الملك إلى أخيه عبدالله بن عبد الملك، بولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب، وقطعها عنه، وبقي عبدالله بن عبد الملك والياً على مصر حتى عزله الوليد سنة ٩٠هـ. انظر [الرقيق، التاريخ، ص٣٨، ابن عذارى، البيان، ج١ ص٤١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٧٧].

- وقد ذكر البلاذري رواية الواقدي التي تقول بتوجيه عبد العزيز بن مروان ، موسى بن نصير والياً على إفريقية، ثم قال : « يقال بل وليها في زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ » فالروايتان فيما يبدو صحيحتان، وتدعم ما سبق بيانه من ترجيح ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب للمرة الأولى في سنة ٧٩هـ من قبل والي مصر عبدالعزیز بن مروان، ثم ولايته لها للمرة الثانية في سنة ٨٩هـ ، حينما أقره عليها الوليد، بعد فصلها عن والي مصر. انظر [البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٢] .

٣٤- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٥٠ ، ٨٦ ، انظر أيضاً ما ذكره ابن عذارى في ولاية موسى بن نصير ، قائلاً : « وفي سنة ٨٨ ولى إفريقية ، فأقام عليها أميراً وعلى الأندلس والمغرب كله ، نحو ثمان عشرة سنة ، إلى أن مات » ، وهي عبارة يتضح فيها التناقض بين تحديد السنة التي تولى فيها ويلاحظ كتابتها بالأرقام ، وبين عدد السنوات التي قضاها في ولايته وهي مكتوبة بالحروف ، كما يفهم من العبارة أنه بقي في الولاية لحين وفاته ، أي لسنة ٩٨هـ ، ورغم الخلط الواضح في هذه الرواية ، والذي يبدو أنه من فعل النساخين ، لكنها على أي حال تؤكد ولاية موسى بن نصير لبلاد المغرب في حدود سنة ٧٩هـ. انظر [ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٤٦] .

٣٥- خليفة، التاريخ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ابن عبد الحكم، الفتوح، ص ٢٣١ ، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٨٦ .

٣٦- ابن عذارى، البيان ، ج ١ ص ٤١ .

٣٧- ابن حزم ، على بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط ٤، ص ١٩٩٧م، ص ٨٩، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٧٧ .

٣٨- خليفة، التاريخ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ ، الرقيق، التاريخ ، ص ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤، ص ٥٦ ، ٥٦٦ ، ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ، ص ٤٠ ، ٥٢ .

٣٩- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢ ، ص ٨٦ ، ابن عذارى، البيان، ج ١ ، ص ٤٦ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر القديمة

- * ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعى (ت - ٦٥٨هـ) .
- الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥م.
- * ابن الأثير، على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت. ٦٣٠هـ)
- الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٥هـ / ١٩٩٥م.
- * الإدريسى ، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٤٨هـ)
- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩ .
- * البكرى، عبدالله بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧هـ)
- المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، دى سلان، ١٨٥٧م.
- * البلاذرى ، أحمد يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)
- فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت، دار مكتبة الهلال ،
١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- * ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ)
- الإصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة، الكتبخانة الخديوية المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.
- * ابن حزم ، على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) .
- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف بمصر،
ط ٤، ١٩٩٧م.
- * الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ)
- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان،
ط ٢، ١٩٨٤م .
- * ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى (ت ٨٠٨هـ)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من
ذوى السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٦ م .

* خليفة بن خياط ، بن أبى هبيرة العصفري (ت ٢٤٠هـ)

- تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الرياض، دار طيبة ، الطبعة
الثانية، ١٤٠٥ / ١٩٨٩ .

* الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصارى (ت ٦٩٦هـ)

- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ، المطبعة العربية التونسية،
١٣٢٠هـ .

* ابن أبى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى (توفى فى القرن ١١هـ)

- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة
العتيقة، الطبعة الثالثة.

* الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة،
الطبعة الأولى، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

- تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عمر تدمرى، بيروت، دار
الكتاب العربى، ط ١، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

* الرقيق ، إبراهيم بن القاسم (توفى فى القرن الخامس الهجرى)

- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبدالله العلى الزيدان، بيروت، دار الغرب
الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م .

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ)

- فتوح مصر والمغرب ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية ،
١٤١٥ / ١٩٩٥ .

* ابن عذارى ، المراكشى (توفى آخر القرن السابع الهجرى)

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان، وأ. ليفى
بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي القيرواني (ت ٣٣٣هـ)

- طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق على الشابي ونعيم اليافى، تونس،
الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.

* ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)

- الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزينى، بيروت دار المعرفة.

* القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد، ١٣٨٣هـ.

- مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، عالم
الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

* ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف، بدون تاريخ.

* الكندي، محمد بن يوسف (ت ٣٥٠)

- ولاية مصر، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ

* المالكي، عبدالله بن محمد، أبوبكر (توفى فى النصف الثانى من القرن الخامس)

- رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامى.

* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

ثانيًا : المراجع الحديثة العربية والمعربة

* دياب، د. صابر محمد ، المغرب فى القرن الأول الهجرى، القاهرة، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

* السامرائى ، خليل وآخرون، تاريخ المغرب العربى، الموصل ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.

* سديو، ل. أ.، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، عيسى البابى الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٨٩ هـ .

* سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٩٣م.

* السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤م.

* عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة.

* مؤنس، د. حسين، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

* محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربى، بيروت، دار الفكر، الطبعة السابعة ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

د. ناجلا محمد عبد النبي *

القرصنة اللاتينية فى شرق حوض البحر المتوسط على عصر سلاطين المماليك

لعب البحر المتوسط دوراً هاماً فى الربط بين الدول المطلة عليه منذ العصور القديمة، عندما كانت تسيطر عليه الإمبراطورية الرومانية حتى غدا بمثابة بحيرة رومانية، وعند سقوط الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية من حوض ذلك البحر فى أيدي العرب فى حركة الفتح الإسلامى، حلت هناك بعض التعاملات التجارية بين الغرب اللاتينى والشرق الإسلامى، وإن كان نصيب الغرب فى تلك التجارة بسيطاً نظراً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كلفت أوضاعه . ولم يحدث تطور فى نشاط الغرب اللاتينى فى هذا المجال إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى حين تقلصت الهيمنة العربية على مياه البحر المتوسط. وفى أخريات ذلك القرن عاد البحر المتوسط بحيرة مسيحية، ونشطت الحركة التجارية الأوربية عليه نشاطاً ملحوظاً نتيجة للحروب الصليبية ونشاط المدن التجارية الإيطالية، وفى مقدمتها البندقية وجنوة وبيزا. وكان طبيعياً أن تسير التجارة فى أعقاب الصليب فنمت وازدهرت ، وصحب ذلك انتعاش تلك المدن الثلاث حتى احتكرت التجارة بين الشرق الأدنى الإسلامى وأوروبا رغم الصراعات الدينية بين الجانبين.. وقد صاحب هذه النهضة التجارية نشاط القرصنة فى حوض ذلك البحر.

* مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية التربية بدمنهور .

والواقع أن البحر المتوسط عرف القرصنة منذ التاريخ القديم، وهى صورة من صور حرب العصابات ، تقوم بها فرق سريعة الحركة تقتنص الفرصة المناسبة لتحقيق المكاسب المادية بالسطو على هدفها فى طرق التجارة فى البحر المتوسط. واعتبر مسيحيو الغرب الأوربي فى العصور الوسطى، خاصة زمن الحروب الصليبية ، القرصنة نشاطاً مشروعاً ونوعاً من أنواع الثأر ضد المسلمين ولوثاً من ألوان التجارة تدر المكاسب المادية الكبيرة على من يمارسها ، وكان يزاول القرصنة جماعات من المغامرين من شتى الفئات والطبقات ، سواء من النبلاء أو من التجار أو حتى من أدنى الطبقات كصيادى الأسماك . وهؤلاء باشروا القرصنة طوال أيام العام فى مياه المتوسط. وحركة القرصنة كانت تزداد فى فترات معينة مع مواسم التجارة أو «مدة التجارة» بين الشرق والغرب، خاصة فى المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط حيث كان الصراع الصليبي الإسلامى محتدماً. وقد ألحق القراصنة أضراراً كبيرة بالتجار فلم يفرقوا بين سفينة لاتينية وأخرى للمسلمين طالما كانت متجهة إلى سواحل شرق البحر المتوسط، لأن هدفهم الأول كان تحقيق الكسب على حساب الضحايا، مسلمين كانوا أو مسيحيين .

وقبل أن نخوض فى الموضوع الذى نحن بصدده وهو «نشاط القراصنة اللاتين على طرق التجارة فى شرق البحر المتوسط فى عصر دولة سلاطين المماليك» أى فى الفترة من النصف الثانى من القرن ١٣ الميلادى (النصف الثانى من القرن ٧ الهجرى) وحتى الفتح العثمانى فى بدايات القرن ١٦ الميلادى (بدايات القرن ١٠ الهجرى). يجدر بنا أن نشير إلى أنه كان يوجد نوعان من القراصنة: قرصان يعمل لحسابه الخاص بمعاونة تابعين له، وهو ينقض على فريسته أو ضحيته التى يختارها بنفسه، فى أى مكان تتاح له فيه الفرصة لتحقيق ما ينشده . وآخر يعمل لحساب الغير ، فهو لا يختار ضحيته بإرادته وإنما يكون مكلفاً بتلك المهمة بمعنى أنه يعمل كمرتزق يتقاضى على عمله قدرًا من المال أو تكون له نسبة من الغنيمة حسب اتفاق مسبق مع صاحب عملية السطو، وحينما تنتهى تلك المهمة يتحول مباشرة إلى القرصنة لحسابه الخاص^(١). وهذا هو الفرق بين لفظى Pirate و Corsaire الفرنسيين، فالأول مغامر يعمل لحسابه الخاص بينما الثانى غالباً ما يكون مكلفاً من قبل جهات مسئولة ، أى أن مهمته تكون رسمية ومشروعة.

وكانت لتلك القرصنة صور عدة اختلفت باختلاف الظروف والأحوال السياسية والحربية فى شرق البحر المتوسط فى فترة اتخذت الاضطرابات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين

الغربيين شكل الحروب الصليبية. ولكن مما لاشك فيه أن تدخل البابوية فى النشاط التجارى بين المعسكرين المتناحرين ساهم بطريق غير مباشر فى تفاقم حركة القرصنة التى شهدتها حوض البحر المتوسط فى تلك الأونة ، بل ربما أعطاهما الصفة الشرعية إذ كانت تبارك من يقوم بها ضد المسلمين. وكانت العلاقات التجارية قائمة بين أوروبا وعلى وجه الخصوص المدن الإيطالية وبين الدولة الفاطمية فى مصر والشام قبل مولد الحركة الصليبية واستمرت قائمة بعد أن قامت الإمارات اللاتينية الأربع على ساحل الشام، قائمة بل لقد أصبحت أكثر نشاطاً، ومع ذلك لم تعرها البابوية أى اهتمام طالما كان التفوق العسكرى فى المنطقة فى صالح الجانب الصليبي على الجانب الإسلامى. ذلك أن البابوية لم تلبث أن أظهرت موقفها العدائى للمدن التى كانت تتعامل مع مصر وذلك حين بدأ ميزان القوى يميل نحو رجحان كفة المسلمين وهذا يعنى أن مرحلة التفوق الصليبي قد انتهت، خاصة بعد انتصار المسلمين فى حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ . وعندئذ أدركت البابوية أن الخطر الإسلامى محقق بالإمارات اللاتينية فى الشرق فبدأت تتحرك وتعلن تهديداتها لمن يحاول الاتصال بمصر. وكانت الطامة الكبرى حين سقطت معاقل الصليبيين الواحد تلو الآخر -وآخرها عكا- فى أيدي المماليك فى أخريات القرن ١٣ م (أخريات القرن ٧هـ) وعندئذ تأكدت البابوية من تفوق المعسكر الإسلامى وميل ميزان القوى بشدة إلى جانب مصر والمسلمين، فصبت كل غضبها على المدن الإيطالية لأنها تساهم بقدر كبير - بطريق مباشر أو غير مباشر- فى تعزيز قوة مصر العسكرية، لذلك اتخذت البابوية عدة قرارات للحد من التعامل مع مصر، منها الحرمان من عطف الكنيسة واللعنة والقطيعة، ومصادرة البضائع وحرمان من يتعامل مع المسلمين وبخاصة ممالك مصر^(٢) من حرريته الشخصية ولكن تجار تلك المدن فى أغلب الأحيان لم يعيروا تلك القرارات أى اهتمام، بل كانوا يتحايلون بشتى الطرق للإفلات منها: تارة بتقديم ما يوازى قيمة ما ربحه التاجر المخالف من تجارته مع المسلمين إلى خزانة البابوية^(٣)، وتارة أخرى بشراء الغفران بدفع مبلغ من المال تحدده الكنيسة^(٤)، وتارة ثالثة بشراء تراخيص التجارة فردية أو جماعية مع المسلمين^(٥). وهكذا كان التحايل على قرارات البابوية يحظر التعامل مع المسلمين. مقصوداً به فى بداية الأمر التجارة مع مصر وتوابعها. ثم شمل هذا القرار مسلمى الأندلس وشمال أفريقيا والسلاجقة فى آسيا لصلاتهم الطيبة بمصر^(٦). وعقدت المجامع الدينية لهذا الغرض وتوالت قرارات الحرمان الكنسى ضد من يتاجر مع مصر والمسلمين. وجاء مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١١م - ١٣١٢م ليكشف عن عدد كبير من التجار الأوربيين لايبالون بقرارات الحرمان أو

القطيعة وظلوا يتعاملون مع مصر، وكان قراره حظر الاتجار مع مصر نهائياً^(٧). وضماناً لتنفيذ هذا الحظر كلف المجمع فرسان الداوية، المعروفين بشدة عدائهم للمسلمين، بمراقبة الحركة التجارية للسفن المسيحية الغربية التي تتجه إلى الموانئ الإسلامية في كل من مصر والشام وسواحل آسيا الصغرى. وكان مقر هؤلاء الفرسان جزيرة قبرس^(٨)، وصارت مهمتهم حماية الجزيرة وأسر أية سفينة تحاول الاتجاه إلى بلاد سلطان المماليك^(٩). وقد استغل بعض المغامرين هذه العملية ليعمل لحسابه الخاص. فقام بعضهم بعمليات القرصنة والسطو على السفن اللاتينية المتجهة إلى مصر. وهكذا رغم التعقيدات والعراقيل التي كانت تضعها البابوية في وجه تجار الغرب اللاتينى من أجل عدم التعامل مع سلاطين المماليك، ظلت العلاقات التجارية قائمة معهم في السر وفي العلن، وظلت القرصنة تزداد معها يوماً بعد يوم طالما لم يكن في إمكان الغرب المسيحي مواجهة دولة المماليك وقوتها العسكرية. وإن كان تعرضت موانئ الدولة في مصر والشام للقرصنة وكانت أشهرها تلك التي عرفت بغزوة القبارصة عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م والتي لم تكن سوى واحدة من تلك العمليات الخاطفة التي اعتاد أن يقوم بها القراصنة اللاتين، وإن كانت بقيادة ملك قبرس. وبعد تلك الغزوة عقد الصلح بين ممالك مصر وطرس لوزينيان ملك قبرص فسادت في المنطقة فترة هدوء. وجدير بالذكر أن القبارصة لم يستطيعوا الدخول مرة أخرى في صراع مع سلطان مصر لأنهم كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الإسمتارية الذين كانوا أضعف من أن يواجهوا وحدهم القوة المصرية، خاصة وأن الإسمتارية الذين كانوا يساندون أى هجوم على المسلمين تطرق إليهم الضعف بسبب الخلافات التي مزقت صفوفهم. وقد تحولت تلك الخلافات إلى حرب مكشوفة فضلاً عن مشاركتهم في الحروب ضد العثمانيين في أوربا. أما البابوية التي اعتادت أن تجمع المسيحيين، فقد أصبحت هي الأخرى لاتقوى على التأثير عليهم للقيام بعمل مسيحي مشترك ضد المسلمين^(١٠) سواء بحملة عسكرية أو بمقاطعة اقتصادية^(١١). وهكذا لم يبق أمام الفرنج سوى القيام بعمليات حربية خاطفة على سفن وسواحل وموانئ دولة المماليك. وبهذه العمليات يمكنهم شل حركة التجارة واستنزاف مواردها أولاً بأول، وبما يؤثر بدوره على دخل مصر، فلا تتمكن من إنشاء الأساطيل أو تجهيز الجيوش لصددهم فيسهل عليهم تحقيق ما يرمون إليه. وجدير بالذكر أن هذا التصرف من قبل اللاتين والجبهة الصليبية لم يكن تابعاً من دافع ديني وإنما كان لتحقيق مكاسب مادية والتنافس على الهيمنة على البحر المتوسط. لذا ساد حوض البحر المتوسط في أخريات القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر الميلاديين^(١٢) أخريات

القرن الثامن وطوال القرن التاسع الهجريين] عمليات قرصنة لاتينية تميز فيها القتلان بصفة خاصة^(١٢) إلى جانب الإسبتارية وغيرهم. ولم تتعرض تلك الغارات لسفن الممالك فحسب ولكنها لم تترك سفينة في شرق البحر المتوسط أو غربه تابعة للمسلمين عامة إلا وهاجمتها وأسرت من بها من مسافرين وتجار ونهبت ما بها من بضائع^(١٣)، فضلاً عن مباغته أولئك القراصنة لبعض الموانئ المماليكية مثل الإسكندرية ورشيد وطرابلس وبيروت وصيدا ويافا واستيلائهم على بعض ما بها من مراكب^(١٤) وأسر العديد من المسلمين^(١٥). وقد ذكر فليكس فابري^(١٦) Félix Fabri أنه كان يوجد ما يقرب من ثلاثة آلاف عبد مسلم في البندقية وحدها في القرن (الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري). وكان البنادقة يستغلونهم كمجدين على سفنهم^(١٧). هذا وكانت السلطات المماليكية تصد القراصنة أينما أغاروا. ورغم انهزام الفرنج في معظم الأحيان إلا أن الممالك تكبدوا خسائر كبيرة، وأصبحت هذه الغارات تسبب لهم قلقاً على أمن دولتهم. ووصلت بالقراصنة الجرأة أن خططوا «للوثب على ناظر الخاص حين قدومه للإسكندرية لتحصيل ما بها من مال، لولا أن كشف أمرهم». ولما لم يأمن أهل المدينة على حياتهم من المغامرين القراصنة، مع إدراكهم عدم جدوى الاعتماد على حماية المدينة، شرعوا في حفر خندق حول المدينة لحمايتها من أي هجوم^(١٨). وقد ضاقت السلطات الحاكمة في مصر بتلك الغارات التي كان يقوم بها المغامرون اللاتين وعلى رأسهم القتلان والإسبتارية والقبارسة والروادسة. ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، وإنما زادت كارثة القرصنة بتحول التنافس بين البندقية وخنوة، وهما أشهر وأقوى مدينتين تجاريتين في مياه البحر المتوسط-، إلى حرب مكشوفة ضارية. ومارست كل منهما عمليات السطو على سفن منافستها، وكانت سفن كلاهما تأتي إلى مصر بما يحتاجه الممالك من سلع استراتيجية وتنقل منها ما يصلها من سلع الشرق الأقصى إلى أوروبا، ولم يكن هذا الصراع مقصوراً على القرصنة على السفن المتجهة لدولة الممالك فحسب^(١٩)، وإنما انسحب الأمر إلى الإغارة على مدن وموانئ تلك الدولة في مصر والشام، خاصة بعد أن حققت البندقية على منافستها خنوة نصراً ساحقاً في كيوجا عام ١٣٨١م، فانضمت الأخيرة إلى زمرة القراصنة الذين اعتادوا غزو ثغور الممالك حين ضاقت بالعلاقة الوثيقة التي ربطت مصر بالبندقية^(٢٠)، مثلما فعل «بوسيكو» Boucicault قائد أسطول خنوة، من شن غارات خاطفة على شواطئ الدولة المماليكية. وتجنباً للأخطار التي قد تواجه تجار البنادقة في البحر، نظموا رحلاتهم التجارية في شكل قوافل بحرية، لكل قافلة منها سفينة مسلحة للدفاع عن بقية السفن في حالة تعرضها لهجوم القراصنة^(٢١).

وهكذا أخذت هجمات القراصنة اللاتين بمختلف عناصرهم تعترض طرق التجارة فى البحر المتوسط إلى موانئ الممالك، ولم تسلم من هجماتهم حتى السفن المسيحية المتجهة إلى سواحل مصر والشام. وسببت هذه الهجمات خسائر فادحة للدولة المالكية وضربت تجارتها فى مقتل، خاصة عندما أخذ الغرب اللاتينى باقتراحات بعض أبنائه الذين رأوا أن أفضل وسيلة للقضاء على قوة المسلمين والتغلب عليهم هى فرض حصار اقتصادى ومحاصرتهم فى منطقتهم^(٢٢). لذا زادت هذه العمليات رغم ما اتخذته الممالك من اجراءات دفاعية لحماية مصالحهم وسواحلهم .

وقد اعتادت السلطات المصرية فى حالة تعرض سفنها أو تجارتها أو ثغورها فى مصر والشام لمثل هذه القرصنة أن تلقى بالمسئولية الجماعية على التجار الأجانب دون تمييز بين جالية وأخرى، فتقبض عليهم وتصادر أموالهم وتزج بهم فى السجون. ورغم ذلك لم تتوقف هجمات القراصنة على سواحل الدولة أو السفن التجارية فى مياه البحر المتوسط المتجهة إلى موانئ الممالك، بل ازداد تجرم هؤلاء المغامرين، فاضطرت السلطات الحاكمة فى القاهرة إلى الرد عليهم بنفس أسلوبهم. من ذلك أن السفن الإسلامية أغارت على قبرس - أقرب أوكار القراصنة الفرنج لسواحل الممالك - فى عامين متتاليين (١٤١٠-١٤١١م / ٨١٣-٨١٤هـ)، ورغم ذلك عاود القراصنة غاراتهم على الشام، ولكن حين أحسن ملك قبرس باستعداد الممالك لغزو الجزيرة من جديد سارع بعرض الصلح عام ١٤١٤م (٨١٧هـ) مع حكام القاهرة، وتعهد فيه بعدم السماح بأعمال القرصنة على سواحل دولتهم وبألا يأوى المغامرين فى جزيرته، وإذا لجأوا إلى موانئه لا يقدم لهم أى عون وأن يصدر الملك أوامره للقبارصة بعدم شراء السلع التى يستولى عليها المغامرون من عمليات القرصنة التى يقومون بها على سفن وسواحل المسلمين^(٢٣). ورغم تلك المعاهدة عاود القبارصة والقطلان «تجرمهم فى العام التالى (١٤١٥م / ٨١٨هـ) فأضطر السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسئولية الجماعية إزاء جميع التجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية ودمشق، وعلى وجه الخصوص إزاء التجار القطلان وقنصلهم بالإسكندرية، وأمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة»^(٢٤). وتكررت غارات القراصنة على شواطئ الممالك، ووجد السلطان ططر الذى خلف السلطان المؤيد أن التجار الفرنج وجالياتهم فى موانئه يمدون القراصنة بالمعلومات عن الاستحكامات العسكرية على السواحل وعن موعد وصول التجار، وعن الإجراءات الدفاعية التى تقوم بها سلطات الممالك لصد ومواجهة غارات المغامرين من اللاتين، لذا أراد أن يحد من نشاط تلك الجاليات الفرنجية

خاصة وأن هؤلاء كان من بينهم من يتمتع بالإقامة الدائمة فى أراضى دولة الماليك^(٢٥)، وكان أن أصدر السلطان ططر مرسومه عام ١٤٢١م / ٨٢٤هـ بتحديد إقامة جميع التجار وغيرهم من طوائف الفرنج فى بلاده إلى أربعة أشهر على الأكثر وهى مدة يراها السلطان كافية لإنهاء التجار تعاملاتهم فى بلاده^(٢٦). وكان هذا المرسوم ضربة قاضية لبعض المدن التى كانت لها علاقات وثيقة بدولة الماليك مثل البندقية وخنوة. ولم يستمر تنفيذ هذا المرسوم طويلاً إذ توفى ططر وخلفه برسباى الذى كان فى حاجة ماسة إلى ما يأتى به تجار اللاتين من سلع استراتيجية، فأعاد الامتيازات لتجار بعض المدن التى كان ططر قد حجبها عنها، وعادت التجارة إلى سابق نشاطها ؛ واستمر تعرض القراصنة لسفن المسلمين فى مياه البحر المتوسط والإغارة على موانئ مصر والشام. وضاق برسباى بتصرفاتهم وتيقن من تركيزهم فى جزيرة قبرس شرق البحر المتوسط، فبعث بحملات ثلاث على تلك الجزيرة انتهت بإخضاعها للجزيرة وصارت جزءاً من إمبراطورية الماليك، ورغم ذلك لم ينته نشاط القراصنة فى تجرمهم على سفن المسلمين، وانتقل مركزهم إلى جزيرة رودس التابعة لفرسان الاسبتارية ، وكان القطلان يرمون بكل ثقلهم فى تلك العمليات، بعد أن حملوا لواء مقاتلة المسلمين أينما كانوا فى حوض البحر المتوسط. ونتيجة لذلك اضطر «چقمق» سلطان مصر آنذاك أن يتبع خطى سلفه برسباى فى القضاء على مراكز إيواء القراصنة اللاتين . وإذا كان برسباى قد نجح فى هجومه على جزيرة قبرس أو أخضعها لسلطان الماليك فى القاهرة، فإن چقمق قد أخفق فى محاولاته الثلاث لإخضاع جزيرة رودس للجزيرة أو حتى إيقاف عمليات السطو المسلح على سفن تجار مصر فى مياه المتوسط، وذلك لأسباب عدة أهمها بُعد الجزيرة عن سواحل دولة الماليك. وكانت النتيجة، ازدياد تجرم القراصنة اللاتين، وبسبب انعدام الأمان قرب سواحل الماليك والتى تسبب فيها القطلان بصفة خاصة، قلت السفن المتجهة إلى موانئ مصر والشام، حتى أن الجالية الأجنبية التى كانت بالإسكندرية لم تكن تضم فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) سوى عناصر قليلة على رأسهم البنادقة والجنوية^(٢٧). وحقيقة كانت توجد جاليات أجنبية أخرى مثل أبناء فلورنسا أو أبناء مرسيليا وكانت لهم تجارة رائجة فى موانئ مصر والشام، ولكن كانت إقامتهم بتلك الموانئ لفترات قصيرة ، بعد أن زالت بيوتاتهم التجارية بها^(٢٨).

على أية حال، ورفم ما ارتكبه القراصنة من عدوان على سفن مسلمى شرق البحر المتوسط إلا أن التجارة الأوربية مع الماليك ظلت قائمة لأن الغرب المسيحى كان لا يستغنى عن التوابل

وكماليات الشرق التي تأتيه عن طريق مصر ومع ذلك فإن التجار اللاتين قل توافدهم على موانئ المماليك بسبب انتشار قراصنة الفرنج عامة والقطلان خاصة في البحر المتوسط واعتراضهم طريق أى سفينة متجهة إلى موانئ المماليك، حتى أنهم كانوا يمثلون الخطر الأكبر على تجارة قطلونيا نفسها. وأدى هذا إلى أن حكام المماليك منعوا تجارهم من دخول أسواق مصر والشام. ولا شك في أن نشاطهم هذا جر في كثير من الأحيان ثورة غضب المدن البحرية التجارية الأخرى عليهم حتى أن هذه المدن كانت تطارد العلم القطلوني في أى مكان في مياه المتوسط، انتقاماً لما يسببونه لهم من خسائر مادية وضرب لمصالحهم التجارية. لذلك أصدر مجلس الشيوخ البندقي أوامره إلى القائد العام للأسطول عام (١٤٧٤م / ٨٧٩هـ) بالبحث عن قراصنة قطلونيا أمثال «ريزو وسميلانا وألماريتشى» الذين اعتادوا مهاجمة سواحل قبرس ودولة المماليك مع ضرورة القبض عليهم وعدم السماح لهم بالهروب^(٢٩). وهذا يوضح لنا سبب خلو فندق جالية قطلونيا في الإسكندرية من نزلائه القطلونيين عام (١٤٨٣م / ٨٨٨هـ)^(٣٠) عند مرور فليكس فابري ورفاقه في رحلة الحج بالمدينة، فخصصه المسئولون في مصر لإيواء الحجاج اللاتين^(٣١). وكيفما كان الأمر، فقد ازدادت القرصنة على سفن المسلمين أو تلك التابعة لدولة مسيحية تتعامل مع المماليك. وإذا كان حكام المماليك قد حاولوا الحد من تجرم هؤلاء القراصنة على مصالحهم بأن وجهوا حملات بحرية لضرب أوكارهم في جزر البحر المتوسط، أو إقامة القلاع والاستحكامات العسكرية للدفاع عن سواحلهم، فقد كان لهم تصرف آخر داخل البلاد للانتقام من أعمال لصوص البحار. فبمجرد علم السلطان بأية حادثة قرصنة تعرضت لها جماعة من المسلمين أو ميناء تابع لهم على يد اللاتين، كان رد الفعل سريعاً: فكانت تلقى المسؤولية الجماعية الأجنبية وعلى رأسها قناصلهم رهائن لديهم يتحملون عواقب أى عمل عدائى ضد رعايا المماليك أو المسلمين عامة، فكانت تصدر أموالهم وتجارتهم، وتزج بهم في السجون إلى أن يتم التصالح بين الطرفين مع تعويض المتضررين. وقد كان ذلك في أعقاب تعرض الإسكندرية عام (١٣٦٥م / ٧٦٧هـ) لحملة بطرس لوزينيان^(٣٢)، فضلاً عن إغلاق أسواق مصر والشام في وجه التجار الأجانب عامة، مما دفعهم إلى الاتجاه نحو العراق من أجل الحصول على السلع التي حرمتهم مصر منها. ولكن حاكم بغداد آنذاك وهو «أويس ابن الشيخ» منعهم من الاتجار في بلاده إلى حين مصالحة حاكم مصر^(٣٣). وحادثة أخرى في بدايات القرن الخامس عشر الميلادى (بدايات القرن التاسع الهجرى) حين أسر أحد القراصنة القطلان وهو «بيير دى، لا راندا Pierre De La Randa» سفينة مصرية قرب سواحل

آسيا الصغرى وكان على متنها ما يقرب من مائة وخمسين مسلماً وحمولة ثمينة، وباع كل ما عليها من بشر وسلع إلى «چاكوب كريسبو» Jacopo Crispo حاكم جزيرة ناكسوس Naxos التى كانت تابعة للبندقية ، لذلك استدعى السلطان قنصل البندقية بالإسكندرية للمثول أمامه فى القاهرة، وطالبه بضرورة الضغط على حاكم ناكسوس لإطلاق سراح جميع المصريين المحتجزين لديه، وحين أبلغه القنصل بأن لا سلطان للبندقية على ذلك الحاكم وأن الجزيرة خاضعة لجمهورية الأدرياتيكى اسماً فقط، لم يقتنع السلطان بهذا الرد، وزج به فى السجن كرهينة. ومرة أخرى فى أخريات نفس القرن، استأجر بعض التجار المصريين سفناً بندقية أبحرت من الإسكندرية قاصدة المغرب، فحرت القافلة بجزيرة رودس اللاتينية فتعرضت السفن للسلب والنهب من الاسبتارية ويبدو أن ذلك تم بتحريض من القباطنة البنادقة. وبلغ السلطان الخبر، فانتقم من قنصل وتجار البندقية الموجودين بالإسكندرية، وصادر أموالهم وسجنهم^(٣٤). وأيا كانت جنسية القراصنة الذين يرتكبون الجريمة فكانت المسئولية تقع عادة على جاليات الفرنج عامة، ولكن كان الضرر الأكبر يصيب أعظم جالية موجودة فى دولة المماليك وكانت بالطبع هى جالية البندقية. وهذا ما حدث فى عهد السلطان قايتباى حين خطف قرصان بروفنسالى تاجرين مسلمين وتوجه بهما إلى وكر القراصنة اللاتين فى رودس حيث تم التحفظ عليهما لحسابه الخاص. ورداً على هذه الفعلة قبض السلطان على تجار البنادقة فى كل من مصر والشام كوسيلة للضغط على جمهوريتهم لإجبارهم على التدخل لإطلاق سراح التاجرين المسلمين وتسليم القرصان للسلطان^(٣٥).

هذا قليل من كثير من أمثلة عمليات القرصنة التى كان يقوم بها اللاتين ضد سفن أو موانئ المسلمين فى شرق البحر المتوسط ووسائل الرد عليها من قبل المماليك. ومهما يكن من أمر فلم يكن من السهل عودة سياسة الوفاق بين المماليك والتجار الأجانب بعد انقطاعها . وقد تظل مبتورة لفترات غير قصيرة رغم احتياج كل طرف للآخر. لذا كان لابد من تدخل طرف ثالث لإعادة المياه إلى مجاريها وإصلاح العلاقات بينهما. ولما كان التجار هم الفئة المتضررة فى المقام الأول، فإنه كان من الضرورى سعيهم بسرعة وإصرار لإعادة سياسة الوفاق بين الطرفين، كثيراً ما كانوا يقومون بدور الوسيط أو السفير لتلك المهمة الشاقة ، فيقع الاختيار على أحد التجار المرموقين وتكون له مكانة لدى الطرفين. وجدير بالذكر أن هؤلاء التجار الغربيين الذين كانوا يكلفون بتلك المهمة كانوا يخرجون من تلك الصفقة بمكاسب مادية كبيرة

يعوضون بها خسائرهم من السلع والأموال التي كان يستولى عليها المماليك في مناسبات مختلفة، فكانوا يزيدون مبالغ تعوض خسارتهم فوق الفدية التي كانوا يدفعونها للقراصنة لفك أسر المسلمين، ثم يقومون بتحصيل المبالغ كاملة من المماليك دون علم هؤلاء بالأعيب الوسيطاء الغربيين^(٣٦). ومن الشخصيات الهامة التي كان لها دور فعال في المفاوضات بين طرفي النزاع كان التاجر البندقي السكندري «بيلوتي - Piloti» الذي نجح في إعادة العلاقات بين البندقية ودولة المماليك وكانت قد انقطعت بسبب فعلة القرصان القطلاني «بيير دي لاروندا»^(٣٧). وهناك مثال آخر لرجل اقتصاد فرنسي مرموق وهو «جاك كير»^(٣٨) Jacques Coeur الذي عالج بحكمة الموقف المتدهور بين السلطان چقمق والتجار الأجانب بعد فشل الأول في حملاته الثلاث على رودس للرد على غارات القراصنة على سواحله، والتي كلفته الكثير من المال والرجال. فصب غضبه على التجار الأجانب في مصر تطبيقاً لمبدأ المسئولية الجماعية كعادة حكومة المماليك وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم لتغطية خسارته المادية. وخوفاً من تمادي السلطان في الانتقام، تدخل جاك كير هذا بين الطرفين، واستطاع إتمام عقد الصلح بين چقمق وأصحاب رودس من الإسبترية. وجدير بالذكر أن التواجد الفرنسي بدأ يأخذ شكلاً واضحاً متميزاً في مصر في أخريات حكم المماليك، بعد أن ضاق هؤلاء بالبندقية، صاحبة أكبر جالية أو أفضل مكانة في مصر، وسياستها ذات الوجهين. فاستغل قنصل فرنسا بالإسكندرية «فيليب دي بيرتز - Philippe de Peretz» تلك الظروف وأقنع السلطان الغوري بإمكانية لويس الثاني عشر ملك فرنسا مساعدته في إعادة سفن مصر التي كان قد استولى عليها الإسبترية في خليج إياس^(٣٩). لم يكن التجار المسيحيون الغربيون هم وحدهم الذين يلعبون دور الوسيط في تلك المفاوضات لفك أسر رعايا المماليك أو المسلمين عامة لدى القراصنة، إذ يشير ابن حجر العسقلاني في أحداث عام (٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) في عصر السلطان برقوق بتدخل أحد التجار المسلمين وهو «الخوaja على» للقيام بمهمة إعادة التجار المصريين الذين كانت قد أسرتهم جماعة من قراصنة چنوة أثناء الصراع البندقي الجنوي^(٤٠). على أية حال فإن تلك المهمة التي يقوم بها التجار لم تكن جديدة عليهم في تلك الفترة، فقد أشارت المصادر أثناء التواجد الصليبي في إمارات الساحل الشامي، عن تقدم تجار مسلمين أمثال «نصر بن قوام» و«أبا الدر ياقوت» وهما من دمشق ببذل أموال لافتكاك الأسرى المغاربة المسلمين من أيدي الصليبيين^(٤١).

وكيفما كان الأمر فإن القرصنة اللاتينية ضد مصالح الممالك في شرق البحر المتوسط كانت إحدى الوسائل العسكرية التي شرعتها البابوية بطريق غير مباشر حين كلفت الرهبان العسكريين بمراقبة سفن التجار الغربيين التي تتجه لسواحل المسلمين، والنيل منها، مما شجع المغامرين اللاتين على التمداد في القرصنة ضد المسلمين باسم الصليب والحرب المقدسة لحسابهم الخاص. وظلت تلك العمليات منتشرة في شرق البحر المتوسط يمارسها اللاتين طالما لم يكن في إمكانهم مواجهة قوة الممالك العسكرية في حملة تقليدية جامعة، وقد صدهم الممالك بطرق شتى سواء بإقامة الاستحكامات العسكرية والقلاع أو التصدي لهجماتهم على سواحل دولتهم أو بالخروج في تجريدات بحرية عسكرية على أوكارهم في جزر البحر المتوسط ، كان منها ما ينجح ومنها ما يفشل ، لذا كان حكام الممالك ينتقمون لدولتهم بتطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية على التجار الأجانب فصادروا سلعهم وأموالهم في موانئ مصر والشام وزجوا بهم في السجون إلى أن يتم التدخل من قبل بعض الوسطاء لإعادة سياسة الوفاق بين الممالك والتجار الغربيين. ومع ذلك ظل القراصنة يستنزفون موارد مصر، خاصة بعد أن أحكم الغرب الحصار الاقتصادي عليها من الشمال والجنوب، وهزمت أمام أسطول البرتغال في البحار الشرقية، وأصبحت فريسة سهلة للنال للجيش العثماني في عام ١٥١٦م ثم ١٥١٧ ، لتسقط دولة الممالك المستقلة وتصبح مصر ولاية تدور في فلك الدولة العثمانية .

الهوامش

- ١- Burns , R. I., Moslems, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia , - Camb., 1986 , p. 109 .
- ٢- Depping , G.B., Hist Du Com. Entre le Levant et L'Europe, T.II, Paris, 1830, pp. 172-173 .
- ٣- Heyd, W., Hist Du Com. Du Levant, T.II, Leipzig, 1886, p. 27 .
- ٤- Depping, Op. cit., T.II, p. 176 .
- ٥- Ibid., pp. 188-189 .
- ٦- المقرئ: نفع الطبيب فى غصن الأندلس الرطب، ج ١، القاهرة، ١٣٦٧-١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٣٠٠-٣٠٥ : Heyd, Op. cit., p. 25
- ٧- Ibid., p. 28 .
- ٨- وروث فرسان القديس يوحنا أو الاستبارية نشاط الداوية فى قبرس، وبعد سقوط تلك الجزيرة فى أيدى المماليك انتقلوا إلى رودس.
- ٩- Ibid., p. 29 .
- ١٠- Jorga, N., Philippe de Mézières, Paris, 1896, pp. 410-411 .
- ١١- أحمد دراج: المماليك والفرنج ، القاهرة، ١٩٦١، ص ٩ .
- ١٢- أحمد مختار العبادى: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص ٦٠٢ .
- ١٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص ٩ : انظر أيضاً:
- ١٤- Heyd, Op. cit., II, p. 472 ; Jorga, N., Rhodes sous les Hospitaliers, extrait de la Revue Historique, T. VIII, Paris- Bucarest, 1931 , pp. 102-103, 176 .
- ١٤- راجع ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر بأنباء العمر، مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٤٧٦ تاريخ ، ج ١، ورقة ١٩٩، ٢٤٤، ٥٧٩، ٦٢٩، ٦٣٠ : العيني: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوطة بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ ، لوحة ١٩٦، ١٩٧، ٤٣٠ : راجع أيضاً : Coville, A., France: Ar-magnacs and Burgundians, in Camb. Medieval Hist., vol VII, Camb., 1932 , p. 376.
- ١٥- حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٥١ .
- ١٦- فليكس فابرى ألمانى جاء فى عام ١٤٨٣م / ٨٨٨هـ مع مجموعة من رفاقه لأداء الحج فى بيت المقدس. و مر بمدن كثيرة فى مصر ودون مشاهداته فيها .

- ١٧- Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture, Indiana, 1966, p. 184 .
- ١٨- ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق، ج ٢، ورقة ١٥٥-١٩٦ .
- ١٩- نفس المصدر ، ج ١ ، ورقة ٢٦٥ .
- ٢٠- حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق ، إسكندرية، ١٩٨٦، ص ٧٨ .
- ٢١- Depping, Op. cit., T.I, p. 159 .
- ٢٢- عن هذه المقترحات انظر : Adae , G., de Modo Sarrace nos Extripandi, R.H.C.- Doc . Arm T.II, pp. 523-528; cf . also, Depping, Op. cit., T.II, pp. 194-195 .
- ٢٣- أحمد دراج : المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣؛ انظر أيضاً :
- Ziada, M.M., the mamluk Conquest of Cyprus in the 15th cent., in Bul. of the fac. of Arts, Cairo Univ. vol. I, May 1933, p. 91 .
- ٢٤- أحمد دراج : نفس المرجع ، ص ٥٣ .
- ٢٥- هذه الإقامة تعرف « بنصف مواطنة » وفيها تمنح حكومة الماليك بعض أفراد الجاليات الأجنبية الإقامة الدائمة في أراضيها ولكن دون أن يتمتعوا بحقوق المواطن المصري. أنظر:
- Heyd, Op. cit. T. II, p. 473 .
- ٢٦- أحمد دراج : نفس المرجع، ص ٢٨ .
- ٢٧- Ibid., T.II, p. 486 .
- ٢٨- Loc. cit .
- ٢٩- Mas Latrie , M. L. de , Hist. De l'île de Chypre, T.III, Paris, 1855, pp. 402-403 .
- ٣٠- Heyd, Op. cit., II, p. 486 .
- ٣١- Ibid, II, p. 433 .
- ٣٣- النويري السكندري: الإلمام، ج ١ ، حيدر آباد، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ٣٢٦-٣٣٥؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ورقة ١٧٧ .
- ٣٣- النويري السكندري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣١ .
- ٣٤- Ibid., II, p. 455 .
- ٣٥- Ibid., II, p. 496 .

٣٦- أحمد دراج: المرجع السابق، ص ٢٦ .

٣٧- Dopp, un Corsaire du 15^é Siécle, Bul. of the fac. of Arts, Cairo Uni., vol XI, part II, 1949, pp. 10-12, 17-18 .

٣٨- عن شخصية جاك كبير أنظر : Pirenne, H., Cohen, G., Focillon , H., la Civilisation Occ. au Moyen Age , Paris, 1941, pp. 184-185, 549-550 note 4 ; Brinton, C., Christopher, J., Wolff, R., Ahist. of Civilisation, vol . I, 3rd ed. New Jersey, 1967 , p. 417 ; Hoyt, R.S., Chodorow, St. Europe in the Middle Ages, 3rd ed., New York, 1967, pp. 638-639.

٣٩- أحمد دراج : المرجع السابق، ص ١٤٩ .

٤٠- ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ورقة ٢٦٥ .

٤١- ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، كتاب التحرير عن طبعة جيب، القاهرة ، ص٢١٤-٢١٥ .

دعوة التوحيد وأثرها في تغيير مجرى السياسة في الدولة الإسلامية في الأندلس

نجم عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي أحاطت بالدولة الإسلامية في الأندلس في ظل حكم أمراء الطوائف أن ظهرت ما عرف في التاريخ الأندلسي (بدعوة التوحيد) التي قصد بها دعوة أمراء الطوائف وأبناء الدولة الإسلامية لتوحيد الصف وجمع الكلمة وتأليف القلوب ليكونوا جميعاً يداً واحدة في مواجهة الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى في شمال الدولة الإسلامية في الأندلس. وقد نادى بتلك الدعوة عدد كبير من أبناء الأندلس يمثلهم الفقهاء والعلماء والأدباء والقراء في محاولة جادة منهم لإنقاذ الكيان الإسلامي من السقوط في أيدي الأعداء الذين وجدوا في ضعف الدولة الإسلامية وتفككها فرصة سانحة للعودة بها إلى نطاق العالم المسيحي مرة أخرى، وقد تمثلت هذه الأطماع النصرانية في شن هجمات متكررة على دولة المسلمين بالأندلس. وازدادت هذه الهجمات وحشية وضراوة في عهد الفونس السادس ملك قشتالة. ومن الملاحظ أن هذه الدعوة لم تظهر من فراغ وإنما كان هناك عدد من الدوافع والمبررات التي أدت إلى قيامها.

فمن هذه الدوافع:

أولاً : سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في الأندلس في عهد أمراء الطوائف ، ومن ثم فقد قامت هذه الدعوة كنتيجة حتمية لهذه الأحوال السيئة التي كانت تمر بها البلاد والعباد^(١).

ومن المعروف أن دول الطوائف بدأت تظهر على ساحة التاريخ الأندلسي الإسلامي منذ انهيار الدولة العامرية^(٢) ، وعلى وجه التحديد في عهد آخر أمرائها عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، الملقب بشنجول في بداية عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م والذي لقي مصرعه على يد الخليفة محمد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر^(٣) بسبب تقربه من الخليفة هشام بن الحكم وإقناعه بإسناد الخلافة إليه من بعده ، فنزل الخليفة على رغبته وتم له ذلك.

وقد ذكر تلك الحادثة ابن عذاري نقلاً عن ابن حيان بقوله : (فأطال الخلوة به ، والتقرب منه حتى استدنى نسبه بالحنوالة ، إذ كانت أمهما بشكيتين^(٤) فقدرها عبد الرحمن بجهله قرابة ، وسما بها إلى ميراث الخلافة^(٥)).

وقد أثارت تلك الحادثة غضب أمراء بنى أمية لأنهم رأوا فيها انتزاع الخلافة منهم وإسنادها إلى الأسرة العامرية. لذلك التف أمراء بنى أمية حول الأمير الأموي محمد بن هشام بن عبد الجبار وعينوه خليفة عليهم ، وعملوا على تنحية الخليفة هشام بن الحكم من الخلافة. وكان عهد الخليفة محمد بن هشام بداية لعهد الفوضى واختلال الأمن في الأندلس^(٦) ، مما تسبب في صراع مرير بين أمراء البيت الأموي ، وبالتالي بين عناصر سكانها من العرب والبربر والصقالبة وأهالي قرطبة ، وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في عهد آخر خلفائها (هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر) (هشام الثالث) الملقب بالمعتد بالله (٤٢٠هـ) إذ قتل على أيدي العامة من أهل قرطبة^(٧) ، وتولى الأمر في قرطبة أبو الحزم بن جهور^(٨) بن محمد بن جهور. ومن هنا بدأ ظهور ما عرف في تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس بعصر أمراء الطوائف.

ولقد صور تلك الفترة في تاريخ بنى أمية في الأندلس المؤرخ ابن الخطيب بقوله : (ومشى البريد في الأسواق والأرياض أن لا يبقى أحد من بنى أمية ولا يكتنفهم أحد)^(٩).

وهكذا ، أدى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وعدم وجود سلطان شرعي يوحد عناصر

السكان المتعددة الأصول فى ذلك القطر الإسلامى إلى انفصام عرى الوحدة وقيام ما عرف بدول الطوائف (١٠)، فانقسمت الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى دويلات صغيرة تمثل العناصر السكانية فيها، واستقلت كل دولة بشؤونها، وذلك على النحو التالى :

العنصر الأول وكان يمثل العرب الموالون للأمويين إذ ظهرت دولتان فى حوض النهر الكبير وهما دولة بنى جهور (١١) من موالى بنى أمية فى قرطبة ودولة بنى عباد (١٢) اللخميون فى إشبيلية (١٣). والعنصر الثانى وكان يمثل البربر حيث ظهرت دولة بنى ذى النون (١٤) فى طليطلة (١٥) فى الشجر الأوسط، وينسبون إلى بربر هواره (١٦)، ودولة بنى الأقطس (١٧) وينسبون إلى بربر مكناسة (١٨) وأسسوا دولتهم فى مدينة بطليوس (١٩) التى أصبحت عاصمة الشجر الأعلى، ودولة بنى هود (٢٠) فى سرقسطة (٢١) ودولة بنى زيرى (٢٢) فى أقصى جنوب الأندلس فى غرناطة (٢٣). وأما الصقالبة الذين خدموا بنى أمية فقد أصبح لهم نفوذ ومكانة فى قصورهم وأنشأوا لهم دويلات صغيرة فى شرق الأندلس (٢٥).

والواقع إن دولة المسلمين فى الأندلس غدت تضم أكثر من خمسين دولة (٢٦) تفاوتت فى المساحة والأهمية، كما تفاوتت فى أعمارها؛ فبعضها استمر قائماً لسنوات طويلة والبعض الآخر لم يتجاوز عمره السنوات الخمس (٢٧).

ويظهر دول الطوائف بدأت أسس الدولة الإسلامية فى الأندلس فى الانهيار والتصدع، وأصبحت تتألف من فرق متنازعة لاتربط بينها رابطة إخاء ولا تجمع بينها أواصر محبة أو مصالح مشتركة، بل ظهرت بينهم المنافسات الحادة نتيجة للأطماع الشخصية. وقد صور ابن الخطيب ذلك الوضع الذى أصبحت عليه الدولة الإسلامية فى الأندلس فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها بقوله: (وذهب أهل الأندلس فى الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم فى الخلافة إرث، ولا فى الإمارة كسب، ولا فى الفروسية نسب، ولا فى شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار) (٢٨).

وعبر عن ذلك الوضع الشاعر الحسن بن رشيق (٢٩) بقوله:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر وذهب العين جميعا واندثر
قام بكل بقعة مليك وصاح فى كل غصن ديك

وقد سلك كل أمير من أمراء الطوائف طرقاً ملتوية لإضفاء صبغة شرعية على حكمه تتفق وصورة الخلافة^(٣٠). وأطلقوا على أنفسهم الألقاب والتعوت التي أطلقها الخلفاء في المشرق وأمراء الطوائف في المغرب على أنفسهم. وعبر عن ذلك ابن حزم بقوله: (ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب جدا حتى تسمى بهذه الأسماء السماسرة من رذالات الناس)^(٣١).

ومن الملاحظ أن أمراء الطوائف غلبت عليهم الذلة والمهانة أمام أعدائهم النصارى، خاصة أمام الفونس السادس ملك قشتالة، الذي استغل ضعفهم وتفككهم وتناحرهم فيما بينهم فقام بابتزازهم وفرض عليهم إتاوة سنوية تدفع له مقابل إبقائهم على عروشهم وتحقيق أطماعهم في القضاء على إخوانهم من أمراء ممالك الطوائف الأخرى^(٣٢).

وقد أشار إلى ذلك ابن بسام نقلاً عن الفقيه أبى بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة^(٣٣) والذي صور مدى ما وصل إليه أمراء الطوائف من المهانة والذلة أمام أعدائهم النصارى بشيء من الألم والحسرة إذ قال: (وكاتب ملوك الروم مدة ملوك الطوائف بأفقتنا، قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانتقياد. ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصنعوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ، مما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة وإلى ما يتبعها من الهديات والنفقات)^(٣٤). أما عن علاقة أمراء الطوائف بعضهم ببعض فكانت يسودها الخوف والحذر والطمع، خوف الضعيف من اعتداء القوى والحذر منه، وطمع القوى فيما لدى الضعيف من ممتلكات ومحاولة ضمها إليه، مما دفع كثير منهم إلى عقد معاهدات صداقة وتحالف مع ملوك النصارى لتحقيق أطماعهم، مما يدل على عدم الانتماء الدينى الوطنى لدى كثير منهم من ذلك أن الأمير عبدالله بلقين ملك غرناطة تأمر مع ألفونس السادس ملك قشتالة وعقد معه معاهدة حلف وصداقة، تعهد فيها الأمير عبدالله بدفع جزية لألفونس تقدر بعشرين ألف دينار مقابل أن يمده الفونس السادس بسرية من جنده يستخدمها الأمير عبدالله فى الإغارة على أراضى إشبيلية. واستطاع بهذه القوة من استرداد حصن (قبره)^(٣٥) من بنى عباد وهو الحصن الواقع جنوبى غربى مدينة (جيان)^(٣٦). وكذلك تفويض المعتمد بن عباد لوزيره ابن عمار^(٣٧) بعقد معاهدة مع الفونس السادس ملك قشتالة يدفع بمقتضاها الفونس السادس لابن عباد الجنود المرتزقة ليستعين بها ضد أعدائه من أمراء الطوائف ويتعهد له المعتمد بن عباد مقابل ذلك بدفع المال اللازم وبعدم اعتراضه على غزو مدينة طليطلة^(٣٨).

وكان لذلك التصرف أثر كبير فى نفوس أدباء ومؤرخى وأبناء الأندلس، وعبر عن ذلك ابن حزم بشئ من اللوعة والحسرة بقوله : (أقسم بالله بأن هؤلاء الملوك لو علموا أن لعبادة الصليبان تمشية لأموهم لبادروا إليها) إلى أن يقول (فنحن نراهم يستخدمون النصارى يكتنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسرى إلى بلادهم وربما أعطوهم المدن والقلاع فأخلوها عن الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه) (٣٩).

ولم تكن حالة التفكك والضياع التى نشأت كنتيجة حتمية للتنازع والتطاحن بين أمراء الطوائف قاصرة على هؤلاء الأمراء فقط، وإنما امتدت إلى أفراد الأسرة الواحدة كالحروب الأهلية القديمة التى قامت بين المقتدر حاكم مملكة سرقسطة وإخوته الأربعة، والتى انتهت بتقسيم مملكة سرقسطة بينهم بعد أن استعان كل من هذين الأخوين بالنصارى للقضاء على الآخر (٤٠). وقد صور تلك الحالة ابن الخطيب بقوله : (وجعل الله بين أولئك الأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم من الله يد، ولانشأت على التعاضد عزم) (٤١)، أما ابن حزم فقد وصف أمراء الطوائف بأنهم (محاربون لله ولرسوله ، ساعين بالفساد فى الأرض) وذلك عندما أجاب من استفتاه فى أمرهم (٤٢).

أما الفقيه ابن عبد البر (٤٣) فربما قصد أمراء الطوائف عندما تحدث عن الخيل المعدة للجهاد وفضلها حيث قال : (إلا إذا كانت معدة للفتن وقتل المسلمين وسلبهم وتفرق جمعهم وتشريدهم عن أوطانهم ، فتلك خيل الشيطان وأربابها حزيه وفى مثلها ، والله أعلم) (٤٤).

وربما كان يقصد من وراء ذلك التنديد بالسياسة التى سار عليها أمراء الطوائف والتى كانت قائمة على التشاحن والتطاحن فيما بينهم، وما يملكه كل منهم من قوة عسكرية هى فى ظاهر أمرها معدة للدفاع عن الإسلام، ولكنها فى حقيقة أمرها معدة للقضاء على إخوانهم المسلمين.

أما ابن حيان (٤٥) فقد تعرض للسياسة التى سار عليها أمراء الطوائف بقوله : (فلقد ركبت سنن من تقدمنى فيما جمعته من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه، وأودعت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المنتزين فى البلاد عليهم، وسبب انتقاص دولهم) إلى أن يقول : (وما جرى فى مددهم وأعصارهم من الحروب

الطوائف، والوقائع والملاحم إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ووفاء العلماء والأشراف (٤٦).
ووصف الفتنة التي أدت إلى قيام ممالك الطوائف بقوله: (هذه الفتنة البربرية الشنعاء المداهمة،
المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤتلة المغربية الشأن على جميع ما مضى من الفتن
الإسلامية) (٤٧).

أما عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس في ظل
أمراء الطوائف فلم تكن أوفر حظاً من الحالة السياسية في عهدهم ، إذ كان للحالة السياسية
أثر كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأمنية في البلاد ، وذلك من جراء التقلبات
السياسية والحروب الأهلية المستمرة والمتواصلة بين الحكام الطوائف. ولعل أبلغ صورة لذلك
الوضع الاجتماعي والاقتصادي هو ما ذكره الشاعر الأندلسي أبوطالب بن عبد الجبار (٤٨)
بقوله:

ثم تبادت هذه الطوائف تخلفهم من آلهم خوالف
فأهملوا البلاد والعباد وعطلوا الثغور والجهاد
وزادهم في الجهل والخذلان أن ظاهروا عصابة الصليان
فاستولت الروم على البلاد واستعبدوا حرائر العباد
وفتكوا الرجال كيف شاءوا وضاع دلو الدين والرشاد (٤٩)

أما ابن حزم فقد وصف تلك الحياة الاقتصادية المتردية في ظل حكم أمراء الطوائف من
جاء الضرائب الباهظة المرهقة للسكان بقوله : (والذي ترونه من شتم الغارات على أموال
المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة
التي يفيضون على أهلها ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على
قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما
حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيمهم) (٥٠).

كذلك ندد ابن حزم بالأمر المستحدث ، التي دخلت على أهالي الأندلس ولم تكن معروفة
لديهم من قبل مثل إنهاكهم بالمغارم والضرائب التي أثقلت عواتقهم والتي كان لها أثر عظيم
في انحطاط الحياة الاقتصادية في الأندلس بقوله : (والمغارم التي كان يقبضها السلاطين فإنما
هي على الأرضين) إلى أن يقول (واليوم فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة

يؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل، وعلى كل حليبة بشيء، وقبالات تؤدي على كل ما يباع في الأسواق، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد، وهذا كله ما يقبضه المستغلون اليوم^(٥١). ولعل ما ذكره الشاعر أبو حفص العروضي الزكرمي بأفريقية، مما قاله بالأندلس محتجاً على مطالبته بمكس كان يتولاه يهودي، يعطى صورة واضحة لذلك الوضع الاقتصادي المتردى في ظل حكم أمراء الطوائف بالأندلس حيث قال:

يا أهل دانية لقد خالفتكم حكم الشريعة والمسرة فينا
مالي أراكم تأمرون بضد ما أمرت ترى نسخ الإله فينا
كنا نطالب لليهود بجزية وأرى اليهود بجزية طلبونا^(٥٢)

وقد صور المؤرخ ابن عبد البر تلك الحالة التي كان يسير عليها أمراء الطوائف في سياستهم في الأندلس بشيء من النقد والإدانة مما أسهم في إضعاف الحالة الاقتصادية بقوله : (كل من غلب على موضع ملكه استعبد أهله وكثر فيها الأمراء فضعفوا وصاروا خولا للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذونه منهم)^(٥٣). كما يوضح تلك الصورة ما ذكره ابن بسام نقلا عن ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبوبكر عمر بن سليمان - المعروف بابن القصيرة- في رسالة كتبها على لسان المعتمد بن عباد، يخاطب بها القواد لتحصيل الأموال من الرعية، بالرغم مما أحاطهم من كوارث طبيعية حيث قال : (الحال مع العدو قصمه الله لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف معروفة لا تفتقر إلى نعت ولا وصف) إلى أن يقول : (ورق الاتفاق معه على جملة من المال تقدم إليه، ونستكف بها الشر الموهوب لديه، فكم حال كانت بخروجه تتلف، ونعمة ما بأيدي طاغيته تنسف والرعية- أخطاها الله- في هذا العام على ما تقتضيه ما عم بالبلاد من الفساد، وشملها من جائحة القحط والجراد وتكليفها أداء شيء من المال) إلى أن يقول (فلقد أدرجت على رقعتي هذه عنذاقا تسمى الحذفة مثلك فيه ورسم على كل واحد منهم، ما توجب الحال وتقتضيه فتقدم فيما نصصته في الحال إليهم، وكلمهم ما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم)^(٥٤).

ولعل ما ذكره المقرئ نقلا عن صاحب (مناهج الفكر) يعطى صورة واضحة لما كانت عليه الحال في الأندلس في ظل أمراء الطوائف حيث جاء فيما نقله (ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لما لكها في سلك الإنقياد والوفاق إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم

يشن الغارة على جاره ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادى، ويرأوح معاقلهم بالعبث ويغادى، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقررة وأتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك في الكتاب مسطور وقدرأ في سابق علم الله مقدوراً^(٥٥).

وتبدو هذه الظاهرة واضحة في السياسة التي اتبعها عبد الملك بن جهور مع رعاياه حيث بالغ في الاستيلاء على أموال الناس وضمها إليه، وقد أشار ابن سهل لتلك الحادثة حيث ذكر أنه أقيمت عليه دعوى بذلك الشأن بعد سقوط دولة الجهاورة فحكم عليه برد المظالم إلى أهلها^(٥٦). هذا فضلا عما كان عليه أمراء الطوائف من انحلال خلقى واجتماعى أثناء حكمهم في الأندلس والذي كان نتيجة طبيعية لانصرافهم عن خالقهم وتهاونهم في دينهم، مما كانت له نتائجها الوخيمة على ذلك المجتمع، إذ مهد الطريق لأعدائهم النصارى للإطاحة بهم بعد أن اطلعوا على أوضاعهم المزرية، وأدركوا ما هم عليه من انحلال وفساد، وهكذا زالت هيبتهم من نفوس أعدائهم، وزادت رغبتهم في القضاء عليهم. ولعل ما خاطب به السيد القمبيطور أهالى بلنسية أوضح دليل على ذلك، حيث جاء في خطابه الذى وجهه لأهالى بلنسية قوله (من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم ولا أخلو إلى النساء والشراب والفساد كما كان يفعل أولو أموركم ما لم يمكنكم قط من رؤيتهم)^(٥٧).

ثانياً : الهجمات المتواصلة والمتكررة من فرناندو الأول ابن سانشو الكبير ملك قشتالة على الدولة الإسلامية في الأندلس منذ عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م، واحتلاله كثير من القلاع الإسلامية فيها. ذلك أنه قرر غزو مملكتهم وإخضاعها تحت سيادته، فقام بغزو أراضى المظفر بن الأقطس في بطليوس وعمل على تخريبها، واستولى على عدد من مدنها، دون أن يصادف أية مقاومة من ملكها المظفر بن الأقطس الذى وقف عاجزاً أمام تلك الحشود الهائلة من جيوش النصارى، فلجأ إلى محاولة التوصل إلى حل سلمى مع (فرناندو الأول) وتعهد له بدفع ضريبة سنوية تبلغ خمسة آلاف دينار ذهباً مع تبعيته التامة لملك قشتالة^(٥٨) ثم توجه (فرناندو الأول) إلى سرقسطة التى كانت تابعة لابن هود فقام بغزوها وتدميرها، وصالح ابن هود على أساس التبعية التامة له مقابل الانسحاب من أراضيه. وبعد ذلك واصل سيره إلى طليطلة يحدوه ويدفعه الأمل فى إخضاعها لطاعته. وكانت تحت حكم المأمون بن ذى النون فعبر

حدودها، واحتل كثيراً من الحصون والقلاع الهامة التى تقع على الحدود مع أسبانيا النصرانية. ولعل من العوامل التى جعلت أبناء الأندلس يذعنون لتلك الضربات غزو النورمان لمدينة برشتر^(٥٩) عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م فى عهد حاكمها المقتدر بن هود، إذ كانت تلك الغزوة من أعظم الكوارث والمحن التى حلت بدولة الإسلام فى الأندلس فى عهد أمراء الطوائف. وقد^(٦٠) ذكرها ابن بسام نقلاً عن ابن حيان قوله : (ولقد أفشيننا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة)^(٦١) وأورد منها ابن بسام نقلاً عن ابن حيان حوادث مؤلمة كحادثة القتل الجماعى الذى تعرض له أهالى مدينة برشتر على أيدي النصارى وقطع المياه عنهم وأسر نسائهم وهتك أعراضهم^(٦٢) ولعل السبب الرئيسى الذى يعتبر دفاعاً قوياً لظهور هذه الدعوة هو سقوط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) على يد (الفونس السادس)^(٦٣) ملك قشتالة^(٦٤).

وهكذا فإن حركة الاسترداد التى قام بها ملوك النصارى اشتدت ضراوة فى عهد (الفونس السادس) الذى بعث هذه الحروب بين المسلمين والنصارى من جديد^(٦٥) حيث باتت أطماعه تزداد شراهة فلم يعد يقتنع بأخذ الأموال من أمراء الطوائف، وإنما امتدت أطماعه إلى الحصون والمدن فى الأندلس، فأخذ يشن غارات مكثفة عليها. وكان إن ركز اهتمامه فى الاستيلاء على مدينة طليطلة، فبدأ بمحاصرتها حتى سقطت فى يده عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. وصور ابن بسام تلك الحادثة التاريخية المؤلمة بقوله : (وعشا الطاغية (أدفونش) - قصمه الله - استقراره بطليطلة واستكبر بأمراء الطوائف فى الجزيرة وقصر وأخذ يتحنى ويتعقب ، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم ، والفرع من شأنهم ويتسبب ورأوا أنهم وقفوا دون مداه، ودخلوا تحت عصاه)^(٦٦).

وعبر ذو الوزارتين أبوبكر محمد سليمان عن استخفاف ألفونس السادس بأمراء الطوائف، فيما نقله عنه ابن بسام بقوله : (ولما كلب العدو فى ذلك التاريخ ، وأعضل دأؤه ، وجعل يطأ بلاد المسلمين آمناً لا يخاف ، وأنسا لا يستوحش، مقدماً لا يقعى، ومجترباً لا يرتدع ، ينزل بساحات القواعد الرفيعة، والقلاع المنيعة، فيعقب الآثار ويستبيح الدمار، ويهتك مصون الأستار ، ورمت لها الأنوف ، واستعذبت معها الختوف ، وحميت منها النفوس الأبية، والعدو فى ذلك ثلج الفؤاد ، رابط الجأش لا يرقب سنان دافع ولا يبدو له سنان سيف مدافع، لأن أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون ملوك الروم)^(٦٧).

وكان لسقوط مدينة طليطلة على يد (الفونس السادس) أسوأ الأثر فى نفس أبناء الدولة الإسلامية فى الأندلس، فعبروا عن تلك المأساة ومدى تأثيرهم بها فى انتاجهم الفكرى والأدبى ومن ذلك على سبيل المثال قول الشاعر عبدالله بن فرج الطليطلى المشهور بابن العسال^(٦٨):

حشوا رجالكم يا أهل الأندلس فما المقام بها إلا من الغلظ
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منشورا من الوسط
وتحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى السقط^(٦٩)

كذلك عبر عن هذه الحادثة شاعر مجهول من أبناء الأندلس بقوله:

ثكلتك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما سبيت ثغور
لقد قصمت ظهور حين قالوا أمير الكافرين له ظهور
مساجدها كنائس أى قلب على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور^(٧٠)

وقال آخر :

ألم تروا فيلق الكفار فرزنه^(٧١) وشاهنا آخر الأبيات شهات^(٧٢)

وصاحب سقوط طليطلة سقوط عدد كبير من المدن والحصون المحيطة بها، والتي قدرت بشماتين وحدة من أهمها مدينة بلنسية^(٧٣)، التي صور مأساة سقوطها الشاعر البلنسى المعاصر أبو اسحاق بن خفاجة^(٧٤) بقوله :

عاشت بساحتك الضبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردى فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستكبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار^(٧٥)

وهكذا .. كان سقوط مدينة طليطلة فى يد (الفونس السادس) وما يتبعها من سقوط مدن وقلاع وثغور سببا جوهريا للحداثة بدعوة التوحيد بكل جد وحماسة من قبل أبناء الأندلس كافة، كما كان لها أثر كبير فى استيقاظ أمراء الطوائف من غفلتهم وتخليتهم عن أنانيتهم ، وذلك بعد أن أدركوا مدى خطورة هذا الأمر عليهم وأنه نتيجة حتمية لحالة التنازع والتناحر فيما بينهم، والتي سار عليها ساستهم، فكانت تلك الحادثة بمثابة الدافع المحرك لتقارب أهوائهم واتفاق آرائهم واتحاد مصالحهم، وخاصة بعد أن رأوا أن (الفونس السادس) ملك

قشتالة قد تمادى فى طغيانه بعد سقوط مدينة طليطلة ، فامتدت أطماعه إلى الاستيلاء على مدن الأندلس كافة وكان أن بدأ بتهديد المعتمد بن عباد حاكم مدينة أشبيلية وقرطبة ، وأنذره بمهاجمة مدينة قرطبة إذا هو لم يسلم جميع حصونها التى على الجبل له ، كما رفض الجزية التى كان يقدمها له المعتمد بن عباد^(٧٦) وعندما سمع مشايخ قرطبة بذلك التهديد ، أثر ذلك التعنت والتسلط من قبل الفونس السادس فى نفوسهم ، فاجتمعوا للتباحث والتشاور فيما بينهم ، واتفقوا على الاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

القائمون بالدعوة وجهودهم فيها :

وهكذا كان لهذه الأحداث والظروف السيئة التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى الأندلس أثر كبير فى ظهور دعوة التوحيد التى نادى بها كثير من أبناء الأندلس على مختلف طبقاتهم ، وذلك بعد أن أدركوا مدى الخطر المحيط بدينهم ودولتهم فى الأندلس. وقد انبثقت دعوتهم هذه عن محاولة جادة منهم فى سبيل إنقاذ دولتهم من الأطماع النصرانية ، التى وجدت فى تفككها وضعفها وتخاذل أمراءها فرصة سانحة لإعادتها إلى أملاك الدولة النصرانية مرة أخرى^(٧٧).

وقام بهذه الدعوة عدد من أبناء الأندلس تحذوهم إلى ذلك غيرتهم على دينهم وأمتهم ، فظهرت مشاركتهم فى هذه الدعوة بأشكال وأساليب مختلفة ، كالنصح والإرشاد فى رسالة موجهة إلى أمراء الطوائف ، أو كلمة للبيان الوصفى للحال التى وصلت إليها دولتهم بشيء من التذمر والأسى على تلك الحال لتخاذل أمرائها أمام أعدائهم النصارى^(٧٨).

وكانت الدعوة إلى التوحيد شعوراً صادقاً من قبل هؤلاء الدعاة موجهة إلى أمراء الطوائف داعين إياهم إلى توحيد الصف وجمع الكلمة ونبذ الفرقة^(٧٩) حيث أن ذلك هو الدواء الفعال لذلك الداء الذى ظل ملازماً لدولتهم طيلة فترة حكم أمراء الطوائف .

ومن أبرز هؤلاء الدعاة الذين كانت لهم جهود فعالة فى دعوة التوحيد هذه ، القاضى أبو الوليد الباجى^(٨٠). ولعله أول من ابتدر هذه الدعوة ونادى بها ، وذلك بعد عودته من رحلته العلمية إلى بلاد المشرق الإسلامى ، والتى امتدت ما يقارب الثلاثة عشر سنة - ٤٢٦هـ / ٤٤٠هـ^(٨١) - وقد بدأ دعوته لتوحيد الصف وجمع الكلمة بالتردد على مدن المشرق الأندلسى سرقسطة ، وبلنسية^(٨٢) ومرسية^(٨٣) ودانية^(٨٤) ناصحاً وواعظاً لأمراء الطوائف ، داعياً إياهم لنبذ الفرقة والتشاحن ، حاثاً إياهم على التوحيد والائتلاف فيما بينهم.

وقد ذكر ذلك القاضى عياض عندما تحدث عن سيرته الذاتية ، معللا سبب قدومه إلى مدينة المرية أنه كان سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام ويدعوهم إلى جمع كلمتهم مع جنود المغرب والمرابطين ، ولكنه توفي رحمه الله قبل أن يتم مهمته^(٨٥).

ولم تكن مهمة أبى الوليد الباجى مقتصرة على أمراء الطوائف فقط، بل شملت أبناء الأندلس عامة، وذلك من خلال لقائه بهم وإقراءه لهم وتدرسه لهم فى مساجد مدن الأندلس المختلفة. ولعله زاد تحمسا لهذه الدعوة وإصرار على إظهارها وإنجاحها بعد أن تولى القضاء فى مدن مختلفة من الأندلس واشتغل بالتدريس فعرف واشتهر بمكانته العلمية^(٨٦). وقد أشار إلى جهوده المثمرة فى تلك الدعوة القاضى عياض فقال عنه : (وكان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ، ويقبل جوائزهم، وهم له فى غاية البر)^(٨٧) كما أشار إلى جهوده أيضا ابن بسام مبينا دوره كناصح ومرشد لأمراء الطوائف فقال عنه : (ثم نازعه هوى نفسه إلى مسقط رأسه، ومنبت غرسه من أرض الأندلس، فورد وعشب بلادها وناب وظفر) إلى أن يقول (وملوكها أضداد وهواء أهلها ضغائن وأحقاد ، وعزائمهم فى الأرض فساد وإفساد ، فاسق على ما ضيعه وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين أمراء أهل الجزيرة بصلة ما أنبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن من آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية، بل تفخ فى عظام ناخرة ، وعكف على أطلال دائرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم فى ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنيس والتقريب، وهو فى الباطن يستجهل نزعتة ويستثقل طلعتة، ما كان أفطن الفقيه - رحمه - الله - بأمورهم، وأعلمهم بتقديرهم ، لكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنباً يتوب)^(٨٨).

ومن المرجح أن يكون للمؤرخ الأندلسى ابن حيان دور فى تلك الدعوة كناصح وواعظ لأمراء الطوائف ، بعد أن ألمه ذلك الوضع السىء الذى كانت تمر به الدولة الإسلامية فى الأندلس أثناء حكم أمراء الطوائف لها، حيث ذكر ذلك بقوله : (فركبت سنن من تقدمنى فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ونظمتهم وكشفت عنه، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة وسياستهم المنفرة، وأسباب كبار الأمراء المنتزين^(٨٩) فى البلاد عليهم) كما ذكر بشيء من الألم والحسرة عند تحدّثه عن سقوط مدينة برشتر الحالة التى وصلت إليها الدولة الإسلامية ورعاياها المسلمين فى ظل حكم هؤلاء الأمراء ووصفهم بقوله : (أمراء الفرقة والهمل، القاسطون قد نكبوا منهج الطريق، زيادا عن الجماعة وحوشا إلى الفرقة)^(٩٠).

ويتضح دوره فى هذه الدعوة بقوله : (ولا أشد ما أفتينا عند أولى الأبواب ما أخفيناه من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لامحالة) (٩١).

كما استمر فى التعرض لأمراء الطوائف بشىء من الذم والانتقاد محملا إياهم مسؤولية ما حل ببلادهم من المصائب والمحن، بسبب انصرافهم عن خالقهم ودينهم، إلى جانب انتقاده إياهم لتجاهلهم وتغافلهم عن رعييتهم بقوله : (إنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وإن من أكبر الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ويستقرى بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرقا ويبيد أمة ، ومن لدينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم نهاية عن بثهم) إلى أن يقول : (حتى كأنهم ليسوا منا بثقفهم، وليس بمفض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء، عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير) (٩٢).

واستمر ابن حيان فى انتقاده لأمراء الطوائف بعد حادثة سقوط مدينة برشتر فى يد النصارى فقال: (ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء فى برشتر إلا الفزع فى حفر الخنادق وتعلية الأسوار وشد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوء، من إلقاءهم (يومئذ) بأيديهم إليهم أمور قبيحات الصور مؤذات الصدور بأعجاز تحمل الغير.

أمور لو تدبرها حكيم إذا لنهى وهيب ما استطاعا (٩٣)

ويبدو أن للمؤرخ الفيلسوف ابن حزم دورا فى هذه الدعوة أيضا، الأمر الذى يتضح من مخاطبته لأمراء الطوائف محذرا إياهم من المقربين لديهم من الفقهاء الذين يزينون لهم أخطاءهم بغرض التقرب منهم حيث خاطبهم بقوله : (فلاتغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم) (٩٤). كما خاطبهم بقول الله سبحانه وتعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) (٩٥) مبينا لهم أهمية الوحدة والائتلاف ويقول تعالى : (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (٩٦).

وقد عبر عن الألم والمرارة التى يعانيتها من جراء سياسة أمراء الطوائف التى تقوم على الفرقة والتشاحن ، فى رسالة جوابية ردا على رسالة وردت إليه، مبينا فيها جهوده فى تلك

الدعوة ، جاء فيها: (ورد كتابك على ما أمر الله به من الألفة والتقاء الكلمة، وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة، في هذه الجزيرة المنقطعة عن الجماعة فالله رأيك الأصيل ، وسعيك الجميل، ومذهبك الكريم ، ووعيك السليم، ما أصدق قلبك ، وأهدى دليلك ، وأوضح في سبيل البر سبيلك ، وقد كنت- علم الله - جانحا إلى ما اجتمعت إليه، ويلوح لى ما يلوح إليك من أنا على صرف إلا ما كفى الله، وعلى قلة إلا ما بقى الله) (٩٧).

وإذا كانت هناك جلة من العلماء والفقهاء من أبناء الأندلس الذين عايشوا تلك الفترة، فمن المحتمل أن يكون لهم دور في هذه الدعوة. يتضح ذلك من خلال ما ذكر عنهم في سيرهم الذاتية، حيث ذكر أنهم اتصفوا بالعدل والنزاهة وقول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المستبعد أن يقف هؤلاء العلماء والفقهاء من تلك الأحداث المؤلمة التي كانت تعصف بدولتهم الإسلامية في الأندلس موقف المتفرج، وأن يتخذوا موقفا سلبيا من هذه الأحداث دون أن يساهموا في إصلاحها ، بما يليه عليهم ضميرهم ومسؤوليتهم أمام الله، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٩٨).

ولعل مشاركتهم في تلك الدعوة كانت عن طريق الوعظ والنصح لأمراء الأندلس بالتكاتف والاتلاف ونبذ التشاحن والتطاحن وبث الفرقة فيما بينهم ، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه الواعظ أبو محمد عبدالله ابن الفقيه أبى عبدالله عمر بن عبد البر النمرى - كما سبق وذكرناه في موضعه- والذي جاء في رسالة له على لسان أهالى مدينة برشتر بعد سقوطها في يد النصارى محذرا أمراء الطوائف من عاقبة غفلتهم وتخاذلهم مبينا لهم فضل التلاحم والترابط فيما بينهم قوله: (ولو كان شملنا منتظما ، وشعبنا ملتئما وكنا كالجوارح فى الجسد اشتباكا ، وكالأثامل واليد اشتراكا، لما طاش لنا سهم ولا سقط لنا نجم، ولا ذل لنا حزب ولا قل لنا غرب، ولا ورج لنا سرب ، ولا كدر لنا شرب، وكنا عليهم ظاهرين إلى يوم الدين، فالحذر الحذر فإنه رأس النظر، من بركان يتطاير منه شرر وملهب وطوفان تساقط منه خطر مرهب ، قلما يؤمن من هذا إحراق ومن ذلك إغراق ، فتنبهوا قبل أن تنبهوا، وقاتلوهم فى أطرافهم قبل أن يقاتلوكم فى أكنافكم، وجاهدوا فى ثغورهم قبل أن يجاهدوكم فى دوركم ففينا متعظ لمن اتعظ وعبرة لمن اعتبر) (٩٩).

كذلك تضمنت رسالته هذه دعوة أمراء الطوائف لأن يكونوا صفا واحد ضد أطماع أعدائهم النصارى، ، حيث عبر عن ذلك بقوله : (وننبثكم يا معشر المسلمين ببعض ما نبأنا من ثغورنا

عسى أن تكونوا سببا في نصرتنا ، فالمؤمنون إخوة والمسلمون لحمة ، والمرء كثير بأخويه ، وإلى أمه يلجأ اللهفان ، وإلى الصوارم تفرع الأقران ، والسعيد واعظ غيره ، والشقى من عميت عيناه وصمت عن المواعظ أذناه). وفي فصل من رسالته هذه يحث المسلمين على الجهاد والعمل على حفظ دينهم ودولتهم من أطماع المتربصين بهم من النصارى ، مبينا لهم ما حل بالإسلام والمسلمين من أذى ومهانة على يد أعدائهم النصارى قوله (وما أظنكم معشر المسلمين وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن وحلاوة الآذان ، مطبقة بالشرك والبهتان مشحونة بالنواقيس والصلبان ، عوضا عن شبعة الرحمن (والأئمة والمتدينين) والقومة والمؤذنين يجرحهم الأعلاج كما تجرح الذبائح إلى الذابح ، يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين واضمرت عليهم نار حتى صاروا رمادا ، والكفر يضحك وينكى والدين ينوح ويبكى) ثم يعبر عما به من ألم وحسرة على تلك الحالة التي وصل إليها المسلمون بقوله : (فيا ويلاه ويا ذلاه ، ويا كرباه ، ويا قرآناه ويا محمداه ، ألا ترى ما حل بحملة القرآن وحفظة الإيمان) ثم يعود لمخاطبة المسلمين بما فيهم أمراء الطوائف حاثا إياهم على الجهاد مبينا فضله داعيا إياهم على العمل لإنقاذ الدين والدولة بقوله : (وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب يضيق عن نصها الكتاب إلى أن يقول : (فالله الله في إجابة داعينا وتلبية منادينا قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج ، فهناك لا ينفع العلاج)(١٠٠).

كذلك كان للقاضي أبو عبد الله محمد بن عتاب بن محسن^(١٠١) من أهل قرطبة والذي تفقه على يديه الكثير من أبناء الأندلس دور في هذه الدعوة ، وأعرض عن دعوة ابن الأقطس وابن صمادج وابن هود للاشتغال في دواوينهم أو تقلد القضاء في عهدهم حيث كتب لهم ردا على دعوتهم إياه (تركت ذلك لله) (١٠٢).

ويبدو أن للفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن سلمة^(١٠٣) - فقيه طليطلة - دور في هذه الدعوة حيث يتضح من ترجمة سيرته الذاتية أنه كان منكرا لسياسة التزييف والمداينة التي كان يسير عليها فقهاء بلده لأمراء الطوائف. وقد حدث الناس فسمعوا منه ، وكان خروجه من مدينة طليطلة ، بعد أن استولى عليها النصارى. كذلك من المرجح أن يكون للقاضي أبي الوليد الوقشي^(١٠٤) دور في هذه الدعوة حيث كان في طليطلة في أواسط القرن الخامس الهجري ، وكان موجودا في مدينة بلنسية في رجب سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م. كذلك يرجح أن يكون للفقيه الزاهد بن أبي زندقة أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي دور في هذه الدعوة حيث تلقى علومه على يد القاضي أبي الوليد الباجي بسرقسطة ، وأيضا على يد أبي محمد بن حزم

باشبيلية ، ووافق الإمام القليعي قاضى غرناطة فى فتواه بخلع أمراء الطوائف ، ثم رحل إلى المشرق واشتهر بزهد فى الدنيا وقوله الحق (١٠٥).

ومن المحتمل أن يكون للقاضى الفقيه أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضى الجماعة بقرطبة دور فى هذه الدعوة إذ أنه اشتهر بتعلمه وتفقهه فى الدين، ومحبة الناس له، واللجوء إليه فى كثير من أمورهم، وتقبل وعظه ونصحه (١٠٦).

ويبدو أنه كانت للفقيه أبى المعالى ادريس بن يحيى بن يوسف من أهل إشبيلية ، جهود فى هذه الدعوة وذلك من خلال ترحاله إلى عدد من مدن الأندلس، واعظا للناس وداعيا إياهم إلى التشاور والألفة (١٠٧)، وقد اتخذ المسجد مركزا لنشاطه فى هذه الدعوة (١٠٨).

ولعل للقاضى أبى بكر محمد بن أحمد بن حسن بن إسحاق بن عبدالله بن جعفر من أهل قرطبة دور فى تلك الدعوة وذلك لما له من مكانة اجتماعية حيث أنه كان من بيت وزارة (١٠٩) مما جعله يحظى بتقدير أمراء الطوائف ، إضافة إلى اكتسابه مكانة مرموقة فى الدولة حيث تجلت جهوده فى الدعوة إلى إزالة الخلافات التى نشأت بين أمراء الطوائف أيام الفتنة (١١٠).

ويبدو أن للواعظ أبى عبدالله محمد بن سفيان بن إسحاق من أهل بلنسية وهو من تلاميذ الفقيه أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق دور فى هذه الدعوة حيث دعا إلى التآلف والتآزر واتخذ من مسجده والذى عرف باسم (الغلبة) فى بلنسية مقرا لدعوته (١١١).

ومن الدعاة الذين لهم دور فى محاولة جمع كلمة أمراء الطوائف وتوحيد صفوفهم كان ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبى بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة وقد كلفه المعتمد بن عباد مرات عديدة بالسفر إلى أمراء الطوائف والاتصال بهم ودعوتهم إلى التآلف ونبذ الفرقة بينهم، وكذلك للتشاور معهم فى استدعاء يوسف بن تاشفين بعد أن أدرك مدى الخطر المحيط بهم من قبل ملوك النصارى (١١٢). كذلك من الدعاة الذين لهم دور فى هذه الدعوة والذين حثوا على توحيد الصف وجمع الكلمة والجهاد فى سبيل الله الوزير الكاتب أبى محمد بن الفقيه أبى عمر بن عبد البر النمري (١١٣) ففى فصل من رقعته كتبها ردا على رسالة وردته مستنكرا ما يحل بالمسلمين من أذى ونكد، قوله : (وتوضحت جميع تلك الأحوال التى وصفتها، والأحداث التى قصصتها ، فأكبرت وقوعها ، ثم عرفت الأيام صروفها وصدوعها وتأملت لما يجرى على المسلمين من نكد واضح، وتلف فادح) إلى أن يقول : (أما آن للنصر أن يقع، وللداء أن يشفى ؟ نظر الله لكل من واراها مواضع الرشد من العقد والحل بمنه) (١١٤) كما عبر عن ألمه وحسرتة فى أحد رسائله على لسان أهالى مدينة برشتر عندما غزاها النصارى

وذلك عندما بلغت الأخبار بتعدى النصارى على بعض المدن الإسلامية فى الأندلس بقوله :
(واتصل بنا أنه أباد الديار، فى جميع الأمصار، والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب
يوزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطال الفكرة فى هذا الحزم الداخل، والبلاء الشامل،
والله المرجو لكشف الغمة وتلاقى الأمة (١١٥).

ولعل الفقيه أبى عبدالله محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصارى (١١٦) من أهل
طرطوشه دور فى هذه الدعوة ، وذلك لتجواله فى أنحاء متعددة من الأندلس والعدوة ولما له
من وجاهة وتقدير عند أمراء الطوائف (١١٧).

ومن المرجح أن يكون للقاضى أبى بكر بن العربى المعافى (١١٨) دور فى هذه الدعوة إذ كان
قائما على الوعظ والإرشاد لأبناء الأندلس، يتضح ذلك من خلال ما ذكره عنه النباهى بقوله :
(درس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،
حتى أودى فى ذلك بذهاب كتبه وماله (١١٩).

كذلك يبدو أنه كانت للقاضى محمد بن سليمان المالى (١٢٠) مساهمة فى تلك الدعوة فقد
تولى القضاء بمدينة مالقة مدة طويلة، فسار فيه بأجمل سيرة من العدل والنزاهة، وكان فى
مذهبه صلبا ورعا زاهدا متفنا وأديبا. وقد روى عن أبى الوليد الباجى ومن شعره :

كان الزمان وكان الناس أشبهه فالיום فوضى فلا دهر ولا ناس
أسافل قد علت لم تعل من كرم ومشرفات الأعالي منه انكاس (١٢٥)

كذلك كان للأدباء والشعراء فى عصر أمراء الطوائف دور فى هذه الدعوة إذ توفر فى
عصرهم من الأدب (شعره ونثره) إنتاج فكرى يدعو إلى التوحيد وجمع الصف ، ويحذر من
مغبة النزاع والتناحر ، ويحث على الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصرة الإسلام فى الأندلس. أطلق
على إنتاجهم إنتاج النكبات سواء المتأثر بهذه الأحداث والمتحسر عليها أو الداعى للتنبيه إلى
مواطن الخطر لأخذ الحيطة وتجنب التنازع والتناحر ولاستعادة ما ضمر من الأوطان وسقط من
الهيبة، وإزالة بؤس النكبة والذى يطلق عليه رثاء المدن أو الرثاء البلدانى أو الرثاء
السياسى (١٢٢)، ومن الأدباء الذين ساهموا فى هذه الدعوة بإنتاجهم الفكرى الشاعر أبى حفص
بن عمر بن حسن الهوزنى (١٢٣). ومن شعره الذى يحض فيه المعتمد بن عباد على الجهاد عند
ظهور الروم بشرق الأندلس بعد آله سقوط مدينة (برشتر) سنة ٤٥٦هـ فى يد النورمان قوله :

أعباد جل الرزء والقوم هجع على حالة من مثلها يتوقع

فلق كتابي من فراغك ساعة وإن طال فالمرصوف للطول موضع
إذا لم أثب الداء رب دوائسه أضعت وأهل للملام المضيع
فاستدعاه المعتمد وقام بقتله (١٢٤).

ومن شعره مستغفرا أهالي الأندلس للجهاد حاثا إياهم قوله :
بيت الشعر فلا يستزل طرف النوم سمع أزل
فثبوا واخشوشنوا واحزنلوا كل ما رزء سوى الدين قل (١٢٥)
ومن إنتاجه الفكرى زبضا والذى يبدى فيه تحسره على ما أصاب بلاد المسلمين فى
الأندلس من بلاء دون أن يحرك أمراء الطوائف ساكنا لإتقاذها قوله:
يا أسفاه للدين إذ ظل نهبه بأعيننا والمسلمون شهود
إلى أن يقول :

أعيدكم أن تدهنوا فبمسكم عقاب كما ذاق العقاب ثمود (١٢٦)
كذلك كان للشاعر أبى خلف السمسير (١٢٧) دور فى هذه الدعوة وذلك عندما دعا أمراء
الطوائف إلى التكاتف والتعااض ليكونوا صفا واحدا فى وجه العدو بدلا من تكاتفهم وتحالفهم
مع العدو ضد بعضهم بعضا. ومن إنتاجه الفكرى الذى عبر فيه عن ألمه وحزنه لسقوط مدينة
طليطلة قوله:

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذى أحدثتم
أسلمتم الإسلام فى أيدي العدو وقعدتم
وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم
لاتنكروا شق العصا فعصى النبى شققتكم (١٢٨)

وكان للشاعر أبى إسحاق إبراهيم بن مسعود الأبيرى من أهل غرناطة دور فى هذه الدعوة
إذ كان من أهل العلم والعمل وشاعرا مبدعا، اختص شعره بالحكم والمواعظ (١٢٩). ومن المرجح
أن يكون للشاعر الغرناطى أبى إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسى
دور فى هذه الدعوة قد يكون قائما على النصح والإرشاد وذلك لإعراضه عن أمراء الطوائف
فلم ينضم إلى أحد منهم رغم استمالتهم له لاعتراضه على طريقتهم وتصرفاتهم فى
الحكم (١٣٠).

ومن المحتمل أن عددا من شعراء الأندلس أسهموا فى هذه الدعوة بإنتاجهم الشعرى، منهم على سبيل المثال أحد شعراء الأندلس المجهولين والذي انتقد سياسة أمراء الطوائف حيث كانت تقوم على الفرقة والتشاحن وموقفهم السلبي من نصرة الدين والدفاع عن الدولة فعبر عن ذلك الوضع بقوله:

وتفرقوا شيعا فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبرا
وقول الوزير الفقيه أبى حفص عمر الهوزنى:

صرح الشر فلا يستقل أن نهلتم جاءكم بعد غل
بدء ضعف الأرض نشىء وطل ورياح ثم غيم أبـل
قد رجت عاد سحابا يهل فإذا ربح دبور محل
نقبوا فالـداء رزء يحـل واغمدوا سيفا عليكم يسل (١٣٢)

أما الشاعر عبدالله بن فرج اليحصبي (١٣٣) فكانت له إسهامات عظيمة فى مجال هذه الدعوة وهو تحذير أمراء الطوائف من المخاطر المحيطة بدولتهم وخاصة بعد سقوط مدينة طليطلة فى يد النصارى، ودعوتهم إلى التآلف والتآزر فيما بينهم محذرا إياهم من مغبة تخاذلهم أمام النصارى وتشاحنهم فيما بينهم حيث يقول :

يا أهل الأندلس حثو رجال مطيكم فما المقام بها إلا من الغلـط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منشورا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سقط (١٣٤)
وقال شاعر آخر:

يا أهل أندلس ردوا المعار فما العرف عارية إلا مردات
ألم تروا فيلق الكفار فرزنة وشاهنا آخر الأبيات شهمات (١٣٥)

أما الشاعر أبى الحسن بن الجـد (١٣٦) فقد أنكر على أمراء الطوائف سياستهم والتي تقوم على السلبية المطلقة لدينهم ودولتهم محذرا إياهم من تلك السياسة وذلك بقوله :

أرى الملوك أصابتهم بأنـدلس دوائر السوء لا تبقى ولا تذر (١٣٧)

كذلك عبر عن ذلك الوضع المؤلم الذى كانت تمر به دولة الإسلام فى الأندلس فى ظل حكم أمراء الطوائف بقوله:

ألا رجلا له رأى أصيل به مما نحاذر نستجير
ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير (١٣٨)

ومن المرجح أن يكون للشاعر أبى طالب بن عبد الجبار (١٣٩) دور فى هذه الدعوة . ويتبين ذلك من خلال انتقاده وتدمره من السياسة التى كان يسير عليها أمراء الطوائف وما لاقاه أبناء هذه الدولة من ظلم ومهانة على يد النصارى من خلال حكمهم لهذه الدولة - كما سبق وأشرنا - حيث أورد ذلك بقوله :

ثم تمّادات هذه الطوائف تخلفهم من آلهم خوالف
وأنت بدين الجور والعدول إذ سلبت عقائل العقول
وأهملوا البلاد والعباد وعطلوا الشفور والجهاد
إلى أن يقول:

وزادهم فى الجهل والخذلان أن ظاهروا عصاة الصليان (١٤٠)

وشارك فى هذه الدعوة أيضا الشاعر أبو محمد بن عبدالله بن العسال الطليطلى (١٤١) وذلك بعد نكبة مدينة بريشت (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) على يد النصارى حاثا أمراء الطوائف على الائتلاف وجمع الصف وتوحيد الكلمة لدرء الخطر المحيط بهم (١٤٢).

كذلك من المرجح أن يكون للشاعر ابن خفاجة (١٤٣) دور فى هذه الدعوة - يتبين ذلك من القصيدة التى رثى بها مدينة بلنسية بعد سقوطها فى يد النصارى (سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) - كما سبق ذكره فى موضعه - والتى تبين مدى ألمه وحسرتة على الحال التى وصلت إليها دولة الإسلام فى الأندلس فى تلك الحقبة من تاريخها ومطلعها :

عاشت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والدار
فإذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار (١٤٤)

النتائج التى أسفرت عنها دعوة التوحيد:

أولاً: كانت أول نتائج هذه الدعوة دخول الدولة الإسلامية فى الأندلس فى عهد جديد من عهود تاريخها بفضل الله سبحانه وتعالى ثم المرابطين والموحدين من بعدهم وهو عصر الدول الكبرى^(١٤٥). حيث كان لتلك الحوادث المؤلمة التى مرت بها الدولة الإسلامية فى عهد أمراء الطوائف وخاصة سقوط مدينة طليطلة على يد الفونس السادس ملك قشتالة، أن أدرك بعض من هؤلاء الأمراء مدى فداحة الخطر الذى يهدد ممالكهم ف عقدوا مؤتمراً فيما بينهم حضره معظم أمراء الطوائف بالإضافة إلى قضاة مدينة قرطبة فأسفرت نتائج ذلك المؤتمر عن تكليف المعتمد بن عباد لقاضى مدينة قرطبة عبيد الله بن أدهم^(١٤٦) بمقابلة واستدعاء يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فى المغرب غير أنه بمشورة زعماء مدينة أشبيلية وولى عهده ابنه (الرشيد) الذين أشاروا عليه بمدارات الفونس السادس والامتناع لمطالبه وتنفيذ شروطه فذلك فى نظرهم أولى من الاستنجاد بالمرابطين إذ خاطبوه بقولهم (الملك عقيم والسيوفان لا يجتمعان بغمد واحد) فأجابهم بقوله (رعى الجمال ولا رعى الخنازير)^(١٤٧) وقد شاركه التحمس لهذه الدعوة المتوكل على الله عمر بن الأفطس حاكم مدينة بطليوس والذى تجلّت جهوده مبكرة فى هذه الدعوة وذلك عندما كلف القاضى أبو الوليد الباجى بمهمة دعوة أمراء الطوائف ولجمع الصف وتوحيد الكلمة ضد أعدائهم ملوك النصارى فى شمال الدولة الإسلامية فى الأندلس وعبد الله بن بلقين صاحب مدينة غرناطة ، فاستجاب يوسف بن تاشفين لتلك الدعوة ودخل الأندلس عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م^(١٤٨)، وكان دخوله إليه على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى دخلها مجاهداً فى سبيل الله بناء على استنجاد المسلمين له- كما فصلناه فى موضعه- فدخل مع النصارى فى معركة حاسمة فى التاريخ الإسلامى عرف باسم موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، وقد أحرز فيها الأمير يوسف بن تاشفين نصراً مؤزراً ملأ قلوب المسلمين عامة فرحاً وعزة^(١٤٩)، وبعدها غادر يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس عائداً إلى بلاد المغرب ، ثم دخلها للمرة الثانية عندما عاود الفونس السادس هجومه على دولة الإسلام فى الأندلس كتعويض للخسارة التى لحقت به بعد موقعة الزلاقة، أما دخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة فكان على أثر الأنباء التى وصلتته بأن أمراء الطوائف استنجدوا بالنصارى لإنقاذهم من المرابطين وقاموا بدفع الجزية لهم من جديد كما فعل الأمير عبد الله بن بلقين حاكم مدينة غرناطة^(١٥٠)، وكذلك استجابة من المراسلات والفتاوى من علماء الأندلس إلى جانب علماء المشرق لإنقاذها من أطماع النصارى وتخليصها من أمراء الطوائف^(١٥١)، وكان يترأسهم فى ذلك قاضى مدينة غرناطة (ابن القليعى)^(١٥٢) حيث ذهب إلى بلاد المغرب فاتصل بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأطلعه

على حقيقة الأمور وأفتى بخلع أمراء الطوائف (١٥٣)، وقد وافقه في فتواه الإمام الغزالي (١٥٤) والقاضى أبوبكر الطرطوشى (١٥٥).

فتم بذلك دخول يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة للأندلس، فقام بخلع أمراء الطوائف وبسط نفوذه على بلاد الأندلس وإدخالها تحت طاعته، وكان لدخول أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لبلاد الأندلس أثر كبير من الفرحة والاستبشار لدى أبناء الأندلس منهم الشاعر الأندلسى (ابن سارة الشنترينى) (١٥٦) حيث عبر عن استبشاره بدخول المرابطين إلى دولة الإسلام فى الأندلس لحمايتها من براثن النصرانية بقوله :

فى فتية بشرى إلى نصر الهدى فنظنهم أسد الدجى أقمارها
خضبوا السواعد بالرقاق تفاؤلا إن سوف تخضب بالتجيع أشعارها
إلى أن يقول :

لم لا تراح شريعة التقوى بهم وجفونهم منا ترى أنصارها
ضربوا سراق بأسهم من دونها وقد اشرب الكفر بهدم ديارها
فرقوا بخرسان الرماح جنابها وحموا بقضبان الصفاح دمارها (١٥٧)

ثانيا : شكلت دولة الإسلام فى الأندلس فى عهد المرابطين وعلى يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وحدة متكاملة التأم على إثرها صدعها وجمع شملها واستعادت قوتها ومهابتها أمام أعدائها من النصارى.

ثالثا : كانت هذه الدعوة سببا فى استمرار بقاء الدولة الإسلامية فى الأندلس، حيث استمر بقاؤها منذ دخول المرابطين إليها وحتى سقوط آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس، وهى مدينة غرناطة، فى ظل محمد بن الأحمر مدة أربعة قرون (١٥٨) تصارع القوى المسيحية الساعية لإسقاطها.

رابعا : دخلت الدولة الإسلامية فى الأندلس بفضل هذه الدعوة عهدا جديدا من النماء والتطور فى مختلف نواحي حياتها سواء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية، فى ظل حكم المرابطين لها والذى قارب خمسين عاما (١٥٩) وقد أشار إلى ذلك الإدريسى عندما يتحدث عن مدينة المرية بقوله: (مدينة المرية كانت فى عهد الملثمين - ويقصد بهم المرابطين- مدينة الإسلام، وكان لها من الصناعات كل غريبة (١٦٠). ولعل ما ذكره مؤرخو تلك الفترة دليل واضح على ما كانت تتمتع به بلاد الأندلس من أمن ورخاء فى عهد دولة المرابطين وقد

أشار إلى ذلك صاحب روض القرطاس «ابن زرع» بقوله: (وكانت أهل لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب ملكوا الأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ومن مدينة بجاية من بلاد العدو إلى جبال الذهب من بلاد السودان لم يجر فى عملهم طول أيامهم رسم مكروه معونة ولا خراج فى بادية وحضارة) إلى أن يقول: (وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وأمن) (١٦١).

وأما القاضى أبوبكر بن العربى الإشبيلى (١٦٢) فقد ذكرهم بقوله (المرابطون قاموا بدعوة الحق، ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين ، الذابون والمجاهدون دونهم) (١٦٣). مبينا بذلك دورهم فى حماية الدين والدولة . كما ذكر عنهم صاحب الحلل الموشية عندما تحدث عن يوسف بن تاشفين قوله (إذ قامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة وجميلة فى رفاهية وعيش على أحسن حال) (١٦٤).

خامسا: استعادت الدولة الإسلامية فى الأندلس قوتها العسكرية فى ظل المرابطين مما أكسبها مهابة وقوة أمام أعدائها النصارى، فلقد كان للناحية العسكرية نصيب الأسد من الاهتمام والعناية من قبل أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين حيث ظهر اهتمامه بالناحية العسكرية واضحا فى تنظيماته للدولة، وقد استفاد المسلمون من تلك القوة العسكرية بخوض عدة معارك مع النصارى تمكن المسلمون على أثرها من استعادة المدن والحصون التى استولى عليها أعداؤهم النصارى فى عهد أمراء الطوائف ، كما استخدمت تلك القوة فى الحد من أطماع النصارى فى دولة الإسلام فى الأندلس. وقد أشار إلى تلك الناحية ابن الخطيب نقلا عن الصيرفى (١٦٥) فى كتابه الذى فقد والذى بعنوان (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) عندما تحدث عن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين بقوله : (كان بطلا شجاعا ، حسن الركبة والهيئة، سالكا ناموس الشريعة) إلى أن يقول مبينا جهوده فى الناحية العسكرية (وبذلك حمل على الخيل وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة وأركبهم ، وأقام همتهم للاعتناء بالشغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون ، وهزم الجيوش، وهابه العدو) (١٦٦).

سادسا: ارتفعت الروح المعنوية لدى رعايا الدول الإسلامية فى الأندلس وذلك بفضل الله ثم ما حققه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من انتصارات باهرة على النصارى. وقد ذكر المقرئ جهوده فى ذلك بقوله : (وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين فما قصر فيما آثار من إذلال المشركين وإرغام الكافرين واستدراك أمور المسلمين) (١٦٧).

الهوامش

١- أبو محمد علي بن حزم / الرد على ابن النفريلة اليهودي ، تحقيق إحسان عباس، القاهرة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م) ص ١٣٩ ، ١٨٥ ، نقطة العروس، المنشورة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة في عدد ديسمبر (١٩٥١م) المجلد الثالث عشر الجزء الثاني. أبي الحسن علي بن بسام الشتريني / الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ق ٤ م ٢، ص ١٢٩-١٣٠ ابن عذارى المراكشي / البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، نشر ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت لبنان (ب.ط) ج ٣ ص ٤٣ وما بعدها. ابن الأبار أبو عبدالله القضاعي / الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة (١٩٦٣م) ج ٢ ص ٤٦ ، ابن الكردبوس التوزري أبو مروان / الاكتفاء في أخبار الخلفاء نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد (١٩٧١م) ص ٧٧ .

٢- الدولة العامرية : نسبة إلى الوزير محمد بن أبي عامر، من أسرة يمنية، كان جده عبدالملك المعافري من رجالات العرب الذين اشتركوا في جيوش طارق بن زياد وأبدى شجاعة في القتال للاستيلاء على قرطاجنة ، نشأ محمد بن أبي عامر ظاهر النجابة والذكاء، أسند إليه الخليفة الحكم المستنصر بالله مهمة الرصاية على ابنه هشام، فاستغل محمد بن أبي عامر ظاهرة صغر سن هشام وضعفه فاستقل بأمر الدولة، وأسس الدولة العامرية بعد أن قضى على خصومه، استمرت الدولة العامرية ما يقارب من ثلاث وثلاثون عامًا ثم سقطت في عهد ابنه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (شنجول) وكان ذلك سنة ٣٩٩هـ بعد أن قتل على يد محمد بن هشام بن عبد الجبار. ابن الخطيب ، لسان الدين / أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط (١٩٣٤م) ج ٢ ص ٥٨ ، ابن بسام. الذخيرة م ١ ق ٤ ص ٤٥ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ ، الفتح بن خاقان/ كتاب مطمح الأنفس ومسرح التآنس في صلح أهل الأندلس قسطنطينية (١٣٠٢هـ) ص ٤ عبد الرحمن على الحجى / التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ / ٧١١-١٤٩٢م، دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة الأولى (١٣٦٩هـ / ١٩٧٦م) ص ٣٠٦ لسان الدين ابن الخطيب / الإحاطة في أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان/ مكتبة الخانجي / القاهرة م ٢ ص ١٠١ .

٣- ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ابن الخطيب، أعمال الإعلام ج ٢ ص ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٧ ، المقرئ أحمد بن محمد / نفع الطبيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين، عشرة أجزاء، القاهرة (١٩٤٩م) ج ١ ص ٤٠١ .

٤- نسبة إلى البشكنس Vascos - وهم سكان مملكة نيفار فى أقصى شمال أسبانيا. أحمد مختار العبادى/ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع (ب.ط) ص ٣٠ جغرافية الأندلس وأوربا مأخوذة من كتاب المسالك والممالك للبكرى، تحقيق عبد الرحمن الحجى، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٣٨١هـ / ١٩٦٨م) ص ٦٩ .

٥- ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ابن الخطيب/ أعمال الإعلام ج ٢ ص ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، المقرئ / نفع الطيب ج ١ ص ٤٠١ .

٦- ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ ، ابن الخطيب / أعمال الإعلام ج ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ٣٤٧ ، ٣٥٧ .

٧- ابن سعيد المغربى (على بن موسى / المغرب فى حلى المغرب) جزآن، تحقيق شوقى ضيف، طبعة دار المعارف بمصر، القاهرة (١٩٥٣م) ج ١ ص ٥٥، المقرئ/ نفع الطيب، ج ١ ص ٤١٣، محمد عبدالله عنان/ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرباطى، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ص ١٣ .

٨- ابن حيان (أبو مروان بن خلف) كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس/ تحقيق محمد على مكى، القاهرة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ج ٣ ص ٢٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٤٧ ، ٢٤٥ ، المقرئ/ نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٢ ، ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١١٦ ، ١١٧ ، عنان / دول الطوائف ص ٢٠ ، حسين مؤنس / معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٢م) ص ٤١٥ ، ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) الفكر الفيلسوفى فى المغرب والأندلس (نقلًا عن مؤلف مجهول لكتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية) نشر سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء (١٩٧٩م) ص ٤٥ .

٩- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٦٣٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٧ ، ابن عذارى/ البيان المغرب، ج ٣ ص ١٥٢ .

١٠- ابن حيان / المقتبس ص ٢٥ ، المقرئ/ نفع الطيب م ١ ص ٤٢٠ وما بعدها ، محمد عبدالله عنان/ مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الرابعة، مؤسسة الخانجي القاهرة (١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) ص ٢٦٥ .

١١- بنى جهور : بيت من بيوت الوزراء ، وهم من ملوك الطوائف بالأندلس تولوا على قرطبة نحو نصف قرن من الزمان خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر ميلادى) ، ينسبون إلى جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك ، كان جده (بخت بن عبدة) من الفرس ومولى لعبد الملك بن مروان ، وقد دخلت أسرة بن جهور إلى الأندلس فى عهده ، وكان ابن حزم بن جهور وزيراً للخليفة هشام الثالث آخر خلفاء بنى أمية ، وبعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) نجح فى إنشاء دولته فى قرطبة . ابن عذارى / البيان المغرب م ٣ ص ١٨٦ ، المقرئ / نفح الطيب م ١ ص ٤٢١ ، ٢٥٥ أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، م ٣ ص ٦٥٠ ، ابن بسام (نقلاً عن ابن حيان) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

١٢- بنو عباد : أحد فروع اليمنيين ، من قبيلة لخم ، قامت دولتهم فى مدينة أشبيلية فى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) وانتهت دولتهم على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من أمراء الطوائف ، للمزيد من تاريخ هذه الأسرة ينظر ابن عذارى / البيان المغرب م ٣ ص ٢٠٤ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٣ ، ٤١ ، ٤٩ ، المقرئ / نفح الطيب م ١ ص ٤٢١ . عنان / دول الطوائف ص ٥٩ وما بعدها ، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى م ٥ ص ٥٠ .

١٣- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٣٠ ، ابن عذارى / البيان المغرب م ٣ ص ٢٠٤ ، المقرئ / نفح الطيب م ١ ص ٤٢١ ، عنان / دول الطوائف ص ٥٩ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٢٥ .

١٤- بنو ذى النون: أصلهم من البربر ، كانوا فى خدمة الدولة العامرية ، ينسبون إلى جدهم (زنون) الذى تصحف اسمه بطول المدة فصار (ذو النون) ، شاع ذكرهم فى دولة ابن أبى عامر حيث تولوا مناصب عالية ، دعا أهالى طليطلة ابن (ذى النون) ، لتولى أمرهم بعد أن قاموا بخلع حاكمها عبد الملك بن عبد الرحمن بن منوه . ابن عذارى / البيان المغرب م ٣ ص ٢٧٦ ، المقرئ / نفح الطيب م ١ ص ٤٢٢ / ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٦٨ .

١٥- طليطلة : معنى طليطلة بالليطنى (تولاند) ومعناها فرح ساكنوها ، وهى قاعدة القوط ودار مملكتها تقع وسط شبه الجزيرة الإيبيرية بحيط بها نهر تاجه من ثلاث جهات تمتاز بموقعها الحصين وخصوبة أراضيها ، ابن القوطية القرطبى / تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة دار المعارف للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٦٢ . الحميرى (محمد عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار تحقيق احسان عباس ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) /

ص ٣٩٣ لحموى / شهاب الدين بن عبدالله ياقوت / معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) ج ٤ ص ٤٠ .

١٦- بربر هواره : من بطون البرانس البربرية، ينسبون إلى هواره بن أوريغ بن برنس كانت مواطن سكتانهم بنواحي طرابلس وما يليها من برقة . للتفصيل ينظر تاريخها فى ابن خلدون / عبد الرحمن / تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية / بيروت ، لبنان / الطبعة الأولى (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ج ٦ ص ١٦٣ وما بعدها .

١٧- بنو الأفطس : ينسبون إلى أبومحمد عبدالله ابن مسلمة المعروف بابن الأفطس وينتمى بنو الأفطس إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، قامت دولتهم فى مدينة بطليوس من الأندلس وانتهت على يد أمير المرابطين يوسف ابن تاشفين عندما دخل الأندلس لتخليصها من ملوك الطوائف والدفاع عنها ضد الممالك النصرانية . ينظر تاريخ هذه الأسرة فى ابن الخطيب / أعمال الأعلام ، ج ٢ ص ١٨٣ ، ابن الأبار الحلة السيرة ج ٢ ص ٩٧ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٧ ، المقرئ / نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٤ .

١٨- بربر مكناسة : موطن سكتانهم على وادى ملوية من لدن أعلاه سحلياسة إلى مصبه فى البحر، وما بين ذلك من نواحي تازا أو تسول، كانت رئاستهم فى بنى أبى يزول واسمه مجدول بن تاتريس بن مكناس، وقد أجاز منهم إلى العدو عند الفتح أمم كثيرة ، كانت لهم بالأندلس رئاسة وكثرة. ابن خلدون / العبر ج ٦ ص ١٥٤ .

١٩- بطليوس : تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى . ليفى بروفنسال / صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتابة الروض المعطار فى خبر الأقطار) أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميرى / تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص ٤٦ ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق لأبى عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسي) تحقيق دوزى ودى خوية أمستردام (هولندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص ٧٢ .

٢٠- بنو هود : من أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف الموثق ، حكموا مدينة بطليوس وما ألبها فى عهد ملوك الطوائف ، المقرئ / نفح الطيب م ١ ص ٤٢٣ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٧٠ ، ابن الأبار / الحلة السيرة ج ٢ ص ١٤٧ ، عنان / دول الطوائف ص ٢٦١ .

٢١- سرقسطة : تقع شرق الأندلس، وقاعدة من قواعدها ، كبيرة القطر، آهلة بالسكان ، حسنة الديار والمساكن ، تعرف بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب

(المسالك والممالك لأبي عبيدة البكري) تحقيق عبد الرحمن الحجى الطبعة الأولى، بيروت (١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م) ص ٩٨ .

٢٢- بنو زيري: أسرة بربرية تولت جزء من بلاد البربر الشرقية فى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى أواسط القرن السادس هجرى (الثانى عشر الميلادى) وقد استقرت بهم الحياة فى المغرب الأوسط. دائرة المعارف الإسلامية ، انتشارات جهانة تهران بوذر حميرى نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندى وأحمد بشناوى وآخرون ب.ط. ج ١١ ص ٢١ ، عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيرى / التبيان والمنشور تحت عنوان (مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بفرنطة) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٥٥م) ص ١٧ ، ابن خلدون / العبر ج ٦ ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

٢٣- غرناطة : قاعدة الأندلس وعروس مدنها، يخرقها نهر شيل وعدد من الأنهار، تمتاز بكثرة بساتينها وجنانها. المقرئ / نفح الطيب م ٤ ص ٢٦٧ ، ابن خلدون / نقمة ابن خلدون ، تحقيق عبد الواحد الوافى، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) ص ٣٠٨ . الحموى / معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٥ ، الحميرى / الروض المعطار ص ٣٨٥ .

٢٤- الصقالبة : يعرفون أيضاً باسم (السلاف) وهم شعوب منحدره من أصول شتى والتي كانت تنزل الأرض المجاورة بين القسطنطينية وأرض البلغار، وصقالبة الأندلس اسم لجنس يطلق على الحرس الأميرى الخاص بخلفاء قرطبة الأمويين، تولى عدد منهم المناصب الإدارية الرفيعة فى عهد عبد الرحمن الثالث. دائرة المعارف الإسلامية، م ١٤ ص ٢٥١ أحمد عطية الله / القاموس الإسلامى، م ٤ ص ٢٩٨ .

٢٥- ابن الخطيب / أعمال الأعلام م ٢ ص ١٥٢ ، ٢٢٦ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٩ . ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٨ ، ١٦١ ، ابن خلدون / العبر م ٤ ص ١٨٧ . العبادى / أحمد مختار، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٤ ، ٩٥ .

٢٦- اختلفت المصادر التاريخية حول عدد دول الطوائف ، فبعض منها ذكر أنها خمسين دولة وبعضها ذكر أنها عشرون دولة. ينظر محى الدين عبد الواحد المراكشى / المعجب فى تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمى، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة التراث الإسلامى، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م) ص ٧٠ ، ابن كرديوس التوزرى (أبومروان عبد الملك) الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، على حبيبة / مع المسلمين فى الأندلس ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ص ١٤٣ .

- ٢٧- عبدالله عنان/ دول الطوائف ص ١٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٢٦ .
- ٢٨- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٤٤ ، أبو الحسن على بن عبد الملك بن سعيد الأندلسى / رايات المبرزين ، غرناطة (٦١٠هـ) - تونس (٦٨٥هـ) تحقيق غربية غومس ، مدريد (١٩٤٢م) ص ١٠١ ، عبد العزيز سالم / تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٤٣ .
- ٢٩- الحسن بن رشيق القيروانى ، أبو على ، أديب وباحث ، ولد فى المسيلة بالمغرب وتعلم الصياغة ثم مال إلى الأدب وقول الشعر، ابن خلكان / وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٣ / مؤلف مجهول / الحلل السندسية، عفيف الحبيب الهيلة، الأعلام / خير الدين الزرقلى ج ٢ ص ١٩١ . كما صور ذلك الوضع الأديب أبى طالب بن عبد الجبار بقوله : لما رأى أعلام مصر قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة وعدمت شاكلة للطاعة استعملت آرائها الجماعة / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٩١٦ .
- ٣٠- ابن سعيد / رايات المبرزين ج ٣ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام / م ٢ ص ١٥٤ ، ابن حزم / رسالة نقط العروس ص ٨٣ ، ٨٤ .
- ٣١- ابن الخطيب (نقلًا عن ابن حزم) أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، عبد الحليم عويس / ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى / دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع ، (ب.ط) ص ٢٥٦ .
- ٣٢- ابن بسام / الذخيرة . ق ٤ م ١ ص ١٢ ، ١٣٠ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٨١ عبدالله بن بلقين / التبيان ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ ، المقرئ / نفع الطيب ج ١ ص ٤٣٨ ، عنان / دول الطوائف ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ابن الخطيب / لسان الدين / الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان ذخائر العرب رقم (١٧) مكتبة الخانجي، القاهرة (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) م ٢ ص ١١٠ . يوسف أشباح / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة وعلق عليه محمد عنان / مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ، القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ج ١ ص ٣٨ ، سلامة الهرفى / دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، دراسة حضارية وسياسية، دار الندوة الجديدة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ٤٥ . صلاح خالص / إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان سنة (١٩٦٥م) ص ٢٣ ، ٢٤ .
- ٣٣- أبوبكر بن سليمان الكلاعى الإشبيلي يعرف بابن القصيرة كان كاتبًا بارع الخط، كان من المتفنين بالعلوم، انتدبه المعتمد بن عباد كرسول من قبله إلى ملوك الطوائف، ابن بشكوال / أبى القاسم خلف بن عبد الملك / كتاب الصلة / الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (١٩٦٦م) ق ٢

ص ١٠٤ . ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٣٩ ، ابن عذارى. المغرب م ١ ص ٣٥٠ ، المقرئ / النفع ج ٤ ص ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ابن الخطيب / الإحاطة م ٢ ص ٥١٦ .

٣٤- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٤٨ .

٣٥- حصن قبرة : مدينة قبرة Cabra تقع فى الجنوب الشرقى من قرطبة وبها يقع ذلك الحصن. الحميرى / الروض ص ١٤٩ ، ابن الأبار / الحلة السيرة م ٢ ص ٣٦٥ .

٣٦- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزرى) الكامل فى التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ، لبنان (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ج ٧ ص ٤٥٤ ، ابن بلقين / التبيان ص ٦٩ ، عنان / دول الطوائف ص ١٤٣ ، على حبيبة / مع المسلمين فى الأندلس، ص ١٤٣ ، ومدينة جيان، مدينة بالأندلس كثيرة الخصب ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، وتقع على سفح جبل عال، وقصبتها من القصبات الموصوفة بالحصانة ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار / تحقيق ليفى برونسسال، ص ١٥٩ .

٣٧- ابن عمار : هو أبوبكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ولد سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م، أصله من قرية من أرياض شلب تسمى (شنوس) ، من أسرة متواضعة ، تلقى تعليمه فى مدينة شلب ثم أكملها فى قرطبة ، كان من أشهر وزراء المعتمد بن عباد، ذو مكانة عنده وحظوة، وبقي يعمل لديه أعزاً ولكنه نكب على يد المعتمد بتحريض من زوجة المعتمد (اعتماد الرميكية) ٤٧٧هـ ، وخصومه، ابن الأبار / الحلة السيرة ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ابن بلقين / التبيان ص ٨١ . عنان / دول الطوائف ص ٦٦ . محمد عنان / تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص ٢٨٢ وما بعدها.

٣٨- ابن خلدون / العبر ج ٤ ص ١٨٥ ، القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، تحقيق وتحليل عبداللطيف حمزة ، المكتبة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (ب.ط) ص ٢٤٨ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ ج ١ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠ ، سعيد البشرى، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس / مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص ٩٢ ، عنان / دول الطوائف ص ٧٣ ، يوسف أشباخ / تاريخ الأندلس ص ٢٨ ، ٥٥ ، ٦٠ ، حسين مؤنس / معالم تاريخ المغرب والأندلس / دار الرشاد، القاهرة (١٩٩٦م) ص ٤١٦ .

٣٩- ينظر على سبيل المثال لا الحصر ابن بسام / الذخيرة (نقلًا عن ابن حبان) ق ٤ م ٢ ص ٧٣٣، ق ١ م ١ ص ٢٧٢، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٢، ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى (١٩٨١م) ج ٢ ص ١٧٦، ابن الخطيب / أعمال الإعلام ج ٣ ص ١٤٩.

٤٠- ابن الخطيب / أعمال الإعلام م ٢ ص ٢٤١ / دول الطوائف ص ٢٤٨، ٢٥٠.

٤١- ابن الخطيب / أعمال الإعلام م ٢ ص ٢٤١.

٤٢- ابن حزم الأندلسي / أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، التلخيص لوجوه التخليص، تحقيق احسان عباس، القاهرة (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) ص ١٧٥، عنان / دول الطوائف ص ٤٢٠.

٤٣- أبى عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر، كان من أوائل كتاب عصره علمًا ومعرفة، أصله من قرطبة، ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٧٦٦ رقم الترجمة ١٥٠١، ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٣٤، ابن حبان / المقتبس ص ١٦٨ رقم الترجمة (٥٥٦)، المقرئ / نفع الطيب عن رسالة ابن حزم في ذكر علماء الأندلس ج ٢ ص ١٣١.

٤٤- ابن عبد البر / بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن الهاجس / تحقيق محمد مرسى الخولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ب. ط م ١ ق ١ ص ٤٥٧.

٤٥- ابن حبان (أبو مروان حبان بن خلف) ٣٧٨هـ - ٤٦٩هـ / ٩٨٨-١٠٧٦م، من أوائل المؤرخين الأندلسيين ومن أشهر مؤلفاته المقتبس في أخبار بلد الأندلس في عشر مجلدات وكتاب (المتين) في ستين مجلدًا، من أهل قرطبة، ذكره ابن بسام بقوله (كان سهمًا لا ينمى رميه، ويحرق لا يتكش أذيه)، كما ذكر ابن خلكان أن أبو علي الفسائي قد ذكره بقوله (كان عالى السنى، قوى المعرفة، متبحرًا فى الآداب بارعًا فيها، توفى تسع وستين وأربعمئة. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد محمد بن أبى بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / تحقيق احسان عباس / دار الثقافة، بيروت، لبنان (١٩٦٨م) ج ٥ ص ٢١٨. ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٥٧٤. موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين / حققها وراجعها بول غليونجى، جلال شوقى، حسين مؤنس وآخرون، مكتبة المعارف / بيروت (ب. ط) ص ٨١، عنان / تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٧٢.

٤٦- ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٥٧٨.

٤٧- المصدر السابق ق ١ م ٢ ص ٥٧٦.

٤٨- هو أبوطالب بن عبد الجبار يعرف بالمتنبي الأندلسي، من أهل جزيرة شقر، عاش في حدود (٥١٩هـ/ ١٠٢٦م). عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر / المختصر في أخبار البشر المسمى (تاريخ أبو القدا) أربعة أجزاء في مجلدين، بيروت (١٩٦٨م) دار المعرفة والنشر، بيروت م ١ ج ٤ ص ١٢٠، ابن الخطيب / أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت (١٩٥٦م) م ٢ ص ١٤٩. مجلة الأندلس الأسبانية، المجلد الرابع، القسم الأول، غرناطة (١٩٥٠) ابن بسام / الذخيرة ق ١ ص ٩١٦.

٤٩- ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٩٤٢، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٨، ٢٩. ٥٠- ابن حزم / رسالة التلخيص ص ١٥٧، ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٧، ١٦٨، ١٨٤. يبدو أن شرب الخمر ويعد في الأسواق في فترة حكم ملوك الطوائف أمراً لا منكر عليه ولا غرابة فيه، وهذا ما ذكره مؤرخ ذلك العصر ابن حزم، تنظر رسائل ابن حزم / تحقيق احسان عباس ص ١٧٤، المقرئ / نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٩، ابن سعيد / المغرب ج ١ ص ٧٦٩، ابن عبدون أحمد التجيبي / رسالة في القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسبة) نشر ليفي بروفنسال المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة (١٩٥٥م) ص ١٣. والمكوس: دراهم تؤخذ على بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية. طاهر أحمد الزاوي / ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الكتب العلمية (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) مادة مكس ج ٤ ص ٢٧٢. ٥١- ابن حزم، المرجع السابق، ص ١٣٨.

٥٢- أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفي) تحقيق احسان عباس، دار الثقافة / بيروت (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ٩٢.

٥٣- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) النمرى القرطبي / القصد والأهم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم / المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة (١٩٧٢م). وخولا : الخول هم العبيد والأماء وغيرهم من الحاشية. الزاوي / ترتيب القاموس المحيط ج ٢ ص ١٢٩.

٥٤- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٥٢، والعنذاق تعني البيان أو براءة ضمن رسالة أو وثيقة. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر م ٧ ص ٢٦٨.

٥٥- المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ٢٣٥.

٥٦- أبو الأصبع عيسى بن سهل الأسدي، الإعلام بنوازل الأحكام المعروفة بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد التويجري، الطبعة الأولى، القاهرة (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).

٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٨٠ ، المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ٢٤٣ ، ابن الأبار / الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٤٦ ، آنخل جنتالت / تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٥٥م) ص ٧٧ ، ٧٨ ، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس تحقيق أحمد العبادي ص ٧٧ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٤٤ ، المقرئ ، التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد / أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض / تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي ، القاهرة (١٣٣٩هـ / ١٩٤٢م) ج ١ ص ٦٠ وما يدل على حالة الاستخفاف بهؤلاء الأمراء والازدراء بهم من قبل ملوك النصارى ما قاله ألفونس السادس ملك قشتالة عنهم عندما قابل سفير المعتمد بن عباد إليه وهو يهودى ويدعى بابن مشعل حيث خاطبه بقوله «كيف أترك قومًا مجانيين تسمى كل منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه شيئًا ولا يرفع عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا ، وقد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يفر منهم على رعيته أحدًا وأن يدعها بين أيديهم سداً » ينظر دول الطوائف / محمد عنان ص ٧٤ . والسيد القبيبادور (الكبيبادور) فارس قشتالي اسمه الأصلي رودريجور لقب بالسيد من قبل المسلمين الذي كان يخدم بينهم ويحارب معهم ، ووصفه بالكبيبادور معناها المحارب الباسل لشجاعته وجهه للقتال . المقرئ / نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، ابن الأبار / الحلة السيرة ص ١٠٧ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٠٣ / ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ ، ويذكر ابن عذارى أن كلمة (الكبيبادور) معناها صاحب الفحص ، عنان / دول الطوائف ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

٥٨- محمد عنان / مواقف حاسمة في التاريخ الإسلامى ص ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، عنان / دول الطوائف ص ١٤ .

٥٩- بريشتر : بالأسبانية Babastro بلدة حصينة تقع في شمال غرب مالقة وعلى مقربة من شمال شرق رندة ، وكانت أيام الفتنة الكبرى من معاقل زعيم ثورة الجنوب ابن حفصون . ابن الخطيب / الإحاطة ج ٣ ص ٧٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٨١ وما بعدها ، عنان / دول الطوائف ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ . ابن عذارى / البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٥ الحجى ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب «المسالك والممالك» لأبى عبيدة البكرى ص ٩٢ وقد وردت في بعض المصادر باسم (بيشتر) .

٦٠- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٥٧ وما بعدها ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٥٩ .

٦١- المرجع السابق ق ٣ م ١ ص ١٨٨ .

٦٢- المرجع السابق ق ٣ م ١ ص ١٧٩ وما بعدها ، المقرئ / نفع الطيب م ٦ ص ٢٤٤ .

٦٣- المقرئ / نفع الطيب م ١ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٤ م ١ ص ١٢٩ ، ابن خلدون / العبر ج ٤ ص ١٦١ ، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٨١ .

٦٤- قشتالة : كستلا بالأسبانية مملكة قديمة بشمال ووسط أسبانيا ، تنقسم تقليدياً إلى منطقتين ، قشتالة القديمة وتقع في الشمال وقشتالة الجديدة وتقع في الجنوب ، وتشمل قشتالة معظم هضبة أسبانيا الوسطى العالية الجافة ، كانت قشتالة القديمة مقاطعة من مملكة (ليون) وبحلول القرن العاشر الميلادي أصبحت مستقلة عنها ، الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غريال ، دار الشعب مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر صورة طبق الأصل من طبعة (١٩٦٥م) ص ١٣٨١ .

٦٥- ابن حيان / المقتبس ص ١٨ ، ابن الأثير / الكامل في التاريخ ص ١٢٠ ، المقرئ / نفع الطيب م ١ ص ٤٢٣ ، ج ٦ ص ٨٤ ، ابن الكردبوس / كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ص ١٥٧ ، عبد المجيد نعنعي / الإسلام في طليطلة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت (ب.ط) ص ٣٠٣ ، محمد عنان تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية / مكتبة الخانجي ، القاهرة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص ٢٧١ .

٦٦- ابن بسام / الذخيرة ق ٤ م ١ ص ١٦٣ .

٦٧- المرجع السابق ق ٢ م ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، وأبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي تنظر ترجمة في حاشية ٣٣ ، ابن سعيد / المغرب ج ١ ص ٣٥٠ ، ابن الخطيب / الإحاطة ج ٢ ص ٥١٦ .

٦٨- ابن العسال : هو عبدالله بن فرج بن عسلون اليحصبي ، يعرف بابن العسال يكنى أبو محمد ، طليطلي الأصل ، سكن غرناطة ، واستوطنها سنة ٤٨٧هـ ، ابن الخطيب / الإحاطة م ٣ ص ٤٦٣ ، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، تحقيق إحسان عباس ص ٧١ ، ابن الخطيب / الإحاطة م ٣ ص ٤٦٣ . ابن بشكوال / الصلة م ١ ص ٢٨٥ ترجمة رقم (٦٢٩) .

٦٩- ابن سعيد / المغرب ج ٣ ص ٢١ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٥٩ ، ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا الشكل.

من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سقط

المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ١٣١ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق إحسان عباس / ج ٥ ص ٢٧ ، ٢٨ .

٧٠- المقرئ / نفع الطيب ج ٤ ص ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، الحجي / التاريخ الأندلسي ص ٣٥١ .

٧١- الفرزان من لعب الشطرنج أعجمى معرب وجمعه فرازين ، وكذلك البيدق والشاه قطع من قطع لعب الشطرنج ، والشهيات ، كلمة من مصطلح اللاعبين يعبرون بها عن انتهاء الدور بمعنى مات الشاه ، ابن منظور / لسان العرب المحيط ، إعداد وتصنيف يوسف خياط م ٢ ص ١٠٧١ ، المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ١٣١ .

٧٢- المقرئ / نفع الطيب ج ٤ ص ٢٧٥ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٥١ .

٧٣- بلنسية : تقع فى شرق الأندلس ، قاعدة من قواعد الأندلس ، استولى عليها الروم قديما وأحرقوها بعد خروجهم منها سنة ٤٩٥ هـ ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب (الروض المعطار للحميرى) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧م) ص ٤٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ، م ٤ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

٧٤- ابن خفاجة : أبو اسحاق إبراهيم ابن أبى الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسى من الشعراء الزاهدين فى عهد ملوك الطوائف ، ولما دخل المرابطون الأندلس ، تخلى عن عزلته وشارك فى مدح أمراء الملثمين ، إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر ملوك الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، الطبعة السادسة ، بيروت (١٩٨١م) ص ٨٨ . ابن خلكان / وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٥٦ ترجمة رقم ١٧ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ١٧٣ ، ابن الخطيب / الإحاطة ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

٧٥- المقرئ / نفع الطيب ج ٤ ص ٤٤٥ .

٧٦- ابن الأثير / الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٤٣٩ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، عنان / دول الطوائف ص ٧٥ .

٧٧- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ ج ١ ص ٢٥٣ ، السلاوى أحمد بن خالد الناصرى ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد أبناء خالد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (١٩٥٤م) ص ٣٨ ، ٣٧ ، عنان / دول الطوائف ص ٧٣ وما بعدها ، سعد البشرى ، الحياة العلمية فى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس ص ٧٢ ، الحجى ، التاريخ الأندلسى ، ص ٣٤٥ .

٧٨- الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس (١٩٧٠م) ج ٢ ق ١ ص ١٩٤ ، الذخيرة / ابن بسام ق ٣ م ١ ص ١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ، ص ٣٣٦ وما بعدها .

٧٩- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٧٧ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٣٦ وما بعدها .

٨٠- أبو الوليد الباجى : هو سليمان بن خلف بن سعيد التجيبى الباجى ، أحد أقطاب المذهب المالكى ،

ولد فى مدينة بطليوس درس فى قرطبة ، وأتم دراسته فى بلاد المشرق مكة وبغداد توفى ٤٧٤هـ / ١٨٠١م أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى / بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة (١٩٦٧م) ص ٢٢٠ . ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة ص ١٢٠ .

٨١- المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ ، ابن فرحون / الديباج المذهب ص ١٢٠ ، ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٢٠١ ، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٩٤ ، ٩٧ الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤٢ .

٨٢- بلنسية . تنظر حاشية ٧٣ .

٨٣- مرسية : مدينة تقع شرق الأندلس شمال مدينة المرية، اختطها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن معاوية ، وهى ذات أشجار وحدائق محيطة بها. الحموى / معجم البلدان ج ٥ ص ١٠٦ ، الحميرى / الروض المعطار ص ٦٢ ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيدة البكرى، تحقيق عبد الرحمن الحجى ص ١٢٧ .

٨٤- دانية : قصبة الناحية الشمالية الشرقية من كورة القنت الأسبانية ، وهذه الكورة أبعد المقاطعات الأسبانية الحديثة، وكانت تتألف من هذه المقاطعات مملكة بلنسية القديمة، وتقع فى الطريق الجنوبي الشرقى من خليج بلنسية ، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) لأبى عبدالله بن محمد بن إدريس ، الإدريسي / تحقيق دوزى ودى خوية / أمستردام (هولاندا) طبعة مصورة (١٩٦٩م) ص ١٩٢ ، الحموى / معجم البلدان ج ٢ ص ٥٤٠ ، دائرة المعارف الإسلامية م ٩ ص ١٢٠ .

٨٥- عياض / ترتيب المدارك ق ٣ م ٤ ص ٨٠٨ .

٨٦- الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤١ .

٨٧- عياض / ترتيب المدارك ق ٣ م ٤ ص ٨٠٢ / ٨٠٨ .

٨٨- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٨٠ / ١٨١ .

٨٩- المنتزين عليهم: الحاملين عليهم والمفسدين عليهم. ابن منظور / لسان العرب مادة نزا م ٣ ص ٦١٤ ، أحمد الزاوى / ترتيب القاموس المحيط ، مادة (نزا) ج ٤ ص ٣٥٣ .

٩٠- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٧٩ ، المقرئ / نفح الطيب م ٦ ص ٢٤٣ . والقاسطون : الجاثرون والعاذلون عن الحق. الزاوى / ترتيب القاموس المحيط مادة (قسط) م ٣ ص ٦١٩ .

٩١- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٨٠ .

٩٢- المصدر السابق ق ٣ م ١ ص ١٨٨ ، المقرئ / نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٣ .

٩٣- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٨٠ ، ١٨١ ، المقرئ / نفح الطيب م ٦ ص ٢٤٤ وقد نقلها المقرئ عن الشاعر القطامي بن عمير بن شميم ، وقد وردت الأبيات في ديوان الشاعر بهذا الشكل.

أمر لو تلاقها حليم إذا لنهى وهيب ماستطاعا

ديوان القطامي ، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٩٦٠م) ص ٩٦ .

٩٤- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٧٦ ، عبد الحليم عويس / ابن حزم الأندلسي ص ٣٥ وابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ، أديب ومؤرخ أندلسي ولد سنة ٣٨٤هـ. الضبي / بغية الملتصق ص ٤١٥ ترجمة رقم ٢٠٥ ، ابن خلكان / وفيات الأعيان م ٣ ص ٣٢٥ ، الحموي أبو الدري ياقوت بن عبدالله / معجم الأدباء / دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان (ب.ط) م ١٢ ص ٢٣٥ ، عبد الحليم عويس / ابن حزم الأندلسي ص ٥٢ ، الموسوعة الإسلامية المبصرة ، أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية الملكية هـ. أ. جب وج. هـ كالمرز ، ترجمة راشد البراوي ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (١٩٨٥م) ج ١ ص ١٩ .

٩٥- سورة آل عمران آية ١٠٥ .

٩٦- سورة الأنفال آية ٤٦ .

٩٧- ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٣ ص ١٧٢ .

٩٨- في رواية مسلم ورد الحديث بهذا اللفظ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال طارق بن شهاب من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة قال قد ترك ما هنالك فقال أهوسعيد اما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» أما في رواية النسائي فلم يذكر العيد والخطبة وورد الحديث بهذا اللفظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فقد برىء، وإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه فقد برىء، وإن لم يستطع أن يغيره بلسانه فليغيره بيده فقد برىء ، وذلك أضعف الإيمان» مجدى الدين أبى السعادات ابن المبارك بن محمد الأثير الجزري / جامع الأصول في أحاديث الرسول، حقق نصوصه وأخرج أحاديثه وعلق عليه عبد القادر الأرناؤوط ، الجزء الأول/ نشر وتوزيع مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ٣٢٥ .

٩٩- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٨٥ ، وابن عبد البر هو أبى محمد عبدالله ابن الفقيه أبى عمر يوسف بن عبد البر ذكر عنه ابن بسام أنه كان من أشهر كتاب عصره استقصى أخبار ملوك الطوائف وكتب عن أكثرهم . توفي سنة ٤٧٤ هـ ، ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٢٤٢ ، ابن سعيد / المغرب ج ٣ ص ٤٠٢ الضبى / بغية الملتبس رقم ٩٦٥ .

١٠٠- المصدر السابق ق ٣ م ١ ص ١٨٧ .

١٠١- المصدر السابق ق ٣ م ١ ص ١٧٤ .

١٠٢- القاضى عياض بن موسى بن عياض (سنة ٤٧٦-٥٤٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك / تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت (١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م) أربعة أجزاء ، ج ٢ ص ٨١١ .

١٠٣- عبد الرحمن بن مسلمة بن عبد الملك بن الوليد القرشى، قاضى قرطبة، كان مقدماً فى الفهم، بصيراً بعلوم كثيرة من علوم القرآن والأصول والحديث والفقه، ابن بشكوال / الصلة ج ٢ ص ٣٣٤ ، عياض / ترتيب المدارك ج ٢ ص ٨٢٢ .

١٠٤- القاضى أبو الوليد الوقشى هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكنانى الوقشى من أهل طليطلة قاضى مدينة طليطلة ، ذكره المقرئ بقوله (الأديب والفيلسوف الأديب) المقرئ / نفع الطيب م ٦ ص ٨٥ ابن خلكان / وفيات الأعيان م ١ ص ٥٤٦ ، ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٦٥٣ رقم الترجمة ١٤٣٧ ، الحميرى / الروض المعطار ص ١٩٦ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤٩ ، ووقش قرية بشغر الأندلس، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار للحميرى، تحقيق ليفى برونسفال ص ١٩٦ .

١٠٥- ابن بشكوال / الصلة ج ٢ ص ٥٧٥ رقم الترجمة (١٢٦٩) ، المقرئ / نفع الطيب ج ٢ ص ٨٨ ، الحجى / التاريخ الأندلسى، ص ٣٥٠ .

١٠٦- ابن بشكوال / الصلة ج ٢ ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، النباهى / أبو الحسن على بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن النباهى الملقى / المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المسمى بتاريخ قضاة الأندلس، نشر ليفى برونسفال ، القاهرة (١٩٤٨م) ص ٩٨ ، ٩٩ .

١٠٧- ادريس بن يحيى بن يوسف الواعظ ، من أهل إشبيلية ، يكنى بأبى المعالى، كان يجول بلاد الأندلس يعظ الناس ويذكرهم ، أنشد بمسجد رحبة القاضى فى بلنسية ومنها:

أنا فى الغربية أبكى ما بكت عين غريب .

لم أكن يوم خـروجى من بلادى بمصـيب

ابن الأبار / أبو عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى ابن الأبار / التكملة لكتاب الصلة طبعة
العتار، جزآن ، القاهرة (١٣٥٥هـ / ١٩٥٦م) ج ١ ص ١٩٦ ، رقم الترجمة ٥١٩ .

١٠٨- ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٣٦٩ .

١٠٩- أبى بكر محمد بن أحمد بن حسن ابن اسحق بن عبدالله بن اسحاق بن جعفر من أهل قرطبة من
بيت وزارة وجلالة عمل على إزالة الخلافات بين ملوك الطوائف وعمل على جمع كلمتهم . ابن
الأبار / التكملة ج ١ ص ٣٩٠ رقم الترجمة (١٠٩٠) الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤٩ .

١١٠- ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤٨ .

١١١- محمد بن سفيان بن اسحاق الواعظ من أهل بلنسية ، يكنى أبا عبدالله ، سمع من أبى المعالى
ادريس بن يحيى الواعظ وولى الحنسية بالسوق وكان يعظ بمسجده المشتهر بمسجد الغلبة، ابن
الأبار / التكملة ج ١ ص ٤١٤ رقم الترجمة ١١٧٤ .

١١٢- المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ١٢٩ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٤٤٧ .

١١٣- ينظر هامش ٩٩ .

١١٤- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٢٥ .

١١٥- أورد رسالته صاحب القلائد حيث جاء فيها أن فرديناند نزل فى قرية أيوب محاصرا وغرسيه نزل
بسرقسطة وردزمير نزل فى بوشقة وما وراثها ، الفتح بن خاقان / قلائد العقيان فى محاسن
الأعيان، تونس (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) مصورة عن طبعة باريس ص ١٩٠ .

١١٦- محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصارى من أهل طرطوشة ، يكنى أبا عبدالله ، سكن
سرقسطة وتجول كثيرا فى بلاد الأندلس والعدوة، غلب عليه علم العبارة، فشهـر بها، وكان وجيها
عند الملوك مترددا عليهم.

ابن الأبار / التكملة لكتاب الصلة، ج ١ ص ٤١١ رقم الترجمة ١١٦٤ ، الحجى / التاريخ الإسلامى
ص ٣٤٩ .

١١٧- ابن الأبار / التكملة ج ١ ص ٤١١ .

- ١١٨- أبوبكر المعافري : هو محمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد العربي المعافري من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر، إمام عالم، خاتم علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها، ابن بشكوال/ كتاب الصلة ق ٢ ص ٥٩٠ رقم الترجمة ١٢٩٧، النباهي / المرقبة العليا ص ١٠٥. ابن خلكان / وفيات الأعيان م ٤ ترجمة ٦٢٦ ص ٢٩٦.
- ١١٩- النباهي / المرقبة العليا ص ١٠٦.
- ١٢٠- محمد بن سليمان الأنصاري المالقي: قاضي مدينة مالقة/ ومن جلة أهلها وعلمائها اتصف بالعدالة والزهد، كان في مذهبه صلبا ورعا وزاهدا أدبيا، وله على كتاب (الموطأ) شرح كثير حسن مفيد، النباهي/ المرقبة العليا ص ١٠٠.
- ١٢١- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٢٥٦، النباهي/ تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٠.
- ١٢٢- المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ١٢٩، الحجى/ التاريخ الأندلسي ص ٤٤٧.
- ١٢٣- أبو حفص بن عمر الهوزني : سكن شرق الأندلس، ثم رحل إلى إشبيلية وطلب العلم على شيوخها، وأخذ من علماء المشرق، قتله المعتمد بن عباد بيده وأمر أن يدفن داخل القصر دون أن يغسل ولا يكفن أو يصلى عليه، ابن بشكوال / الصلة ج ١ ص ٤٠٢ رقم الترجمة ٥٦٨.
- ١٢٤- القاضي عياض / ترتيب المدارك ج ٢ ص ٨٢٦، ابن بسام الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٨٢، ٨٣، ابن سعيد، المغرب ج ١ ص ٢٣٩، سعيد البشرى الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف ص ١٢٠.
- ١٢٥- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٩٣ وما بعدها.
- ١٢٦- المصدر السابق ق ٢ م ١ ص ٩٣.
- ١٢٧- السميسر : هو أبو القاسم، خلف بن فرج الإيبيري، يعرف بالسميسر، شاعر من شعراء ملوك الطوائف بالأندلس، امتاز شعره بهجاء أهل عصره، ابن بسام/ الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٣٨٢، المقرئ/ نفع الطيب ج ٤ ص ٣٨٧.
- ١٢٨- ابن سعيد/ المغرب ج ٣ ص ١٦٧، ١٦٩، المقرئ/ نفع الطيب ج ٤ ص ٣٨٧، ابن بسام/ الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢٨٥، أخبار وتراجم أندلسية ص ٨٣.
- ١٢٩- أبو اسحاق إبراهيم بن مسعود الأيبيري. إبراهيم بن سعيد التجيبي ولقبه الإيبيري وكنيته أبو اسحاق توفي سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م، خصه الضبي بقوله : «فقيه فاضل زاهد عارف، كثير الشعر في ذم

الدنيا، وذكر عنه ابن الأبار بأن شعره مدون وكله فى الحكم والمواعظ والأزهاد، عين قاضيا بمدينة
غرناطة بتعيين من باديس بن حبوس. ابن الأبار / التكملة ترجمة رقم ٣٥٢، أميلو غرسية
غومت/ مع شعراء الأندلس والمنتبى سير ودراسات، ترجمة الطاهر أحمد مكى، دار المعارف،
الطبعة الأولى القاهرة (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٨٩.

١٣٠- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦. ترجمة رقم ١٧ ابن بسام / الذخيرة ج ٣ م ٢ ص ١٧٣،
ابن الخطيب / الإحاطة ج ١ ص ٤٣٩، ٤٤٠، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٤٦.

١٣١- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٣٨، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٣٣.

١٣٢- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٨٩.

١٣٣- ينظر حاشية ٦٨.

١٣٤- المقرئ / نفع الطيب ج ٦ ص ١٢١، ابن سعيد الأندلسى / رايات المبرزين ص ٩٦، ابن بشكوال/
الصلة ج ١ ص ٢٨٥ رقم ٦٢٩، أورد المقرئ البيت الأول بصيغتين مختلفتين أولها :

يا أهل الأندلس حشوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط

وثانيها : حشوا رواحلكم يا أهل الأندلس فما المقام بها إلا من الغلط

الشوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسل من الوسط

ونحن بين عـددو لا يفارقنـا كيف الحياة مع الحيات فى سقط

ويروى الصدر الثالث من البيت هكذا : من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات فى سقط

١٣٥- تنظر حاشية ٧١.

١٣٦- أبو الحسن بن الجدد: هو الوزير الكاتب يوسف بن محمد بن الجدد ورد فى مواضع أخرى من الذخيرة

مرة بلقب أبو الحسين ومرة بلقب أبو الحسن ذكره ابن بسام بقوله : (وأبو الحسين هذا كان من أسنى

نجوم سعدهم [ويقصد بهم بنى الجدد] واسمى هضاب مجدهم) استكتبه ذى الوزارتين أبوبكر بن

عمار أيام حربه بمرسية، ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٥٥٦، ابن سعيد / المغرب ج ١ ص ٢٤٠.

١٣٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٢٨، ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ١٤٤.

١٣٨- عبد العزيز عتيق / الأدب العربى فى الأندلس / دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة

الثانية/ بيروت (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص ٣٢٨.

- ١٣٩- أبو طالب بن عبد الجبار: تنظر ترجمته فى حاشية ٤٨ .
- ١٤٠- المقرئ/ نفع الطيب ج ٦ ص ١٣١ ، ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٩١٦ .
- ١٤١- تنظر حاشية ٦٩ .
- ١٤٢- ابن بسام / الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١٥٩ ويروى الصدر الثالث من البيت بهذا اللفظ من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سقط
- ١٤٣- ابن خفاجة : تنظر ترجمته فى حاشية ٧٤ .
- ١٤٤- ابن بسام / الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٦٢ .
- ١٤٥- حسين مؤنس / تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربى إلى الاحتلال الفرنسى للجزائر الطبعة الأولى (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) م ١ ص ٤٤٧ .
- ١٤٦- مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص ٢٠ ، ٢٢ ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ عنان/ دول الطوائف ص ٣١٧ / الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ . يوسف أشباح / تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٧٤ .
- وعبيدالله بن محمد بن أدهم: من أهل قرطبة وقاضى الجماعة بها، يكنى أبا بكر استقصاه المعتمد بن عباد. الصلة ج ١ ص ٣٠٤ رقم الترجمة ٦٧٣ .
- ١٤٧- ابن خلكان / وفيات الأعيان/ ج ٢ ص ٤٨٢ . الحل الموشية ص ٢٨ .
- ١٤٨- عبد الله بن بلقين / كتاب التبيان (المنشور تحت عنوان مذكرات الأمير عبد الله) المقدمة ص ٧٠ ، ابن أبى زرع الفاسى / الأتيس المطرب يروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس/ تحقيق شارل تورنبرج، إيسالة (١٨٤٣م) ص ٩٢ ، ٩٣ . على حبيبه / دولة الإسلام فى الأندلس/ دار الشروق / الطبعة الثانية (ب.ت) ص ٢٥١ . الحميرى/ الروض المعطار ص ٣٩١ / ٣٩٢ مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب)، الحلل الموشية ص ٢١ ، ٣٩٨ ، الاستقصاء / الناصرى ج ٢ ص ٣٩ .
- ١٤٩- الحميرى / الروض المعطار ص ٨٥ ، ٨٦ وما بعدها ، محمد الهادى شعيره / المريطون وتاريخهم السياسى، الطبعة الأولى، القاهرة (١٩٦٩م) ص ١١٥ .
- ١٥٠- ابن بلقين / التبيان / مذكرات الأمير عبد الله ص ١٢٨ ، ابن عذارى/ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩١ ،

٣٩٢، مؤلف مجهول / الحلل الموشية ص ٣٩، ٤٠، محمد عبدالله عنان/ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ج ١ ص ٤١، ٤٢ .

١٥١- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٠٠ .

١٥٢- ابن بلقين / التبيان ١١٨، ١١٩ والقليعي هو أحد وزراء عبدالله بن بلقين ومن المقربين له، تظاهر بالولاء والإخلاص للأمير عبدالله .، فأولاه ثقته ، ولكن القليعي كان حاقدا على الأمير عبدالله لأنه منعه من الإقامة في المدينة وألزمه الإقامة في ضيعته لما كان يرى من شره حسب قول الأمير عبدالله- فعمل القليعي على حياكة المؤامرات ضده، فأمر الأمير عبدالله بحبسه في بيت قرب قصره، ثم أمر بإطلاق سراحه بعد أن التزم له القليعي بالانضباط وعدم التدخل في الأمور التي لاتعنيه ، ولكن ما لبث أن اتصل بأمر المرابطين يوسف بن تاشفين وحين إليه غزو الأندلس، ينظر المصدر أعلاه ص ١١٨، ١١٩ ، ابن الخطيب/ الإحاطة ج ١ ص ١٤٩ .

١٥٣- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٤٩ ، محمد عنان / عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٤١ ، ٤٤ .

١٥٤- نفس المرجع السابق ، والإمام الغزالي هو الإمام أبو حامد محمد، فقيه ومتكلم وفيلسوف ومصلح ديني واجتماعي له مصنفات كثيرة منها علم الكلام والجامع العوام من علم الكلام. الموسوعة العربية الميسرة ، أشرف على تحريرها محمد شفيق غريال، دار الشعب ص ٢٥٤، للمزيد من ترجمته يرجع إلى المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر (١٠٠هـ، ١٣٧٠هـ) ، عبد المتعال الصعدي، مكتبة الآداب، دار الحماوى للطباعة (ب.ط) ص ١٢٦ .

١٥٥- أبوبكر الطرطوشي : هو أبوبكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي ، المعروف باسم أبى زندقة، ولد بطرطوشة (٤٥١هـ / ١٠٥٩م) وتوفى بالاسكندرية ، ٥٢٠هـ / ١١٢٦م، صاحب كتاب سراج الملوك. ابن بشكوال / الصلة ج ٢ ص ٥٧٥ رقم الترجمة ١٢٦٩ / الضبى / بغية الملتبس رقم الترجمة ٢٩٥، ابن فرحون / الديباج المذهب ص ٢٥٠، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنكليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم يشرف على تحريرها تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العربية هو تسماوفينستك وآخرون، النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشتاوى وعبد الحميد يونس، كتاب الشعب م ٥ ص ١٦٣ .

ابن خلكان / وفيات الأعيان م ٤ ترجمة رقم ٦٠٥ ص ٢٦٢، ٢٦٥ .

محمد بن جابر الوادى آشى الأصل التونسى مولداً، برنامج الوادى آش / تحقيق محمد محفوظ .
دار العرب الإسلامى / اثينا / بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ١١٧ .

١٥٦- ابن سارة الشنترينى: هو الأديب أبو محمد عبدالله بن سارة الشنترينى البكرى ، الشنترينى الأصل، نزل أشبيلية وسكنها ، تجول فى بلاد الأندلس شرقاً وغرباً للتعليم بالعربية، امتدح الولاة والرؤساء. ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨٣٤ ، ابن الأبار / التكملة ص ٨١٦ ، ابن سعيد الأندلسى / المغرب ج ١ ص ٢١٩ .

١٥٧- ابن بسام / الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨٣٤ .

١٥٨- الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٤٤٥ .

١٥٩- ابن الخطيب / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، الحجى / التاريخ الأندلسى ص ٤٤٣ . عنان / دول الطوائف ص ٣٧٣ ، يذكر عنان فى كتابه دول الطوائف أن بقائهم استمر ٤٠ عاماً .

١٦٠- الشريف الأدريسى / صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس عن كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الأدريسى نشر دوزى ودى خوية، ليدن (١٨٦٦م) ص ٧٥ .

١٦١- الناصرى / الاستقصاء ، ج ٢ ص ٧٣ ، عنان / عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٤٢٥ .

١٦٢- القاضى أبوبكر بن العربى الإشبلى انظر ترجمته فى حاشية ١٣٩ .

١٦٣- مؤلف مجهول (ينسب لابن الخطيب) الحلل الموشية ص ١٠٥ .

١٦٤- المصدر السابق ص ٥٩ .

١٦٥- الصيرفى : هو أبوبكر الصيرفى، من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عمل وزيراً وكاتباً لأمير المرابطين محمد بن تاشفين والذى حكم الأندلس (٥٢٠-٥٣١) وألف كتاباً فى تاريخ دولة المرابطين وهو (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية) ابن الخطيب / الإحاطة ج ١ ص ١٠٨ .

١٦٦- ابن الخطيب / الإحاطة م ١ ص ٤٤٨ ، م ٤ ص ٣٤٩ ، ابن عذارى / البيان المغرب ج ٤ ص ٧٩ ، ٨٠ .

١٦٧- المقرئ / نفع الطيب م ٦ ص ٢٣٧ .

د. عمر سالم عمر بابكر *

غوردون وسياسة إخلاء السودان

(١٣٠١-١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤-١٨٨٥ م)

يعالج هذا البحث موضوع غوردون وسياسة إخلاء السودان، في فترة هامة من تاريخه الحديث . والمعروف عن غوردون أنه شخصية إنجليزية استقلت أولاً بإدارة مديرية خط الاستواء عن حكمدارية عموم السودان في عام ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م ثم بعد أربع سنوات أي في عام ١٢٩٤ هـ عين حاكماً عاماً للسودان. ولم يكن يرغب في أن تكون هناك صلة بين مصر والسودان. ولكنه عين حاكماً عاماً على السودان في يناير ١٨٨٤ وتسلم غوردون في يوم تعيينه خطاباً من الخديوي يحدد له خطوط مهمته، وهي تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون في العودة إلى مصر. ولم يكن إخلاء السودان سوى تنفيذ لخطه أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل استهدفت خفض مصروفات مصر، وبذلك تتجنب إنجلترا أي تدخل أوروبي فيها فضلاً عن عزل السودان عن مصر .

وقد اعتمدت في هذا البحث على الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة فضلاً عن - المنشورة وغير المنشورة - وتشمل الوثائق المراسلات المتبادلة بين الخديوي وحكمدار السودان متضمنة منشورات تحمل توجيهات الخديوي إلى حكمدار السودان.

* أستاذ مشارك - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

كذلك اعتمدت على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، وحاولت في المراجع العربية أن أرجع إلى بعض المؤلفين الذين شهدوا أحوال السودان في تلك الفترة حتى تكون أقوالهم أقرب إلى شاهد عيان، ومن هؤلاء نعوم شقير في كتابه (تاريخ السودان القديم والحديث)، وكذلك مكى شببكة في كتابه (السودان في قرن ١٨١٩-١٩١٩) حيث أوضح هؤلاء الكثير من النقاط الهامة والغامضة، هذا بالإضافة إلى الكتاب الأخضر الذي أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصري في سنة ١٩٥٣م عن السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١م إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣م.

أما المصادر الأجنبية فمن أهمها :

LYTTON STRACHEY ., THE END OF GENERAL GORDON, 1888.

الذى يتحدث عن نهاية الجنرال غوردون. ويمتاز سترتش بالعمق في دراسة الشخصية التاريخية وفهمها، وهو يجتهد في إبراز المتناقضات في الشخصيات التي يعالج تاريخها وأوجه الضعف والشذوذ فيها هذا فضلا عن كتاب :

ALLEN, B. M., GORDON AND THE SUDAN, LONDON, 1931 .

الذى يصور غوردون في صورة الطفل البريء الذى لا يعرف مكرًا أو دسًا أو خديعة ولا يعبأ بجاء أو مال.

كذلك عالجت في هذا البحث موقف غوردون من تجارة الرقيق في السودان، وبطبيعة الحال رحبت إنجلترا بهذه السياسة التي تثير الأهالي ضد المصريين. وكذلك حملة هيكس ونتائجها حيث أن هزيمة هيكس كان لها أكبر الأثر في موقف حكومته بالنسبة لمصر والسودان، حيث تقرر الانسحاب وتمكن بارنج من إقناع حكومته على تبني سياسته التي تهدف إكراه الحكومة المصرية على إخلاء السودان، وذلك حتى تنهيا الفرصة أمام إنجلترا لتحل محل مصر في مديريتها المفقودة، وبذلك تربط بين الممتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضي فيما بين الكاب والقاهرة. ولهذا الغرض رفضت إنجلترا السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة وقد أسندت مهمة الإخلاء إلى غوردون في يناير ١٨٨٤م إلى أن توفي في يناير ١٨٨٥م.

أولاً : موقف غوردون من تجارة الرقيق:

حدث بعد استقالة بيكر^(١) فى عام ١٢٩٠هـ أغسطس ١٨٧٣م أن أشير على إسماعيل أن يستخدم إنجليزياً آخر هو شارلس جورج غوردون الذى طلب أن يستقل بإدارة مديرية خط الاستواء^(٢) عن حكمدارية عموم السودان . وقد استهل غوردون عمله بمعاكسة التيار الإسلامى وإطفاء شعلة الحضارة العربية التى تصاحب دائماً هذا التيار . ذلك أن أمتيسا ملك أوغندة كان قد أرسل إلى السلطات المصرية فى أعالي النيل - قبل ذهاب غوردون - يطلب منها إيفاد عالمن إسلاميين ليعلماه وشعبه الدين الإسلامى^(٣). ولكن غوردون بادر عند توليته السلطة بإرسال بعثة إلى أمتيسا تحول دون اعتناقه الإسلام، وتحمله على الدخول فى المسيحية. واستطاع فعلاً أن يحول أمتيسا إلى المسيحية^(٤) وقد وجه ستانلى المقيم فى أوغندة خطاباً إلى مواطنيه يحثهم على إرسال البعثات التنصيرية لتحويل قبائل مجاهل أفريقيا إلى المسيحية، فبعث غوردون الخطاب إلى إنجلترا^(٥). وهكذا اتخذ غوردون من المسيحية وسيلة لخدمة الدول الاستعمارية ، ولما جاءت البعثة التنصيرية إلى أوغندة كانت تتكون من قسيس وضابط من البحرية وطبيب ومهندس معمارى ومهندس ميكانيكى وأستاذ ورجل زراعى واختصاصى فى بناء السفن ويتضح من هذا أنها كانت ذات مسحة استعمارية:

وفى عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م غادر غوردون لادو إلى القاهرة ثم إلى لندن ، وادعى أنه وضع حداً لتجارة الرقيق فى مديرية خط الاستواء ، وبقي . أن يضع لها حداً فى جميع أنحاء السودان. وكان غوردون يرغب فى شغل منصب الحاكم العام للسودان . وبالفعل عين غوردون فى ١٧ فبراير ١٨٧٧م حاكماً عاماً بالسودان^(٦) ولم يكن يرغب فى أن تكون صلة مصر بالسودان قوية ، فرأى أن يوقف العمل فى مد خط السكة الحديد بين مصر والسودان . ٥٠ ميلاً جنوبى وادى حلفا، بحجة أن مالية السودان لاتسمح باستمرارها. ومن العجيب أن غوردون اتجهت نيته حينئذا أن يعطى دار فور لأحد أبناء السلاطين^(٧) وفى هذه الآونة بالذات أعلنها غوردون حرباً شعواء على تجارة الرقيق فى السودان، وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف . وقال فى ٨ أغسطس ١٨٧٨ «أنى أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق ، وقد أنشأت من أجل ذلك نوعاً من حكومة الإرهاب» وبطبيعة الحال كانت إنجلترا مرتاحة لهذه السياسة المتشددة التى تشير الأهالى ضد المصريين ، فكتبت فى ١٣ نوفمبر ١٨٧٨م إلى لاسيل مدير القنصلية العامة فى القاهرة تكلفه بأن يعبر للخديو عن اغتباط الحكومة

الإنجليزية بالعمل الحازم الذى يقوم به غوردون ضد تجارة الرقيق. وكان لهذا العمل أسوأ النتائج فى أعالى النيل بالنسبة للمصريين وأفضلها بالنسبة للسياسة البريطانية^(٨) ولم يكتف غوردون بالتنكيل بتجار الرقيق، بل أنه أتبع خطة لإذلال بعض ذوى النفوذ من السودانين مثل سليمان بن الزبير، مما أحفظ السودانين على الإدارة المصرية^(٩).

ولست هنا بحاجة إلى أن أتناول أسباب الثورة المهدية بإسهاب إنما يكفى أن أقول أن سياسة بيكر وغوردون التى قدمت بعضها دفعت السودان إلى الثورة . وفى ذلك قال شاليه لونج فى كتابه «مصر وأملاكها الضائعة». «إن إدارة غوردون وبيكر هى التى أغضبت السودانين وأثارت ثائرتهم ولاشك فى أن إنجلترا تركت النار تتقد ليكون لها فيه مبرر لإخراج مصر والحلو محلها»^(١٠).

ومن الأمور التى تسترعى النظر أن الثورة العربية والثورة المهدية قامتتا فى وقت واحد، وكلاهما قام ضد استبداد الحكم والتدخل الأجنبى. فهل كانت هناك علاقات بين عرابى والمهدى؟ من الصعب الحكم على ذلك ولكن بعض المهديين أعلنوا تأييدهم لعرابى، مثل عثمان دقنة الذى كان يحقد بشدة على الإدارة التركية والإنجليزية، ولم يخف عرابى وهو فى منفاه تأييده وميله إلى المهدى، وأعلن أنه كان ينوى تنصيبه حاكماً عاماً على السودان. ومن ناحية أخرى نجد أن المهدى، كان يهدف إلى توحيد وادى النيل تحت زعامته كمقدمة لتوحيد العالم الإسلامى فى ظل المهدية. وكان هذا يعنى أنه يعتبر مصر والسودان أمة واحدة أو دولة يمكن توحيد عناصرها^(١١) ولم يمض على الثورة المهدية عام واحد حتى حل الاحتلال البريطانى لمصر، وأصبحت الشئون المصرية فى خريف عام ١٨٨٢م فى يد الإنجليز، ومعنى ذلك أنه لم يعد هناك قانون إلا رغبتهم ولاسلطة غير سلطة جيشهم^(١٢).

على أنه كان باستطاعة مصر أن تخمد الثورة فقام عبد القادر حلمى بمحاصرتها فى كردفان، وطلب المدد ليتمكن من إعادة النظام فى كل أنحاء السودان. ولكن وجود الإنجليز فى القاهرة لم يكن مما يسهل مهمة عبد القادر حلمى فى السودان، أو مما يزيد هيبة الحكومة الخديوية فى أعين المهديين.

ثانياً : حملة هكس ونتائجها :

زحف هكس بجيشه^(١٣) الذى يتكون من فلول جنود وصموا بالثورة فى حين كان زعماءهم فى سجون القاهرة رهن المحاكمة وكان هؤلاء الجنود ينقلون بحالة سيئة إلى السويس حيث

يلقون فى البواخر وبعضهم قيدت أرجلهم يتولى رئاستهم جندى غريب عنهم يجهل طباعهم وأخلاقهم، ويختلف عنهم فى الدين والعقيدة^(١٤) كذلك أخذ الجيش يهرب فى الصحراء بعيداً عن قاعدته فى الخرطوم وجنوده فى أسوأ حال وقيادتهم غير منسجمة وكان أن لقي هذا الجيش حتفه عند شيكان فى «نوفمبر ١٨٨٣م». وبينما كانت قوات المهدي تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هناك قوتان على الأقل على درجة ما من القوة أحدهما فى دار فور على رأسها سلاتين والثانية فى بحر الغزال ، يتولى قيادتهما لبتون بك. وقد يكون لهذه القوات شأنها فى تحسين الموقف وتخفيف حدته لو أن تنسيقاً تم فى صورة من الصور، تتضافر فيه جهود تلك القوات فى زحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه فى تخفيف الضغط الذى تعرضت له حملة هكس، ولكن هذا التنسيق لم يتم فلماذا ولمصلحة من؟

جاء فى تقرير مبعوث الخديو أن الحالة فى مديرية دارفور وبحر الغزال كانت على ما يرام، ولا يعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . إن موقف المديرين جاء عن عمد، وكانت تحركات حملة هكس تتسرب إلى المهدي أولاً بأول . وذكر مبعوث الخديو أن وكيل القنصل الإنجليزى فى الخرطوم كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الإمام المهدي^(١٥) ولما تأكدت أنباء كارثة شيكان لدى سلاتين استسلم لندوب المهدي فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصلت أنباء الكارثة إلى مديرية بحر الغزال وخط الاستواء حيث كانت لها نتائج سيئة^(١٦).

ولم تصل إلى القاهرة ولندن أخبار عن هكس طوال شهر سبتمبر وفى خلال تلك الفترة واصل السير إيفلين بارنج عمله إلى القاهرة لكى يحل محل السير أدوارد ماليت فى منصب القنصل العام البريطانى، وأخذ يستعد ليكون منها حقلاً لتجاربه ولينفذ بها جانباً من السياسة الإنجليزية، وقد بدأ سير إيفلين بارنج عمله فى القاهرة بأن شكا إلى لندن أن مصروفات السودان تكون عبئاً ثقيلاً على كاهل الحكومة المصرية، وبذلك يكون قد انتقد سياسة الحكومة الخديوية فى النواحي المالية، ونسى أن مصر تدفع نفقات جيش الاحتلال فيها ، وكان يعيب على حكومة مصر إنفاق جزء من ميزانيتها لمحاولة الاحتفاظ بسودانها^(١٧)، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى يعرف فيه أن عودة الأمور إلى نصابها فى السودان، ستقضى على الخسارة التى تتكبدها الميزانية المصرية فى السودان، وبالتالي ستساعد على تحسين الحالة المالية المصرية^(١٨).

وفى ١٩ نوفمبر طلب بارنج تعليمات محددة بشأن السياسة التى يتخذها حيال السودان، وقال أن الحكومة المصرية قلقة جداً بشأن مصير حملة هكس التى لم يصل عنها أنباء منذ شهرين^(١٩) وهى تتوقع أنباء سيئة عنه، وأنه من المحتمل إذا هزم هكس أن تسقط الخرطوم فى يد الثوار، وليس لدى الحكومة المصرية أى احتياطى لمواجهة هذه الحالة . بعد أن أرسلوا كل رجل قادر على حمل السلاح إلى السودان، ماعدا القوات التى تحت قيادة السير إيفلن وود والجنرال بيكر، وقال بارنج أنه يعتقد أنه من المحتمل أن تطلب الحكومة المصرية من حكومة صاحبة الجلالة أن ترسل قوات إنجليزية أو هندية ، فإذا هزم هكس فإنه من مصلحة الحكومة المصرية أن تقبل الواقع وتنسحب إلى نقطة على النيل يمكن الدفاع عنها. وأضاف أن الحكومة المصرية قد تطلب إرسال جزء من قوات الجنرال وود إلى السودان، ولكن بارنج اعتقد أن جيش الجنرال وود يجب إبقاؤه فى مصر ، وذلك لقرب سحب جزء من قوات صاحبة الجلالة منها. وقد أجاب لورد جرانفيل على بارنج «إنا لانستطيع أن نرسل قوات إنجليزية أو هندية وأنه ليس من صالح مصر أن ترسل قوات تركية إلى السودان ولذا فأنصح بإخلاء السودان فى حدود خاصة» وهكذا رأى بارنج أن الحكومة المصرية قد تعرض أحد الحلين السابقين، وعمل على قفل الباب أمامها فى كل منهما وقال بارنج أنى اعتبر نفسه مسئولاً لحد كبير عن سياسة الانسحاب من السودان، وتقع على حكومة مستر جلادستون مسئولية تنفيذ هذه السياسة^(٢٠).

وفى ١٢ نوفمبر وصلت أنباء كارثة حملة هكس إلى القاهرة ، فأرسل بارنج إلى حكومته فى اليوم التالى أن رد الفعل الأول للحكومة المصرية هو أن تأمر بالانسحاب من المقاطعات الجنوبية والغربية للسودان، ولكنهم مصممون على محاولة الاحتفاظ بالخرطوم وإعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر^(٢١). وأنهم يريدون إرسال قوة من ألفين من بلوكات النظام وستة آلاف من السودانيين من أجل الغرض الأخير. وأوصى بتأخير سحب القوات البريطانية من القاهرة . وأضاف أنه من رأى الذين فى الخرطوم أنه من الصعب الاحتفاظ بالمدينة، وأنه من الضروري الانسحاب . وفى ٨ أغسطس ١٨٨٣م أبرق لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية إلى سير أدوارد مالت قنصل بريطانيا العام ومعهدها بالقاهرة يقول : «لست فى حاجة إلى أن أذكرك أن حكومة جلالة الملكة لاتتحمل أية مسئولية بالنسبة لسير الأمور فى السودان... وأن سياستها تقوم على الامتناع بقدر الإمكان عن التدخل فى عمل الحكومة المصرية فى هذا البلد...»^(٢٢).

وكان بارنج سياسياً مأكراً قديراً ، وكان من المهارة والدهاء بحيث لا يفرض الحل على رجال حكومته ، بل كل يعرض أمامهم القضية ، بحيث لا يجدون مفرّاً من الالتجاء إلى الحل الذى يهدف هو إليه فى الأصل. ورغم أنه كان يريد من حكومته تعليمات بإخلاء السودان، إلا أنه لم يشأ أن يطلب ذلك صراحة بل أشار إلى زن الاحتفاظ بالخرطوم كطلب الحكومة المصرية يتطلب :

أولاً : إما إرسال قوات بريطانية أو هندية لحفظ الأمن، ثم يشير إلى أنه يكره هذا الحل لأنه سيجعل حكومته تنغمس فى المسئولية عن أمور خارج مصر ذاتها. فضلاً عن أن شريف باشا نفسه كان يعترض على الاستعانة بهذه القوات، لأن ذلك يعد بمثابة تدخل من جانب المسيحيين، ومن شأنه أن يلهب حماسة قوة الحركة الدينية فى السودان. وهكذا قدم بارنج الاقتراح، وفى نفس الوقت قضى عليه قضاء نهائياً.

ثانياً : وإما ترك المصريين وشأنهم فى السودان اعتماداً على مواردهم ولكن هذا فى رأيه من المحتمل أن يعقبه سقوط الخرطوم واندلاع الثورة فى كل المناطق الواقعة إلى الشمال منها حتى حلفا ، مما يدعو إلى زيادة أعباء الإدارة فى مصر، وبالتالي زيادة الحماية البريطانية فيها وتأجيل الانسحاب النهائى منها... وهكذا مرة أخرى قضى على هذا الاقتراح قضاء مبرماً لأنه يعلم أن الفريق الذى يرأسه جلادستون فى الوزارة لا يريد إطالة أمد الاحتلال .

ثالثاً : وأما الاستعانة بقوات عثمانية، وهذا الحل يميل إليه شريف لولا أنه يريد أن يتأكد من جلاء قوات السلطان بعد تهدئة البلاد ثم يقول بارنج « إنى شخصياً أكره فكرة التدخل التركى ، فهل لديكم اقتراحاً أقل سوءاً » (٢٣).

وشاء بارنج أن يرسل هذه البرقية بصفة شخصية، ليتظاهر بأنه لا يريد إحراج الحكومة إذا أرسلها بالطريق الرسمى، وكان من الطبيعى أن يأتى رد لورد جرانفيل فى ١٣ ديسمبر كما هو متوقع ، فيقول:

« إن حكومة صاحبة الجلالة ليس فى نيتها استخدام قوات بريطانية أو هندية فى السودان ، وليس لدى حكومة صاحبة الجلالة أية اعتراضات على استخدام قوات تركية بشرط أن تسدد نفقاتها الحكومة التركية، وأن يقتصر استخدامها على السودان خاصة، وتكون قاعدتها فى سواكن ... ولاستطيع حكومة صاحبة الجلالة أن توافق على زيادة الأعباء على الموارد المصرية بالصرف على العمليات عدا تلك التى تهدف إلى تأمين ارتداد الحاميات التى لاتزال تحتل

مراكزها في السودان ... وأن حكومة صاحبة الجلالة توصي وزراء الخديوى بالوصول إلى قرار سريع للتخلي عن كل المناطق الواقعة جنوبى أسوان أو على الأقل وادى حلفا^(٢٤) وأقدم بارنج في ١٦ ديسمبر على إطلاع محمد شريف باشا فحوى هذه البرقية ، فأبدى شريف اعتراضاته عليها ، ووعده بارنج بأن يعرض عليه آراء الحكومة المصرية في مذكرة مكتوبة .

في ٤ يناير ١٨٨٤ أبرق جرانفيل بتعليماته إلى بارنج ، وتنص على أن الحكومة البريطانية لاتشير أى اعتراض على التجاء الخديوى إلى الباب العالى لطلب قوات لسواكن بشرط أن لايشغل ذلك كاهل الخزانة المصرية ، أو يؤدي إلى تأخير الحكومة المصرية في الوصول إلى قرار بالنسبة لتحركات قواتها داخل السودان ، كما أن الحكومة البريطانية لاتمانع في تسليم موانئ البحر الأحمر وشرق السودان للباب العالى ، إذا ما رفضت تركيا إرسال قوات إلى السودان .

وطلب جرانفيل من بارنج أن يوضح للحكومة المصرية أهمية رسم سياسة لها بدون تأخير ، وأن يلح على الخديوى ووزرائه بشدة «بأنه يجب أن تتوقف في السودان كل العمليات العسكرية عدا تلك التى تستهدف إتقاذ الحاميات البعيدة» وأضافت المذكرة: أن حكومة صاحبة الجلالة لاتعتقد أن فى إمكان مصر الدفاع عن الخرطوم ، وهى إذ توصى بتركيز القوات المصرية ، تود سحبها من الخرطوم فضلاً عن بقية أنحاء السودان^(٢٥).

وبذلك يكون بارنج قد وفق فى حمل حكومته على تبني سياسته التى تهدف إلى إكراه الحكومة المصرية إلى إخلاء السودان.

وبذلك وضحت نية بارنج فى أنه لايمانع فى تسليم موانئ البحر الأحمر وشرق السودان إلى تركيا ، إذ كان يهمه انسحاب مصر من الخرطوم وبقية أنحاء السودان ولاعجب أنه حين عرض السفير التركى فى لندن على لورد جرانفيل أن يضع السلطان يده على السودان بشرط أن يخضع له مباشرة ، لم يقبل وزير الخارجية أن يدخل فى أية مناقشة حول هذا الموضوع^(٢٦). ذلك أن إنجلترا لم تفكر إطلاقاً فى إبعاد مصر عن الخرطوم وبقية أنحاء السودان لكى تحل الدولة العلية محلها.

ولم يكن إخلاء السودان «سوى تنفيذاً لخطه أعدتها إنجلترا منذ وقت طويل وكانت تهدف إلى :

١- خفض مصروفات مصر ، وبذلك تتجنب إنجلترا أى تدخل أوربي فيها .

٢- عزل السودان عن مصر.

٣- تهيئة الفرصة أمام إنجلترا لتعمل محل مصر فى مديرياتها المفقودة، وبذلك تربط بين الممتلكات البريطانية بسلسلة من الأراضى بين الكاب والقاهرة (٢٧).

وأبلغ دليل على ذلك أن إنجلترا رفضت السماح لتركيا بالعمل للسيطرة على السودان بصفة مباشرة (٢٨).

وأما أنه لم يكن لإنجلترا أية مصالح تجارية فهذا المستر فوكس F.W.Fox من رجال الاقتصاد والتجارة الإنجليز يقترح فى ١٨٨٧م تأسيس شركة على شاطئ البحر الأحمر، وإنشاء موانئ ومصانع إلى الشمال والجنوب من سواكن على غرار الشركات الإنجليزية الأخرى فى مستعمرات جنوب أفريقيا والنيجر وشرق أفريقيا، ثم يمد خط حديدى بين سواكن وبربر، على أن يمتد عقب ذلك إلى نقط أخرى أبعد من ذلك، لفتح أبواب السودان للتجارة مع أوربا. وتضيف (التيمس) إلى ذلك فى عددها الصادر فى ٣ يونيو ١٨٨٧ بعد أن عدت مصادر الثروة فى السودان «ويسود الاعتقاد أنه ما أن يداوم السكان على صلتهم بالمنتجات والموارد من البلدان المتحضرة حتى يعتادون عليها بعد أن كانت بالنسبة لهم من الكماليات التى لا سبيل إليها» (٩).

وفى الوقت نفسه كان العنصر الاستعماري يلعب دوره بمهارة، فلما كان لورد ولزلى رئيس أركان الجيش صديقاً قديماً لغوردون، فقد أبرق إليه فى ١٢ يناير يطلب منه القدوم إلى لندن ومقابلته فى وزارة الحرب. وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٥ يناير، قابل غوردون ولزلى الذى سأل ما إذا كان على استعداد للذهاب إلى سواكن ليستفسر عن أحوال السودان.

فقدم غوردون خطة مؤداها أن يذهب إلى سواكن، ويقدم تقريراً عن الوضع العسكرى فى السودان ثم يعود، وأن يتلقى أوامره من بارنج وأنه يكون معلوماً أن الحكومة لا تطلب منه أكثر من أن يقدم تقريراً وأنها ليست مرتبطة معه بأية حال من الأحوال (٣٠).

وأودع هارتنجتون ذلك كله مذكرة قدمها إلى جرانفيل فى نفس اليوم وأكد ضرورة التعجيل بها (٣١).

ودون أن ينتظر جرانفيل، رد جلادستون على برقيته المؤرخة فى ١٤ يناير والتى يطلب فيها منه الموافقة على الضغط على بارنج لقبول غوردون، أبرق إلى بارنج فى نفس اليوم -وهو ١٥ يناير الذى حدث فيه مقابلة ولزلى وغوردون وتقديم مذكرة هارتنجتون - يقول إنه

وصل إلى مسامعه أن غوردون على استعداد للذهاب فوراً إلى سواكن دون المرور بالقاهرة ، وأن مهمته سوف تقتصر على أن يقدم تقريراً لحكومة صاحبة الجلالة عن الموقف العسكرى فى السودان، ويعود دون أى عمل آخر وأضاف « أنه ربما كان من المفيد إبلاغنا وإبلاغكم عن الموقف، فإن ذلك من شأنه أن يرضى رأى العام البريطانى وختم برقيته بأن طلب منه رأيه (٣٢) .

وقد حرص جرانفيل على أن يبعث هذه البرقية بصفة شخصية، ربما لأن جلادستون لم يكن قد وافق رسمياً على اقتراح جرانفيل فى ١٤ يناير .

وجاءت موافقة جلادستون فى برقيته إلى جرانفيل فى ١٦ يناير ، وهى مشوية بتحفظات على جانب كبير من الأهمية فقد جاء فيها « إذا كان على غوردون أن يقدم تقريراً بما يجب عمله، فينبغى ألا يكون هو المسئول عن عمل ذلك ، أو يحملنا عليه بأن يقدم لنا النصيحة بصفة رسمية إذ يكون من الصعوبة بمكان عندئذ بعد أن أرسلناه رفض مثل هذه النصيحة، ولذلك فإنى أعتقد أنه يجب أن يكون واضحاً أنه ليس منا أو نائباً عنا ليقدم لنا النصح حول هذه النقطة » (٣٣) .

وكان رأى جلادستون واضحاً تماماً فى ذهن غوردون ، بدليل أنه كتب إلى شقيقته أوجستا فى نفس اليوم (١٦ يناير) يقول أن هناك فرصة للذهاب إلى السودان، ولكن ليس بصفة حاكم عام، إنما كقائد عسكرى ليقدم تقريراً عن الأحوال هناك (٣٤) .

وهكذا، فرغم موافقة جلادستون ، كان من الواضح أنه مصمم على ألا ترتبط حكومته بشىء ، وألا ينزلق إلى الانغماس فى الشئون السودانية ، وهى الخطة التى كان يرسمها بمهارة العنصر الاستعمارى برئاسة هارتنجتون . وإذا كانت مهمة غوردون قد تحولت فيما بعد من (التقرير) إلى (التنفيذ) فإن جلادستون لم يستطع أن يتخلص من العقدة التى تسلطت عليه منذ البداية، وهى أن غوردون لم يلق بالأى تعليماته (٣٥) .

وفى تلك الأثناء كان بارنج فى القاهرة ، قد فشل فى إقناع عبد القادر باشا حلمى وزير الحربية بأن يتولى مهمة إخلاء السودان. ذلك أن الضابط المصرى فكر فى الصعوبات التى تتصل بهذه العملية، وقرر أنه نظراً لوجود الآف من الجنود والمدنيين هناك فإن ذلك يتطلب آلاف من الإبل لتنقلهم عبر الصحراء، وأن تنفيذ هذه المهمة يستغرق ما بين سبعة أشهر و عام كامل (٣٦) .

ولما علم بأنه فى النية إعلان عزم الحكومة على التخلّى عن السودان قال أن مثل هذا الإعلان من شأنه أن يجعله بلا حول ولا قوة، ورفض القيام بهذه المهمة، وكان حسين باشا خليفة مدير بربر قد قدم تحذيراً مماثلاً عن المصاعب الطبيعية التى تتصل بعملية الإخلاء (٣٧).

لذلك اضطر بارنج فى ١٦ يناير إلى أن يبرق إلى حكومته بأن الحكومة المصرية تكون شاكراً لو أن حكومة جلالة الملكة أوفدت فوراً ضابطاً بريطانياً مؤهلاً للذهاب إلى الخرطوم ومعه سلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب (٣٨).

وبعد إرسال هذه البرقية بدقائق ، وصلت برقية جرانفيل التى صدرت من لندن الليلة السابقة، والتى تعرض عليها خدمات غوردون ، على شرط أن يقتصر عمله على مجرد التحقيق فى سواكن. وبدأ لبارنج- كما يقول- أنه الوحيد فى مصر والمجلترا الذى يعترض على غوردون وشعر أنه لابد مخطئ، فى ذلك الاعتراض (٣٩).

لهذا فإنه فى الساعة الحادية عشر والدقيقة الخامسة والأربعين يوم ١٦ يناير أى بعد خمس وأربعين دقيقة من إرسال برقيته الأولى أجاب على برقية جرانفيل بما يلى:

«إن الجنرال غوردون أفضل شخص يقوم بتنفيذ سياسة الانسحاب من السودان بأسرع ما يمكن ، وينبغى عليه أن يفهم تماماً أنه يجب أن يتلقى تعليماته من المعتمد البريطانى فى مصر ويقدم تقريره إليه. وأنى أفضله على أى شخص آخر بشرط أن يكون على بينة مما سوف يكون عليه موقفه، ومن الخطة السياسية التى سوف ينفذها (٤٠).

وفى نفس الوقت أسرع غوردون إلى بروكسل لينال موافقة ليوبولد ملك البلجيك على تأجيل مشروع الكونجو ، واستدعاء ولزلى برقياً فى ١٧ يناير. وفى اليوم التالى تمت المقابلة الهامة فى وزارة الحربية بين غوردون وبعض الوزراء. ولم يحضر الاجتماع جلادستون، وإن كان قد أحيط علماً به.

ولو أن جلادستون أطلع على التعليمات التى وردت فى هذا الاجتماع لما وافق عليها ، لأنها تتعارض مع ما جاء فى برقيته إلى جرانفيل المؤرخة فى ١٦ يناير: فقد ورد فى التعليمات التى صدرت لغوردون وبارنج أن غوردون سوف يسافر تلك الليلة إلى مصر وبصحبه اللفتنان كولونيل ستيوارت «ليقدم تقريراً إلى حكومة صاحبة الجلالة عن الوضع العسكرى فى السودان وعن الإجراءات التى ينبغى اتخاذها لتأمين سلامة الحاميات المصرية التى لاتزال محتفظة

بمواقعها في هذه البلاد» وأضيفت إلى هذه التعليمات فقرة أدت فيما بعد إلى متاعب عديدة، وإن كان البعض يعتقد أنها وضعت ضمن التعليمات استجابة لطلب افلن بارنج بإرسال ضابط بريطاني مؤهل إلى الخرطوم يتمتع بسلطات مدنية وعسكرية كاملة ليتولى أمر الانسحاب^(٤١).

وكان أن وصل غوردون إلى القاهرة في ٢٤ يناير ١٨٨٤، وبعد يومين (٢٦ يناير) عين حاكماً عاماً على السودان . ومن المصادفات العجيبة أنه قتل في الخرطوم في نفس اليوم من العام التالي (٢٦ يناير ١٨٨٥) . وتسلم غوردون في يوم تعيينه خطاباً من الخديوى يحدد له خطوط مهمته، وهي تنفيذ الجلاء عن البلاد وسحب القوات والموظفين المدنيين والسكان ممن يرغبون في العودة إلى مصر، واتخاذ الخطوات اللازمة لإعادة الاستقلال السابق لعائلات ملوك السودان^(٤٢).

واستند بارنج في تغيير مهمة غوردون إلى الفقرة الواردة في برقية جرانفيل إليه في ١٨ يناير والتي تنص على «أن يقوم غوردون بأية مهام أخرى قد تسند لها إليه الحكومة المصرية والتي سوف تعرض عليه عن طريق بارنج^(٤٣)».

وكان لهذه البرقية التي بعث بها بارنج في ٢٨ يناير وقع سيء على الوزارة البريطانية، وبصفة خاصة على الرئيس جلادستون وبعض الأعضاء الذين يبدو كانوا لا يزالون على اعتقادهم بأن مهمة غوردون استشارية . لذلك وجهوا اللوم القاسى لبارنج ، وقالوا أن حكومة جلالة الملكة وهي تضع في ذهنها هذه الحالة الاضطرارية لايسعها إلا الموافقة على الأوامر التي في الحقيقة غيرت مهمة الجنرال غوردون من أن تكون مجرد تقديم النصح إلى أن تصبح تنفيذية ، أو على الأقل مباشرة الجلاء، لا عن الخرطوم وحدها بل عن السودان كله^(٤٤). وقيل أن مهمة غوردون قد تغيرت في المؤتمر الذي عقد بين نوبار وبارنج^(٤٥).

وقد دافع بارنج عن نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً في خطاب بعث به إلى جريدة (التيمس) ونشر في ٩ نوفمبر ١٩٠٥م. وفيه وضع أمام الرأي العام البرقية التي وجهها إليه لورد جرانفيل في ٢٣ يناير ١٨٨٤ حين كان غوردون في طريقته من لندن إلى القاهرة، واشتملت البرقية على ستة اقتراحات لغوردون حول الخطوات الواجب اتخاذها بإزاء الأوضاع في السودان، منها اقتراح بأن يصدر الخديوى مرسوماً إلى شعوب السودان يتضمن هذه العبارة «وقد وكلت الجنرال غوردون الحاكم العام السابق للسودان أن يتوجه إليه كنائب عنى ولكى

يرتب معكم الجلاء عن البلاد وسحب القوات، وأن حكومة جلالة الملكة وهى شديدة الاهتمام برفاهيتكم ، قد عينت أيضاً الجنرال غوردون نائباً عنها لنفس الغرض ولذلك فإن الجنرال غوردون قد عين حاكماً عاماً للوقت اللازم لإنجاز الجلاء».

ثم قال جرانفيل «ليس لدى حكومة جلالة الملكة معرفة كافية تمكنها من تكوين فكرة عن مدى الناحية العملية فى هذه المقترحات ، ولذلك فأنى أصرح لك نظراً لأن الوقت ثمين إما أن تعمل الترتيبات المقترحة فوراً أو أن تنتظر وصول الجنرال غوردون للتشاور معه حول الإجراء الذى يتخذ».

ثم يرد بارنج التهمة عن نفسه فيقول : «ولو أننى وافقت موافقة تامة على تبديل تعليمات غوردون، فإن الاقتراح بالتبديل لم يصدر منى أو فى الحقيقة من أى شخص فى القاهرة» (٤٦) ثم يختتم دفاعه بقوله «وقد بدألى فى ذلك الوقت بالنسبة للبرقية المؤرخة فى ٢٢ يناير، أن لى الحق كله فى أن افترض أن حكومة جلالة الملكة قد وافقت على تغيير واجبات غوردون بمعنى يجعل منها واجبات تنفيذية لا مجرد واجبات استشارية» (٤٧).

وغادر غوردون القاهرة فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ وبصحبه الكولونيل ستيوارت الذى كان أحدث خبرة بشئون السودان. وكان بارنج يشعر أن ستيوارت هذا أقدر على معالجة الأمور من غوردون. وكان هناك عضو نائب هو الأمير الغورى عبد الشكور بن عبد الرحمن - وكان فى مصر ثم عين سلطاناً على دارفور تنفيذاً لسياسة غوردون التى تقضى برد السودان إلى العلاقات الحاكمة القديمة، أى أن غوردون لم يكن يريد الانسحاب من السودان بل يتوق لأن ينظم البلاد لمستقبل قادم . وقد جاءوا بعبد الشكور هذا وهو لا يفيق من السكر ، وألبسوه كسوة التشريفية المرصعة بالأوسمة والنياشين، ثم أركبوه القطار مع غوردون مع عدد كبير من زوجاته ، فكان مشاراً للضحك والسخرية، واشتبك مع غوردون، فخلفه وراءه فى أسوان. وهكذا يتجاهل غوردون السلطة الشرعية فى البلاد، ثم أخذ يبحث عن بقايا الأسر الحاكمة من هذا النوع ويعيدها إلى السودان.

وتوقف غوردون فى بربر فى ١١ فبراير حيث كشف أمام طائفة من الأعيان عن نية الحكومة الانسحاب من السودان، وانتشر الخبر بسرعة البرق، ونجمت عنه أوحم العواقب، فإن المهدي لا بد قد علم نية الحكومة، فليس من المستبعد أن يكون قد بادر بسؤال زعماء القبائل الذين كانوا لا يزالون مترددين فى الانضمام إليه ما إذا كان يجب عليهم تأييد حكومة تعد العدة للتخلى عنهم .

وكانت النتيجة الحتمية أن القبائل التى باتت تخشى نقمة المهدي فى حالة انسحاب الحكومة - تحولت للقضية المهدية^(٤٨).

وفى المتمة أكد غوردون نية الحكومة فى رد سعد أمير الجعليين فانضم للمهدية، إذ كيف يبقى على ولائه لحكومة تخلت عنه^(٤٩).

ويدافع البعض عن هذا التصرف فيقول أن غوردون قد كشف عن مهمته منذ البداية حتى لا يعلق الناس على قدومه آمالاً كاذبة ، قيتهم بعد ذلك بالغش والخداع حين يبدأ الإخلاء^(٥٠).

وحيثما تجمع الناس بين بربر والخرطوم ، وزعت عليهم مناشير تعلن إلغاء تحرير الرقيق وتخفيض الضرائب وقيام الحكم الذاتى. وبدأ واضحاً أمام غوردون وستيوارت أن الناس يرحبون بإلغاء تحرير الرقيق. ولم يهتموا كثيراً بالمناشير الأخرى حتى تلك التى تبشرهم بأنهم سوف يحكمون أنفسهم^(٥١).

وقد أيدت (التيمس) غوردون فى هذا الإجراء ، وقالت أنه لم يكن هناك سوى الاختيار بين تحمل الرقيق لبعض الوقت، أو التضحية بالخاميات المبعثرة^(٥٢) وقد وصف (ستيوارت) هذا الإعلان بأنه قفزة فى الظلام. ومع ذلك يحلو لبعض من نصبوا أنفسهم للدفاع عن غوردون وأعماله أن يعطل هذا العمل الأخرق بأنه لما رأى غوردون ما حل بالإدارة المصرية بعد هزيمة فالتين بيكر فى شرق السودان، والتى ترتب عليها تعزيز مركز المهدية ، أراد أن يستميل إليه زعماء القبائل بالكشف عن الوثيقة وما يتبعها من مزايا سياسية بالنسبة إليهم، فيمنعهم من الانضمام للمهدية^(٥٣).

ولست أدري أية «مزايا سياسية» يمكن أن ينالها الناس من حكومة قررت أن تتركهم وشأنهم، مع أن غوردون نفسه فى مقابله مع المستر (ستيد) محرر الجازيت، كان يرى أنه بمجرد إعلان الإخلاء ، فإن كل رجل سوف ينضم إلى المهدي^(٥٤).

وما أن وصل غوردون إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ حتى أمطر سير افلين بارنج بوابل من البرقيات ، فالرجل الذى غادر إنجلترا منذ شهر يحمل تعليمات بأن يقدم تقريراً عن أفضل الوسائل لتنفيذ الجلاء عن السودان «بدأ يتكلم صراحة عن القضاء على المهدي بمعاونة قوات بريطانية وهندية»^(٥٥).

وقال سير تشارلز ديلك أن غوردون لابد قد جن كما حدث له فى مناسبات حرجة أخرى فى حياته^(٥٦).

وقد يبدو ذلك التطور الغريب فى موقف غوردون فى نظر الوزير الإنجليزى جنوبًا، ولكن هذا الموقف الجديد يتفق فى كل تفصيلاته مع الآراء التى سبق أن أدلى بها غوردون لمحرر المجازيت.

بل أن غوردون وهو فى كورسكو فى طريقه إلى الخرطوم، كتب إلى بارنج فى أول فبراير ١٨٨٤م يطلب منه إبلاغ وزارة الخارجية أنه طلب من ليوبولد ملك البلجيكي أن يضع يده على مديرتى بحر الغزال وخط الاستواء وتعيينه حاكمًا عليهما، ولكن جرانفيل رفض السماح له بالذهاب إلى أبعد من الخرطوم^(٥٧) وهكذا كان غوردون يتصرف فى أملاك مصر كأنما هى ضيعة ورثها عن أجداده أو أقطعتها إياه دولته .

ولم يقتصر هذا التطوير الغريب على موقف غوردون فى الخرطوم بل تعداه إلى موقف الحكومة الإنجليزية ذاتها.

ويتصل هذا بالموقف فى شرق السودان حيث قاد الثورة ضد الحكومة عثمان بن أبى بكر دقنه، وأصله من عائلة كبيرة تعمل فى تجارة الرقيق وتدعى الانتساب لأصول كرديه.. وقد ولد عثمان حوالى ١٨٤٠ وعمل بالتجارة بين سواكن وجده إلا أن الحكومة ألحقت إضرارًا به وبتجارته غير المشروعة ، فقبض عليه مع اثنين من أشقائه وألقى بهم فى السجن. وعاد عثمان إلى سواكن ليجد أن ثروة العائلة كلها قد ضاعت ، فاشتد حقه على الحكومة وحاول بالفعل إثارة بعض الاضطرابات أيام الأزمة العرابية فى مصر، فلم يفلح.

فلما نشبت ثورة محمد أحمد، وجد فيها بغيته، وتوجه إلى الأبيض وهناك قابل محمد أحمد الذى عول على الانتفاع بخدماته فى شرقى السودان، فزوده ببعض الكتب إلى مشايخ البلاد - من هندنوة وشاريين وأمرار- يدعوهم فيها لنصرة الدين والقيام مع عامله عثمان دقنة لمحاربة الترك والجهاد فى سبيل الله^(٥٨) .

وكان أهالى شرق السودان وقتئذ موزعين بين طريقتين دينيتين رئيسيتين : الطريقة الختمية والطريقة المجذوبية. ونظرًا للرعاية التى كانت تسبغها الحكومة على الطريقة الأولى، كان من الطبيعى أن يميل أنصار الطريقة الأخرى إلى تأييد المهدي إذا بدت أقل بادرة تنبىء عن نجاح قدرته. وكان عثمان نفسه ينتمى إلى الطريقة المجذوبية فلحق تأييدًا من الشيخ الطاهر المجذوب الذى دعا أتباع الطريقة- وهم قبيلة الهدندوة- إلى تأييد عثمان وتعظيمه ، وأقسم الشيخ بين الولاء للمهدية.

وحاول عثمان أن يستميل إليه الميرغنية أتباع الطريقة الختمية، فلم يفلح ولما سمع محمد بك توفيق محافظ سواكن بخبر عثمان خرج إلى سنكات وعمل على تحصينها وتمكن من صد عثمان عنها في ١٥ أغسطس ١٨٨٣ بعد معركة عنيفة جرح فيها عثمان نفسه.

ولكن عثمان لم يتطرق اليأس إلى قلبه، فتسرب الحصار على سنكات وعلى طوكر وهى تقع على مسافة عشرين ميلاً من الساحل فى دلتا خور بركة ، وواحدة من أهم مصادر الغلال فى السودان الشرقى.

وفى ذلك الوقت انفصل سليمان باشا نيازى عن قيادة حملة هيكس وعين حاكماً عاماً على السودان الشرقى فأرسل قوة من خمسمائة جندى لرفع الحصار عن طوكر بقيادة محمد باشا طاهر، وصحب الحملة المستر مونكريف (Moncrieff) القنصل الإنجليزى فى سواكن. ولكن القوة تمزقت أرباً وقتل مونكريف وعاد طاهر باشا إلى سواكن، وذلك فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ أى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه مذبحة شيكان. كما تمزقت قوة أخرى أرسلها نيازى لرفع الحصار عن سنكات فى أول صفر ١٣٠١ (٢ ديسمبر ١٨٨٣) وأعقب ذلك قطع طريق بربر-سواكن (٥٩).

وفى ٢٣ نوفمبر ١٨٨٣، أبرق بارنج إلى جرانفيل أن هناك نية لإرسال فالسنتين بيكر باشا على رأس قوة لفتح طريق بربر-سواكن- ومد يد المعونة إلى الحاميات فى الداخل بعد أن دب فيها الفزع بسبب هزيمة هيكس (٦٠).

وأصل هذه القوة من الشرطة ، تختلط فيها العناصر التركية ببقايا الجيش العربى القديم، وقد سافرت إلى السودان وسط عويل الأهالى حتى اضطر بيكر باشا إزاء هذا الموقف الذى يشبط عزائم الجند إلى أن يأمر القطار بالتحرك قبل مواعده، فتخلف عنه الجنرال سارتوريوس، أحد قواد الحملة (٦١).

وكانت قوة على جانب كبير من سوء النظام وقلة الدراية بالفنون العسكرية (٦٢) وساد الخلاف بين الضباط المصريين والسودانيين ، كما أن الجنود كانوا قد تطوعوا أصلاً للعمل فى الشرطة ولم يدر بخلدهم أنهم سيرحلون إلى السودان ، إذ كان المقصود أن يحاربوا قوات البدو التى كانت تغير على أطراف الدلتا (٦٣).

وخرجت قوة بيكر من سواكن فى محاولة لرفع الحصار عن سنكات وطوكر. وكان طبيعياً أن

تحل بها هزيمة ساحقة ، فرت على أثرها إلى ترينكيتات ثم إلى سواكن. وأعقب ذلك سقوط سنكات في يد عثمان دقنه مما أدى إلى شدة الفزع في سواكن ، كما أن الشعور العام في إنجلترا بدأ يطالب بالانتقام . وعقدت الوزارة البريطانية اجتماعين في ٦ فبراير، تقرر على أثرهما إرسال قوات البحرية إلى سواكن ، وأشار المستشاران العسكريان للحكومة وهما لورد ولزلى ودوق كمبردج بإرسال حملة بريطانية إلى سواكن لتوقع الهزيمة بأية قوة عربية قد تحاول حصار المدينة.

وأدرك جلادستون أن مثل هذا العمل من شأنه أن يغير بصفة أساسية من موقف إنجلترا في السودان^(٦٤) في حين أن الملكة أيدت إرسال هذه الحملة «وإلا صار من المستحيل إقناع المسلمين أنهم لم يهزمونا» وطلبت النظر بعين الاعتبار في خطة لورد ولزلى^(٦٥).

ووجد الجانب الاستعماري في هذه الهزائم بغيته . وبالفعل قررت الوزارة في ١٢ فبراير - رغم معارضة جلادستون وبارنج - إرسال حملة إلى سواكن ، لإنقاذ الحاميات الباقية لحماية المدينة ، على أن يرأس الحملة سير جerald جراهام .

ووقف هارتنجتون في المجلس بعد أسبوعين فقط من مغادرة غوردون للقاهرة يعلن أن هذا الإجراء لا يعد بمثابة تدخل في السودان، لأن منطقة البحر الأحمر قد تعد من الناحية الفنية جزءاً من السودان، في حين أنها من الناحية العملية يمكن أن تعد منفصلة عنه تماماً. وعلق البعض على تصريح هارتنجتون بقوله «لست أدري هل صرح بذلك ليقنع أعضاء البرلمان أو ليقنع فوق ذلك رئيسه جلادستون^(٦٦)».

وسخرت (التيمس) من هذا القرار فقالت : أن الجنرال غوردون في الخرطوم يقدم عروضاً للسلام والحرية باسم إنجلترا إلى الشعب الذي سوف يعمل الجنرال جراهام السيف في أقربائه في ترينكيتات^(٦٧).

ولما وصل جراهام إلى سواكن كان أول نبأ بلغه هو سقوط طوكر التي أتى لرفع الحصار عنها^(٦٨).

ورغم أن جراهام أنزل بقوات عثمان دقنه هزيمتين كبيرتين إلا أنه لم تبد أية بادرة على استسلام عثمان الذي انسحب داخل المرتفعات . ورأى جراهام ضرورة توجيه ضربة ثالثة للقضاء عليه قضاء مبرماً فطلب الإذن من وزير الحربية للتقدم نحو سنكات ووافقت الوزارة

على ذلك^(٦٩) ولكن جراهام طالب أيضا أن تتقدم فصيلة من قواته إلى (هندوب) لاستطلاع طريق بربر.

وارتاع جلادستون لهذا الاقتراح، فقد بدأ واضحا له أن الحكومة قد انغمست رغم أنفها في سياسة التدخل والغزو، وبدأ واضحا أيضا أن العنصر الاستعماري في الوزارة قد أوشك على بلوغ مآربه، وتصادف أن وصلت برقية جراهام مع طلب غوردون المفاجيء إرسال قوات بريطانية وهندية للقضاء على المهدي^(٧٠). بل لقد طلب أيضا إرسال الزبير باشا ليحل محل السلاطين السابقين للسودان، الذين أثبتوا أنه لافائدة ترجى من ورائهم. وكان قد سبق لغوردون أن أبرق إلى بارنج من أبوحمد وهو في طريقه إلى الخرطوم، أن الزبير هو أنسب شخص ليكون حكامدارا عاما على السودان إذا أردنا أن يسود الهدوء في البلاد^(٧١).

وكان بارنج أيضا يؤيد إرسال الزبير، ولا يعتقد أن تعيينه يمكن أن يؤثر في مسألة الرق^(٧٢).

وكانت خطة غوردون أنه بعد القضاء على المهدي، يمكن أن يحكم الزبير السودان على أساس أن يتمتع بحماية دولة خارجية، وهذه الدولة إما أن تكون مصر أو تركيا أو بريطانيا، وسوف تكون السيادة لها بصفة اسمية دون أى التزامات من ناحية الأموال أو الجنود أو المسئولية. ولما كانت مصر وتركيا في نظر غوردون لا تصلحان للقيام بهذا الدور، فقد رأى غوردون أنه يمكن لبريطانيا أن تلعب هذا الدور، أى يكون الزبير في وضع مماثل لوضع أمير أفغانستان الذي يتلقى من بريطانيا معونة أدبية. وأيده بارنج في ذلك^(٧٣).

وهكذا أصبح الوضع أمام الوزارة البريطانية ينحصر في: هل يوافقون على إرسال الزبير وتعزيز قوات جراهام والقضاء على المهدي؟

أما بخصوص إرسال الزبير، فرغم موافقة بارنج وتأييده الشديد^(٧٤) له، فإن الوزارة لم يسعها الموافقة على إرسال رجل سبق لغوردون نفسه أن وصفه بأنه «أكبر تاجر للرق في الوجود» كى يحكم السودان تحت السيادة البريطانية. أضف إلى ذلك أن جلادستون رأى أن انسحاب القوات المصرية من السودان يترك البلاد من حق الأتراك قانونا (De Jure)، وهذا ما تجاهله كل من بارنج وغوردون، هذا فضلا عن أن الوزارة كانت منقسمة على نفسها إزاء هذه المسألة، فإن (ديلك) كان يرى أنه لو عرضت الحكومة تعيين الزبير، فإن جماعة مكافحة الرق (Anti-Slavery Society)، يمكنها مع المحافظين قلب الوزارة في مجلس العموم^(٧٥).

وفى أثناء هذا التردد الذى ساد موقف الوزارة ، أقدم غوردون على خطوة خطيرة، فإنه لم يعد يحتمل تأخير الحكومة، فانفجر فى إحدى ثورات غضبه يعلن عن طلبه الزير إلى (فرد باور) مراسل (التيمس) فى الخرطوم وقنصل إنجلترا بها. وكان طلب إرسال الزير قد بقى حتى الآن -رسميا- فى طى الكتمان. ويبدو أن غوردون قدر أن إعلان هذه المسألة من شأنه أن يجبر الحكومة على النزول على طلبه .

وإذا كان هذا ما دار بذهنه فعلاً ، فإنه يكون قد أخطأ خطأ كبيراً، فإن بلاده التى لم تكن هضمت بعد مسألة إباحة الرق، لم يكن من المتوقع أن تبتلع مسألة إرسال الزير، فازداد تشدد موقف جماعة مكافة الرق.

وقررت الوزارة فى النهاية ضرورة إبقاء الزير فى القاهرة، لأن رأى العام لا يحتمل تعيين الزير^(٧٦). ويقول البعض أن رأى العام البريطانى كان يفضل كثيراً أن تستمر الفوضى وتجارة الرقيق فى السودان على أن يقضى عليها حاكم كان أصلاً من تجار الرقيق^(٧٧).

وهكذا بدا أن الموجة الاستعمارية التى كانت قد علت، لم تصل إلى الحد الكافى، بل لقد بدا أنها فى طريق الانحسار. وكانت الخطوة التالية حاسمة للغاية فقد اعترض (هاركورت Harcourt) أحد أعضاء الوزراء على توسيع نطاق عمليات جراهام العسكرية، فعلاً قررت الوزارة إبلاغ القائد بأنها لا تنوى إرسال قواتها إلى بربر، وأن عمله ينبغى أن يقتصر على تهدئة المنطقة الواقعة حول سواكن، وإعادة المواصلات مع بربر بوسائل سلمية عن طريق الاستعانة بالقبائل الصديقة، وأن عليه أن يستعد للإبحار سريعاً مع قواته^(٧٨).

وترتب على هذا الإنسحاب نتائج بالغة الخطورة ، فقد بدت القوات الإنجليزية فى نظر المهديين عاجزة عن أن تحقق نصراً مؤزراً عليهم، الأمر الذى انتهى بالقبائل النازلة بالشمال والشمال الشرقى من الخرطوم إلى أن تتخلى عن تردها السابق، وتعلن انضمامها لجانب المهدي، فقامت بقطع خطوط المواصلات ويات من المستحيل سحب الأهالى أو الحاميات .

وكان أن غدت المشكلة تنحصر فى « كيفية الخروج بغوردون وستيوارت من الخرطوم^(٧٩) ، وكانت الوزارة البريطانية بعد اجتماعها فى ١١ مارس قد أبلغت بارنج فى برقية ١٣ مارس أنه لا يسعها الموافقة على إرسال الزير أو إرسال القوات الإنجليزية إلى بربر^(٨٠).

وصادفت هذه الأنباء تخرج موقف غوردون فى الخرطوم «فى ١٢ مارس تم قطع خط البرق بين الخرطوم وبربر ، وظهرت تجمعات المهديين بقيادة الشيخ العبيد وأولاده والشيخ المضوى

عبد الرحمن - عند الخفاية ، وطردت قوات الحكومة منها . وفشل غوردون مرتين في استردادها . ولم يعقب ذلك أى هجوم من جانب الثوار بعد هذين الانتصارين^(٨١) انتظاراً لتعليمات المهدي . وكان قد أرسل إلى غوردون فى ٧ جمادى الأولى ١٣٠١ (٥ مارس ١٨٨٤) رده على ما سبق أن عرضه عليه الحاكم البريطانى من الاعتراف به سلطانا على كردفان . ووصل رد المهدي فى ٢٢ مارس يعرض على غوردون اعتناق الإسلام ، ويحث إليه بجبة مرفقة وهى زى الدراويش . ورفض غوردون العرض بكل احتقار ودفع الهدية بقدمه ، وأعاد الرسل إلى الأبيض ، وبدأ العدة للدفاع عن الخرطوم . وبالفعل عين المهدي محمد عثمان أبو قرجه أميراً لجهات البحر وطلب منه تنظيم الحصار حول الخرطوم .

وفى الوقت نفسه أرسل محمد أحمد معلمه السابق محمد الخير أميراً على بربر ، فوصلها فى ٢٧ أبريل . وكان الشيخ الأمين أحمد المجذوب - شيخ المجاذيب - قد انضم إليه فى الدامر ، ومن الدامر كان محمد الخير قد كتب إلى حسين باشا خليفة حاكم بربر بالتسليم فرفض ، ففرض الحصار عليها فى ١٦ رجب ١٣٠١ (١٢ مايو ١٨٨٤) واستسلم حسين باشا فى ٢٣ رجب ١٩ مايو^(٨٢) .

وبذلك بات موقف غوردون بالغ الخطورة ، فعثمان دقنه أغلق عليه الطريق إلى سواكن ، ومحمد الخير أغلق طريق النيل نحو الشمال ، ولم يعد فى وسع غوردون إخلاء الخرطوم دون أية مساعدة عسكرية من الخارج .

وأخذ القلق يسيطر على رأى العام الإنجليزى ، وعندئذ أدركت الملكة خطورة الموقف فأبرقت إلى لورد هارنتجتون فى ٢٥ مارس تقول أن الجنرال غوردون فى خطر وأنه - أى هارنتجتون - ملزم بأن يقوم بمحاولة لإنقاذه^(٨٣) فرد جرانفيل فى ٢٥ مارس على برقية لبارنج فى اليوم السابق يقول أن الحكومة تود أن تترك لغوردون مطلق التصرف فى البقاء فى الخرطوم ، إذا وجد ذلك ضرورياً ، أو أن ينسحب بطريق الجنوب أو أى طريق آخر يمكن أن يسلكه^(٨٤) .

وقد ثبت أنه كان فى وسع غوردون الجلاء فيما بين ١٨ فبراير (تاريخ وصوله إلى الخرطوم) و ١٢ مارس تاريخ قطع خط البرق ، بل وحتى فى إبريل لغاية منتصف مايو ١٨٨٤ ، كانت هناك فرصة للهروب لو أنه حاول الانسحاب من الخرطوم بطريق بربر ، ولكنه لم يشأ أن يستفيد من هذه الفرص^(٨٥) وبقي فى الخرطوم متعمداً أو متحدياً رغبات رؤسائه . وهنا بدأت الحقائق

تتضح فى ذهن جلادستون : غوردون يسعى إلى إكراه الحكومة على التدخل ، ويأمل أنه بقدر ما يطول مقامه فى السودان، يشتد الأمل فى أن ترسل الحكومة إلى السودان جيشاً للقضاء على المهدي.

والشواهد كلها تؤيد جلادستون فى تحليله للموقف فى السودان ، فقد جاء فى رسالة غوردون إلى بارنج فى ٧ أبريل أنه إزاء رفض الحكومة إيفاد الزبير أو حملة إلى بربر، فإنه يعتبر نفسه حراً يتصرف حسبما تدعو الظروف ، وأنه سوف يبقى فى مركزه طالما يستطيع ذلك، وإذا كان فى وسعه القضاء على الثورة فلن يتردد فى ذلك، وإذا لم يستطع ، فإنه سوف ينسحب إلى خط الاستواء لينزل بالحكومة عار التخلّى عن حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقلة، وهنا لا تجد مناصاً من القضاء على المهدي^(٨٦).

واعتبر جلادستون هذه الرسالة تحدياً شخصياً له^(٨٧)، فلم يعبأ بالرأى العام ووقف موقفاً صلباً أمام مجلس العموم وتجاهل الصاحفة وقال إن إرسال جيش معناه إعلان الحرب ضد شعب يكافح من أجل حريته^(٨٨).

وبالفعل بدأت الحملة التى تدعو لإنقاذ غوردون تخف تدريجياً ، وشغل الناس بأنباء أخرى أكثر أهمية منها تحركات الروس على حدود أفغانستان ، وبدأ كأنما الجميع قد نسوا غوردون، بل أن جرانفيل بدأ يرى أن غوردون يسير على سياسة من وحيه للقضاء على المهدي دون جيش، وأن الحكومة بذلك تنفى مسئوليتها^(٨٩) واكتفى جلادستون بأن أدلى ببيان فى مجلس العموم فى ٣ أبريل بأن لغوردون مطلق الحرية فى البقاء فى الخرطوم حتى ينتهى من مهمته أو ينسحب فى أى وقت يشاء ، وأن الحكومة لا تنوى أن تتدخل فى تصرفاته^(٩٠).

رابعاً : حملة الإنقاذ:

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٨٤ ، عين لورد ولزلى قائداً لـ حملة الإنقاذ. وعندما وصل إلى مصر فى ٩ سبتمبر ، كان الفيضان قد بلغ حداً جعل غوردون يفكر فى إنفاذ إحدى بواخره الصغيرة فى النيل لكى تمر فوق الجنادل إلى مصر، وفكر فى انتهاز هذه الفرصة لكى ييسط أمام السلطات فى القاهرة ولندن والرأى العام فى بلاده حقيقة الوضع فى الخرطوم وقد شحن بهذه الباخرة واسمها (عباس) مجموعة من الوثائق تضم فكرة ستيوارت Stewart, S Diary ، كانت الباخرة ونداء شخصى بطلب المعونة موجه منه إلى الدول الأوربية. وفى ليلة ٩ سبتمبر ، كانت الباخرة على وشك الإقلاع حين طلب القنصل الإنجليزى (فرانك باور) والقنصل الفرنسى المسيو هيرين

Herbin السماح لها بالسفر، ثم طلب ستيوارت أن يسافر معها وكان ستيوارت هو الرجل الثانى فى القيادة ، لذلك لاتدرى السبب فى تخليه عن غوردون فى هذه المحنة، قد علق أحد أصدقائه على ذلك بقوله «إن دونالد ستيوارت كان صديقاً شخصياً لى. ولا يمكن لأحد أن يشك فى شجاعته ، ولكن ما كان يجب أن يخلف أخاه فى السلاح وحيداً فى الخرطوم»^(٩١).

والمعنى الذى يمكن استخلاصه من سفر ستيوارت وزملائه أن الطريق كان لا يزال مفتوحاً للعودة إلى مصر، ومع ذلك فضل غوردون البقاء فى الخرطوم. وكتب فى مذكراته أنه بفرض وصول حملة الإنقاذ ، فإنه كان مصمماً على ألا يمثل دور الحمل الذى تم إنقاذه . وأكد أن الفرض من الحملة هو إنقاذ شرف إنجلترا عن طريق إنقاذ الحاميات فى السودان وليس من المعقول أنها جاءت لإنقاذه وحده^(٩٢).

وفى موضع آخر من مذكراته يقول : إنى أعلن أننى لن أغادر السودان قبل أن تتاح الفرصة لمغادرة السودان لكل من يريد ذلك، وإلا بعد أن تقوم حكومة تحمل العبء، وحتى لو وفد رسول أو جاءنى خطاب بأمرنى بالعودة، فلن أطيع ذلك ، بل سأبقى هنا أسقط مع المدينة وأخاطر بكل شئ^(٩٣).

أما ستيوارت ورفاقه فقد هوجموا فى بلاد المناصير قرب أبوحمد وقتلوا فى ١٨ سبتمبر على يد سليمان نعمان ودقمر^(٩٤) أحد شيوخ القبائل المحلية.

وكان غوردون صريحاً مع شقيقته (أوجستا) حين كتب إليها يقول : وإنى أتوقع أن يشتد حق حكومة صاحبة الجلالة على بسبب بقائى واضطرارها إلى التدخل ... ثم يقول إنه سعيد لأنه حاول القيام بواجبه^(٩٥) أى أن بقاءه فى الخرطوم يعد فى رأيه قياماً بواجبه.

ولم تصل أنباء حملة ولزلى إلى غوردون إلا فى ٢٠ سبتمبر ، ومع ذلك فإن طابور الصحراء لم يتقدم من كورتى فى دنقلة عبر صحراء بيوضة متجهاً إلى الخرطوم إلا فى ٨ يناير ١٨٨٥م، وفى تلك الأثناء كان موقف غوردون يزداد حرجاً يوماً بعد آخر، فإن المهدي وأنصاره كانوا قد غادروا الأبيض فى بداية إبريل ١٨٨٤، وعسكروا بالرهـد ، ثم تحرك قسم من الجيش بقيادة عبد الرحمن النجومى من الرهد فى بداية رمضان (٢٥ يونيو) ، فوصل الخرطوم فى أوائل سبتمبر وبدأ يشدد ضغطه على المدينة. أما المهدي فقد غادر الرهد مع بقية أتباعه والأسرى فى ٢٢ أغسطس حتى وصل إلى الدويم وسار بمحاذاة النيل الأبيض على الضفة اليسرى حتى بلغ موقع (أبوسعد) جنوبى أم درمان فى ٢٣ أكتوبر وفيه أقام مقر القيادة وكتب

إلى غوردون يطالبه بالتسليم، ولم يلبث أن استسلمت قلعة أم درمان فى ٥ يناير ١٨٨٥، فكان لذلك وقع سيء فى نفوس المحاصرين^(٩٦).

وكان لورد ولزلى قد وصل إلى دنقلة فى ٣ نوفمبر ١٨٨٤، وفى اليوم التالى قرأ على الناس ذكرى خديوى موجه إلى المدير والعلماء والقضاة والأعيان والتجار ومشايخ البدو بأن ولزلى يحمل إلى السودان قائداً للقوات البريطانية ليقوم بما تدعو الحاجة إليه من عمليات عسكرية، وطلب منهم إطاعته^(٩٧).

وكانت التعليمات الأولية إلى ولزلى تنص على إنقاذ غوردون وستيورات فى الخرطوم، وبعد أداء هذه المهمة، ينبغى ألا يقوم بأية عمليات هجومية. ومع ذلك فإنه بعد أن يتم انسحاب الضابطين والجنود والموظفين المصريين فى سلام كان عليه أن يحمل التريبات اللازمة لإقامة حكومة للسودان وخاصة فى الخرطوم^(٩٨). وبذلك يحقق الاستعماريون الأحرار هدفهم الذى عملوا من أجله فترة طويلة.

ووصلت حملة الإنقاذ إلى كورتى قبل أول العام الميلادى وهناك احتفلت ببداية العام الميلادى الجديد ولكن القوة لم تحتفل لأنه وصلت رسالة من غوردون مؤرخة فى ٤ نوفمبر، ينصح فيها ولزلى بأن يشق طريقه من (أم بقول) - كورتى إلى المتعة عبر صحراء بيوضة، وقال أنه سوف يجد فى انتظاره فى المتعة خمس سفن مزودة بتسعة مدافع، وقال إنه رأى أن غوردون يمكنه مواصلة القتال أربعين يوماً أخرى بسهولة. وقال أيضاً أن الطريق على طول النيل شمالى الخرطوم لا تحتله أية عناصر عربية لأنها تتركز فى الجنوب، والجنوب الشرقى والشرق من المدينة^(٩٩).

واضطر ولزلى بعد أن كشفت هذه الرسالة عن دقة الموقف وخطورته أن يبدل خططه، فعول على أن يتقدم طابور عبر الصحراء إلى المتعة فى مسافة ١٧٦ ميلاً ومنها إلى الخرطوم، وبات هذا الجيش يعرف اسم (طابور الصحراء) Desert Column. أما بقية الجيش فتسير طبقاً للخطة الأصلية بمحاذاة النهر. وخرجت مقدمة طابور الصحراء فى ٣٠ ديسمبر لاحتلال آبار الجقودول، وبعد أن أخذ سيره ربرت ستيوارت قائد الطابور العدو على غرة عند هذه الآبار، واصل سيره إلى المتعة، حيث بات من الواضح أن المهديين عقدوا النية على سد الطريق أمام الطابور عند آبار أبى طليح على مسافة ٦٣ ميلاً من المتعة وكان ولزلى قد أمر سير تشارلز ولسون بمرافقة الطابور، بشرط أنه عقب وصوله إلى المتعة، كان عليه أن يتوجه على ظهر

البواخر التي تحدث عنها غوردون إلى الخرطوم بمساعدة ضباط البحرية وقوة صغيرة من المشاة. ثم يتباحث مع غوردون ، ويعود بالجنود على نفس البواخر إلى المتمة والاتصال بمركز قيادة ولزلى. ويبدو من هذه التعليمات أنه لم تكن هناك نية لسحب غوردون من الخرطوم، وأن ولزلى اعتقد أن المهدي لا بد أن ينسحب حين يرى قوة ولسون ، وبالتالي يرفع الحصار عن المدينة، وبذلك تصبح الخرطوم مركزاً سياسياً لرسم الخطط للمستقبل ، بينما تتحول بربر إلى هدف عسكري، فتكفى قوة صغيرة برياسة ولسون لإقناع أهالي الخرطوم بوجود الجيش البريطاني، بينما تعمل القوة البريطانية الآتية بمحاذاة النهر على احتلال بربر والتقدم شرقاً على طريق سواكن (١٠٠).

فى حين أن خطة المهدي كانت تقوم على أساس أن تموت الخرطوم جوعاً فتضطر إلى التسليم كما حدث فى الأبيض. فلما شعر باحتمال قدوم قوة بريطانية لرفع الحصار عن المدينة، بات من الضروري مهاجمة المدينة فوراً.

واشتبك البريطانيون مع قوات محمد الخير، وعلى ود سعد فرح ، أمير الجعليين عند أبى طليح ، وخسر المهديون - حسب تقرير ستيوارت الرسمى - ثمانمائة قتيل بعد أن أبدوا بسالة وإقداماً منقطع النظير (١٠١).

وبعد معركة أبى طليح استأنف الطابور زحفه ، فاشتبك مع التعزيزات التي أرسلها المهدي بقيادة النور محمد عنقرة عند ألقبة فى ١٩ يناير ، وتمكن الطابور من صد المهديين ، ولكن بعد أن دفع ثمن ذلك حياة قائده ستيوارت ، فحل محله ولسون الذى تقدم نحو النيل فوجد بواخر غوردون تحمل أنباء سيئة بأن مركز غوردون فى الخرطوم بات حرجاً للغاية (١٠٢).

وبدلاً من أن يتقدم ولسون على ظهر البواخر إلى الخرطوم مباشرة تمهل قليلاً ، إذ شعر أن واجبه الأول هو تأمين سلامة القوة التي سوف ي خلفها فى المتمة على ضفاف النيل، فقد خشى أن تتعرض للهجوم من جانب الإمدادات التي بدأت تنهال على أعدائه من الشمال ومن الجنوب، وكان يعتقد فى إمكان تخفيف الضغط على الخرطوم، إذ أن انتصارات جقدول وأبى طليح لاشك سوف تقوى روح الجنود المعنوية فى الخرطوم ، فضلاً عن أن المهدي سوف يسحب بعض قواته لمواجهة القوة القادمة من الشمال (١٠٣).

ويخالفه البعض فى اعتقاده ، ويرى أن تأخير قدوم القوة البريطانية هو السبب فى سقوط الخرطوم ومصرع غوردون وتقرير مصير السودان، وأن المهدي استقر رأيه على الهجوم فقط حين

بلغه التعطيل الذى أصاب القوة البريطانية فى القبة، وأنه لم يكن فى نيته الهجوم قبل ذلك، إذ أنه لما علم بما حل بقواته فى أبى طليح أراد أن يرفع الحصار وينسحب إلى كردفان ، فلو ظهر الإنجليز أمام الخرطوم قبل أن يشن هجومه عليها ، لرفع الحصار وانسحب (١٠٤).

ومهما يكن من أمر، فلاشك فى أن ظهور القوة البريطانية فى صحراء بيوضة كان له أثر كبير فى موقف المهدي أمام الخرطوم، ولاشك فى أن المهدي أيضاً وضع فى ذهنه يومئذ النتائج التى تترتب على رفع الحصار والانسحاب إلى كردفان أو مهاجمة المدينة فوراً، ولابد أنه دارت مناقشات وظهرت آراء تؤيد هذا الحل أو ذاك، وقيل أنه عقب انتصارات الإنجليز فى أبى طليح والقبة عقد مجلساً من الخلفاء والأفراد وأقاربه، وهذا أمر طبيعى، وقد تم فيه الاتفاق ، بعد أن قلبوا جميع أوجه الرأى، على الانسحاب إلى كردفان، ولعلمهم فكروا فى عدم جدوى الاصطدام بالقوة الإنجليزية المدربة على أحدث فنون القتال، وفضلوا استدراجها إلى مجاهل كردفان ليحل بها ما حل بالحملات المتعددة التى سيرتها الحكومة فى هذه المديرية. ولكن محمد عبد الكريم عم المهدي، اعترض على ذلك الانسحاب ، وأشار بمهاجمة الخرطوم فوراً وبذلك يضطر الإنجليز إلى الانسحاب ، حين يعلمون بسقوط المدينة التى جاءوا لإنقاذها بمن فيها. وإذا أصر الإنجليز على التقدم فسوف يكون هناك وقت يسمح بالارتداد. ولذلك قرر المجلس المنعقد شن الهجوم فوراً قبل وصول القوة الإنجليزية. وقد شجع على اتخاذ القرار بعض من فروا من المدينة وهؤلاء شهدوا بنقص خطير فى المؤن وانعدام قدرة الجنود على القتال، فضلاً عن أن أحد قواد الباشبوزق ويدعى عمر الفقيه إبراهيم فر إلى معسكر المهدي يوم ٢٤ يناير من الخرطوم ودل المهديين على مواقع الضعف فى تحصينات المدينة. وفى اليوم التالى أتت الأنباء بخروج وإبورات ولسون من القبة فأمر المهدي عبد الرحمن النجومى ببدء الهجوم، وتم على الأثر استسلام المدينة ومصرع غوردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ (١٠٥). وقد أحدث نبأ سقوط الخرطوم ومصرع غوردون صدمة كبيرة فى الرأى العام البريطانى (١٠٦). بل وفى العالم المتحضر كله (١٠٧) حتى أن الملكة بادرت بإرسال برقية en Clair إلى الوزارة تقول فيها أنه كان من الممكن تفادى الكارثة وإنقاذ حياة الكثيرين ، لو أن الوزارة بادرت إلى العمل فى وقت مبكر (١٠٨).

ولم يكن غريباً، حينما أبرق لورد ولزلى إلى حكومته يطلب التعليمات الجديدة عقب هذه التطورات ، أن يشعر الشعب البريطانى شعوراً قوياً بالألا يسمح بالهزيمة. ولكن سرعان ما فتر

هذا الحماس المفاجيء ، بعد أن بدأت السحب تتبدل في أفاق العلاقات مع روسيا في أفغانستان ، إذ وقع صدام بين القوات الروسية والأفغانية على الحدود في مدينة بنجدة الأفغانية.

خامساً : الزحف نحو الخرطوم وفشل المهمة:

أمام هذا الوضع الدقيق لم يسع الحكومة سوى النزول على رغبة ولزلى بالزحف إلى الخرطوم أو إعلان سياستها عن المستقبل في السودان (١٠٩).

وعندما عكفت الوزارة على التفكير في هدوء بعد مرور العاصفة التي أثارته حوادث الخرطوم، وبصرف النظر عن التوتر في العلاقات مع روسيا، أدركت الوزارة البريطانية أن الاستيلاء على الخرطوم لا يخدم أي غرض (١١٠).

فاللورد ولزلى رغم أنه يوالى إرسال البرقيات التي تدعو إلى ضرورة القضاء على المهدي وإلا حل الدمار بمصر (١١١). اعترف في سياق خطاب منه إلى أحد الأعضاء الأحرار في البرلمان، بأن حرب السودان سوف تكون أشد المعارك خطورة بعد (واترلو) . وتلقف هذا الاعتراف الأعضاء في الوزارة البريطانية الذين كانوا يعارضون منذ البداية في تجريد حملة الإنقاذ (١١٢)، ولم يسعهم الموافقة عليها إلا تحت ضغط تهديد هارتنجتون بالاستقالة ومن معه من الاستعماريين الأحرار، وصادف في ذلك الوقت أن أرسل (بارنج) يعترض على مواصلة العمليات الحربية في السودان (١١٣). لذلك تمسك العنصر المعارض للتدخل برئاسة جلادستون بهذه الاعتراضات من جانب ولزلى وبارنج، واعترضوا بدورهم على الزحف على الخرطوم ، على أساس أن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى إطالة أمد الاحتلال في السودان وبالتالي في مصر، فضلاً عن أنه ليس في صالح البلاد الإنغماس في القتال تحت تهديد شبح الحرب مع روسيا في أفغانستان. وأمام هذه الاعتبارات كلها، وافقت وزارة الأحرار على الانسحاب من دنقلة (١١٤)، وذلك رغم معارضة الاستعماريين الذين كان يمثلهم في الوزارة هارتنجتون ويؤيده نورثبروك وسليورن وكالنجفورد (١١٥).

ولما سقطت حكومة جلادستون في ٨ يونيو وخلفتها وزارة سولسبري المحافظة ، فكرت في العدول عن سياسة الانسحاب التي انتهت إليها وزارة الأحرار، خاصة وأن شبح الحرب مع روسيا قد اختفى (١١٦). وبالفعل طلبت من ولزلى الاحتفاظ بدنقلة (١١٧).

غير أن ذلك كان يتطلب جهوداً وأموالاً طائلة. هذا بالإضافة إلى أن الجنرال بولر (Buller) أحد قواد حملة الإنقاذ قدم تقريراً بأن إخلاء دنقلة أوشك على الانتهاء ، وأنه لابد من تنظيم حملة جديدة ، إذا استدعى الأمر الاحتفاظ بالمديرية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المديرية كانت تعاني فقراً شديداً في الغلال، أدركنا لماذا عدلت حكومة سولسبرى عن خططها ، ففي ٢ يوليو أبرقت ما يلي:

«إن حكومة جلالة الملكة بعد أن استعرضت الظروف كلها قماماً ، ليست على استعداد لأن تخالف أوامر الحكومة السابقة، فتوقف أمر انسحاب القوة من دنقلة»^(١١٨) وبذلك تم التخلي عن السودان في النهاية، ولكن ليس معنى ذلك أن هذا القطر الكبير قد فقدته بريطانيا ، فمنذ ذلك الوقت نشأت علاقة بين بريطانيا والسودان نتيجة للحوادث التي بدأت منذ سنة ١٨٨٢ والتي انتهت بالانسحاب من دنقلة وهذه العلاقة من شأنها تعزيز وضع الإنجليز في مصر، ثم أن إخلاء السودان كان يعقبه حتماً استرجاعه على يد مصر التي تقوم بريطانيا بدور الوصى عليها ، وإذا كان هذا لم يدر بخلد أحد رجال السياسة البريطانيين، فلا شك في أنه كان في ذهن سير افلين بارنج^(١١٩). وبذلك تنتهي المسألة نهاية سعيدة بعد مذبحة مروعة يتم فيها الإجهاز على عشرين ألفاً من السودانيين في موقعة أم درمان في سبتمبر ١٨٩٨ ويعقبها ضم أراضى واسعة إلى الإمبراطورية البريطانية، ودخول سير افلين بارنج في زمرة النبلاء^(١٢٠).

الخاتمة

وفى الختام، يبدو من خلال هذا البحث أن غوردون ارتكب خطأ كبيراً وكان له أثر عكسى على الثورة المهدية، فقد قوى من أنصارها حين أعلن للسلطات المحلية فى بربر فرمان الخديوى الذى يحمل نبأ الجلاء عن السودان . وفى ١٣ فبراير أخبرهم بنواياه فى إبعاد المصريين جميعاً - وكذلك الأتراك - وإحلال السودانين محلهم، ليديروا شئون بلادهم، وأعلن أنه أخذ على عاتقه تنفيذ هذه السياسة ، وأن الحكومة على استعداد لتحمل نفقات كل من له رغبة فى الرحيل عن السودان، فكان هذا الإعلان - كما عبر ستيوارت - قفزة فى الظلام، وكما وصفه «اورفالدر» رئيس البعثة الكاثوليكية بأن هذه الطعنة سددها غوردون إلى نفسه فقضى على مهمته . واعتبره السير ونجت الإعلان المميت الذى كان ضحيته غوردون نفسه، فقد قضى هذا الإعلان على كل متردد فى الانضمام للمهدى، وقطع أمل المساعدة على القبائل التى كانت لاتزال تتطلع إلى مصر فها هو حسين باشا حاكم بربر يقرر أن إعلان غوردون هذا قلب الوضع كلية فى السودان، وكان سبباً غير مباشر فى سقوط بربر وقد دفع ذلك المهدى إلى أن يوجه نداءه إلى هؤلاء المترددين بأن ينضموا تحت لوائه . وتساءل عن مدى استمرارهم فى تأييد حكومة تتأهب لترك البلاد. ولاشك فى أن الاستجابة كانت قاطعة خوفاً من أن يلقوا مصيرهم بعد جلاء المصريين، ويتركون دون حماية ، ولذلك أخذ المعارضون للثورة يلهثون وراءها ويعلمون تأييدهم لها، فقد حطم اعلان غوردون كل أمل لهم فى مساعدة الحكومة. ويعبر عن ذلك ما قاله على واد سعيد أمير متمة « كيف أظل على إخلاصى للحكومة التى صممت على التخلّى عني» وقد رأى غوردون أن إخلاء السودان دون تحديد من يرث الحكم يكون خطيراً ورأى ضرورة تعيين الزبير باشا على رأس حكومة فى السودان على أن يكون هذا التعيين مباشراً من حكومة جلالة الملكة وعليه أن يتعهد بالآتى:

١- ألا تمتد سلطته إلى الأقاليم الجنوبية وخصوصاً منطقة بحر الغزال .

٢- ألا تمتد سلطته إلى دارفور .

٣- يوالى إشعار الحكومة المصرية بإرتفاع مناسيب مياه النيل نظير مائتى جنيهاً سنوياً .

٤- أن يظل فى حالة سلمية مع أثيوبيا .

٥- ألا يفرض ضرائب تزيد عن ٤٪ على الصادرات والواردات.

٦- ألا يحاول الانتقام من أى شخص اشترك فى سحق ثورة ابنه .

٧- أن يقوم بدفع المعاشات التى تعهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى.

وكان غوردون يطمع فى موافقة حكومته على هذا الاقتراح ، وخاصة بعد أن اتضحت له الرؤيا حول الثورة المهدية وطبيعتها وبعد أن لقى اقتراحه عطف بارنج وموافقة ستيوارت وآخرين من المسئولين فى القاهرة . وكان غوردون يرى فى الزبير الشخصية السودانية التى تستطيع أن تحقق التوازن مع قوة المهدي، وتستطيع أن تحدث انشقاقاً فى صفوف المهدية، وخاصة ممولوها من كبار تجار الرقيق فها هو السودان وجيشه ورجاله يحاربون مع المهدي انتقاماً لإبعاد سيدهم وقتل ابنه سليمان. ولكن تعمدت الحكومة البريطانية إذاعة هذا الاقتراح ليلقى المعارضة من جمعيات محاربة تجارة الرقيق ومن الجرائد البريطانية، ولا يمكن أن تعفى الحكومة البريطانية مطلقاً من مسئوليتها عن هذه الحملات حتى سقط هذا الاقتراح تلقائياً. وفى ذلك يقول السير ونجت «من يدرى ربما لو كان الزبير قد سافر إلى هناك قبل غوردون لما دخل الإنجليز السودان» فبريطانيا تعرف جيداً أن غوردون قد أصدر أوامره بحرية امتلاك الرقيق وشرائه والتصرف فيه، وأنه لم يأت إلى السودان لتنفيذ معاهدة مكافحة الرقيق لأن ذلك خارج عن مهمته ، إذاً فلامبرر لبريطانية لأن تبدى مخاوفها من عودة الرق وتجارته فى ركاب عودة الزبير خصوصاً وأن غوردون قد أباح ذلك.

وقد أراد غوردون أن يختبر مدى هذه الإجراءات خارج الخرطوم فأرسل ستيوارت إلى منطقة النيل الأبيض وقد اصطحب معه شيخ الدويم وقاضى شلك، لمساعدته فى تنفيذ مهمته. ولكن الجميع لم يستطع التحرك خلف الدويم فى النيل الأبيض إذ قوبلوا بنيران البنادق من الأهالى. وكان لهذه الرحلة أثرها فى نفس القاضى الشيخ عبد القادر إبراهيم ، إذ أن البقاء أكثر من ذلك فى معسكر غوردون يعتبر تهوراً. وكان لهذا الفشل أثره فى اضطراب العاصمة عندئذ أدرك غوردون خطورة موقفه وسوء تقديره للموقف فقد كان لإجراءاته أثر عكسياً لما كان يتصور . وأخذ يشدد على حكومته بضرورة سحق المهدي وأتباعه. وهذا فى رأيه ضرورى لإتمام الجلاء وتكوين حكومة مستقرة. واعتقد غوردون أن تحطيم المهدي ضمان لسلامة حدود مصر، وطلب إرسال مائتين من القوات المهدية لحراسة الحدود عند وادى حلفا، وأصدر منشوراً يخبر بوصول قوات بريطانية لحفظ النظام وإعادة الأمن للسودان.

وفى هذه الأثناء . أخذ غوردون فى جمع قواته عندما علم بتقدم الثوار إلى أم درمان استعداد مع قواته للدفاع عن العاصمة ولكن هذه الاستعدادات على الرغم من كونها ضرورية للدفاع وحماية العاصمة إلا أنها أثارت الاعتقاد بأن غوردون لا ينوى حقيقة الجلاء عن الإقليم، خصوصاً وقد لاحت له فرصة الانسحاب من ناحية بربر، على أن يقود غوردون بنفسه هذا الانسحاب . وأصبح واضحاً أن أى تأجيل أو تأخير سيجعل التقهقر عملية مستحيلة لأن النيل فى تلك المنطقة منخفض للغاية.

أما ما كان يدور فى خلد غوردون من إقامة حكومة منظمة، والعمل على القضاء على المهدي، وغير ذلك من خطوات اتخذها لتدعيم الخطوط وحمايتها ، فإن كل هذه الإجراءات كانت على عكس ما توقعته حكومة جلادستون وزملائه من عدم التدخل عسكرياً فى السودان، إذ كان الهدف الرئيسى لمأموريته هو الجلاء .

وفى نهاية فبراير أصبح موقف غوردون فى الخطوط أكثر تعقيداً، واتهم حكومته بأن ترددها وعدم تلبية أوامره قد جعله فى موضع المقبوض عليه فى الخطوط. ولكى يهيبء لنفسه فرص نجاح مأموريته حث بشدة على ضرورة فتح الطريق بين سواكن وبربر، وطلب معونة من الفرسان البريطانيين والهنود لاحتلال الطريق بين سواكن وبربر، ومنذ ٨ مارس أصبح غوردون يخشى فرض الحصار على الخطوط وأخذت الأحداث تتوالى بسرعة ففى ١١ مارس أ برق أن الثوار على مسيرة أربع ساعات من النيل الأزرق، ونتيجة لذلك أصبحت الخطوط على وشك الحصار. ولكن فى نفس اليوم قررت الحكومة البريطانية ألا ترسل الزبير، وألا ترسل له أية قوات بريطانية إلى بربر. ولم يفلح غوردون فى أن يجبر حكومته على أن تغير من سياستها، على الرغم من أن وضعه ازداد سوءاً فى الخطوط منذ ٨ مارس . وأبلغ بارنج غوردون هذه التعليمات من حكومته .

ولعل فى هذا ما يدعم الاتهام لبريطانيا بأنها حاولت استغلال الثورة المهدية لتحقيق مصالحها والإطاحة بالإدارة المصرية خارج السودان ، وأن تلبية رغبات غوردون يؤدى إلى تحطيم الثورة ، حتى إذا ما قررت إرسال حملة الإنقاذ نجد أنها تضيع الوقت حتى يتم تكوينها وسفرها إلى القاهرة ثم إلى السودان ، وبالتالي تتيح الفرصة للثوار للاستيلاء على الخطوط وانتهاء الوضع فى السودان لمصلحة المهدي إلى حين.

وبسقوط بربر فى ٢٧ يونيو أصبح الأمر لا بدع مجالاً للشك فى خطورة وضع غوردون. ونتيجة لذلك كان لابد من اتخاذ الإجراءات السريعة لإنقاذ غوردون والخرطوم. ولكن لم تتم الموافقة على إرسال حملة الإنقاذ إلا فى ٤ أغسطس ثم ضاع شهر آخر حتى يتم تعيين قائد الحملة فى ٩ سبتمبر ، ولم يصل وادى حلفا إلا فى ٥ أكتوبر. وهكذا استغرق إعداد الحملة لإنقاذ غوردون خمسة أشهر فى الوقت الذى كان يعنى التأخير إضعاف قوة غوردون وإتاحة الفرصة لقوات المهدي لتنظيم صفوفها والتشديد على حصار الخرطوم وتصفية الجيوب المصرية فى أنحاء السودان، دون أن ينشغل المهدي بمقابلة الحملة المنتظرة وقطع كافة الطرق على غوردون وأيضاً على حملة الإنقاذ .

الهوامش

- ١- أنظر الملحق نص العقد المبرم بين إسماعيل باشا خديو مصر والسير صموئيل بيكر، ص ٤٦ .
- ٢- أنظر الملحق أمر تعيين غوردون مأموراً على خط الاستواء، ص ٤٨ .
- ٣- مكى شببكة : السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩ ، القاهرة ١٩٤٧م، ص ١٠٩ .
- ٤- على إبراهيم عبده: المناسفة الدولية فى أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦ ، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٧٥ .
- ٥- مكى شببكة: المرجع السابق ص ١١١ .
- ٦- على إبراهيم عبده : المرجع السابق ٧٨-٨٠ .
- ٧- مكى شببكة : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .
- ٨- على إبراهيم عبده: المرجع السابق ص ٥٨ .
- ٩- مكى شببكة : المرجع السابق ص ١٢٤ .
- ١٠- داود بركات : السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م ص ٤١ ، ٤٢ .
- ١١- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤١ .
- ١٢- Alfred Milner : The Egyptian Sudan its lose & Hacovary, London, 1898 . 30 .
- ١٣- أنظر ملحق حملة هكس ، ص ٥١ .
- ١٤- مكى شببكة ، المرجع السابق، ص ١٧٣ .
- ١٥- الشاطر بصلى عبد الجليل : المرجع السابق ، ص ١٧٢-١٧٣ .
- ١٦- Theobald, A.B., The Mahdiya, History the Anglo- Egyptain Sudan, London 195 .
- ١٧- أنظر الملحق عن سياسة الحكومة المصرية وأمالها فى السودان .
- ١٨- جلال يحيى: المرجع السابق، ص ٩٩-١٠٠ .
- ١٩- Theobald: Op. cit., p. 67 .
- ٢٠- Omar Abdlenen Omar: Op. cit., p. 14-15 .
- ٢١- أنظر الملحق الأمر إلى غوردون بإعادة فتح بربر وزيلع ، ص ٤٩ .
- ٢٢- Crabites, P., Gordon, The Sudan & Slavery, London, 1933 , p. 162 .
- ٢٣- Baring to Granville, Pivato, 10 , 12 . 83 , Quoted by shibeika, op. cit., pp. 120-1 .

Granville to Baring, F.O. 13 -12 -83, No 151 in Egypt No . I. 1884, also quoted in -٢٤

Russel Op. cit., p. 54 ; and Cromer , Op. cit., vol , pp. 379-80 .

Granville to Baring, F.O., 4-1- 84, quoted by Shibeika, Op. cit., p. 135; Cromer, -٢٥
Op. cit, vol 1, p. 382 ; Crabltes, Op. cit., p. 170 .

Granville to Dufferin , Copy to Baring F.O. 11-12-1883, quoted by Abbas Mekki , -٢٦
'The Sudan question, London, 1952 , p. 39 .

Cocheris, Op. cit., p. 329 . -٢٧

Abbas, M, Op. cit., p. 39 . -٢٨

Russel, Op. cit., pp. 372-5 . -٢٩

Allen, Op. cit., p. 221 . -٣٠

Shibeika, Op. cit., pp. 151-2; Crabites, Op. cit., pp. 182-3 . -٣١

Granville To Baring, private, 15-1-84 , quoted by shibeika, Op. cit., p. 152 ; Vide -٣٢
also ; Allen . Op. cit, p. 222 ; Elton, Op. cit., p. 335 ; Straschey , Op. cit., pp. 246-7 .

Gladston to Granville, 16 . 1 . 84 , quoted by shibeika, Op. cit., pp. 152-3 Morley . -٣٣
J., The life of W. e, Gradstone , London , 1903 , p. 390 .

Ellon, Op. cit., p. 34 . -٣٤

Shukry, Gordon at Khartoum, p. 34 . -٣٥

Elton, Op. cit., pp. 337-8 . -٣٦

Theobald, Op. cit., p. 78 . -٣٧

Allen, Op. cit., p. 225 ; Elton , Op. cit., p. 337 . -٣٨

Cromer, Op. cit., vol . 1, p. 437 . -٣٩

Baring to Granville; Private, 16 . 1. 84 , quoted by Shibeka, Op. cit, p. 153 ; Vide -٤٠
also; Russel, Op. cit., p. 47 ; Elton, Op. cit., p. 337 ; Allen, Op. cit, p. 286 ; Stratchey, Op.
cit., p. 247 .

Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 33-34 . -٤١

Cromer, Op. cit., vol., I, p. 447 : vido also : The Thodive to Gordon, cairo p. 6 . -٤٢

1.84, quoted in Russel, Op. cit., pp. 55-2 .

Baring to Granville , Cairo, 28 . 1. 84 , quoted in Shibeika, Op. cit., p. 167 . -٤٣

Cromer., Op. cit., vol ., p. 447 . -٤٤

Fitzmaurice, Op. cit., vol. II, p. 383 . -٤٥

-٤٦ من المعتمد أن كرومر كان يقصد بذلك الرد على الفقرة الواردة في كتاب (Fitzmaurice, Op. cit., vol, II, p. 383) من أن التغيير تم بمعرفة بارنج ونوبار ويعزز هذا الاعتقاد أن المقال نشر في سنة ١٩٠٥ وهي نفس السنة التي ظهر فيها كتاب Fitzmaurice سالف الذكر .

Times, 9.11.1905, quoted by Colvin, A, The Making of Modern Egypt, London, -٤٧
1906 , p. 70 .

Strachey , Op. cit., p. 257 . -٤٨

Shukry, Op. cit., p. 47 . -٤٩

Theobald, Op. cit., p. 87 . -٥٠

Stewart's , diary, enclosed in Baring to Granville, Cairo, 3 . 3 . 84 , quoted in -٥١
Shibeika, Op. cit., p. 178 .

Eiton, Op. cit., p. 356 . -٥٢

Crabites, Op. cit., p. 211 . -٥٣

Eiton, Op. cit., p. 356 . -٥٤

Cromer , Op. cit., vol I, pp. 487 : Elton, Op. cit., p. 368 : Fitzmaurice , Op. cit., vol. -٥٥
II, p. 385 .

Gwynn Tuckwell, Op. cit., vol II, p. 35 . -٥٦

Gordon to Baring, Korcsko 1.2 . 84 ; Graville to Baring F.O. II. 2 84, Quoted by -٥٧
Russel, Op. cit., p. 70 .

-٥٨ أنظر كتاب محمد أحمد إلى أهالي سواكن المؤرخ أول رجب ١٣٠٠ هـ (مايو ١٨٨٣) في نعوم شقير
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٢٠١-٢٠٣، ١٩٠٣ م وانظر أيضاً : Holt, Op. cit 7074.

٥٩- عن تحركات ونشاط عثمان دقنه في السودان الشرقي أنظر:

- Jackson, Osman Digna, London. 1926 : levi (G.) Osman Denka Le Caire .
- Baring to Granville , Cairo 23 , 11 . 84 . Quoted in Russle. Op. cit., p. 42 . -٦٠
- Sortorivs, E Three Months in the Sudan London 1885, p. 23 . -٦١
- Ibid., p. 155 . -٦٢
- Wyide A, 83 to 87 in the Sudan, London, 1888, vol I. pp. 29-30 . -٦٣
- Gladstone to Granville, 7 . 2 . 84 , Quoted in Shibeika, Op. cit., p. 202 . -٦٤
- The letters of. Queen victoria , 2nd Sorios, (London 1928) , vol . III, p. 477 . -٦٥
- Elton, Op. cit, p. 559 . -٦٦
- Allen, Op. cit, p. 267 . -٦٧
- Wylde, Op. cit., vol, I. p. 130 . -٦٨
- Cromer, Op. cit., vol. I, p. 527 . -٦٩
- vide Grodon's despatch to Bating Khartoum, 26.2,84 , in Russel, Op. cit., pp. 75- -٧٠
76 .
- Gromer, Op. cit., vol . I, p. 481 . -٧١
- Baring to Granville, 28 . 2 . 84 , quoted in Russel, Op. cit., pp. 74-75 . -٧٢
- Baring to Granville . 9 . 3 . 74 , quoted in Russel Op. cit., 81 . -٧٢
- Baring to Granville 9. 3. 74 , quoted in Russel, Op. cit., p. 81 . -٧٣
- Ibid., pp. 74-75 . -٧٤
- Cwynn & Tuckwell, Op. cit., voll II, p. 33 . -٧٥
- Granvill Bering , F.O. 22.2.84, quoted by Russel, Op. cit., p. 72 ; vide also : Allen, -٧٦
Op. cit., p. 282 .
- Elton, Op. cit, p. 371 . -٧٧
- Royle C., The Egyptian Campaigns, 1882-1899, London 1899, vol. II. p. 11 . -٧٨

Baring to Granville, Cairo 24 . 3 . 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 86 ; Allen, Op. -٧٩
cit., p. 312 ; Strachey. Op. cit., pp. 261-262 .

Granville to Daring F.O. 133. 84 , quoted by Russel, Op. cit., p. 85 ; Allen, Op. cit., -٨٠
p. 306 .

٨١- أنظر رواية المهدي عن هذين الانتصارين في الحلقة في ١٣ مارس والشرق في ١٦ مارس في كتابه
إلى محمد خالد زقل المؤرخ ١٨ جمادى الثانية ١٣١٠ (١٥ إبريل ١٨٨٤) نعوم شقير: نفس المرجع،
ج ٣، ص ٢٢٤ .

Holt, Op. cit., pp. 40-41 . -٨٢

Strachey, Op. cit., p. 263 ; Allen., Op. cit., 312 . Letters of queen Victoria , Op. cit., -٨٣
vol III, p. 485 .

Cromer, Op. cit., vol . I, p. 542 . -٨٤

Shukry, Gordon at Khartoum, pp. 49-59 . -٨٥

Allen, Op. cit., p. 331 ; Cromer, Op. cit., vol . I, p. 555 ; Gordon to Baring, Khar- -٨٦
toun 7 . 4. 84 , quoted in Russel Op. cit., p. 93 .

Strachey, Op. cit., pp. 268-69 . -٨٧

Allen, Op. cit., p. 338 . -٨٨

Fitzmaurice, Op. cit., vol. II , p. 386 . -٨٩

Allen, Op. cit., p. 326 . -٩٠

Boulger, D. The life of Gordon, London 1892 vol. II p. 146 . -٩١

Hake. E, The Journal of Major General C.G. Gordonat Khartoum, London, 1885 , -٩٢
p. 93 .

Ibid, p. 307 . -٩٣

Hilt, Op. cit. p. 92 . -٩٤

في نفس اليوم الذي قتل فيه ستيوارت ورفاقه كان جلادستون ينزل ضيفاً على أحد لوردات حزب
الأحرار في اسكتلندة قرب مدينة (ابردين) وتصادف أن التقط جريدة الأحرار المحلية في ذلك الصباح
ليقرأ برقية من القاهرة تحوى رسالة من غوردون إلى بارنج تاريخها ٥ أغسطس ١٨٨٤ عن خطة

إرسال ستيوارت لاسترداد بربر والاحتفاظ بها خمسة عشر يوماً ثم إشعال النار فيها والعودة إلى الخرطوم. وبذلك تأكد السياسى الكبير أن غوردون يسير قدماً فى خطة تحطيم المهدي مخالفاً بذلك أوامر حكومته ، وأنه يشن هجوماً على شعب له الحق فى أن يكافح من أجل حريته ، وقال أحد شهود العيان وقتئذ أن وجهه قد تصلب، وفاضت منه الدماء، واشتعلت عيناه بالنيران حتى لتكاد أن تأتى على الورق الذى طبعت عليه رسالة غوردون وفى اليوم التالى كان جرانفيل يبلغ بارنج أن غوردون يجب أن يتلقى أوامره من ولزلى وأن حكومة غوردون تقتصر على الخرطوم وما حولها أنظر :

Elton. Op. cit., p. 404 ; Allen, Op. cit., 350 .

Letters of Gordon to his sister, p. 384 . -٩٥

-٩٦ شقير : نفس المرجع السابق ج٣ ص ٢٨٩-٢٩١ وأنظر أيضاً . Holt. Op. cit., pp. 93-94 .

Shibika, Op. cit., p. 290 . -٩٧

Royle. C., The Egyptian Campaigns 1882-1885 London, 1890 , vol . II, p. 205 . -٩٨

Archer T., The war in Egypt and the Sudan, London, 1886 , vol . III, p. 263 . -٩٩

Colville H.E., History of the Sudan Campaign, London. 1899, Part II, p. 3 . -١٠٠

Royale G., Op. cit., vol . III, p. 243 . -١٠١

Shukry, Op. cit., p. 68 . -١٠٢

Wilson, C.W. From Korti to Khartoum, London, 1886 , p. 113 . -١٠٣

Ohrwalder J., Ten Year's Captivity in the mahdi's Camp, London, 1892 , p. 148 . -١٠٤

Crabites, Op. cit., pp. 318-29 ; Wingate, Op. cit., pp. 163 , 169-172 , 189, 192-5 ; -١٠٥

Slatin, Op. cit., p.340; Strachey , Op. cit., p. 298 ; Arthur, T. Life of Kitchener , London, 1920 , vol .I , p. 121 ; Ohrwalder , Op. cit., p. 173 .

Strachey, Op. cit., p. 299 . -١٠٦

Hanotauk G., Histoire de la Nation Egyptienne F. Charles- Roux, L'Egypt de -١٠٧
L'Occupaton Anglaise a l'Independence Egyptienne", Tome Vii, Paris 1940 p. 83 .

The Letters of queen Victoira, vol . II, p. 597 . -١٠٨

Granville to Baring , Secret, F.O. 13 . 3 . 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 303. -١٠٩

Holland, Op. cit., vol . II, p. 27 . -١١٠

Rroyle, Op. cit. vol II, pp. 332-4 ; Stradchey . Op. cit., p. 300 , Charles- Roux, Op. cit, p. 83 .	-١١١
Holland , Op. cit., vol . II, p. 28 .	-١١٢
Baring to Granville, Privare, 3. 4. 85 , quoted by Shibeika, Op. cit., p. 304 .	-١١٣
Royle Op. cit., vol . II. pp. 364-5 .	-١١٤
Holland, Op. cit., vol . I, p. 36 .	-١١٥
Strachey, Op. cit, p. 300 .	-١١٦
Shibeika, Op. cit., p. 307 .	-١١٧
Royle, Op. cit., vol . II, p. 380 .	-١١٨
Charles - Roux , Op. cit., p. 86 .	-١١٩
Strachey , Op. cit., pp. 300-1 .	-١٢٠

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق الموجودة بدار الوثائق القومية بالقلعة:

- المعية دفتر ٢٥٦ تركى ، ١٩٤٨ ، ١٨ «أوامر عرى».
- الكتاب الأخضر: الذى أصدرته رئاسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣م عن السودان.

ثانياً: المصادر العربية:

- ١- الشاطر بصلى عبد الجليل: تاريخ شعوب وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٥م.
- ٢- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان، القاهرة ١٩٥٩م.
- ٣- داود بركات: السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية القاهرة ١٩٤٧م.
- ٤- على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠-١٩٠٦، القاهرة ١٩٥٨م.
- ٥- مكى شبكة : السودان فى قرن ١٨١٩-١٩١٩، القاهرة ١٩٤٧م.
- ٦- نعم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٣م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

- 1- Abbas, M., The Sudan question , London, 1952 .
- 2- Allen, B.M., Gordon and the Sudan, London, 1931 .
- 3- Archer . T., The war in Egypt and the Sudan, vol III London, 1886 .
- 4- Colville . H., History of the Sudan Campaign, London, 1866 .
- 5- Colvin , A., The Making of Modern Egypt, London, 1906 .
- 6- Crabites, P. , Gordon , The Sudan & Slavery , London, 1933 .
- 7- Cromer, The Earl of Modern Egypt, vol II, New York , 1908 .
- 8- Elton, L., General Gordon, London, 1954 .
- 9- Fitzmaurice, L., The Life of Granvills (1815-1891), London, 1905 .
- 10- Gwynn, S.I., and Tuchwell, G., M., Life of Sir Charles Dilde, London, 1917 .
- 11- Hade . E., The Journal of Major General C.G. Gordon at khartoum , London, 1885 .
- 12- Hanatauk , G., Histore de la Nation Egyptienne F. Chales- Roux, L'Egypte de L'occupation Anglaise a I "Lndependence Egyptienne, paris, 1940 .
- 13- Holland, B., Life of Spencer Compton, 8th Duke of Devonshire, London, 1911 .
- 14- Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan, Oxford, 1958 .
- 15- Jackson , H., Osman Digna, London, 1926 .
- 16- Letters of queen Victoria, 2nd series, vol III, London, 1928 .
- 17- Lytton Strachey ., The End General Gordon London, 1918 .
- 18- Ohrwalder . J., Ten Year's Captimity in the Mahdis Camp, London, 1892 .
- 19- Royle . C., The Egyptian Campraigns, 1882-1899, London, 1899 .
- 20- Russel, H., The Ruin of the Sudan, London 1892 .
- 21- Shibeika, M., British Plicy in the Sudan, London, 1952 .
- 22- Shukry, M, F., Gerdon at Khartoum.
- 23- Sortorivs, E., Three Months in the Sudan , London, 1885 .
- 24- Strachey. L., Eminent Victarians, London, 1918 .
- 25- Theobald, A.B., The Mahdiya, London, 1951 .
- 26- Wilson , C.W., From Korti to Khartoum, London., 1886 .
- 27- Wyide. A., 83 to 87 in The Sudan, London, 1888 .

توقيعات صناع المعادن ومدلولاتها

(من بداية القرن ٥٧ هـ / ١٣ م إلى منتصف القرن ٥٨ هـ / ١٣ م)

تعد توقيعات الصناع على التحف المعدنية منذ بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى المصدر الرئيسى فى إمدادنا بالمعلومات الهامة والنادرة عن الصناع وأساليبهم الفنية وطوائفهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى ربطت بينهم لدرجة أن أصبح لهؤلاء الصناع تلاميذ وغلمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ، ولذا أصبحت تلك التوقيعات المصدر الوحيد فى وضع قوائم بأسماء الصناع وتخصص كل منهم ومكانتهم بين أبناء حرفتهم وتلاميذهم كما أمكن كذلك عن طريق التوقيعات تقسيم أساليبهم الصناعية والزخرفية إلى مدارس فنية متميزة يمكن تتبع مراحل تطورها أو تأثيرها بعضها فى بعض بالإضافة إلى نسبة التحف الغير موقعة إلى صناعها أو على الأقل إلى أسلوب مدارسهم الفنية^(١).

وكان من تقاليد طوائف الحرف والصناع الحفاظ على أسرار تلك الحرف وقصرها على أفرادها وأسرههم ، ولعل هذا يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض أسرار فى حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء^(٢)، فضلا عن صعوبة دخول الغرباء على الطائفة فى صفوفها^(٣).

وقاد الصناع المواصل حركة التواصل الصناعى والفنى بين أقطار العالم العربى منذ بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى فهؤلاء الصناع الذين تربوا ونضجوا فى مدينة الموصل هاجروا منها إلى مدن بلاد الشام ومصر وعاشوا تحت كنف الدولتين الأيوبية والمملوكية فى مصر والشام ونالوا رعاية واحترام حكامهما وكونوا مدارس فنية لها أسلوبها المميز والخاص والتي أصبح لها تلاميذ وغللمان ورواد يعملون على نفس منوال أساتذتهم ومعلميهم ومن المعروف أن صناع التحف المعدنية هاجروا من الموصل إلى مصر وبلاد الشام فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى واشتغل هؤلاء الفنانون عند الأمراء والسلاطين الأيوبيين والمماليك فى دمشق وحلب والقاهرة وطبيعى أنهم نقلوا الأساليب الفنية التى ألفوها فى بلاد الجزيرة ولذا كانت آثارهم الفنية تتبع مدرسة الموصل^(٤).

وقد وصل إلينا عدد من التحف المعدنية التى تحمل توقيعات صانعيها بالإضافة إلى الكتابات التاريخية وهو ما يؤكد أنها صنعت على يد فنانيين من الموصل استقروا فى مختلف العواصم الإسلامية وظلوا مخلصين للأساليب الفينة التى ازدهرت بمدينتهم الأولى مدينة الموصل وحرصوا على إبراز طابعها الخاص وتميز حضارتها^(٥).

وعلى رأس هؤلاء الصناع إبراهيم بن مواليا الذى يعتبر صاحب أكبر مدرسة فنية خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى حيث بلغت شهرته درجة كبيرة حيث كان من الصناع الذين يؤخذ عنهم وينتسب إليهم وقد ورد توقيعه على النحو التالى : «عمل إبراهيم بن مواليا»^(٦).

ومن أشهر أعمال الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا أبريق من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر وينسب إلى مدينة الموصل فى بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى^(٧). (شكل ١)

وإذا كان هذا الصانع قد عاش فى مدينة الموصل ونفذ أعماله المعدنية مفعمة بالسماط الفنية الخاصة بتلك المدينة فإن ما تكشف عنه توقيعات الصناع فى تلك الفترة يثبت ارتباط الصناع الكبير إبراهيم بن مواليا بعدد من الصناع المواصل الآخرين الذين ارتبطوا به فى علاقات مهنية متنوعة مثل علاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة التى ربطت بين الصناع الكبير وتلاميذه وغللمانه ففى الوقت الذى ينعت الصانع اسماعيل بن ورد نفسه بأنه تلميذ الصانع الكبير إبراهيم بن مواليا نجد الصانع قاسم بن على ينعت نفسه بأنه غلامه. فالصانع اسماعيل بن ورد بن عبدالله الموصلى ينعت نفسه بأنه تلميذ الصانع المعروف «إبراهيم بن مواليا» على

صندوق معدنى على النحو التالى : «نقش اسمعيل بن ورد الموصلى تلميذ ابراهيم بن مواليا الموصلى وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وستمائة» (شكل ٢) .

وقد كشف هذا التوقيع عن علاقة من العلاقات المهنية التى جمعت بين الصانع وهى علاقة التلمذة حيث تتدرب وتتلمذ الصانع اسماعيل بن ورد على يد أستاذه الصانع ابراهيم بن مواليا^(٨). وقد أمكننا التعرف على اسم الصانع اسماعيل بن ورد بالكامل من خلال توقيعه على الصفحة الأخيرة من مخطوط مصابيح السنة^(٩) المؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ / ١٤٢١م وهذا يفيد بأن الصانع اسماعيل بن ورد كان كاتباً ماهراً بالإضافة لكونه صانعاً للتحف المعدنية وتلميذاً للصانع الكبير ابراهيم بن مواليا حيث جاء توقيعه فى نهاية المخطوط على النحو التالى : «وافق الفراغ من نسخه بكرة الخميس فى العشرين من شوال سنة ست واربعين وستمائة كاتبه الفقير إلى رحمة الله ورضوانه اسماعيل بن ورد^(١٠) بن عبد الله النقاش الموصل...»^(١١) (لوحة ١، شكل ٣) .

أما الصانع قاسم بن على فقد كشف توقيعه عن ارتباطه بالصانع المشهور ابراهيم بن مواليا حيث نعت نفسه بأنه غلامه ولم يمنع الصانع قاسم بن على الذى كان يعيش فى بلاد الشام بعيداً عن معلمه الصانع الكبير ابراهيم بن مواليا فى مدينة الموصل أن يعترف بفضل معلمه حيث جاء توقيعه على إبريق^(١٢) من النحاس الأصفر المكفت بالفضة^(١٣). على النحو التالى: «عمل قاسم / بن على غلام أبر / هيم ابن مواليا / الموصلى وذلك فى / رمضان / سنة تسع / عشرين وستمائة»^(١٤). (شكل ٤) .

كما يضيف هذا التوقيع علاقة مهنية أخرى تجمع بين صانع كبير وآخر وهى علاقة الغلمنة^(١٥). وربما تدل هذه الكلمة على أن الصانع قاسم بن على قد تعلم صنعته على يد الصانع الكبير ابراهيم بن مواليا ومن ثم فإنه يشعر كأنه مملوكه وربما كان الصانع المذكور مملوكاً فعلاً للصانع الكبير ابراهيم بن مواليا^(١٦).

وما يؤكد إقامة قاسم بن على ببلاد الشام وخدمته لحكامها وخصوصاً حاكم مدينة حلب وجود نص تسجيلى يجزم بنسبة الابريق إلى مدينة حلب يقرأ كما يلى : «العز والإقبال لمولانا الأمير الأجل الكبير الزاهد (الوحدة ٢) العابد الورع البندقدار شهاب الدنيا والدين الملكى العزيزى (الوحدة ٣) ويشير هذا النص إلى الأمير «شهاب الدين بن طغرل» آتابك «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين» صاحب حلب الذى حكم بين سنتى (٦١٣-٦٣٣هـ / ١٢١٦-١٢٣٥م)^(١٧).

وإذا كان شهاب الدين بن طغرل لم يستطع وضع اسمه ظاهراً في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م على الإبريق السابق واكتفى بكتابة ألقابه فإن نفوذه قد ازداد بعد عامين ونقش اسمه وألقابه بوضوح على واجهة المدرسة الأتابكية بحلب والمؤرخة في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م على النحو التالي: «وأنشأها المدرسة أتابكة وولى أمره وكافل دولته القائم بقوانين حفظه .. شهاب الدين أبو سعيد طغرل بن عبدالله الملكى الظاهري»^(١٨) والملاحظ أن الصانع قاسم بن علي قد أنهى العمل في إبريقه السابق في شهر رمضان ٦٢٩هـ / ١٢٣١م وأن الصانع الكبير شجاع بن منعة الموصلى أنهى العمل في إبريقه في شهر رجب من نفس العام وهو يكون بذلك قد سبق قاسم بن علي بحوالى شهرين وهذا مدون في توقيعاتهما ، كما يظهر الفرق واضحاً بين الصانعين لأن شجاع يعد نقاشاً وأستاذاً كبيراً وصاحب مدرسة لها تلاميذها وغللمانها وهو ذو شهرة ومكانة تفوق شهرة الصانع قاسم بن علي كما وردت علاقة الغلمنة على تحفة أخرى صنعها الصانع إياس وهو من الصناع الذين تعلموا على يد الصانع عبد الكريم الترابي الموصلى وأنتج أعماله في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وجاء توقيعه على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة على النحو التالي : «من صناعة إياس غلام عبد الكريم ابن الترابي الموصلى في سنة سبع وعشرين وستماية»^(١٩). (شكل ٥).

وشجاع بن منعة الموصلى^(٢٠) يعتبر رائد حركة التواصل الفني بين مدينة الموصل ومدن بلاد الشام ومصر وهو نقاش ماهر كان يؤخذ عنه، وينتسب إليه^(٢١) وهو أول من ذكر في توقيعه مكان صناعة منتجاته فقد ترك لنا تحفة فريدة تشتمل على اسم أولى المراكز الصناعية للتحف المعدنية عبارة عن إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والنحاس الأحمر^(٢٢) (لوحة ٤) يحمل توقيعه مصحوباً بتاريخ ومكان الصناعة يقرأ : «نقش شجاع بن منعة الموصلى في شهر الله المبارك شهر رجب في سنة تسع وعشرون (عشرين) وستماية بالموصل»^(٢٣).

وهو من صناع التحف الذين كانوا يشتغلون عند «شجاع بن منعة الموصلى» ، الحاج اسماعيل ومحمد بن فتوح فقد اشتركا معا في صناعة شمعدان كل في تخصصه بحيث قام بالصناعة «الحاج اسماعيل» ، ونقشها «محمد بن فتوح» وهما من أشهر الصناع في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ومن أعمالهما شمعدان (لوحة ٥) يحمل توقيع : «عمل الحاج اسماعيل نقش محمد ابن (بن) فتوح الموصلى المطعم أجير الشجاع الموصلى النقاش»^(٢٤).

ويضيف هذا التوقيع علاقة ثالثة من العلاقات المهنية التى كانت تربط بين صانع وآخر وهى علاقة «الأجرة» وفيها يقوم صانع صغير بالعمل عند صانع كبير مشهور مقابل الأجرة والجدير بالذكر أن يسجل هذا الصانع اسمه على التحفة منعوتا بلقب أجير سيده (٢٥).

ويستفاد من التوقيع السابق أيضا أن لفظة طعم وتطعيم تطلق على من يقوم بحشو المعادن بمادة أغلى وأثمن (٢٦) أما كلمة التكفيت والكفت فكانت شائعة عند العامة وعند أهل الصناعة لكن حرص المتخصصون على استخدام كلمة «التطعيم» وهذا ما أكده «المقرىزى» عند تعريفه للكفت بأنه ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة (٢٧).

ومن الصانع المشهورين الإيرانيين الذين برزوا فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وعاصروا الصانع المواصله وانتجوا تحفهم الفنية فى إقليم خراسان الصانع «شاذى النقاش» ومن المحتمل أن يكون قد عمل فى مدينة هراة التى كانت واحدة من أكبر المراكز فى خراسان حيث تربى على يد سيده «مجد الملك المظفر» هذا من جهة ومن جهة ثانية أقام سوق لمنتجاته فى هيراة أو فى بخارى حيث عثر على بعض منتجاته بها (٢٨).

ومن أشهر أعماله : مقلمة من النحاس المطعم «المكفت» والنيلة السوداء ومؤرخة فى سنة ٦٠٧ هـ / ١٠-١٢١١ م . كتب عليها توقيع الصانع وتاريخ الصناعة فى الجنب الأمامى من الغطاء بالخط الكوفى المورق ونصها : «عمل شاذى النقاش ٥ فى سنة سبعة وستماية (٢٥) يونية ١٢١٠-١٤ يوليو ١٢١١ م» (٢٩). (شكل ٦) وتحيط بسطح المقلمة كتابة بالخط النسخى ذات الهامات الآدمية نصها : «الصدر الآجل الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور مجيد الملك شرف الدولة والدين شهاب الإسلام والمسلمين اختيار الملوك والسلطين ضياء الملة بها (١) الأمة قدوة الأكابر الأمائل عمدة المعالى سيد الوزرا ونظام خراسان المظفر بن الصدر الشهيد مجد الملك (٣٠) ضاعف الله قدره» (٣١).

وأیضا يظهر توقيع الصانع «شاذى النقاش» على تحفتين بنفس الشكل الذى وجد على مقلمة الفرير الأول مقلمة مستطيلة (٣٢) مخصصة لحظ الريشة المستخدمة فى الكتابة، والثانية قنينة على شكل طائر عثر عليهما فى هراة ويظهر عليهما التشابه الكبير بين زخارف سطح غطاء مقلمة الفرير جاليرى فقد وجد توقيع الصانع الذى كتب بنفس الطريقة على القطعتين وهذا يبدوا واضحا فى حرفى «الذال والياء» (٣٣). وعلى الرغم من أن القطعة لا تحمل اسم صاحبها أو مكان صنعها إلا أنه من المرجح أن تكون قد صنعت لنفس الشخص الذى صنعت له المقلمة فى مدينة هراة حيث كانت المدينة مركزا عظيما فى صناعة وتكفيت المعادن من أواخر ق ٦ هـ / ١٢ م وبداية ق ٧ هـ / ١٣ م (٣٤).

ومن التوقيعات الهامة التى لها دلالات عديدة وأمدتنا بمعلومات هامة توقيعات الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش وهو من الأساتذة البارعين فى النقش يرجح أنه عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى^(٣٥). فالتوقيع الأول بخط النسخ على رقبة إبريقه^(٣٦) يتضمن اسمه وتاريخ الصناعة يقرأ : «عمل أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة عشرين وستماية والعز لصاحبه»^(٣٧) (شكل ٧) كما يوجد على رقبة الإبريق اسم صانع آخر من الأسماء المضافة التى حزت على الرقبة وهو «حسين بن قاسم»^(٣٨).

أما التوقيع الثانى فقد ورد على طسته الشهير الذى حمل أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر مؤرخ فى : ٦٣٥-٦٣٧هـ / ١٢٣٨-١٢٤٠م^(٣٩).

يقرأ : «عمل احمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش» (الوحة ٦، شكل ٨) والملاحظ أن الصانع ترك توقيعده فى مكان ظاهر على السطح الخارجى للطست فى حين كتب أسماء وألقاب الملك العادل أبى بكر محمد على السطح الداخلى بالإضافة إلى وجود نصان فى قاع الطست الأول يقرأ : «برسم الطست خاناه العادلية» والآخر يشير إلى الأمير اليمنى الحسين بن محمد بن أحمد بن أمير المؤمنين وهو ما الأشخاص الذين امتلكوا الطست فى القرن ١٧م^(٤٠).

أما التوقيع الثالث لهذا الصانع فجاء على إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة : ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م^(٤١). (الوحة ٧) نقش عليه اسمه إلى جانب تاريخ الصناعة ويقرأ توقيعده : «عمل أحمد المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة أربعين وستماية»^(٤٢) (شكل ٩).

ولم ينتهى دور هذا الصانع الكبير فمن خلال التوقيعات التى بين أيدينا يمكننا التعرف على صناع مدرسته الفنية وتلاميذه وغلمانه فقد تخرج على يد الأستاذ الكبير أحمد الذكى النقاش صاحب المدرسة الفنية فى صناعة التحف المعدنية عدد من الصناع والنقاشين منهم أبوبكر بن الحاج جلدك وشقيقه عمر اللذان كانا ينقشان إليه بعد اجازاتها كما كانا يكتبان على ما ينقشانه من تحف أنهما غلمان تعلما على يد هذا الصانع والأستاذ الكبير.

فبعد عامين من ظهور أولى أعمال أحمد الذكى النقاش الموصلى تظهر أعمال تلميذه الصانع أبو بكر بن الحاج جلدك الذى أخذ عنه وتخرج على يديه وأتقن صناعة النقش بفضل^(٤٣).

وجاء توقيع أبوبكر بن الحاج جلدك ليؤكد فضل أستاذه عليه حيث ينعت الصانع نفسه بأنه غلام الصانع الكبير أحمد الذكى النقاش ويقرأ التوقيع على شمعدان من النحاس المكفت بالفضة^(٤٤) مؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٣٥م^(٤٥). (لوحة ٨) على النحو التالى:

«عمل أبوبكر بن الحاج جلدك غلام أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش الموصلى فى سنة إثنين وعشرين وستماية والبقا لصاحبه»^(٤٦).

وبالإضافة إلى النص الرئيسى الموجود على رقبة الشمعدان فإنه يوجد نصا آخر محزوز حزا عميقا على الجدار الداخلى للبدن يقرأ على النحو التالى : « الطشتخانة المسعودية »^(٤٧).

أما غلامه الثانى فهو الصانع عمر بن جلدك^(٤٨) الذى أخذ عن الصانع الكبير أحمد بن عمر الذكى النقاش ونعت نفسه أيضا بلفظة غلام لأستاذه الصانع الكبير أحمد بن عمر المعروف بالذكى النقاش فقد أنهى إبريقه بعد عام من إنهاء أخيه أبوبكر للشمعدان السابق وحرص على أن ينعت نفسه بلفظة غلام فجاء توقيع به بالخط النسخ على رقبة إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة والمؤرخ فى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٣٥م^(٤٩). يتضمن اسمه وتاريخ صناعة الإبريق يقرأ على النحو التالى : «عمل عمر بن الحاجى جلدك غلام أحمد الذكى النقاش الموصلى فى سنة ثلاث وعشرين وستماية»^(٥٠).

ومن الصنائع المشهورين الذين أمدونا من خلال توقيعاتهم بالعديد من المعلومات كما تحققت على أيديهم وفى أبنائه من بعدهم فكرة التواصل الصناعى والفنى الصانع «حسين بن محمد الموصلى» الذى ظهر فى العصر الأيوبي وأنتج منتجاته فى مدينة دمشق حيث خدم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف^(٥١) ثم خلفه من بعده أبنائه الذين أنتجوا منتجاتهم الفنية فى القاهرة خلال العصر الأيوبي ويتضح ذلك على النحو التالى : أنتج حسين بن محمد الموصلى إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م بمدينة دمشق^(٥٢). (لوحة ٩) .

ويوجد على رقبة الإبريق شريط يتضمن اسم الصانع وتاريخ ومكان صناعة الإبريق ، ونص الكتابة كالاتى : «نقش حسين ابن محمد الموصلى بدمشق المحروسة سنة سبع وخمسين وستماية»^(٥٣).

كما يحمل بالبدن شريط عريض من الكتابة النسخية وهى بارزة على أرضية ذات زخارف نباتية تتضمن اسم أحد سلاطين بنى أيوب الذين حكموا مدينة دمشق. ونص الكتابة كالاتى :

«عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى»^(٥٤). (لوحة ١٠) .

ثم خلف الصانع الكبير حسين بن محمد الموصلى الذين عاش بمدينة دمشق وخدم الملك السلطان أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى ابنان محمد وعلى عاش الأول بمدينة مصر المحروسة والآخر بمدينة القاهرة فالصانع محمد بن حسين بن محمد الموصلى انتج شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (لوحة ١٠) مؤرخ فى سنة ثمان وستين وستماية^(٥٥). ويحمل توقيع على النحو التالى : «نقش محمد بن حسين الموصلى رحمة الله عليه بمصر المحروسة فى سنة ثمان وستين وستماية هجرية...»^(٥٦).

كما توجد ثلاث كلمات قرأها "Wiet" على النحو التالى : «ما احزن البقا»^(٥٧). (شكل ١٠) .

والابن الثانى هو الصانع «على بن حسين بن محمد الموصلى» الذى حقق التواصل الصناعى والفنى فقد عاش بمدينة القاهرة وأنتج تحفا تحمل أسماء وألقاب الملك المظفر شمس الدين يوسف^(٥٨) وصنع له بالقاهرة إبريق كبير من النحاس المكفت بالذهب^(٥٩) مؤرخ فى سنة أربع وسبعين وستماية وتزينه زخارف متنوعة من الزخارف النباتية والهندسية والرسوم الآدمية داخل الجامات بالإضافة إلى عنصر الكتابات التى ظهرت فى شريطين الأول: على رقبة الإبريق ويشتمل على العديد من المعلومات الوثائقية مثل اسم الصانع وموطنه ومكان وتاريخ الصناعة وتقرأ الكتابة على النحو التالى : «نقش على بن حسين بن محمد الموصلى بالقاهرة فى شهر سنة أربع وسبعين وستماية / ١٢٧٥م»^(٦٠). (شكل ٥) .

والثانى : شريط آخر من الكتابة بخط النسخ المملوكى حول البدن تشتمل على أسماء وألقاب السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف واسم والده المنصور عمر^(٦١) وتقرأ على النحو التالى: «عز لمولانا السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين يوسف بن السلطان الملك المنصور عمر»^(٦٢).

وتحتفظ مجموعة "M. Piet- Lataudrie" بمتحف اللوفر بباريس بطست كبير (لوحة ١١) لنفس الصانع يحمل التوقيع التالى : «نقش على بن حسين الموصلى بالقاهرة فى [سنة] أربع وثمانين وستماية» ، كما يوجد شريط آخر من الكتابة باسم السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر يقرأ:

«عز لمولانا السلطان الملك العالم العادل المجاهد الم رابط شمس الدنيا والدين يوسف^(٦٣) ابن عمر ابن على خليل أمير المؤمنين»^(٦٤). (الوحة ١٢، شكل ١١).

ويتضح من ذلك أن التحفتين السابقتين قد صنعتا بمدينة القاهرة على يد الصانع الموصلى الأصل «على» الذى استقر والده «حسين بن محمد» بمدينة دمشق وخدم سلاطينها ثم استقر «على» بمدينة القاهرة واستقر أخيه محمد بمدينة مصر المحروسة وأنتجا منتجاتهما الفنية بمصر^(٦٥).

وكذلك فمن توقيعات الصناع المواصله الذين أنتجوا تحفا فنيا تحمل السمات الفنية للمدينة التى تربوا فيها بالإضافة إلى مزجها بتقاليد البلاد التى يعيشون بها كان الصانع داود بن سلامة وهو مكفت ماهر يرجح أنه عاش فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى^(٦٦). وأنتج عدة تحف منها: شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ومؤرخ فى سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م^(٦٧). وصنعت فى شمال سوريا (الوحة ١٢) وعلى الرقبة ويدور شريط بارز من الكتابة النسخية جاء فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة نصه كالتالى : «البقا والسعد والبقا والمجد والبقا والخير والثنا عمل داود بن سلامة الموصلى فى سنة أربعين وستماية»^(٦٨).

كما أنتج داود بن سلامة الموصلى طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة^(٦٩) مؤرخ فى سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢-١٢٥٣م^(٧٠) ترجع صناعته فى مدينة القاهرة ويحمل توقيع الصانع على النحو التالى: «نقش داود بن سلامة الموصلى / فى سنة خمسين وستماية / التأييد العز البقا والشكر لصاحبه» وصاحبه هو الأمير بدر الدين بيسرى^(٧١) حيث يحمل الطست كتابة كوفية تقرأ : «برسم الأمير بدر الدين بيسرى الخزن دار الجمالى المحمدى»^(٧٢).

وكذلك نستدل من خلال توقيع صانع آخر يدعى محمد بن ختلخ أنه كان من الصناع المواصله الذين هاجروا من الموصل واستقروا فى بلاد الشام حيث عاش بمدينة دمشق وهو من الكفتين البارزين فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى^(٧٣). وجمع هذا الصانع بين صناعة التحف المعدنية من جهة وبين صناعة الأدوات الفلكية من جهة أخرى وهو ما يثبت أنه كان من الصناع المهرة والمشهورين فى تلك الفترة وما يؤكد ذلك توقيعه على مبخرة مصنوعة من خليط معدنى ومكفتة بالفضة والنحاس الأحمر^(٧٤) ومؤرخة فى : ٦٢٨-٦٣٨هـ / ١٢٣٠-١٢٤٠م وقد ورد توقيعه محددًا مدينة دمشق كمركز صناعى فى شريط كتابى بالمفصلة يشتمل على سطرين كتابين من الخط النسخى نصهما : «١- صنعه محمد بن ختلخ

٢- الموصلى بدمشق»^(٧٥) (لوحة ١٣ ، شكل ١٢) بالإضافة إلى توقيعه على آلة فلكية مصنوعة من النحاس الأصفر المكفت بالذهب والفضة حيث جاء توقيعه فى ثلاثة أسطر بنحو : « ١- صنع محمد ٢- بن ختلخ الموصلى ٣- فى سنة ٦٣٩ / [١٢٤٢-١٢٤٣م] »^(٧٦). (لوحة ١٤ ، شكل ١٣) .

ويمكن القول أن تفوق الصناع المواصله فى صناعة التحف المعدنية وانتاجهم سواء فى مدينتهم الأولى الموصل أو مواصله إنتاجهم فى مدن بلاد الشام ومصر بعد هجرتهم واستقرارهم بتلك المدن متأثرين بتقاليد بيئتهم الأولى بالإضافة إلى استفادتهم بالتقاليد المحلية للمدن الجديدة التى عاشوا فيها واكبه ظهور صناع محليين من تلك المدن أثبتوا قدرتهم الصناعية والفنية فى منافسة الصناع المواصله ولقد بزغ نجم عدد من هؤلاء الصناع فضل الرحيل إلى البلدان المجاورة فعملوا واستقروا فيها والبعض الآخر أثر الاستقرار فى أوطانهم . ومن هؤلاء الصناع المحليين الذين أثبتوا قدرتهم الفنية أمام الصناع المواصله الصانع أبو القاسم بن محمد الأسعردى الذى ينتسب إلى مدينة أسعرد التى تقع بين مدينة طنزة ، ومدينة حيزان بديار بكر^(٧٧) .

وهو من الصناع الماهرين الذين ذاع صيتهم فى ديار بكر وانتسبوا إلى مدينة أسعرد وورد توقيعه على مقلمتين من النحاس المكفت بالفضة^(٧٨) على النحو التالى : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد الأسعردى فى سنة أربعة وثلثين وستماية»^(٧٩) (لوحة ١٥ ، شكل ١٤) كما ترك توقيع آخر على مقلمة ثانية نصه : «عمل أبو القاسم بن سعيد بن محمد أسعردى فى سنة ثلث وأربعين وستماية»^(٨٠) . (لوحة ١٦ ، شكل ١٥) .

وأيضاً الصانع الشهير عبد الكريم المصرى من الصناع النابغين الذين بلغت شهرتهم درجة كبيرة ولد وعاش عبد الكريم^(٨١) بمصر ثم رحل للعمل ببلاد الشام واتخذ لقب النسبة «المصرى» وعندما عمل فى خدمة الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بدمشق وديار بكر نعت الملكى الأشرفى ووقع على منتجاته الفنية : «الملكى الأشرفى» وما يؤكد ذلك هو العثور على آلة فلكية من إنتاج هذا الصانع مؤرخة لسنة ٦٢٥هـ . / ١٢٢٨م يقرأ النص التالى عليها : «الملكى الأشرفى الأسطرلابى»^(٨٢) .

ثم عمل فى خدمة «الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب» صاحب حلب، والمعروف أن لقب «أتابك الملك العزيز ومريده» هو شهاب

الدين، فقد حمل الصانع نعت «الملكى المعزى الشهابى» ولايستبعد أن يكون الصانع قد عمل فى خدمة الإثنين خاصة وأنه يستشف من بعض الروايات التاريخية أنهما قد جمعتهما علاقات طيبة ظهر بعضها فى حوادث سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م^(٨٣).

وما يؤكد ذلك أسطراب من النحاس الأصفر المكفت بالنحاس الأحمر والفضة والمؤرخ فى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م^(٨٤). (لوحة ١٧).

ويعتبر هذا الأسطراب^(٨٥) من الأسطرابات الفريدة حيث يحتوى على العديد من المعلومات الهامة مثل : اسم الصانع ، موطنه ، أسماء وألقاب السلاطين فى هذه الفترة، التاريخ بالحروف^(٨٦). (شكل ١٨).

وإذا كان عبد الكريم المصرى قد رحل من مصر إلى حلب للعمل هناك فإن على بن محمد النصيبينى قد ترك مدينة نصيبين فى بلاد العراق فرارا من هجمات المغول الذين استولوا عليها فى سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م واتجه إلى مدينة قونية حيث صنع بها لبة معدنية مزخرفة بالزخرفة النباتية الدقيقة الأرابيسك^(٨٧) كما ترك توقيعها يقرأ على النحو التالى:

«عمل على بن محمد النصيبين بمدينة قونية فى سنة تسع وسبعين وستماية»^(٨٨). (شكل ١٩).

وهذه التحفة صنعت فى حكم السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو الثالث الذى حكم فى سنة ٦٦٥-٦٨٤هـ / ١٢٦٦-١٢٨٥م^(٨٩).

ومن صناع المعادن المواصلة الذين ظهوروا فى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى وخلفوا ورائهم توقيعاً واضحاً الصانع «أحمد بن باره الموصلى» الذى كان إنتاجه سابق بسنوات قليلة منتجات الصانع الشهير محمد بن سنقر وإن كان يظهر التشابه فى أسلوبيهما وطريقة توقيعيهما على منتجاتهما ، وقد وصلنا توقيع أحمد بن باره على الحلقة البارزة التى يغلق منها صندوق مصحف خشبى مصفح بطبقة من النحاس المكفت بالفضة^(٩٠) ويتضمن اسم الصانع أحمد بن باره الموصلى وتاريخ صناعة الصندوق يقرأ : «من صنعة أحمد بن باره الموصلى فى شهر سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة [١٣٢٣م]^(٩١). (شكل ٢٠).

كما يضم هذا الصندوق بين كتاباته نصاً باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون^(٩٢).

ومن أشهر الصناع الذين تركوا بغداد وقدموا للعمل فى القاهرة فى أعقاب غزو المغول لها

فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م الصانع محمد بن سنقر^(٩٣) البغدادى وهو من أشهر صناع المعادن فى عصر المماليك، وقد ساعد على هذه الشهرة ارتباطه باسم السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الذى كان من أكثر سلاطين المماليك حبا للفن ورعاية للفنانين ، ومن أشهر أعماله كرسى عشاء معدنى مكفت بالفضة^(٩٤). (لوحة ١٨ أ، ب).

نقش الصانع توقيعاً عليه فى الزوايا الست التى تعلو أرجله مباشرة ويقرأ كالاتى: «عمل العبد الفقير الراجى عفو ربه المعروف بابن المعلم^(٩٥) الأستاذ^(٩٦) محمد بن سنقر البغدادى السنكرى^(٩٧) وذلك فى تاريخ سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فى أيام مولانا الملك الناصر عز نصره»^(٩٨). وصياغة التوقيع اتخذت أسلوب الترجمة لما يشير إلى أنها كتبت على لسان الصانع نفسه ويخط بده خاصة وإن الخط الذى كتب به التوقيع يماثل الخط الذى نفذت به الكتابات على الكرسى وقرصته وبالتالي يمكن القول بأن الصانع محمد بن سنقر كان يجيد فن الكتابة إلى جانب مهارته فى صناعة المعادن كما يدلنا وضع التوقيع فى هذا الجزء أسفل الكرسى على أن الصانع يوقع أسفل عمله وكأنه كاتب مشهور يضع توقيعاً فى ختام رسالته أو كتابه أو كأنه مصور ذائع الصيت يزود رسومه بتوقيع الذى يضاعف من قيمة عمله الفنى، وعن تلقب الصانع محمد بن سنقر بالبغدادى فإنه لا يدل على صنعه الكرسى ببغداد بل يستشف من توقيع أنه قام بصنعه بالقاهرة فى عصر الناصر محمد كما أنه من المستبعد أن ينتسب الصانع إلى بغداد وهو مقيم بها، وإنما تكون النسبة إليها أكثر ملاءمة عند ابتعاده عنها ومعيشتها فى بلد آخر بالإضافة إلى هذا لم تكن صناعة المعادن المكففة بالعراق فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بهذه الفخامة التى تميز بها أسلوب ابن سنقر على كرسى العشاء وذلك لتخريب المغول لمدن العراق وضعف صناعة التكفيت بها منذ منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى^(٩٩).

وبذلك يمكن القول أن أصحاب الحرف والصناع فى مصر وبلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين كانوا من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة فقد بقيت طوائف العمال والحرف تسير على نفس النظم والطرق الصناعية التى كانت مستعملة فى الفترة من القرن الرابع حتى السابع الهجرى / العاشر إلى الثالث عشر الميلادى^(١٠٠).

كما كان الصناع ينتظمون فى طوائف تحمى حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل بحيث كان لها نظمها وتقاليدها التى يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها^(١٠١).

وكان أرباب الحرف والصناعات ينقسمون فيما بينهم إلى تخصصات حرفية متنوعة تعج بها أسواق المدن الإسلامية ولقد أسهمت دراسة الكتابات والنقوش الأثرية على التحف والآثار الإسلامية في التعرف على العديد من التخصصات التي كانت تضمها الحرفة الواحدة كما كان أصحاب الحرف والصناعات يعيشون داخل المجتمع الإسلامي ضمن تكتلات مهنية ، فلكل صناعة أو حرفة طائفة ترعى مصالحها برئاسة شيخ الصناعة (١٠٢).

الشيخ (١٠٣): كان يرأس كل طائفة شيخ ينتخبه الأساتذة من رجال الحرفة وبذلك يصبح حاكم الحرفة ويعاونه رئيس رامين صندوق ، وكاتب والشيخ موجود في جميع الطوائف الإسلامية ، ويلي الشيخ الاختيارية أو المسنون بين أساتذة الطائفة وهم يتعاونون معه على إدارة الطائفة (١٠٤).

يلي الشيخ في المكانة : الأستاذ (١٠٥) ويدعى عادة أسطى أو أحيانا المعلم وهم يشكلون القسم الرئيسي من الطائفة أما العامل فليس له دورا هاما في الطوائف الإسلامية ولاوجود له عادة، إذ أن الانتقال من مبتدئ إلى أسطى يتم رأسا، وقد حرف لقب أستاذ لأصحاب الحرف إلى أسطى (١٠٦).

كما كان تنظيم طوائف صناع التحف المعدنية في القرن ٧هـ / ١٣م بحيث ازدهر هذا النظام في العصور الإسلامية ازدهارا عظيما وساهم بأوفر نصيب في تقدم صناعة التحف المعدنية. ونستفيد من دراسة توقيعات صناع التحف المعدنية التي وصلتنا في تلك الفترة أن نتعرف على التخصصات الدقيقة التي كانت تضمها الحرفة ويمكن تقسيمها إلى:

١- الصفارون : وهو صانع الصفر (١٠٧) والأدوات النحاسية ، ولقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى وجود بعض مسابك النحاس (١٠٨) في مدينة الفسطاط بمصر وفي ذلك دلالة واضحة على عراقة هذه الصناعة في مصر في العصر الإسلامي (١٠٩) كما جرت العادة أن يتجمع النحاسون في سوق واحدة أو حتى واحد في المدن الكبرى ، ولهذا كان الحى يعرف بهم كما كانت بعض المؤسسات الموجودة فيه تنسب إليهم فقد عرف في كل من القاهرة وحلب مثل: سوق النحاسين، وحمام النحاسين، وخان النحاسين (١١٠).

٢- النقاشون (١١١): أطلقت كلمة النقاش على الحفار سواء في الرخام والحجر والجص والخشب والمعدن والفخار ، وبصفة خاصة أطلق لقب النقاش على الحفر في المصنوعات المعدنية المتنوعة ولدينا مجموعة من التحف المعدنية في القرن ٧هـ / ١٣م، لم تخلو من كلمة «نقش أو النقاش» (١١٢).

٣- المكفتون : (المطعمون) : المكفتون أو الكفتيون^(١١٣) الذين يكفتوا الأواني المعدنية من الطسوت والمباخر والزهرات والشماعد والأباريق بالفضة والذهب كما وردت صيغة «المطعم» بدلا من «المكفت» على بعض التحف والمعروف أن المطعم هو الذى يشتغل بحشو الخشب بمادة أغلى مثل سن الفيل أو العاج أو الصدف وإن كانت تطلق كذلك على من يشتغل بحشو المعدن كالنحاس بمعدن أثمن مثل الفضة^(١١٤).

٤- الأسطرلابيون (الاسترلابيون، الاصطرلابيون)^(١١٥). كان الأسطرلابيون عالمين بعلوم الفلك ، يصنعون آلاتهم الفلكية بأنفسهم كما كان يفعل منجموا الفرس ، ولذا فقد كانت آلاتهم فى غاية الدقة والاتقان ، ومن الصعب أن نضع قاعدة عامة للمكان الذى اصطلح الأسطرلابيون أن ينقشوا فيه توقيعاتهم على ظهر الأسطرلاب^(١١٦).

ولقد كان الاتصال قويا بين مصر والشام فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بحيث لانستطيع أن نضع حدا فاصلا بين المنطقتين ذلك أن الصناع والفنانين تنقلوا بين المنطقتين واشتهر منهم مجموعة وصلت إلينا أعمالهم الفنية تحمل توقيعاتهم^(١١٧).

أما عن مراكز صناعة التحف المعدنية فقد أفصحت توقيعات الصناع عن أشهر مراكز صناعتهم حيث كانت المراكز الصناعية الأساس الذى قامت عليه التجمعات الحضرية فكان يهوى إليها الصناع والعمال والحرفيون من كل صوب كما يرد عليها كثير غيرهم ممن يتاجروا فى المواد الخام التى تحتاجها حرف وصناعات هذه المراكز فيحملونها إلى الأسواق المختلفة ، ووردت فى توقيعات صناع التحف المعدنية أسماء بعض المراكز الصناعية التى بلغت درجة كبيرة من الازدهار من بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، وتصدرت قائمة المراكز الصناعية مدينة الموصل التى تفوقت فيها صناعة التحف المعدنية وتكفيتها بالذهب والفضة ، وتعتبر صناعة التحف المعدنية فى الموصل من الصناعات القديمة التى كانت معروفة فى هذه الديار ، ونشطت فى الموصل فى القرنين السادس والسابع للهجرة الثانى عشر والثالث عشر للميلاد حيث كان الصناع المواصل قد جمعوا بين ما ورثوه من العناصر المحلية القديمة فى الزخرفة والنقش وما تأثروا به من الصناعات المجاورة لها ، وابتكروا عناصر جديدة فى الزخرفة والنقش وتنوع التكفيت فكان الطابع الموصلى هو الغالب عليها^(١١٨).

وتأثرت صناعة التحف المعدنية فى الموصل بما كان يصنع فى إيران وأرمينية كما تأثرت بالصناعات المحلية التى كانت معروفة فى هذه البلاد قبل الإسلام وبعده وذلك بفضل صناع

الموصل على هذه الصناعة حيث أنهم لم يكونوا مقلدين فحسب بل طبعوها بطابع خاص ، وتفننوا فى تنويعها رتهذيبها حتى صارت مدرسة الموصل قبلة مدارس العالم فى هذه الصناعة وكانت مصنوعاتهما من التحف المعدنية الثمينة التى يتسابق الملوك والأمراء وأرباب الثروة فى اقتنائها ، وتزين دورهم وموائد طعامهم وشرابهم بها^(١١٩).

كما أن طريقة التكفيت بالذهب والفضة فقد اقتصت بها مدينة الموصل لما ابدعته قريحة الفنان الموصلى حيث فاقت مدرسة الموصل غيرها فى هذه الطريقة وتفننت فى إخراج أجمل الأواني^(١٢٠).

يلى مدينة الموصل مدينة دمشق التى تعتبر مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى جعلت الصناع والفنانين يحرصون على كتابة اسم مدينة دمشق على القطع ترويجا لها ولعلها كانت المحطة الأولى التى استقر بها الصناع المواصله أثناء هجراتهم من الموصل إلى بلاد الشام ومصر^(١٢١).

ثم يلى مدينة دمشق مدينة حلب^(١٢٢) حيث كانت من المدن التى ساعدت على ازدهار صناعة التحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، وهى تعتبر من أهم المراكز التجارية والصناعية فى شمال الشام وكانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسى حتى نهر الفرات، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى، حيث تنقل السلع إلى موانئ البحر المتوسط. كذلك كانت حلب مركزا لتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام مارة إلى بغداد وفارس والهند داخل آسيا^(١٢٣).

وقيزت حلب بسرائرها الهائل على زمن الحروب الصليبية، وعمرت بالأسواق الواسعة والقياصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات إليها، وظلت محتفظة بأهميتها التجارية حتى الغزو المغولى^(١٢٤).

يلى مدينة حلب مصر المحروسة حيث سميت مصانع الفسطاط بـ «المسابك» ف قيل «مسابك النحاس» ، و«مسابك الفولاذ» ونحو ذلك ، والذي لاشك فيه أن المسابك كانت قائمة بالفسطاط وتنتج من الخامات المعدنية المصهورة، والمسبوكة ما كان صناع المعادن فى مصر فى حاجة إليه لعمل العديد من الأسلحة والآلات الحربية، علاوة على الأدوات المنزلية والتحف المختلفة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى وجود هذه المسابك بالفسطاط . ومن المعروف أن بمصر معدن الذهب والفضة والزمرد فى جبل عند «أسوان» لا يشاركها فيها بلد، كما أن بها الحديد

والنحاس وغير ذلك ، والواقع أن الشماعد والمباخر والأدوات المعدنية التى ترجع إلى بداية العصر الإسلامى ، والتى كشفت نماذج منها فى حفائر الفسطاط لا تختلف كثيرا فى شكلها وزخارفها عما كان معروفا فى مصر قبل الفتح العربى مما يجعل التمييز بينها وبين ما أنتج فى العصر القبطى من تحف معدنية ليس من السهولة بمكان (١٢٥).

لاشك فى أن إنشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتى سميت «الصناعة الكبرى» فى عهد الأخشيذ أحدث نشاطا فى حركة الصناع والحرفيين وغيرهم من صانعى مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال. كما أنشئت مسابك النحاس بالفسطاط حيث وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالفسطاط ، وسوق النحاس التى كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص، وقد حفلت بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التى تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأواني المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس ولاشك أن الفسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء من صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف (١٢٦).

ويعتبر أكثر ما صنع فى الفسطاط من تحف معدنية كان فى العصر الفاطمى الذى شهد ازدهارا حقيقيا فى هذه الصناعة ساعد عليه كثيرا هجرة عدد كبير من صناع المعادن الموصلة إلى مصر منذ بداية القرن ١٧ هـ / ١٣ م ، ونقلهم خبرة مدرسة الموصل إلى الفسطاط حتى بلغت الصناعة المعدنية فى الفسطاط غاية نضوجها فى العصرين الأيوبي والمملوكى حيث كانت صناعة المعادن - فى بعض حالاتها - مشاركة بين المسلمين واليهود فى الفسطاط (١٢٧).

وهكذا عمل الصناع فى مدينة الفسطاط على إنتاج قطع النحاس كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأواني المنزلية (١٢٨).

بليها مدينة القاهرة التى أصبحت بعد قرن واحد على الأكثر مركزا عمرانيا هاما سرعان ما أسست فيه حياة مجتمع ما بكل طبقاته ومتطلباته ، فانتشرت فى أرجائه أنشطة حرفية وصناعية مختلفة منها صناعة التحف المعدنية التى راجت رواجاً كبيراً خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. والواقع أن صناعة التحف المعدنية بمختلف أنواعها كانت من أكثر الصناعات رواجاً وازدهارا فى مدينة القاهرة، يدل على ذلك ما وصل إلينا من القطع المعدنية التى لازالت محفوظة فى بعض المتاحف العالمية بالإضافة إلى ما ورد فى هذا الصدد

من كتابات تاريخية حيث يذكر «المقرئى» عن أسواق القاهرة فى العصر المملوكى «إن سوق الكفتين كان الموضع الذى يشتمل على كثير من التحف المعدنية المكففة بالذهب والفضة»، وكذلك كانت بعض الورش فى سوق السروجين مخصصة فى بيع المهاميز واللجم والسروج المكففة بالإضافة إلى سوق السلاح الذى كان يتلىء بمختلف أنواع الأسلحة والدروع والحراى والزرد والخوذات والسيوف ويلط القتال (١٢٩).

ثم مدينة أسعد (١٣٠) التى كانت مركزا هاما من مراكز صناعة التحف المعدنية فى العصر الأيوئى فقد اشتهرت بمنتجاتها المعدنية لدرجة جعلت الصناع والنقاشين ينتسبون إليها. وقد وصلنا من آثارها المادية ما يحفظ هذه المدينة ويسطر اسمها فى سجل المدن المنتجة للتحف المعدنية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وكذلك من بين الصناع الذين انتسبوا إلى أسعد الصناع : «سعد الدين الأسعدى» (١٣١).

وأخيرا فإن توقيعات صناع التحف المعدنية من بداية القرن ٧هـ / ١٣م وحتى الربع الأول من القرن ٨هـ / ١٤م قدنا بالعديد من المعلومات النادرة عن الصناع وأساليبهم الصناعية والفنية وتلاميذهم وغلمانهم والعلاقات الأسرية والمهنية التى جمعت بينهم بالإضافة إلى رعاة الفن من الحكام والأمراء وأيضا فى التعرف على المراحل الصناعية التى تمر بها التحفة حتى تصل إلى شكلها النهائى ودور المشاركين فى صنعائها خاصة وأن بعض التحف كان يشارك فى صنعها أكثر من شخص، يقوم كل شخص بتنفيذ الجزء الذى يخصه فى التحفة ويمكن تلخيص ذلك على النحو التالى:

أولا: الصفار: وهو الذى يقوم بعمل التحفة وصقلها .

ثانيا : يقدمها إلى الأستاذ الذى يعمل عنده فيتولى الأخير نقشها أو يكلف أحد النقاشين الذين يعملون تحت يده، ويتدربون عنده فينقش عليها الزخارف والتصاوير والكتابات التى تناسب من تعمل له التحفة.

ثالثا: النقاش : وهو من يقوم بحفر ما نقش وصور وأحيانا يكون النقاش هو نفسه الأستاذ أو أحد تلاميذه أو من تدربوا على يديه.

رابعا : المكف أو المطعم : الذى يقوم بملء ما حفر على التحفة بالذهب والفضة لكى تظهر النقوش والكتابات واضحة. وفى بعض الأحيان أتقن بعض النقاشين الصنعة وأصبحت لديهم

المقدرة على تنفيذ جميع الخطوات مع الأخذ فى الاعتبار أن أسرار صناعة التحف المعدنية كانت تدرس عمليا وتلقن شفويا بين جدران المصانع فالابن يمارس حرفة أبيه أو قريب له الذى يبدأ عادة فى تعلمها منذ الطفولة ، ولذلك حرص الصناع على تزويد أعمالهم بتوقيعاتهم التى أصبح لها دلالات معينة تتمثل فى:

- ١- اعتزاز الصانع بصناعته وبإنتاجه وبما وصل إليه من مكانة زملائه .
- ٢- الإشارة إلى تخصصه الدقيق فى الحرفة.
- ٣- توضيح مكانة الصانع بين أقرانه كأن يذكر قوله «المعلم، أو الأستاذ، أو شيخ الصنعة».
- ٤- الانتساب إلى وطنه الأصلى على نحو قوله : «البغدادى ، الموصلى ، المصرى، الأسعردى».
- ٥- إثبات العلاقات الأسرية والمهنية بين الصناع بعضهم ببعض مثل علاقة الأخوة وعلاقة التلمذة وعلاقة الغلمنة وعلاقة الأجرة، وغيرها من العلاقات التى يمكن التعرف عليها من خلال توقيعات صناع التحف المعدنية المصدر الرئيسى فى دراسة التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة وفى الفترة موضوع الدراسة بصفة خاصة.

الهوامش

١- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي ، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، ص ٥٤ ، ٦٨ .

٢- فقد عرف من قبل عن اشتراك أفراد من عائلة واحدة هم «بنو عبد المؤمن» في تجارة القماش في الفيوم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كما اشتهرت كذلك أسرة مصرية عرفت «ببني المعلم» اشتغلت بالتصوير في بداية العصر الفاطمي ، ونبتت فيه، وانجزت أعمالاً اعتبرها المصورون في عصرهم من العجائب كما تتلمذ عليهم مشاهير المصورين الذين تعلموا عنهم أسلوبهم وساروا على نهجهم .. راجع : حسين رمضان ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر الإسلامية ، دكتوراة مخطوطة ، ١٩٨٧، ص ٢٤٧ .

٣- ولقد كانت الحرف والصناعات تخضع لإشراف الدولة من خلال المحتسب الذي كان يعين لكل طائفة من الصناع عريف مشهود له بالثقة والأمانة يشترط فيه أن يكون على دراية ومعرفة تامة بأمور الحرفة التي يشرف عليها ومهمته اطلاع المحتسب على أخبار أهل صنعته ويدله على مواطن الغش والتدليس التي يلجأ إليها أحياناً أصحاب الحرفة. وكان لتلك الوظيفة أثر بعيد في نضوج الصناعات الإسلامية ويكفي الإشارة إلى أن أهم أعماله إشرافه على الصناعات جميعاً ، إذ كان يرسم للصانع طريقة العمل بإرشاد شيوخ الصنعة كما يحدد له الهدف الأسمى الذي ينبغي أن يتجه إليه وهو اتقان العمل والاخلاص فيه. راجع : عبد الرحمن بن نصر الشيرازي، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٦ ، السيد الباز العريني، الحسبة والمحتسبون في مصر ، المجلة التاريخية المصرية، ج ٣، العدد ٢، ١٩٥٠م، ص ١٥٧ ، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ١ ، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ج ٣ ، ص ١٠٢٧ ، محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل عصر الفاطميين، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م، ص ٩ ، الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٤٠-٤١ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ١٩٩١م، ص ١٠٧ .

٤- راجع : زكي حسن، فنون الإسلام، القاهرة ، ١٩٤٨م، ص ٥٤٢ .

٥- وهناك بعض الصناع الذين واصلوا انتجائهم الفني بمدينة الموصل منهم: أحمد الدقلى الموصلى من الذين عاشوا في القرن السابع للهجرة في الموصل . ومن أعماله : إبريق من النحاس المكفت بالفضة ، ومزين بعدة صور آدمية ، وزخارف هندسية ، وكتابات متنوعة نسخية وكوفية ، والتصاوير التي تزينه

تكون داخل جامعات تحف بالإبريق ، وكتب على الإبريق : « صنع على يد أحمد الدقلى سنة ثلاثة وعشرون وستماية فى الموصل » . كما يعتبر يونس بن يوسف من الصناع البارعين الذين اشتهروا خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بمنتجاتهم المعدنية التى حملت العديد من الزخارف والتصاویر ، ومن أشهر أعماله : إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ : ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م . ومن بين زخارف الرقبة شريط من الكتابة النسخية على أرضية نباتية تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصناعة ويقرأ على النحو التالى : « عمل يونس ابن (بن) يوسف النقاش الموصلی سنة أربعة (أربع) وأربعين وستماية » راجع : زكى حسن ، فنون الإسلام ، ٥٤٤ ، سعيد الديوه جى ، أعلام الصناع المواصله ، الموصل ، ١٩٧٠ ، ص ٧٢-٧٣ .

٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي ، ج ١ ، ص ٩١ .

٧- محفوظ فى متحف اللوفر رقم : K3435 راجع Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork, II, BSOAS, 1953 , pp. 69-78 ; Migeon G., Manuel d'art musulman , Paris , 1927 , p. 54 .

٨- تلميذ : كلمة معربة عن السريانية ، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ ، وربما أطلقت على الموظف الذى لا يزال يتدرب على يد رئيسه : راجع : حسن باشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م ، ص ٣٢٨ .

٩- محفوظ فى "Chester Beatty Library , Dublin , No. 3130"

١١- يوجد فى نهاية الصفحة الأخيرة طمس كبير لنص يفيد بإهداء هذا المخطوط إلى الجامع الأقصى بالقدس كما يوجد فى ظهرها كتابة مضافة بخط آخر من وقعت المخطوط فى حوزته بالإضافة إلى أسماء الشيوخ الذين شاركوا فى السماع ويؤكد "David James" أنه من بين أسماء الشيوخ التى وردت اسم الشيخ الامام العالم أمين الدين أبو اسحق ابراهيم بن على بن حسين بن جرى الموصلی النهاوى وهذا يعنى ظهور اسم ابراهيم الموصلی بجانب صانع المعادن الشهير وأستاذ الصانع اسماعيل بن ورد لكن لم تثبت علاقة بين الاثنين وعلى أية حال فقد قام بعض الصناع والفنانين فى خلال القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى بإتقان أكثر من مهنة صناعية مثل الصانع اسماعيل بن ورد الذى أجاد الكتابة إلى جانب تفوقه فى صناعة المعادن راجع : David J., An Early Mosul Metalworker Some New information , Oriental Art, N.S 26 1980 pp. 318-321 .

١١- راجع : David J., An Early Mosul Metalworker ., pp. 318-321 .

١٢- محفوظ فى متحف Kevorkian of New York

١٣- راجع : Rice D.S. Studies in Islamic Metalwork , II, BSOAS, XV/1 , 1953 , pp. 66-

68 , Atıl E., chase, W.T., paul Jett, Islamic Metalwork in the Freer Gallery of Art Washington, 1985 , pp. 117-123 .

١٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي، ج ١ ، ص ١٩٢-١٩٦ .

١٥- الغلام فى أصل اللغة هو الصبى الصغير ويجمع على غلمان وغلم ، ثم صار اللفظ يطلق على المملوك الصغير السن أو الذى لم يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم استخدم لفظ الغلمان فى الدولة العباسية والدول الإسلامية على المقربين من الممالك الذين كانوا يقومون بخدمة مولاها ورعاية قصره، ويعهد إليهم بتنفيذ أوامره . راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٩٦ - ٧٩٨ .

١٦- راجع : Atıl E., and Others , Islamic Metalwork., pp. 117-123

١٧- كما هو معروف أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف والد الملك العزيز لما اشتد به المرض عهد بالملك من بعده لولده الصغير «محمد» ولقبه «العزيز غياث الدين وعمره ثلاث سنين كما جعل أتابكه ومربيه ، خادما روميا واسمه «طغرل» ولقبه «شهاب الدين» فكان هذا الأمير مدبر دولته وقد تولى حكم البلاد نيابة عنه بين سنتي (٦١٣-٦١٦هـ / ١٢١٦-١٢١٩م) راجع المقرئى «تقى الدين أحمد بن على بن أحمد» ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق / محمد مصطفى زيادة ، ج ١ ق ١ ، ٢ ، القاهرة ، ١٩٧١م، ج ٢ ، ق ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص ٢٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

١٨- راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , III , BSOAS, 1953 , pp. 69-70 .

١٩- راجع : عبد العزيز صلاح، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

٢٠- من المحتمل أن يكون شجاع بن منعة من أبناء يونس بن محمد بن منعة بن مالك- رضى الدين الاربلى ٥٠٨-٥٧٦هـ / ١١١٤-١١٨٠م الذى يعتبر أول من سكن الموصل كما خرج من بيته جماعة من الفضلاء انتفع بهم أهل البلاد كما كانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها وبقيت أسرهم مشهورة بالعلم إلى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر الميلادى، وكان منهم شجاع الصانع المشهور الذى تتلمذ على يديه عدد من صناع التحف المعدنية . راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلة، ص ٩٦-٩٧، الموصل . ص ٥٦-٧٤ .

- ٢١- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلات ، ص٩٦-٩٧ ، الموصل ، ص٢ ، ٥٦ ، ٧٤ .
- ٢٢- المقاييس : الإرتفاع : ٢٩سم، القطر : ١٤سم ، محفوظ فى المتحف البريطانى بلندن : و ٦٠ :
British Musseum OA 1866 . 12 . 29 . 61 .
- ٢٣- راجع : Lane - Poole , The Art of the Saracens in Egypt, London, 1888, p. 170 ; Wiet :
G., Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe, IFAO, Le Caire, 1941-42 , p. 29 ;
Hayward G., The Arts of Islam, 1976, p. 179 , Atil E., Chase W. T., Jett p., Islamic
Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 18-19 .
- ٢٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي، ج ١ ، ص١٠٦-١١٣ .
- ٢٥- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ١٥١٢١ وهو شمعان من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ،
مؤرخ فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى، راجع سعيد الديوه جى ، أعلام صناع
المواصلات، ص٩١ .
- ٢٦- الثابت على التحف المعدنية الإسلامية بصفة عامة ورود كلمة «طعم» أو «المطعم» فقد وردت كلمة
«المطعم» خلال القرن ٧هـ ١٣م وكدها الرحالة وتوقيعات الصناع راجع : Mayer L.A., Islamic As-
trolabists and their works, Genève, 1956 , pp. 40-41. ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٣ ،
١١٠٨-١١٠٧ ، حسين عليوة ، المعادن ، ص٣٧٨-٣٧٩ ، عبد العزيز صلاح، دراسة بعض التحف
المعدنية الإيرانية المكفتة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦هـ / ١٢م إلى
بداية القرن ٧هـ / ١٣م ، ندوة شرق العالم الإسلامى ، كلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٩٨م،
ص٧٣٧-٧٥٦ .
- ٢٧- راجع: المقرئى، الخطط، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
- ٢٨- منها سطل من الهرميتاج عليه توقيع الصانع «محمد بن ناصر بن محمد» وأبريق عليه توقيع
الصانع «محمود بن محمد الهاراتى» مؤرخ فى سنة / ١١٨١-١١٨٢م راجع:
Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., p. 106 .
- ٢٩- طول المقلمة ٤ ، ٣١ سم والارتفاع : ٥ سم والعرض : ٤ ، ٦ سم ومحفوظة بمتحف الفرير جاليرى
بواشنطن راجع : Herzfeld E., A Bronze pen - Case , ARS Islamica, vol . III, part I,
1936 , pp. 35 .

٣٠- صاحب القلمة هو مجد الملك وزير خوارزم شاه علاء الدين محمد الذي أسس مكتبة في مدينة ميرفى

وتوفى في سنة ١٢٢١م خلال الغزو المغولي على هذه المدينة . راجع : Atil A . and Others Islam-

ic Metalwork in the Freer Gallery of Art, p. 105 .

٣١- راجع . Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery., p. 102

٣٢- الطول : ٢٢, ٢ سم . العرض ٥, ٣ سم كانت محفوظة في مجموعة عطا محمد النقشبندى بهراة Al-

lan J.W., Metalwork , Treasures of Islam , Wellfleet Press, 1985 , p. 258 , Fig 265 .

٣٣- راجع : Malikian - Chirvani A.S., Islamic Metalwork ., pp. 114-117 .

٣٤- راجع : Atil and Others, Islamic Metalwork in the Freer Gallery ., pp. 106-107 .

٣٥- Rice D.S, Inlaid Brasses from the Workshop of Ahmed al-Dhaki al-Mawsili, ARS

Orientalis, vol . II, 1957 , p. 284 ., Barrett Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949 , p. 14 .

٣٦- إبريق من النحاس الأصفر المكفت بالفضة مؤرخ في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م . محفوظ : متحف

كليفلاند Cleveland Museum of art

٣٧- راجع : Rice, Inlaid., pp. 283-301 .

٣٨- حسين بن قاسم: هو صانع أضاف اسمه بجوار اسم الصانع المشهور «أحمد الذكى النقاش» وربما كان

ابنا للصانع «قاسم بن على الموصلى» أحد الصناع الذين أخذوا عن الصانع المعروف «ابراهيم بن

مرواليا» . راجع العبيدى، التحف المعدنية، ص ٤٠ . , Rice Inlaid , pp. 283-301 .

٣٩- محفوظ في متحف اللوفر رقم ٥٩٩١ . راجع : Wiet G., Répretoire., XI, p. 116 ; Art de

l'Islam des origines , A 1700 dans les collection publiques Francaises , 1971 , pp.

103-104 Arabesque et Jardins de paris , Hayword, Gallery , the Arts of Islam , 1976 ,

p. 181 ., Collections francaises d'art islamique , Musée du louvre , Paris, 1989 -

1990 , p. 239 .

٤٠- راجع : Rice, Inlaid ., pp. 283-301 .

Homberg collection .

٤١- محفوظ في متحف همبورج بأمریکا

٤٢- راجع : Rice, Inlaid, pp. 283-301 .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلات ، ص ٨٢ .

The Museum of Fine Arts, Boston.

٤٤- محفوظ فى

٤٥- Rice D.S, The Oldest dated 'Mosuu' candlestick A. D. 1225 , The Burlington magazine, 1949 , pp. 336-340 .

Rice D.S., Inlaid., pp. 316-318 .

٤٦- راجع :

٤٧- والنص يشير إلى الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل الذى حكم باليمن من سنة ٦١٢هـ إلى سنة ٦٢٦هـ / ١٢١٥-١٢٢٨م ، وظل بها حتى استيلاء بنى رسول على الحكم. ونخلص من ذلك إلى تقارب تاريخ صناعة هذا الشمعدان مع تاريخ حكم الملك المسعودى صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل الذى حكم باليمن حيث كان لقب «مسعود» لقباً له أثناء حكمه لليمن من سنة ٦١٢هـ-٦٢٦هـ / ١٢١٥-١٢٢٨م أى فى الفترة السابقة على حكم بنى رسول باليمن وفضلاً عن أن تاريخ صناعة الشمعدان تقع فى حكم الملك المسعود فقد كان هناك علاقات سياسية بين الأيوبيين فى اليمن ومصر والشام تؤكد الوحدة التى نجح «صلاح الدين الأيوبي» فى تحقيقها بين مصر والشام وبعض اقاليم العراق حيث الأتابكة من بنى زنكى وبنى ارتق حتى أن بعض أتابكة الموصل كانوا يسجلون أسماء سلاطين الأيوبيين على نقودهم تحقيقاً للعلاقات السياسية القائمة بين الموصل والقاهرة، راجع : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٤١-٧٤٢ ، العبيدى ، التحف المعدنية ، ص ٨٦ ، آمال العمرى الشماعد المصرية فى العصر الإسلامى منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى، ماجستير مخطوط ، ١٩٦٠م ، ص ٧ ، ٨ ، ٨١ .

Rice D.S., Inlaid ., p. 317-338 ; the Oldest ., p. 339.

٤٨- هو شقيق أهرىكر بن الحاج جلدك الموصلى ومن المعروف فى الموصل وبلاد الشام يقولون للحاج «حجى» . راجع سعيد الديوه جى، أعلام صناع المواصلات، ص ١٠٦ .

Metropolitan museum of art No, 91-1-586.

٤٩- محفوظ فى :

Rice, D.S., Inlaid., pp. 317-318.

٥٠- راجع :

٥١- السلطان الملك أبى المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى: هو صاحب دمشق ويذكر بن العماد الحنبلى أنه فى سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م. فتح له عسكره حمص ثم ملك دمشق ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، وتوفى فى شوال سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م. راجع : ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى

بن عماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٥ ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٩٩ . رامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى بيروت، ١٩٨٠م ، ص ١٥١ .

٥٢- محفوظ بمتحف اللوفر سجل رقم : ٧٤٢٨ .

٥٣- قرأ "Berchem" التاريخ على هذه القطعة على النحو التالى: «سنة تسع وخمسين وستماية» راجع Berchem M.V., Notes d'archéologie arabe , étude sur les cuivres Damasquinés et : les verres émailés, J.A., Tome III, 1904 , p. 22 .

٥٤- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي، ج ١ ، ص ١٧٠-١٧٢ .

٥٥- المقاييس : ارتفاع : ٢٢سم، القطر : ٢٥سم ، مشتراه فى ١٨٩٦م، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٦٥٧ .

٥٦- راجع : Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire. Objets en cuivre, Or- : aganisation égyptienne générale du livre, 1984, pp. 47-48 .

٥٧- ربما تشير هذه العبارة إلى حنين الصانع إلى موطنه ورغبته فى العمل بجوار أخيه على بمدينة القاهرة حيث تمتع أخيه بشهرة كبيرة وخدم الملوك والأمراء .

٥٨- هو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر السلطان الثانى فى دولة بنى رسول، كان رجلا حازما وخضعت له بلاد اليمن، وامتد نفوذه إلى مكة المكرمة. وبنى عددا كبيرا من المساجد ، خصوصا فى قرى تهامة ، كما شيد نحو ثمان مدارس باليمن. وقد مات غيلة على يد بنى ناجى أهل المخادر الذين قاموا بشرة ضد حكمه. راجع: محمد محمد سطيح، اليمن شماله وجنوبه، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٦٠ .

٥٩- أطلق على هذا الإبريق اسم إبريق مارسان "Marsan" لأنه وضع فى بداية الأمر فى مجموعة مارسان "Marsan" باللوفر وهو الآن بمتحف الفنون الزخرفية بباريس وارتفاعه ٤٠سم.

٦٠- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., pp. 17-19 .

٦١- هو المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مؤسس دولة بنى رسول فى تعز. وكان السلطان المسعود آخر سلاطين بنى أيوب قد أنابه على السكة والخطبة عندما توجه إلى مصر سنة ١٢١٩م ، وقد عمل على تمهيد الملك لنفسه ، فلما بلغه خبر وفاة السلطان مسعود بمصر سنة ١٢٢٩م أعلن سلطانه على بلاد اليمن وتلقب بالمنصور، بعد أن استمد النيابة من الخليفة الظاهر بن العباسى رأسا وقد خضعت له معظم بلاد اليمن. راجع : محمد محمد سطيح ، اليمن، ص ٦٠ .

٦٢- يحتفظ المتحف البريطاني بلندن بدرهم لهذا السلطان ضرب مدينة زبيد في سنة ٦٥٦هـ / ويحمل نفس الألقاب التي وردت على الابريق مثل : «السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور عمر». راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 17 . N.3.

٦٣- انتج الصناع المواصله بمصانع القاهرة مجموعة من التحف المعدنية التي حملت أسماء وألقاب السلطان اليمنى الملك المظفر يوسف ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م بعضها حمل توقيع الصانع وقد سبق ذكره بالنص والبعض الآخر جاء خاليا من التوقيع منها على سبيل المثال : صينية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وشمعدان بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصينية بـ "Collection marquet de vasse- lat" وطست بـ "Palais des arts, Lyon" ، وصندوق بالمتروبوليتان ، وشمعدان بـ "Musée des beaux arts de Lyon" راجع : Dimand M.S., Un Published Metalwork of the Rasiūlid Sultans of Yeman , The metropolitan Museum of art , vol . III, 1930 , pp. 229-230 ; Melikian - Chirvani A.S., L'art du métal dans les pays arabes, BMML, 1966 , pp. 46-48 ; Wiet G., Catalogue général., pp. 103-104 , 187 , 180 , 188 .

٦٤- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 21 .

٦٥- من المعروف أن مصر واليمن ارتبطا بعلاقات تجارية ساعدت على وجود علاقات سياسية طيبة بين القطرين خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. فقد كانت الحبوب والمنتجات اليمنية تحمل إلى مصر فى مقابل التحف الفنية التى اشتهرت بها مصر . راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquiné., p. 21 .

٦٦- سعيد الديوه جى ، اعلام صناع الموصل ، ص ٩٥ .

٦٧- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم : ٤٤١٤ .

٦٨- راجع : Berchem M.V., Etude sur les Cuivres Damassquinés., p. 25 ; Migeon G.; Manuel ., II, p. 52 ; Dimand M.S., Ahandbook of Muhammadan Art , New York , 1947 , p. 148 ; Rice D.S., The Oldest ., pp. 337-338 ; Arts de L'islam des origins, p. 106 ; Baer E, Ayyubid Metalwork., pp. 24-49 .

٦٩- متحف الفنون الزخرفية بباريس رقم ٤٤١١ الآن متحف معهد العالم العربى بباريس.

٧- راجع : Wiet G., Répertoire ., XI, p. 230 ; Migeon G., Manuel ., II, p. 52 ; Barrett : D., Islamic Metalwork ., p. XV; Rice D.S., Studies., OO, p. 65 ; L'Islam dans les Collesion Nationnales, p. 101 ; Arts de l'islam, p. 105 .

٧١- الأمير بدر الدين الشمسى الصالحى النجمى أحد ممالك الصالح نجم الدين أيوب البحرية تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة ، ولم يعرف عنه أنه شرب فى إثناء واحد مرتين وإنما يشرب كل مرة فى كوز جديد ثم لا يعاود الشرب منه ، توفى فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة . راجع : الدار البصرية . المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٩-٧٠ .

٧٢- وتوجد مبخرة كروية تحمل أسماء وألقاب الأمير بدر الدين بيسرى ومؤرخة فى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م. محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن راجع : Migeon G., Manuel .

٤٣- راجع : سعيد الديوه جى ، اعلام صناع المواصله ، ص ١٠٩ ، الموصل ، ص ٥٧-٥٨ .

٧٤- محفوظة فى مجموعة The Aron collection

٧٥- محفوظة - Allan J.W., Metalwork of the Islamic World, The Aron Collection , Sothe-by , 1986 , pp. 66-68 .

٧٦- Wiet G., Répertoire., X, p. 135; Rice : راجع The British Museum , No : 5-26-10 D.S., Inlaid ., p. 332 .

٧٧- راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مج ٢ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٤٩٤ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٧٤ ، ج ١١ ، ص ٩٤ ، ج ١٢ ، ص ٤٩٩ .

٧٨- له عمل ثالث عبارة عن شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (the Collection of F.R.,Lamm) راجع : Wiet G., Répertoire., XI, p. 29 ., Allan J.W., Islamic Metalwork p. 19 .

٧٩- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٥١٨٧ .

٨- مقلمة من النحاس المكفت بالفضة، متحف اللوفر بباريس رقم K: 3438

٨١- ومن الصناع الآخرين الذين حملوا اسم عبد الكريم الصانع ، « عبد الكريم بن الزين » الذى عاش فى القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر الميلادى ، ومن أشهر أعماله : ابريق من النحاس المكفت بالفضة، مؤرخ لسنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م، محفوظ بمتحف الاستانة باستانبول . ويرتبط بهذا الصانع صانع آخر مشهور هو « محمد بن الزين الموصلى » وهو من الأساتذة الماهرين فى صناعة النقش والتكفيت ومن

أشهر أعماله طست من النحاس المكنت بالفضة والذهب واستعمل هذا الطست في تعميد لوس التاسع ٦١٢-٦٦٩ هـ / ١٢١٥-١٢٧٠ م واشتهر باسم (معدانية سان لوس) ولقد ترك توقيعاً في ثلاثة مواضع منها توقيع داخل العناصر الزخرفية حيث يقرأ : «عمل ابن الزين» على الإناء في اليد اليمنى للشخص الجالس وكذلك على المقعد الذي يجلس عليه في مكان ظاهر (شكل ١٦ ، ١٧) وربما تعلم الصانع ابن الزين هذه الطريقة من الصانع علي بن حمود الموصلى الذي سبقه في التوقيع بهذه الطريقة فقد ترك توقيعاً على إحدى الجامات برقبة زهرية من النحاس المكنت بالفضة حيث يظهر جندي يحمل صندوق بيديه حفر عليه توقيع يقرأ : «عمل علي بن حمود» ، والزهرية مؤرخة في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م، محفوظة في "Museo nazionale, Florence" راجع : سعيد الديوه جى ، اعلام صناع الموصل ص ١١٠ ، Abouseif Doris- Behrens , The Baptistère de Saint Luis, Islamic Art , III, 1988-1989 , pp. 3-9 ; Rice D.S., Studies., III, p. 229 ., Wiet G., Un nouvel artiste de mossoul, paris, 1931 , pp. 160-162 .

٨٢- راجع : Mayer, L.A., Islamic Astrolabists., p. 29 .

٨٣- يذكر المقرئ في السلوك في حوادث ٦٢٠ هـ «زنه عندما أخذ المعظم عيسى المعرة وسليمة ونازل حماة شق ذلك على الملك الأشرف موسى وكان بمصر فتحدث مع السلطان «الكامل محمد» في إنكار ذلك فبعث السلطان الكامل إلى المعظم عيسى يسأله في الرحيل عن حماة فتركها وهو حنق ثم خرج الملك الأشرف موسى من مصر إلى بلاده ومعه خلع الملك الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزیز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازي فوصل حلب في شوال وتلقاه العزيز وعمره عشر سنين فأفاض الخلع الكاملة وحمل الغاشية بين يديه وأقام عنده أياماً : راجع : المقرئ في السلوك، ق ١-٢ حوادث ٦٢٠، ص ٢٥٠ .

٨٤- راجع : Lane - poole St. , The Art ., p. 177 ; Migeon G., Les Cuivres Arabs, Gazette de Beaux arts, 1900, p. 32; Berchem M.V., Etude sur les cuivres Damassquinés., p. 32 ; Migeon G., Mannuel ., II, p. 58 ; Wiet G., Répertoire., X, p. 45; Mayer L.A., Islamic Astrolabists and their Works, Geneva , 1956 , p. 29 .

٨٥- المتحف البريطاني رقم : No . 557-9 1

٨٦- راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٤ .

٨٧- المقاييس : الارتفاع ٢٠ سم، الرقبة ٨ ، ٦ سم ، القطر ١٨ سم ، محفوظة في Collection of the Etnografa Müzesi at Ankara No. 7591 .

٨٨- Rice D. S., Studies in Islamic Metalwork , BSOAS, XVII / 2 , 1955 , pp. 207-212 .

٨٩- كان أيضا الصانع : على بن محمد النصيبى من صناع الأخشاب فى قونية حيث صنع صندوق مصحف بأمر السلطان كيكافس الثانى ٦٤٤هـ - ٦٥٨هـ / ١٢٤٦ - ١٢٦٠م على يد وزيره الشهاب عطا والصندوق محفوظ بمتحف استانبول بتركيا راجع : Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , BSOAS, XVII/2 , pp. 207-212 .

٩٠- محفوظ بمكتبة الجامع الأزهر.

٩١- راجع : حسن عبد الوهاب ، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥ ، ص ٥٥٦ ، عبد الرؤوف على حسن ، تحف فنية ، ص ١٠٥ .

٩٢- راجع: حسين عليوه ، المعادن، القاهرة ، ص ٣٧٨ .

٩٣- يوجد صانع آخر يحمل اسم «محمود بن سنقر» اشتهر فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ومن أعماله مقلمة مستطيلة من الناحس المكفت تشتمل على رسوم الأبراج السماوية ومؤرخة فى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١-١٢٨٢م ، وربما كان الصانع الشهير محمد بن سنقر من نفس العائلة الفنية التى هاجرت من العراق فى أعقاب غزو المغول لمدينة بغداد . : Willy Hartner The Vaso Vescovali in the British Museum , Vunst des Orients, IXI/2, 1973 / 4 , pp. 109 - 110 .

٩٤- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم : ١٢٩ .

٩٥- من المعروف أن لقب «المعلم» كان يطلق على مهرة الفنانين والصناع ، وقد أطلق فى كتابة أثرية على صانع شمعدان كبير من البرونز صنع سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م للأمير قوصون فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ونقل إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة من مدرسة السلطان حسن راجع : حسن الباشا ، بينو المعلم، القاهرة ، ص ١٢٢ .

٩٦- الأستاذ : أستاذ كلمة فارسية معربة، «ومعناها : السيد أو المشهور بعمله كما استعملت كلمة أستاذ فى العربية بمعنى الماهر. راجع : القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ج ٣، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨ م ، ج ٣، ص ٤٨١ ، ج ٥ ، ص ٤٨٩ ، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والآثار ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م، ص ١٣٩-١٤٠ ، الفنون والوظائف ، ج ١ ، ص ٦٢-٦٣ .

٩٧- قرأها "Gaston Wier" على نحو «السنائى» وذكر أن الكلمة لاتزال غامضة ، وقرأها «زكى حسن» على نحو «السنائى» ومراجعة هاتين الكتابتين على التحفة «عبد الرؤوف على يوسف» تبين شرطة

حرف «الكاف» وكذلك حرف «الراء» وقد سقط عنهما تكفيت الفضة وبذلك تكون صحة القراءة «السنكري» أى صانع المعادن وهى لفظة مازلنا نستعملها إلى الآن مع غيرها من أسماء الحرف واصطلاحات الصناعة التى وصلت إلينا من عهد المماليك والتى تزخر بها حجج الأوقاف ووثائق هذا العصر ، ولفظة «السنكري» هى تحريف لكلمة «تكارى» الفارسية بمعنى صانع المعادن أو الحداد حيث يدل على تخصصه المهنى فى أعمال السنكرة التى يتسع مدلولها فى ذلك العصر ليشمل عددا من الأعمال الحرفية فى مجال صناعة المعادن وزخرفتها . وما يؤكد ذلك توقيع الصانع محمد بن سنقر على صندوق مصحف بمتحف برلين بالخط النسخى بحروف صغيرة فى سطرين يقرأ «عمل محمد بن سنقر البغدادي تطعيم الحاج يوسف بن الغوابي» وهذا التوقيع يكشف عن تخصصه بالسنكرة التى وردت على توقيعه على كرسى العشاء. راجع ، زكى حسن، فنون الإسلام، ص ٥٥٩-٥٦٠ ، عبد الرموف على يوسف ، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢ م، ص ٩٨-٩٩ ، هامش ١ ، حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناعات والفنانين ، ص ١٠٤ .

Wiet G., Catalogue général., p. 18 .

٩٨- راجع : حسين عبد الرحيم عليوه، دراسة لبعض الصناعات والفنانين، ص ١٠٣ .

٩٩- راجع : حسين عليوه ، محمد بن سنقر، القاهرة، ١٢٨-١٣٠ ، دراسة لبعض الصناعات والفنانين، ص ١٠٣-١٠٥ .

١٠٠- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامى، ص ١١١-١١٢ .

١٠١- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى، تاريخه ، وخصائصه ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ١٧٠ .

١٠٢- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ١ ، ص ٦٣٠-٦٣١ ، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى، ١٩٩١ م، ص ٢٦٤ .

١٠٣- يعرف الشيخ أيضا باسم أمين أو عريف وأحيانا نقيب، إذا اختفت رتبة النقيب يسمى الشيخ. راجع : حسن الباشا، الفنون والوظائف ، ج ١، ص ٦١ .

١٠٤- راجع أحمد رمضان ، المجتمع ، ص ١١٣ .

١٠٥- استعمل هذا اللفظ فى الدول الإسلامية بدلالات وظيفية مختلفة فمثلا جرت العادة فى بعض العصور على كل من اتقن مهنة وبلغ درجة رفيعة فيها سواء من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوى الحرف والصناعات والمهارات المختلفة كما استخدمت لفظة استاذ فى الدول الإسلامية وبخاصة

فى عصر السلاجقة للدلالة على بلوغ مرتبة رفيعة فى الدولة وكذلك للدلالة على الرئاسة وخاصة بين الموظفين من غير العسكريين الذين كان يصطلح على تسميتهم بأرباب الأقاليم بالإضافة لعادة السلاجقة أن يكون لكل سلطان أستاذ يشرف على تربيته وتأديبه فى الصغر . راجع : القلقشندى ، صبيح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، ج ٥ ، ص ٤٨٩ ، حسن الباشا . الألقاب ، ص ١٣٩-١٤٠ ، الفنون والوظائف ، ج ١ ص ٦٢ - ٦٣ .

١٠٦- حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ١ ، ص ٦٢-٦٣ .

١٠٧- الصفر : نوع من النحاس الأصفر أو الملاط الذى تصنع منه الأوعية والقدر . راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٠٥-٧٠٦ .

١٠٨- ضمت بعض نصوص البرديات العربية فى موضوعاتها لقب النحاس وما به تفاصيل دقيقة لأعمال النحاس وأيضا بعض أسماء الأدوات التى كان يستخدمها النحاس من قنور وقالب وأدوات ومسالك وأفران مع أسعار منتجاته وسائر الصناعات الأخرى النحاسية . راجع : سعيد مغاورى ، الألقاب والحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية ، دكتوراة ، ١٩٩٤م ، ص ٨٩١ .

١٠٩- وما لاشك فيه أن وجود هذه المسابك كان ضروريا لإمداد صناع النحاس بال خامات اللازمة من هذا المعدن لانتاج مختلف الصناعات المدنية من أدوات منزلية وكراسى العشاء وغيرها من الشماعد والتنانير والثريات وصناديق المصاحف والمحابر والأوانى والأباريق . راجع : عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية ، ج ١ ، ص ٦٩ .

١١٠- راجع : حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٢ ، ص ١٢٧٥ .

١١١- استخدمت لفظة النقاش بمعنى الملون والمصور والمزخرف بالألوان سواء على الورق أو القماش وغير ذلك . راجع : حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٢- حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٣- التكفيت : كلمة فارسية من فعل « كفتن » بمعنى وضع مادة أغلى فى الثمن فى مادة أرخص منها تكون مختلفة عنها فى اللون مثل تكفيت النحاس والبرونز بالذهب والفضة ، وقد ازدهر هذا الأسلوب فى زخرفة التحف المعدنية . راجع : سعاد ماهر ، مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م ، ص ٣٢٨ .

١١٤- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٢٨٢-١٢٨٩ .

١١٥- الاسطرلابى : هو صانع أو مؤلف الاسطرلابات أو الاصطرلابات ، ويقال له أيضا الاسطرلابى أو الاصطرلابى ، وقد وردت الأسماء الثلاثة فى الكتابات الأثرية. راجع:

Sourdel D., et J., Dictionnaire, pp. 112-114 .

١١٦- راجع : دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢، مادة «الاسطرلاب» ص ١١٤-١١٨ ، حسن الباشا، الاسطرلاب ، ص ٥٧٨-٥٧٩ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية، ص ٧٥ .

١١٧- من هؤلاء قيصصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن منصور علم الدين الحنفى وهو عالم رياضى وفلكى ومهندس ولد باصفون من أعمال قنا حوالى سنة ١١٧٨ / ١١٧٩م وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م، ولقد تلقى العلم فى سوريا ثم الموصل وتعلم على يد العلامة كمال الدين بن يونس الذى علمه الموسيقى وبعض العلوم ، ولما انتهى من دراسته بالموصل عاد إلى سوريا والتحق بخدمة المظفر الثانى تقي الدين محمود صاحب حماة ١٢٢٩-١٢٤٤م. وكان قيصصر ماهرا فى صنع الأدوات الفلكية وخاصة الكرات السماوية ففى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م صنع كرة سماوية من البرونز للسلطان الأيوبي الملك الكامل محمد بن أبى بكر ونقش عليها اسمه بالخط الكوفى. راجع : Mayer. L.A., Islamic Astrolabists, pp. 29-30 .

١١٨- سعيد الديوه جى، الموصل، ص ٥٠-٥٢ .

١١٩- راجع : زكى حسن، فنون الإسلام ، ص ٥٤٢ .

١٢٠- أهم المميزات الفنية لمدينة الموصل كذلك الزخرفة ذات الرسوم الآدمية التى تقوم فى كثير من التحف التى صنعت فيها على أرضية من خطوط منكسرة ومتداخل بعضها فى بعض تؤلف شكل حرف "T" المزدوج ، كما أن هذه السمة ظهرت على التحف المعدنية التى صنعت للسلطين الأيوبيين ، ومن الرسوم التى انفردت بها التحف المعدنية الموصلية دون غيرها هى رسم الهلال بين ذراعى شخص جالس على نحو ما نرى على بعض قطع العملة التى ضربها بنو زنكى فى الموصل. راجع : زكى حسن، فنون الإسلام، ص ٥٤٢، صلاح حسين العبيدى، التحف المعدنية الموصلية، ص ٦٦ .

١٢١- راجع : ابن القلايس (أبى يعلى حمزة بن القلايس) ، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م، ص ٥٥٢-٣٦٥ ، ابن حوقل (أبى القاسم بن حوقل النصيبى)، كتاب صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ ، ص ١٥٣-١٧٣ ، ابن خرداذبة (أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة. متوفى فى حدود سنة ٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص ٩٨-٩٩ ، راجع : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٣-١٧٣ ، الاصطخرى، المسالك والممالك ، وزارة الثقافة والارشاد ، ١٩٦١م، ص ٤٥ .

١٢٢- كانت حلب فى العصور الإسلامية الأولى بلدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين وهما انطاكية عاصمة شمال الشام وقنسرين عاصمة الإقليم الذى تقع فيه حلب على أن هذا الموقع المتميز لم يكن نعمة على طول الخط ، وإنما كانت له بعض الآثار السيئة بالنسبة لحلب إذ غدت ساحة للحرب بين القوى المحيطة بها. ذلك أنها المدخل الطبيعى لبلاد الشام من ناحية ثانية، ومن ثم فإن السيطرة على حلب وأعمالها صارت تعنى فصل شمال الشام عن جنوبه ، وعندما هبشت الظروف لصالح الدين الأيوبي يتملك الشام سعى للسيطرة على حلب وقد تم له ذلك فى ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ومن ثم غدت الجبهة الإسلامية تحت زعامته تمتد من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوباً راجع ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٣-١٧٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج ١ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م، ص ٦٠-٨٠ ، ناصر خسرو ، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٥٥ .

١٢٣- محمود محمد الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ١٣٠ .

١٢٤- راجع : ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٦٠-٧٠ ، عادل عبد الحافظ حمزة، حلب وجيرانها فى عهد ملوك بنى أيوب، التاريخ والمستقبل، مج ١ ، العدد الثانى ١٩٩١م، ص ٦٥-٨٥ .

١٢٥- زكى حسن ، كنوز الفاطميين، ١٩٣٧م، ص ٢٤١-٢٤٢ .

١٢٦- السيد طه السيد، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص ١٥٨-٢٠٥ .

١٢٧- عاصم رزق ، مراكز الصناعة، ص ٣١ .

١٢٨- السيد طه السيد، الحرف والصناعات، ص ١٦٥ .

١٢٩- راجع المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

١٣٠- راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مج ٢ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٤٩٤ . ، ابن خلكان،

وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حققه د/ احسان عباس، مج ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ ،

ص ٢٢٢ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٧٤ ، ج ١١ ، ص ٩٤ ، ج ١٢ ، ص ٤٩٩ . ،

Allan J.W., Islamic Metalwork the Nuhad Es-Said Collection , Sotheby , 1982 , p. 19 .

١٣١- راجع : حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١٢٩٤ ، حسن عبد الوهاب ،

توقيعات الصناع، ص ٥٣٨ .

ثبت المصادر والمراجع

أولا المصادر:

- ابن الأثير « لأبى الحسن على بن أبى الكرم محد » ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م .
 الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ٢٠١٤ هـ / ١٩٨٢ م . {الكامل} .
 ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى بن عماد ت ٨٩٠ هـ / ١٦٧٨ م) .
 شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٥ ، بيروت ، بدون تاريخ .
 القلقشندى « أبى العباس أحمد بن على بن أحمد » ت : ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .
 صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الطبعة الثانية ، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م . {صبح الأعشى} .
 المقرئى « تقى الدين أحمد بن على بن أحمد » ت : ٨٤٥ هـ / ١٤٢١ م .
 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق / محمد مصطفى زيادة، ج ٢ ق ١ ، القاهرة ، ١٩٧١ م، ج ٢ ، ق ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ م . {السلوك} .
 - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار «الخطط المقرئية» ، جزآن ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ . {الخطط} .
 ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مج ٢ ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

ثانيا : المراجع

- أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة بمصر، ١٩٧٩ م . {الحياة الأدبية} .
 - أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى ، ١٩٩٠ م {الحضارة} .
 الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، «العلوم العقلية»، الفكر العربى، ١٩٩١ م . {الحضارة} .
 - السيد طه السيد أبو سديرة ، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ م {الحرف والصناعات} .

- ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م. {فن الواسطى} .
- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م {الألقاب}.
- الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م. {الفنون والوظائف} .
- حسين عليوة، المعادن ، كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وأثارها، القاهرة، ١٩٧٠. {المعادن} .
- حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للاعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٧م. {المعادن} .
- زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى بيروت ، ١٩٨٠م.
- زكى حسن، فنون الإسلام، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٨، {فنون الإسلام} .
- سعيد الديوه جى، أعلام الصناعات الموصلة، الموصلة ، ١٩٧٠ .
- الموصل فى العهد الأتابكى، بغداد ، ١٩٥٨م {الموصل} .
- سوادى عبده محمد الروشيرى، إمارة الموصل فى عهد بدر الدين لؤلؤ، بغداد ، ١٩٧١ . {إمارة الموصل} .
- صلاح حسين العبيدى، التحف المعدنية الموصلية فى العصر العباسى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٠م. {التحف المعدنية} .
- عاصم محمد رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩م {مراكز الصناعة} .
- عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبي، الجزء الأول، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٨، {الفنون الإسلامية} .
- عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي، القاهرة، ١٩٦٣، {الفن الإسلامى} .
- محمد محمد سطيحه ، اليمن شماله وجنوبه ، القاهرة، ١٩٧٢ .

- محمود إبراهيم حسين : أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٢ (أعلام المصورين).
- محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف ، ١٩٧٩ م . [الأوضاع الحضارية] .
- يوسف ذنون ، الواسطى موصليا ، منشورات مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل ، ١٩٩٨ م.

ثالثا : المراجع الأجنبية المعربة :

- ويستنفلد . ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة / عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠ م.

رابعا : الدوريات

- حسن الباشا ، المبخرة ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها، فنونها، أثارها ، المؤسسة، ١٩٧٠ م [المبخرة] .
- حسن الباشا، بنو المعلم، بحث بكتاب القاهرة تاريخها، فنونها، أثارها، المؤسسة، ١٩٧٠ م . [بنو المعلم] .
- حسن عبد الوهاب، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، المجمع العلمى المصرى، ١٩٥٥ [توقيعات الصناع] .
- حسين عليوه ، محمد بن سنقر ، بحث بكتاب القاهرة تاريخها ، فنونها، أثارها، المؤسسة، ١٩٧٠ م [محمد بن سنقر] .
- حسين عليوه ، دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر فى عصر المماليك، مستخرج من دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الأول ، مايو ١٩٧٩ م [دراسة لبعض الصناع] .
- عبد الرؤوف على يوسف، تحف فنية من عصر المماليك، مستخرج من مجلة «المجلة» العدد ٦٢ ، مارس ١٩٦٢ م [تحف فنية] .
- عبد العزيز صلاح ، دراسة بعض التحف المعدنية الإيرانية المكفنة فى ضوء مجموعة متحف اللوفر بباريس من منتصف القرن ٦ هـ / ١٢ م إلى بداية القرن ٧ هـ / ١٣ م ، ندوة شرق العالم الإسلامى، كلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٩٨ م. [دراسة بعض التحف] .

خامسا : المراجع الأجنبية :

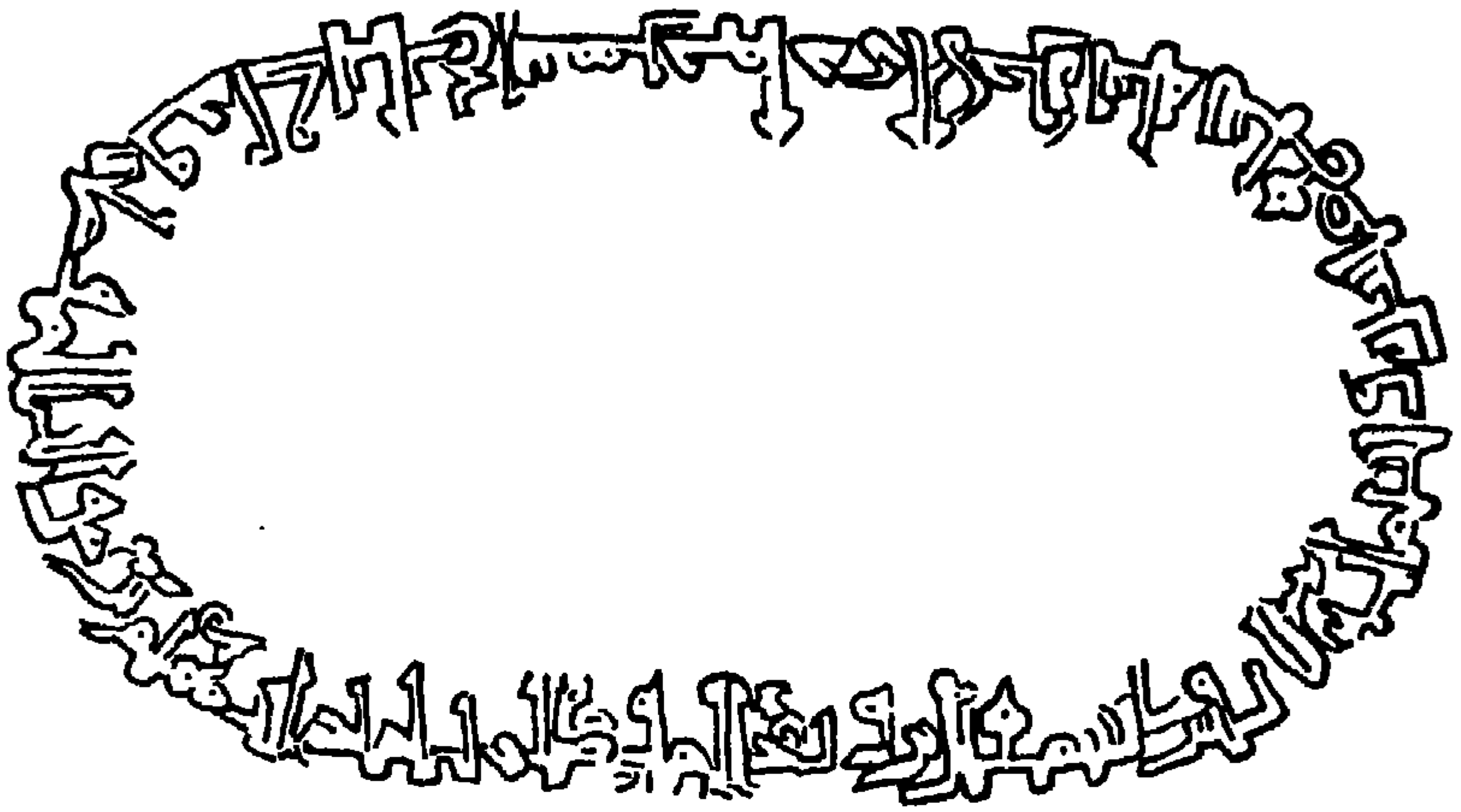
- Abouseif Doris- Behrens, The Babtistère de Saint Louis, Islamic Art, III, 1988-1989 .
- Allan, W., James, Metal work of the Islamic world , the Aron collection Sotheby, 1986 .
- Arabesques et Jardins de Paradis, Collections francaises d'art islamique, Musée du Louvre , Paris, 1989-15 Janvier, 16 Octobre, 1990 .
- Atıl Esin, and Chase, W.T., Islamic metal work in the freer Gallery of art Washington, 1985 .
- Baer, Eva , Metal work in Medieval Islamic Art, New York, 1983 .
- Balog Paul, the coinage of the Ayyubids, London, 1980 .
- Barrett, Douglas, Islamic Metalwork in the British Museum, London, 1949.
- Berchem. Max Van , Notes d'archéologie Arabe, étude sur les cuivres Damasquinés et les verres émailés, Journal Asiatique, Tome III, 1904 .
- Inscription Mobiliérs Arabes en Russie, J.A., Tome. XIV , 1909 .
- Berchem, Max Van , Und Sarre Von Friedrich , Das metallbecken des arabeks Lu' Lu von Mosul in der kgl . Bibliothek zu Munchen, Munchen Jahrbucher der bildenden Kunst, 1907 .
- Blair Sheila S., Artists and Patronage in late fourteenth- century Iran in the light of two catalogues of Islamic metalwork , Bull. SOAS, XLVIII, 1985 .
- Combe, M. Étinne, Cinq cuivres musulman datés XIII . XIV et XV Siècles de la Collection Benaki , BIFAO, XXX, 1930 .
- Combe , E., J., Sauvaget , G. Wiet , Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe, Caire. IFAO, XI, 1941-1941 .
- David, James, An early mosul metalworker: some new information , Oriental Art, N.S. 26 , 1980 .
- Dimand , M.S., A handbook of muhammadan art, New York, 1947 .

- Dimand , M.S., Unpublished metalwork of the Rasulid Sultans of Yemen, Metopolitan Museum Studies, vol., III, 1930 .
- Ettinghausen , Richard , Le Baptistère de St. Louis. by Rice, ARS Orientalis, vol . I, 1954 .
- Hartner Willy , The Vaso vescovali in the British Museum A study on Islamic Astrologigal iconography , Kunst des Orients, IX 1/2 , 1973/4 .
- Hayward G., The Arts of Islam, 1976 .
- Lane - Poole, Stanley, The art of the saracens in Egypt, London, 1888 .
- Mayer , L.A., Islamic Metalworks and their works, Geneva, 1959 .
- Islamic Astrolabists and their works, Geneva, 1956 .
- Melikian Chirvani Assadullah Sourc , Islamic Metalwork from the Iranian World , London, 1982 .
- L'art du métal islamique , Paris, 1971 .
- Migeon , Gaston , Mannuel d'art musulman , Paris, 1927 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux - arts, décembre , 1899 .
- Les Cuivres Arabes, Gazette de Beaux arts, LXXXVI, 1900 .
- Mostafa, Mohamed, the Museum of Islamic Art, a short Juide, Egypte, 1979 .
- Musée Benaki Athènes, Guide, Athènes, 1936 .
- Rice D.S., Studies in Islamic Metalwork , I, BSOAS, XIV/3 ., 1952 .
- Studies in Islamic metalwork . II, BSOAS, XV/1 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork, III, BSOAS., XV/2 , 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , IV, BSOAS., 1953 .
- Studies in Islamic Metalwork , V. BSOAS., XVII/2, 1955 .
- Studies in Islamic Metalwork , VI, BSOAS., XX I/2 , 1955 .
- The Oldest dated ' Mosul' candlestick A.D. 1225 , The Burington Magazine, december , 1949 .
- Inlaid brasses from the Workshop of Ahmad al- Dhaki al- Mawsili , ARS Orientalis, VOL. 2, 1957 .

- The Brasses of Badr al - din Lu'Lu, Bulletin of the School of Oriental and African Studies 13 , 1950 .
- The Aghani miniatures and religious painting in Islam , Burlington Magazine vol. 95 , April 1953 .
- Wiet, Gaston, Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe , IFAO, X, Le Caire, 1939 .
 - Catalogue Général du musée Arabe du caire (Le Caire), 1932 .
- Wiet G., Catalogue général du musée arabe du Caire, Objets en cuivre, Organisation égyptienne générale du livre, 1984 .
- Inscription mobilières de L'Égypt Musulmane, Journal Asiatique, CCXLVI, 1958 .
- Les inscription de Saladin, Syria, Revue d'Art Oriental et d'Archéologie, tome III, Paris, 1922 .
- Un Nouvel Artiste de Mossoul , Paris, 1931 .
- L'épigraphie arabe de l'exposition d'art persan du Caire, Mémoire a

محمد رسول الله

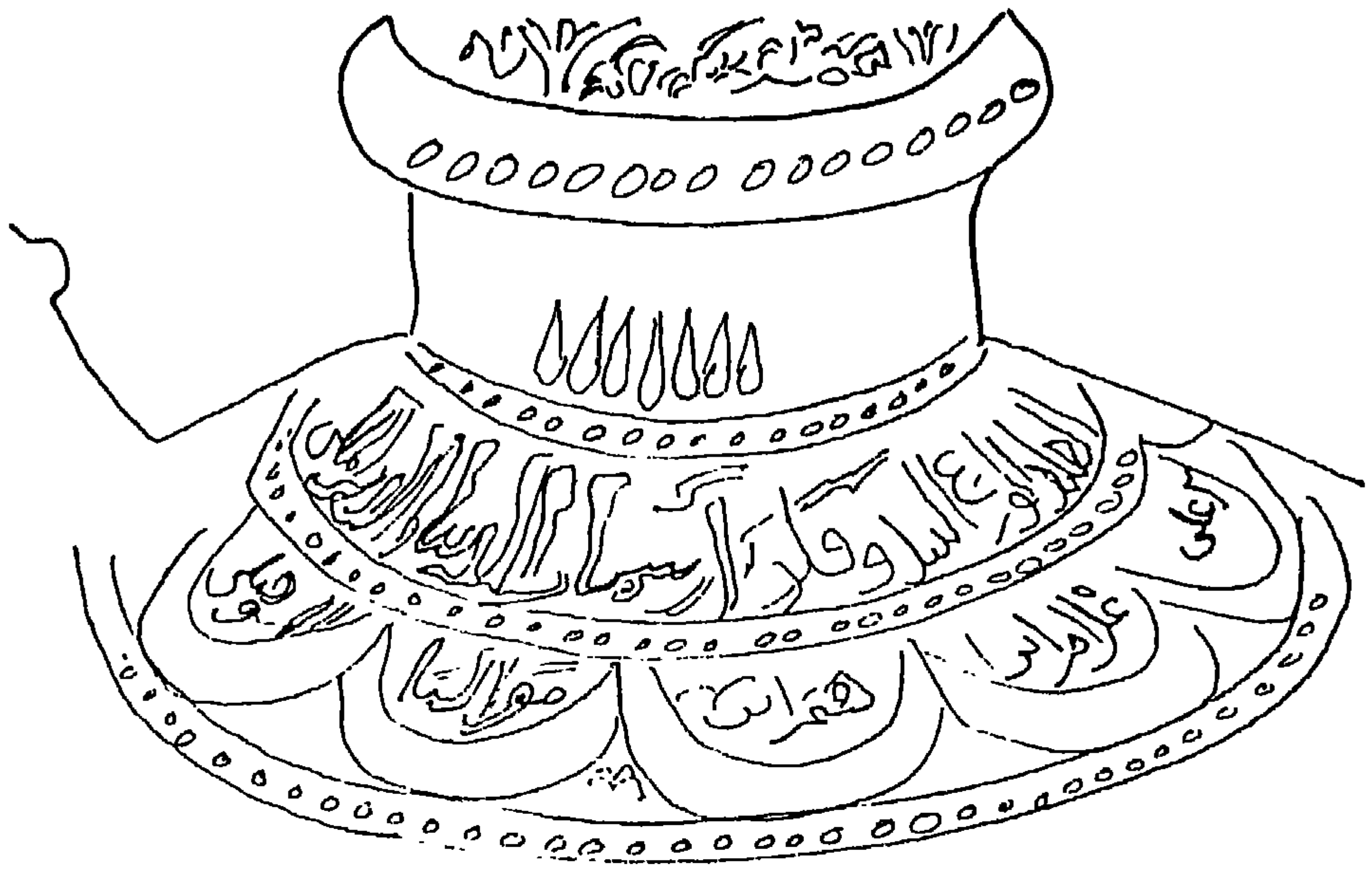
(شكل ١)



(شكل ٢)

وافق الزارع من نسخة بكرة الخميس في العشرين من شوال سنة ست وأربعين وستمائة
 كاتبه الفقير إلى رحمة الله ورضوانه اسمعيل بن ورد بن عبد الله النقاش الموصلي وهو
 حامد الله ومصلياً على رسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم مسلماً وغفر الله
 لمن نظفه ودعاه بالمغفرة ولجميع المسلمين

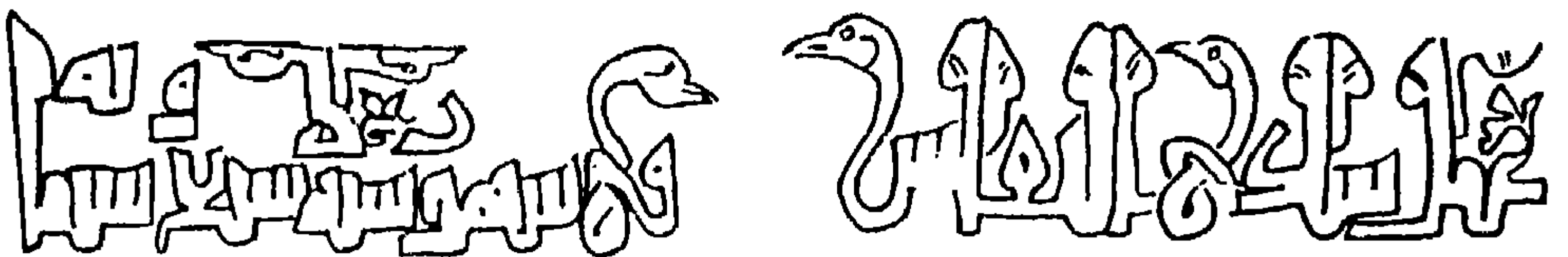
(شكل ٣)



(شكل ٤)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دلالة على قدرته وقوته

(شكل ٥)



(شكل ٦)

عمال الجلالة المعروفون بالذكاء النفاث الموقر في سنة الأحرار وسماه

(شكل ٧)



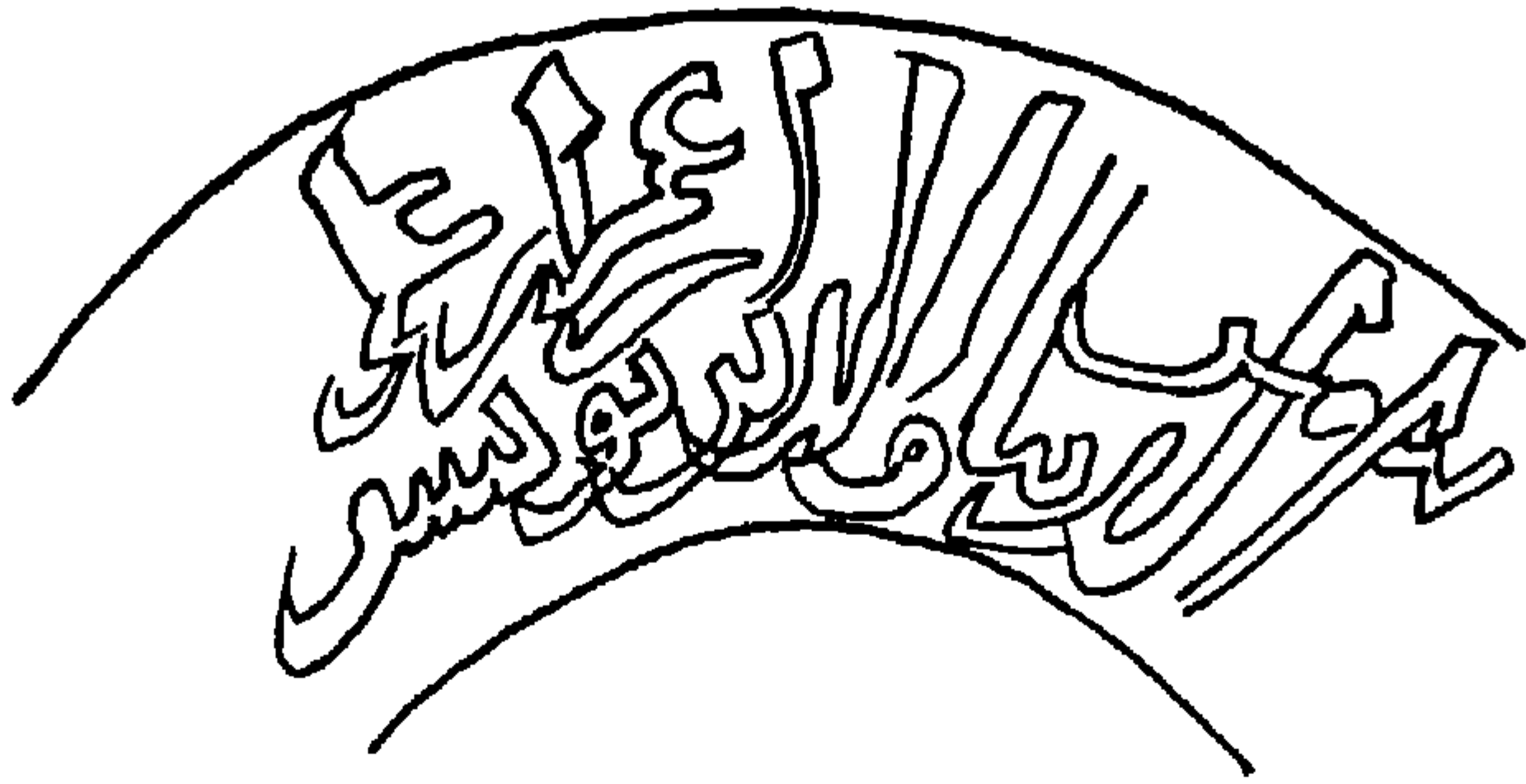
(شكل ٨)

عمال الذكاء النفاث الموقر في سنة عشرين و ستايد والغلطاح

(شكل ٩)

محرر ما بين

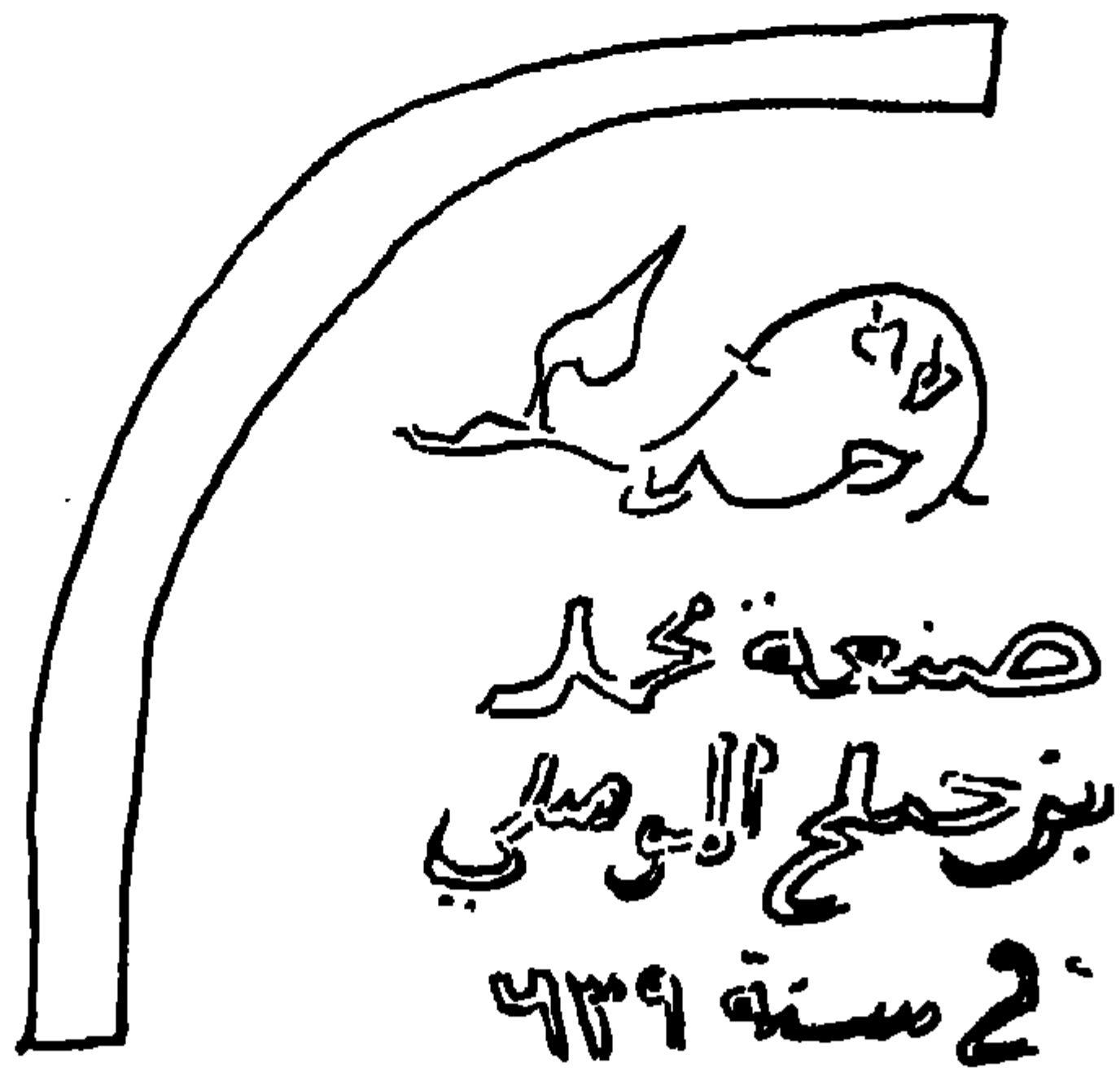
(شكل ١٠)



(شكل ١١)

صنع محمد بن
الموصلاني

(شكل ١٢)



(شكل ١٣)

عبدالوالقاسم سرسبز محمد را استغری می‌کنند و آری عرو و شرو و تمامه

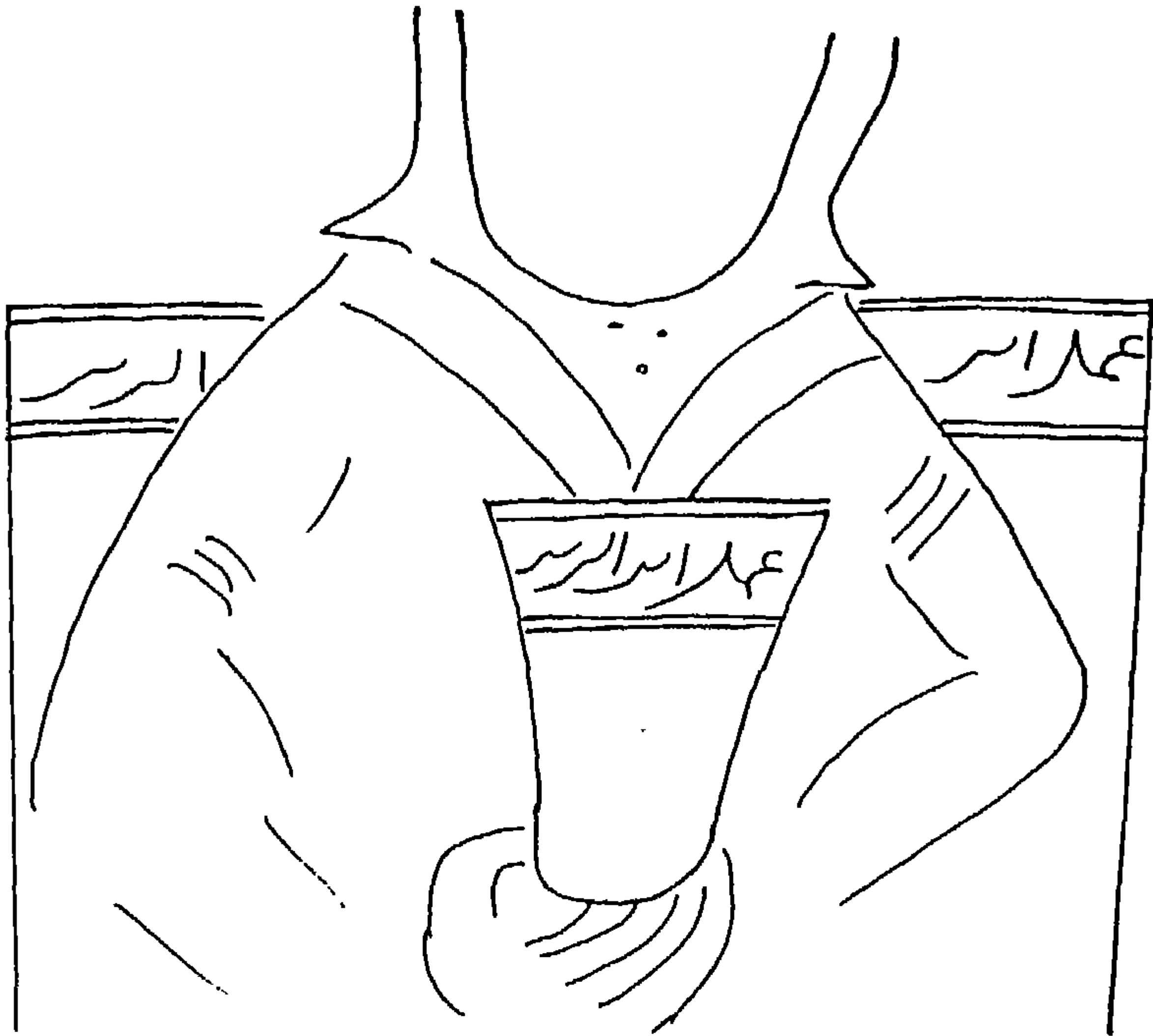
(شکل ۱۴)

عبدالوالقاسم سرسبز محمد را استغری می‌کنند و آری عرو و شرو و تمامه

(شکل ۱۵)



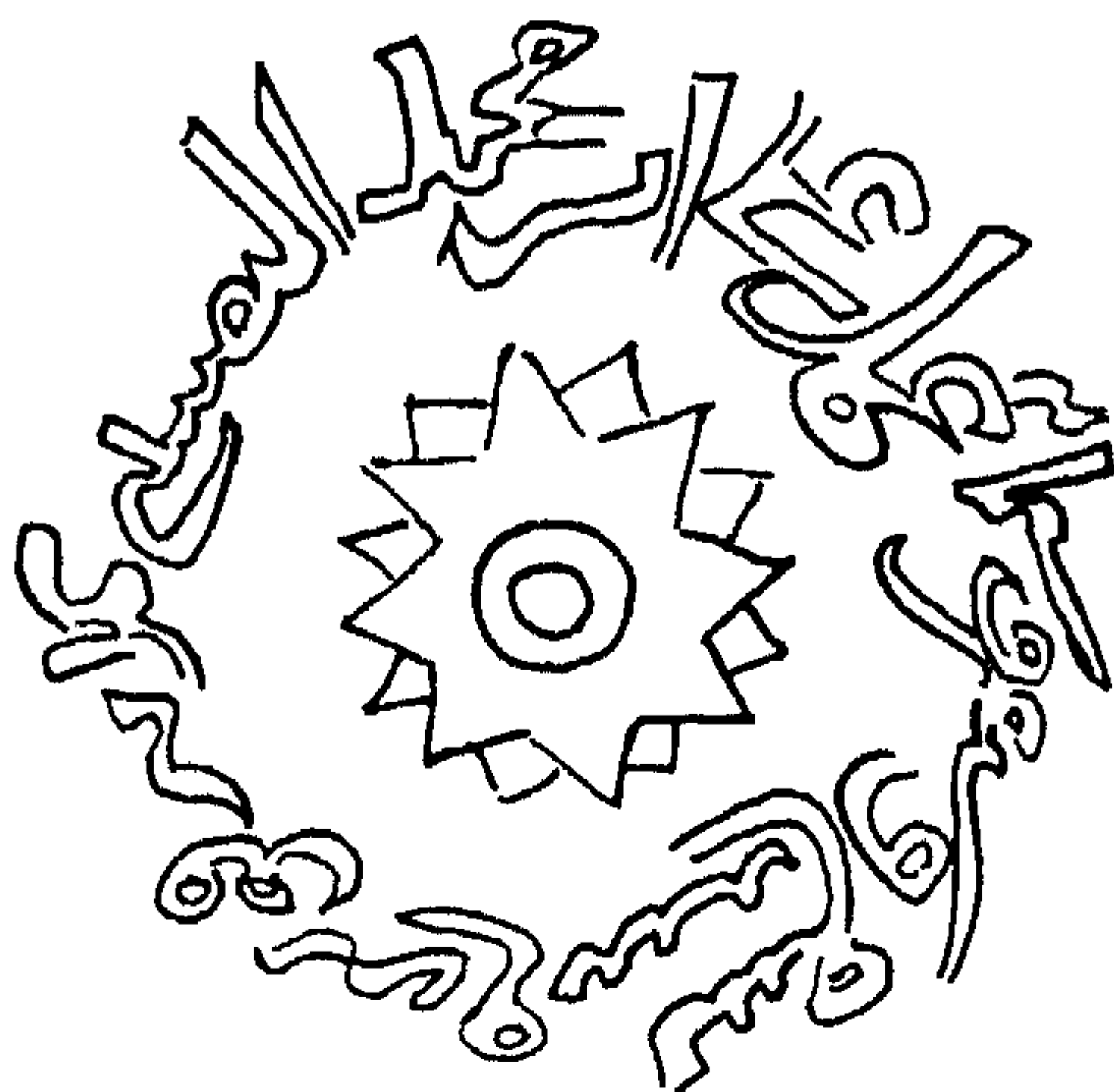
(شکل ۱۶)



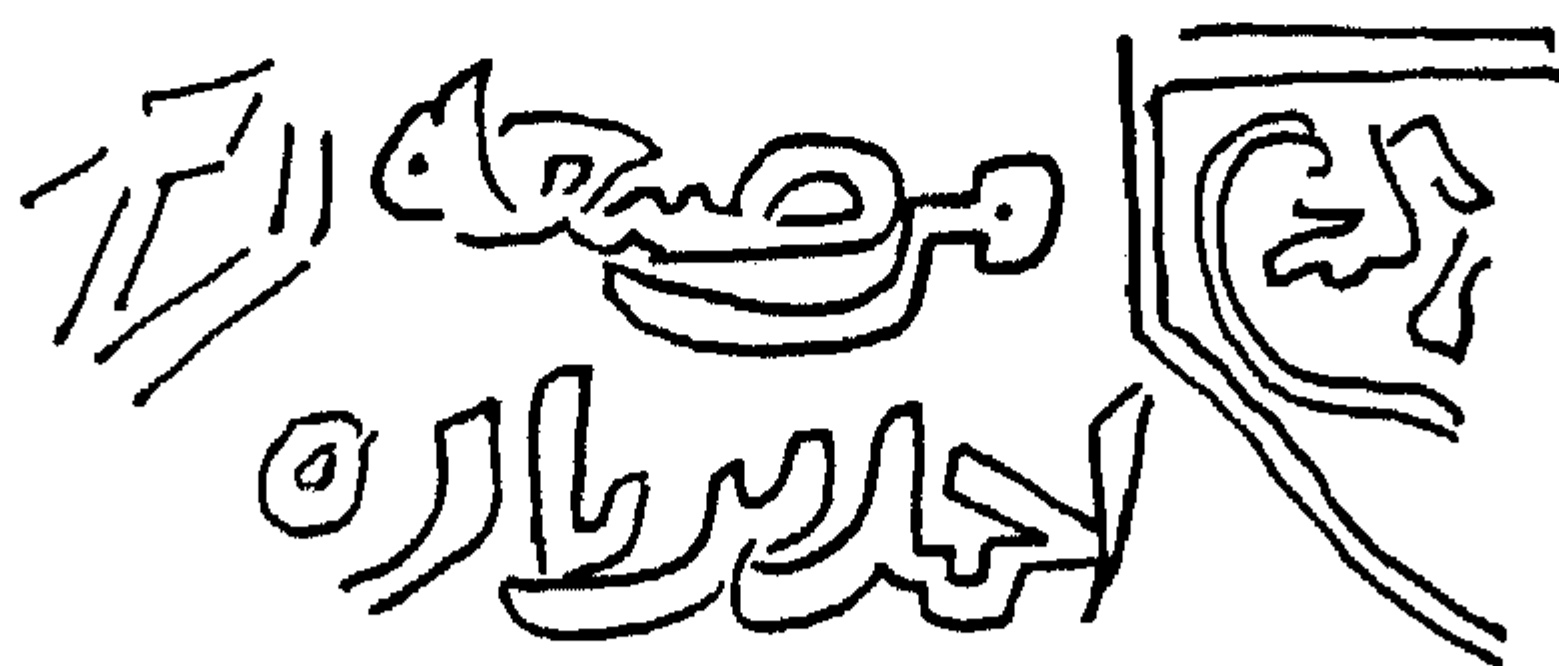
(شكل ١٧)

منقوشة على الحجر تم
 المصرية الاسكندر
 لمصر الملك الاشوري
 الملك المصري الشما
 في سنة خلق هور
 عفا الاله

(شكل ١٨)



(شكل ١٩)

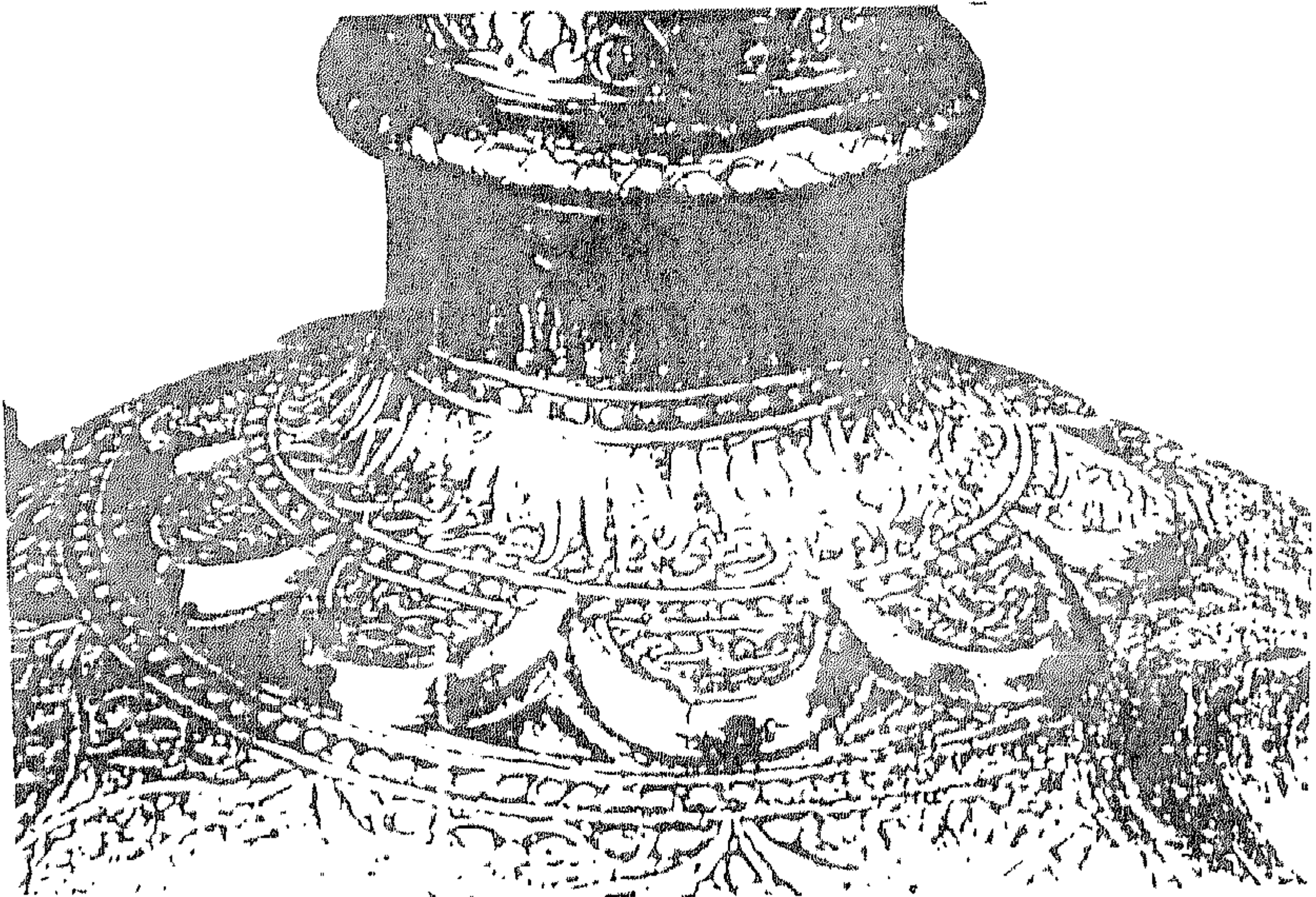


(شكل ٢٠)

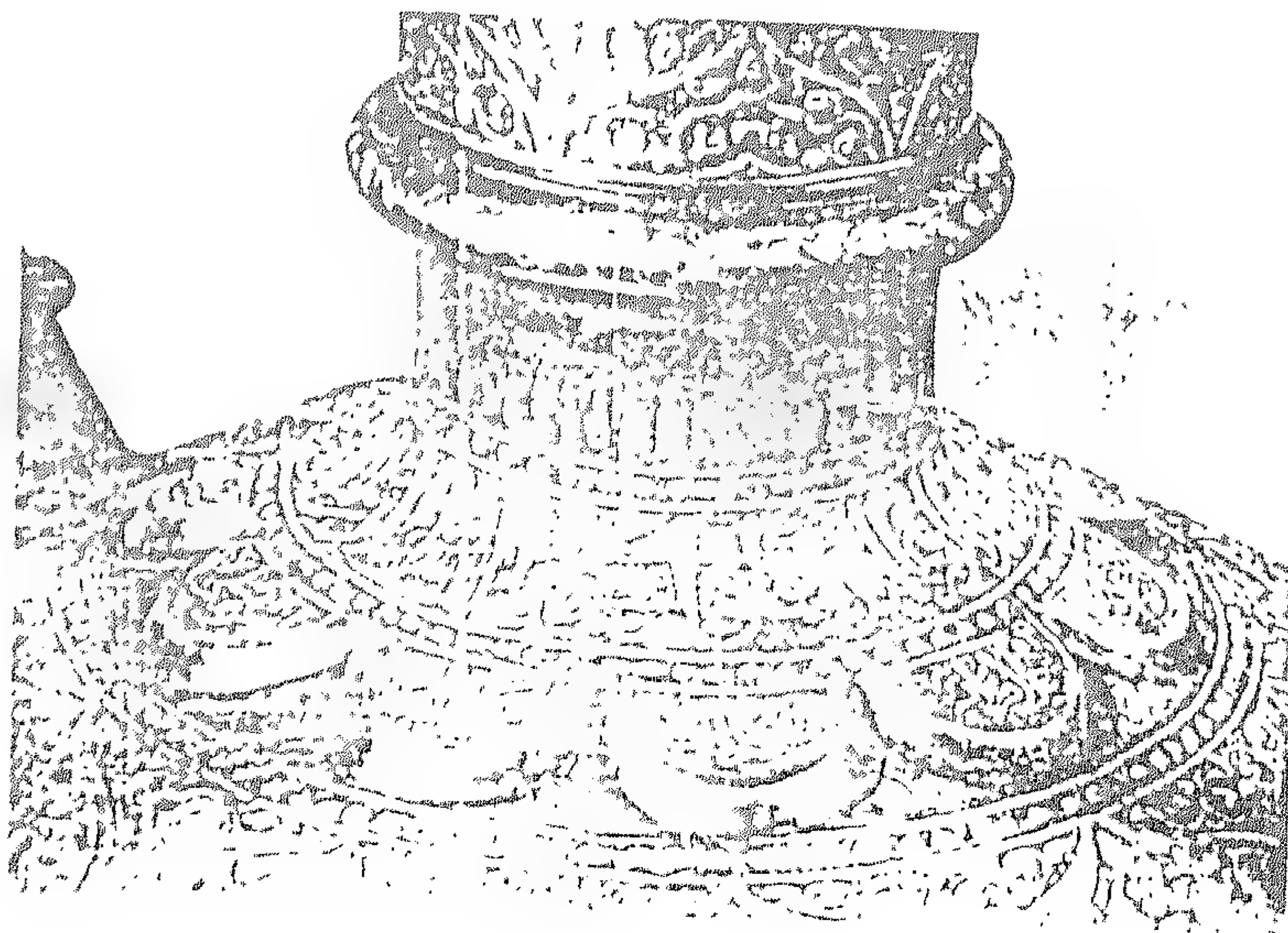
ملاها نانا السار من مديني بفتح السين واداءة زوايا من رزق
 الى بعض لا بظلم الله من خلقه ليدركوا الله واداءة زوايا من رزق
 اذ جده عن عبد الله بن محمد بن النضر بن ابي نعيم عن ابي
 نعيم انا النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يحب
 من اذله حممه ان يغفل عن صفاته انه لا يزال يماضون اليه
 حادث يهوديه عن اسرايه وصيده انه جل جلاله وتقدست
 اسماؤه ما لا يشع لان الله عز وجل لا يهدي
 السعير والغدر والرجل اذ ذكر ان في هذا الحديث من صفات
 الله تعالى المنزهة عن التشبيه وكذلك كذا ما جاء من هذا
 القليل في الكتاب في السنة كاليد والامبع والافاعي
 والاسنان والنزول نادمان بها فرض الاستماع عن الخوض
 فيما واجبت والمفتون في سلك سبيلها
 يا ابن السليم والمناصب في ما ابيع والمنكر معطل
 والمكثف مشبه نغلي انما يابنول الظالمون علوا
 كذا ليس كمثل شيء وهو السبع البصر شحان بك
 يدب الغيرة عما يفتنون سلام على المرسلين
 الله رب العالمين

وانق الفراغ من نسخة بكرة التفسير في العشرين من شوال سنة
 ست واربعمائة واربعمائة واربعمائة
 كاتبه الفقير الى الله تعالى ورضوانه اسمعيل بن ورد بن عبد الله
 القفاش المصلي وهو حامد اسم ونصل على سؤله محمد صلى الله عليه وعلى
 آله وصحبه وسلم تسليما وعز الله
 من نظريه ودعاه بالمغفرة وجميع المسلمين

(الوحة ١)



(الوحة ٢)



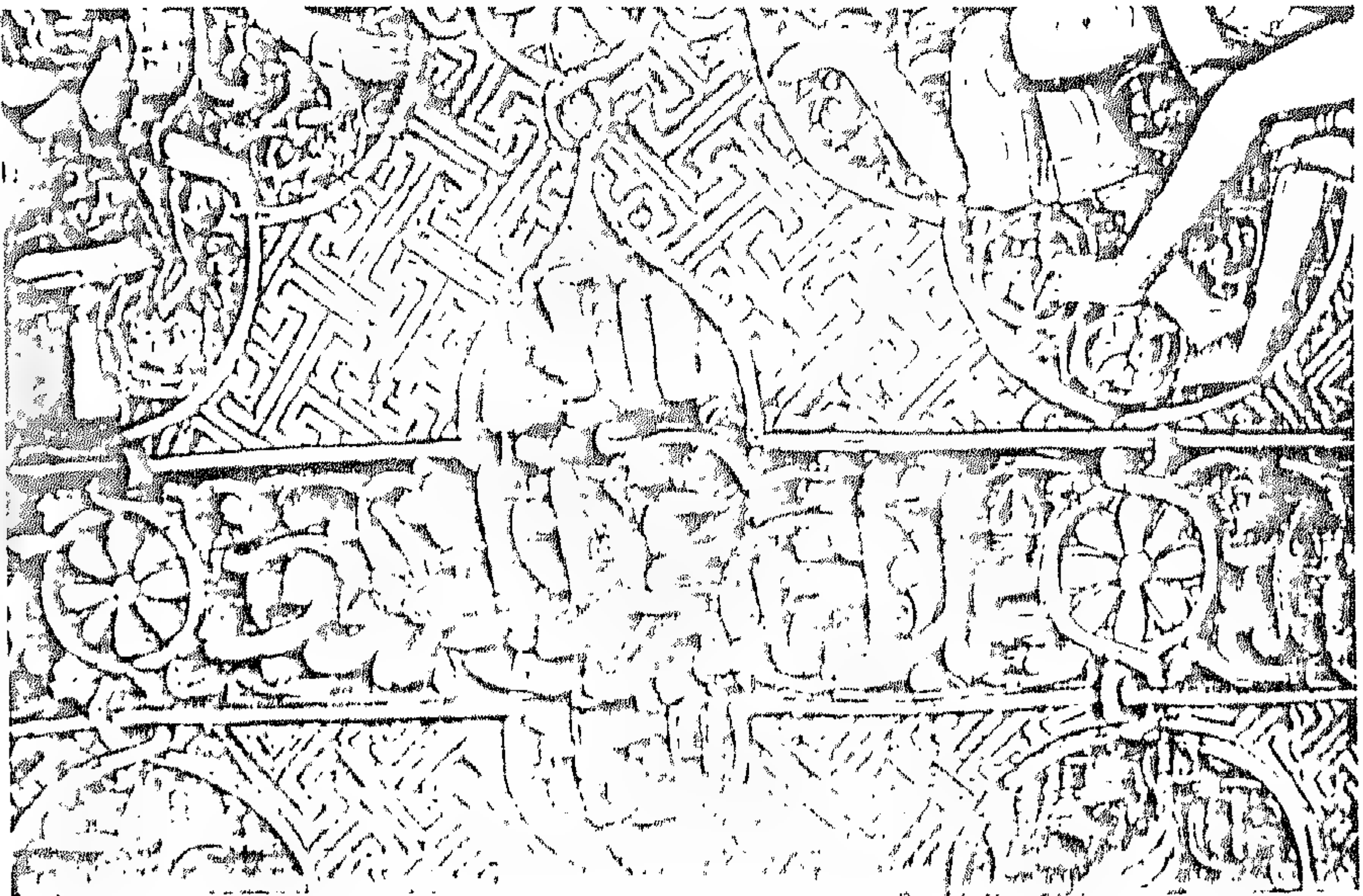
(الوحدة ٣)



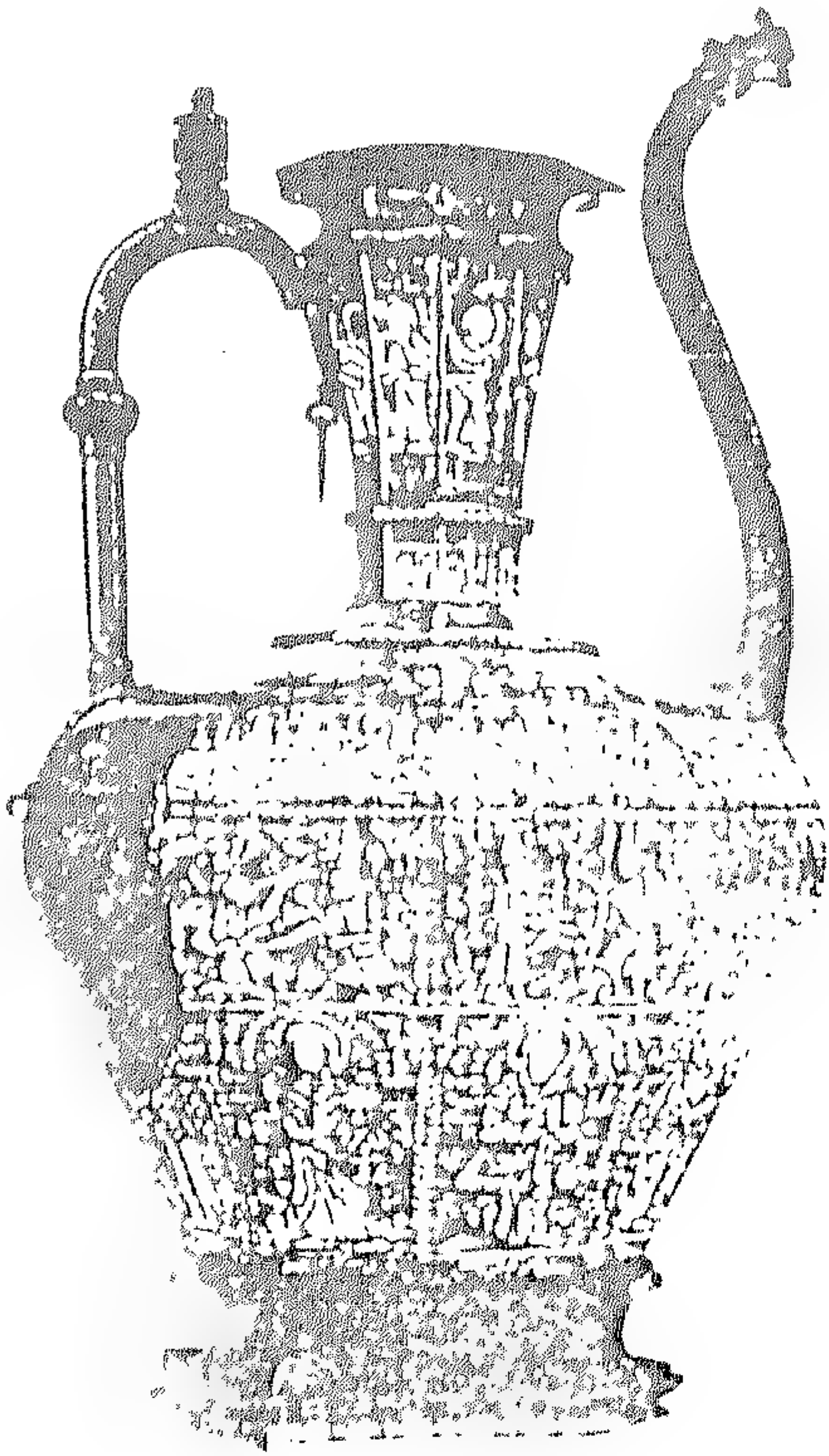
(الوحدة ٤)



(الوحة ٥)



(الوحة ٦)



(لوحة ٧)



(لوحة ٨)

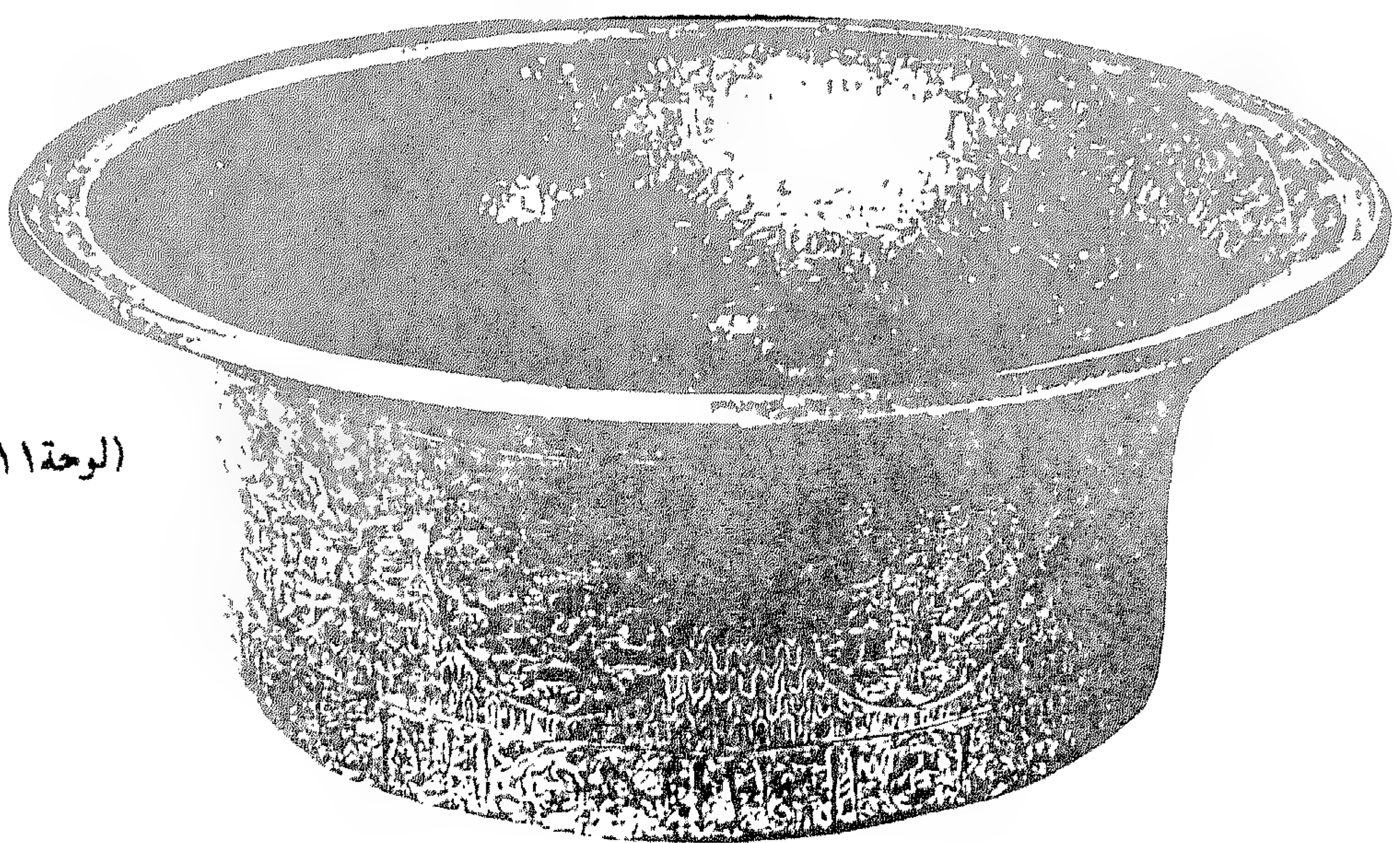
(الوحة ٩)



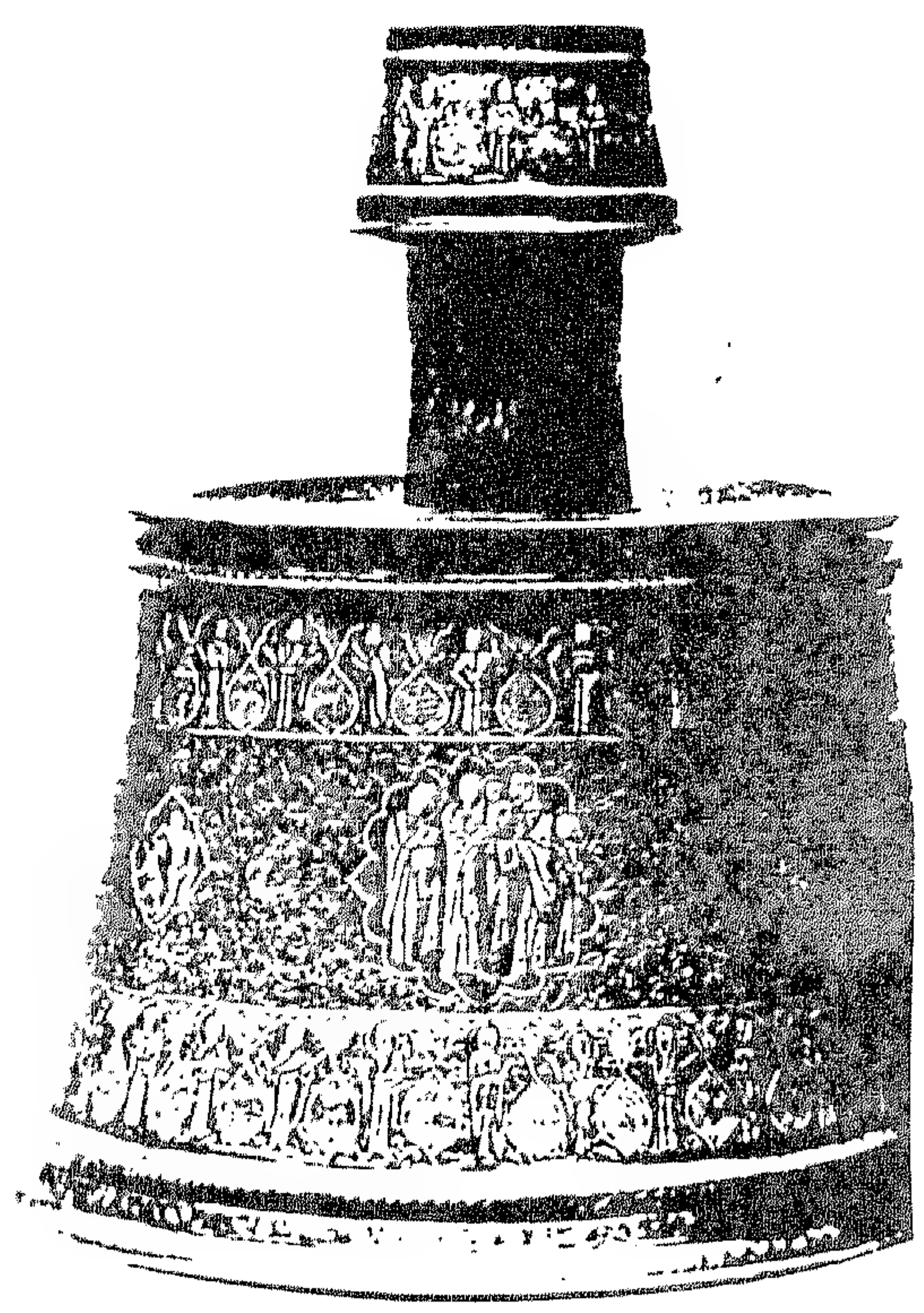
(الوحة ١٠)



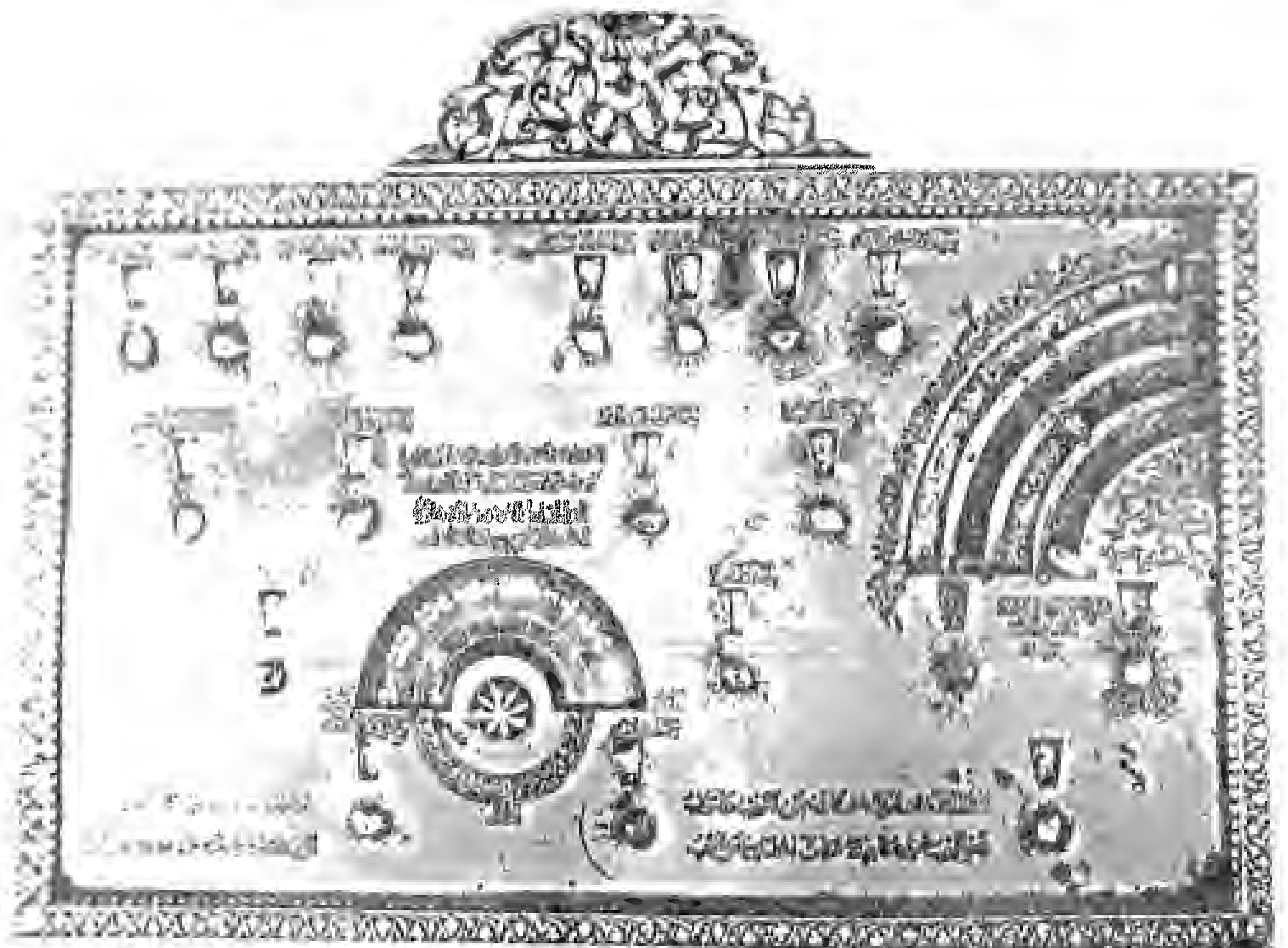
(الوحدة ١١)



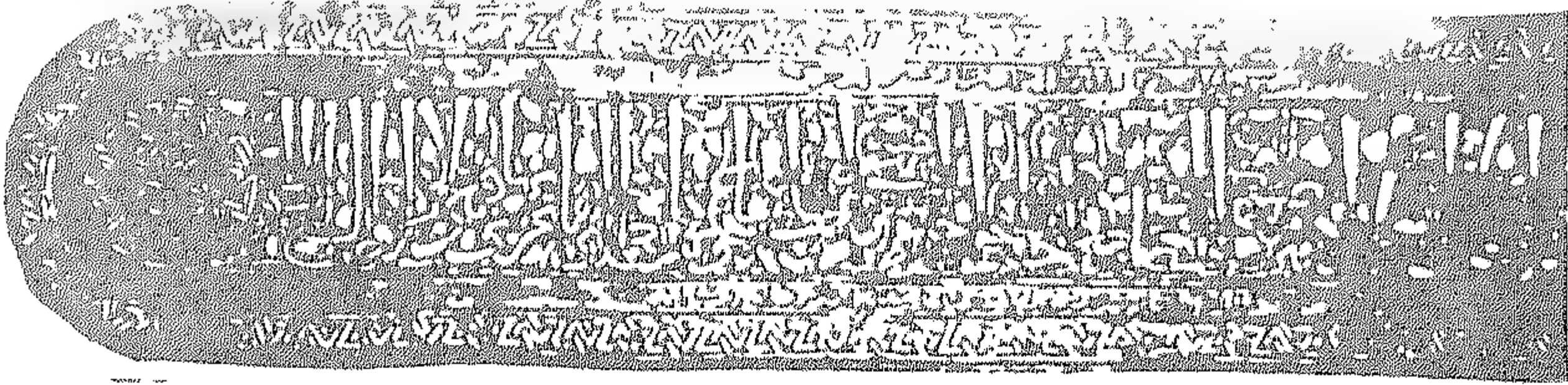
(الوحدة ١٢)



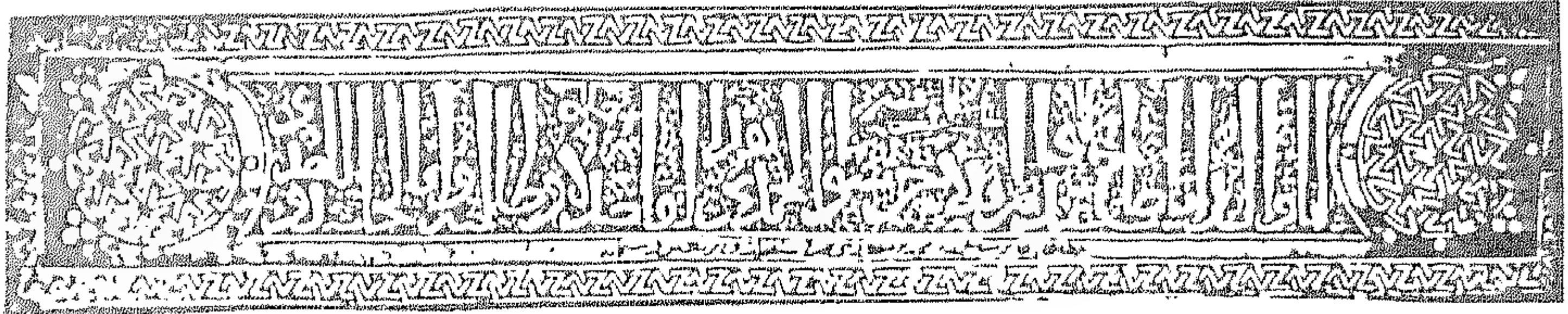
(الوحة ١٣)



(الوحة ١٤)



(الوحة ١٥)



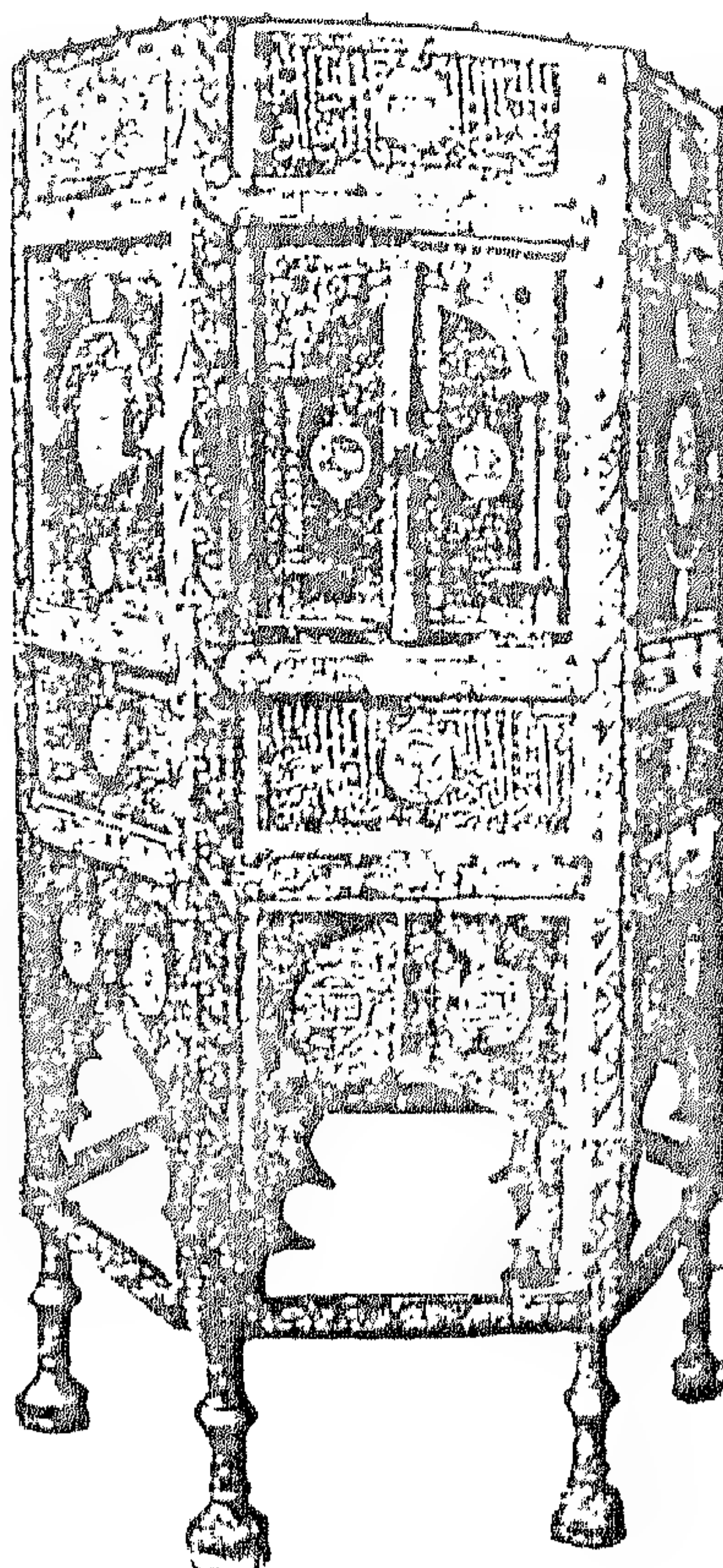
(الوحة ١٦)



(الوحة ١٧)



(أ)



(ب)

(الوحدة ١٨)

منهج المقرئزى فى كتابه «المقفى الكبير»

اسم الكتاب ووصفه :

كتاب «المقفى الكبير» المعروف أيضاً باسم «تاريخ مصر الكبير»^(١) ألفه عمدة مؤرخى مصر الإسلامية^(٢) الإمام الشيخ المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقرئزى^(٣) المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م والكتاب عبارة عن معجم تاريخى كبير ، بتراجم مشاهير مصر، والوافدين عليها من شتى الأقطار ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وثقافتهم . وقد أشار صاحبه الإمام المقرئزى إلى اختصاص هذا الكتاب بالترجمة لكل من دخل مصر لأى غرض من الأغراض ، وظهر ذلك- على سبيل المثال- عندما ترجم لأحد الشوار ببلاد المغرب ويدعى «خلف بن جبر» الذى قتل سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م^(٤) وحملت رأسه إلى مصر فطيف بها، وعلق المقرئزى على هذا الحدث بقوله : «فلذلك ذكرت خلفاً هذا ، وهو من شرط هذا الكتاب»^(٥) . كذلك صرح المقرئزى فى كتابه «السلوك»^(٦) باختصاص كتاب «المقفى» بالتراجم والوفيات أثناء ترجمته للأمير أحمد بن بكتمر الساقى (ت ٧٣٣هـ) حيث ذكر أن له ترجمة وافية فى «المقفى» إذ هو كتاب تراجم ووفيات ، كما أن هذا الكتاب- السلوك- حوادث وماجريات .

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

وللإمام المؤرخ المقرئى كلمة عن كتابه «المقفى الكبير» سجلها له المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»^(٧) هى قوله : «وله - للمقرئى - تاريخه الكبير فى تراجم أهل مصر والواردين إليها ، ذكر لى - رحمه الله - قال : لو كمل هذا التاريخ على ما أختاره لجاوز الثمانين مجلداً» .

ويبدو أن المقرئى أنجز ستة عشر مجلداً كاملاً من كتابه «المقفى الكبير» بدليل أن البسحاوى ذكر أن «المقفى» بلغ ستة عشر مجلداً^(٨) .

ومن بين مجلدات الكتاب الضخمة عشر على خمسة مجلدات موزعة على بعض المكتبات ، وقام الأستاذ محمد اليعلاوى بتحقيقها فظهرت فى سبعة أجزاء ضخمة ، وجعل الأستاذ المحقق الجزء الثامن للفهارس العامة ، إضافة إلى بعض التراجم الناقصة من كتاب «المقفى» والتي عشر عليها بعد ما كان يظن أن هذه التراجم خاصة بكتاب المقرئى «درر العقود» ثم تبين أنها خاصة بكتاب «المقفى» . وقد اتضح بعد نشر الكتاب وتحقيقه أنه مبتور الأول والآخر ، بمعنى ضياع مقدمته وخاتمته ، كما فقدت بعض الحروف كالبدال والراء وغيرهما من بعض الكلمات . ولأن المقرئى كثيراً ما أشار إلى تراجم سابقة أو لاحقة ، فمن السهولة الوقوف على فقدان العديد من التراجم غير الموجودة بالكتاب ، كذلك أشار المقرئى إلى أن بعض تراجم للنساء ، ضاعت هى الأخرى ضمن ما ضاع من الكتاب^(٩) .

ومهما يكن الأمر ، فإنه يتضح من الكتاب أن المقرئى كان ينوى العودة إليه مرة أخرى ، والنظر فيه ، ولذا ترك العديد من النقاط التى تحدد تاريخ ميلاد^(١٠) أو وفاة^(١١) أو ذكر معلومة^(١٢) أو غير ذلك^(١٣) .

مادة كتاب «المقفى» :

إن مادة كتاب المقفى الرئيسة هى تراجم الملوك والأمراء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين ، وباقى العلماء من أهل مصر فى جميع التخصصات ، فضلاً عن مشاهير المصريين بصفة عامة ، إضافة إلى من دخل مصر مستوطنات لها أو ماراً بها فى طريقه لأداء الحج أو للتجارة أو لغير ذلك .

ومن خلال التراجم الواردة فى الأجزاء المنشورة يمكن الوقوف على العديد من المعلومات المختلفة التى يمكن حصرها فيما يأتى :

١- المناصب والوظائف :

تضمن الكتاب تراجم الخلفاء والسلاطين والولاة والوزراء والقادة وأصحاب الدواوين والكتاب والقضاة والمؤذنين ، وغيرهم . وقد ترجم المقرئزي^(١٦) لـ ١٣ خليفة ، ٢٦ سلطاناً و ٣٧٤ أميراً وقائداً ، و ٤٨ والياً ، و ٣٩ وزيراً ، و ٨١ موظفاً إدارياً ، و ١١٣ كاتباً ، و ١٤٦ قاضياً ، و ١٦ محتسباً ، و ١٠ مؤذنين ، و ١٩ طبيباً ، ولغيرهم من أصحاب الوظائف.

٢- النشاط الفكرى :

عنى الكتاب برصد النشاط الفكرى، فتتبع أعلامه فى كل ميدان فكرى، فعلى سبيل المثال ترجم المقرئزي لـ ٨٨١ محدثاً ، و ٤٢١ فقيهاً ، و ٢٢٢ مقررثاً ، و ٤١ خطيباً و ٢٢ واعظاً و ١٨ إماماً و ١٣١ أديباً وشاعراً و ٤٤ لغوياً ونحوياً ، و ٩ من العلماء التجريبيين ، و ١١ من العلماء المشتغلين بالكلام والمنطق ، و ٢٣ مؤرخاً^(١٧) ولعدد من المفسرين والمشتغلين بالعلم الدينى بصفة عامة من الرواة له، وبلغ عددهم حوالى ٥٠٠ .

٣- المهن والصناعات الحرة :

ترجم المقرئزي فى كتابه «المقفى» لـ ١٩ مهنيًا وصانعًا مثل الخياطين والنساجين ، وغيرهم . كما ترجم لـ ٢٥ تاجرًا ممن كانوا بمصر أو نزلوها.

٤- تراجم أخرى :

أورد المقرئزي تراجم أخرى عديدة لأنبياء نزلوا مصر كسيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولصحابة الرسول ﷺ ، وبلغ عددهم بالكتاب ٣١ صحابياً . كما ترجم للعلوين وبلغوا ٤٣ علوياً ، وللمتصوفة والمتزهدين وبلغوا ٨٩ ، ولعدد من المعتزلة والقرامطة والثائرين بصفة عامة، وللمبتدعين فى الدين والمدعين للألوهية^(١٨) . كما ترجم لبعض من عاشوا قبل الإسلام مثل : حمير بن سبأ^(١٩) ، وعبدالله بن جدعان^(٢٠) ، ولغيرهم^(٢١) .

وقد أسهب المقرئزي فى الترجمة لعلماء الدين على اختلاف تخصصاتهم، ولاغربة فى ذلك، فقد انشغلت أجيال متعاقبة بالعلوم الدينية، ومن ثم كثر الشيوخ فى كل فروعها ومع ذلك فإنه لم يهمل باقى الفئات والطوائف.

منهج الكتاب :

لم تصل إلينا مقدمة كتاب «المقفى» ليتسنى معرفة الخطوط العريضة لمنهجه على أن

المقرئى عرّف بمنهج بنفسه فى كتابه «الخطط» ومن خلال قراءة مادة الكتاب كلها، يمكن إجمال منهج المقرئى فى «المقنئ» فىما يأتى:

أولاً : الترتيب الألفبائى :

جرت عادة كثر من مؤرخينا التزام طريقة الترتيب الألفبائى فىما صنفوه من كتب الطبقات والتسراجم^(٢٣)، فرتبوا الأعلام فىها بحسب حروف المعجم، بهدف التسهيل على القراءة والمطلعين، وهو الأمر الذى أعلنوه . فالخطيب البغدادى- على سبيل المثال - ذكر منهجه فى بداية كتابه «تاريخ بغداد» وبين أنه التزم بالترتيب على حروف الهجاء «ليسهل إدراك ذلك على طالبه، وتقرب معرفته من مبتغيه»^(٢٤). وهذا ما صرح به أيضاً ابن تغرى بردى^(٢٥)، والسخاوى^(٢٦)، وغيرهما.

وبالرغم من هذا التطابق فى المنهج بين العديد من المؤرخين، إلا أنهم اختلفوا فى البدء، فبدأ بعضهم^(٢٧) كتابه بذكر سيدنا محمد ﷺ؛ إذ هو الذى بُعث بهذا الدين، ويذر أسس تاريخه وحضارته وتراثه الفكرى. وتيمّن بعضهم باسم النبى ﷺ، فبدأ بترجمة المحمدين، لثلا يتناقض مع منهجه أو ما قصد إليه فى كتابه^(٢٨). فى حين أن بعض المؤرخين بدأ كتابه بالترجمة لمؤسس الدولة التى يترجم لرجالها ومشاهيرها^(٢٩). بينما راعى بعضهم الترتيب الألفبائى فى جميع الأعلام من أول الكتاب إلى آخره .

أما المقرئى فإنه اتبع نهج الترتيب الألفبائى ، لكنه بدأ باسم «إبراهيم» ومن ثم ترجم أولاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ثم بمن أسماؤهم «إبراهيم» معللاً ذلك بقوله : «تبركاً بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه»^(٣٠). ولذا جاءت ترجمة «أبان» بعد ترجمة «إبراهيم» .

وكان من المنتظر أن يراعى المقرئى فى كتابه كله تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له وأبيه وجده ، وهكذا، لكنه لم يفعل ذلك دومًا ، فاقصر أحيانًا على مراعاة تسلسل الأسماء حسب النظام الألفبائى بالنسبة للمترجم له ولأبيه فقط، واقتصر فى أحيان أخرى على التزام هذا المنهج بالنسبة للمترجم له فقط.

ويتضح ذلك- على سبيل المثال- من خلال ترجمته لأسماء «إبراهيم بن أحمد»^(٣١)، فقد رتبهم كما يأتى:

- ١- إبراهيم بن أحمد بن عقبة بن هبة الله .
- ٢- إبراهيم بن أحمد بن علي بن إبراهيم .
- ٣- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أبي حاتم .
- ٤- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل .
- ٥- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الحارث .
- ٦- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن خلف .
- ٧- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عبدالله .
- ٨- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن علي .
- ٩- إبراهيم بن أحمد بن محمد بن سلمان .

وهنا نجد أن المقرئ قد تسلسل مع اسم المترجم له حتى ذكر والده وجده، فاعتبر الحروف في أسماء الآباء والجد الأول فقط.

ومن أمثلة إيراد المقرئ لاسم المترجم له فوالده -فقط- مسلسلاً^(٣٢) ما يأتي :

- ١- إبراهيم بن أدهم بن منصور .
- ٢- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق .
- ٣- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل .
- ٤- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب .
- ٥- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم التجيبي .
- ٦- إبراهيم بن إسحاق بن المنصور .
- ٧- إبراهيم بن إسحاق بن صالح .
- ٨- إبراهيم بن إسحاق بن عمر .
- ٩- إبراهيم بن إسحاق بن محمد .
- ١٠- إبراهيم بن إسحاق بن لؤلؤ ،

وهنا نجد المقرئ قد راعى الترتيب الألفبائي للمترجم له ولوالده فحسب ، ولم يعتبر باقى

الحروف فى باقى الأسماء .

ومن أمثلة اقتصار المقرئى على أسماء المترجمين لهم - فقط - مسلسين ومرتبين ترتيباً معجباً ما يأتى:

١- أدي بن جمار (٣٣).

٢- أرجواش .

٣- أرسلان الدوادار .

٤- أرغون الدوادار الناصرى.

٥- أرغون الناصرى .

٦- أرغون الأحمدي .

٧- أرغون العلائى .

٨- أرغون الكاملى.

٩- أرقطاي .

١٠- أزيك الحموى .

١١- أزدمر الحمصى .

١٢- أزدمر العلائى .

١٣- أزدمر الكاشف.

وهنا نجد المقرئى يراعى التسلسل الألفبائى بالنسبة للمترجم له فقط دون باقى نسبه. ونجد المقرئى يقتصر على اسم العلم المترجم له فقط مغفلاً باقى اسمه ونسبه .

على أننى لاحظت أن الأسماء السابقة غالبيتها أسماء لأمرأء ممالك . وبالكتاب أسماء أخرى قليلة لغيرهم، سلك معهم المقرئى المسلك السابق نفسه ، واشتهروا -هم وغيرهم- بألقابهم دون نسبهم ، وهو ما شاع وانتشر فى المصادر المملوكية كلها (٣٤). ولذا أرى أن المقرئى يُعذر هنا عندما اقتصر على الاسم الأول، وإن كان بإمكانه الإتيان باسم الأب على الأقل .

لكن المقرئى لا يُعذر عند إخلاله بالترتيب الألفبائى بالنسبة للمترجم لهم، وحدث هذا

أحيانًا، ومن أمثله (٣٥):

- ١- بوري بن أيوب .
 - ٢- بنان سعيد السعداء .
 - ٣- بهرام بن أسيد .
- ومنه (٣٦):

- ١- بيدمر البدرى .
 - ٢- بدرجك الناصرى .
- ومنه (٣٧):

- ١- برسبغا الحاجب .
 - ٢- بركات .
 - ٣- برجوان .
 - ٤- بيسرى .
- ومنه (٣٨):

- ١- جيرجين الخازن .
- ٢- جرجس بن ميخائيل .
- ٣- جعفر بن إسماعيل .
- ٤- جعفر بن أحمد .
- ٥- جعفر بن بدر .
- ٦- جعفر بن الحسن .
- ٧- جرجس المكين .
- ٨- جرجى بن ميخائيل .

ومنه : إقحام اسم «عبد الأحد» و«عبد الأعلى» بين تراجم أسماء «عبدالله»^(٣٩)، وإقحام اسم «عبد الباري» بين تراجم «عبدالله»^(٤٠).

وهكذا إذا تتبعنا كل تراجم «المقفى» وقفنا على عدم مراعاة المقرئى لمنهج واحد، ونظام موحد فى تسلسل الأسماء حسب حروف المعجم بالنسبة للمترجم له ثم لأبيه وجده، وإنما اقتصر المقرئى على ذكر المترجم له وأبيه فقط أحياناً ، وذكر المترجم له فقط أحياناً أخرى. وحدثت بعض المخالفات اليسيرة القليلة لمنهج الترتيب الألفبائى للأعلام بالمقفى ، فجاءت أعلام فى غير ترتيبها الصحيح وموضعها المناسب .

ثانيا : الحرص على ذكر اللقب أو الكنية والنسبة:

حرص المقرئى فى كتابه (المقفى) كل الحرص على ذكر لقب المترجم له أو كنيته أو نسبته إلى قبيلته وفروعها أو إلى مدينته أو جنسه أو غير ذلك، ونذر أن يأتى ذكر للعلم دون لقبه أو نسبته أو كنيته^(٤١)، وكان المقرئى يذكر ذلك فى أول الترجمة مباشرة بعد ذكر الاسم. كما حرص المقرئى على ذكر مكانة المترجم له العلمية أو ذكر مناصبه وأعماله نحو «الحافظ»^(٤٢) و«المقرئ»^(٤٣) و«الواعظ»^(٤٤) و«محدث الإسكندرية»^(٤٥) و«الكاتب»^(٤٦) و«الشاعر»^(٤٧) و«النحوى»^(٤٨) و«الطيب»^(٤٩) و«التاجر»^(٥٠)... الخ .

هكذا نسب المقرئى كل علم إلى علمه أو عمله أو صناعته وحرفته أو مدينته أو جنسه ، ولما ترك علماً اشتهر بشىء وعرف به إلا ذكره . وهذا الصنيع من المقرئى مفيد عند تشابه الأسماء، ويسر على القارئ معرفة الأعلام المرادة بسرعة، والوقوف على المعلومات المطلوبة بيسر وسهولة .

ثالثاً : تحقيق أمر الولادة والوفاة :

اعتنى المقرئى فى «المقفى» بذكر تاريخ مولد ووفاة المترجم لهم، وكان أحياناً يذكر يوم وشهر الولادة أو الوفاة، ومنه قوله - على سبيل المثال - «توفى بالقاهرة فى يوم الجمعة سادس شعبان سنة عشر وسبعمائة»^(٥١).

وكتب المقرئى - أحياناً قليلة - تاريخ الولادة والوفاة بالأرقام وليس بالحروف كما هو الشائع عنده ، ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وجاء فيها أنه ولد سنة ١٨٢هـ، ومات سنة ٢٦٨هـ وهو ابن ٨٦ سنة. وهكذا بالأرقام^(٥٢).

وإذا حدث أن كان هناك تاريخان أو أكثر للولادة أو الوفاة ، فإن المقرئ غالباً ما يورد ذلك. ومن أمثلة ذلك ترجمته لمحمد بن عثمان الربيعي ، وجاء فيها : « ولد في عاشر صفر سنة إحدى عشرة - وقيل : سنة اثنتى عشرة وستمئة » (٥٣).

ومن ذلك أيضاً قوله : « مات في أخريات جمادى الأولى سنة ثمان وسبعمائة . ورأيت في موضع آخر أنه مات بالقاهرة في يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة » (٥٤). أما إذا لم يكن متأكداً من تاريخ الولادة أو الوفاة ، فإن الدقة والأمانة العلمية اللذين يتمتع بهما مؤرخنا المقرئ جعلته يختتم ذكر تاريخ الولادة أو الوفاة بقوله : « تخميناً » وكثير استعمال هذه الكلمة عنده ، ومن أمثلتها ما جاء في ترجمته لشمس الدين الرقائى وقوله : « مولده سنة تسع وخمسين وستمئة تخميناً » (٥٥).

ويبدو حرص المقرئ الشديد على تحقيق تاريخ الولادة والوفاة معاً للمترجم لهم - أو ذكر أحدهما - من تركه فراغاً عند عجزه عن الوصول إلى تاريخ الميلاد أو الوفاة ؛ ريثما يتمكن من الوصول إليه ، وحينئذ يورخ بهذا التاريخ. ولذا جاءت في كتابه عبارات مثل « ولد في [...] » (٥٦) و « توفي في ... » (٥٧).

وبالرغم من وضوح جهد المقرئ في تحقيق أمر الولادة والوفاة ، إلا أنه لم يتمكن من فعل ذلك لكل علم وترجمة من أعلام وتراجم « المقفى » ، فجاءت بعض الأعلام بلا ذكر لتاريخ ميلادها ، ووردت بعض التراجم بلا تحديد لتاريخ وفاتها ، وضم الكتاب أعلاماً عديدين لم يذكر تاريخ ولادتهم ووفاتهم (٥٨).

لكن الغالب في جميع الأحوال تمكن المقرئ من ذكر تاريخ الوفاة دون تاريخ الميلاد لكل الشخصيات المترجم لها ، لصعوبة العثور على تاريخ الولادة أحياناً (٥٩).

ولى ملاحظة مهمة بشأن التراجم التي لم يذكر المقرئ تاريخ ميلادها ، وهى أن كثيراً منها لم يتحدد تاريخ ولادتها في المصادر السابقة على المقرئ أيضاً ، ومن أمثلة ذلك تراجم :

١ - إبراهيم الخواص (ت ٢٩١هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ ولادته (٦٠).

٢ - إبراهيم بن بشار. لم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ ولادته ولا وفاته (٦١).

٣ - إبراهيم بن إسماعيل (ت ٢١٨هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ ولادته (٦٢).

٤ - إبراهيم بن إسماعيل (ت ٧٠٨هـ) . لم يذكر الإدقوى تاريخ ولادته (٦٣).

- ٥- إبراهيم بن جعفر (ت ٧٢٩هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته (٦٤).
 - ٦- إبراهيم بن ثابت (ت ٤٣٢هـ) ، لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته (٦٥).
 - ٧- محمد بن إبراهيم (ت ٣٥٠هـ) . لم يذكر ابن الجزرى تاريخ ولادته (٦٦).
 - ٨- حمزة بن محمد (ت ٦٨٢هـ) . لم يذكر الإدفوى تاريخ ولادته (٦٧).
 - ٩- خالد بن زيد (ت ٥٢هـ) . لم يذكر الذهبى ولادته (٦٨).
 - ١٠- محمد بن إبراهيم (ت ٢٧٦هـ) . لم يذكر الخطيب البغدادى تاريخ ولادته (٦٩).
- وهناك تراجم قليلة محدودة لم يأت تاريخ ولادتها فى بعض المصادر وجاء ذلك فى مصادر أخرى (٧٠).

ومما سبق يتبين لنا أن كثيراً من الأعلام التى لم يتوصل المقرئى إلى تاريخ مولدهم، وتوصل إلى تاريخ وفاتهم^(٧١) ولم يظفر السابقون عليه بتاريخ مولدهم أيضاً. وهذا يؤكد ما ذهب إليه من أن المقرئى بذل طاقته فى تحقيق تاريخ ميلاد ووفاة المترجم لهم فى «المقفى» ونجح فى ذلك كثيراً ، فى حين أنه لم يتمكن من تحديد تاريخ الميلاد أحياناً إلا أنه تمكن من تحقيق أمر الوفاة، وعجز فى أحيان قليلة- بالنسبة لتراجم الكتاب كله- عن الوصول إلى تحديد تاريخ الميلاد والوفاة معاً، وإن كانت النية موجودة فى ذكر هذا عندما يتيسر ذلك للمقرئى، وهذا يعلل وجود بعض الفراغات فى المقفى.

رابعاً : ضبط الأعلام والأنساب :

إن كثيراً من أسماء الأعلام تتشابه فى الخط أو الحروف المتشابهة كالجيم والحاء والخاء والذال والذال ، والسين والشين، فإذا أهمل أو نسى نقط هذه الحروف ، فإن الأمر يختلط على القارئ فلا يدري إذا كانت حقيقة العلم «مزامح» أو «مراجم» وهكذا. وقد يتحد الاسمان فى الحروف تماماً، ولكن الضبط بالشكل يختلف فى واحد عنه فى الآخر. وهناك أسماء أعلام لا يستقيم النطق بها صحيحاً إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات (٧٢).

من هنا كانت عناية المقرئى بضبط الأعلام والأنساب فى «المقفى» عناية فائقة ، أمن القارئ من خلالها من التصحيف والتحريف اللذين تقتضيهما طبيعة رسم الحروف العربية ، وأغنته عن الرجوع إلى كثير من المصادر لضبط الأعلام أو المدن أو غير ذلك فى كتب الأنساب والمعاجم الجغرافية أو اللغوية.

ومن أمثلة ضبط الأعلام:

- ١- محمد بن إبراهيم بن غفار : بكسر الغين المعجمة ثم فاء وراء مهملة (٧٣).
- ٢- محمد بن إبراهيم بن الهمام : بضم الهاء وفتح الميم (٧٤).
- ٣- محمد بن أحمد التغلبى : بفتح المثناة والفين المعجمة (٧٥).
- ٤- محمد بن عبد الرحمن الجباب. والجباب بجيم مفتوحة، وباء موحدة مشددة، وهو لقب لجده (٧٦).
- ٥- محمد بن عبد الرحمن بن حقة : بحاء مهملة وقاف وباء موحدة (٧٧).
- ٦- محمد بن عبد الرحمن بن ثمير : بضم الثاء المثلثة وفتح الميم وسكون الياء آخر الحروف ثم راء مهملة (٧٨).
- ٧- محمد بن محمد النفاخ : بفتح النون والفاء المشددة ، وبعدها ألف ثم خاء معجمة ، وقيل حاء مهملة (٧٩).
- ٨- محمد بن محمد بن عتيبة : بضم العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق، ثم ياء آخر الحروف وباء موحدة (٨٠).
- ٩- محمد بن محمد طرخان بن أوزلغ الفارابى : وطرخان بفتح الطاء المهملة وسكون الراء وفتح الحاء المعجمة ، وبعد الألف نون : اسم أعجمى . وأوزلغ بألف مفتوحة وعين معجمة : اسم تركى . والفارابى : نسبة إلى فاراب ، وهى مدينة فوق الشاش ، وهى قاعدة من قواعد مدن الترك . ويقال لها : فاراب الداخلة. وفاراب الخارجة ، وهى من أطراف بلاد فارس. وهى بفتح الفاء والراء وبينهما ألف، وبعدها باء موحدة. وتسمى أطرار بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة، وبين الراءين ألف ساكنة . ويقال : [...] (٨١).

وكان المقرئ كثيرا ما يضبط الأسماء أو الألقاب أو الكنى فى أول الترجمة، وضبطها أحيانا فى وسط الترجمة، وأحيانا فى آخرها (٨٢).

ومن أمثلة ضبط وتحقيق الأنساب :

- ١- إبراهيم بن سليمان الحرسى. نسبة إلى الحرس، بفتح الحاء المهملة والراء ثم السين

المهملة، قرية شرقى مصر (٨٣).

٢- إبراهيم بن حميد الكلابزى . بفتح الكاف، وبعد اللام باء موحدة مكسورة، ثم زاي، نسبة إلى ضيعة بالبصرة تعرف بالكلابية (٨٤).

٣- أحمد بن عيسى المقبرى. والمقير بضم الميم وفتح القاف ثم ياء آخر الحروف ساكنة بعدها راء مهملة : قرية من أعمال الكرك (٨٥).

٤- أسعد بن أحمد المعروف بابن اللمطى. واللمطى نسبة إلى لمطة- لفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة- قبيلة من البربر (٨٦).

٥- محمد بن إبراهيم بن أحمد الخبرى. بالخاء المعجمة المفتوحة وسكون الباء الموحدة، ثم راء، نسبة إلى خير قرية من قرى شيراز من خير سروشين وهى إقليم من عمل شيراز مشربهم فى جبل الدينار. وثم خير آخر يقال له خير سمكان من عمل شيراز أيضا (٨٧).

٦- محمد بن إبراهيم اليقورى . نسبة إلى يقورة بياء آخر الحروف مفتوحة، وقاف مشددة ، وراء مهملة : بلد بالأندلس (٨٨).

٧- محمد بن إبراهيم الأردستانى . أردستانى نسبة إلى أردستان بفتح اللام وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق ثم نون، وهى بلدة على ثمانية عشر فرسخا من أصبهان (٨٩).

٨- محمد بن حمير السليحي . قال السمعاني : السليحي بضم السين المهملة وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف، وفى آخرها حاء مهملة: نسبة إلى سُلَيْح وهو بطن من قضاة . وقيل بفتح السين وكسر اللام. قال ابن الأثير: والصحيح الثانى، والأول لا يصح ، وهو سُلَيْح ، واسمه عمرو بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاة (٩٠).

٩- محمد بن عبد العزيز الجوزى، بالجيم والزاي المعجمة، من حمص الأندلس (٩١).

١٠- محمد بن مفرج القبشى، بقاف مضمومة وياء موحدة ثم شين معجمة: عين بقرطبة (٩٢).

١١- محمد بن محمد الكركنتى، نسبة إلى كركنت بكسر الكافين بينهما راء مهملة ساكنة، وبعدها نون ثم تاء مثناة من فوق ، قرية من قرى القيروان (٩٣).

واكتفى المقرئى أحيانا بنسبة الأعلام إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن أو غير ذلك
ومنه :

- ١- أحمد بن عبد الرحمن درادة . ودرادة قبيلة من الأكراد (٩٤).
- ٢- إبراهيم بن عبد الله اليابرى . نسبة إلى يابرة من كورة باجة فى غرب الأندلس (٩٥).
- ٣- محمد بن أحمد بن أبى فروة الشعبانى . قال ابن يونس : والشعبانى من بنى شعبان بن عمرو بن قيس بن معاوية من حمير . فأهل مصر إذا نسبوا إليه قالوا : الأشعوبى . وأهل الكوفة يقولون : الشعبى . وأهل الشام يقولون : الشعبانى . وأهل اليمن يقولون : ذو شعبين . وكلهم يريدون شعبان بن عمرو بن قيس (٩٦).
- ٤- محمد بن مصطفى الصُّلغرى - وصلغرفخذ من الترك، الدوركى - ودورك من بلاد الروم، بالقرب من ملطاية (٩٧).
- ٥- محمد بن إبراهيم المعروف بالكيزانى، نسبة إلى عمل الكيزان، وكانت صناعة بعض أجداده . وكيزان مدينة بازربيجان (٩٨).

كذلك بين المقرئى المراد من بعض الأنساب ، ومنه :

- ١- أحمد بن محمد السُّلفى . نسبة إلى السلفة - بكسر السين المهملة وإسكان اللام، ثم فاء أخت القاف مفتوحة بعدها هاء - وهو لقب جده أحمد، وهو فارسى معناه : ثلاث شفاة ، فإن شفته كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، سوى الشفة الصحيحة (٩٩).
- ٢- محمد بن أحمد المفيد . بضم الميم وكسر الفاء وإسكان الياء آخر الحروف، ثم دال مهملة: اسم لمن يفيد الناس الحديث من الشيوخ (١٠٠).
- ٣- محمد بن عبيد الله المعروف بالأدرع . قيل له : «الأدرع» من أجل أنه كان بسواد الكوفة سبع أدرع يؤذى الناس ولا يطاق ، فخرج إليه ربادره وقتله، ف قيل له الأدرع لقتله الأسد الأدرع (١٠١).

وفى حالة عدم إمكانية النسبة إلى البلدان أو القبائل أو الحرف والمهن والصناعات ، وعدم وجود تفسير وعلة للقب ، فإن المقرئى كان يصرح بهذا ، ومن ذلك ترجمة المقرئى لمحمد بن عبدالله الملطى وقوله : «والملطى لقب عرف به» (١٠٢).

وجرت عادة المقرئ أن يحقق الأنساب في آخر ترجمة العلم وخالف هذا المنهج قليلا، فجعل هذا التحقيق والشرح والبيان في أول الترجمة أو في وسطها .

ونادراً ما ترك المقرئ نسبة دون توضيح أو تفسير أو بيان ، ومنه ترجمته لأحمد بن عبد الدايم الشارمساجي^(١٠٣) المنسوب إلى إحدى بلاد الدقهلية^(١٠٤).

وهكذا تعرفنا من خلال التزام المقرئ بمنهج تحقيق وضبط الأعلام والأنساب على العديد من المدن المختلفة في أنحاء العالم الإسلامي، فضلا عن ضبط الأعلام، الأمر الذي يغنينا عن العودة إلى المعاجم اللغوية وكتب الأنساب، وهذا كله أدى إلى أن يكون الكتاب- في هذا المجال- منقحا متقنا، بلغ الغاية في هذا الباب .

وقد اعتمد المقرئ في ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب على المصادر الآتية :

١- ابن ماكولا (ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) صاحب كتاب «الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب».

٢- ابن نقطة (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) صاحب كتاب «إكمال الإكمال» . وأكمل به كتاب «ابن ماكولا».

٣- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) صاحب كتاب «اللباب في تهذيب الأنساب».

٤- السمعاني (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) صاحب كتاب «الأنساب».

٥- الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) صاحب كتاب «تاريخ بغداد» .

وقد صرح المقرئ بالنقل عن هذه المصادر - أحيانا بقوله : «قال السمعاني»^(١٠٥) وقال «ابن نقطة»^(١٠٦) و «قال ابن الأثير»^(١٠٧) وقاله «ابن سيد الناس»^(١٠٨).

خامسا : النقل عن المعاصرين أو القريبين للأحداث :

اتجه المقرئ في كتاباته التاريخية إلى منهج قويم صحيح هو النقل عن مؤرخي البلد التي يتناول تاريخها ، والأخذ عن المعاصرين للأحداث التاريخية أو القريبين منها ، فلم يكن نقله للأحداث والوقائع التاريخية - إذا - عشوائيا دون اعتناء أو تدقيق ، وإنما كان المقرئ يعي طبيعة المادة التاريخية ومصادرها ، ومن ثم بذل جهده في استخلاصها من أصحابها المعاصرين لها المتصلين بها أو القريبين منها. وقد صرح المقرئ في كتابه «الخطط» بالنقل عن مؤرخي

الإقليم الذى يكتب عنه عندما نقل خبرا عن ابن الأثير، وابن زولاق المصرى، ورجح رأى المؤرخ المصرى معللا ذلك بقوله: «وأهل كل قطر أعرف بأخباره ، ومؤرخو مصر أدرى بمجرياتة ، وفوق كل ذى علم عليهم» (١٠٩).

وظهر منهج المقرئى السابق فى كتابه «المقفى» ظهورا واضحا، فكان يأخذ مادته التاريخية عن أعلامه من المصادر القريبة منه زمنيا ، ومن نماذج ذلك :

١- ترجمته لأبى بكر الغزارى (ت ٣١٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس - ت ٣٤٧هـ : «قدم مصر سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة، كتبنا عنه» (١١٠).

٢- ترجمته لأبى الحسن بن السوار (ت ٢٩٧هـ) وقوله : «قال ابن يونس : كتبت عنه ولم يكن ثقة» (١١١).

٣- ترجمته لأبى الحسن بن نوح (ت ٣٢١هـ) وقوله : «قال ابن يونس : قدم مصر، وكتبنا عنه، وكان ثقة حافظا ، وكان قدومه سنة أربع وثلاثمائة» (١١٢).

٤- ترجمته لضياء الدين بن قدامة (ت ٦٤٣هـ) وقوله : «قال ابن النجار - معاصر لصاحب الترجمة- : كتبت عنه ، وهو حافظ متقن ثقة صدوق حجة، عالم بالحديث وأقوال الرجال...» (١١٣).

٥- ترجمته للمؤرخ الأندلسى الحميدى (ت ٤٨٨هـ) صاحب الجذوة، وقوله : «قال ابن ماكولا (ت ٤٨٦هـ) : أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدى وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أر مثله فى عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم» (١١٤). اعتمد المقرئى على ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) أيضا ، فنقل عنه : «قال ابن عساكر : حدثنى يحيى بن إبراهيم قال: والدى أبو طاهر إبراهيم بن أحمد السلماسى- وكان قد لقى الأئمة- : لم تَرَ عَيْنِيْ مِثْلَ أَبِيْ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيدِيْ فِيْ فَضْلِهِ وَنَبْلِهِ وَنِزَاهَةِ نَفْسِهِ وَغِزَارَةِ عِلْمِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ» (١١٥).

٦- ترجمته لابن الحمامى البزاز (ت ٤٨٨هـ) وقوله : «قال السلفى - ت ٥٧٦هـ- : كان من فقهاء الشافعية ، كبير السن، ورأيت به بمصر والإسكندرية. علقت عنه فوائد من حفظه» (١١٦).

٧- ترجمته لمحمد بن عيسى الأموى (ت ٥٦٠هـ) وقوله : «قال السلفى : كان من

الأذكياء في الفقه والأدب ، وله شعر كثير، وفضائل جمة. كتب عن الحديث الكثير، وكان حسن القراءة له» (١١٧).

٨- ترجمته لأبى عبدالله الجوزى الأندلسى وقوله : «قال السلفى : قدم علينا الإسكندرية حاجاً، وهو فقيه صالح صدوق ، سألته عن مولده فقال : سنة ست وسبعين وأربعمئة بحمص ، وبها تفقّهت» (١١٨).

٩- ترجمته لابن الأكفانى (ت ٧٤٩هـ) واعتماده على الصفدى (ت ٧٦٤هـ) فى معلوماته ، يقول المقرئى: «قال الصفدى : ورأيت المولعين بالصنعة- يعنى الكيمياء - يحضرون إليه- ابن الأكفانى- ويذكرون له ما وقع من الخلل فى أثناء عملهم، فيرشدهم إلى الصواب ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد. ولم أره يعوزه شىء من كمال الأدوات» (١١٩).

١٠- ترجمته لأبى بكر الصدقى (ت ٣٦٧هـ) واعتماده على ابن الطحان (ت ٤١٦هـ) (١٢٠) وفى هذا يقول المقرئى: «وقال ابن الطحان: سمعت منه . توفى فى ذى القعدة سنة ثمان وستين. وقال فى موضع آخر : سنة تسع وستين» (١٢١).

وهكذا إذا تتبعنا «المقفى» وقفنا بكل سهولة على التزام المقرئى منهج النقل عن شارك فى الأحداث، أو كان قريباً منها، أو عايش أصحابها ، أو سمع ممن عايشهم . واستمراراً لهذا النهج فإن المقرئى عندما ترجم للمعاصرين له، فإنه حرص على إبراز الأخذ عنهم بعبارات مثل: «أخبرنى» و «قال لى» (١٢٣) تأكيداً على المشاركة والمشاهدة والمشافهة ، ومن ذلك :

١- ترجمته للطواشى مقبل الشامى (ت ٨٠٢هـ) وقوله : «أخبرنى - رحمه الله - أن السلطان الحسن (ت ٧٦٢هـ) - رحمه الله- ترك بعد موته ذخيرة فيها سبعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار مصرية، وألف ألف درهم فضة، وترك من الحلّى والجواهر والأمتعة ما لا يدخل تحت حصر لكثرتة» (١٢٤).

٢- ترجمته لمقبل الرومى (ت قبل ٨٠٠هـ) وقوله : «رافق أبى ثم رافقنى فى مباشرة بعض النواحي الأوقاف نحو الثلاثين سنة حتى مات قبيل سنة ثمانمئة ، وكان عارفاً قائماً بما يليه ، سيوسا، مهايا ، لم نر منه ما ننكره عليه، أخبرنى- رحمه الله- أنه شاهد رجلاً تغذى حتى شبع من الطعام والملح...» (١٢٥).

٣- ترجمته للصدر المناوى قاضى الشافعية (ت ٨٠٣هـ) وقوله : « أخبرنى قبل موته بمدة عن جارية تسرى بها ... » (١٢٦).

٤- ترجمته لشمس الدين بن سكر الحنفى (ت ٨٠١هـ) وقوله : « ... وأعانى الله عليه لما جاورت مكة فى سنة سبع وثمانين وسبعمئة حتى قرأت عليه كثيراً من مروياته، ولم يقع بينى وبينه سوء قط، والحمد لله، وكثر فرحه بأخذى عنه، وكتب لى خطه » (١٢٧).

ومما سبق يتبين لنا اعتماد المقرئى على المصادر المعاصرة للأحداث والوقائع التاريخية والمترجمة لأعلامه بالمقفى، وإظهار ذلك : تأكيداً على مصداقية هذه المعلومات التاريخية التى وردت بالمقفى ، وفعل ذلك أيضاً مع المعاصرين له، والذين ورد الحديث عن بعضهم بالمقفى.

سادساً : الاعتماد على العديد من المصادر :

لم يعتمد المقرئى وهو يترجم لأعلامه على مصدر واحد دون سواه، وإنما اطلع على العديد من المصادر التاريخية، ولذا كان يقدم مادة تاريخية دسمة، بها العديد من الإضافات عن المصادر التى ترجمت لهؤلاء الأعلام، إذا نظرنا إلى هذه المصادر أحادى، وهذا الصنع من المقرئى أكسب الكتاب أهمية فوق أهميته، خاصة إذا لم تقف على بعض المعلومات التاريخية فى العديد من المصادر، مما يؤكد اعتماد المقرئى على مصادر أخرى مفقودة، وبالفعل وردت فى «المقفى» أسماء لكتب مفقودة منها على سبيل المثال :

١- تاريخ مصر للقرطبى (ت ٥٦٧هـ) (١٢٨).

٢- أخبار النوبة لابن سليم الأسوانى (١٢٩).

٣- نسب الأبناء لابن الكلبي. وعنه يقول المقرئى : «وهو عندى بخطه» (١٣٠).

٤- كتاب «الكنوز» (١٣١).

٥- تاريخ مصر لابن الطحان (١٣٢).

٦- السيل والذيل للعماد الأصفهاني (١٣٣).

٧- الخطط لأبى عبدالله محمد بن سلامة القضاعى (١٣٤).

إلى غير ذلك من كتب مفقودة اطلع عليها المقرئى ، واستفاد منها ومن غيرها فى تصنيف كتابه «المقفى» ، ولعل هذا يفسر وجود تراجم عديدة بالمقفى ، ولا أثر لها فى غيره من مصادر تاريخية (١٣٥).

وقبل الخوض فى هذه الجزئية يجدر بى أن أبين عدة أمور متصلة بمصادر المقرئى وأساسه موضوع المصادر، وسأناقش -بعد قليل - باحثاً ذكر أن المقرئى قلما يشير إلى مصادره ، وكثيراً ما ينقل من المصادر دون تحفظ أو تحرج.

والواقع أن المقرئى فى كتابه «المقفى» كان أحياناً يذكر مصادره التى استفاد منها، وأحياناً يغفلها - مثلاً يفعل كثير من مؤرخينا القدامى - وكان المقرئى يصرح فى بعض الأحيان بالمؤلف دون مؤلفه ، ويذكر المؤلف والمؤلف فى أحيان أخرى. لكن الشئ المؤكد - الذى سأدلل عليه بعد قليل - هو أن المقرئى اطلع على العديد من المصادر عند ترجمة كل علم من أعلامه.

مصنفون ذكرت مؤلفاتهم :

- ١- ابن حبان صاحب «الثقات» (١٣٦).
- ٢- أبو الحسن أحمد بن الزبير صاحب «جنان الجنان ورياض الأذهان» (١٣٧).
- ٣- الصولى صاحب «شعراء مصر» (١٣٨).
- ٤- ابن أبى أصبغة صاحب : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» (١٣٩).
- ٥- الزبىدى صاحب «طبقات النحاة» (١٤٠).
- ٦- الشيرازى صاحب «طبقات الفقهاء» (١٤١).
- ٧- اليونينى صاحب «ذيل مرآة الزمان» (١٤٢).
- ٨- النسائى صاحب «الضعفاء» (١٤٣).
- ٩- العماد الأصفهانى صاحب «السيلى والذيل» (١٤٤) و «الخريدة» (١٤٥).
- ١٠- نصر بن مزاحم «كتاب صفين» (١٤٦).
- ١١- ابن الداية صاحب «سيرة ابن طولون» (١٤٧).

- ١٢- ابن وحشية صاحب «الفلاحة النبطية» (١٤٨).
 - ١٣- العمرى صاحب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» (١٤٩).
 - ١٤- القفطى صاحب «تاريخ النحاة» (١٥٠).
 - ١٥- المسبحى صاحب «تاريخ مصر» (١٥١).
 - ١٦- أبونعيم صاحب «تاريخ أصفهان» (١٥٢).
 - ١٧- ابن سعيد صاحب «المغرب فى حلى بلاد المغرب» (١٥٣).
 - ١٨- ابن الجوزى صاحب «الضعفاء» (١٥٤).
 - ١٩- ابن رشيقي صاحب «الأنموذج» (١٥٥).
 - ٢٠- ابن الأثير صاحب «أسد الغابة» (١٥٦).
 - ٢١- ابن زولاق صاحب «قضاة مصر» (١٥٧) و «سيرة المعز لدين الله» (١٥٨).
 - ٢٢- الإدفعى صاحب «الطالع السعيد» (١٥٩).
 - ٢٣- ابن الآبار صاحب «تحفة القادم» (١٦٠).
 - ٢٤- ابن يوسف الجرجاني صاحب «طبقات الشافعية» (١٦١).
 - ٢٥- ابن عبد الظاهر صاحب «الشعراء العصرية» (١٦٢).
 - ٢٦- غنجار صاحب «تاريخ بخارى» (١٦٣).
 - ٢٧- ابن المستوفى صاحب «تاريخ إربل» (١٦٤).
 - ٢٨- الخطيب البغدادي صاحب «المتفق والمفترق» (١٦٥)، و «تاريخ بغداد» (١٦٦).
- إلى غير ذلك من مصادر صرح المقرئى بها وباسم مصنفها (١٦٧).

مصنفون ذكروا دون مؤلفاتهم :

صرح المقرئى بالنقل والأخذ عن عدد كبير من المؤلفين والمؤرخين دون أن يصرح بكتبهم ،
وأبرز هؤلاء المؤرخين هم :

- ١- البلاذرى (١٦٨).
- ٢- الطبرى (١٦٩).

- ٣- الذهبى (١٧٠).
 ٤- الصفدى (١٧١).
 ٥- البرزالى (١٧٣).
 ٦- ابن يونس (١٧٤).
 ٧- ياقوت (١٧٤).
 ٨- المنذرى (١٧٥).
 ٩- ابن ماكولا (١٧٦).
 ١٠- ابن حجر (١٧٧).
 ١١- الواقدى (١٧٨).
 ١٢- السمعانى (١٧٩).
 ١٣- ابن عسكر (١٨٠).
 ١٤- ابن ميسر (١٨١).
 ١٥- السلفى (١٨٢).
 ١٦- ابن الفرضى (١٨٣).
 ١٧- ابن العديم (١٨٤).
 ١٨- الكندى (١٨٥).
 ١٩- القشبرى (١٨٦).
 ٢٠- ابن خلكان (١٨٧).
 ٢١- ابن سعد (١٨٨).
 ٢٢- الحميدى (١٨٩).
 ٢٣- ابن بشكوال (١٩٠).
 ٢٤- ابن حيان (١٩١).
 ٢٥- ابن النجار (١٩٢).
 ٢٦- أبو العرب (١٩٣).
 ٢٧- ابن فضلان (١٩٤).
 ٢٨- أبو الفرج الأصفهانى (١٩٥).
 ٢٩- البيهقى (١٩٦).
 ٣٠- ابن النديم (١٩٧).
 ٣١- ابن العربى (١٩٨).
 ٣٢- الديبشى (١٩٩).
 ٣٣- الخاليدان (٢٠٠).
 ٣٤- التنوخى (٢٠١).
 ٣٥- ابن عبد الحكم (٢٠٢).
 ٣٦- ابن وصيف شاه (٢٠٣).
 ٣٧- السبكى (٢٠٤).
 ٣٨- المالكى (٢٠٥).
 ٣٩- القاضى (٢٠٦).
 ٤٠- الحسن الهمدانى (٢٠٧).

وهكذا اعتمد المقرئ على عدد وافر من المصادر المتنوعة المختلفة، وأحسن الاستفادة منها، وعرضها عرضاً بارعاً فى كتابه «المقفى».

ويمكن لى - الآن - تقديم أمثلة لمؤرخين نقل عنهم المقرئ لأبىن أمرين :

الأول: اعتماده على أكثر من مصدر فى كل ترجمة .

الثانى - طريقته فى النقل .

١- ترجمة المقرئزى لابن الباغندى (ت ٣١٢هـ) وفيها نقل المقرئزى عن الخطيب البغدادى (٢٠٨) مريت ، وعن الذهبى (٢٠٩) ، ومع ذلك انفرد المقرئزى ببعض معلومات عن شيوخ ابن الباغندى (٢١٠) .

٢- ترجمة المقرئزى لأبى جعفر الجمال (ت ٣٤٦هـ) وفيها نقل المقرئزى بأمانة عن الخطيب (٢١١) ، وعن السمعانى ، وعن الذهبى (٢١٢) ، لكن المقرئزى ذكر عدداً من شيوخ الجمال أكثر مما ذكره هؤلاء المؤرخون السابقون ، الأمر الذى يثبت اطلاع المقرئزى على مصادر أخرى (٢١٣) .

٣- ترجمة المقرئزى لأبى الحسين الحجاجى (٢١٤) وفيها ذكر كل شيوخ المترجم له فى حين أن الخطيب البغدادى (٢١٥) والذهبى (٢١٦) اكتفيا بذكر شيخ واحد من شيخ «الحجاجى» بمصر، كما أن المقرئزى انفرد بمعلومات أخرى عن المصدرين السابقين.

٤- ترجمة المقرئزى للأبهرى (ت ٣٧٥هـ) وفيها نقل المقرئزى عن الخطيب البغدادى (٢١٧) والذهبى (٢١٨) ومع ذلك بالمقضى إضافات تزيد عما ورد فى المصدرين السابقين، مما يؤكد اعتماد المقرئزى على مصدر ثالث (٢١٩) .

٥- ترجمة المقرئزى لابن الهنى (٢٢٠) ، وفيها زاد عما ذكره ابن الجزرى فى ترجمته (٢٢١) .

٦- ترجمة المقرئزى للبار (ت ٥٣٠هـ) وفيها اعتمد المقرئزى (٢٢٢) على السلفى ، والسمعانى ، والمقدسى ، فجاءت الترجمة وافية إذا ما قورنت- على سبيل المثال- لدى الصفدى فى «الواقى» (٢٢٣) .

٧- ترجمة ابن الخيمى المحلى (٢٢٤) (ت ٧٣٨هـ) وفيها انفرد المقرئزى بمعلومات وأخبار عن صاحب الترجمة لم تأت عند الصفدى (٢٢٥) أو ابن حجر (٢٢٦) ولم يذكر المقرئزى مصادر معلوماته هذه .

٨- ترجمة ابن البابا (ت ٧٤٦هـ) وفيها انفرد المقرئزى ببعض المعلومات (٢٢٧) عن الصفدى المعاصر لابن البابا ، والذى استقى منه المقرئزى بعض الحقائق التاريخية بتصرف (٢٢٨) .

٩- ترجمة ابن الزبير القاضى (٢٢٩) (ت ٥٦٢هـ) وفيها وردت زيادات عن ترجمة الصفدى له (٢٣٠)، وانفرد المقرئى بذكر أن صاحب الترجمة سمع من السلفى، وقرأ عليه، ولازمه، وأنه كان عالماً بالهندسة، وأورد المقرئى أقوالاً للحافظ السلفى والمنذرى عن ابن الزبير.

وهكذا إذا قارنا بين تراجم المقرئى فى «المقفى» وبين التراجم نفسها فى المصادر الأخرى استطعنا أن نقف بكل سهولة على عدة أمور من أهمها:

- ١- كان المقرئى يعتمد على العديد من المصادر فى الترجمة لأعلامه، ولا يقتصر على مصدر واحد حتى وإن كان هذا المصدر معاصراً للأحداث وللمترجم لهم، فإن المقرئى كان يستكمل معلوماته من مصادر أخرى متاحة له، بها مادة جديدة، وهذا الأمر يؤكد صبره وسعة اطلاعه، ودقة استقصائه، وشدة تنقيبه عن كل معلومة تتصل بمن ترجم له.
- ٢- لم يكن المقرئى حاطب ليل ينقل كل ما وقعت عليه يده، وما رآته عيناه دون تمييز، وإنما كان ينتقى الحوادث والأخبار، ثم يرتبها ترتيباً ملائماً لمنهج، ولذا كان يتصرف فى النقل أحياناً (٢٣٢)، وكان يلتزم بحرفية النقل فى بعض الأحوال (٢٣٣)، لاسيما وهو يترجم لرجال الحديث الشريف ويبين آراء علماء الجرح والتعديل فيهم، ومن ثم يكون النقل حرفياً عمن ينقد هؤلاء المحدثين أو يعدلهم، ومنهم: أحمد بن حنبل (٢٣٤)، والحاكم (٢٣٥)، والنسائى (٢٣٦)، والدرامى (٢٣٧)، والدارقطنى (٢٣٨)، وأبوزرعة (٢٣٩)، والشيرازى (٢٤٠)، وابن يونس (٢٤١)، والخطيب البغدادى (٢٤٢)، والذهبى (٢٤٣)، وغيرهم (٢٤٤).

قضية إغفال المقرئى لبعض مصادره فى «المقفى»:

أغفل المقرئى ذكر بعض مصادره عند ترجمته لبعض أعلامه، فلم يرد اسم المصدر الذى استقى منه المقرئى معلوماته، بالرغم من وجود إشارات واضحة، وقرائن قوية تدل على المصدر الذى أخذ منه المقرئى أخباره، منها معاصرة صاحب المصدر للأحداث التاريخية واتصاله بها ومشاركته فيها والإشارة إلى ذلك، ومنها: إشارة صاحب المصدر إلى تراجم سابقة أو آتية ونقل المقرئى لهذه الإشارة مع اختلاف منهج المصدرين فى الكتابين، ومنها التشابه الواضح بين المصدرين فى المعلومات التاريخية.

ومن أمثلة ذلك ترجمة المقرئى^(٢٤٥) لابن الخطيب الإسنانى (ت ٧١٢هـ) دون إشارة إلى الإدفعوى^(٢٤٦) ، وأظن أنها منقولة عنه . و ترجمة المقرئى^(٢٤٧) لابن السيد إسنانى (ت ٧٠٤هـ) وأظنها منقولة عن الإدفعوى^(٢٤٨) ، بل وأكد ذلك . و ترجمة المقرئى^(٢٤٩) لنور الدين الإسنانى (ت ٧٢١هـ) وأظنها منقولة عن الإدفعوى^(٢٥٠) أيضا . و ترجمة المقرئى^(٢٥١) للبرشانى (ت ٦٦٧هـ) وأظنها منقولة عن الصفدى^(٢٥٢) ، مع إضافات مهمة للمقرئى غير موجودة فى «الوافى» . إلى غير ذلك من أخبار نقلها المقرئى عن الصفدى^(٢٥٣) .

ولكن المقرئى كانت له إضافات دائما إلى ما ينقله ، كما أنه ذكر مصادره التى أغفلها - أحيانا - فى مواضع أخرى ، ومنها «الطالع السعيد للإدفعوى»^(٢٥٤) وكتب الصفدى^(٢٥٥) ، غيرها . ويذهب أحد الباحثين الكبار^(٢٥٦) إلى أن عدم الإشارة إلى المصادر لم يكن عيبا آنذاك ، فهناك عدد كبير من كبار المؤرخين لم يذكروا القسم الأكبر من مصادره مثل : ابن الجوزى فى «المنتظم» وابن الأثير فى «الكامل» ، والعينى فى «عقد الجمان» وغيرهم . وهناك مؤرخون لم يذكروا المصادر نهائيا وهم من ثقات المؤرخين كالمندرى فى كتابه «التكملة» . وفى الوقت نفسه كانت هناك طائفة أخرى عُنيت بذكر مصادرها ، ولكنها تفاوتت فى ذلك أيضا حيث كان قسم منهم يذكر موارده بصورة دقيقة ، بينما كان القسم الآخر يذكر موارده تارة ، ويغفلها تارة أخرى . وأظن أن المقرئى من القسم الأخير؛ ممن يذكرون مواردهم تارة ، ويغفلونها تارة أخرى .

وبسبب هذا التوجه من المقرئى تعرض لانتهاكات عديدة من المؤرخين المحدثين ، ويهمنى هنا تهمة ألصقت بالمقرئى من قبل أستاذ كبير ، وتتصل بكتاب «المقفى» .

تهمة النقل الكثير عن «ابن العديم» ومقارنة بين المصدرين:

اتهم المقرئى منذ فترة بأنه نقل كتابه «المواعظ» عن كتاب صنفه الأوحدى ، وظفر المقرئى بمسودته فنسب الكتاب إلى نفسه ، وقد فند هذه التهمة أستاذ كبير هو الدكتور سعيد عاشور^(٢٥٧) فأوضح أنه لو افترضنا - جدلاً - أن المقرئى أخذ عن الأوحدى ، فماذا يضيره أو يقلل من قيمة علمه؟ طالما أنه لم يقتصر على ما ذكره الأوحدى ، وإنما استعان بمن سبقوا الأوحدى فى كتابه خطط مصر والقاهرة ، كما أنه لو اتجهنا إلى اتهام أى مؤرخ أخذ من سابقه ومعاصريه بالسرقة لأدين بهذه التهمة جميع مؤرخى الإسلام بعد القرن الرابع للهجرة دون استثناء . لكن المقرئى فى كتابه (الخطط) كان أميناً ، وذكر أسماء من سبقوه من العلماء

والمجتهدين فى ميدان الخطط، وكان له منهج خاص به ، وإضافات مهمة تجعله أحد المؤرخين الكبار.

أقول: إن المقرئى اتهم مرة أخرى من قبل أحد الأساتذة الكبار (٢٥٨) فذكر أن المقرئى قد نهل من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم ما شاء له القدر «ولكن كما هى عادته لم يشر إلى الكتاب، فهو نادرا ما يشير إلى مصادره، أو يقوم بذكر مصادر صاحب النص المنقول عنه».

ولكنى قمت بمراجعة ومقارنة كتاب «المقفى» بكتاب «بغية الطلب» ومقابلة ما ورد فيهما من تراجم ومعلومات ، فاتضح لى عدم صحة ما ذهب إليه الدكتور سهيل زكار . وقبل التدليل على ذلك أذكر أولاً أن المقرئى أشار إلى النقل من ابن العديم أحيانا (٢٥٩)، وأقدر أن التراجم المشتركة بين المؤرخين الكبيرين بلغت إحدى وأربعين ترجمة .

ويمكن لى تقسيم هذه التراجم المشتركة إلى عدة أنواع :

١- تراجم انفرد بها المقرئى بمعلومات عن ابن العديم، وبلغت هذه التراجم تسعة عشر موضعاً ، من أمثلتها:

ترجمة أحمد بن شعيب بن على النسائى ، وانفرد فيها المقرئى (٢٦٠) بذكر البلاد التى تلقى بها أحمد بن شعيب العلم، وذكر جوانب من حياته الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ولم ترد عند ابن العديم (٢٦١).

ترجمة أحمد بن نصر النيسابورى (ت ٢٤٥هـ) وفيها انفرد المقرئى (٢٦٢) بترجمة طويلة عن ابن العديم (٢٦٣) الذى ترجم للنيسابورى فى كلمات قليلات.

ترجمة أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) وفيها انفرد المقرئى (٢٦٤) بمعلومات عن ابن العديم (٢٦٥).

ترجمة إسحق بن محمد بن المؤيد (٢٦٦) (ت ٦٢٣هـ) وفيها انفرد المقرئى بمعلومات غير موجودة لدى ابن العديم (٢٦٧).

ترجمة إسماعيل بن إبراهيم بن غازى (ت ٦٣٧هـ) وفيها انفرد المقرئى (٢٦٨) بمعلومات عن شيوخه وبعض مواقفه مع المعظم عيسى بن العادل، ولم ترد عند ابن العديم (٢٦٩).

ترجمة أصبغ بن عبد العزيز الأموى، وجاءت مفصلة عند المقرئى (٢٧٠)، موجزة عند ابن العديم (٢٧١).

ترجمة الحر بن يوسف بن يحيى (ت ١١٣هـ) وجاءت بزيادات لدى المقرئى (٢٧٢) عن ابن العديم (٢٧٣).

ترجمة حماد بن هبة الله بن حماد (ت ٥٩٨هـ) وفيها انفرد المقرئى (٢٧٤) عن ابن العديم (٢٧٥) بأن حماداً ألف كتاباً جمع فيه من اسمه «حماد» . ولدى الصفدى (٢٧٦) ترجمة لحماد هذا، لكن ترجمة المقرئى أشمل وأوفى من ترجمة الصفدى.

ترجمة حوثة بن سهيل الباهلى (ت ١٣٢هـ) وجاءت شاملة وواسعة لدى المقرئى (٢٧٧)، مختصرة جداً لدى ابن العديم (٢٧٨) فى عدة أسطر قليلة.

إلى غير ذلك من تراجم (٢٧٩) وردت فى «المقفى»، و«بغية الطلب» وانفرد فيها المقرئى بمعلومات لم ترد عند ابن العديم، بالإضافة إلى تراجم أخرى وردت عند المؤرخين بزيادات هنا أو هناك.

وهكذا انفرد المقرئى عن ابن العديم بمعلومات عديدة فى مواضع مختلفة.

٢- تراجم تشابهت معلوماتها وذكر المؤرخان فيها مصادرها:

وبلغت هذه التراجم تسعاً، تشابهت فيها المعلومات، وذكر كل مؤرخ مصادره، ومعنى هذا أن المقرئى لا يعد ناقلاً - هنا - من ابن العديم، وإنما من المصادر المتعددة التى صرح بها وذكرها (٢٨٠).

٣- تراجم تشابهت معلوماتها ولم يذكر كلا المؤرخين مصدرهما، وبلغت هذه التراجم اثنتين (٢٨١).

٤- تراجم متشابهة عاصر ابن العديم أصحابها أو ذكر مصادره ولم يذكر المقرئى مصادره (٢٨٢).

بلغ هذا النوع ستاً فقط، وهنا يمكن الظن بأن المقرئى قد نقل معلومات هذا التراجم من ابن العديم بالفعل. وهكذا إذا افترضنا نقل المقرئى عن ابن العديم، فإن هذا النقل ينطبق - فقط - على هذه الحالات والتراجم الست، مع الأخذ فى الحسبان إشارة المقرئى لابن العديم ووردت هذه الإشارة مرتين - كما سبق - ولذا فالقول بأن المقرئى نهل من البغية ما شاء له القدر، قول مبالغ فيه للغاية وغير صحيح . كذلك كان للمقرئى مصادره التى ينقل منها، وليس صحيحاً أنه كان ينقل مصادر المصدر الذى يطلع عليه، لاسيما وأن المقرئى قد أشار بالمقفى أكثر من مرة إلى مصادره التى ينقل عنها (٢٨٣).

سابعاً : التدخل بالشرح أو النقد أو التعليق:

التزم المقرئى بمنهج إيراد الآراء المتعددة حول بعض الشخصيات والأعلام الذين ترجم لهم، إما لأهمية هذه الشخصية وما أحدثته من تأثير علمى قوى^(٢٨٤) أو سياسى أو غير ذلك ، وإما بسبب ما أثير حول هذه الشخصية من لفظ^(٢٨٥)، أو تشكيك فى عقيدتها أو علمها^(٢٨٦) أو دورها السياسى، وكان المقرئى يتدخل - أحياناً - مبدئياً رأيه أو معلقاً على بعض الأحداث أو ناقدًا لبعض المواقف.

وجرت عادة المقرئى فى كتبه^(٢٨٧) ومنها «المقفى» أن يقول عند التعليق أو النقد : «قال كاتبه»^(٢٨٨) أو «قلت»^(٢٨٩).

ومن أمثلة تدخل المقرئى بالتعليق ورياء الرأى:

١- تدخله مؤيداً صحة نسب الفاطميين . فلقد ترجم لعبيد الله المهدي الفاطمى ترجمة طويلة ذكر فيها الآراء الطاعنة فى نسبه والمثبتة له، وعلق على ذلك بعدة تعليقات منها قوله: «قال كاتبه : أنا استغفر الله مما سطرته»^(٢٩٠) أى من الطعن فى نسب الفاطميين . وقد استبعد المقرئى الروايات الطاعنة فى نسب الفاطميين» والذى يظهر أن هذه الأقوال موضوعة، لم يقلها أحد، بل افتراها أعداء القوم ونشروها فى الناس لينفروهم عنهم، وقد قال شيخنا العلامة أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - رحمه الله- فى كتابه الذى سماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» : «...»^(٢٩١).

٢- تدخله مؤيداً «ابن يونس» وناقداً «السمعانى فى نسبة ابن أبى فروة الشعبانى (ت ٢٥٦هـ) إلى قبيلة حمير- كما قال ابن يونس- لا إلى قيس عيلان»^(٢٩٢).

٣- تدخله مثبتاً بيتاً للبوصيرى نسبته الصفدى لغيره^(٢٩٣).

٤- تدخله بالتعليق على أحوال شيخ الظاهر بيبرس الشيخ خضر قائلاً : «والله أعلم بحقيقة حاله» وذلك بعد أن ذكر بعض الأقوال فيه، وعرض لبعض أحواله^(٢٩٤).

٥- تدخله مثبتاً الاسم الصحيح لأحد كبار الصوفية ، قيل إن اسمه : محمد بن أحمد، وقيل : الحسن بن همام، وعلق المقرئى على ذلك بقوله : «والأول أصح»^(٢٩٥).

٦- تدخله مقارناً بين التمكين لعبد الرحمن الداخل بالأندلس، وبين التمكين لمروان بن الحكم والدولة الأموية بصفة عامة بعد موقعة «مرج راهط» سنة ٦٥هـ^(٢٩٦).

٧- تدخله حاكماً على ما ذكره حذيفة بن اليمان- من أنه رأى عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب في المنام في الجنة مع رسول الله ﷺ بالوضع (٢٩٧).

٨- تدخله موضحاً طائفة القرامطة ، وأفعالهم بالمسلمين لمدة قرنين من الزمان، بعد أن ترجم لأحد القرامطة ترجمة موجزة (٢٩٨).

٩- تدخله مبيّناً طائفة الدروز في عهده ، بعد أن ترجم لأحد هؤلاء الدرزيه المؤلهين للحاكم بأمر الله (٢٩٩).

١٠- تدخله حاكماً على بعض المصادر التاريخية والمؤرخين ، ومن ذلك قوله عن مؤلفات ابن الفرات «وقفت عليها واستفدت منها مع عامية في ألفاظه» (٣٠٠). ووصفه كتاب «أعوان النصر» للصفدي بأنه مفيد إلى الغاية في معناه (٣٠١)، وثناؤه على كتب أبي الفداء (٣٠٢) والذهبي (٣٠٣).

١١- تدخله مثبتاً ولادة سيدنا إبراهيم عليه السلام في «كوثى» من إقليم بابل، وليس بغوطة دمشق كما قيل (٣٠٤).

١٢- تدخله مؤيداً ما جاء في التوراة من ضبط أسماء أجداد سيدنا إبراهيم عليه السلام، على أساس أن هذه الأسماء ليست مما يلحقه التحريف أو التبديل «أما نقله الأخبار فقد احتاروا في ضبطها لبعدهم عن معرفة العبرانية» (٣٠٥).

١٣- تدخله مؤكداً ما ورد في كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية من أخبار عن المناظرة التي جرت بين سيدنا إبراهيم وقومه، بالرغم من تأكيدده على أن ابن وحشية ليس من علماء الأديان (٢٠٦).

١٤- تدخله حاكماً ومبدياً رأيه في شهر المتنبى (٣٠٧).

وهكذا تدخل المقرئ (٣٠٨) - أحياناً - بالتعليق : شارحاً بعض الأمور وناقداً بعضها ، ومرجحاً لبعضها ، ورابطاً بين الأحداث التاريخية ومتابعا لبعضها إلى زمنه (٣٠٩).

ثامناً : عفة القلم واحترام الغير (٣١٠) :

التزم المقرئ - وهو يترجم لأعلامه - منهج ونهج : عفة القلم واحترام الغير. وكثرت العبارات الدالة على ذلك ومنها : «عفا الله عنه وسامحه» (٣١١) والله يغفر لنا وله (٣١٢) و«عسى الله أن يكفر عنه» (٣١٣) و«الله أعلم بحقيقة ذلك» (٣١٤).

ولاحظت أن المقرئى التزم هذا المنهج أيضا وهو يتحدث عن شيوخه ومن تلقى عنهم بعض الأخبار والمعلومات ، فكان يدعو لهم بالرحمة والمغفرة^(٣١٥). كما لاحظت أن المقرئى وهو يترجم لمعاصريه بالكتاب التزم هذا المنهج ، فأثنى عليهم^(٣١٦) ، ولم يقدح إلا قيمين يستحقون القدح والذم بسبب ما اشتهروا به من لهو^(٣١٧) أو سوء سيرة^(٣١٨).

ولعل مما يؤكد اتصاف المقرئى بصفة الصبر ، واحترام الغير ، والسماحة هو ما ذكره عن أحد الفقهاء المشهورين بالشدة والجفاء ، حتى أدى ذلك إلى ابتعاد الناس عنه ، ولكن المقرئى اقترب منه ، وعبر عن ذلك بقوله : «وأعاننى الله عليه لما جاورت مكة فى سنة ٧٨٧هـ حتى قرأت عليه كثيرا من مروياته ، ولم يقع بينى وبينه سوء قط ، والحمد لله»^(٣١٩).

ومن ذلك دعاؤه لرجل كان يبذل المال من أجل المناصب بقوله : «الله يغفر لنا وله»^(٣٢٠). ولاشك أن هذه الصفات مطلوبة فى المؤرخين ، وبخاصة وهم يترجمون للرجال والأعلام على اختلاف أفكارهم وميولهم ووظائفهم.

تاسعا : الأسلوب الفصيح السهل:

اتسمت لغة المقرئى فى «المقفى» باللغة الفصيحة السهلة المفهومة مما يدل على معرفة المقرئى باللغة معرفة تامة ، وهذا لا ينفى وجود كلمات قليلات عامية مثل «بس»^(٣٢١) ، وأساليب عامية مصرية مثل «فمشى حاله»^(٣٢٢). وهذه الكلمات والأساليب قليلة جدا بالكتاب ، لكن اللغة الفصيحة السهلة هى الغالبة عليه.

مقارنة بين منهج المقرئى وبين مناهج بعض مصادر سابقة عليه أو لاحقة له:

عند مقارنة منهج المقرئى فى «المقفى» وبين مناهج بعض مؤرخى التراجم السابقين على المقرئى كالصفدى أو اللاحقين له كابن تغرى بردى والسخاوى ، يتبين لنا اشتراك هؤلاء المؤرخين جميعا فى بعض الأمور منها على سبيل المثال : طريقة الانتقال من النقل إلى التعليق أو النقد وتصدير ذلك بـ «قلت» وفعل ذلك المقرئى - كما سبق - والصفدى ، وابن تغرى بردى^(٣٢٤) والسخاوى^(٣٢٥) ، ومنها : تحقيق أمر الولادة والوفاة . وقد صرح الصفدى بالتزامه هذا المنهج فى مقدمة كتابه^(٣٢٦) والتزم به ، إلا أنه - كالمقرئى - لم يتمكن من الوصول إلى تاريخ ولادة كل أعلامه ، ولم يستطع - كذلك - أن يقف على تاريخ وفاة كل مترجميه ، وبالمثل كان ابن تغرى بردى . ومن نقاط الاتفاق فى المنهج أيضا : ضبط الأعلام وتوضيح الأنساب ، وفعل ذلك الصفدى^(٣٢٧) وابن تغرى بردى^(٣٢٨) والسخاوى فى بعض الأحيان^(٣٢٩).

ومن خلال هذه القراءات السريعة فى مناهج هؤلاء المؤرخين ، اتضح لى اشتراك المقرئى مع الصفدى وابن تغرى بردى بصفة خاصة فى المنهج، مع ملاحظة أن المقرئى لم يخالف منهجه إلا قليلا، ولأن الصفدى سابق على المقرئى فلربما استفاد المقرئى من منهجه إلا قليلا، لكن الذى أوكده هو أن ابن تغرى بردى قد استفاد فى كتابه «المنهل الصافى» من منهج المقرئى، لاسيما أن ابن تغرى بردى يعد تلميذا للمقرئى ، واجتمعا معا كثيراً (٣٣٠)، واعتمد ابن تغرى بردى على كتب المقرئى (٣٣١)، ومنها «المقفى» ، لكن السخاوى يتفق مع المقرئى فى بعض الأمور القليلة ، وقد اعتمد هو الآخر على كتب المقرئى (٣٣٢).

خلاصات

- ١- تضمن كتاب «المقفى» معلومات تاريخية واسعة ، بعضها لا يوجد إلا به ، بسبب اطلاع المقرئ على المصادر التى ضاع بعضها ، واستطاع المقرئ أن يحسن الإفادة من مصادره المتعددة فى تقديم مادة جيدة أكسبت مصنفه قيمة عظيمة.
- ٢- اتبع المقرئ منهجا دقيقا منظما ؛ فبذل جهدا فى تحقيق أمر الولادة والوفاة، وفى ضبط الأعلام والأنساب ، والتزم النقل عن المعاصرين للأحداث أو القريبين منها، ونقل من المصنفات القديمة عند عدم توافر شرط المعاصرة والمباشرة أو القرب من الأحداث التاريخية.
- ٣- لم يكن المقرئ ناقلًا لكل ما تقع عليه عيناه أو تصل إليه يده، وإنما كان يجتهد فى اختيار المعلومات التاريخية من أكثر من مصدر ، ولذا كان يقدم -دوما- أخبارا ونصوصا إضافية عن المصدر الذى صرح بالنقل عنه، وهذا معناه أن المقرئ كان واسع الاطلاع ، ولديه مقدرة على الاختيار والانتقاء والعرض للحقائق والأخبار التاريخية.
- ٤- اتهم المقرئ بالنقل عن بعض المؤرخين دون تخرج، والنهل منهم دون تحفظ ، ومن هؤلاء المؤرخين : ابن العديم ، والمقرئ فى «المقفى» برىء من هذه التهمة ومن غيرها.
- ٥- لم يكتف المقرئ - أحيانا- بسرد الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما قام بالتعليق عليها أو نقدها أو شرحها ، وسار بالحديث عن بعضها إلى زمنه؛ رابطا بين الأحداث بعضها ببعض.
- ٦- وأخيرا فإن جهد المقرئ فى «المقفى» يجعل قراءه فى غنى عن الرجوع إلى المعاجم اللغوية والجغرافية وكتب الأنساب من أجل استيفاء معلومة أو بحث عن بلد أو إقليم أو مدينة أو غير ذلك .

الهوامش

- ١- أطلق المقرئزى على كتاب «المقفى» اسم «تاريخ مصر الكبير» فى كتابه «الخطط ج ٢ ، ص ٣٣» كذلك سماه السخاوى «تاريخ مصر» فى كتابه الذيل على رفع الإصر ص ٦٢.
- ٢- أطلق ابن تغرى بردى على المقرئزى لقب «عمدة المؤرخين» . ابن تغرى بردى: حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٥ و ص ٣٩ . وأطلاق السخاوى على المقرئزى لقب «مؤرخ الوقت» . السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص ٣٢٢ .
- ٣- راجع ترجمة المؤرخ الكبير تقى الدين المقرئزى فى كتاب «المنهل الصافى» «لابن تغرى بردى ج ١ ص ٤١٨-٤١٩ ، وفى كتاب «حوادث الدهور ج ١ ص ٣٩-٤١» وفى كتاب «التبر المسبوك للسخاوى ص ٢١-٢٥» .
- ٤- ثار خلف بن جبر فى خلق كثير من قبائل البربر على أبى الفتح يوسف بن زبرى ابن مناد خليفة المعز ونائبه فى إفريقية وبلاد المغرب، فزحف إليه يوسف فقتله سنة ٣٦٤هـ، وأمر بأن يطاق برأسه ورؤوس من قتل معه بالقيروان، ثم حمل منها خلف إلى القاهرة، فطيف بها أيضا. راجع المقرئزى: المقفى ج ٣، ص ٧٦٢ .
- ٥- المقرئزى: المقفى ج ٣ ، ص ٧٦٢ .
- ٦- المقرئزى : السلوك ج ٢ قسم ٢ ص ٣٦٥ .
- ٧- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ، ص ٤١٨-٤١٩ .
- ٨- السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢٣ .
- ٩- ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ونشرته دار الغرب الإسلامى- بيروت - لبنان.
- ١٠- كتاب «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة» للمقرئزى ، ترجم فيه لأعيان عصره البارزين، ووردت إحالات عليه فى كتاب «المقفى» منها على سبيل المثال إحالة المقرئزى عليه فى أثناء ترجمته للبرهان بن الحريرى الضير (ت. ٨٠٠هـ). راجع المقفى ج ١ ص ٤٤-٤٥ ، كما أحال عليه المقرئزى فى كتابه «الخطط» راجع ج ٢ ص ٣٣ و ص ٦٢ و ص ٧٤ .
- ١١- راجع المقفى ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٦-١١٧ و ج ٣ ص ٢٦٨ و ٣٠٤ و ٦٥٢ و ٦٩١ و ج ٤ ص ٤٠٣ و ٤١٩ ،

٤٤٩ و ٥٦٥ وجه ص ١٧٦ و ١٧٧ و ٦١٦ و ج ١٠٢ .

١٢- راجع المقفى ج ٥ ص ١٣٦ و ج ١ ص ٤٤١ .

١٣- راجع المقفى ج ٦ ص ١٣٨ و ١٤٥ و ج ٦ ، ص ٣١١ و ٣٣٣ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٤٤١ و ٤٤٦ .

١٤- راجع المقفى ج ٦ ، ص ١٠٢ و ١٢١ و ١٣٧ و ج ٧ ص ١٣٨ و ١٤٥ و ١٤٧ و ٣٤٣ .

١٥- وراجع بصفة عامة المقفى ج ٣ ص ٢٥٨ و ٢٧٠ و ٤٤٥ و ٤٩٨ و ٧٥٧ و ج ٤ ص ٣٩٠ و ٤٠٠ و ٤٢٥ و

٤٤٠ و ٤٤١ و ٤٥٠ و ج ٥ ص ٦٥٩ و ٦٧٣ و ٦٧٦ و ٦٧٩ ، ٦٨٦ ، و ٦٨٩ و ج ٦ ص ١٠٠ و ١٠١ و

٢١٧ و ٢١٨ و ٢٩٨ و ٤٠٨ و ٤٣١ و ٤٣٣ و ٤٤٠ و ٤٤١ و ج ٧ ص ١٠٧ و ١١٢ و ١١٣ و ١٣٨ و

١٤٥ و ١٤٧ و ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٥٢٢ و ٥٢٦ و ٥٢٨ . وراجع - أيضًا ج ١ ص ٧٢٥ و ٧٣٦ .

١٦- قمت بإحصاء وتصنيف كل التراجم الواردة فى كتاب «المقفى» المطبوع لبيان ثقافة صاحب كل

ترجمة أو منصبه أو وظيفته ومهنته ، أو غير ذلك.

١٧- أبرز هؤلاء المؤرخين محمد بن إسحاق (ج ٥ ص ٣٠٢-٣٠٥) والمسبحى (ج ٦ ص ١٦٣-١٦٥)

والصفدى (ج ٣ ص ٧٦٧-٧٦٨) والعمرى (ج ١ ص ٧٣٢-٧٣٥) والذهبى (ج ٥ ص ٢٢١-٢٢٥)

والحميدى (ج ٦ ص ٥٠٤-٥٠٨) وأسامة بن منقذ (ج ٢ ص ٤٠-٤٩) والكندى (ج ٧ ص ٤٨٩-٤٩٠)

وأبو الفدا (ج ٢ ص ١٠٠-١٠٤) والعماد الأصفهائى (ج ٧ ص ٢٠٤-٢١١) والطبرى (ج ٥

ص ٤٨١-٤٨٧) وابن الفرات (ج ٦ ص ٦٤) والقلقشندى (ج ١ ص ٥١٢-٥١٣) .

١٨- بلغ عدد المعتزلة ٣ ، وعدد القرامطة ٤ ، وعدد الشائرين ١٠ والمستدعين فى الدين والمدعين

للألوهية ٤ .

١٩- راجع المقفى ج ٣ ص ٦٩١-٦٩٧ .

٢٠- راجع المقفى ج ٤ ص ٤٦٤-٤٨٤ .

٢١- مثل جرجى الأنطاكى وزيد روجار الحاكم النورمانى لصقلية ج ٣ ص ١٨-٢٠ .

٢٢- المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣ .

٢٣- فعل ذلك على سبيل المثال : ابن عبد البر : «الاستيعاب» والخطيب : «تاريخ بغداد» وياقوت :

«معجم الأدباء» وابن خلكان : «وفيات الأعيان» والقفطى : «إنباه الرواة» . والصفدى : «الوافى

بالوفيات « وابن تغرى بردى : « المنهل الصافى » وابن حجر : « الإصابة فى تمييز الصحابة »
و« الدرر الكامنة » والسخاوى : « التبر المسبوك » والسيوطى : « بغية الدعاة » وغيرهم.

٢٤- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج١ ص ٢١٣ وراجع من ص ٢١٢ .

٢٥- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج١ ص ١٩ .

٢٦- السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١ .

٢٧- فعل ذلك على سبيل المثال ابن عبد البر « الاستيعاب » و « الصفدى » الوافى لكن الصفدى ترجم
للمحمد بن عبد النبى ﷺ ، ثم التزم الترتيب الألفبائى الذى التزمه ابن عبد البر مباشرة بعد ذكر
النبى ﷺ.

٢٨- فعل ذلك الخطيب البغدادى : « تاريخ بغداد » والسيوطى « بغية الدعاة ».

٢٩- مثال ذلك ما فعله ابن تغرى بردى فى « المنهل الصافى » .

٣٠- المقرئى : المقفى ج١ ص ١٣ .

٣١- المقرئى : المقفى ج١ ص ٣٥-٤١ وراجع أمثلة أخرى مماثلة ج١ ص ٩٨-٩٩ وج٥ ص ٤٧-٥٥
وج٦ ص ٢٥-٣٠ و٣٤٨-٣٥٥ وج٧ ص ٧-١٩ و٢٨-٣٢ .

٣٢- المقرئى : المقفى ج١ ص ٤٥ وص ٩٠-٩٣ وراجع أمثلة أخرى مشابهة ج١ ص ١٠٢-١٠٥ وج٥
ص ٥٦-٥٨ وج٧ ص ٣٤٥ و٣٥٦ .

٣٣- المقرئى : المقفى ج٢ ص ١٣-٣٦ وراجع أمثلة أخرى مشابهة ج٢ ص ٤٩٦-٥٠٤ وج٣ ص ٩-١٥
و٣٧-٣٩ و٤٣٣-٤٤٢ وج٤ ص ٧-١٣ وج٥ ص ٩-١٧ .

٣٤- راجع على سبيل المثال ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج٦ ص ٦٧-٨٠ وص ٨٥ و٨٦ و٨٧ و٩٦
و١٠٤ و١١٥ و١١٨ و١٢١ و١٢٣ و١٢٧ و١٢٩ ، وابن حبيب : تذكرة النبىيه ج٣ ص ١٩٤
و٢١٣ ، وابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ج٤ ص ٢٥٢ و٤٦٢ و٢٩٩ .

٣٥- المقرئى : المقفى ج٢ ص ٥١٠-٥١٢ .

٣٦- المقرئى : المقفى ج٢ ، ص ٥٦٨-٥٧٦ .

٣٧- المقرئى : المقفى ج٢ ، ص ٥٧٠-٥٧٦ .

- ٣٨- المقرئزى : المقفى ج١ ، ص ١٢-١٨ .
- ٣٩- المقرئزى : المقفى ج١ ، ص ٤٢٢-٤٢٣ .
- ٤٠- المقرئزى : المقفى ج١ ، ص ٤٢٥ .
- ٤١- من ذلك مثلاً ترجمة (الحسن بن الجراح) المقفى ج٣ ص ٢٨٤
- ٤٢- المقرئزى : المقفى ج٤ ص ٣٩٦ وج٧ ص ٤٨٩ .
- ٤٣- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ١٠٧ و ١٥٣ وج٦ ص ٤٥ و ٥٠١ .
- ٤٤- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٢٧ .
- ٤٥- المقرئزى : المقفى ج٦ ص ٥٠٤ .
- ٤٦- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٤٨٨ و ٤٩١ .
- ٤٧- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٤٨٢-٤٩٢ .
- ٤٨- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٢٦ .
- ٤٩- المقرئزى : المقفى ج٦ ص ١٤ و ٢٤ وج٧ ص ١٣٨ .
- ٥٠- المقرئزى : المقفى ج٦ ص ٦٣ و ص ٥٠٠ وج٧ ص ٢٥٧ .
- ٥١- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٣٥ وراجع أمثلة أخرى مشابهة ص ٣٦ و ٣٧ و ٤٣ و ٤٥ .
- ٥٢- المقرئزى : المقفى ج٦ ص ٩٧ وراجع ص ٩٨ .
- ٥٣- المقرئزى : المقفى ج٦ ص ٢١٣ وراجع أمثلة أخرى ج١ ص ١٧٦ و ١٨٣ و ٣٠٤ وج٥ ص ٦٦١ وج٧ ص ١٠١ .
- ٥٤- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٧٣ . وواضح هنا الفارق بين تاريخى الرفاة، وبالرغم من ذلك ذكرهما المقرئزى بسبب وجود هذين الرأيين .
- ٥٥- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ٤٤٨ وراجع أمثلة أخرى ص ٦٠٨ و ٦٥٩ وج٦ ص ١٥٥ وج٧ ص ٥٧ و ٢٠٣ .
- ٥٦- راجع فى ذلك المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٣٥٨ وج٤ ص ٥٩٤ وج٦ ص ٤٤١ .
- ٥٧- راجع فى ذلك المقرئزى : المقفى ج١ ص ١١٥ و ٢٣١ و ٢٣٦ و ٢٣٨ و ٧٥٨ وج٣ ص ٤١٥ و ٤٤٢ وج٥ ص ٦٧٤ و ٦٩٠ و ٦٩١ وج٧ ص ٢٣ و ٥١ و ٧٣ و ٩٣ و ١١٩ .

٥٨- راجع ج١ ص ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ١٤٥ و ١٤٦ و ٢١١ و ٢٧٧ و ج٢ ص ٥٣ و ٥٩ و ٨٢ و ج٣ ص ٦٧٣ و ٦٧٤ و ٦٨٣ و ٧٣٥ و ٧٣٧ و ٧٨٥، ج٥ ص ٥٦٢ و ٥٧١ و ٦٣٤ و ٦٩٠ و ج٦ ص ٢١٤ و ٢٣١ و ٢٦١ و ٢٧٦ و ٤٤٦ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٢ و ٤٦٢ و ٤٧٤ و ٥٢٤ و ٥٣٢ و ٥٣٩ .

٥٩- وبالرغم من ذلك أورد المقرئ تاريخ مبلاد بعض الأعلام دون تاريخ الوفاة ، ومن أمثلة ذلك المقفى: ج١ ص ١٠٤-١٠٥ و ج٢ ص ١٢٧ و ج٥ ص ٢٠٩ و ٢٨٤ و ج٦ ص ٥١ و ٩٩ و ١٤٥ و ج٧ ص ٢٠-٢١ و ٢٣ و ٩٢ و ٥٠٠ .

٦٠- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١١٥ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٦ ص ٧ .

٦١- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١١٥ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٦ ص ٤٧ .

٦٢- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١٠٢ والخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج٦ ص ٢٠ .

٦٣- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١٠٢ والإدقوى : الطالع السعيد ص ٥٢-٥٣ .

٦٤- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١٢٦ والإدقوى: الطالع السعيد ص ٥٣ .

٦٥- راجع المقرئ : المقفى ج١ ص ١٢٣ وابن الجزري: غاية النهاية ج١ ص ١٠ .

٦٦- راجع المقرئ : المقفى ج٥ ص ٦٥ وابن الجزري: غاية النهاية ج٢ ص ٤٨ .

٦٧- راجع المقرئ: المقفى ج٣ ص ٦٧١ والإدقوى : الطالع السعيد ص ٢٣٢-٢٣٤ .

٦٨- راجع المقرئ : المقفى ج٣ ص ٧٢٤ والذهبي : العبر ج١ ص ٥٦-٥٧ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص ٤٠٢-٤١٣ .

٦٩- راجع المقفى ج٥ ص ٦٢ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص ٣٩٧ .

٧٠- منها على سبيل المثال ترجمة محمد بن إبراهيم (ت ٢٧٣هـ) لم يذكر الخطيب (تاريخ بغداد ج١ ص ٣٩٤) ولا المقرئ (المقفى ج٥ ص ٥٤) تاريخ مولده، بينما ذكر ذلك الذهبي : (سير أعلام النبلاء ج١ ص ٩١). ومنها محمد بن محمد بن سليمان (ت ٣١٢هـ) ولم يذكر الخطيب تاريخ مولده (تاريخ بغداد ج٣ ص ١٠٩) ولا المقرئ (المقفى ج٧ ص ٢١) بينما ذكر الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٤ ص ٣٨٣ .

٧١- راجع أيضاً المقفى ج٦ ص ٢٦ مع سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٥ ص ٢٧٠-٢٧١ ، والمقفى ج٦

ص ٢٨ مع سير أعلام النبلاء ج١٦ ص ٢١٧ ، والمقفى ج٦ ص ٥٥ مع سير أعلام النبلاء ج٦ ص ١٥٠ ،

والمقفى ج٦ ص ٧١ مع سير أعلام النبلاء ج١٣ ص ٤٥٩-٤٦٠ ، والمقفى ج٦ ص ٢٢٤ مع سير أعلام النبلاء ج٦ ص ٣١٧-٣٢٢ .

٧٢- محمد بن عبد الغنى حسن : التراجم والسير ص ٩٦ .

٧٣- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٧٧ .

٧٤- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٨٦ .

٧٥- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٢٨٩ وراجع أمثلة أخرى فى ج٥ ص ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٤٤٥ و ٤٨٩ و ٥١٠ و ٥٤١ و ٥٤٤ و ٥٤٨ و ٦١٨ و ٦٤٣ و ٦٦٢ و ٧١٤ و ٧١٥ .

٧٦- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٣٠-٣١ .

٧٧- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٥٢ .

٧٨- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٦١ .

٧٩- المقرئى : المقفى ج٧ ص ٢٨ .

٨٠- المقرئى : المقفى ج٧ ص ٦٩ .

٨١- المقرئى : المقفى ج٧ ص ١٤٧ وراجع أمثلة أخرى ج٢ ص ٢٢٠ و ٣٧٠ و ٥٧٥ و ج٣ ص ٧٣ و ج٤ ص ٣٨٤ و ج٥ ص ٩٥ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٦٣ و ٢٦٢ و ٢٦٥ و ٢٧٠ و ٣١٨ و ٣٣٤ و ٣٠٣ و ٤٦٣ و ٤٥٧ و ج٧ ص ١٢ و ٣١ و ٣٦ و ٣٧ و ١٥٤ و ٢٠٤ و ٢٢٠ و ٢٥٣ و ٢٨١ و ٢٨٥ و ٢٩٥ و ٣١٣ و ٣٢٤ و ٣٥٨ و ٣٩٢ و ٣٩٥ و ٤٠١ و ٤٠٩ و ٥١٦ و ٥١١ .

٨٢- راجع على سبيل المثال المقفى : ج١ ص ١٥١ و ١٥٣ و ١٧٦ و ٢٠١ و ج٥ ص ٦٤٣ و ج٦ ص ٣١ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٥ و ج٧ ص ١٤٧ .

٨٣- المقرئى : المقفى ج١ ص ١٦٧ .

٨٤- المقرئى : المقفى ج١ ص ١٤٧ .

٨٥- المقرئى : المقفى ج١ ص ٥٥٧ .

٨٦- المقرئى : المقفى ج٢ ص ٧٤ .

٨٧- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٥٠ وراجع من ص ٤٩ .

- ٨٨- المقریزی : المقفی ج٥ ص ٧٧ .
- ٨٩- المقریزی : المقفی ج٥ ص ٧٧ .
- ٩٠- المقریزی : المقفی ج٥ وراجع ص ٦١٤ .
- ٩١- المقریزی : المقفی ج٦ ص ٨٧ .
- ٩٢- المقریزی : المقفی ج٧ ص ٢٨١ وراجع ص ٢٧٩ .
- ٩٣- المقریزی : المقفی ج٧ ص ١٠٦ وراجع أمثلة أخرى عديدة ج١ ص ١٠٩ و ١٥٠ و ٢٣٤ و ٢٣٨ و ٣٤٥ و ج٢ ص ١٠٧-١١٠ و ج٥ ص ٥٢ و ٨٢ و ٩٨ و ١٠٧ و ١٣٨ و ٢٣٨ و ٢٤٥ و ٢٥٢ و ٢٦٤ و ج٦ ص ٢٦ و ٨٨ و ٨٩ و ٢٦٥ و ٤٤١ و ٤٤٩ و ٤٥٧ و ج٧ ص ١٢٦ .
- ٩٤- المقریزی : المقفی ج١ ص ٤٨٤ .
- ٩٥- المقریزی : المقفی ج١ ص ٢٣٤ .
- ٩٦- المقریزی : المقفی ج٥ ص ٢٤٥ وراجع ص ٢٤٦ .
- ٩٧- المقریزی : المقفی ج٧ ص ٢٦٦ ، وراجع أمثلة أخرى ج١ ص ٩٤ و ١١٨ و ١٤٢ و ج٣ ص ٤٢٦ و ٥١٥ و ٦٤٧ و ٦٨٢ و ٧٦٠ و ٧٩٠ و ج٤ ص ٩٨ و ج٦ ص ٤٩ و ٤٤٩ و ٤٥٧ و ج٧ ص ٤٠٣ و ٤٤٦ .
- ٩٨- المقریزی : المقفی ج٥ ص ٨٢ وراجع ص ٨١ .
- ٩٩- المقریزی : المقفی ج١ ص ٧١١ وراجع من ص ٧٠٦ .
- ١٠٠- المقریزی : المقفی ج٥ ص ٢٧٨ .
- ١٠١- المقریزی : المقفی ج٦ ص ١٦٧ .
- ١٠٢- المقریزی : المقفی ج٦ ص ١٢٠ .
- ١٠٣- المقریزی : المقفی ج١ ص ٤٨١ .
- ١٠٤- وردت عند ياقوت (معجم البلدان ج٣ ص ٣٠٨) شارمساج، وذكر أنها قرية كبيرة بمصر تشبه المدينة ، وهي (شارمساج) من كورة الدقهلية .
- ١٠٥- راجع المقریزی : المقفی ج٥ ص ٢٤٦ و ٦١٥ و ٤٨٨ و ج٦ ص ١٠٨ .
- ١٠٦- راجع المقریزی : المقفی ج٥ ص ٢٩٧ و ج٦ ص ١٠٦ .

- ١٠٧- راجع المقرئى : المقفى ج٥ ص ٦١٥ .
- ١٠٨- راجع المقرئى: المقفى ج٥ ص ٢٢٠ . ويذكر هنا أن لابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمرى كتاب «عيون الأثر» و«أجوبة ابن سيد الناس» .
- ١٠٩- المقرئى : الخطط ج١ ص ٢٣٢ .
- ١١٠- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٧٣ .
- ١١١- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٢١٠ .
- ١١٢- المقرئى : المقفى ج٧ ص ٣٥٤ ولمزيد من اطلاع المقرئى على ما كتبه ابن يونس عن تاريخ مصر، ونقله عنه لمعاصرتة للأحداث راجع ج١ ص ١٩٢ وج٥ ص ١٤٩ و ١٥٤ و ١٦١ و ١٧٥ و ٢٠٨ و ٢٦٠ و ٤٩٣ و ٦٠٤ و ٦٢٤ و ٦٣٣ و ٧٢٦ وجـ ٦ ص ١٣ وص ٤٥ وص ٥٤ و ١٠٤ و ١٠٠ و ٣٥٦ و ٣٢٩ و ٣٥٧ و ٤٤٧ و ٤٤٨ و ٥٢٨ . وقد قام زميلى الفاضل وصديقى الكريم الدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح بجمع روايات وكتابات ابن يونس من بين بطون الكتب، وأصدر كتابين له كانا فى عداد الكتب الضائعة المفقودة ، وهما كتابا : «تاريخ الغرباء» و«تاريخ المصريين» ونشرا محققين تحقيقا علميا فائقا .
- ١١٣- المقرئى : المقفى ج٦ ص ١٥٠ وراجع مثالا آخر ج٥ ص ١٤١ .
- ١١٤- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٥٠٧ .
- ١١٥- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٥٠٦ .
- ١١٦- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٣٦٠ .
- ١١٧- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٤٧٢ .
- ١١٨- المقرئى : المقفى ج٦ وراجع أمثلة أخرى ج٥ ص ٦٣٥ و ٧٢٤ و ٧٣٩ .
- ١١٩- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٧٣ .
- ١٢٠- ابن الطحان هو أبو القاسم يحيى بن على الحضرمى (ت ٤١٦هـ / ١٠٢٥م) أحد المحدثين البارزين فى مصر ، والمهتمين بتاريخها ، وله عدة كتب فى تاريخ مصر. راجع (شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج٢ ص ٢٠٥-٢٠٦ .
- ١٢١- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٥٣٨ وراجع ص ٥٥٦ وراجع ص ١٦٥ وراجع ج٣ ص ٧٥٥ .

- ١٢٢- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٤٤ وص٤٥ وص٨٠ .
- ١٢٣- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٤٥ .
- ١٢٤- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٤٤ وراجع حتى ص٤٥ حيث أخبر المقرئزى القارىء بمعلومات كثيرة عن طريق الطواشى مقبل الذى تربى فى قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون .
- ١٢٥- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٤٦ .
- ١٢٦- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٨٠ وراجع من ص٧٩-٨١ .
- ١٢٧- المقرئزى : المقفى ج٦ ص٣٤٦ وراجع ص٣٤٥ ، وراجع أمثلة أخرى ج١ ص٢٩٥ و٥٥٧ وج٣ ص٧٥٥-٧٥٦ وج٤ ص٨٢ وج٥ ص١٦ وج٧ ص٢١٦ .
- ١٢٨- راجع المقرئزى : المقفى ج٤ ص٥٧٠ وذكر الأستاذ المحقق أن القوطى هو أبو عبدالله محمد بن سعد ، مؤرخ مصرى عاش زمن العاضد الفاطمى ، وألف «تاريخ مصر» .
- ١٢٩- راجع ج٤ ص٥٧٤-٥٧٥ من المقفى عن ابن سليم الأسوانى مؤرخ النوبة .
- ١٣٠- المقرئزى : المقفى ج٢ ص٤١٨ .
- ١٣١- ذكر المحقق أنه لا يعرف هذا الكتاب ولا مؤلفه ، وكذلك من خلال قراءتى المحدودة لا أعرفها ، وقد نقل عنه المقرئزى : المقفى ج٣ ص٦٣٠ .
- ١٣٢- المقرئزى : المقفى ج٥ ص١٧٥ وراجع ٢٦١ و٢٨٢ و٤٨٨ و٥٣٨ وج٦ ص١٨٧ و٢٥٣ .
- ١٣٣- المقرئزى : المقفى ج١ ص٥٣٦ .
- ١٣٤- المقرئزى : المقفى ج٥ ص٢٥٧ .
- ١٣٥- راجع على سبيل المثال المقفى ج٢ ص٥٠ ، وج٣ ص٣٤ و٦٢ و٣٢٤ ، وقد ذكر الأستاذ المحقق عن هذه التراجم وغيرها أنه لم يجد ترجمة لهؤلاء فى غير «المقفى» .
- ١٣٦- راجع المقفى ج٥ ص٦١٥ وراجع ج٤ ص٤١٦ ، ج٥ ص٣٠٤ و٦١٥ و٦٤٣ وج٧ ص٢٣٨ .
- ١٣٧- راجع المقفى ج٥ ص٥٥٠ وج٤ ص٣٩ وج٧ ص٩٧ ، وراجع ج٦ ص٣٥٠ .
- ١٣٨- راجع المقفى ج٧ ص٣١١ وراجع ج١ ص٥٧٤ و٥٨٢ وج٢ ص٣٧٥ وج٣ ص٤٥٦ .
- ١٣٩- المقفى ج٧ ص٣٢٦ .

- ١٤٠- المقفى ج٧ ص ٤٤٨ وراجع ص ٢٧١ وج٢ ص ١٠٨ و ١٠٩ .
- ١٤١- المقفى ج٧ ص ٤٥٧ .
- ١٤٢- المقفى ج٦ ص ٣٥٣ .
- ١٤٣- المقفى ج١ ص ٤٠٩ .
- ١٤٤- المقفى ج١ ص ٥٣٦ .
- ١٤٥- المقفى ج٢ ص ٥١١ وراجع ج٢ ص ٤٤ وج٣ ص ٣٠٩ و ٤٤٨ .
- ١٤٦- المقفى ج٣ ص ٧٢٩ .
- ١٤٧- المقفى ج٣ ص ٤٥٧ .
- ١٤٨- المقفى ج١ ص ٢٣ .
- ١٤٩- المقفى ج٥ ص ٢١٦ وراجع ص ٦٦٤ وراجع ج١ ص ٣٥٧ و ٤٧٠ و ٤٧٥ وج٣ ص ٤٢٩ وج٥ ص ٦٦٤ وج٦ ص ٣٧٠ و ٣٧٩ و ٣٨٢ وج٧ ص ١٢٨ و ٢٨٨ وراجع ترجمة المقرئى للعمري ج١ ص ٧٣٢-٧٣٥ .
- ١٥٠- المقفى ج٥ ص ٥٩٧ .
- ١٥١- المقفى ج٥ ص ٤٧٣ وراجع ج٣ ص ٤٧ و ٤١٠ و ٦٣٠ وج٤ ص ٥٥٢ وج٥ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ .
- ١٥٢- المقفى ج١ ص ٥٠١ وراجع ص ٣٠٠ .
- ١٥٣- المقفى ج١ ص ٣٩٠ ونفسه ج٣ ص ٤١٢ وج٦ ص ٦٣ .
- ١٥٤- المقفى ج١ ص ١٤٥ وراجع عن ابن الجوزى فى «المقفى» ج٤ ص ٩٢ و ٩٥ .
- ١٥٥- المقفى ج٥ ص ٥٠٥ وعن ابن رشيقي فى «المقفى» راجع ج٥ ص ١٦٥ .
- ١٥٦- المقفى ج٥ ص ٤٥٣ .
- ١٥٧- المقفى ج٥ ص ٢٥٤ .
- ١٥٨- المقفى ج٥ ص ١٧٧ وعن نقول المقرئى عن ابن زولاق راجع ج٢ ص ٥٩ وج٤ ص ٤٤٨ وج٥ ص ١٣٧ و ١٣٨ و ١٧٧ و ١٩٦ و ٢٥٨ وج٧ ص ٦٩ .
- ١٥٩- المقفى ج٥ ص ٧٠ وعن نقول المقرئى عن الإدفوى راجع ج٥ ص ٦٥ و ٧٠ و ١٧٣ و ٢١٠ و ٤٩٠ و ٥٥٧ و ٦٠٨ وج٦ ص ٢٥١ و ٣٧٢ و ٣٨١ وج٧ ص ٤٢٥ .

١٦٠- المقتفى ج٥ ص ١٨٢ . وعن تقول المقرئى عن ابن الأبار راجع ج١ ص ١٤٩ و ٢٧٥ وجه ص ٢٦٧ و ١٠٣ و ١٨٢ و ٢١١ وجه ص ٣٤٩ .

١٦١- المقتفى ج١ ص ١٩ .

١٦٢- المقتفى ج٥ ص ٦٧٥ .

١٦٣- المقتفى ج٥ ص ٢٩٧ .

١٦٤- المقتفى ج٥ ص ٢٨٤ .

١٦٥- المقتفى ج١ ص ١٦٩ .

١٦٦- المقتفى ج٥ ص ١٩٠ و ٥٠١ وعن النقول من الخطيب البغدادي راجع المقتفى ج١ ص ٤٠ و ١١٣ و ١٢٤ و ١٦٢ و ١٦٧ و ١٦٩ و ١٧٢ و ١٩٥ و ٢٢٥ و ٢٨٣ و ٣١٥ و ٣٦٦ و ٥٤٨ وجه ص ٦٢ و ٦٧ و ٨٤ و ٨٩ و ١١٠ و ١٤٤ و ١٧١ و ١٨١ و ١٨٥ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٧٨ و ٢٩٢ و ٥٠١ و ٦٠٠ وجه ص ٧ و ٢٨ و ٨٣ و ١٠٨ و ٥٢٩ وجه ص ٧ و ١٥١ و ١٨٥ و ٢٧٠ و ٣٥٩ .

١٦٧- منها كتاب « أخبار الشعراء » لعبد الرحيم (المقتفى ج٣ ص ٤١١) وكتاب « تاريخ جرجان » لحمزة (المقتفى ج٥ ص ٥٠١) و« التنوان فى القراءات » للسرقسطى (المقتفى ج٤ ص ٣٩٥) وكتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن فرتون الفاسى (المقتفى ج٥ ص ٩٨) ومعجم أبى الحسن يحيى القرشى (المقتفى ج٥ ص ٥٦٤) . والعبر لابن خلدون (المقتفى ج٤ ص ٥٤٧) وتاريخ أبى عبد الملك القرطبى (المقتفى ج٢ ص ٤٤١) .

١٦٨- راجع المقتفى ج٤ ص ٦٣ .

١٦٩- راجع المقتفى ج٤ ص ٩٢ وجه ص ١٩ .

١٧٠- راجع المقتفى ج١ ص ٤٥ و ١١٣ و ١٥٢ و ٢٠٠ و ٣٠٥ و ٣٦٢ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٤٦٩ و ٤٩٤ و ٥٦١ و ٧٠٨ و ٧٤٣ وجه ص ٢ و ٣٢٥ وجه ص ٦٤ و ٤٢٨ وجه ص ٣٥٣ و ٣٧١ ص ١٢٧ .

١٧١- راجع المقتفى ج١ ص ٢٢٦ و ٥١٠ و ٦٣٩ وجه ص ٤٢٨ وجه ص ٦٣ و ٧٢ و ١٢٨ و ٧٢١ .

١٧٢- راجع المقتفى ج٣ ص ٤٣١ وجه ص ٥٢ وجه ص ١٢٧ .

١٧٣- راجع المقتفى ج٣ ص ٤٣٣ وجه ص ٤٧ و ٥٤ و ٥٥ و ٨٥ و ٨٨ و ٩٧ و ١١١ و ١١٣ و ١٤٩ و ١٥٤ و ١٥٧ و ١٧٤ و ١٨٧ و ٢٠٣ و ٢٠٨ و ٢٢٠ و ٢٤٤ و ٢٦٠ و ٢٧٥ و ٤٤٩ و ٤٨٨ و ٤٩٧ و ٥٠٧ و ٥١١

و٥١٧ و٤٠٦ و٦١٦ و٦٣٣ و٧٢٦ وج١ ص١٣ و٤٥ و٥٤ و٦١ و٧٣ و٤٤٧ وج٧ ص٣٥٤ و٣٥٦ و٤٥٤ .

١٧٤- راجع المقتنى ج١ ص٣٦٦ .

١٧٥- راجع المقتنى ج١ ص٢٤٤ و٥٣٥ وج٤ ص٤٣٧ وج٥ ص١٧٣ و٣٠٨ وج٦ ص٣٥٠ وج٧ ص١٠٧ .

١٧٦- راجع المقتنى ج١ ص١٦٢ و١٧٢ وج٦ ص٥٠٧ .

١٧٧- راجع المقتنى ج١ ص٤٥ .

١٧٨- راجع المقتنى ج١ ص١٦ و٤١١ وج٣ ص٧٢٩ وج٦ ص٥٦ و٢٢٥ .

١٧٩- راجع المقتنى ج٥ ص١٦٠ و١٨٥ و٢٥٨ وج٧ ص٨٢ .

١٨٠- راجع المقتنى ج٥ ص١٦٠ و٢٥١ و٢٣٨ و٣٠٠ و٤٩٨ و٥٠٥ و٥٧٢ وج٦ ص٥٠٦ وج٧ ص٩٧ و٣٣٩ .

١٨١- راجع المقرئى: المقتنى ج٥ ص٨٩ و٣٠٠ و٤٧٦ و٥٧٨ .

١٨٢- راجع المقرئى: المقتنى ج١ ص٩٩ و١٣٧ و١٤٨ و١٩٠ و٢٥٣ و٢٩٨ و٥٣٣ و٥٣٥ وج٥ ص١٩٨ و٢١٣ و٤٤٥ و٦١٠ و٦٢٢ و٧٢٤ و٧٣٩ وج٦ ص٨٧ و٣٦٠ و٤٧٢ .

١٨٣- راجع المقتنى ج١ ص٥٦٧ وج٢ ص٤٤١ وج٥ ص٢٠٧ و٢٧٧ .

١٨٤- راجع المقتنى ج٥ ص٢٩٢ وج٧ ص٣٣٩ .

١٨٥- راجع المقتنى ج٣ ص٧١٩ وج٥ ص٢٤٠ .

١٨٦- راجع المقتنى ج٥ ص٢٤٨ .

١٨٧- راجع المقتنى ج٥ ص٢٥٨ وج٧ ص٣٣١ .

١٨٨- راجع المقتنى ج٥ ص٣٠٤ .

١٨٩- راجع المقتنى ج٥ ص٢٠٧ و٧١٨ وج٦ ص٥٣٧ و٥٠٧ .

١٩٠- راجع المقتنى ج٣ ص٧٦٠ وج٥ ص٤٨ و٧٨ و١١٢ و١٥٠ و١٧٠ و١٨٨ و٧١٩ وج٦ ص٧٠ .

١٩١- راجع المقتنى ج٦ ص٤٤٤ ووصفه المقرئى بمؤرخ الأندلس وراجع ج٣ ص٤٢٩ .

- ١٩٢- راجع المقتنى ج١ ص ٥٧٣ و ٦١٧ و ج٢ ص ٦٣ و ١٥٠ و ٣٥٠ و ج٧ ص ٢٠٥ و ٣٢٩ .
- ١٩٣- راجع المقتنى ج٢ ص ٦٠ و ٤٤٢ و ج٧ ص ٢٧٦ .
- ١٩٤- راجع المقتنى ج٢ ص ٩٠ .
- ١٩٥- راجع المقرئى : المقتنى ج٢ ص ٣٧٢ و ٥١١ و ج٣ ص ٤٤٨ و ٥١٧ .
- ١٩٦- راجع المقتنى ج٣ ص ٦٧٠ .
- ١٩٧- راجع المقتنى ج٧ ص ٤٤٨ .
- ١٩٨- راجع المقتنى ج٧ ص ٥٢٤ .
- ١٩٩- راجع المقتنى ج٦ ص ٣٥٠ .
- ٢٠٠- راجع المقتنى ج١ ص ٣٧٧ .
- ٢٠١- راجع المقتنى ج١ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ و ج٣ ص ٥٣١ .
- ٢٠٢- راجع المقتنى ج٢ ص ٥٦ .
- ٢٠٣- راجع المقتنى ج١ ص ٢٦ .
- ٢٠٤- راجع المقتنى ج١ ص ٥٥٣ و ج٥ ص ١٧٢ .
- ٢٠٥- راجع المقتنى ج٦ ص ٤٤٣ .
- ٢٠٦- راجع المقتنى ج٢ ص ٨٤ .
- ٢٠٧- راجع المقتنى ج٣ ص ٧٣٧ .
- ٢٠٨- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٣ ص ٢٠٩-٢١٣ .
- ٢٠٩- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٤ ص ٣٨٣-٣٨٨ .
- ٢١٠- المقرئى : المقتنى ج٧ ص ٢١-٢٢ .
- ٢١١- الخطيب البغدادي : ج٣ ص ٢١٧-٢١٨ .
- ٢١٢- الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٥ ص ٥٤٧-٥٤٨ .
- ٢١٣- راجع المقرئى : المقتنى ج٧ ص ٢٩-٣٠ .

- ٢١٤- المقریزی : المقفی ج٧ ص ٨٥ .
- ٢١٥- الخطیب البغدادی : تاریخ بغداد ج٣ ص ٢٢٣-٢٢٤ .
- ٢١٦- الذهبی : سیر أعلام النبلاء ج١٦ ص ٢٤٠ وراجع حتی ص ٢٤٣ .
- ٢١٧- الخطیب البغدادی : تاریخ بغداد ج٥ ص ٤٦٢-٤٦٣ .
- ٢١٨- الذهبی : سیر أعلام النبلاء ج١٦ ص ٣٣٢-٣٣٤ .
- ٢١٩- المقریزی : المقفی ج٦ ص ١٠٧-١٠٨ .
- ٢٢٠- المقریزی : المقفی ج٦ ص ٣١٢ .
- ٢٢١- ابن الجزری : غایة النهایة ج٢ ص ٢٠٥ .
- ٢٢٢- المقریزی : المقفی ج١ ص ٢٥٣-٢٥٥ .
- ٢٢٣- الصفدی : الوافی ج٦ ص ٩٠-٩١ .
- ٢٢٤- المقریزی : المقفی ج١ ص ٢٠٦ .
- ٢٢٥- الصفدی : الوافی ج٦ ص ٥٧-٥٨ .
- ٢٢٦- ابن حجر : الدرر ج١ ص ٤٩-٥٠ .
- ٢٢٧- المقریزی : ج٣ ص ٧٥-٧٧ .
- ٢٢٨- الصفدی : الوافی ج١١ ص ١٩٩-٢٠١ .
- ٢٢٩- المقریزی : المقفی ج١ ص ٥٣٣-٥٣٦ .
- ٢٣٠- الصفدی : الوافی ج٧ ص ٢٢٠-٢٢٥ .
- ٢٣١- راجع علی سبیل المثال مقارنا بین : ج١ ص ٢٠٨-٢٠٩ المقفی وج٦ ص ٧٩-٧٠ الوافی، ج١ ص ٢٣٢ المقفی مع الوافی ج٦ ص ٣٣-٣٤ ، وج١ ص ٢٣٨ المقفی مع ج١ ص ٣٦-٣٧ الوافی، وج١ ص ٢٥٦-٢٥٨ المقفی ج٦ ص ٩٢ الوافی، وج١ ص ٢٥٩ المقفی مع الوافی ج٦ ص ٩٥-٩٦ ، والمقفی ص ٧٣٤-٧٣٥ مع الوافی ج١٣ ص ٢٦١ ، والمقفی ج٣ ص ٧٣٦ مع الوافی ج١٣ ص ٢٧٤ ، وجه المقفی ص ٢٠٤-٢٠٥ مع الوافی ج٢ ص ١٥٠-١٥١ ، والمقفی ج٣ ص ٩٦ مع الوافی ج١١ ص ٩٩-١٠٠ ، وراجع المقفی ج٦ ص ٣١٢ مع غایة النهایة لابن الجزری ج٢ ص ٢٠٥ ، والمقفی ج٦

ص ٢١١ مع غاية النهاية ج٢ ص ١٩٦ ، والمقنّى ج٦ ص ٢٧-٢٨ مع غاية النهاية ج٢ ص ٣١٥-٣١٦ وقد جمعت أمثلة عديدة، واكتفيت هنا ببعضها للتذليل على الفكرة التي ذهبت إليها .

٢٣٢- راجع على سبيل المثال المقنّى ج٣ ص ٧٥-٧٧ مقارنا بالوافى ج١١ ص ١٩٩-٢٠١ ، والمقنّى ج٦ ص ٤٢٥-٤٢٧ مقارنا بالخطيب البغدادي ج٣ ص ٢٦-٣١ .

٢٣٣- راجع على سبيل المثال المقنّى ج٦ ص ٣٤٨ مقارنا بتاريخ بغداد ج٣ ص ٤٠٣-٤٠٤ والمقنّى ج٧ ص ٢٨ مقارنا بتاريخ بغداد ج٣ ص ٢١٤ ، والمقنّى ج٧ ص ٩٤ والمقنّى ج٧ ص ٢٩-٣٠ مقارنا بتاريخ بغداد ج٣ ص ٢١٧-٢١٨ .

٢٣٤- راجع المقنّى ج٦ ص ٢٢٤-٢٢٥ .

٢٣٥- راجع المقنّى ج٥ ص ٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٦- راجع المقنّى ج١ ص ٩٠٤ وج٥ ص ٢٩٥-٢٩٧ .

٢٣٧- راجع المقنّى ج٢ ص ٥٥ .

٢٣٨- راجع المقنّى ج١ ص ١٤٥ و ١٧٤ و ٥٥٢ وج٥ ص ٨٩ و ٥٥٨ و ٥٦٨ وج٦ ص ٢٢-٢٣ .

٢٣٩- راجع المقنّى ج٦ ص ٢٢٤-٢٢٥ .

٢٤٠- راجع المقنّى ج٥ ص ٢٩٥-٢٩٧ .

٢٤١- راجع المقنّى ج٣ ص ١٢٨ وج٥ ص ٢٢٠ وج٦ ص ١٣ و ١٠٤ و ٢١٠ وج٧ ص ٣٥٤ و ٣٥٧ .

٢٤٢- راجع المقنّى ج٦ ص ٧ و ١٣ و ٢٨ و ٨٣ و ١٠٩ و ٥٢٩ وج٧ ص ٣٥٩ .

٢٤٣- راجع المقنّى ج٤ ص ٣٩٤ .

٢٤٤- راجع أمثلة أخرى ج١ ص ٣٩٨-٤٠٣ وج٣ ص ١٢٧ و ٦٣٢-٦٣٤ وج٤ ص ٤٨-٥١

و ١١٤-١١٧ وج٥ ص ١٥٩-١٦٠ .

٢٤٥- المقرئى : المقنّى ج١ ص ٤٨٩-٤٩٠ .

٢٤٦- الإدقوى : الطالع السعيد ص ٩٢ .

٢٤٧- المقرئى : المقنّى ج١ ص ٥٤٣-٥٤٤ .

٢٤٨- الإدقوى : الطالع السعيد ص ١٠٢-١٠٣ .

- ٢٤٩- المقرئى : المقفى ج ١ ص ٣٢٧-٣٢٨ .
- ٢٥٠- الإدفوى : الطالع السعبد ص ٦٩-٧١ .
- ٢٥١- المقرئى : المقفى ج ١ ص ٢٤٩ .
- ٢٥٢- الصفدى : الوافى ج ١ ص ٧٨ .
- ٢٥٣- راجع أفضا المقفى ج ٣ ص ٧٥-٧٧ مقارنا مع الوافى ص ١٩٩-٢٠١ .
- ٢٥٤- راجع المقفى ج ١ ص ٢٤٤ و ٥٣٥ و ج ٣ ص ٥١٨ و ج ٤ ص ٤٣٧ و ج ٥ ص ١٧٣ و ٣٠٨ و ج ٦ ص ٣٥٠ و ج ٧ ص ١٠٧ .
- ٢٥٥- راجع المقفى ج ١ ص ٢٢٦ و ٥١٠ و ٦٣٩ و ج ٣ ص ٤٢٩ و ج ٥ ص ٦٣ و ٧٢ و ج ٧ ص ١٢٨ . و راجع ترجمة الصفدى ج ٣ ص ٧٦٧-٧٦٨ .
- ٢٥٦- د. ىشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الإسلام ص ٤٢٢ .
- ٢٥٧- د. سعبد عبد الفتاح عاشور : أضواء جءبءة على المؤرخ أحمد بن على المقرئى وكتاباته . بحث بمجلة عالم الفكر، المجلء الرابع عشر ، العدد الثانى ، يوليو وأغسطس وسبءمبءر ١٩٨٣ م ص ١٧٢-١٧٤ و راجع من ص ١٦٥-٢٠١ .
- ٢٥٨- د. سهبل زكار : هامش ص ١٧ من كتاب «بغفة الطلب» لابن العءبم .
- ٢٥٩- راجع المقفى ج ٥ ص ٢٩٢ و ج ٧ ص ٣٣٩ .
- ٢٦٠- المقفى ج ١ ص ٣٩٨-٤٠٣ .
- ٢٦١- بغفة الطلب لابن العءبم ج ٢ ص ٧٨٢-٧٨٦ .
- ٢٦٢- المقفى ج ١ ص ٧٢٦-٧٢٧ .
- ٢٦٣- ابن العءبم : بغفة الطلب ج ٣ ص ١١٨٣ .
- ٢٦٤- المقرئى : المقفى ج ٢ ص ٤٠-٨٩ .
- ٢٦٥- ابن العءبم : بغفة الطلب ج ٣ ص ١٣٥٨-١٣٧٠ .
- ٢٦٦- المقرئى : المقفى ج ٢ ص ٥٦ .
- ٢٦٧- ابن العءبم : ج ٣ .

- ٢٦٨- المقرئزى : المقفى ج٢ ص ٧١-٧٢ .
- ٢٦٩- ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص ١٦١٢-١٦١٣ .
- ٢٧٠- المقرئزى : المقفى ج٢ ص ٢١٣-٢١٤ .
- ٢٧١- ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص ١٩٢٦ .
- ٢٧٢- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٢٥٩-٢٦٠ .
- ٢٧٣- ابن العديم : بغية الطلب ج٥ ص ٢٢٢٣-٢٢٢٥ .
- ٢٧٤- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٦٥٨-٦٥٩ .
- ٢٧٥- ابن العديم : المقفى ج٦ ص ٢٩١٦-٢٩٢٠ .
- ٢٧٦- الصفدى : الوافى ج١٣ ص ١٥٤ .
- ٢٧٧- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٧٠٤-٧٠٨ .
- ٢٧٨- ابن العديم : بغية الطلب ج٦ ص ٢٩٨٨ .
- ٢٧٩- راجع أيضا المقفى ج٣ ص ٧٧٤-٧٨٣ مع بغية الطلب ج٧ ص ٣١٨٤ - ٣١٩٧ ، والمقفى ج٣ ص ٨١١-٨٣٣ مع المقفى ج٧ ص ٣٣٨٢-٣٣٨٦ بغية الطلب ، والمقفى ج٣ ص ٦٥٥-٦٥٨ مع بغية الطلب ج٦ ص ٢٨٥١-٢٨٥٦ ، والمقفى ج٣ ص ٤٤٧-٤٤٩ مع بغية الطلب ج٥ ص ٢٣٠٢ - ٢٣٠٣ ، والمقفى ج٣ ص ٢٧٦-٢٧٩ مع بغية الطلب ج٥ ص ٢٢٣٥-٢٢٣٦ ، والمقفى ج٣ ص ١٥٥-٢٥٨ مع بغية الطلب ج٥ ص ٢٠٣٧-٢١٠٤ ، والمقفى ج٢ ص ٨٨-٨٩ مع بغية الطلب ج٤ ص ١٦٣١-١٦٣٤ ، والمقفى ج١ ص ٥١٤-٥١٥ مع بغية الطلب ج٢ ص ٩١٣-٩١٧ ، والمقفى ج١ ص ٤١٧-٧٥٢ مع بغية الطلب ج٢ ص ٨٢٦-٨٣٥ ، والمقفى ج٣ ص ٧٦٣-٧٦٦ مع بغية الطلب ج٧ ص ٣٣٥٧-٣٣٥٩ ، والمقفى ج٣ ص ٥٦٧-٦١٨ مع بغية الطلب ج٦ ص ٢٥٦٢-٢٦٧١ .
- ٢٨٠- راجع المقفى ج١ ص ٤٠٤-٤١٢ مع بغية الطلب ج٢ ص ٧٩٢-٨٠١ والمقفى ج١ ص ٣٥٩ مع بغية الطلب ج١ ص ٦٢٢-٦٢٥ ، والمقفى ج١ ص ٣٦٦-٣٨٣ مع ابن العديم : بغية الطلب ج٢ ص ٦٣٩-٦٨٦ ، والمقفى ج١ ص ٤٠٤-٤١٢ مع بغية الطلب ج٢ ص ٧٩٢-٨٠١ ، والمقفى ج١ ص ٦٩١ مع بغية الطلب ج٣ ص ١١٥١-١١٥٣ ، والمقفى ج١ ص ٧٣١ مع بغية الطلب ج٣ ص ١١٩٥-١١٩٨ ، والمقفى ج١ ص ٧٤٥-٧٤٩ مع بغية الطلب ج٣ ص ١٢٧٠-١٢٧٩ ، والمقفى ج٣ ص ٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب ج٥ ص ٢٣٦٤-٢٣٧٣ ، والمقفى ج١ ص ٦٩٢ مع بغية الطلب ج٣ ص ١١٦٨-١١٧١ .

٢٨١- راجع المقفى جا ١ ص ٣٨٣ مع بغية الطلب جا ٢ ص ٦٩١-٦٩٢ ، والمقفى جا ٣ ص ٣١٨-٣٢٣ مع بغية الطلب جا ٥ ص ٢٣٦٤-٢٣٧٣ .

٢٨٢- راجع المقفى جا ١ ص ٣٨٥-٣٨٦ مع ابن العديم جا ٢ ص ٧٤٣-٧٤٦ ، والمقفى جا ١ ص ٦٩٢-٦٩٣ مع ابن العديم: بغية الطلب جا ٣ ص ١١٥٤-١١٦٤ ، والمقفى جا ٢ ص ١١٠-١١١ مع بغية الطلب جا ٤ ص ١٨٠٤-١٨٠٨ ، والمقفى جا ٣ ص ٦٣١-٦٣٢ مع ابن العديم جا ٦ ص ٢٧٣٠-٢٧٣٣ ، والمقفى جا ٧ ص ١١٨-١١٩ مع بغية الطلب جا ٤ ص ١٦٦٧-١٦٧٠ ، والمقفى جا ٣ ص ٦٨٦ مع بغية الطلب جا ٧ ص ٣٢٤١-٣٢٤٣ .

٢٨٣- راجع المقرئى : المقفى جا ٢ ص ٤١٨ وجا ٦ ص ٦٤ .

٢٨٤- كالحافظ السلفى (جا ١ ص ٧٠٦-٧١١) وغيره من الحفاظ والفقهاء. راجع المقفى جا ١١٣-١١٥ و ٢١٢-٢١٣ و ١٢٧ و ١٤١ وجا ٥ ص ٥٩٢-٥٩٤ .

٢٨٥- مثل عبيد الله المهدي (المقفى جا ٥ ص ٥٢٣-٥٧٠) وابن العربى (المقفى جا ٦ ص ٣٤٨-٣٥٥) .

٢٨٦- راجع الأمثلة الدالة على ذلك : المقفى جا ١ ص ١١٣ وجا ٤ ص ٣٩٣-٣٩٦ وراجع جا ٣ ص ٤٢٧-٤٢٩ وجا ٥ ص ٢٢٠ .

٢٨٧- راجع الخطط للمقرئى جا ١ ص ٤٨ و ٤٩ جا ٢ ص ٩٢ ، واتعاض الحنفا للمقرئى جا ١ ص ١٦ و ٢٢ وفيها يقول أحيانا : «قال مؤلفه» وأحيانا «قلت» عندما يريد المقرئى إبداء رأيه ناقداً أو معلقاً .

٢٨٨- راجع المقفى جا ٣ ص ٤٣٠ وجا ٣ ص ٤٠٣ و ٥٤٠ و ٥٤١ و ٥٤٧ وجا ٦ ص ٣٥٢ .

٢٨٩- راجع المقفى جا ٥ ص ٤٤ .

٢٩٠- المقرئى: المقفى جا ٥ ص ٥٤٠ .

٢٩١- المقرئى : المقفى جا ٥ ص ٥٤٧ .

٢٩٢- المقرئى : المقفى جا ٥ ص ٢٤٦ وراجع من ص ٢٤٥ .

٢٩٣- المقرئى : المقفى جا ٣ ص ٦٦٨ .

٢٩٤- المقرئى : المقفى جا ٣ ص ٧٥٣ وراجع من ص ٧٥٠-٧٥٦ .

٢٩٥- المقرئى : المقفى جا ٥ ص ٢٤٧ .

٢٩٦- المقرئى : المقفى جا ٦ ص ١٠٦ وراجع من ص ١٠٢ .

٢٩٧- المقرئزى : المقفى ج٤ ص ٩٥ وراجع من ص ٩١-٩٦ وكان عبد الرحمن بن عمر قد توفى فى حد شرب الخمر.

٢٩٨- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٢٨٧-٣٠٣ .

٢٩٩- المقرئزى : المقفى ج٢ ص ٣٠٩ وراجع من ص ٣٠٦ .

٣٠٠- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٧٦٧-٧٦٨ .

٣٠١- المقرئزى : المقفى ج٢ ص ١٠٢ .

٣٠٢- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٣- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ٢٢١-٢٢٥ .

٣٠٤- المقرئزى : المقفى ج١ ص ١٥ و ١٦ .

٣٠٥- المقرئزى : المقفى ج١ ص ١٣ وراجع حتى ص ١٥ .

٣٠٦- المقرئزى : المقفى ج١ ص ٢٣-٢٤ . وهناك تدخلات عديدة للمقرئزى خاصة بقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام ، راجعها ج١ ص ٢٧ و ٢٨ .

٣٠٧- المقرئزى : المقفى ج١ ص ٣٦٨ .

٣٠٨- راجع أيضا ج١ ص ٥٥٧ وج٢ ص ٤١٨ و ٤٦٣ وج٣ ص ٦٤ و ٤٣٠ و ٦٤٧ و ٧٢٠ وج٤ ، ص ٤٥٥ .

٣٠٩- منها على سبيل المثال حديثه عن منية مطر وقوله : «التى تعرف اليوم بالمطرية خارج القاهرة» المقرئزى : المقفى ج٥ ص ١٦٤ .

٣١٠- تقتضى الأمانة العلمية أن أشير - هنا - إلى أن الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قد وصف المقرئزى بهذه الصفة فى بحثه «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقرئزى وكتابات» ص ١٧٨ . وأنا أطبق هذه الفكرة على كتابه «المقفى» وأنقل منه ما يؤيدها، وما أكثر الإشارات التى تدلل عليها بالمقفى .

٣١١- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ٨١ .

٣١٢- المقرئزى : المقفى ج٧ ص ٤٥ .

٣١٣- المقرئزى : المقفى ج٥ ص ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٨٠ و ١٨١ .

٣١٤- المقرئزى : المقفى ج٣ ص ٧٥٣ .

٣١٥- راجع المقرئزى : المقفى ج٤ ص ٥٤٧ وج٥ ص ٤٤-٥٥ .

٣١٦- راجع المقفى ج١ ص ٤٥ و ٢٩٩ و ٣٦٣ و ٥٥٦-٥٥٧ و ٥٣٠ و ٥٤٨ و ٦٢٢ و ج٤ ص ٩٨ و ١٣٥ و ج٥ ص ١١ و ج٧ ص ٧-٨ و ص ٤٣ و ٤٥ و ٩٥ و ٢١٥-٢١٦ و ٤٣٧ .

٣١٧- المقرئى : المقفى ج٥ ص ١٦ و ١٨٠ .

٣١٨- المقرئى : المقفى ج٤ ص ٨٣ .

٣١٩- المقرئى : المقفى ج٦ ص ٣٤٦ .

٣٢٠- المقرئى : المقفى ج٧ ص ٤٥ .

٣٢١- المقرئى : المقفى ج٥ ص ٤٣٨ .

٣٢٢- المقرئى : المقفى ج٤ ص ٨ و ص ٣٨ . ويذكر هنا أن الدكتور الخربوطلى ذهب إلى أن المقرئى لم يكن ينمق كتبه بالأساليب البيانية والفنون الأدبية ، لأنه ليس بحاجة إلى ذلك ، بسبب الحقائق التاريخية التى يوردها فى كتبه د. الخربوطلى : المقرئى فى كتابه النزاع والتخاصم ص ٢٥ .

٣٢٣- راجع الصفدى ج١ ص ١٧٧ و ١٧٨ و ١٨٦ و ١٩٨ و ج٥ ص ١٩ و ج٣ ص ٧ و ١٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٤٩٠ .

٣٢٤- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج١ ص ٤٥ و ٤٦ و ٦١ و ٦٦ و ٧٦ و ٩٠ و ٩٦ و ١١٢ و ١٢١ و ١٢٦ و ج٢ ص ٦٥ و ٨٩ و ٢٤٠ و ٣٨١ . وحوادث الدهور ص ٣٩ .

٣٢٥- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص ٥٩ و ٩١ و ٩٣ و ٩٤ و ١٢٩ و ٣٢٢ و ٤٥٠ .

٣٢٦- الصفدى : الوافى بالوفيات ج١ ص ٦ .

٣٢٧- الصفدى : الوافى ج١ ص ٩٩ و ١٠٠ و ١٢٦ و ١٣٢ و ١٥٦ و ٢٠٩ و ٢١٢ و ٢١٤ و ج٣ ص ١٣ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٥ و ٦٣ و ١٨٥ و ٣٦٨ و ج٥ ص ٥ و ص ٢٧ و ص ٤٠ و ٤٥ .

٣٢٨- ابن تغرى بردى : المنهل ج١ ص ٤٥ و ٤٧ و ١١٩ و ١٧٠ و ٢٢١ و ٢٣٤ و ٢٣٨ و ج٢ ص ٦٣ .

٣٢٩- السخاوى: الذيل على رفع الإصر ص ٨٩ و ١٠٥ و ١٢٧ و لم يضبط الأعلام ولم يوضح الأنساب فى مواضع عديدة من كتابه راجع ص ٢٨ و ٢٩ و ٦٦ و ٧٦ و ٧٩ و ٨٠ و ١٠١ و ١٥٧ و ٤٦٥ .

٣٣٠- راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى ج٢ ص ٤٣٤ و راجع ج٢ ص ٥٠ .

٣٣١- ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج١ ص ٤٦ و ٥٨ ، ٧٥-٧٦ و ١٢٢ و ١٣٠ و فيها نقل عن السلوك . وراجع أيضا : المنهل الصافى ج١ ص ١٣٠ ، ٢٤٢-٢٤٣ و ج٢ ص ٣٧٩ و فيها نقل عن المقفى ، وراجع ج٢ ص ٥١ و ج٢ ص ١٠٦ و ص ٤٣١ و فيها نقل عن «درر العقود» . ولم يكن ابن تغرى بردى يشير إلى الكتاب الذى نقل عنه- وأشار إلى ذلك نادرا - ولكنى قمت بمطابقة ما نقله ابن تغرى بردى مع ما كتبه المقرئى فى كتبه وحددت الكتاب المنقول عنه .

٣٣٢- راجع السخاوى : الذيل على رفع الإصر ص ١٨ و ١٠٨ و ١١٩ و ٢٢٤-٢٤٥ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- الإدقوى : (كمال جعفر ت ٧٤٨هـ) .
- الطالع السعيد بأسماء نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ابن تغرى بردى : (يوسف ت ٨٧٤هـ)
- حوادث الدهور تحقيق فهم شلتوت . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- المنهل الصافي تحقيق محمد أمين وآخرين . الهيئة المصرية للكتاب .
- ابن الجزرى : (محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ) .
- غاية النهاية فى طبقات القراء . تحقيق ج برجستراسر . مكتبة المتنبي.
- ابن حبيب : (عمر بن الحسن ت ٧٧٩هـ) .
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور ونيه . تحقيق د. محمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ابن حجر : (أحمد بن على ت ٨٥٢هـ) .
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة.
- الخطيب البغدادي : (أحمد بن على ت ٤٦٣هـ) .
- تاريخ بغداد : دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت .
- الذهبي : (شمس الدين أبو عبد الله ت ٧٤٨هـ) .
- العبر تحقيق د. صلاح الدين المنجد . الكويت .
- سير أعلام النبلاء إشراف د. شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة .
- السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٣هـ)
- الذيل على رفع الإصر . تحقيق د. جودة هلال ومحمد صبيح . الهيئة المصرية للكتاب.

التبر المسبوك . مكتبة الكليات الأزهرية.

الصفدي : (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ)

الرافى بالوفيات تحقيق مجموعة من المستشرقين .

ابن الصريفى : (على بن داود ت ٩٠٠هـ)

نزهة النفوس والأبدان . تحقيق أ.د. حسن حبشى . مطبعة دار الكتب.

ابن العديم : (كمال الدين عمر ت ٦٦٠هـ)

بغية الطلب فى تاريخ حلب . تحقيق د. سهيل زكار . دمشق.

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) .

المقفى . تحقيق أ. محمد اليعلاوى . دار الغرب بيروت - لبنان.

السلوك . تحقيق د. محمد زيادة ود. سعيد عاشور . دار الكتب المصرية.
الخطوط . طبعة بولاق،

ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ)

معجم البلدان . دار صار - بيروت .

ثانياً : المراجع والدوريات :

د. بشار عواد معروف : الذهبى ومنهجه فى كتابه (تاريخ الإسلام) طبعة عيسى البابى
الجليلى.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته .
بحث بمجلة (عالم الفكر) المجلد الرابع عشر، العدد الثانى ١٩٨٣ م. الكويت .

د. شاكى مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون . دار العلم للملايين.

د. على حسنى الخربوطلى : المقريزى فى كتابه النزاع والتخاصم . دار العلوم للطباعة
١٩٧٢ م.

محمد عبد الفنى حسن : التراجم والسير . دار المعارف - مصر .

أوضاع السودان الغربى

فى عهد منسا موسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧ م)

أولا : النطاق الجغرافى للسودان الغربى :

تشمل بلاد السودان المنطقة الفسيحة الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً ، ومن الصحراء الكبرى شمالاً حتى المنطقة الاستوائية جنوباً^(١) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ - السودان الغربى : ويشمل أحواض نهر السنغال ونهر غمبيا ونهر النيجر .

٢ - السودان الأوسط : ويشمل حوض بحيرة تشاد .

٣ - السودان الشرقى : ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل^(٢) .

وكلمة « السودان » عربية قصد بها أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة وهم القاطنون فى ذلك الحزام السودانى الممتد فى قلب القارة الأفريقية من الشرق إلى الغرب . ولكن هذه الكلمة تكاد تنصرف إلى سكان الجزء الغربى منه ، لأن العرب نعتوا أصحاب البشرة السوداء فى غير هذا الجزء بأوصاف أخرى .

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

ويمكن أن يحدد هذا الجزء - السودان الغربى ، محل الدراسة - بالمحيط الأطلنطى (بحر الظلمات) (أو البحر المحيط) من الغرب وبحيرة تشاد من الشرق ، والصحراء الكبرى من الشمال وخليج غانا من الجنوب (٣).

وقد عُرفت هذه المنطقة لدى العرب والمشاركة باسم بلاد التكرور - وهى جزء منها وليست كلها (٤)، وهم اسم لم يشع بين أهل المنطقة أنفسهم (٥).

والسودان الغربى منطقة واسعة حبيسة بين عائقين تضاريسيين هائلين ، فالصحراء الكبرى تضغط عليها من الشمال والغابات الاستوائية فى الجنوب وهى تكاد تخلو من العوائق الطبيعية ، ويسودها مجرى نهر النيجر الكبير ونهر السنغال (٦).

وقد قامت فى هذه المنطقة عدة دول إسلامية ذات أهمية ، من أعظمها دولة مالى (٥٩٦ - ٨٧٤ هـ / ١٢٠٠ - ١٤٦٩م) التى كادت حدودها تتطابق مع حدود السودان الغربى سالفة الذكر (٧)، خاصة فى عهد « منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) » (٨).

ثانياً : نسب منساموسى (٩):

هو موسى بن أبى بكر ، على الأرجح (١٠)، وقيل : موسى بن فاجالى Faga-lay بن أبى بكر (١١)، وقد عرف السلطان موسى باسم : منساكنكن موسى Mansa Kankanmusa أو كونكور موسى Kounkour أو جونجو Gongo أو كونجو Kongo أو كانجو Kango ، وكلها نسبة إلى أم السلطان موسى واسما « نانا كانجو Nan Kango » ، إذ النسبة للأم أمر مشهور لدى الأسر المالكة فى غربى أفريقيا فى ذلك الحين ، وعند أهل مالى عرف هذا السلطان باسم : كى مل أى حاكم مالى (١٢).

وبعد منساموسى من أعظم سلاطين دولة مالى ، حكم مدة خمسة وعشرين عاماً كانت بمثابة العصر الذهبى للدولة (١٣)، وتروى فى كيفية انتقال الملك إليه قصة تفوح منها رائحة الخيال ، إذ سئل هذا السلطان عن ذلك ، فأجاب بأن الذى كان قبله فى الملك كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئات السفن بالرجال والمؤن الكافية ، وأمر فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهاية البحر أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فأجاب بأنهم ساروا بالسفن لمدة طويلة ثم عرضت لهم أمواج عاتية حطمت سفنهم ، فلم يصدق الملك ، وجهز ألفى سفينة ، ألف للرجال وألف

للأزواد واستخلف السلطان موسى فى الحكم ومضى هو بنفسه ليعلم حقيقة الأمر ، فكان ذلك آخر العهد به وبمنم معه (١٤).

وقد جانب أحد الباحثين الصواب حين اعتبر منساموسى هو نفسه الذى أرسل السفن فى البحر ، إذ يقول : « إن آمال منساموسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق » (١٥).

وينتمى السلطان موسى إلى إحدى الأسر التى حكمت فى دولة مالى وتدعى أسرة « كيتا Keita » . التى تدعى الانتساب إلى شخص هاجر من مكة المكرمة يرجع بنسبه إلى بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ ، والمعروف لدى المؤرخين أن عادة إرجاع الأسر نسبها لأحد الصحابة أو أهل البيت عادة معروفة فى غربى أفريقيا (١٦).

وتتنمى هذه الأسرة بدورها إلى فرع من الشعوب الزنجية هو قبائل الماندنجو Mandingo التى تعنى : الشعب الذى يتحدث لغة الماندى Mande وهى قبائل سادت لبضعة قرون فى المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى ، فى وديان نهر السنغال ، واسم « مالى » تحريف لاسم هذه القبائل التى عرفت بأسماء متعددة لدى القبائل والأجناس الأخرى ، فهى مالى Mali أو ميلى Mele عند قبائل الفولانى الزنجية ، ومل Mel أو مليت Melit عند البربر ، ومَلِيل Malel أو مليل Melel عند العرب ، وونجاره Wangara عند قبائل الهوسا فى منطقة شمال نيجيريا (١٧).

ثالثاً : الأوضاع السياسية والعسكرية فى عهد منساموسى وجهوده فى نشر الإسلام:

بلغت دولة مالى فى عهد السلطان موسى ذروة مجدها واتساعها ، فقد امتدت من بلاد التكرور على شاطئ المحيط الأطلسى غرباً إلى تكده شرقى النيجر . ومن تغازة فى الصحراء شمالاً إلى منطقة الغابات الاستوائية جنوباً .

وقد قدرت مساحة الدولة زمن هذا السلطان بمساحة كل دول غربى أوربا مجتمعة ، واعتبرت من أعظم الإمبراطوريات فى القرن الرابع عشر الميلادى ، واشتملت على خمسة

أقاليم كبيرة ، كل منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، ولكنها تخضع لسلطان مالى ، وهى :

١ - إقليم مالى ويتوسط أقاليم المملكة .

٢ - صوصو ، ويقع إلى الجنوب من مالى .

٣ - غانة ، ويقع شمالى مالى ، ويمتد إلى المحيط الأطلسى .

٤ - كوكو ، شرق إقليم مالى .

٥ - تكرور ، غرب مالى حول نهر السنغال (١٨) .

وقد أخضع السلطان موسى فى توسعاته إمارة صنغى الناشئة (١٩) ووطد سلطان مالى بها ، وكانت على ما يبدو كثيرة الخروج عليه ، فبعد عودة السلطان من رحلة الحج الشهيرة التى قام بها سنة ٧٢٤ - ١٣٢٤ م ، نجح قائده « سقمجة » Sagaman (٢٠) فى الاستيلاء على عاصمتها جاو Gao (٢١) سنة ١٣٢٥ م ، وقد عرج عليها السلطان حيث مكث بعض الوقت وبنى مسجداً كبيراً (٢٢) .

وتوالى فتوحات السلطان وتوسعه حتى ليقال إنه فتح أربعاً وعشرين مدينة من مدن بلاد السودان ومنها المدينة الشهيرة فى تاريخ التجارة والثقافة فى السودان الغربى وهى مدينة « تمبكتو » Timbuku (٢٣) ، وبنى بها داراً للسلطنة ، وحين غادر المدينة هاجمتها قبائل الموسى Mossi الوثنية (٢٤) سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ونهبتها وخربتها ، ثم جلوا عنها فعادت لسلطان مالى (٢٥) .

حاول السلطان موسى نشر الإسلام فى ركاب فتوحه خاصة فى المناطق التى كانت ماتزال على وثنييتها ، ومنها منطقة إنتاج الذهب فى ونقارة فى الجنوب على أطراف الغابات الاستوائية . وقد تكررت بخصوص هذه المنطقة لدى كثير من المؤرخين ، ودون تعليق تقريباً ، رواية مفادها أن السلطان فضل السيطرة غير المباشرة على مناطق إنتاج الذهب نظراً لانتشار دعاية تقول بأن أى غاز كان يحاول إخضاع هذه المناطق مباشرة كان إنتاجها من الذهب يقل بشكل ملحوظ (٢٦) .

بينما علق عليها باحث بقوله : " على الرغم مما فى هذا الخبر من طرافة وخرافة ، إلا أنه يدل على أن الوثنيين هناك استطاعوا إيهام ملوك مالى المسلمين بتلك الخرافة حتى يتركوهم

على ديانتهم الوثنية " (٢٧) . وحاول باحث آخر تعقل هذه الرواية وتقديمها في صياغة مقبولة فقال : " وفيما يتصل بالذهب ، حاول ملوك مالى أن يحولوا أهل ونقارة من الوثنية إلى الإسلام ، ولكن هؤلاء هددوا بالكف عن استخراج الذهب من مناجمه إن أرغمتهم الدولة على اعتناق الإسلام ، فكف ملوك مالى عن هذه الحالة وتركوهم للزمن وللآثار البطيئة ، مما جعل أهل ونقارة يتأخرون في اعتناق الإسلام " (٢٨) .

كان السلطان موسى صالحاً فاضلاً كريماً ، ومن عاداته أنه كان يبنى مسجداً في كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها (٢٩) ، وقد أنعم على أحد الأشخاص - كان جدياً للسلطان قد أسلم على يدي جده - بثلاثة آلاف مثقال (٣٠) . وكان أحد رعيته ويعرف باسم « ابن شيخ اللين » قد أحسن إليه في صغره بسبعة مثاقيل ، ثم اتفق أن جاء إليه في خصومه بعد أن آل إليه الملك فعرفه السلطان وقربه وأنعم عليه إنعاماً كبيراً (٣١) .

وقد عزز السلطان موسى صلاحه وانفعاله بالإسلام وتحمسه له بقيامه بأداء فريضة الحج سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م في رحلة شهيرة مر فيها بمصر ، وقابل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه رفض أن يقبل الأرض بين يديه ، كما هي العادة أنفة من السجود لغير الله ، فأعفاه السلطان المملوكي من هذا التقليد (٣٢) . ومن رجحان عقله أنه ثارت في الحرم فتنة بين عسكره وبين الترك شهرت فيها السيوف فأشار عليهم بالرجوع عن القتال وسكنهم (٣٣) .

ونظراً لفخامة موكب حجه وكثرة صدقاته من الذهب ورحلته المثيرة إلى شهادتها التجار البنادقة المقيمون بمدينة القاهرة فقد وصلت أخبار هذا الموكب إلى أوربا التي بدأت التعرف على قلب أفريقيا وافتتحت المدارس لهذا الغرض وظهرت صورة منسامة موسى والطرق المؤدية إلى مالى على الخرائط الأوربية آنذاك . وذلك تمهيداً لحركة الكشف والاستعمار الأوربي (٣٤) .

وحرص السلطان على تبادل علاقة ودية طيبة مع البلدان الإسلامية في الحجاز ومصر والمغرب وغيرها ، وقد خصص سلاطين الماليك بمصر قسماً خاصاً بديوان الإنشاء لتبادل الرسائل مع سلاطين مالى ، كما خصصوا مترجماً سودانياً من التكايرة لمرافقة سلاطين مالى خلال إقامتهم بمصر عند نزولهم بها (٣٥) . وتوطدت بين مالى والمغرب والأندلس العلاقات وشجع عليها اشتراك الجنابين في المذهب المالكي وتبودلت السفارات (٣٦) .

ويبدو أنه نظراً لحماس منساموسى للإسلام فقد تعرض للنقد اللاذع ، وبخاصة رحلته للحج التى أنفق فيها كثيراً من الأموال ، من جانب بعض الباحثين الأفارقة الذين ذهبوا إلى أن تصرفه لم يكن سوى تبذير لم تجن البلاد من ورائه غير الفقر الذى مازالت تعاني من آثاره إلى اليوم (٣٧).

وحول جهود منساموسى فى نشر الإسلام ، وجهود غيره من السلاطين المسلمين ، والتجار والعلماء والمستوطنين المسلمين ، وطبيعة هذا الانتشار فى هذه المنطقة ثار كلام كثير بين الباحثين المعاصرين والمستشرقين بصفة خاصة ، وبداية فإن ندرة المعلومات والسجلات المكتوبة خاصة عن الفترات المبكرة تصعب من تحقيق كثير من المسائل بوضوح وحسم (٣٨).

وقد قالوا بأن الدول والأسر الحاكمة فى هذه المنطقة تبنت الإسلام فى ذلك الوقت كديانة إمبراطورية استعمارية تدعو للسيطرة والغزو وتعين على ذلك بإيجذاب الناس إليها (٣٩). وأن الإسلام فى أفريقيا جنوب الصحراء ظل منطقة هامشية فى علاقتها بالعالم الإسلامى الواسع ، وأن حضارة الإسلام فى أفريقيا بقيت فى شكل بدائى (٤٠)، وأن اتساع وهيمنة مالى التى أمدنا الكتاب العرب بكم محو من المعلومات عنها لم يتزامن معها انتشار مهم للإسلام (٤١)، وأن سمة هذه الفترة كانت تبني الإسلام كديانة طبقية لدى الحكام والتجار والدعاة على حين لم يكن توغله بين جماعات غفيرة ويتمكن ممتداً وعميقاً ، واتسمت الحياة الدينية بأشكال من التكيف بواسطة ثنائية أو متوازية من القديم والحديث ، الإسلامى والأفريقى الوثنى (٤٢).

ويمكن أن يرد على ذلك بأن الإسلام قد انتشر بشكل متواز بين الطبقات الحاكمة وطبقات العامة . مثال ذلك دولة غانا الوثنية التى كان الإسلام قد انتشر بين كثير من رعاياها حتى دانت به عشائر مجتمعة قبل أن تتحول الدولة رسمياً للإسلام ، ومنها قبائل السوننكى So-ninke التى تحمست لنشر الإسلام حتى إن كلمة « سوننك » كانت تستعمل لدى بعض العشائر الوثنية فى غربى أفريقيا مرادفاً لكلمة « الداعى » مما يؤكد دورهم الكبير فى نشر الإسلام (٤٣).

وقد ظل السودان الغربى منطقة هامشية نسبياً بالنسبة للعالم الإسلامى بسبب بعده عن قلب العالم الإسلامى وحواضره الكبرى ، والفواصل الطبيعية الهائل المتمثل فى الصحراء الكبرى المعيقة للاتصال بشكل كبير ، والفواصل اللغوى فلم يكن انتشار العربية فى المنطقة ساحقاً كما فى مصر وشمال أفريقيا مثلاً بحيث يضمن لها السيادة الدائمة وذلك لضآلة

الهجرات العربية لهذه المنطقة مقارنة بها فى الشمال الأفريقى أو شرقى أفريقيا على سبيل المثال .

ورغم ذلك فلم يكن السودان الغربى منعزلاً تماماً عن بقية العالم الإسلامى إذا قامت بينهما علاقات فى مجالات متعددة . سبق ذكر بعضها وسيرد غيرها فى هذا البحث ، وسيرد أيضاً عند الحديث عن الأوضاع فى بقية المجالات الحضارية ما يثبت لهذه المنطقة مستوى من التحضر يرتفع كثيراً عن البدائية التى زعمها بعض المستشرقين ، وإن كنت أميل شخصياً إلى أنها كانت أقل تحضراً نسبياً من كثير من مناطق العالم الإسلامى وشاهد ذلك إسهامها المتواضع نسبياً فى سجل التراث الحضارى الإسلامى فى مقابل إسهامات بقية المناطق والأقاليم الإسلامية .

ولعل السر فى هذا التدنى النسبى فى مستواها الحضارى هو العوامل السالفة المذكورة تروا . وأميل أيضاً إلى القول بأن إسلام السودان الغربى فى تلك الفترة كان مختلطاً أحياناً ببعض العادات والتقاليد الأفريقية الوثنية ، فقد واءم الأفريقى بين دينه الوافد وتراثه التالء (٤٤) ، وسترد شواهد مؤكدة لهذه الثنائية عند الحديث عن الحياة الاجتماعية .

رابعاً : نظم الحكم والإدارة :

حكم السلطان موسى إمبراطوريته الواسعة من العاصمة نيانى Niani التى وصفت بأنها مدينة تجارية كبيرة مزدهمة السكان ، تقع قريباً من منطقة الغابات فى الجنوب على أحد روافء النيجر (٤٥) .

وقد اتخذت إمبراطوريته نموذجاً للنظم السياسية الإسلامية فى غرب أفريقيا . فأساس الكيان السياسى أسرة ووحدات قروية ، ورأس الأسرة هو الشيخ أو المرشد الروحى أو الزعيم ، ومجموعة القرى بدورها تشكل ما يسمى كافو Kafu أو مقاطعة (٤٦) .

وكان لمجلس السلطان هيئة وطقوس معينة رواها القلقشندى بالتفصيل (٤٧) . وكان إذا أنعم على أحد فى مجلسه بإنعام أو وعده وعداً جميلاً أو شكره على فعل ، قرغ المنعم عليه بين يديه فى الأرض من أول المكان إلى آخره ، فإذا انتهى إلى الآخر أخذ غلمانة أو أصحابه من رماء يكون موضوعاً فى آخر المجلس معداً لهذا الغرض ، فيذرونه على رأسه ثم يعود ويتمرغ إلى أن يصل إلى بءى الملك (٤٨) .

وكان نظام الحكم فى دولة مالى ملكياً وراثياً ، ينتقل من الأب للابن أو الأخ ، والقاعدة أن يتولى من هو أكبر سنًا من الأبناء أو الإخوة . وقد يتولى الحكم أبناء الإخوة أو أبناء البنت ، وقد انتشرت هذه العادة أى تولى ابن البنت فى منطقة غربى أفريقيا وعلى أساسها ولى أبو بكر والد منساموسى الحكم سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م (٤٩).

ولى السلطان فى الحكم نائبه ويلقب « قَنجا » يقوم مقامه إذا غاب ، وقد أناب منساموسى ابنه محمداً (٥٠) أثناء غيابه فى رحلة الحج . ويساعد السلطان ونائبه فى الحكم الوزير ويسمى « صندكى » Sundaki (٥١).

وشاركت زوجة السلطان فى الحكم وتلقبت باسم « قاسا » Qasa ومعناها : الملكة أو الزوجة الكبرى ، وكان يذكر اسمها على المنبر إلى جانب اسم الملك (٥٢).

وبلغ قوام الجيش حوالى مائة ألف نفر ، منهم حوالى عشرة آلاف فارس ، والباقى رجاله . وأقطع أمراء الجيش إقطاعات واسعة بلغت أحياناً خمسين ألف مثقال من الذهب للواحد فى السنة . والجيش موزع على الأقاليم المختلفة ، لكل حاكم إقليم فرقة يقودها بنفسه (٥٣).

وكان للقضاة منزلة كبيرة ولهم حق مصافحة الإمبراطور (٥٤)، وقد أنعم السلطان موسى على أحد قضاة ، يكنى بأبى العباس ، بأربعة آلاف مثقال لنفقته . وحين وصلوا لأحد المواضع شكا القاضى للسلطان سرقة المبلغ من داره . فاستحضر السلطان أمير تلك المنطقة وتوعده وهدده إن لم يحضر السارق ، وطلب الأمير السارق فلم يعثر على أحد ، فدخل دار القاضى واشتد على خدمه وهددهم ، فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع له شيء ، وإنما دفنها بيده فى ذلك الموضع ، وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان وعرفه القصة ، فغضب السلطان على القاضى ونفاه مدة أربع سنين ثم رده (٥٥).

خامساً : الأوضاع الاجتماعية :

تمايز مجتمع السودان الغربى إبان تلك الفترة إلى طبقتين : طبقة أرستقراطية يمثلها الحكام والأمراء والحاشية ، وتمتعت بالسلطة والثروة واحتكرت التجارة عماد اقتصاديات البلاد فى ذلك الوقت ، واعتمدت على نبل الأصل أو الشجاعة الحربية أو العمل فى الحاشية . وطبقة العامة وشملت بقية الشعب وكانت - كالعادة - أقل حظاً فى كل شيء (٥٦). وعلى تخوم الطبقة الأرستقراطية تقع جماعات التجار والعلماء والكتاب .

وقد سبقت الإشارة لما تمتعت به المرأة فى الطبقة العليا من منزلة كبيرة وأنها شاركت فى الحكم ودعى لها بجانب السلاطين . وورث أبناؤها الحكم ، ونسب إليها السلاطين ، ومنهم سلطاننا هذا . كما سلف الذكر .

ونظراً لدخول الإسلام إلى منطقة غربى أفريقيا عن طريق شمالها فى الغالب ، وللعلاقات الوثيقة بين المنطقتين ، فقد سادها المذهب المالكي (٥٧) . ووجد فى الأطراف الشمالية على مشارف الصحراء بعض الخوارج الإباضية (٥٨) . ومن نافلة القول أن المجتمع السودانى ضم فى تلك الفترة إلى جانب المسلمين أعداداً كبيرة من الأفارقة كانت ماتزال مستمسكة بوثنيتها .

ومن ملامح اختلاط إسلام تلك المنطقة ببعض عادات أهلها الجاهلية أنه كان من عادة أهل مملكة السلطان إذا نشأ لأحدهم بنت حسناء ، قدمها له أمة موطوءة . فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين . وقد أخبر منساموسى ، أثناء مروره بمصر فى حجته المشهورة ، بأن هذا لا يحل لمسلم شرعاً . فتساءل : ولا للملوك ؟ ! ف قيل له : ولا للملوك . فأجاب بأنه ما كان يعلم ، وقد ترك هذه العادة من فوره (٥٩) .

ولعل هذه الرواية تشى بمدى الوعى بتعاليم الإسلام حتى بين المسلمين أنفسهم فى تلك المنطقة فى ذلك العهد ، إذ كيف تغيب مثل هذه التعاليم الواضحة المشهورة فى الدين عن فهم هذا السلطان المسلم ورجاله . ويبدو أن الأمور كانت ماتزال فى بكارتها إلى حد كبير . واتصلاً بهذا فقد وجدت كثير من الخرافات وممارسة السحر والشعوذة فى تلك العهود (٦٠) .

سادساً : الأوضاع الاقتصادية :

بلغت مملكة مالى شأواً عظيماً من الثراء على عهد منساموسى لتعدد موارد دخل الدولة وغناها . ودلل على ذلك فخامة موكب حجه الذى بهر كل ما مر به من بلاد . بل وصل صيته إلى أوربا ، فقد بلغت حاشيته وأتباعه عدة آلاف ، وضمت القافلة مائة جمل يحمل كل منها أثقالاً من أرتال الذهب والهدايا النفيسة ، وقدم حين وصوله لمصر حملاً من التبر للخزانة السلطانية ، ولم يترك أحداً من الأمراء والحاشية إلا وبعث له بالذهب ، حتى قيل إنه ثمنه انخفض بمصر بسبب ذلك . وتصدق فى الحجاز بمبالغ طائلة . وفى طريق عوده أهدى للسلطان المملوكى بمصر ، حتى إن كثرة نفقاته أحوجته للاقتراض من أحد تجار مصر ويدعى « سراج الدين ابن الكويك » حيث وفى له به بعد عودته إلى بلاده (٦١) .

وقد تنوعت موارد دخل المملكة على النحو التالى :

- **التجارة :** فقد جاءت معظم أرباح الإمبراطورية وأموالها الطائلة من طريق تحكمها فى طرق القوافل التجارية نتيجة ترمى أطرافها ، وقد انتظمت حركة القوافل بينها وبين كثير من البلاد كالمغرب وبرة ومصر ، وساعد على ذلك استتباب الأمن وسلامة الطرق فى ذلك العهد (٦٢) ، واشتهرت على طرق القوافل عدة مدن تجارية غنية مثل : ولاته وتمبكتو وجاو وجنى وتكدا ونيانى العاصمة (٦٣) إلخ . وقيل عن إحداها وهى « تكدا » الواقعة بالصحراء إنه كان يمر بها كل عام قوافل تفوق اثنى عشر ألف جمل قادمة من نيانى قاصدة القاهرة ، ولا شغل لأهلها غير التجارة (٦٤) .

وحملت هذه القوافل إلى هذه البلاد الملح وحلى الزجاج والسلع العطرية والثياب وتعود بالذهب والنحاس والرقيق وبعض المحاصيل .

وكان للملح أهمية خاصة لدى أهل السودان الغربى حيث يستعمل فى تجفيف الطعام والحفاظ عليه من الحرارة الشديدة ، لدرجة أنهم كانوا يستبدلونه بالذهب . وقد سيطرت مالى فى عهد موسى على مناجم الملح فى تعزة بالشمال الصحراوى (٦٥) .

- **الزراعة :** كانت أرض السودان الغربى فى معظمها خصبة زراعية كثيفة السكان (٦٦) وكان بالعاصمة نيانى كثير من المزارى المائية تروى الأرض الزراعية المحيطة بها . وعرفت البلاد نظام المزارع الجماعية التى يعمل بها عبيد الدولة (٦٧) . وزرع الأرز والفونى وهو كحب الخردل ... إلخ (٦٨) .

- **الموارد الطبيعية :** سيطرت الدولة على مناجم الذهب فى الجنوب وعلى مناجم النحاس فى تكدا بالشمال وأمدت بهما البلدان المجاورة . وبلغت كثرة الذهب بأرض المملكة أنه كانت تحفر الحفائر فيوجد منها كالحجارة والحصى . كما كانوا يحفرون للبحث عن النحاس فى تكدا ويسكبونه نحاساً أحمر ويصنعونه قضباناً رقائق وغلاظ تباع بالذهب والسلع وهى عملتهم (٦٩) .

- **الجزية والإتاوات :** حصلت الدولة على قوافل التجارة وعلى بعض مناجم الذهب ، إذ يبدو أن سيطرة الدولة على بعضها لم تكن كاملة حيث اكتفت بأخذ الإتاوة من القائمين عليها (٧٠) .

وتقاضت الدولة إتاوة من إمارة صنفى حين أخضعته وإمارة جنى التى حمته شبكة من المجارى المائية من الخضوع التام رغم قربها من العاصمة ، ومن بعض قبائل صنهاجة الملثمين جنوب الصحراء الكبرى (٧١).

سابعاً : الأوضاع الثقافية :

شجعت على رواج العلم والثقافة بالسودان الغربى فى ذلك العهد عدة عوامل منها : توافر الثروة والرخاء الاقتصادى الذى مكن من إنشاء المساجد والمدارس والكتاتيب وشراء الكتب وإنشاء المكتبات وجذب العلماء والإنفاق على المتعلمين .

فقد بنى فى عهد منسا موسى مسجد عظيم فى جاو وآخر مثله فى تمبكتو تفوقاً على كثير من المساجد كمركزين للثقافة الإسلامية ، بالإضافة إلى مسجد سنكرى بتمبكتو وكان من أشهر المراكز الثقافية بها وفيه تخرج العلماء فى مختلف فنون المعرفة الإسلامية (٧٢).

وبعد عودته من الحج أنشأ فى عاصمته مدرسة كبيرة لتحفيظ القرآن ، وكان التعليم إجبارياً بها (٧٣). كما اشترى فى طريق عودته من رحلة الحج من مصر بعض كتب الفقه المالكى (٧٤). واستقدم العلماء معه ومنهم الشيخ عبد الرحمن التميمى الفقيه الذى صحبه من أرض الحجاز وسكن تمبكتو وكانت وقتها حافلة بالفقهاء والعلماء فلما رأى تفوقهم عليهم ، رحل إلى فاس للتزود بالعلم ثم عاد واستوطن هناك (٧٥). وكذلك استقدم من المغرب الفقيه عبد الله البلبالى الذى تولى إمامة الجامع الكبير فى تمبكتو (٧٦).

ولم يكتف السلطان موسى باستقبال العلماء بل أرسل طلاب العلم من بلاده للدراسة فى معاهد العلم بمصر والحجاز والمغرب والأندلس ، وفى الأزهر خصص لهم رواق لإقامتهم عرف برواق التكرارة ووجدوا من سلاطين وأمراء الممالك العون والترحيب وأجروا عليهم الأرزاق وقد بنى منسا موسى نفسه داراً لهم ينزلون بها بالقاهرة (٧٧).

ومن نبغ من بعثات منسا موسى كاتبه المشهور بكاتب موسى الذى أرسله ليتابع حلقات العلم فى فاس ثم رجع بعد تمكنه من العلم وتولى إمامة الجامع الكبير بتمبكتو مدة أربعين سنة (٧٨). وكان السلطان موسى نفسه صالحاً متديناً عارفاً بمذهب الإمام مالك - رضى الله عنه - مجيداً للعربية (٧٩).

واشتهرت في عهده مدن مثل تمبكتو وجنّو وجاتو كمراكز إشعاع ثقافي وحضاري إلى جانب أهميتها الاقتصادية (٨٠). وكانت الدراسة في معاهد هذه المراكز الثقافية على مستويين : المدارس القرآنية وتركز على قراءة القرآن وحفظه ، والمدارس التي تدرس العلوم الإسلامية المتنوعة كالتمهيد والتفسير والحديث والفقه واللغة ، وغيرها كالمنطق والفلك والجغرافيا (٨١).

واصطحب السلطان في عودته أيضاً المهندس المعماري الأندلسي الأصل ، والذي كان يقيم بمكة ، أبو إسحق الساحلي ، وقد أسهم الساحلي في تطوير فن البناء والعمارة في مالي وبنى عدة مساجد وقصور على الطراز العربي في غربي أفريقيا . وقد أعجب به السلطان وأغدق عليه ، ونال هو وأسرته منزلة كبيرة في غربي أفريقية ، وظل قبره مشهوراً بتمبكتو ، وقد زاره ابن بطوطة (٨٢).

الهوامش :

١ - القلقشندى : صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٥م الجزء الخامس ص ٢٧٣ ، السيد أحمد السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م ، ص ١٦ .

٢ - السيد الباز : المرجع نفسه والصفحة : J. Spencer Trimingham : A history of Islam in West Africa, oxford University press, London, 1975 . 34 .

٣ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ : إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م ص ٤ ، ٥ : حسن جلال الدين محمد : مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م ، ص أ من المقدمة .

٤ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٢ : Trimingham : A history Islam in West Africa, p. : 41 , 42 .

٥ - محمد بلوين عثمان بن قودى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ، ص ٢٧ .

٦ - د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م ، ص ٢٢٨ .

٧ - د. حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى من منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدولة العربية سنة ١٩٥٧م ص ٥٩ ، محمد عبد الله النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجرين رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠م ، ص ٣ .

٨ - هذا على أرجح الأقوال فى تحديد فترة حكمه ، وفيها خلاف . انظر : د. طرخان : دولة مالى الإسلامية ص ٧٤ ، السيد الباز : الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى ص ٢٣ ، فائ منصور على : دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٩٣ - ٩٥ . (وهذه الرسالة لا تتناول عهد منساموسى فقط - والذي يمثل مبحثاً من فصل فيها - وإنما هى استعراض لتاريخ الدولة كلها ، وقد لا أبالغ إذا قلت إنها عبارة عن تاريخ

إجمالى للسودان الغربى فى العصر الإسلامى ، ومن المستغرب أن الباحث قد أضاف لقائمة مراجع الرسالة - التى تبلغ ٧٥ مصدراً ومرجعاً عربياً - قائمة حوت أسماء عشرة مراجع فرنسية لم يرجع لواحد منها فى أى هامش من هوامش رسالته .

٩ - « منسا » معناه عندهم : ملك أو سلطان . د. طرخان : دولة مالى ص ٣٣ .

١٠ - ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥ هـ ، السفر الرابع ص ٣٨٣ .

History of West Africa, edited by : J.F.A. Ajayi and Michael Crowder, Longman, second edition, 1976, Vol one, p. 126 .

١١ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ .

١٢ - د. طرخان : دولة مالى ص ٧٣ .

History of West Africa, Vol one, p. 126 .

١٣ - The Cambridge history of Africa, Volume 3, edited by : Roland oliver, London, frist publised 1977, p. 380 , 381 .

١٤ - القلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، د. طرخان : دولة مالى ٧٤ .

١٥ - د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦م ، ص ٢٢٢ . والغريب أنه يستند فى هذا فى المتن إلى رواية القلقشندى السابقة والتى خصت السلطان السابق لمنسا موسى بهذا الأمر وليس موسى نفسه ، ولكنه فى الهامش يوثق الكلام بإسناده إلى كتاب J/D/Fage وعنوانه :

An introduction to the history of West Africa, Cambridge 1955, p. 26 .

وقد راجعت هذا الكتاب فى طبعته التى رجع إليها د. حسن فلم أجد فى الصفحة نفسها ولا فى موضوع السياق فى هذا الموضوع أية إشارة لقصة السفن هذه ومن أرسلها .

ويشارك د. حسن محمود فى إسناد قصة إرسال السفن إلى منساموسى بدلاً من سابقة - وهو صحيح ما ذكرته رواية القلقشندى المشار إليها فى الهامش السابق - يشاركه فى هذا باحث آخر هو د. أحمد شلبى حيث يقول « ويضيف القلقشندى قصة تدل على أن أطماع منساموسى كانت واسعة، فإنه لم يقنع بسيطرته على البر ، بل أراد أن يسيطر على المحيط ، وأن يكتشف ما خلفه من أرض، فأرسل مجموعة من السفن شحنها بالزاد والرجال ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل » موسوعة

التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م ، ص ٢٤٥ .

١٦ - د. طرخان : الدولة مالى ، ص ٧١ ، حسن جلال الدين : مملكة مالى ١٢ ،

Cambridge history of Africa, Vol 3 , p. 377, Page : An introduction to the history of West Africa, p. 24, I ra.M. Lapidus : A history of Islamic societies, cambridge, first published, 1988, p. 493 .

١٧ - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ترجمة إلى العربية عن الفرنسية د. عبد الرحمن حميدة ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) ١٩٩٧م ص ١٧٤ .

Page :An introduction to the history of West Africa, p. 24. F.N, Lapidus;
A history of Islamic societies, p. 491, 493 .

١٨ - د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٥ ، ٢٤٦ : د. حسن إبراهيم : انتشار الإسلام ، ص ٥٩ - ٦٣ : حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ج من المقدمة ، ٤٥ - ٤٦ ، ٥٩ - ٦٠ : فاسى منصور : دولة مالى ١١٣ - ١١٤ : الموسوعة الأفريقية المجلد الثانى ١٧٤ ، ١٧٧ .

Trimingham : A History of islam in West Africa, p. 69 .

١٩ - وهى التى ستصبح فيما بعد سلطنة صنغى الإسلامية (٧٧٧ - ١٠٠٠هـ / ١٣٧٥ - ١٥٩١م) وترث إمبراطورية مالى . انظر الموسوعة الأفريقية ص ١٨٢ ، وما بعدها من المجلد الثانى .

٢٠ - أو « ساجمان دير » Sagman Dir.

٢١ - تقع على نهر النيجر ، وقد وردت فى الكتابات العربية بأسماء مختلفة منها : كاخ ، كوغا ، كاغو، كوكو ، كركر ؛ د. طرخان : دولة مالى ، ص ٩٢ ، هامش ٢ .

٢٢ - د. طرخان : دولة مالى ، ص ٧٥ :

History of West Africa, Vol .I, p. 126 .

٢٣ - أسسها البربر خلال القرن الحادى عشر الميلادى على مسافة اثنى عشر ميلاً من فرع النيجر ، وكانت منطقة معسكرات لهم فى البداية . وقيل أسسها ملك يدعى منسا سليمان سنة ٦٠٠ هـ . انظر: الوزان : وصف أفريقيا ص ٥٣٩ وهامشها ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٣ الهامش . ولعل هذا الملك قد زاد فيها وجعلها ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ غربى أفريقيا كمركز حضارى معروف فى ذلك الوقت : انظر موقعها على الخريطة الملحق بالبحث .

٢٤ - قبائل زراعية فى إقليم ياتنجا Yatenga فى منطقة فولتا العليا ، ويكثرون حالياً أغلب سكان هذه الجمهورية (فولتا العليا أو بوركينا فاسو الآن) . د. طرخان : دولة مالى ٧٦ ، النقيزة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٤٤ : Trimingham : A history of Islam, p. 71 .

٢٥ - د. طرخان : دولة مالى ٧٥ ، ٧٦ : حسن جلال الدين : مملكة مالى ص ٤٦ : Trimingham : A history of Islam, p. 68 . History of West Africa, Vol, 1, p. 126 .

٢٦ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ . Trimingham : A history of Islam, p. 70 ; Cambridge history of Africa, Vol, 3, p. 381 .

٢٧ - النقيزة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ١٣٧ .

٢٨ - د. شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ .

٢٩ - السعدى : تاريخ السودان طبعة هوداس سنة ١٨٩٨م ، ص ٧ .

٣٠ - ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار (الرحلة) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، ص ٦٩٧ ، حيث ذكر أن جد السلطان أسلم على يد الشخص المنعم عليه نفسه واسمه « مدرك بن فقوص » وليس على يد جده ، ولكن الأقرب للصواب ما ذكره فى المتن ، انظر Trimingham : A history of Islam, p. 66 .

٣١ - ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٧ ، ٦٩٨ .

٣٢ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩٥ ، ٢٩٦ : ابن حبيب : تذكرة النبىء تحقيق د. محمد أمين الهيثة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م : السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ : حسن جلال الدين : مملكة مالى : ٤٧ ، ٤٨ : Trimingham : A history of Islam, pp. 32 , 33 .

وقيل إنهم حين طلبوا منه السجود فى حضرة السلطان قال : أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ، ثم سجد . القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٣٣ - السيد الباز : الحياة العلمية ١٧٥ ، ١٧٦ .

٣٤ - د. طرخان : دولة مالى ٨٣ ، ٨٧ ، ٩١ : Trimingham : A history of Islam, p. 67, 68; History of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٥ - النقيزة : التأثير الإسلامى ، ص ٢١٤ .

٣٦ - Trimingham : A history of Islam, p. 70, Cambridge history of Africa, Vol3, p. 381, History of West Africa, Vol 1, p. 127 .

٣٧ - فای منصور : دولة مالى ص ١١٦ - ١١٨ ، حيث أورد هذا الباحث هذه المزاعم وناقشها ومال إلى أنها وجهة نظر واردة من الغرب وقال بأنها جزء من المخطط الاستعماري الهادف إلى محاولة زلزلة إيمان الأفريقى بنفسه وتاريخه القومى والإسلامى بالذات ، وذلك عن طريق إقناعه بالعجز الذاتى المفتعل وصولاً إلى غرس الشعور بالنقص فيه ، فهذه محاولة لطمس أعمال ومعالم هذا السلطان التى حاول بها رفعة بلاده وتوحيدها وأقام علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وفتح بلاده أمام اللاجئين المسلمين من الأندلس وعلمائهم الفارين من وجه حركة الاضطهاد المسيحى الصليبي ، حتى قيل إن فقد إسبانيا كان كسباً لأفريقيا المسلمة ، وأنا أزيد على هذا الكلام القيم بالتساؤل فى غرابة عما إذا كان حقاً أن أثار رحلة الحج هذه - على بعد زمان حدوثها - هى التى أفقرت ومازالت تتسبب فى إفقار البلاد أم أنه الاستعمار الأوربي الحديث الى استعبد أبنائها ونهب خيراتها وربط مصائرهم به وحاول القضاء على هوياتها ومزق وحدتها واصطنع لها الحدود والموانع الى أثارها ومازالت تثير كثيراً من المآسى والحروب المنازعات .

٣٨ - أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن وآخرين مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ؛ Ninian Smart : The World's religions, old Traditions and modern transformations, Cambridge University press, 1992, p. 297 .

٣٩ - Trimingham : A history of Islam, p. 34, the expansion of Islam, published in , Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William H. Lewis, New York 1969, p. 24 .

٤٠ - Trimingham : The influence of Islam upon Africa , London, first published 1969, p. 1 .

٤١ - Trimingham : The influence of Islam, p. 14 .

٤٢ - Trimingham : The influence of Islam . p. 34 ; Lapidus : A history of Islamic Societies, p. 494 .

٤٣ - فای منصور : دولة مالى ١٩ ، ٢٠ . وقد ساعد على ذلك أن حملة الإسلام لهذه المنطقة كانوا فى الغالب رسل حضارة على شكل جماعات من التجار والعلماء ، فعلى عكس مناطق أخرى فى الشرق والهند مثلاً مهد فيها الفتح العسكرى لانتشار الإسلام فإن الذى مهد للإسلام فى غربى أفريقيا فى الغالب هم الجماعات السابقة . انظر : د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ ٦ : ٤٧ ؛ Lapidus : A history of Islamic Societies, p. 489 ولكن انتشار الإسلام فى هذه المنطقة لم يكن ساحقاً منذ زمن مبكر بصورة تجيز قول أحد الباحثين بأن معظم سكان السودان الغربى وأغلب ملوكهم قد اعتنق الإسلام قبل فتح المرابطين لمملكة غانة الوثنية سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م .

(انظر : محمد الثقيرة : الزئير الإسلامى فى السودان الغربى ص ٣٥) .

وهذا الباحث نفسه يعود فيذكر أن مملكة غانة بعد تحولها للإسلام لم تآل جهداً فى نشر الإسلام بين جيرانها الوثنيين (السابق ص ٤٩) بل يذكر عن منسا موسى أنه فتح الكثير من البلاد الوثنية المجاورة ، ويرى أنه فتح بسيفه أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان (نفسه ص ٥٠) ، وذلك بعد فتح المرابطين لغانة بحوالى قرنين ونصف من الزمان ، فلا مجال إذن للقول بالانتشار الساحق للإسلام فى ذلك الزمن المبكر ، وهذا ما يؤكدته رأى أحد المستشرقين حين يقول معلقاً على ضآلة معلوماتنا عن تفاصيل انتشار الإسلام فى تلك المنطقة إبان ذلك العهد : " ولكن حقيقة واحدة تبرز لنا من هذا السجل التاريخى الهزيل ، تلك هى البطء الشديد فى تحول الناس هناك إلى الإسلام ، وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الأوثان يعيشون فى الأقاليم التى مرت عليها قرون وهى تحت الحكم الإسلامى ، ليدلنا فما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصوراً فى المدن طويلاً ، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجياً . والواقع أن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البيمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع أنهم - وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى - كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين « . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٨ .

٤٤ - د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ص ١٥ .

٤٥ - انظر موقعها على الخريطة ، انظر كذلك : حسن جلال الدين : مملكة مالى ، ص ٤٥ ، ٤٦ : الموسوعة الأفريقية ، ٢ : ١٧٦ .

٤٦ - Lapidus : A History of Islamic societies, p. 493 .

٤٧ - صبح الأعشى : ٣٠٠ - ٣٠١ .

٤٨ - صبح الأعشى ٣٠١ . ولعل هذا يؤيد ما ملت إليه من قبل مع بعض الباحثين من القول بأن إسلام السودان الغربى اختلط أحياناً ببعض العادات والتقاليد القديمة .

٤٩ - التلقشندى : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٤ ؛ حسن جلال الدين : مملكة مالى ٦٧ : History of West Africa, Vol 1 , p. 126 .

٥٠ - هو الذى خلف أباه فى الحكم باسم منسامفا Magha ، مما حرم سليمان أخا موسى من حقه كأكبر ذكر فى الأسرة الحاكمة . انظر : Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٥١ - حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧٢ .

٥٢ - ابن بطوطة : الرحلة : حسن جلال الدين : مملكة مالى ٧١ ، ٧٢ .

- ٥٣ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٩ : حسن جلال الدين : مملكة مالي ، ص ٧٦ .
- ٥٤ - فاي منصور : دولة مالي ، ص ١٣٠ .
- ٥٥ - ابن بطوطة : الرحلة ٦٩٩ ، ٧٠٠ .
- ٥٦ - جلال الدين : مملكة مالي ، ص ١٠٥ .
- ٥٧ - د. طرخان : دولة مالي ، ٥٣٣ ، ٥٤ .
- ٥٨ - ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٨٩ .
- ٥٩ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٦ ، Trimingham : A history of Islam. p. 71
- ٦٠ - Trimingham : A history of Islam, p. 71
- ٦١ - انظر وصف هذا المركب الهائل وتلك النفقات الباهظة : القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ : ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٢ ، ١٤٣ : السعدى : تاريخ السودان ٧ ، ٨ : Trimingham : A history of Islam, p. 68 , Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray, New York 1989, p. 49 - 51 .
- ٦٢ - د. شلبي : موسوعة التاريخ ٦ : ٢٤٨ ، ٢٤٩ : د. طرخان : دولة مالي ١٣٥ .
- ٦٣ - انظر مواقعها على الخريطة .
- ٦٤ - ابن بطوطة ٧٦٠٤ : د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدولة الإسلامية ، ص ١١٢ .
- ٦٥ - ابن بطوطة ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٩ ، ٧٠٤ : حسن جلال الدين : مملكة مالي ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية ، ص ١١٢ .
- ٦٦ - د. طرخان : دولة مالي ١٣٥ .
- ٦٧ - حسن جلال الدين : مملكة مالي ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٩ .
- ٦٨ - ابن بطوطة : ٦٨٩ .
- ٦٩ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٩ : ابن بطوطة : ٧٠٥ . وقد استعمل أهل السودان الغربى الذهب والنحاس والملح وأعراض السلع كعملات يتبادلون بها فى متاجراتهم ، انظر بالإضافة إلى ما سبق : فاي منصور : دولة مالي ١٥١ ، ١٥٢ .
- ٧٠ - القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ولعل هذا ما دعا أحد الباحثين الغربيين إلى القول بأن الدولة لم تستطع على عهد منساموسى إدارة مناجم الذهب . وايدنر : تاريخ أفريقيا

جنوب الصحراء الجزء الأول ترجمة : على أحمد فخري ، د. شوقي الجمل مؤسسة سجل العرب سنة ١٩٧٦م ، ص ٣٣ .

٧١ - د. طرخان : دولة مالي ٧٥ ، ٧٦ : Cambridge history of Africa, vol 3 , p. 381

٧٢ - السعدى : تاريخ السودان ٥٦ : السيد الباز : الحياة العلمية ٢٧ ، ٥١ .

٧٣ - السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٢ .

٧٤ - د. طرخان : دولة مالي ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٧٥ - السيد الباز : الحياة العلمية ، ص ٦٨ .

٧٦ - النقيرة : التأثير الإسلامى فى السودان الغربى ٢٣٥ .

٧٧ - السيد الباز : الحياة العلمية ١٦٤ ، ١٦٥ : النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٨ - السعدى : تاريخ السودان ٥٧ : النقيرة : التأثير الإسلامى ، ص ٢٣٦ .

٧٩ - ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ١٤٣ : القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٩٥ .

٨٠ - حسن جلال الدين : مملكة مالي ص ج من المقدمة : فاي منصور : دولة مالي ، ص ١١٤ :

From mande to songhay, towards a political and ethnic history of medieval Gao,
published in : the journal of african history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .

٨١ - السيد الباز : الحياة العلمية ٦٤ .

٨٢ - ابن بطوطة ٧٠١ : حسن جلال الدين : مملكة مالي ٥٥ - ٥٨ : Trimingham : A history of

Islam, p. 68, 69 .

المراجع

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

* أرنولد : سير توماس :

- الدعوة إلى الإسلام : ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

* الباز : السيد أحمد السيد :

- الحياة العلمية والثقافية فى بلاد السودان الغربى فى عهد دولتى مالى وصنغى - رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة سنة ١٩٩٤م .

* ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، ت ٧٧٩هـ :

- الرحلة المسماة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار شرحه وكتب هوامشه طلال حرب - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م .

* ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩هـ :

- تذكرة النبیه فى أيام المنصور وبنیه ، تحقيق : د. محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

* حسن : د. حسن إبراهيم :

- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية ١٩٥٧م .

* زكى : د. عبد الرحمن :

- تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٦١م .

* السعدى : الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر ، ت بعد عام ١٦٥٥م :

- تاريخ السودان طبعة هوداس مطبعة بردين ١٨٩٨م .

* شلبى : د. أحمد :

- موسوعة التاريخ الإسلامى الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخولها الإسلام حتى الآن . مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٩٨م .

* طرخان : د. إبراهيم على :

- دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

* العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على بن حجر ، ت ٨٥٢ هـ :

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن ١٣٥٠ هـ .

* على : فائ منصور :

- دولة مالى الإسلامية فى عصرها الذهبى على عهد السلطان منساموسى (٧١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م) ، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٩٨٤م .

* ابن فودى : محمد بلوين عثمان ، ت ١٢٥٣ هـ :

- إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور مطبعة الشعب ١٩٦٤م .

* القلقشندى : أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٥م .

* محمد : حسن جلال الدين :

- مملكة مالى الإسلامية وأهم مظاهر الحضارة بها ، رسالة ماجستير بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨م .

* محمود : د. حسن أحمد :

- الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

* النقيرة : محمد عبد الله محمد :

- التأثير الإسلامى فى السودان الغربى من بداية القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر الهجريين ، رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ٧٩ / ١٩٨٠ م .

* وايدتر : دونالد :

- تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الجزء الأول ، ترجمة على أحمد فخرى ، د . شوقى الجمل نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٧٦ م .

* الوزان : الحسن بن محمد أوليو الأفريقى ، ت ٩٤٤ هـ :

- وصف أفريقيا ، ترجمة من الفرنسية إلى العربية ، د . عبد الرحمن حميدة .

- الموسوعة الأفريقية ، إعداد نخبة من الأساتذة صدرت عن معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة بمناسبة اليوبيل الذهبى للمعهد ١٩٤٧ - ١٩٩٧ م . المجلد الثانى (تاريخ أفريقيا) .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

Fage : J.D: An introduction to the history of west Africa, cambridge 1955 .

Lapidus : Ira M : A History of islamic societies, cambridge, frist published 1988 .

Smart : Ninian : The world's religions, old trafitions and modern Trans-formations, cambridge 1992 .

Trimingham : J. Spencer :

- A history of Islam in West Africa, London 1975 .

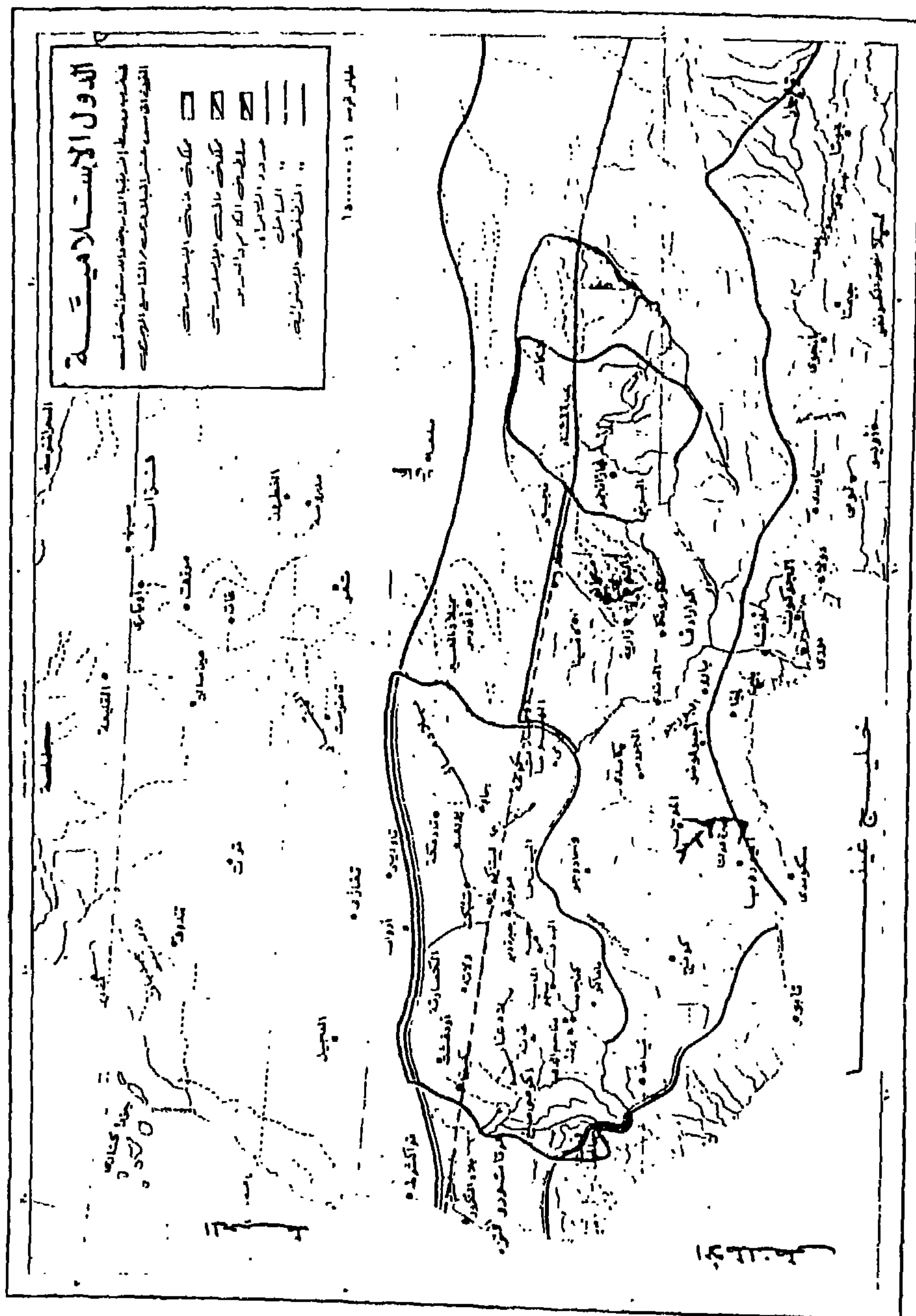
- The expansion of Islam, published in : Islam in Africa, edited by : James Kritzeck and William 14. Lewis, New York 1969.

- The influence of Islam upon Africa, London, frist published 1968 .

- Cultural Atlas of Africa, edited by : Jocelyn murray. New York

1989 .

- From mande to Songhay Towards a political and ethnic history of medieval Gao published in : The Journal of African history, Vol 35 , 1994 , Number 2 .
- History of West Africa, edited by : J.F.A.A jani and michael Crowder Longman, second edition 1976 .
- The cambridge history of Africa, Vol 3 , edited by : Roland oliver, London, frist published 1977 .



أ.د. محمد أحمد زيو (*)

النشاط الفاطمي المغربي في صقلية وجنوب إيطاليا

لا شك في أن الفاطميين ، ورثوا تراثاً حضارياً هائلاً ، شكل دعماً كبيراً لمجهودهم البحري ، ونشاطهم الملاحي المتوسطي ، الذي بدأ مع قيام دولتهم في المغرب العربي في رقادهم عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، واستمر هذا النشاط في تقدم مطرد ، حتى بعد نقلتهم الموقعة إلى مصر والشام ، وسيطرتهم على القواعد البحرية والتراث البحري الحضاري هناك .

وبما لا شك فيه أن هذا النشاط البحري الفاطمي في المتوسط أكدته وأثرت فيه عوامل متعددة ومهمة ، يأتي على رأسها أهمية البحر المتوسط والقوة الدفينة الكامنة التي يأمنها لشعوبه المواجهة له ، فهو يشكل منطقة القلب من العالم القديم ، ومركز احتكاك حضاري وصراع مصيري ، ومركز القوة العالمية ، في غالبية عصور التاريخ .

لقد دخل العرب المسلمون عالم هذا البحر المتوسط ، وأدركوا قيمته منذ أن وطأت أقدامهم شواطئه ، وواجهوا أكبر قوة بحرية عالمية معاصرة وهي دولة الروم أو الدولة البيزنطية . وسرعان ما نافس العرب الروم في النفوذ والسيطرة على هذا الممر المائي المتحكم

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة دمشق .

بالاستراتيجيات العسكرية القوية ، والتفوق الاقتصادي الهائل ، وصاحب الحلقة الكبرى الرئيسية فى الاتصالات المائية بين القارات والشعوب .

هذا التنافس العسكرى والاقتصادى والفكرى ، جعل القوى العربية الإسلامية كافة ، تدرك أهمية البحر بوصفه سلاحاً بحرياً حريماً مضاداً لا غنى عنه ، فاندفعت تعمل لصد التحدى البيزنطى ، وعمل الجميع مجتمعين أو متفرقين فى معظم الأحيان ضد بيزنطة ، ولم تنته العقود الإسلامية الأولى حتى غدا العرب المسلمون فى وضع متقدم على بيزنطة ، وحققوا عليها انتصارات عسكرية مذهشة ، وأجبروها على تغيير خططها البحرية العسكرية فى شرق المتوسط فاتجهت إلى غربه ، واتخذ الإمبراطور البيزنطى قسطنز الثانى (٢١ - ٤٨ هـ) (٦٤١ - ٦٦٨ م) من صقلية مركزاً لنشاطه العسكرى البحرى ، وقاعدة بيزنطية ، تهدد الوجود العربى الإسلامى فى أفريقية ، وتعمل جاهدة لحماية الممتلكات والمصالح البيزنطية فى الغرب بما فى ذلك الشمال الأفريقى ، والإيطالى ، والصقلى إلى جانب التصدى للتوسع العربى المحقق والمرتب (١) . وأدركت القوى العربية الإسلامية أهمية صقلية اقتصادياً ، ودورها ، واقتنعت بأن فتحها وانتزاعها من بيزنطة عمل لا بد منه تفرضه استراتيجيات الفتوحات الإسلامية وصيانة الوجود الإسلامى من التهديدات البيزنطية التى اتخذت من صقلية قاعدة لها ومركزاً لاعتداءاتها (٢) . لذلك تتابعت الحملات العسكرية عليها طيلة العصر الأموى واستمر ذلك فى العصر العباسى . وجهدت بيزنطة فى إعاقة الجهود العربية الإسلامية وعملت على تحصين الجزيرة وحماتها ، ومنعها من السقوط فى قبضة العرب المسلمين ، حماية لمصالحها فى صقلية وفيما وراء البحار وانقاذاً لعاصمتها القسطنطينية من الانهيار أمام الضربات العربية الإسلامية المتلاحقة .

وكان أن قدمت أول حملة عسكرية بحرية إلى صقلية من بلاد الشام ، وربما انطلقت من طرابلس ، تحت إمرة معاوية بن حديج . ويؤكد الواقدي أن هذه الحملة وصلت صقلية ، وحقت بعض الانتصارات العسكرية ، وعادت محملة بالغنائم ، وكانت الحملة تستهدف احتلال الجزيرة ، وتواكب عمليات الفتوح الإسلامية (٣) . ثم تتابعت بعد ذلك المحاولات العربية الإسلامية لفتح صقلية ، واستمرت أكثر من قرنين من الصراع العسكرى ضد بيزنطة التى غذته المصالح الاستراتيجية العربية الإسلامية ، وما تمتعت به صقلية من أهمية اقتصادية ، وموقع استراتيجى فريد وعسكرى كبير مؤثر فى تأجيج النزاع العربى البيزنطى ، فهى أحد

مفاتيح قلب البحر المتوسط ، والنافذة الكبيرة المظلة على إيطاليا ، والمتحكمة فى معظم الطرق التجارية ، والشرابين الفعالة فى البحر المتوسط ، هذا كله إضافة إلى خيراتها وإمكاناتها الزراعية والصناعية والمعدنية التى أشار إليها العلماء والرحالة العرب والفرنجية ، وأكدت عليها ، ووصفوها جميعاً ، بأنها بلد الخير والعطاء ، وفيها من الموارد الزراعية والصناعية ما أدهش الجميع وشد الانتباه . وصورتها أقلامهم بأنها مصدر رزق كبير ، ومفتاح خير عظيم ، وهى تمتلك أنواعاً من السلع والمعادن التى تستخدم فى صناعة السفن كالأخشاب والحديد (٤ ، ٥) .

وقد أدرك العرب المسلمون هذه الأهمية الاستثنائية لجزيرة صقلية ، فهى تمكن البيزنطيين من الهيمنة الكاملة على النشاط التجارى فى المتوسط ، والسيطرة عليه ، وإحكام القبضة على التجارة المتوسطية ، التى استغلتها بيزنطة ، واستخدمت الأسلوب السلبى ضد التجارة العالمية بهدف تحقيق مصالحها السياسية والعسكرية ، وعملت على شل التقدم الحضارى ، والتفاعل البشرى الإيجابى بين الشعوب .

ولقد حقق فتح صقلية مكاسب ونتائج كبيرة سياسية واقتصادية واجتماعية ، وحضارية عامة ، فانتهى الحكم البيزنطى فيها ، وغدت عربية يحكمها ولاية أفارقة تابعين للأغلبية ، ثم الفاطميين بعد ذلك وغدت فيما بعد قاعدة انطلاق مهمة تنطلق منها الهجمات البحرية والبرية على إيطاليا ، مما مكن هذه القوى العربية الإسلامية الأغلبية ثم الفاطمية ، من تحقيق السيادة على البحرين التيرانى والأدرىاتى ، والسيطرة الفعالة على القسم الأوسط من البحر المتوسط حتى أصبح بعد ذلك من شرقه إلى غربه تحت السيادة العربية الإسلامية ، وأصبح القول بأنه بحيرة عربية أمراً ممكناً بعد أن بلغت القوى العربية الإسلامية أوج قوتها ونشاطها فيه .

وكما ساعدت السرايا العسكرية الإسلامية المتقدمة فى صقلية الأغلبية على تحقيق النصر ، باستفادتهم من التجارب الإسلامية السابقة ، فكذلك ورث الفاطميون هذا التراث كله ، بعد قيام خلافتهم فى المغرب . وشكل هذا التراث البحرى الموروث أرضية مفيدة ، وساعدهم على تلمس الأخطاء ، والابتعاد عنها ووضع الخطط الناجحة ، وتدعيم وجودهم فى صقلية ، والسيادة على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وبينما كانت القوة البحرية الأندلسية تساند الأغلبية وتقف إلى جانبهم فى فتح صقلية ، إلا أنها مع الأسف لم توظف فى العصر الفاطمى لصالح هؤلاء بل على العكس عملت ضدهم ، وتقويض نشاطهم البحرى ، وذلك لما كان بين

الدولتين من خلافات فى الرؤى والتوجه ، مما أثر بشكل سلبى فى الاستراتيجية العسكرية البحرية العامة الإسلامية وقد أضعف تلك الخلافات الجهد العربى الإسلامى ، والمجهودات البحرية ، وعملت (٦ ، ٧) على الحد من النشاط الفاطمى وإضعافه .

لقد تبنت الدولة الفاطمية العبيدية معارضتها للعباسيين (٨) ، وكان أتباعها الإسماعيليون يعتقدون بأنهم وحدهم أصحاب الحق الشرعى بالخلافة ، وبأن الأمويين - وكذلك العباسيين - مفتصبون لها . ولقد اتخذ عبيد الله لقب المهدي ليشير إلى أنه هو الشخص الذى أظهره الله بالحق ليملك الأئمة الفاطميون الأرض كلها (٩) . وكان قيامها حدثاً مهماً ، ومؤثراً فى التاريخ العربى والإسلامى إذ أصبح لدى المسلمين ثلاث خلافات إسلامية : عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى المغرب ، وأموية فى الأندلس . وما يؤسف له أنها تبنت من حواضرها معاداة بعضها بعضاً ، ودخلت فى نزاعات مستمرة ، ولم تتمكن من الاتفاق حتى فى اللحظات الحرجة التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية من مغربها إلى مشرقها .

لقد عمل الفاطميون ضمن معتقداتهم ، واعتبار أنفسهم مسؤولين عن أقاليم الدولة وشعوبها ، وتوحيد المسلمين تحت سلطانهم ، وامتداد خلافتهم ، ووضع هذا التوجه التوسعى فى مناسبات عدة ، وأعطوا بذلك التوجه أسباباً للخشية منهم ، والعمل ضدهم ، ومحاربة مشروعهم التوسعى بكل الوسائل ، ودخلوا فى نزاع مع الأمويين فى الأندلس والعباسيين ومؤيديهم فى كل مكان (١٠) .

ومن ناحية أخرى واجه الفاطميون فى بلاد المغرب صعوبات كبيرة ، وأعداء كثيرين ، وفى هذا الجو المعادى ، قامت الخلافة الفاطمية ، وكان عليها أن تأخذ كل ذلك بالحسبان ، وتعمل بجهد ضد قوى كثيرة مجتمعة أو متفرقة .

وهكذا إدراك الفاطميون أن استمرارهم ، ونجاح مشروعهم لا يمكن أن يتم إلا بتبنى سياسة عسكرية برية وبحرية قوية تعمل مشتركة ، معتمدة أسلوب القتال وتأصيل فكرة الجهاد الذى كان على رأس أولوياتهم ، ودعمته مجموعة من الإجراءات والخطط التى كانت تصب كلها فى هدف واحد ، يعمل لتدعيم قوة الدولة وصيانتها والتصدي لأعدائها من الداخل والخارج معتمدة أسلوب الإقدام والجسارة ثم حزم الأمور ، والاستفادة من الوقت ، والأتباع والمخلصين ، وهذه السياسة التى استنها عبيد الله المهدي كانت المنهج السليم الذى سار عليه خلفاؤه من بعده ، فحافظوا على دولتهم وكتب لها البقاء والاستمرار (١١) .

وقد اهتم الفاطميون منذ قيام دولتهم فى المغرب اهتماماً ظاهراً فى الشؤون الملاحية والبحرية ، وأعطوها الأولوية ، وفاقت مجهوداتهم فى العناية بالبحرية ، وفى الكفاح البحرى جهود كل من سبقهم من القوى العربية والإسلامية ، ودعموا قوتهم العسكرية البحرية والتي شغلت تفكيرهم منذ قيام دولتهم ، وتطلعوا منذ عهد المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ) (٩٠٩ - ٩٣٣م) لفرض هيمنة دولتهم ، وقوتهم على غرب البحر المتوسط والجنوب الإيطالى ، وغير ذلك من المناطق ، وتمكنوا من إيجاد قوة بحرية لم يسبقهم لها أية قوة عربية إسلامية ، وربما ساعدهم على ذلك تأصيل الفكرة الجهادية عندهم بوصفها العنصر المهم فى سياستهم العسكرية ، ولأنها الركيزة الأساسية التى تقوم عليها العقيدة الإسماعيلية ، فساعدهم ذلك على شد الهمم والانتباه للعودة إلى مجد الفتوحات الأولى ، وقد أعطاهم العباسيون ، وما وصلوا إليه من ضعف وخنوع ، كل الحق فى تبنى هذا الشعار الجهادى إلى اعتبار ضرورياً لإنقاذ الموقف الإسلامى المتدهور والدفاع عن المصالح التى هددت فى كل مكان لاسيما فى الشام ومصر وجزر البحر المتوسط ، والتوسع البيزنطى فى الثغور ، والبحر المتوسط^(١٢) وغير ذلك .

كل ذلك دفع الفاطميين لتقوية قوتهم البحرية ، وأدركوا ضرورة تنميتها فى حال رغبوا فى تحقيق هذه المطامع الطموحة ، التى لا يمكن النهوض بها إلا بقوة متفوقة بركة بحرية فعالة ومتعاونة ، وقد تمكنوا من إعدادها بسرعة وأعطت ثمارها عبر مساهماتها فى جميع أوجه نشاط الفاطميين وتحركاتهم لاحتلال مصر^(١٣) وإحكام قبضتهم على صقلية ، وغيرها من الأماكن التى خططوا لمد نفوذهم إليها .

وربما كان بناء المهديّة ، وطريقة اختيار موقعها ، ومدى الاهتمام بتحصيناتها لتكون أكبر معقل بحرى فى الشمال الأفريقى ، أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالبحرية الإسلامية ، وتحقيق مخططهم البحرى الواسع الطموح ، الذى استند على قاعدة بحرية آمنت بفكرة قديمة متطلعة نحو البحر ، واعتقاد راسخ بأنه لا بد من التوجه صوبه ، والاستفادة من الخبرات والتراث المغربى القديم ، وعلاقته الوثيقة بالبحر ، فتجلى ذلك من خلال تشييد المهديّة على شاطئ البحر المتوسط ، وكان المهدي قد أدرك بحسه السليم ضرورة تشييد المهديّة ، ولذلك كان أول حاكم عربى مسلم قام بمثل هذا العمل^(١٤) . واختار موقعاً استراتيجياً مناسباً يقع بين سوسة وصفاقس فى جزيرة متصلة بالبر فى سنة

٣٠٣ هـ / ٩١٦ م واختط مدينته الساحلية ، لإيمانه أن دولته لا بد لها من الانفتاح على العالم الخارجى ، ولا بد لها من أن تكون دولة جهادية لأن سواحلها كلها مناطق ثغور وجبهات قتالية، وهذا ما يفسر مدى اهتمام الفاطميين بالأساطيل البحرية وقواعدها ومراسيها ، وتعدددها ، وساعدهم على ذلك استفادتهم من التراث المغربى الموروث فى هذا المجال .

ولقد أفاضت المصادر العربية الإسلامية بوصف المهدية ، وركزت على أهميتها البحرية وأسلوب تشييدها ، ووصف أسوارها ، وبواباتها الضخمة ، ومدى التحصينات المرتبطة بالمرسى ، ودار الصناعة ، وإنجاز كل ذلك باتقان لأنه أقيم تحت إشراف المهدي نفسه وحسب توجيهاته ، وهذا ما مكن المهدية من أن تفوق جميع المدن الإسلامية التى سبقتها منعة وتحصيناً ، وشكل قيامها توافقاً مع أهداف الفاطميين وتطلعاتهم التوسعية ، وقد أبدى المهدي ارتياحه واطمئنانه عندما انتهى من إعمارها والإقامة فيها فى سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م بقوله : " الآن أمنت على الفاطميات " ولم يكن يقصد حماية بناته ، وقربائه فحسب ، وإنما كان يتطلع إلي أنها ستحمى دولته ، وتحافظ على قوتها وتوطيد أركانها ، واطمأن بعد ذلك إلى قدراته العسكرية البحرية وتحقيق النصر . ومواجهة جميع القوى المعادية من الداخل والخارج ، ولقد كثر الكلام عن هذه المدينة ، وجاء بعضها على شكل أسطورى ، وفاق ما قيل ونسج من بناء الحواضر الإسلامية الأخرى (١٥) . وأكدت المصادر القديمة والدراسات الحديثة على عمق توجهات الفاطميين وسعيهم الدؤوب للاهتمام بالبحرية والدواقر التى كانت خلف هذه العناية ، وبينت أن التصدى للشورات الداخلية والخارجية ، والتطلع للتوسع كان خلف قيام البحرية الفاطمية ، ونشاطها ، وكثرة أدواتها الحربية ومراكبها المتنوعة (١٦) ، وكثرة التوقيعات والرسائل حولها ، وتشديد دور الصناعة فى كل من سوسة ، والمنصورة وغيرها ، ومتابعة الخلفاء لكل هذه الأعمال ابتداء من تأمين المواد الأولية حتى انطلاقة السفن بحراً ، وتعيين أمر قيادتها والاهتمام بموظفيها ، كبار وقادة عظام .

كما وضعت تحت تصرف هذه البحرية المواد اللازمة لصناعتها ، من أخشاب وحديد ، وألياف ، وقطران ، ونفط ، وكبريت ، وغير ذلك من مواد وسمع لا بد منها لتجهيز الأسطول وإعداده الإعداد الجيد للقتال البحرى الشائك ، ولقد توفرت هذه المواد فى بلاد المغرب وفى صقلية بكثرة (١٧) ، ومن أهمها الخشب ومعدن الحديد والألياف الخاصة بالحبال وكذلك القطران والزفت ، ثم النفط والكبريت المستخدم فى القتال البحرى ، واستخدم هذا السلاح الذى كان

يسمى النار الإغريقية منذ سنة ٢٠٠ هـ / ٨٣٥م فى عصر الأغالبة ، واستخدمه الفاطميون فى هجماتهم فى البحر التيرانى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥م واحرقوا السفن المعادية ، ولم يعد هذا السلاح سراً وقتاً بعد ذلك على بيزنطة وسلاحاً فتاكاً بيدها (١٨).

كما شكلت المراسى والقواعد البحرية العديدة فى الشمل الأفرىقى ستاراً أمامياً للسواحل الفاطمية الأغريقية ، وقد أفاضت بذكرها الأبحاث ، ولفتت الانتباه إلى أهميتها البحرية ، كما أكدت الدراسات على صقلية وأهمية مراسيها أمثال مسينى ، وطبرمين ، وقطانية ، وسرقوسة ، وجرجنت ، وطرابنش ، وبرطنيق وغيرها ، وهذه الأماكن تذكرنا بوقائع عسكرية مروعة تعاركت فيها السفن ، وأريققت الدماء ، وهذه القواعد والمراسى ، وضعت تحت تصرف الفاطميين وسيطرة قواتهم ، وساهمت بشكل فعال فى نشاط قواتهم البحرية ، وساعدتها فى تفوقها ، وحقت لها النصر على البيزنطيين وحلفائهم من روم وفرنجة وغيرهم (١٩).

كما أمنت سيطرة الفاطميين على معظم الجزر البحرية المتوسطية المواجهة للسواحل الأفرىقية الحامية للمدن والثغور الأفرىقية الفاطمية ، وعلى رأس هذه الجزر صقلية ، وسردانية ثم قرشقة ، ومالطة وغيرها من الجزر العديدة الصغيرة ، والتي كانت تحرس وتحمى السواحل وتشكل نقاط إنذار سريعة ومتقدمة ، تدفع عنها عامل المفاجآت ، كما عملت هذه الجزر على تدعيم الجهود الملاحية والبحرية الفاطمية ، ومنحتها فرص النصر ، وقوة السيطرة على غرب المتوسط جنوة ، والتأثير فى أحداثه (٢٠) ، والمهم من كل ما تقدم أن الفاطميين ورثوا التراث المغربى الطويل الذى منحته الطبيعة لسواحلها ، وجعلت منهم شعباً لا يمكنه الاستغناء عن البحر ، وإدارة ظهرهم له ، ولذلك صار أهله من أنشط الأمم البحرية ، واستمر ذلك عبر العصور ، وأدرك العرب هذا التوجه ، واستغل الفاطميون ذلك أحسن استغلال ، وطوروا بحريتهم ، وتنبيه إلى هذا التوجه البحرى عند شعوب المغرب العالم والمؤرخ الاجتماعى الأول ابن خلدون ، وفهم مدى تأثير هذا الساحل الأفرىقى على طبيعة أهله ، وزيادة قمرسهم بالأمر البحرية (٢١) ، وهذا الموروث أمن لهم نشاطاً اجتماعياً واقتصادياً ، وظهر أكثر ما ظهر بعد عمليات الاستقلال فى المغرب ، التى تعمقت أثناء حكم الفاطميين ، وساعدهم ذلك ، بحيث وصلت بحريتهم إلى الذروة فى دورها المغربى ، ودعمت بعد احتلالهم جزيرة صقلية ، وبعض الأماكن فى الجنوب الإيطالى والجزر الأخرى أمثال مالطة وسردانية وقورشقة وغيرها ، ثم تابع نشاطهم البحرى تفوقه .

وسوف نستعرض أهم أوجه نشاط الفاطميين في غرب المتوسط ، وتحركاتهم العسكرية على الطبيعة ، ونحاول التعرف على أهداف هذا النشاط وطبيعته وما كان يرمى إليه من فوائد مادية ومعنوية .

لقد ورث الفاطميون من جملة ما ورثوه في المغرب العربي عن الأغالبة جزيرة صقلية ، والتوجه الجهادي إليها ، وحماية المصالح الإسلامية في الجنوب الإيطالي ، ولم تكن الأحوال الإسلامية في صقلية مطمئنة ، ولم يكن التحول الإسلامي فيها قد اكتمل بعد ، كما كان قد نشأ فيها أسر تخصصت في الحكم ، وخبرت أمر الجهاد فيما وراء البحار وورثته . كما استهوتها السلطة ومغرياتها ، ونمت عند بعض الأفراد فكرة الانفصال والاستقلال والتفرد في الحكم بهذه الجزيرة المنشقة على نفسها عرقياً ومذهبياً ما بين عرب وبربر نشبت الحروب فيما بينهم ، وتعمق الخلاف في النفوس ، بينما كانت بيزنطة خلال عهد الإمبراطور باسيل الأول (٢٥٤ - ٢٧٣ هـ (٨٦٧ - ٨٨٦ م) تحشد قوتها البحرية ، واستعادت نفوذها في مدينتي بارى وطارنت ، ودعمت سيطرتها على قلورية وأبوليا ، وأعادت فرض سيطرتها على مجموعة المدن الكمبانية ، وعلى رأسها نابلي وجانيا ، وأمالى بحيث لم يبق تحت القبضة الإسلامية سوى إمارة مونت جاريلبانو الموجهة ضد الريف الإيطالي الجنوبي ، وهيأت الاضطرابات التي حدثت في أفريقية وصقلية الفرصة لإخراج المسلمين من معظم القواعد (٢٢) المهمة في صقلية .

وسار الفاطميون منذ بداية نفوذهم في صقلية على نهج الأغالبة في الجزيرة فاتخذوها مقراً وقاعدة انطلاق ، تثب منها قواتهم باتجاه إيطاليا ، ولقد كان آخر ولاية الأغالبة في الجزيرة ، أحمد بن أبي الحسين بن رباح ، ولم يكتب له البقاء طويلاً في منصبه ، حيث وصلت أخبار انتصارات الداعي أبو عبد الله الشيعي على زيادة الله الثالث الأغلبى فما كان من الأهالي في صقلية إلا أن ثاروا على واليهم وحبسوه ، ونصبوا على الجزيرة على بن أبي الفوارس في رجب سنة ٢٩٦ هـ / أبريل ٩٠٧ م ، ثم أرسلوا الوالي المخلوع إلى رفاة ، وكتبوا يطلبون من أبي عبد الله الشيعي تثبيت أبي الفوارس ، فوافقهم على ذلك ، واشترط عليهم أن يقوم بواجب الجهاد برأ وبحراً . وما إن هدأت أحوال الداعي ، حتى وجه كتبه إلى الأقاليم يدعوها إلى الطاعة ، وكذلك أرسل خطاباً إلى صقلية ، حض فيه أهلها على الجهاد ، وجاء فيه : " وأنتم معشر أهل جزيرة صقلية ، أحق بما أوليته من المعروف والإحسان ، وأسديته ، وأولى به وأقرب إليه ، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكفرة الظالمين ، وسوف أملأ إن شاء الله

جزيرتكم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده ، فينصر الله الدين والمسلمين ، ويذل بهم الشرك والمشركين " (٢٣) .

هكذا بدأت العلاقة بين أهالي صقلية من المسلمين والفاطميين ، وهي توضع ميل المسلمين في الجزيرة إلى الاستقلال ، وحاجتهم إلى القوة التي تساندهم على أعدائهم المتربصين بهم ، لهذا سرعان ما اتجهوا إلى الفاطميين وقوتهم المنتصرة في بلاد المغرب ، وأكد هذا التوجه في العلاقات خطاب الداعي الشيعي قبل اعتلاء المهدي سدة الحكم .

وما إن بويع عبد الله المهدي بالخلافة حتى أقدم على تعيين زعماء قبيلة كتامة على أمر الولايات في دولته ، وأرسل إلى صقلية " أحمد بن جتير " (٢٩٧ - ٢٩٩ هـ) (٩٠٩ - ٩١١ م) أحد قادة كتامة والياً يتولى أمرها ، فوصلها هذا في ذي الحجة (٢٤) سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م ثم تتابع بعد ذلك أمر تعيين ولاية صقلية من الحاضرة الفاطمية في المغرب ، وكان أول عمل لهذا الوالي على طريق الجهاد تصديه لإخماد ثورة في سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م قام بها النصاري في مدينة دمنش في إقليم قلورية ، فعاثت القوات فساداً هناك . ثم رجعت محملة بالغنائم ، ولم يغفر له جهاده - وفشله في إدارة الجزيرة - فثار عليه أحرار مدينة بلرم وخلصوه ، وكتبوا بذلك للمهدي ، فعين عليهم " علي بن عمر البلوي " (٢٩٩ - ٣٠٠ هـ) (٩١١ - ٩١٢ م) ، وربما أنف المسلمون العرب أن يحكمهم رجل من المغاربة البربر ، بالإضافة إلى أخذه بالمذهب الإسماعيلي ، وطرحه لمذهبهم المالكي . فرمى بالاستبداد وسوء السيرة .

كما تابع الوالي الذي تلاه أحمد بن زياد الله بن قرهب أو (قرعب) (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ) (٩١٢ - ٩١٦ م) جهاده وهجماته على قلورية قبل أن يعلن ثورته ضد الفاطميين ، وينقض بيعتهم - في الجزيرة . وبعث بحملة صغيرة إلى كلابريا (قلوية) سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، ثم عادت الحملة كسالتها محملة بالغنائم والأسرى (٢٥) .

ثم استأنف الفاطميون حملاتهم العسكرية في صقلية بعد القضاء فيها على التمرد الذي قاده ابن قرهب ما بين ٣٠٠ هـ / ٩١٢ إلى ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، والهدف منه الاستقلال عن الخلافة الفاطمية وعن أفريقية ، ومحاولة إعادة حكم الأغالبة في صقلية ، وخاصة أنه كان أغلياً (٢٦) ولم تكن تبعيته للخلافة العباسية إلا تبعية اسمية .

انطلق الفاطميون في سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م من صقلية ، وكان هدفهم مدينة " ريو " في قلورية ، وحققوا نصراً عسكرياً هناك ، وأجبروا حاكمها على الالتزام بتجديد الهدنة ، ودفع

اثنين وعشرين ألفاً من القطع الذهبية كل سنة مقابل الحفاظ على أمن بلاده ، وذلك بموجب الاتفاق والمعاشية أو حسن الجوار مع العرب المسلمين، وهذا كان معقوداً مع كبار القادة والبطارقة في كلابريا (قلورية) وفي جنوب إيطاليا ، في حال عدم تمكن هؤلاء من صد الهجمات العربية الإسلامية عنهم . وهذه الإجراءات أدت إلى زيادة الضرائب على المواطنين في كلابريا وغيرها ، وأدت إلى قيام ثورات منها تلك التي قامت ضد البطريق جان " موزالون " وقتله فيما بين ٣٠٨ هـ و ٣١٠ هـ / ٩٢٠ م و ٩٢٢ م ، وتوافق هذه الثورة ، تعرض بلاد اللومبارد ، و كلابريا لهجمات الأساطيل الفاطمية من المهدية ، وصقلية ، ونشاط البحرية الفاطمية في تلك السنين (٢٧) .

وقد رحبت الدولة البيزنطية بعقد الصلح السابق ذكره مع العرب المسلمين في صقلية لانشغالها في الحروب البلغارية (٢٨) ، والحروب مع القوى الإسلامية في شرق المتوسط ومياه بحر إيجه المجاورة لجزيرة كريت . غير أن هذا الصلح لم يحترم ، ولم يكتب له الاستمرار . وكعادة بيزنطة وحلفائها من الإيطاليين ، كثيراً ما كانوا يقومون بنقض أى حلف مع المسلمين ، عندما تسمح ظروفهم بذلك ، لذلك استؤنف النشاط البحري باتجاه قلورية في سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وأقدم القائد الفاطمي " مسعود الفتى " وهاجم مدينة " شنت اغاى " القريبة من "ريو" ، واجتاحتها قواته ، وعاد إلى المهدية محملاً (٢٩) بالغنائم والأسرى .

وتتابعت الحملات العسكرية الفاطمية باتجاه الجنوب الإيطالي ، فقامت حملة سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م بقيادة الحاجب الوزير " جعفر بن عبيد " ويبدو أنها لم تخرج في وقت ملائم ، ولهذا فقد عادت من بلاد الروم ، دون أن تتمكن من تحقيق أهدافها ، في حين تورد بعض المصادر أن جعفر الحاجب استولى على برصانة (٣٠) .

ثم أمر المهدي بتكثيف الجهود البحرية ضد جنوب إيطاليا ، وتجلى ذلك بقيام حملة مزدوجة باتجاه إيطاليا سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، قامت إحداها من صقلية بقيادة أميرها سالم بن أبي راشد (٣١٣ - ٣٢٥ هـ) (٩٢٥ - ٩٣٦ م) والثانية انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب " جعفر بن عبيد " وعلى الرغم من التنسيق الظاهر فيما بينهما فإن كلا منهما اتجه في طريق خاص ، وكان محور حملة بلرم باتجاه اللومبارد حيث تمكنت من فتح مدينتي غيران ، وأبرجه ، وغنمت مغانم كثيرة ، ثم عادت الحملة بعد ذلك نحو " كلابريا " وفتحت طارنت عنوة ، ثم عرجت باتجاه " ادرنت " ولما لم تتمكن من فتحها ، أقدمت على تخريبها وهدم منازلها . ثم عادت هذه الحملة إلى صقلية بعد تعرضها لوباء أصاب مقاتليها .

أما الحملة التي انطلقت من المهدية بقيادة الحاجب جعفر ، فقد أخذت محور تارنت ، واجتاحت مدينة " أوربة " (٣١) وقتلت الألوف من رجالها ، وسبت عشرات الألوف من نساها ، وكان من بين الأسرى أحد البطارقة الذي دفع خمسة آلاف دينار عن نفسه ومدينته ، وأثناء عودة الحاجب جعفر إلى صقلية عبر " كلابريا " وهاذن أهلها ، فدفعت له الجزية ، واصطحب معه رهائن مهمين بينهم أسقف صقلية ، وحاكم قلورية " كلاريا " ، وبعد أن عرج على صقلية لإصلاح أحوالها ، وأخبر المهدي بالغنائم الوفيرة ، التي قال المهدي عنها بأن قائده جعفر لم يعطه من " الجمل إلا أذنه " كما أرسل المهدي في سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م إلى صقلية شيوخاً من المهدية برفقة الوالي سالم ، فقاموا بجباية الضرائب من أهلها دون ذكر للأسباب والتفاصيل (٣٢).

وفرضت هذه الانتصارات التي تحققت إثر هذه الحملة المزدوجة سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م أمراً واقعاً ووجد حاكم قلورية أن المصلحة والحكمة تقضيان أن يقوم بتجديد الهدنة وعقد الصلح الذي تضمن دفع الجزية وقدرها أحد عشر ألف قطعة ذهبية (٣٣).

ثم أسند الخليفة الفاطمي المهدي ، أمر الأسطول إلى الفتى الصقلي " صابر " وأمره على رأس جيش كبير طالباً منه سرعة الهجوم على السواحل الإيطالية الجنوبية ، فقام هذا الفتى بثلاث حملات متتالية خلال الأعوام ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ هـ / ٩٢٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩ م ، اتجهت الأولى إلى صقلية ، حيث انطلقت إلى الجنوب الإيطالي ، وفتحت أماكن عديدة منها: اوترنتو Otrante أما حملة صابر الثانية فكان هدفها السواحل التيرانية من جنوب إيطاليا ، وهاجمت " الفيران " وقلعة الحسب ، وأخذت ما فيهما ، وتابعت توجهها إلى " ساليرنو " فصالحها أهلها على فدية من المال والديباج ، ثم أقلت إلى نابولي ، وصالحتها على نفس الشروط السابقة . وعرج صابر قبل عودته إلى كلابريا فعقدت معه هدنة سنوية ، مقابل مقدار من المال . أما الحملة الثالثة للفتى صابر سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، فهي عبارة عن غارة صغيرة، تقدمت باتجاه البحر الأدرياتي وهزمت السفن الرومية بقيادة حاكم كلابريا "سردغوس" ، ثم تقدم صابر مقتحماً مدينة " ترمولة " وأخذ منها سبياً كثيراً قدر باثني عشر ألفاً ، قبل العودة إلى المهدية (٣٤). وتذكر بعض المصادر بأن القوات المشتركة الصقلية والمغربية بقيادة الأمير سالم بن راشد ، والقائد الفتى صابر الصقلي الذي كلفه المهدي سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م، بالاستيلاء على مدينة طارنت وادرنت قامت بالمهمة وتمكنت بمساعدة سالم

من تحقيق النصر ، ولذلك أجبرت قلورية على دفع الجزية التى استمرت تسدها طيلة حكم المهدي (٣٥).

بدأ عهد القائم الفاطمي (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) (٩٣٤ - ٩٤٥ م) ، بحملة عسكرية بحرية قادها يعقوب بن اسحق التميمي انطلقت من المهديّة فى رجب من عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ، وذلك فى السنة الأولى من حكم القائم ، واتجهت الحملة لغزو بلاد الروم ، وصادفت الحملة فى طريقها مراكب للروم فأخذت تجارتهم ، وأسرت من فيها ، وتقدم يعقوب صوب مدينة جنوة ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، واضطروا للاحتماء بسور المدينة ، فشدد عليهم الزحف حتى فتحها وسبى من فيها ، وغنم منها البز والحرير والكتان ، ثم أقدم على حرقها ، ثم غادر الأسطول الفاطمي المدينة ، بعد أن انتشرت أصدااء هذه الغزوة بين المسيحيين والمسلمين ، ومر فى طريقه على سردينيا ، وقرقيسيا (٣٦).

اضطربت أحوال الجزيرة بدءاً من عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م واستمر ذلك إلى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ، وتحركت الفتنة نتيجة لسوء سيرة الوالى سالم بن أبى راشد ، وثار جرجنت ، ويزاد العصيان فى سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ ، بعد تدخل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٣٠٧ - ٣٣٣ هـ) (٩٦٩ - ٩٤٤ م) فجاءت نجدة فاطمية من المهديّة مساندة لسالم بقيادة خليل بن اسحق ، الذى ضرب المتمردين بعنف وقسوة ، وأجبر الكثرين على الفرار إلى بلاد الروم حيث تنصر بعضهم (٣٧) ، وأقدم على هدم تحصينات بلروم وأزالها وبنى قاعدة جديدة بديلة عنها وهى عبارة عن قلعة حصينة عرفت بالقصبة ثم أطلق عليها " الخالصة " .

أما المهديّة فكانت تنوء تحت ثورة هزت الكيان الفاطمي وهددته بالأقوال وهى ثورة أبى يزيد مخلد الخارجى ، ولهذا لا نستغرب أن يصاب النشاط الفاطمي البحري فى غرب المتوسط بالضعف حتى القضاء على الثورة فى سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م .

وما إن تخلص الخليفة الفاطمي المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) (٩٤٥ - ٩٥٢ م) من ثورة أبى يزيد الخارجية فى المحرم من سنة ٣٣٦ هـ / يوليو ٩٤٧ م ، حتى استبدل الوالى ابن عطف (٣٢٩ - ٣٣٦ هـ) (٩٤٠ - ٩٤٧ م) بقائد آخر مجرب شحذته الأحداث وقرس بالقتال وفنونه وعينه على صقلية وهو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى (٣٣٦ - ٣٤١ هـ) (٩٤٠ - ٩٥٢ م) وهو مقدم الأسرة الكلبية ، ومن أخلص أنصار الدولة الفاطمية وكبار قوادها ، وكان أبوه من أعوان الدولة الفاطمية فى صقلية وقتل أثناء أحداث سنة ٣٢٧ هـ /

٩٣٧م، فى ثورة جرجنت على الفاطميين. ولقد وفق المنصور فى هذا الاختيار ، حيث أثبت الحسن أنه على قدر مسئولية وقيادة صقلية وإدراك قضاياها الاستراتيجية الخارجية ومشاكلها الداخلية السياسية والعرقية والمذهبية ، وكانت إمرته عليها بداية عهد جديد فى تاريخها . فإليه يرجع الفضل فى إصلاح أحوالها ، وضبطها ، وتكوين أسرة حاكمة فيها تناوبوا أمرها، ورفعوا من الشأن الفاطمى، وجعلوها من أقوى القوى البحرية الكبرى فى المتوسط برفعيه الغربى والشرقى، وكان لشخصية الحسن الأثر فى محبة الصقليين والتفافهم حوله، وتمكن من أن يقضى على الفتن ويتغلب على مقاومة العصبية القوية التى يأتى على رأسها بنو الطبرى، الذى فرض عليهم عقوبات قاسية (٣٨).

فرض الحسن الكلبي هبة الحكم الفاطمى فى صقلية ، مما اضطر الروم لتقديم مال الهدنة المتراكم عليهم منذ ثلاث سنوات، وكانوا قد امتنعوا عن دفعه للوالى الفاطمى سالم ابن راشد ، ثم مد الحسن نفوذه باتجاه كلابريا والجنوب الإيطالى بعد أن كان قد استقر لصالح بيزنطة أثناء الحروب فى الجزيرة فى أواخر حكم سالم بن رشاد وفترة تسلم خليل بن إسحق زمام فى صقلية (٣٩).

بدأت الاستعدادات والتنافس يتصاعدان فى الجنوب الإيطالى، وجاءت الإمدادات العسكرية من المهديّة يقودها الفتى فرج مولى المنصور، واتجهت القوات الفاطمية بتشكيل عسكري برى وبحرى إلى مسينا، ثم إلى «ريوه» أوريه وانهزمت قواتها، فتحرّكت الجيوش إلى قلورية (كلابريا) وحاصرت مدينة جراحة ، وأجبرتها على الصلح ودفع الفدية المالية للحسن الكلبي ، الذى أسرع بقواته نحو الروم الذين اعتصمت قواتهم فى مدينة بارى (باره)، واستقر حول مدينة قسانه ، متخذاً منها مركزاً للقيادة والإشراف على إدارة العمليات العسكرية ، وانتهت الأحداث بسرعة حيث عقد صلح سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م وعادت قوات الحسن فى إثره إلى مسين ورابطت فيها ، وانتقل هو إلى بلرم، منتظراً تحسن الأحوال الجوية للانتقضاء بقواته على جراحة حيث التجمع الكبير للقوات الرومية التى تتأهب للقتال فالتحمت القوتان فى شهر ذى الحجة من سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م بمعركة حاسمة انتصرت فيها القوات الفاطمية انتصاراً ساحقاً ، وهزم التجمع البيزنطى الرومى الإيطالى، وانتهوا بين قتيل، وهارب وأسير (٤٠)، وكثرت الغنائم ، وفتحت الحصون ومنها رمنسة، ولطرة، وأرسلت الأعداد الكبيرة من السبايا إلى المهديّة وكان بينهم قائد الأسطول الرومى الذى صلب فيها (٤١).

وفى سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢م قصد الحسن الكلبى جراحة ، وحاصرها ، مما أجبر الإمبراطور البيزنطى قسطنطين على إرسال مبعوثه " جان بلاطوسى " إلى الخليفة الفاطمى المنصور بالله بشأن طلب الهدنة ، بعد هذه الانتصارات المظفرة للقوات الإسلامية فى قلورية ، وقابل هذا المبعوث الخليفة المنصور فى عاصمته الجديدة المنصورية ، وتقبل منه هداياه ، وكتب إلى جوذر ومولاه وواليه على المهدية ، أن يكافىء السفارة بأحسن ما قدمته ، وأوكل إلى واليه على صقلية الحسن بن على الكلبى ، مفاوضة المبعوث البيزنطى بشأن طلب الهدنة ، ووقعت الهدنة بين الطرفين ، وكان من أهم شروطها بناء مسجد فى مدينة " ريو " Reggio ، بكلورية ، وتعهد البيزنطيون بالمحافظة عليه ، والسماح لأسرى المسلمين^(٤٢) بأداء الصلاة فيه وأن يكون ملجأ آمناً لأسرى المسلمين ، وبعد ذلك عاد الحسن إلى صقلية ، حيث وصلت الأخبار بوفاة الخليفة المنصور فى شوال سنة ٣٤١ هـ / فبراير ٩٥٣م ، وقيام خلافة المعز (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) (٣٥٢ - ٩٧٥م) ، فنزل صقلية متجهاً إلى المهدية ، وأبقى على الجزيرة ولده أبا الحسين أحمد بن الحسن بن على الكلبى (٣٤١ - ٣٥٣ هـ) .

أقر الخليفة الفاطمى المعز أحمد بن الحسن بن على الكلبى على صقلية ، وهكذا تحول الحكم فيها إلى حكم وراثى فى بنى أبى الحسين الكلبى ، وعرفت صقلية والأقاليم الواقعة تحت النفوذ الفاطمى فى قلورية والجنوب الإيطالى الهدوء النسبى والاستقرار لعدة أعوام فى ولاية أحمد . . وقد يكون ذلك متعلقاً بالأوضاع الداخلية لكل من بيزنطة والخلافة الفاطمية ، ولم تنته سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٦م حتى أقدمت بيزنطة على نقض الاتفاق السابق ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، وأرسل الإمبراطور البيزنطى قواته التى تمكنت من احتلال بعض القلاع فى صقلية ، منتهزة وضع المعز الداخلى ، ومحاولته استكمال السيطرة على بلاد المغرب ، وما إن استقرت أمور الفاطميين ، حتى تحركت قواتهم باتجاه صقلية ، بهدف إعادة الهيمنة الكاملة الفاطمية عليها ، وعلى ما وراء البحار فى الجنوب الإيطالى ، وضمن هذا التوجه انطلقت قوة فاطمية فى عهد أبى الحسين أحمد إلى صقلية من أفريقية بقيادة عمار بن على بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٧م ، ونزل الأسطول الفاطمى فى بلرم ، منطلقاً فى الصيف إلى الجنوب الإيطالى ، وهكذا عادت الحروب بين القوتين البيزنطية والفاطمية وحقت القوات الفاطمية بعض الانتصارات ، وهذا ما يفسر وصول سفارة بيزنطة إلى المنصورة سنة ٣٤٥ هـ ، ولم يستجب الخليفة لهذه

السفارة وطلب من قواته مهاجمة الأسطول البيزنطى عند سواحل صقلية ، فدحر البيزنطيون إلى (قلورية) بعد هزيمتهم^(٤٣) ، وجاء فى العام التالى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م إلى المنصورة سفير بيزنطى يحمل الهدايا والأموال الكبيرة ويبلغ الخليفة رغبة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٣٠١ - ٣٤٨ هـ) (٩١٣ - ٩٥٩م) ، فى وقف الغارات الإسلامية على أرض قلورية ، ويتعد بدفع الجزية ، وإطلاق أسرى المسلمين فى المشرق^(٤٤) ، فقبل الخليفة ، ورأى فى ذلك صلاحاً للدين والمسلمين .

ولم يكن البيزنطيون يلتزمون بالعهود إلا إذا كانت لصالحهم ، أو فى حال عجزهم عن المواجهة ، ولهذا نراهم يتحركون فى صقلية والجنوب الإيطالى ، وفى هذا الإطار قام ضابط بيزنطى باقتحام ريوه ، وهدم المسجد فيها ، ومهاجمة الشواطىء الصقلية ، والاستيلاء على مدينة ترمينى Termini ، فتحركت القوات الفاطمية بقيادة أبى الحسين أحمد فى سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨م وعبر مضيق مسينا إلى كلابريا والتقى أبو الحسين مع عمه عمار ، واتجهتا بقواتهما للقاء قوات " كلابريا " الذى هرب أمامهم بعد أن أخذ بعض سفن المسلمين^(٤٥) ، واستمرت المناوشات الحربية بين الطرفين فى الأعوام التالية . إلى أن جاءت فى سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢م فاشتراك القوات الفاطمية فى صقلية والمغربية الفاطمية فى حصار قلعة طبرمين الجديدة واستمر الحصار مدة سبعة أشهر تم خلال قطع الماء عنها فأجبرت على طلب الصلح ، وتحولت بعد أن سكنها المسلمون إلى مدينة فاطمية ، وأمر المعز بتسميتها المعزية تيمناً به^(٤٦) ، وأرسل بالكثرة من أسراها إلى المهديّة فى أفريقيا .

وربما كان التوجه الفاطمى يهدف إلى تحويل المنطقة الجنوبية الجبلية وجنوب مسينى إلى مناطق إسلامية ، وتحويل المدن المسيحية إلى مدن خاضعة للمسلمين ، والعمل على نشر الإسلام فى جميع المناطق ، عن طريق زرع المستعمرات الإسلامية ، وعلى غرار ما حدث فى طبرمين التى صودرت أملاك أهاليها ، وحول اسمها إلى المعزية ، وهذا ما أكدّه المؤرخ الفرنجى جى .

كما تمكن الأمير أحمد من استعادة رمطة وهى مدينة هامة فى صقلية تبعد عن مسنين تسعة أميال ، بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة والى صقلية ، وطلبت النجدة من الإمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس (٣٥٢ - ٣٥٩ هـ) (٩٦٣ - ٩٦٩م) ، فأرسل إليها نجدة تقدر بأربعين ألفاً بقيادة البطريق نقيتاس ، وإلى جانبه مانويل ابن أخى الإمبراطور ، وقائد فرقة

الخيالة ، وتلقى أحمد قوة فاطمية من المهدية قادها والده الحسن الكلبي ، واستلم قيادة القوات الفاطمية التي تولت مهاجمة رمطة وحصارها بقيادة الحسن بن عمار بن علي الكلبي ، وحدثت المعركة الحاسمة ، وكان البيزنطيون مقتنعين بحتمية النصر بسبب كثرتهم ، لكن البسالة الإسلامية ، والخطط المفاجئة قلبت نتيجة المعركة ، وتحقق النصر للقوات الفاطمية ، وقتل مانويل ، وارتبك الجنود البيزنطيون وسقطوا في حفرة ، وقتل بعضهم بعضاً ، ثم هوجمت رمطة وفتحت في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م ، وتتبع المسلمون الجنود المنهزمين ، وغنموا من السلاح والخيول وصنوف الأموال ما لا يحصى (٤٧).

واستثمر المسلمون هذا النصر فلاحقوا القوات البيزنطية التي تجمعت من جيش مانويل ، أخذت معها من وجدته من روم صقلية ، وجزيرة ريوة ، وغيرهم لمواجهة المسلمين ، وتحصنت في البحر انتظاراً للحظة الحاسمة وما سيتم تقريره ، ولهذا سارع الأمير أحمد وزحف لقتال هذا التجمع في البحر ودارت معركة بحرية أظهر فيها الصقليون كفاءة عالية في القتال البحري حيث نزل بعض الغطاسة ، ونقبوا السفن المعادية ، ففرق معظمها ، وقتل الكثير من رجالها ، ولم يكن أمام الروم إلا الانسحاب والاعتراف بالهزيمة التي عرفت باسم وقعة المجاز ، ولم يكن أمام المدن الإيطالية إلا طلب الهدنة من جديد سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م ، وتم لهم ذلك مقابل دفع الأموال والفدية المتفق عليها (٤٨).

وقبل مغادرة المسلمين رمطة تركوا فيها حامية من أجل حمايتها ، وإعمارها لمنع الروم والنصارى من العودة إليها ، كما فعلوا في طيرمين ، وقد اعتبر بعض الباحثين الفرجة هذا الإجراء من مسلمى صقلية ولاسيما الوالى أحمد بن الحسن بن علي الكلبي محاولة لإزاحة البقية المتبقية من المسيحيين في صقلية ، وإنشاء مستعمرات إسلامية مكانها بهدف نشر الإسلام فيها ، وهذا ما يتفق مع سياسة المعز الدينية في نشر الإسلام والمذهب الإسماعيلي ، وهو ما حاول تنفيذه الأمير الصقلي (٤٩).

بعد هذا النصر الحشدي الذي تحقق في وقعتى الحفرة والخندق والمجاز - اتجهت المدن الإيطالية والقوى الرومية إلى طلب الصلح وتحقيق لها ذلك في سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م ، بعد دفع الأموال المفروضة ، كما أجبر نقفور فوكاس المقاتل العنيد ضد المسلمين على طلب الصلح ، وعقد مع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م اتفاقاً ودفع الجزية ، بعد سفارة حملت هدايا نفيسة شملت بعض الأواني الذهبية المرصعة بالجوهر ، وأبلغت الخليفة المعز رغبة

الإمبراطور فى عقد الهدنة بشروط الهدنة الأخيرة المتضمنة وقف القتال ، ودفع الجزية ، وإطلاق سراح مجموعة من أسرى المسلمين المشاركة (٥٠) ، ولقد ذهل السفير البيزنطى نيقولا Nicholaa وهو أحد أشرف البلاط البيزنطى ، أثناء حفل استقباله فى المنصورية ، وأدهشه ما رآه من مظاهر الأبهة والعظمة والإجلال للحضرة المعزية .

وقبل أن يتوجه المعز إلى مصر اقتضت السياسة الاستراتيجية الفاطمية إعادة النظر فى ممتلكات الدولة الفاطمية فى إقليم المغرب الإسلامى وتنظيم أمورها بما فى ذلك صقلية وضمن هذا التوجه الجديد أعفى المعز بنى الحسن الكلبيين من حكم صقلية ، رغم ما بذلوه من جهود وتضحية لتثبيت الحكم الفاطمى فى المغرب وصقلية وفى ما وراء البحار ، فأقدم المعز فى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م على استدعاء أبى الحسن أحمد بن الحسن من صقلية إلى المهديّة مع جميع أفراد الأسرة وخدمها وأنصارها ، وعين على الجزيرة أحد مواليتهم وهو يعيش مولى الحسن نفسه (٥١) ، حتى يخفف من وقع هذا الانقلاب المفاجئ وتأثيراته على أفراد هذه الأسرة ومكانتها ، ولا شك فى أن المعز تخوف من تفكير هؤلاء بالاستقلال عن الدولة والتفرد بحكم الجزيرة بعد أن تصبح الفرصة مناسبة إثر انتقاله المرتقب إلى مصر .

لم يكن الوالى الجديد على مستوى المسؤولية ، ولم يتمكن من ضبط أمور الجزيرة فأثيرت النزعات القبلية بين كتامة ومنافسيها ، وحدثت الفتنة ، وعدم الاضطراب ، وخشى المعز من طمع الأعداء ، وتحركهم ، فما كان منه إلا أن اضطر إلى إعادة الحكم فى الجزيرة إلى آل بنى الحسن الكلبيين ، فعين أبا القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين نيابة عن أخيه أحمد الذى بقى فى المهديّة ، أميراً لصقلية ، ومات أحمد بعد مدة قصيرة فعهد المعز بأمر صقلية إلى أبى القاسم ، فارتاح أهلها لهذا التعيين وهمدت الفتنة ، وهدأت الأحوال ، بعودة الأمور إلى مجاريها ، وعاد حكم الجزيرة لهذه الأسرة بعد أن أجبرت الأحداث العسكرية المعز على الاعتراف لها بحكم وراثى فى صقلية (٥٢) .

وهكذا استقرت الأمور فى صقلية داخلياً وخارجياً ، واطمأن الخليفة المعز على أملاكه فى صقلية ، وفيما وراء البحار ، كما اطمأن على سلطانه فى المغرب العربى ، واستمر السلام بعد انتقاله إلى مصر فترة اتخذ خلالها التوجه الفاطمى منحى جديداً ، وسياسة خارجية جديدة تخضع لمؤثرات مستجدة شرقية وربما مختلفة ، وكان على الفاطميين أن يتعاملوا بجدية مع المعطيات الجديدة بعد استقرارهم فى مصر .

ربما كانت أهم الآثار التي ترتبت على السيطرة الإسلامية الجديدة على البحر المتوسط الغربى ، وهذه السيطرة كانت نسبية غير مطلقة وقد جاءت من باب التعميم غير الدقيق ، والمقصود بالسيطرة ، أن الغلبة فى البحر المتوسط بجزأيه الغربى والشرقى غدت تحت الإشراف العربى الإسلامى ، وزال الخطر البيزنطى الذى كان كثيراً ما يحد من النشاط التجارى فيه ، عندما كانت بيزنطة تستخدم أسلوب السلبية^(٥٣) التجارية عن طريق سيطرتها على المتوسط، والتحكم فى مفاتيحه ، لأطماعها ومكاسبها الخاصة ، ضاربة بالمصالح البشرية عبر الحائط .

ظهر فى هذه الفترة للعالم الإسلامى ثلاثة مراكز متميزة للقوات الإسلامية البحرية فى حوض البحر المتوسط ، الأول فى الغرب ممثلاً للقوة الأموية فى الأندلس ، والثانى فى الوسط ، وهى قوة الأغالبة التى ورثتها الدولة الفاطمية ، أما الثالثة فكانت فى الشرق متمثلة بقوة البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، وكان أهم هذه المراكز وأقواها القوة التى تركزت فى الشمال الإفريقى وفى صقلية أيضاً . وقد ورث الإشراف عليها وعلى قيادتها وتطويرها الفاطميون منذ سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م كما رأينا (٥٤).

وكان الاحتكاك العسكرى البحرى بين قوات هذه المراكز الثلاثة ضعيفاً وغير ظاهراً ، إلى أن قامت الخلافة الفاطمية ، معلنة شعاراتها الطموحة ، ونظريتها التوسعية ، واستخدمت قوتها البحرية ضد أملاك الخلافتين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب ، وظهر كل ذلك فى الحملات العسكرية المتكررة إلى مصر ابتداء من عهد المهدي الخليفة الفاطمى الأول وإرسال الحملات العسكرية البرية والبحرية منذ عام ٣٠١هـ / ٩١٣م ، واستمرار ذلك التوجه إلى أن تمكن الخليفة المعز وقائده جوهر من تحقيق الحلم الفاطمى فى مصر ، ومعلوم أنه كان يرافق هذه الحملات البرية وحدات بحرية ترافقها وتساندها وتحمل لها المؤن والذخيرة وما تحتاجه (٥٥).

كما قام الفاطميون بالتحرش بالأمويين فى الأندلس ، ولم يكتفوا بالنشاط الفكرى ، ومؤازرة الشوار على الحكم الأموى ، إنما تجاوز ذلك إلى غزو الأملاك الأموية فى الأندلس سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م ، وتكرر هذا الغزو فى سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م عندما قام الأسطول الفاطمى من صقلية فى عهد الخليفة المعز وغزا ميناء المرية الواقع فى جنوب شرق الأندلس ، واحرق مراكبه والمخازن الخاصة بالسفن ، وما فيها من معدات بحرية من الصواري والعدد ونهب جميع ذخائرها ، ثم عاد الأسطول الفاطمى محملاً بالغنائم إلى المهديّة^(٥٦) ، ومعلوم أن الأمويين ردوا على المشروع الفاطمى بإجراءات سريعة ، وفعالة ، وأبطلوه واستخدموا كافة السبل

حياله، بما فى ذلك التعاون مع الأعداء البيزنطيين ، الأمر الذى عمق الخلاف بين القوى الإسلامية فى غرب العالم الإسلامى ، وقاد ذلك إلى آثار سيئة على كلتا الدولتين ، وألحق الضرر الكبير بالمصالح العليا العربية الإسلامية وقدم كل ذلك الدليل الأكيد على وجود عوامل الانحلال الداخلى فى الدول الإسلامية ولم تتمكن البحرية الإسلامية من أن تقيم تعاونًا واضحًا وتحقق سيادة عربية معادلة لسيادة بيزنطة البحرية على المتوسط ، عندما كان واقعًا تحت نفوذها الذى استمر حتى (٥٧) سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م .

ورغم كل هذه السببىات الظاهرة ، وعلى الرغم من أن هذه السيادة العربية الإسلامية على البحر المتوسط كانت نسبية إلا أنها تركت آثارًا إيجابية اقتصادية عظيمة ، وأثرت بشكل واضح فى الخط التجارى فى معظم أقاليم هذا البحر المتوسط بالإضافة إلى الأسود ، وكان المستفيد الأول من هذا التحول الجديد ، والأكثر نفعًا من الوجهة الاقتصادية والتجارية سكان صقلية عامة والشمال الإفريقى خاصة ، حيث ازدادت أهمية سكان المنطقتين كوسطاء دوليين فى التجارة العالمية فى الشمال والواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص ، وتحكم هؤلاء الأفارقة فى نقل السلع بين الغرب والشرق ، وتقدموا على حساب التجار الشوام والأوربيين فقامت سفنهم وجابت هذه الأماكن لنقل السلع والتوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة من مخازنها فى مصر والشام ، وإيصالها للغرب الإسلامى والأوربى .

هذه السيادة العربية على البحر المتوسط الغربى ، أدت إلى رخاء واضح لجميع بلاد المغرب كافة ، ويظهر ذلك بقوة عندما نقوم بعمل مقارنة بسيطة بين ما كانت عليه بعض المدن المشهورة فى الشمال الأفريقى فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عندما كان النفوذ فى المتوسط لصالح بيزنطة كاملاً ، وبين هذه الفترة التى نحن بصدد دراستها منذ منتصف القرن التاسع وإلى نهاية القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، حيث يتضح لنا الفارق ، ونرى أن تونس والقيروان ورقادة ، وغيرها من المدن المغربية المهمة زراعياً وصناعياً وتجارياً ، زادت خيراتها وثراواتها وربما تضاعفت زمن الفاطميين على الرغم من فداحة الضرائب التى فرضها هؤلاء عليهم بهدف تحقيق مشروعاتهم التوسعية ، وما أدى إليه من حروب وصراعات فى المنطقة، وما استهلكه من أموال طائلة ، وخير مثال عن ذلك الثروة الهائلة التى أنفقها المعز على حملته التى كلفت بفتح مصر والتى بلغت حصيلة ما جمعه لها حوالى ٢٤ مليون دينار ذهبى ، وهو مبلغ مهم وكبير ويقدم البرهان الأكيد على التقدم الاقتصادى المتحصل من التجارة والصناعة فى الداخل والخارج (٥٩).

كما كان من آثار هذا التحول الجديد توسع تجارة الشمال الإفريقى مع مصر فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وتوافد الكثرة من البربر وعرب أفريقيا إلى مصر واستقرارهم فى الإسكندرية ، وهؤلاء شغلوا دوراً مهماً فى مساعدة الحملات الفاطمية على مصر بدءاً من الحملة الأولى وحتى حملة جوهر الصقليى الأخيرة .

وبما يؤكد هذا التواصل الحضارى فى هذه الفترة ، بين الشمال الأفريقى وشرق البحر المتوسط ، انتقال الزراعات ، وبعض النباتات من الشرق إلى الغرب كزراعة القطن ، وقصب السكر ، والزعفران^(٦٠) وغيرها من مواد زراعية وصناعية إلى بلاد المغرب وكذلك إلى صقلية، وفيما بعد ساعد هذا التنقل الذى ابتدأ من هذه الفترة ، على إيصال هذه البذور الحضارية إلى أوروبا ، وعلى إنهاض الهمم فيها ، وغرس بذور الأمل فى نهضتها المرتقبة .

كما كان من آثار ذلك النشاط التجارى الوصول إلى أعماق القارة الأفريقية وإلى مناطق تواجد الرقيق ، وتوفير الذهب ، فوجدت مسالك وطرق جديدة فى العصر الفاطمى ، لتؤمن للقوافل الوصول إلى السنغال والنيجر والسودان ، مختركة الصحراء ، حيث الذهب والرقيق الأسود ، وهذا ما زاد فى أهمية سجلماسة على هذا الطريق ، منذ أن شيدها الرستميون فى سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م ، وغدت من أهم المراكز على الطرق التجارية المتجهة إلى أماكن هذه السلع المهمة فى أفريقية ، ومن المظاهر الدالة على ازدهارها فى القرن العاشر أن الضرائب المفروضة على هذه التجارات السودانية بلغت حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ألف دينار سنوياً^(٦١) .

كما استفادت مصر هى الأخرى من هذا الوضع الجديد ، وبلغت درجة من الرخاء خلال القرن العاشر على الرغم من الأحداث العسكرية التى تفجرت فيها منذ بداية القرن ، وربما كان التحول التجارى الذى أصاب التجارة الشرقية وانتقل بها عن طريق الخليج العربى والعراق ومراكزها كهرمز والبصرة إلى مصر والبحر الأحمر ، من العوامل التى ساعدت على ازدهار مصر ونهوضها الاقتصادى ، حيث تشير بعض المصادر لهذا النشاط وازدهارها المراكز الواقعة على هذا الخط أمثال عدن^(٦٢) والإسكندرية التى أصبحت مستودعاً كبيراً لتجارة البحر المتوسط ، وغصت بتجار المغرب والبندقية وكذلك من القسطنطينية ، وشاركت الشام مصر فى رخائها رغم الصراعات الإقليمية فيها ، وانتعشت مدنها البحرية لاسيما طرابلس وبيروت وصور وجميع الموانئ والثغور الساحلية الإسلامية ، وذلك بسبب فتح البحر المتوسط أمام التجارة العربية الإسلامية ، وانتهاء التحكم البيزنطى^(٦٣) ، وما رافقه من سلبية تجارية كما أشرنا إلى ذلك .

ومن مظاهر هذا الرخاء التجارى ونشاطه أيضاً ، التغييرات التى رافقت استخدام الدينار الذهبى ، حيث عم انتشاره شرقاً وغرباً ، وغدت المناطق الإسلامية فى الغرب والشرق تشكل وحدة اقتصادية نقدية واحدة ، وبعد أن كان استخدام الدينار حتى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م مقتصرًا على الشمال الأفريقى والشام ومصر وبعض أجزاء فى إيطاليا ، أصبح فى حوالى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م نقدًا دوليًا دون منازع واستخدم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى (٦٤) ما بين بلاد فارس والأندلس .

والأهم من ذلك كله أن السيطرة العربية الإسلامية على البحر المتوسط بجزأيه لم يكن لها آثار اقتصادية سلبية حتى على الأقاليم البيزنطية الشمالية ، وأسباب ذلك تعود إلى أنه لا توجد أية إشارات تشير إلى محاولة القوى الإسلامية عرقلة التجارة الدولية الذاهبة إلى الإمبراطورية البيزنطية أو القادمة منها ، أو التحكم فيها ، ومما يؤكد على ذلك انعدام ما يدل على أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لأزمات اقتصادية خلال هذه الفترة المدروسة بل توضح القرائن أنها كانت تنعم برخاء اقتصادى هى الأخرى ، واستمرت القسطنطينية من المراكز الصناعية والتجارية المهمة فى عالم البحر المتوسط وبين شعوبه (٦٥) ، وبقيت عملتها رائجة ، ونقدها الذهبى نقيًا ، وواسع التداول ، وتوسعت الأعمال المصرفية ، وزادت أرباحها وجاء ذلك نتيجة للرخاء الذى عمّ العاصمة القسطنطينية ، واستمرار علاقاتها التجارية مع الغرب بواسطة المدن التجارية الإيطالية أمثال البندقية وغيرها .

أما الوضع الاقتصادى فى أقاليم الغرب اللاتينى المهمة ، فإنه اختلف تمامًا عن بقية بلاد البحر المتوسط ، وغدت مناطق الساحل المسيحى فى المتوسط من برشلونة حتى نهر التيبر تشكل مناطق مهجورة ، وميتة ، واختفت معالمها المتقدمة السابقة التجارية وغيرها وضعفت أمام التحدى العربى الإسلامى فى الأندلس .

أما مدن ساحل إيطاليا الغربى أمثال أمالفى وجاتيا ، وسلرنو ، ونابولى فقد حظيت بشيء من التقدم ، ولم تلتزم كثيرًا بتوجيهات بيزنطة ، وتمكنت بما ملكت من قوة من أن تحدد علاقاتها الاقتصادية مع العرب المسلمين على قدم المساواة ، وكذلك حدث مع البندقية على البحر الأدرياتي ، حيث استفاد تجارها من التفوق الإسلامى فى البحر المتوسط ، واستمر تجار هذه المدن يتعاملون مع البلاد الإسلامية ، رغم اعتراضات بيزنطة والبابوية ، وكانت حاصلاتهم من الحديد والخشب والأسلحة ، إضافة إلى تجارة الرقيق هى التى درت على البندقية أرباحًا

طائلة فى أسواق العالم الإسلامى ما بين قرطبة وبغداد باعتبار أنه كان لهذه السلعة قيمة كبيرة فى قصور الحكام ، كما كان الخشب والحديد من المواد المهمة فى الصناعات البحرية والبحرية وكانت دائماً مطلوبة على طول السواحل البحرية فى المتوسط (٦٦). وقد تميزت نابلى عن غيرها من المدن الإيطالية فى علاقاتها مع العرب المسلمين ، وكثيراً ما كانوا ينقلون إضافة إلى الحديد والخشب العبيد والمنسوجات إلى الأسواق الإسلامية ، ويعودون محملين بزيت الزيتون والسلع الشرقية والمصنوعات فى بلرم ، وشمال أفريقية .

جملة القول إن فترة السيطرة الإسلامية على حوض المتوسط من ٢١٢هـ / ٣٤٩هـ (٨٢٧ - ٩٦٠م) كان لها تأثيرات إيجابية واضحة على مجمل النواحي الاقتصادية لاسيما التجارية على شعرب ذلك البحر ، حيث شهدت انتعاش العديد من الطرق التجارية ، واتضح تفوق الشمال الأفريقى وتقدمه ، وسيطرته على تجارة البحر المتوسط ، وعلى الرغم من هذا التقدم للشمال الأفريقى ، فلم يكن حائلاً دون الرخاء التجارى الشامى ، كما أن البحر الأحمر وتجارته نهضت ولاقت كل ازدهار ، وتبين أن العالم الإسلامى بجملته شهد فى هذه المرحلة تقدماً ظاهراً ، كما أن بيزنطة لم تخرج عن هذا الإطار فزاد رخاؤها ، ووصلت إلى أوربا كما أشرنا عن طريق البندقية وبعض المدن الإيطالية القديمة ، وبوساطة الطرق الواصلة بين البحرين الأسود والبلطى .

وهذا العصر يعد من العصور الحيوية المميزة فى تاريخ البحر المتوسط حيث تبدل النظام الاقتصادى القديم ، وحدث تعديل فى التحولات الاقتصادية للأقاليم الاقتصادية الغربية من زراعية إلى صناعية ، وشاركت المدن الإيطالية الوسطة التجارية ما بين الشرق والغرب ، وكل ذلك أخذ يشكل الخطوات الأولى نحو السيطرة الغربية فى البحر المتوسط التى أخذت تتحكم فى الأقاليم العربية الإسلامية الغربية شيئاً فشيئاً ، وأدى ذلك كله إلى التحكم الأوروبى الغربى فى شؤون هذا البحر المتوسط ، والتسلط على مصيره ، وخيرات شعوبه ، ومن ثم إحكام القبضة عليه .

الهوامش

١ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٩٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ : تاريخ البحرية الإسلامية ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ .

٢ - انظر : فاريليف : العرب والروم ، ص ٦٣ ؛ وجوردن : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة صقلية ؛ الواقدي : فتوح الشام ومصر ص ٤١٣ ؛ تقى الدين عارف الدوري : صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى : ص ٢٣ ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ - المصادر والمراجع السابقة .

٤ - ٥ - انظر أقوال الرحالة العرب المسلمين ، المكتبة الجغرافية الصقلية ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٨١ ... إلخ ؛ ابن عذارى : المغرب البيان ج ١ ، ص ٢٣ ؛ صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ص ٧٥ .

٦ - ٧ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٠٠ ؛ صابر دياب : سياسة ، ص ٩١ / ١٤١ .

٧ - المقرئى : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٢٢ ، وقيام الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٢٦ ؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية ، ص ٤٩ .

٨ - ابن عماد : أخبار ملوك بنى عبيد " لعله هو عبد الله وليس عبيد الله وإنما عبيد الله هو تصغير لاسمه ، ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٩ ؛ المقرئى : اتعاظ ، ص ٨ ؛ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، ص ٨١ ط ٤ ، ١٩٩٤ م .

٩ - المقرئى : اتعاظ ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨١ .

١٠ - القاضى النعمان : المجالس والمسائرات ص ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ تحقيق الحبيب الفتى ، تونس ١٩٧٨ ؛ ماجد : ظهور ، ص ٨٦ وما بعدها ؛ محمد محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص ١١١ ؛ حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله الفاطمى ص ٤٦ ، ٣٠٣ وما بعدها ؛ العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ، ص ٥٢ .

١١ - المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٠ ؛ عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ج ، ص ٢٢٧ ، ٢٣٢ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٦٢ .

١٢ - انظر : المقرئى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٣٣ تحقيق الشيبال ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ١٢٨ ط ١٩٥١ ، تحقيق الدهان ؛ السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٤٥ ، تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٩٩ .

١٣ - عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ، ص ١٧٣ ليدن ١٨٩٧م : الكندى : الولاة ، ص ٢٦٩ ؛
المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ٧١ : ابن الوردى : تنمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٢٥٩ ؛
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ج ٢ ، ص ١٧٢ ، تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٠ .

١٤ - انظر : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢٤ .

١٥ - البكرى : المغرب ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ وما بعدها : ابن أبى دينار القيروانى : ص ١١ : الكامل ؛
ج ٨ ، ص ٩٤ ، ٩٥ : العبر ج ٢ ، ص ٦٢٨ : التجانى : ص ٦ : ابن حوقل : صورة ، ص ٧٣ ؛
سالم : البحرية الإسلامية ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ : سعيد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٩٤ ،
٩٥ ، ٩٩ .

١٦ - انظر : الأنطاكى : تاريخ ص ٧٤٦ ، ٧٤٨ : المقريزى : اتعاظ ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ؛
صابر دياب : سياسة ص ١٠١ ، ١٠٣ : سيرة الأستاذ جوذر : ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢١ نشر محمد عبد الهادى شعيرة ، ومحمد كامل حسن : حسن إبراهيم
حسن : المعز لدين الله ، ص ٨٥ ، ١٨٦ : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ : سالم : تاريخ
البحرية ج ١ ، ص ٧٢ .

١٧ - ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١٤٧ : سيرة الأستاذ جوذر : ص ١١٧ : الأدرسى : نزهة ،
ص ٩١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، المكتبة الجغرافية ، ص ١٣٤ : الحميرى : الروض المعطار ص ١٤١ /
١٧٤ : البعقوبى : البلدان ص ٣٤٩ : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٣ ،
٧٤ : ابن حوقل : صورة ص ٧٧ ، ٨٤ : البكرى : المغرب ، ص ٣٣ .

١٨ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ وعن أهمية صقلية والمواد الأولية فيها اللازمة لصناعة
السفن : انظر : المكتبة الصقلية ٢٥ وما بعدها ٧٤ ، ٨٧ ... إلخ .

١٩ - ابن خلدون : العبر ج ٢ ، ص ٦٢٧ : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٦ .

٢٠ - انظر : فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج
٢ ، ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٦٧ : الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٢ : البكرى : المغرب ، ص ٢٠ ؛
الإدرسى : نزهة ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ : سالم : تاريخ البحرية ج ١ ، ص ٧٧ .

٢١ - ابن خلدون : ج ٢ ص ٦٢٧ : سالم : البحرية ، ج ١ ص ٧٧ / ٧٨ : فتحى عثمان : الحدود ج ٢ ،
ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

٢٢ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٢ ، ص ٢٧٢ ،
٢٧٥ و ج ٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢٣ - انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٦ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٢ ؛ صابر دياب : سياسة ص ١٤١ نقلاً عن النويرى نهاية الأردب ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٣٤ حيث يذكر أن اسم والى الأغالبة الأخير هو " أحمد بن أبى الحسن بن رباح " .

٢٤ - ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ج ٢ ، ص ٦٦ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٩٨ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٣ ؛ مورينو : المسلمون فى صقلية ، ص ١٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

٢٥ - انظر : ميخائل أمارى : المكتبة العربية الصقلية نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ص ٤٧٦ ، بيروت ليبسك ١٨٥٧م ؛ ابن خلدون : العبر ج ٣ ، ص ٣٦٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٦ ، ١١٧ ؛ سعد زغلول عبد الحميد تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

٢٦ - وعن هذه الثورة وأهدافها : انظر : النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٢٦ ؛ الأنطاكى : تنمة تاريخ سعيد بن البطريق ، ص ٧٦٢ . ٧٦٤ ، طبعة باريس ١٩٢٤ ؛ الكامل : ج ٨ ، ص ٧١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ١٢٠ ؛ العبر ج ٤ ، ص ٢١٧ ؛ المقرئى : اتعاظ ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ تاريخ جزيرة صقلية ص ١٦٨ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ٢٣٣ ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٨ ، ٩٩ ؛ عبد الله المهدي ص ٢٦٨ ؛ تقى الدين عارف الدورى : صقلية : ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٤٨ .

٢٧ - انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ، ص ١٦٩ .

٢٨ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ؛ تقى الدين : صقلية ، ص ١١٧ .

٢٩ - تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ نقلاً عن مؤرخ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة العقلية ص ١٦٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٦٤ ؛ وانظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .

٣٠ - ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٨٩ ، ٢٦٦ فى حين جاء فى تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٩ ، ١٧١ أن جعفر أخذ بريعانة ؛ انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ١٥٦ .

٣١ - الكامل : ج ٨ ، ص ١٥٩ ؛ ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٩٠ و ط بيروت ٢٦٧ حيث يرد اسم المدينة " وارى " بدلاً من أوريه - وانظر : تاريخ صقلية حسب تاريخ العالم ، المكتبة الصقلية لامارى ج ١ ص ١٧٠ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٧ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٧ ؛ وانظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ وورد اسم أوربة " أريو " .

- ٣٢ - انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ص ١٥٨ نقلاً عن المكتبة الصقلية ج ١ فصل ٢٧ ، ص ١٧٠ .
- ٣٣ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٢٧٠ : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ لويس أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ : تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .
- ٣٤ - انظر : مؤرخ مجهول : جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٠ : ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٠ / ٢٧٥ : ح ، جاي : إيطاليا الجنوبية ص ٢١٨ : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ص ١٥٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ص ١١٧ .
- ٣٥ - الكامل ج ٦ ، ص ١٨٢ ؛ مجهول : تاريخ جزيرة صقلية فى المكتبة الصقلية ص ١٧٠ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١١٨ ؛ أرشيبالد : القوى ، ص ٢٣٤ .
- ٣٦ - انظر : العبر ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ الكامل ج ٦ ، ص ٢٤٦ ؛ وهناك اختلاف فى النصوص حول اعتبار جنوة من بلاد الروم أو الإفرنج انظر : سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٥٦ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٨٥ " حيث يقول إن جنوة من بلاد الروم ، وقارن ذلك مع افتتاح الدعوة ، ص ٣٣١ ، حيث تذكر افتتاح مدائن الروم فافتتحت جنوة ؛ انظر أرشيبالد : القوى ص ٢٣٤ " حيث يذكر أن الفاطميين أزعجهم النشاط البيزنطى فى غرب المتوسط فأرسلوا عام ٩٣٥ أسطولاً ليثبت دعائم سلطانهم فى مياه البحر التيرانى ، وأغار هذا الأسطول الفاطمى على مرونية وكورسيكا وربما على جنوة وتمكن من حرق العديد من السفن .
- ٣٧ - ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة السراء كج ٢ ، ص ٣٠٢ ؛ الجوزرى : سيرة الأشناذ جود ، ص ٧١ ، ٧٢ ؛ الكامل ج ٨ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ؛ العبر ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٠ ؛ عارف الدورى : صقلية ص ١١٧ ، ١١٨ .
- ٣٨ - انظر : الكامل : ج ٨ ، ص ٤٧١ ، ٤٧٣ ؛ العبر ج ٤ ص ٢٠٩ ؛ تقى الدين الدورى : صقلية ، ص ١٠٨ ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
- ٣٩ - انظر : سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٦ ؛ نقلاً عن ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٢ .
- ٤٠ - انظر : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٤ ، ٤٩٤ وأحداث سنة ٣٤٠ هـ . المكتبة الصقلية حيث يقابل سنة ٩٥٤م ٣٤٣هـ ، ج ١ ، ص ١٧٤ و ١٧٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٦٧ .
- ٤١ - المصادر والمراجع السابقة .
- ٤٢ - انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٧٤ ، حيث يقول أن الحسن شرط على الروم إن أخرجوا حجراً من المسجد هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية ، وأن الروم وجدوا بهذه الشروط ذلة وصغاراً ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٦٨ ؛ وانظر سليمان الرحبلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، ص ١٧٤ ، الرياض ١٤١٤هـ .

٤٣ - انظر : القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ إدريس عماد الدين القرشي : عيون الأخبار وفنون الآثار ج ٥ ، ص ٣٣٨ ، بيروت ١٩٧٥ ؛ سليمان الرحيلي : السفارات ، ص ١٧٥ .

٤٤ - لم يفرق المعز بين أسرى المسلمين سواء كانوا تابعين للدولة الفاطمية أو مشاركة تابعين للعباسيين فالجميع مسلمون وهذا ما يتفق والتوجه الإسماعيلي الفاطمي حيث يعتبرون المسلمين كلهم رعاياهم وحتى ولو لم يكونوا تحت نفوذهم أو سلطانهم وكانوا يفتخرون على الأمويين بذلك . انظر : القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٧٥ و ١٦٧ ؛ سليمان الرحيلي : السفارات ، ص ١٧٦ .

٤٥ - الكامل : ج ٨ ، ص ٥٤٣ : المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٢٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ؛ ابن ظافر الأزدي : الدولة المنقطعة ، ص ٢٣ ؛ تقى الدين الدوري : صقلية ، ص ١١٤ ، ١١٥ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

٤٦ - ج جاي : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٩ بالفرنسية ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧١ .

٤٧ - انظر : الكامل ج ٨ ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ ؛ حاي : إيطاليا الجنوبية والإمبراطورية البيزنطية (بالفرنسية) ص ٢٩٠ ، ٢٩١ : المكتبة الصقلية ج ١ ، ص ١٧٦ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٤٨ - انظر المصادر والمراجع السابقة .

٤٩ - انظر : جاي : إيطاليا ، ص ٢٩١ ؛ سعد زغلول : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

٥٠ - القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص ٣٦٧ ، ٣٧٠ ؛ الكامل : ج ٩ ، ص ٥٥٨ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية ، ص ٣١ (بالإنجليزية) ؛ سعد زغلول : ج ٣ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ تقى الدين الدوري : صقلية ، ص ١١٦ ؛ نقلاً عن النويري : نهاية الأرب ، مخطوط

دار الكتب ج ٢٢ ، ص ورقة ١١٩ ؛ انظر : سليمان الرحيلي : السفارات ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

٥١ - الكامل : ج ٨ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، أحداث سنة ٣٥٩ هـ ؛ سعد زغلول : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٧٥ / ٢٧٦ ؛ أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) ، ص ٣١ .

٥٢ - المصادر والمراجع السابقة .

٥٣ - أرشيبالد : القوى البحرية ، ص ؛ فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ص ٢٢ إلى ٢٦ ؛

زبود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي ، ص ٣٥٢ ،

٣٥٣ .

٥٤ - انظر ما سبق من هذا البحث .

٥٥ - القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٥٦ : الكامل : ج ٨ ، ص ٥١٣ حوادث سنة ٣٤٤هـ : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ ج ٣ ، ص ٢٢٩ : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥١ .

٥٦ - انظر سعد زغلول عبد الحميد : ج ٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ : نقلاً عن المجالس والمسايرات ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ : الكامل ج ٨ ، ص ٥١٣ .

٥٧ - أرشيبالد : القوى ، ص ١٥٧ ، ٢٥٢ .

٥٨ - انظر أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٢ .

٥٩ - المقيري : اتعاظ ج ٢ ، ص Lane Poolci Egypt : p. 101 - 1s

أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦٠ - البكري : المغرب ، ص ٦٥ ، ٦٧ : ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٣ ، ٤١٥ : أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٤ .

٦١ - لومبارد : العرب في أوج حضارتهم تجارة الذهب ، ص ١٤٩ : أرشيبالد ، ص ٢٥٥ .

٦٢ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ نقلاً عن المقدسي : وانظر :

Lestusange, G. Baghdad under the chliphis. p. 44 , 77 .

٦٣ - أرشيبالد : القوى ، ص ٢٥٩ .

٦٤ - لومبارد : العالم الإسلامي ، النقد ص ١٥٢ : أرشيبالد : ص ٢٦١ .

٦٥ - لومبارد ، ص ١٥٣ : أرشيبالد : ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

٦٦ - أرشيبالد : ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ .

المراجع

- ١ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩م .
- ٢ - أرشيبالد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠) ترجمة غريال وعيسى ، مكتبة النهضة ، القاهرة .
- ٣ - أحمد عزيز : صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) أدنبرة ١٩٧٥م .
- ٤ - أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية تفسير جديد ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، القاهرة .
- ٥ - النعمان بن محمد : كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحان الدشراوى ، تونس ١٩٧٥ ، كتاب المجالس والمسائرات ، تحقيق الفقى ، وشبوح ، واليعلاوى ، تونس ١٩٧٨م .
- ٦ - البكرى : المغرب ، المسالك والممالك ، نشر رسلان الجزائر ١٨٥٧م .
- ٧ - التجانى : الرحلة ط ١ ، تونس ١٩٢٧م .
- ٨ - السيد عبد العزيز سالم والعبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ج ١ وج ٢ ، ط ١٩٩٣م .
- ٩ - تقى الدين عارف الدورى : صقلية علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورماندى ، بغداد ١٩٨٠م .
- ١٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ١٩٨١م ، المعز لدين الله الفاطمى القاهرة ١٩٦٤م .
- ١١ - حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٣م .
- ١٢ - ابن الخطيب : الأعلام ، تحقيق العبادى ، والكتانى الرباط .
- ١٣ - ابن خلدون : العبر بولاق ، ٧ أجزاء والمقدمة .
- ١٤ - رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٦م .
- ١٥ - راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٨٦م .
- ١٦ - سليمان الرحيلى : السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ، الرياض ١٤٠٦هـ .
- ١٧ - سيرة الأستاذ جوذر : تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٩٥٤م .

- ١٨ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، ج ٣ ، الإسكندرية ١٩٩٠م
- ١٩ - صابر محمد دياب : سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، عالم الكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م .
- ٢٠ - على حسنى الخربوطلى : الإسلام في حوض البحر المتوسط ، بيروت ١٩٧٠م .
- ٢١ - عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، دار الفكر ، القاهرة ، السجلات المستنصرية ، القاهرة .
- ٢٢ - ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، دمشق ١٩٥١م .
- ٢٣ - عارف تامر : تاريخ الإسماعيلية ، ج ١ ط ١ ، ١٩٩١م .
- ٢٤ - ابن عذارى : البيان المقرب ، نشر إحسان عباس ، بيروت .
- ٢٥ - فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العسكرى والاتصال الحضارى ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٧م .
- ٢٦ - فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، وفؤاد حسين على ، القاهرة دار الفكر .
- ٢٧ - لومبارد موريس : الإسلام في فجر عظمته ، ترجمة حسين عودات ، دمشق ١٩٧٩م .
- ٢٨ - المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، تحقيق الشيال ج ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م .
- ٢٩ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية دار الفكر ١٩٩٥م ، وسياسة الفاطميين الخارجية .
- ٣٠ - ميخائيل أمارى : المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك ١٨٥٧م .
- ٣١ - محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولونى حتى نهاية العصر الفاطمى ، بيروت ١٩٩٢م ، دار الفكر .

د. عبد الله كامل موسى عبده (*)

المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثماني حتى نهاية القرن ١٣هـ / ١٩م دراسة أثرية وثائقية

نعالج في هذا البحث موضوع منشآت مدينة قوص التجارية والصناعية من النواحي الأثرية والوثائقية . وهي المنشآت التي تنوعت ما بين فنادق وخانات ووكالات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة وغير ذلك ، كذلك تتعرض هذه الدراسة للخطط التي ارتبطت بالتجارة وطوائف الحرف وغير ذلك من ألوان الحياة الاجتماعية والفنية بالمدينة ، خاصة وأن هذه المنشآت وطوائف الحرف لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين خلال الفترة موضوع الدراسة ، وهي الفترة التي تبدأ في القرن الخامس الهجري .

وتتألف هذه الدراسة من مقدمة وثلاثة محاور :

أما المقدمة فتتناول منشآت قوص التجارية والصناعية منذ بداية ازدهار قوص في النصف الثاني من القرن ٥ هـ / ١١م نتيجة تحول درب الحج من شبه جزيرة سيناء إلى طريق قوص ، وهي الدراسة التي تعتمد بشكل أساسي على نصوص الجغرافيين والرحالة الذين

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي .

توافدوا على المدينة فى أوقات مختلفة خلال تلك الفترة ، وسجلوا عنها كل ما عاينوه فى كافة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية وجاءت نصوصهم المدونة عنها فى غاية الأهمية والدقة .

ويتناول المحور الأول المنشآت التجارية المندثرة والباقية خلال الفترة موضوع الدراسة . ويشتمل هذا المحور على ذكر لبعض الوكالات المندثرة بقوص التى أمدتنا بها الوثائق ، كما يشتمل على دراسة أثرية معمارية لوكاليتين إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٨م ، وقد اندثرت حالياً ، غير أن جان كلود جارسان (Garacin, J. C.) أمدنا بصورة لها ، والأخرى ترجع إلى ما قبل سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م وتعرف بوكالة بيت عودة ، وهى بحالة جيدة .

ويتناول المحور الثانى المنشآت الصناعية بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

أما المحور الثالث فيتناول الخطط التى ارتبطت بالتجار وبعض الحرف ، كما يتناول طوائف الحرف وطبقة التجار بالمدينة من خلال دراسة وثائقية .

موقع قوص وأهميته (شكل ١) :

قوص^(١) (Qous) مدينة مصرية قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل بين مدينتى قفط والأقصر ، ذكرها اليعقوبى فى النصف الثانى من القرن ٣هـ / ٩م فقال " ومن مدينة قفط إلى مدينة الأقصر ، وهى مدينة قد خربت وصارت مكانها مدينة قوص " ^(٢) ، بدأ عمرانها فى العصر الإسلامى منذ عام ٤٠٠هـ / ١١٠٩م عقب تدهور مدينة قفط ^(٣) بسبب أهمية موقعها على النيل ، وكانت أسوان فى ذلك الوقت تمثل حاضرة الصعيد ، حيث ازدهرت إدارياً واقتصادياً وعمرانياً وثقافياً وفنياً ، وهو الأمر الذى يتضح جلياً فى كتابات المؤرخين ^(٤) والجغرافيين ^(٥) والرحالة ^(٦) المسلمين فى العصور الوسطى .

بداية ازدهار قوص :

كان أول ظهور حقيقى لقوص على مسرح الأحداث التاريخية فى العصر الفاطمى ، وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن ٥هـ / ١١م عقب تحول درب الحج من طريق سيناء إلى الطريق الجنوبى عبر نهر النيل بسبب الأحوال السياسية ^(٧) والاقتصادية ^(٨) التى مرت بها مصر خلال تلك الفترة أى إلى أحد طرق ثلاثة تربط بين البحر الأحمر والنيل هى قوص - القصير ، قوص - عيذاب ، أسوان - عيذاب ^(٩) (شكل ١) .

ولم تلبث أن غدت قوص مدينة زاهرة من الناحيتين الدينية والتجارية بعد أن تدفق عليها الحجاج والتجار ، فقد وصفت بأنها " أعظم ولايات الديار المصرية ، وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد " (١٠) ، ويحدثنا البكرى فى النصف الثانى من القرن ٥ هـ / ١١ م عن هذا الازدهار بقوله : " وهى مدينة كبيرة .. فيها أسواق وحمامات ومعاصر للسكر ... ولها ضياع جليلة " (١١) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوءه أن المدينة قد شهدت تطوراً فى الناحيتين التجارية والصناعية من حيث النشاط والمنشآت فتعددت الأسواق (١٢) والحمامات ، وازدادت موارد الثروة ، وازدهرت المعاصر كمنشآت صناعية ، حيث ازدهرت صناعة السكر من القصب ، وقد ارتبط كل ذلك ارتباطاً وثيقاً بالأحوال السياسية المستجدة ، وتطور الحياتين الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة .

هذا وقد ازدهرت موانئ البحر الأحمر ازدهاراً عظيماً من الناحية التجارية حتى أنها فاقت فى العصر الفاطمى موانئ البصرة وسيراف وصحار ، عقب تحول طريق التجارة البحرية مع الشرق الأقصى من الخليج إلى البحر الأحمر . وغدت عدن مركزاً رئيسياً لكل تجارة المحيط الهندى ، وقد فطن الفاطميون إلى ضرورة تأمين البحر الأحمر فتم لهم ذلك بقيام الدولة الصليحية (١٣) فى اليمن خلال الفترة من ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م إلى ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م (١٤) .

وقد ترتب على هذا الاستقرار السياسى للفاطميين فى مصر والحجاز واليمن تزايد ازدهار المنشآت التجارية والصناعية فى قوص وموانئ البحر الأحمر سواء من قبل الفاطميين أو التجار الكارمية (١٥) فى الوقت الذى لم تعد أسوان سوى مدينة تخزين فيها البضائع المخصصة للنوبة . ويحدثنا الإدريسى فى القرن ٦ هـ / ١٢ م عن تزايد هذا الازدهار فى قوص بقوله "مدينة كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات ودخل وخرج والمسافر إليها كثير والبضاعات بها نافقة والمكاسب رابحة والبركات ظاهرة ... ولها بقول طيبة وضروب من الحبوب كثيرة ... ولحوم .. طيبة المأكلة " (١٦) ، غير أن الأحوال التجارية والصناعية لم تلبث أن تأثرت فى نهاية العصر الفاطمى بسبب اضطراب أحوال مصر السياسية نتيجة الصراع بين شاور وضرغام . فى الوقت الذى اشتعلت فيه نار الحروب الصليبية (١٧) .

منشآت قوص التجارية والصناعية فى العصر الأيوبي :

استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يعيد إلى مصر الاستقرار السياسى (١٨) والاقتصادى فازدهرت تجارة البحر الأحمر ازدهاراً عظيماً ، وبلغت قوص أوج ازدهارها فى العصر الأيوبي

إداريًا واقتصاديًا وعمرانيًا وثقافيًا وفنيًا ، قال ابن جبير " وهذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم " (١٩) .

ويشير ابن جبير إلى فندق بقوص ينسب لابن العجمي ، حيث أورد ما نصه : " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية ، وهي روض كبير خارج المدينة " (٢٠) ، وهو الأمر الذي يتضح في ضوءه أن المدينة عرفت إلى جانب الأسواق العامرة في العصر الأيوبي نوعًا آخر من منشآت تجارية تمثل في الفنادق ، وفي اعتقادي أنها عرفت عمارة الفنادق في العصر الفاطمي مع اتساع وازدهار الحركة التجارية الداخلية والخارجية من جهة ، وتوافد الحجاج عليها من جهة أخرى ، حيث تعد الفنادق من المنشآت التجارية الهامة إلى خصصت للتجار وغير التجار الأجانب ، يدل على ذلك أن الفاطميين شيدوا العديد منها للتجار الإيطاليين وغيرهم ، إذ كان لكل جالية أجنبية فندق خاص ، وكانت عبارة عن منشآت ذات أفنية تشتمل على كنائس وأفران وغير ذلك من الملحقات (٢١) . وأغلب الظن أن تجار (٢٢) الكارم قد شيدوا أيضًا هذا النوع من المنشآت التجارية في العصر الفاطمي في قوص وبقيّة المدن التي نزلوا بها في مصر واليمن ، وكانت فنادقهم أيضًا ذات أفنية تشتمل على مساجد وغير ذلك من الملحقات ، خاصة وأنهم اتخذوا الإسلام أساسًا لوحدة طائفتهم ، وأرجح أنها جاءت على غرار الفندق الذي شيد في القسوطاط للكارم من قبل الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٢٣) .

ويذكر أحد (٢٤) الباحثين أن ابن جبير أمدنا بوصف لفندق ابن العجمي بقوص بما نصه " ريع كبير خارج المدينة " ، والواقع أن ابن جبير لم يقدم لنا وصفًا للفندق وإنما قدم لنا وصفًا للمنبة التي يقع بها بما نصه " وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية ، وهي روض كبير خارج المدينة " (٢٥) ، وهو ما يدل على أن الباحث قد جانبه الصواب في قراءة النص ، وفي النص تسجيل توثيق لمنشأة تجارية مندثرة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه على الرغم من كثرة ما ورد من نصوص تتعلق بأسماء الفنادق إلى شيدت بالقاهرة خلال العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية في المصادر التاريخية وكتب الجغرافيين والرحالة المسلمين إلا أننا لم نستدل على تكويناتها المعمارية سواء من حيث التخطيط أو الوحدات والعناصر المعمارية ،

حيث خلت هذه النصوص من الوصف المعماري لها من جهة ، ولم يبق قائماً منها شيء يمكن الاعتماد عليه في وصفها من جهة أخرى (٢٦) .

كذلك يحدثنا ابن جبير عن موضع يشغل مساحة عظيمة عرف بالبرز يقع قبلى قوص يجتمع فيه رجال الحاج والتجار ، حيث كان يتم السفر منه إلى عيذاب ، ويدل هذا الموضع من جهة ، ووجود الفندق بربض كبير عرف بالمنية من جهة أخرى على أن المدينة بلغت من النمو العمراني نتيجة الاستقرار السياسى والازدهار الاقتصادى درجة عظيمة بحيث توسعت فى امتدادات عمرانية جديدة .

ويصف لنا ياقوت الحموى فى بداية القرن ٧ هـ / ١٣م المدينة وصفاً رائعاً يؤكد وصف الرحالة ابن جبير ، حيث قال " وهى مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة سعيد مصر ... وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهى محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة ، وهى شديدة الحر " (٢٧) .

قوص فى العصر المملوكى :

يحدثنا ابن سعيد عن قوص ومنشأتها الدينية والمدنية خلال زيارته لمصر قبل عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م بقوله " وهى مدينة جليلة ... ذات ديار فائقة ، ورباع أنيقة ، ومدارس وربط وحمامات ، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال ، وبها البساتين والحدائق المستحسنة إلا أنها شديدة الحر ، كثيرة العقارب " (٢٨) .

ويصف لنا التجيبى المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م والذي زار مصر فى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م المنشآت التجارية بقوص المتمثلة فى الفنادق أو الخانات بقوله " وكان نزولنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق ... وبه ينزل التجار المدعوون بالأكارم ... وإليه يقصد الجمالون وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء " (٢٩) ، كما أمدنا بوصف معمارى للخان الذى نزل به بما نصه " وما رأينا قط خاناً أكبر منه ، وهو نوع حصن ، وكل نوع من مساكنه مستقل بنفسه غير محتاج إلى غيره وفى وسطه مسجد تصلى فيه الصلوات الخمس ، وله إمام راتب " (٣٠) ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوءه أن هذا الخان تميز بالضخامة والفخامة من الناحية المعمارية يشتمل على مسجد شأنه فى ذلك شأن بقية الخانات أو الفنادق التى شيدت من قبل الكارمية كما تقدم .

ويحدثنا أبو الفداء المتوفى ٧٣٢هـ / ١٣٣١م عن قوص بقوله " مدينة بالصعيد وليس بأرض مصر بعد الفسطاط مدينة أعظم منها وهي فرضة التجار من عدن ... وفرضة قوص قصير " (٣١) .

ويشير ابن فضل الله العمري المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م إلى ازدهار الحياة التجارية والصناعية بها وتعدد الفنادق بقوله " قوص أكبر مدينة بالصعيد وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز بعد مرورها بصحراء عيذاب وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة والحمامات والمدارس والبساتين والحدائق ومزارع الخضروات ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ذوى العقارات والأملأك وهواؤها فى غاية الحرارة " (٣٢) .

هذا ويصف لنا ابن بطوطة المدينة فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ / ١٤م بقوله " مدينة عظيمة لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة ، وأسواقها مونة ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهى منزل ولاية الصعيد " (٣٣) .

والواقع أن الأحوال التجارية قد تأثرت فى قوص فى بداية العصر المملوكى بسبب اضطراب الأحوال السياسية من جهة ، وفرض السلطان قطز المكوس على تجار الكارم من جهة أخرى . غير أن المدينة لم تلبث أن استعادت نشاطها التجارى بفضل سياسة الظاهر بيبرس ، حيث ألغى المكوس ، وربط المدينة بعيذاب بطريق البريد . وفى عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م أعاد استخدام درب الحج القديم مما أثر على الطريق الجنوى ، غير أن المدينة ظلت تزاوّل دورها التجارى والصناعى ، وهو الأمر الذى يتضح جلياً من خلال نص ابن بطوطة الذى تقدم ذكره (٣٤) .

وقد بدأت عيذاب فى الانتثار منذ عام ٨٣٠ هـ / ١٤٣٦م عندما عمد السلطان برسباى إلى الاهتمام بجدة والشروع فى تعميرها فى عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م . وخلال تلك الفترة وحتى نهاية العصر المملوكى ذكرت قوص فى صبح الأعشى (٣٥) ، وفى الخطط المقرية (٣٦) ، وفى زبدة كشف الممالك (٣٧) ، وفى الروض المعطار (٣٨) على سبيل المثال ، ويتطابق ما ورد عنها فى الروض المعطار وما أورده الأدرسى (٣٩) وتقدم ذكره .

المنشآت التجارية بقوص فى العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩ م : أولاً : الوكالات :

اندمجت الأعمال القوصية كلها بما فيها مدينة قوص فى ولاية جرجا فى العصر العثمانى ، وظلت كذلك حتى عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م ، حيث تبعت إقليم قنا لأول مرة باسم مأمورية قنا ، وأصبحت قاعدة لقسم قوص من تلك السنة ، وقد سعى مركز قوص من أول سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م (٤٠) .

هذا وقد أمدتنا الوثائق بالعديد من الوكالات بمدينة قوص فى القرن ١٣ هـ / ١٩ م ، بما يدل على ازدهار الحياة التجارية بالمدينة ازدهاراً كبيراً فى العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩ م . ومن هذه الوكالات وكالة ملك محمد أغاه (أنظر الوثيقة المرفقة فى نهاية البحث) بارون ورد ذكرها فى السجلات بما نصه " وأوقف جميع الوكالة الكائنة بناحية قوص إلى مسجد العارف الطواب وجعل الناظر عليها من بعده معتوقه سعيد " (٤١) ، وقد اتضح لى من خلال الزيارة الميدانية أن هذه الوكالة كانت تقع أمام مسجد الطواب ، غير أنها اندثرت حالياً وشيدت فى موضعها أبنية سكنية حديثة جارية فى وقف المسجد تقع فى شارع سيدى أحمد الطواب . (انظر الوثيقة الملحقه بالبحث) .

كذلك ورد فى الأشهاد السابق ذكر لوكالة أخرى بما نصه " وحدودها ... والشرقى وكالة أبى قرض " (٤٢) . كذلك أمدتنا السجلات بوكالة تقع بحارة الخولى جارية فى ملك الأمير رجب أغاه (٤٣) . غير أنه مما يؤسف له أن الوثائق التى بين أيدينا لم تقدمنا بوصف لهذه الوكالات يتناول طبيعة الوظيفة التى كانت تؤديها من جهة ، ووحداتها وعناصرها المعمارية وطبقاتها من جهة أخرى . ويذكر لنا على باشا مبارك وكالتين بمدينة قوص بما نصه " وبها وكالتين يبيت بهما الواردين ويربطون بهما مواشيهم ودوابهم " (٤٤) وقد ذكر جارسان وكالتين بقوص إحداهما تعرف بوكالة الوقف وترجع إلى العصر العثمانى ، حيث شيدت فى عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م ، غير أن هذه الوكالة اندثرت ولم نقف عليها ، ونتبين من خلال صورة (٤٥) قديمة لها أنها شيدت بالآجر تشتمل واجهتها العمومية على مدخل جاء من فتحة مستطيلة يتوجها عقد مستقيم من الخشب ، ثم يتوج المدخل عقد ثلاثى .

أما الأخرى (٤٦) فتعرف بوكالة بيت عودة وترجع إلى النصف الثانى من القرن ١٢ هـ / ١٨ م ، حيث جددت فى عام ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م ، وهى بحالة جيدة من حيث التخطيط

والعمارة ، وقد قمت بزيارتها ودراستها دراسة ميدانية ، وهى الدراسة التى يمكن عرضها على النحو التالى :

وكالة بيت عودة :

الموقع وتاريخ الإنشاء (شكل ٢)

تقع هذه الوكالة بشارع أبى العباس فى مواجهة الواجهة العمومية الجنوبية الغربية للجامع العمرى ، وتشرف على الشارع السالك من خلال واجهة رئيسية تقع فى الجهة الشمالية الشرقية . أما الجهات الثلاث الأخرى الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية فتحيط بها حالياً عمائر سكنية ، حيث يوجد درب فى طرفها الجنوبى . ويبدو أن هذه الوكالة كانت تشتمل على أربع واجهات تشرف على الطريق السالك ، إلا أنها نتيجة الزحف العمرانى فقدت ثلاث واجهات ، ولم يتبق سوى الواجهة الرئيسية . (لوحة ١) .

وقد عرفت الوكالة واشتهرت بوكالة بين عودة أو آل عودة ، فقد ورثها آل عودة . وتشتمل الوكالة على نص كتابى نتبين منه تجديدها فى ١٤ ربيع الأول من سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٣م) من قبل شخص يدعى أحمد عبد الله ، وهو الأمر الذى أرجح معه أن هذه الوكالة معاصرة لوكالة الوقف التى تقدم ذكرها ، أى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى .

الواجهة ومشمولاتها (لوحة ١)

قسم المعمار الواجهة التى تقدم ذكرها بالجهة الشمالية الشرقية إلى مستويين أحدهما سفلى والآخر علوى ، حيث ترتفع الواجهة بمقدار طابقين . يشتمل الطابق السفلى على كتلة المدخل العمومى الذى يتوجه عقد ثلاثى ، كما يشتمل فى القسم الشمالى منه الذى يقع على يمين الواقف أمام المدخل العمومى على نافذة مستطيلة مغطاة بمصبغات حديدية ، كذلك يشتمل فى القسم الجنوبى منه على حانوتين ثم نافذة تقع فى نهاية الطرف الجنوبى من الواجهة .

أما الطابق الثانى فيشتمل على سبع نوافذ مستطيلة كبيرة جاءت من مستويين تغشيها مصبغات حديدية ، وتشرف هذه النوافذ على الطريق السالك والجامع العمرى . وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية القاعات العلوية التى تقع بالطابق الثانى من الوكالة فى الجهة الشمالية الشرقية ، ثم تنتهى الواجهة بسور علوى شيد مع بقية أقسام الواجهة بالآجر ، وقد وجدت أثناء صعودى إلى السطح بقايا قاعة يبدو أنها شيدت حديثاً تقع فى الطرف الجنوبى من

الواجهة تشتمل على نافذتين منفصلتين إحداهما صغيرة فى المستوى السفلى ، والأخرى كبيرة فى المستوى العلوى ، وتتوسط سور الواجهة نافذة تشرف من خلالها الواجهة على الطريق السالك والجامع العمرى .

كتلة المدخل (لوحة ٢) :

تقع كتلة المدخل فى الطرق الشمالى من الواجهة فهى لا تتوسط الواجهة ، ويعزى ذلك إلى اشتغال الواجهة على حانوتين و نافذة فى القسم الجنوبى منها والذي يقع على يسار الواقف أمام المدخل العمومى ، ويتوج المدخل عقد ثلاثى بديع يعد من أهم خصائص هذه الوكالة من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، وتفصيل ذلك أنه يشتمل على فتحة مستطيلة يغلق عليها فردة باب خشبى كبير صفح تصفيحات كاملاً بالصفائح المعدنية التى تثبت بمسامير مكويجة ويعلو الفتحة عقد مستقيم من الخشب يشتمل على نص تجديد الوكالة الذى تقدم ذكره والذي نفذ بالخط النسخ بأسلوب الحفر البارز ويتوج كتلة المدخل عقد ثلاثى بديع جاء على غرار عقد وكالة الوقف الذى يتوج مدخلها كما تقدم ، وعلى ما يبدو فإن هذا العقد يعد من أهم سمات عمارة الوكالات فى صعيد مصر فى العصر العثمانى ، فقد وجدته مدخل وكالة مدينة قفط التى ترجع فى اعتقادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجدته فى وكالتين بمدينة قنا إحداهما تعرف بوكالة أبى السرور (لوحة ٣) ، والأخرى تعرف بوكالة آل القط (لوحة ٤) ويرجعان إلى العصر العثمانى وبالتحديد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما وجد هذا العقد يتوج بعض المداخل فى منازل قوص القديمة مما يدل على أنه من أهم خصائص المنشآت المدنية خلال تلك الفترة .

وقد نفذ العقد بالآجر داخل إطار مستطيل يزدان فى داخله بأشكال هندسية بديعة التكوين قوامها أشكال نجمية ثمانية تكون ستة صفوف أفقية وأحد عشر صفًا بشكل رأسى ، وقد وزعت هذه الصفوف فى الحالتين بشكل متناغم على المساحة المخصصة لها بحيث جاء العقد لوحة فنية رائعة ، كذلك تتجلى لنا روعة الزخرفة فى الوحدات والأشكال الهندسية البديعة التى تفصل بين الأشكال النجمية سواء فى التنفيذ أو اللون ، وقد كرر الفنان عنصر الأشكال النجمية فى كوشتى العقد بشكل زخرفى جميل ، وفصل بينها بأشكال هندسية تكاد تماثل مثيلاتها داخل العقد غير أنها هنا تتميز ببساطتها حيث جاءت بهيئة مربعات تتصل ببعضها من خلال معينات صغيرة تربط بينها وبين الأشكال النجمية فى أسلوب زخرفى بديع التكوين ، والمدخل فى مجمله يمثل لوحة فنية جميلة ، وتتفق زخارف هذا المدخل المنفذة بالآجر مع زخارف

المداخل التى تقدم ذكرها بوكالات قفط وقتا من حيث الاعتماد على الأجر فى تشكيل الزخارف الهندسية مع الاختلاف فى التفاصيل والتكوينات الزخرفية من وكالة لأخرى . (لوحة ٣ ، ٤) .

هذا وقد أوجد الفنان الكتابات التى تعلو فتحة المدخل مباشرة فى العتب الخشبي والتى تقدم ذكرها فى ستة أجزاء ، بحيث جاء كل جزء على هيئة مستطيلة تنتهى فى طرفيها بعقد منكسر ، وقد نفذت هذه المساحات المستطيلة بشكل أفقى ، وتعلو أربعة أجزاء منها فتحة المدخل ، وقد وضع كل جزء داخل إطار مستطيل يزدان بزخرفة هندسية مجدولة بديعة التكوين ، وتفصل بين كل جزء وآخر زخرفة هندسية عبارة عن دائرة تزدان فى مركزها بشكل نجمى من ثمانية أضلاع أوجده الفنان داخل شكل نجمى آخر بنفس التصميم إلا أنه نفذ بحجم أكبر ، ثم حدد الشكلين بإطار دائرى يزدان من خارجه بشكل ترس بديع التكوين ويحدد هذا الترس من الخارج إطار دائرى آخر يمثل الحد الخارجى للتكوين الهندسى بأكمله . (لوحة ٢) .

وقد نفذت التكوينات الزخرفية الهندسية على واجهات ومداخل وكالات قفط وقتا بهيئة تقرب كثيراً من تلك التى نفذت أعلى وعلى جانبي مدخل وكالة آل عودة بقوص ، مما يدل على مظهر من مظاهر الوحدة الفنية بين وكالات صعيد مصر فى العصر العثمانى .

الوكالة من الداخل (الدور الأرضى) :

يتوصل إلى داخل الوكالة من المدخل الرئيسى ، حيث نصل إلى دركاة المدخل التى تنخفض أرضيتها عن أرضية الطريق بمقدار ثلاث درجات ، وهى من مساحة مربعة يغطيها سقف خشبي ، وأرضيتها من الآجر ، تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل يشرف على الطريق السالك من خلال نافذة صغيرة تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة الرئيسية ، كما تشتمل فى جانبها الجنوبى الشرقى على دخلتين ، ونصل من خلال هذه الدركاه إلى ساحة مستطيلة الشكل تشتمل فى جانبها الشمالى الغربى على حاصل . كما تشتمل فى الجهة الجنوبية الشرقية على سلم يؤدي إلى الدور الأول أو العلوى ، ونصل من خلال هذه الساحة المستطيلة إلى حاصلين بجوار السلم أحدهما يقع خلف الحانوت المجاور للمدخل العمومى ويمتد من الشمال إلى الجنوب فى ساحة مستطيلة والآخر يقع خلف الحانوت الذى فى نهاية الواجهة من الطرف الجنوبى ، ويمتد رأسياً من الشرق إلى الغرب ملاصقاً لجدار الوكالة الجنوبى الشرقى .

هذا وتفضى هذه الساحة المستطيلة من خلال مدخل يقع على محور المدخل العمومى إلى صحن الوكالة أو القسم الغربى منها (لوحة ٥) ويتكون هذا القسم من مساحة مستطيلة تمتد أفقياً من الشمال إلى الجنوب تنقسم إلى صحن مربع مكشوف تفتح عليه ستة حواصل من الجهتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بواقع ثلاثة حواصل فى كل جهة يعلوها سقف خشبى يمتد من الشرق إلى الغرب يمثل بمر الدور العلوى حول الفناء ، وقد أوجد المعمار فى الجهة الجنوبية الغربية مساحة مغطاة بسقف خشبى من براطيم خشبية تشرف على الصحن من خلال كمر خشبية ضخمة ترتكز فى الوسط على عمود أسطوانى من الآجر ، وفى الجانبين على الجدارين الشمالى والجنوبى للحواصل (لوحة ٥) ، وتفتح الحواصل على هذا القسم المغطى بواقع حاصلين فى الجهات الثلاث الجنوبية الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الشرقية ، أى أن الجدار الشمالى الغربى للصحن والقسم المغطى يشتمل على خمسة حواصل تقابلها خمسة حواصل فى الجدار الجنوبى الشرقى أما الجدار الجنوبى الغربى فيشتمل على حاصلين ، وتميز الحاصل الذى يقع فى الطرف الجنوبى من الجدار الجنوبى الغربى باشتماله على نافذة تفتح على الدرب الذى يقع خلف الوكالة ، وهو الدرب الذى تقدم ذكره عند ذكر الموقع ، وقد أوجدها المعمار لإضاءة وتهوية الحاصل ، وهى فتحة مستطيلة تتسع من الداخل وتضيق من الخارج (لوحة ٦) ، كما أن الحاصل الذى يقع فى نهاية الضلع الجنوبى الشرقى من الجهة الغربية يشتمل أيضاً على نافذة تفتح على نفس الدرب ، لذا فهو يتسم بالإضاءة والتهوية ، وهو الأمر الذى أرجح معه أن جميع الحواصل التى تقدم ذكرها كانت تشتمل على فتحات للإضاءة والتهوية ، إلا أن نتيجة الزحف العمرانى على الوكالة وملاصقة الأبنية الحديثة لها سدت هذه الفتحات ، لذا فإن جميع الحواصل مظلمة تماماً ولا توجد بها تهوية .

وقد جاءت هذه الحواصل فى معظمها من ساحة مستطيلة يغطيها سقف خشبى من براطيم خشبية أو من جذوع النخل ترتكز عليها ألواح خشبية أو أسقف خشبية من الجريد. (لوحة ٧).

الدور الأول (العلوى) (لوحة ٨) :

يتوصل إليه من الساحة المستطيلة التى تلى الدركاه ، حيث نصل من خلال سلم يتكون من ثلاث قلابات إلى الدور الأول ، وتفصيل ذلك أن القلبة الأولى من السلم تنتهى بباب خشبى تعلوه قطعة مستطيلة من الخشب تزدان بأشكال مستطيلة مفرغة فى الخشب بهيئة مسننة فى حوافها بطريقة بدیعة ، ثم نصل إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات ، تؤدى إلى دهليز يغطيه سقف خشبى ، وقد أوجد المعمار فى نهايته الشرقية دورة المياه ، ثم نصل من خلال القلبة الثالثة إلى الدور الأول ، ويشتمل هذا الدور على قاعات وزعت على النحو التالى :

ثلاث قاعات فى الجهة الشمالية الشرقية تشرف على الطريق السالك والجامع العمرى من خلال نوافذ تقدم ذكرها عند ذكر الواجهة العمومية ، أما الجهة الشمالية الغربية فتشتمل على أربعة مداخل ، ويتوصل من المدخل الذى يقع فى الطرف الشرقى إلى قاعة مستطيلة تؤدي بدورها إلى قاعة شبه مربعة تشرف على الجامع العمرى من خلال نافذتين على غرار قاعات الجهة الشمالية الشرقية التى تقدم ذكرها ، وينتهى الضلع الشمالى الغربى من الجهة الغربية بقاعة شبه مربعة يغطيها سقف خشبى تشتمل فى جدارها الشرقى على طاقة مصممة كما تشتمل على مدخل فى نهاية جدارها الشمالى يؤدي إلى قاعة ، كذلك تشتمل فى جدارها الغربى على مدخلين يفتح كل منهما على قاعة .

أما الجهة الجنوبية الغربية فتشتمل على مدخلين يؤديان إلى قاعدتين ، تتوسطهما دخلة مستطيلة مصممة .

وتشتمل الجهة الجنوبية الشرقية على خمس قاعات ، وهى فى معظمها مع قاعات بقية الجهات مستطيلة الشكل تغطيها أسقف خشبية على غرار حواصل الطابق الأرضى ، ويشرف ممر الطابق الثانى على الفناء من خلال دعامتين من الآجر فى الجانبين الشرقى والغربى ، ويتوصل من سلم يقع فى نهاية الجهة الجنوبية الشرقية من الجهة الشرقية إلى سطح الوكالة ، حيث نصعد من خلال قلبة أولى تنتهى ببسطة خشبية بديعة التكوين من تسعة ألواح خشبية مصممة بحيث تتخللها فتحات الإضاءة والتهوية لإضاءة وتهوية السلم من أسفل (لوحة ٩) ثم نصل من خلال هذه البسطة إلى القلبة الثانية وهى من ثلاث درجات تنتهى ببسطة خشبية على نفس النمط السابق ، أما القلبة الثالثة فقد جاءت من سبع درجات ، والسلم من الخشب والآجر يحيط به درابزين من الآجر ، ثم نصل من خلال هذه القلبة الأخيرة إلى السطح (لوحة ١٠) .

ثانيًا : الأسواق :

إضافة إلى الأسواق التى تقدم ذكرها فى نصوص الجغرافيين والرحالة يذكر لنا على باشا مبارك ما نصه " وبها سوق كبير دائم يباع فيه الأقمشة وأصناف العقاقير والأبزار واللحم والخضر ونحو ذلك " (٤٧) والواقع أن المدينة أسهمت بدور فعال فى تجارة مصر الداخلية والخارجية بسبب كثرة منتجاتها الزراعية والصناعية ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى ازدهار وانتشار الأسواق بالمدينة ، وقد أشارت السجلات إلى العديد منها أذكر منها على سبيل المثال سوق الغلال (٤٨) .

المنشآت الصناعية بقوص :

أولاً : المعاصر :

عرفت قوص العديد من الصناعات فى العصر العثمانى ، فقد أمدنا كتاب وصف مصر بعدة صناعات فى المدينة تتمثل فى مصانع الفخار ، وصناعة الجير ، وصناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، وصناعة الحصر من الحلفا أو من سعف النخيل ، وصناعة الزيت من بذور الخس والقرطم وغير ذلك من الصناعات (٤٩) .

وتعد المعاصر من الوحدات التى نعتبرها منشآت صناعية . وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار صناعة السكر من جهة والزيت من جهة أخرى ومن هذا النوع الأخير بقيت لنا معصرة بقوص لعصر الزيت ، وهى بحالة جيدة وتعمل حالياً ، حيث وجدنا نوعين من المعاصر الأول أمدتنا به المصادر كما تقدم ، والثانى أمدتنا به الوثائق ، ومن النوع الأخير معصرة (٥٠) تقع بحارة الأروام ملك ورثة القاضى عبد الرؤوف النحريرى ، ومعصرة (٥١) ورثة الخولى تقع بحارة القرملاى ، ومعصرة (٥٢) تقع بحارة التجار قديماً المعروفة بحارة أولاد هوارى وهى فى ملك ورثة عبد الحق ومعصرة بحارة الهيم ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت معصرة معد لعصر الزيوت كايئة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة الهيم ... مشتملة على حجر وقاعدة وجب وقرصة تحتوى على ثلاث مسايح " ، وغير ذلك من المعاصر التى أمدتنا بها الوثائق دون ذكر لمشمولاتها (٥٣) .

ثانياً : الطواحين :

تعد الطواحين من الوحدات الإنتاجية الى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، وقد أمدتنا الوثائق بالعديد منها فى قوص ، مما يدل على ازدهار هذه الصناعة ضمن ما عرف وازدهر من صناعات عديدة بالمدينة ، ومن الطواحين التى وردت فى الوثائق طاحونة (٥٤) ورثة سلمان على ، وطاحونة (٥٥) بحارة أولاد هوارى ، وطاحونة (٥٦) البرعى ، وطاحونة ورد وصفها الوثائقى " طاحونة كاملة الآلة معدة لطحن الدقيق كايئة بالحارة المذكورة (حارة السبع أشراف) " (٥٧) .

ثالثاً : قاعات الحياكة :

تعد قاعات الحياكة من منشآت النسيج التى يمكن وصفها بالمنشآت الصناعية ، فقد ازدهرت هذه الحرفة ازدهاراً كبيراً فى قوص ، يدل على ذلك على ما أمدتنا به الوثائق من ذكر

للعديد من قاعات الحياكة بالمدينة ، إلا أن النصوص الوثائقية التى بين أيدينا لم تصف لنا هذه القاعات وصفاً كاملاً ، كما لم ترد بها الآلات المستخدمة للحياكة ، كذلك أنواع الملابس ، ومن قاعات الحياكة التى أمدتنا بها سجلات المحكمة الشرعية على سبيل المثال قاعة ورد وصفها الوثائقى " جميع كامل قاعة قائمة البنا والجدران كاينة بمدينة قوص بالحارة الفوقانية بحارة العارف بالله تعالى سيدى محمد البهجورى معدة لصناعة الحياكة قديماً (٥٨) ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل بيت قاعة معدة لصناعة الحياكة " (٥٩) ، وتقع هذه القاعة بحارة الحدادين ، وقاعة ورد وصفها الوثائقى " فى كامل قاعة معدة للحياكة كائنة بحارة الفراشى " (٦٠) .

طوائف الحرف وطبقة التجار :

أمدتنا سجلات المحكمة الشرعية ببعض الطوائف الحرفية بمدينة قوص خلال العصر العثمانى والقرن ١٣ هـ / ١٩ م ، أذكر منها طائفة القصابين . ونتعرف أيضاً من خلال الوثائق على اسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل محمد إبراهيم القصاب شيخ قصابين ناحية قوص " (٦١) ، وقد وردت بعض أسماء من أفراد هذه الطائفة فى السجلات أذكر منها على سبيل المثال ثلاثة أسماء وردت فى أشهاد واحد بما نصه " حضر الرجل محمد إبراهيم القصاب والرجل مصطفى على القصاب والرجل غلاب فتىحى القصاب الجميع من أهالى قوص " (٦٢) .

كذلك أمدتنا الوثائق بطائفة الطحانين واسم شيخ هذه الطائفة بما نصه " تحرر سند على الرجل خليل إبراهيم شيخ الطحانين بقوص باستلام مبلغ مائة قرش ... " (٦٣) .

كما أمدتنا الوثائق بطائفة المعصرانية بما نصه " اسلم الرجل عبد العال زارع أحد المعصرانية بقوص الرجل حسن بدرير المذكور من أهالى جزيرة مطيرة ... " (٦٤) .

هذا وقد وردت عدة أسماء مقرونة بصنائعهم مثل " الرجل أبا بكر صالح القهوجى " (٦٥) " الرجل الحاج محمد أحمد عبد الله الخياط " (٦٦) ، " الذمى حنا حبشى الفراجى " (٦٧) ، " مصطفى عبد الله النجار " (٦٨) ، محمد محمد حجازى النحاس " (٦٩) ، « مقاريوس بن عبد رب المسيح الصايغ " (٧٠) ، مما يدل على أن المدينة كانت تضم العديد من طوائف الحرف الأخرى إضافة للحرف التى تقدم ذكرها .

وقد أمدتنا السجلات بذكر لحارات ارتبطت بالحياة التجارية وبعض الحرف الصناعية ، ومن هذه الحارات حارة التجار أو درب التجار ، وقد عرفت هذه الحارة بحارة الأمير الحاكم صديق

مقبول ، ثم عرفت بحارة أولاد هوارى فقد ورد : " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديماً والآن تعرف بحارة الأمير الحاكم صديق مقبول " (٧١) ، ثم ورد " بالحارة الفوقانية بحارة التجار قديماً المعروفة الآن بحارة أولاد الهوارى " (٧٢) .

كما أمدتنا السجلات بحارة السويقة (٧٣) ، كذلك أوردت لنا بعض الحارات التى عرفت ببعض الحرفيين القاطنين بها مثل " حارة الحدادين " (٧٤) ، و " حارة الجمالة " (٧٥) ، وهى حارة أصحاب الجمال الذين كانوا يتحملون مسئولية الأحمال .

أما فيما يتعلق بطبقة التجار فى قوص فقد أمدتنا السجلات بأسماء العديد منهم مما يلقى الضوء على ازدهار الحركة التجارية بالمدينة ، ومن التجار المسلمين الذين ورد ذكرهم بالسجلات " الرجل حماده صالح كيلانى " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص " (٧٦) ، والشيخ عبد الله أحمد عبد الجواد " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار الناحية " (٧٧) ، والرجل مصطفى صالح كيلانى " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " ، وورد فى موضع آخر " الشيخ مصطفى صالح كيلانى " (٧٨) ويتضح من اسمه أنه كان شقيقاً للتاجر حماده صالح كيلانى الذى تقدم ذكره ، و " الشيخ محمد خليل حسن نمرك " الذى وصف بأنه أحد تجار قوص " ، وقد وصف فى موضع آخر بـ " الرجل العاقل البالغ الرشيد محمد خليل حسن نمرك " (٧٩) .

ومن أهل الذمة أمدتنا السجلات بعدد من التجار أذكر منهم " الذمى بطرس سعيرا " الذى وصف بأنه " أحد تجار قوص " (٨٠) ، و " الذمى جودة مندليون " الذى وصف بأنه " أحد عمد تجار قوص " ، وقد ورد فى موضع آخر " المعلم جودة مندليون " (٨١) .

والواقع أنه من خلال عرض بعض طوائف الحرف وطبقة التجار يمكن القول أن الطائفة الحرفية تعنى " مجموعة من الأشخاص تمارس نفس النشاط الحرفى فى المدينة ولها إطار تنظيمى يكفلها " (٨٢) ، وقد كان هناك طبقة عليا من الأسطوات أو المعلمين ، وهى تتكون من المحنكين فى الطائفة، ويطلق عليهم أكابر الطائفة (٨٣) ، وهؤلاء كان يتكون منهم ما يسمى بالمجلس أو المجمع وأهم وظائفهم مساعدة الشيخ فى إدارة الطائفة ، وأعضاء الطائفة كان يمكنهم عزل الشيخ ، كما كان لهم باتفاق منهم إقرار الشيخ .

الخاتمة :

وبعد ، فإننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألفت الضوء على المنشآت التجارية والنصاعية بمدينة قوص ، وهى المنشآت التى تنوعت ما بين فنادق وخانات وأسواق ومعاصر وطواحين وقاعات حياكة .

الهوامش

١ - قوص من المدن القديمة ، ذكرها جوتيه فقال أن اسمها المصرى Hat Hor واسمها المدنى Qes ، واسمها الرومى Apollonopolis Vicus ، واسمها القبطى Qous ، ومنه اسمها العربى قوص . مزيد من التفاصيل ، انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٨٩ .

٢ - اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧م : البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م ، ص ٩٣ .

٣ - مزيد من التفاصيل عن قفط انظر : د. حسن خضيرى أحمد : مدينة قفط وتطورها السياسى من الفتح العربى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد ٤ ، ١٩٩٥م ، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٤ - المقرئى (تقي الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ج ١ ، ص ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٥ - اليعقوبى : البلدان ، ص ٩٣ : الاصطخرى (ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ، ص ٤٢ : المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧م : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة مديولى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤١١ هـ / ١٩٨١م ، ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٦ - ناصر خسرو علوى : سفرنامه ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م ، ص ص ١٣٢ - ١٣٤ .

٧ - مزيد من التفاصيل عن الأحوال السياسية فى مصر والعالم الإسلامى انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٩٦م ، ج ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

٨ - المقرئى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، رمضان ١٤١٠ هـ . أبريل ١٩٩٠م ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

٩ - يسلك الحجاج من هناك بركة عيذاب عبر وادى العلاقى إلى عيذاب ، وعبر وادى الحمامات إلى القصير ومنها إلى جدة أو ينبع ، فلم يعد الطريق البحرى الشمالى من القلزم إلى الجار أو جدة ، ولا الطريق البحرى من أيلة آمنًا لقوافل الحجاج . د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ص ٢١ - ٢٣ .

- ١٠ - القلقشندي : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ .
- ١١ - البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليفن واندري فبرى ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م ، ص ٦١٨ .
- ١٢ - د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، عالم المعرفة ، ١٢٨ ، الكويت ، ذو الحجة ١٤٠٨هـ / أغسطس / آب ١٩٨٨م ، ص ١١٥ ؛ محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى (عن دراسة للباحث الفرنسى جان كلود جاراسان) ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٦٧ .
- ١٣ - مزيد من التفاصيل عن الدولة الصالحية وعلاقاتها بالدولة الفاطمية انظر : د. عبد الله كامل موسى عبده : دراسة معمارية مقارنة للعناصر الدينية فى عصر الدولة الصليحية فى اليمن والفاطمية فى مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص ٣٣ - ٤٤ .
- ١٤ - لمزيد من التفاصيل عن موانئ الخليج وميناء عدن انظر : د. شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٤١ - ٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨م) ، عالم المعرفة ، ١٥١ ، الكويت ذو الحجة ١٤١٠هـ / يوليو - تموز ١٩٩٠م ، ص ١٧٤ - ١٨٣ .
- ١٥ - كان الكارمية أشهر تجار المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وكانت هذه الطائفة الدعامة والركيزة الأساسية للبناء الاقتصادى فى مصر الإسلامية ويحدثنا القلقشندي عن وظيفة " نظر البهار الكارمى " وموضعها التحدث على واصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتارة تضاف إلى الخاص وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان . القلقشندي : صبح الأعشا ، ج ٤ ، ص ٣٢ ؛ د. آمال أحمد العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ٣٧ - ٣٨ ؛ د. شوقى عبد القوى : تجارة المحيط الهندى ، ص ٢٦٩ ؛ د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ٣٥ - ٣٦ .
- ١٦ - الإدريسى (أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مج ١ ، ص ١٢٨ .
- ١٧ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م ، ص ١١ - ١٣ .
- ١٨ - مزيد من التفاصيل عن استقرار مصر السياسى والاقتصادى فى عهد صلاح الدين انظر : د. سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١٣٠ - ١٤٠ .

١٩ - ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد) : رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الاثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٧ .

٢٠ - ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢١ - د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ص ١٣٩ - ١٤٠ : د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ص ص ٤٣ - ٤٦ .

٢٢ - من التجار الذين ورد ذكرهم بقوص من طائفة الكارمية محمود بن الكويك ، الزين محمد بن محمد بن عبد الرحمن النخعى القوصى ، محمد بن مسلم بن أحمد البالىسى الأصل ، د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٥-٣٦ .

٢٣ - د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ١٤١ .

٢٤ - د. رفعت موسى : الوكالات والبيوت الإسلامية ، ص ٤٧ .

٢٥ - ابن جبير : رحلة ، ص ٣٧ .

٢٦ - مزيد من التفاصيل عن الفنادق انظر : د. آمال العمرى : المنشآت التجارية ، ص ١٤٥ .

٢٧ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .

٢٨ - أورد لنا هذا النص القلقشندى نقلاً عن ابن سعيد . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ .

٢٩ - أورد د. محمد محمد الكحلاوى هذا النص عند دراسته لآثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين . مزيد من التفاصيل انظر : د. محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

٣٠ - د. محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية ، ص ١٤٧ .

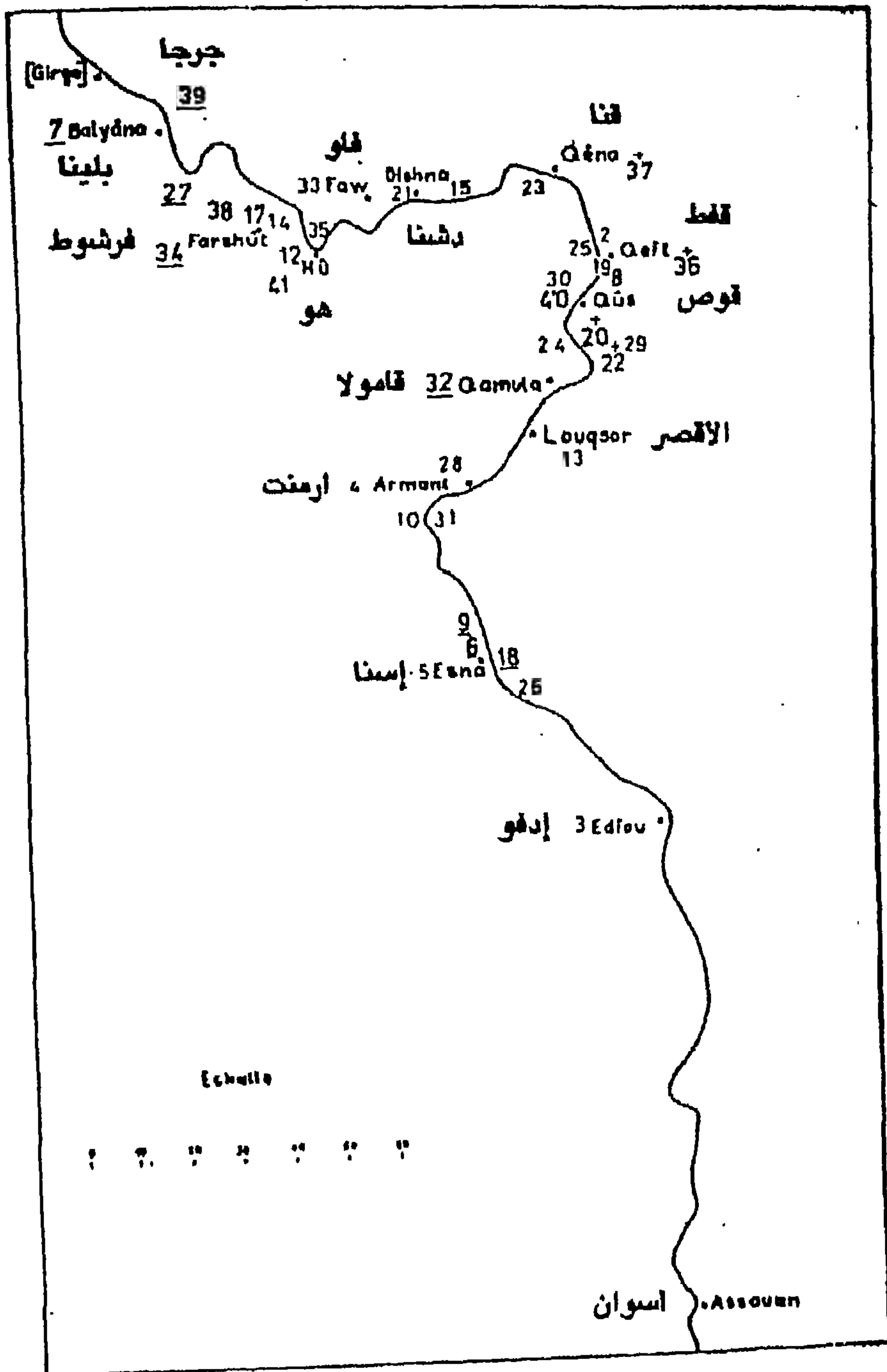
٣١ - أبى الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م : تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ص ص ١١٠ - ١١١ .

٣٢ - أورد هذا النص على باشا نقلاً عن ابن فضل الله العمرى . مزيد من التفاصيل : على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٥هـ ، ج ١٤ ، ص ١٢٩ .

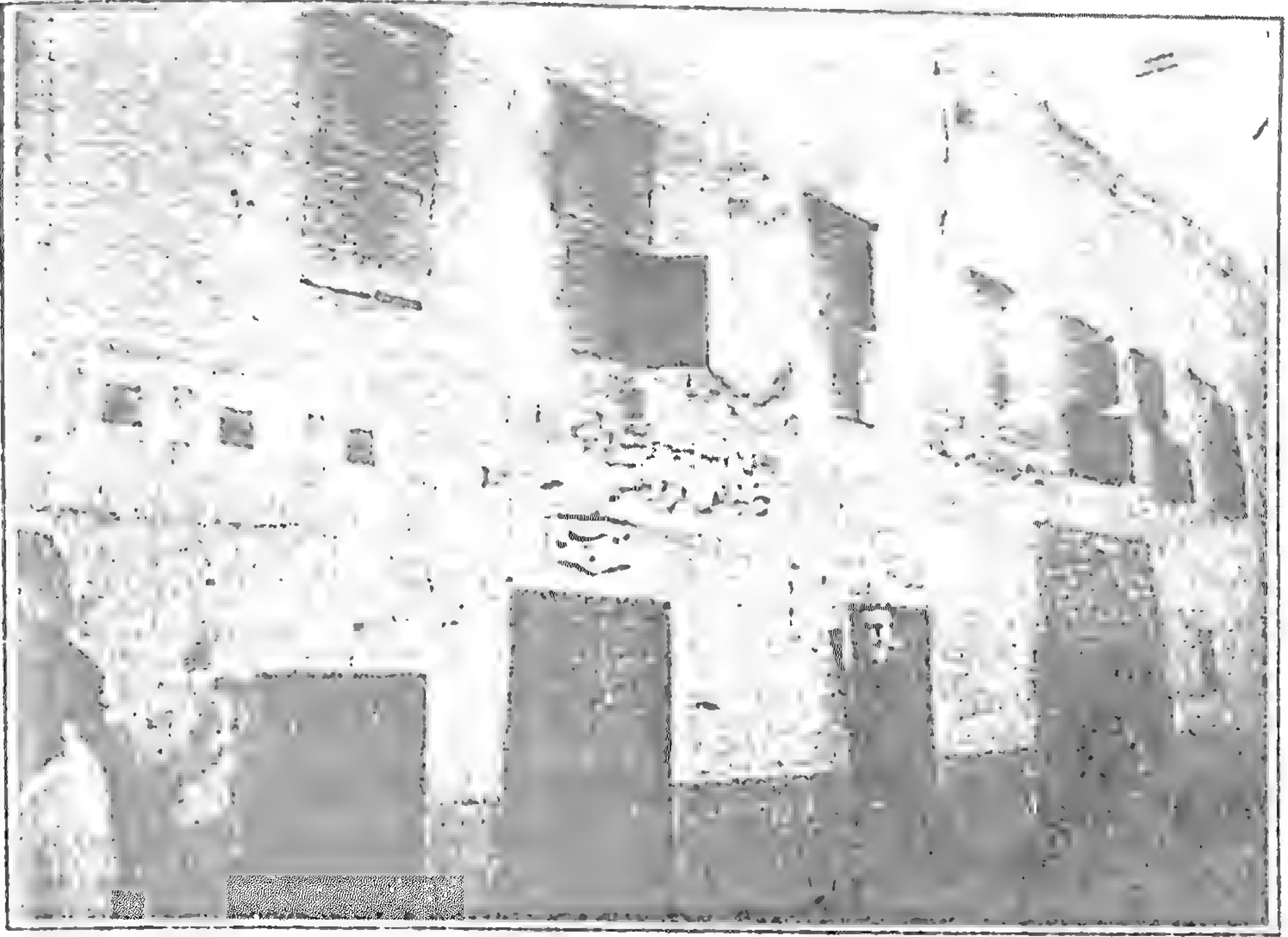
- ٣٣ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ص ٤٨ .
- ٣٤ - د. السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ، ص ص ٣٧ - ٦١ .
- ٣٥ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ .
- ٣٦ - المقرئ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقرئية ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .
- ٣٧ - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ م ، ص ١١٨ .
- ٣٨ - الحميري (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م ، ص ٤٨٤ .
- ٣٩ - الإدريسي : نزهة المشتاق ، مج ١ ، ص ١٢٨ .
- ٤٠ - محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ص ١٨٩ .
- ٤١ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ صفر ١٢٧٧ - ١٢ شوال ١٢٧٧) ، إشارات ١ ، ص ١ .
- ٤٢ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، إشارات ١ ، ص ١ .
- ٤٣ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٢ ربيع ١٢٧٨ - ١٢ ربيع أول ١٢٧٩) ، إشارات ٣ ، ص ١ .
- ٤٤ - علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ١٤ ، ص ١٣٤ .
- ٤٥ - محمد محمود علي حسن : قوص ، ص ٣٦٦ ، لوحة رقم ٣١ .
- ٤٦ - محمد محمود علي حسن : قوص ، ص ٣٨٤ .
- ٤٧ - علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ١٣٤ .
- ٤٨ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، إشارات ٣ ، ص ١ .
- ٤٩ - علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ص ١٦٧ - ٢٢٩ : د. إلهام محمد علي ذهني : مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، تاريخ المصريين (٢٥٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م ، ص ص ١٧٩ - ٢٥٨ .
- ٥٠ - سجل رقم ٣ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية (الفترة التاريخية ٢٠ جمادى آخر ١٢٧٣ - ١٥ محرم ١٢٧٤) ، إشارات ١٦٠ ، ص ٢٨ .
- ٥١ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٥ محرم ١٢٧٤ - ١٩ شوال ١٢٧٤) ، إشارات ٢٥٢ ، ص ١٥ .

- ٥٢ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٣ شوال ١٢٧٧ - ٢٠ - صفر ١٢٧٨) ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .
- ٥٣ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٤ ربيع آخر ١٢٨٠ - ٢٩ صفر ١٢٨١) ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .
- ٥٤ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٨٣ ، ص ٥٢ .
- ٥٥ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .
- ٥٦ - سجل رقم ١٣ ، محكمة قوص ، اشهاد ٥١ ، ص ٢١ .
- ٥٧ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢١٦ ، ص ص ٢١ - ٢٢ .
- ٥٨ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٧٤ ، ص ٢٧ .
- ٥٩ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٢٠ شوال ١٢٧٤ - ٣ - صفر ١٢٧٥) ، اشهاد ٨٥ ، ص ٧ .
- ٦٠ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ صفر ١٢٧٦ - ٢٢ - صفر ١٢٧٧) ، اشهاد ١٦٠ ، ص ١٢ .
- ٦١ - سجل رقم ٢ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٠ جماد أول ١٢٧٣ هـ - ٢٥ محرم ١٢٧٤) ، اشهاد ٢٧ ، ص ٥ .
- ٦٢ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٣ .
- ٦٣ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٤٩ ، ص ٢٥ .
- ٦٤ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠٧ ، ص ١٩ .
- ٦٥ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .
- ٦٦ - سجل رقم ١٢ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٩٠ ، ص ٥٢ .
- ٦٧ - سجل رقم ١٦ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ١٥ ربيع أول ١٢٧٩ - ٢٠ ربيع أول ١٢٨٠) ، اشهاد ٦٤ ، ص ٢١ .
- ٦٨ - سجل رقم ١٨ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٨ ، ص ٥ .
- ٦٩ - سجل رقم ٢٠ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٩ ربيع آخر ١٢٨١ - ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ٢٣٩ ، ص ١٨ .
- ٧٠ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ٦٨ ، ص ٦ .

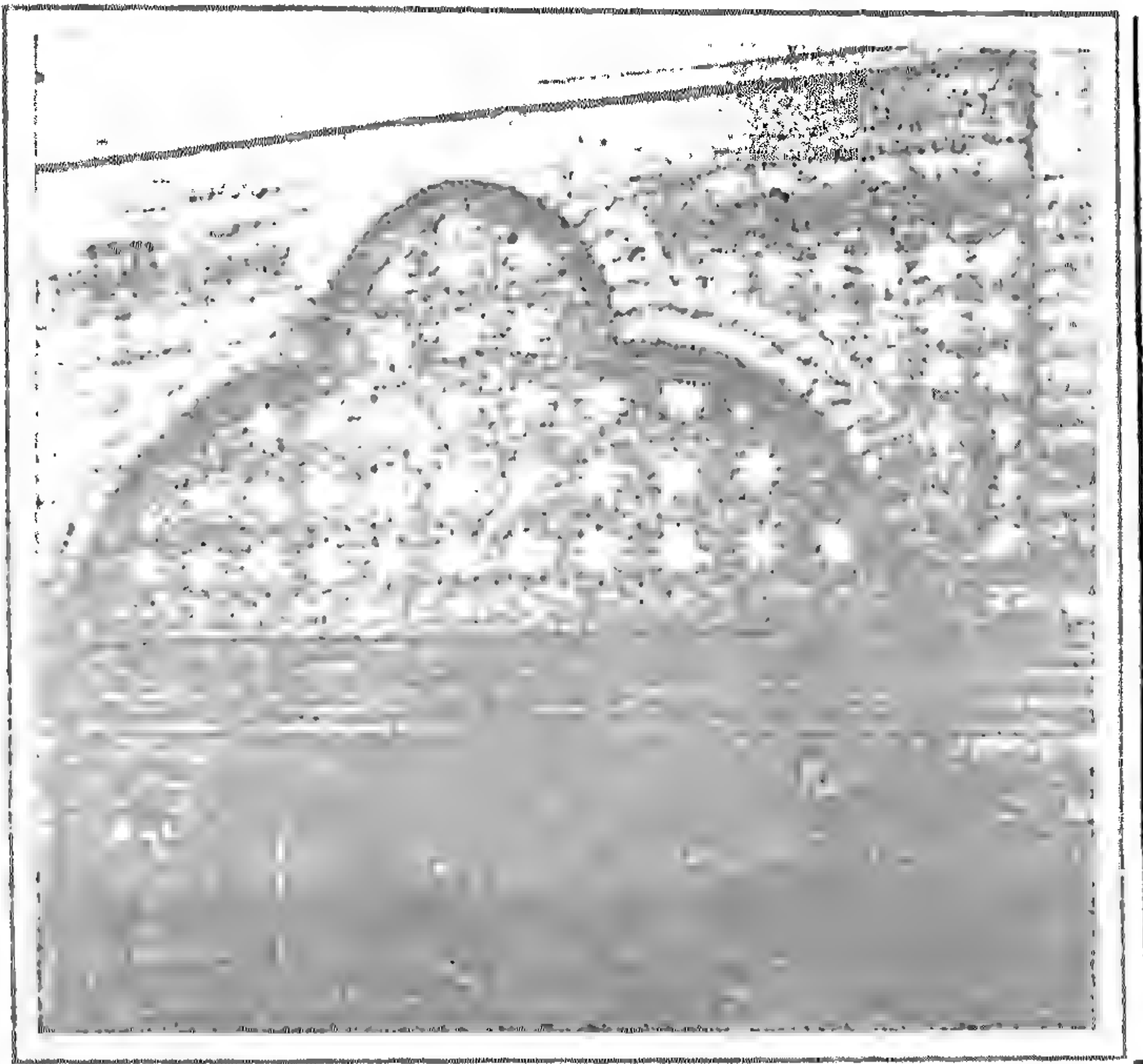
- ٧١ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣١٧ ، ص ٢١ .
- ٧٢ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٧٠ ، ص ١٥ .
- ٧٣ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٩٦ ، ص ٣١ .
- ٧٤ - سجل رقم ٦ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٦٥ ، ص ٧ .
- ٧٥ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٣ ، ص ٢ .
- ٧٦ - سجل رقم ٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٣٤ ، ص ١٣ ؛ سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٥ ، ص ٢ .
- ٧٧ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٧ ، ص ١ .
- ٧٨ - سجل رقم ١٠ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٥٢ ، ص ٣٨ ، سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٠ ، ص ٣ .
- ٧٩ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٢ ، ص ٣ ، سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، دار الوثائق القومية ، (الفترة التاريخية ٧ ربيع آخر ١٢٨١ - ١٧ ربيع آخر ١٢٨٢) ، اشهاد ١٩ ، ص ٤ .
- ٨٠ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٣٢ ، ص ٣ .
- ٨١ - سجل رقم ١٥ ، محكمة قوص ، اشهاد ٢٦٢ ، ص ٢٥ ؛ سجل رقم ١٩ ، محكمة قوص ، اشهاد ١٠ ، ص ٣ .
- ٨٢ - مزيد من التفاصيل عن الأسواق والحرف انظر : د. حسين مصطفى رمضان : طوائف الحرف في العصر العثماني ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ . Raymond (A.) : Une Liste des Corporations de Metiers au Caire, Arabica, 1801, T.IV, 1957, pp. 154 - 155 .
- ٨٣ - انظر عن لقب معلم : د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ص ١١٠٨ - ١١١٠ ؛ د. حسين رمضان : طوائف الحرف في العصر العثماني ، ص ٦٤ ، هامش ٢ ؛ Raymaond (A.): Artisans et Commer Conts au Caire. Au XVIII e Siecle 2, Tomes, Dames, 1973, p. 545 .



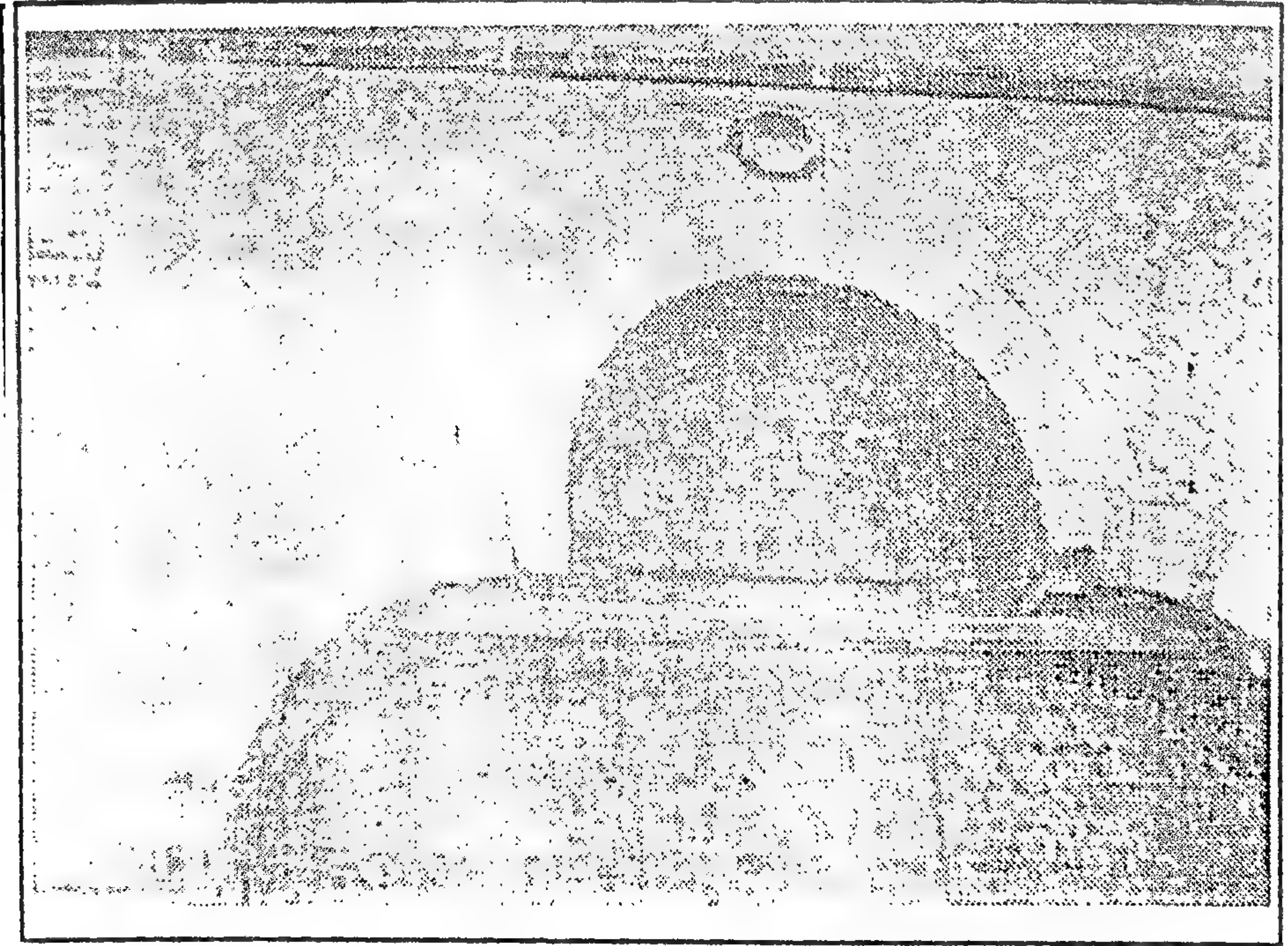
(شكل ١) خريطة تبين موقع مدينة قوص (محمد محمود علي حسن)



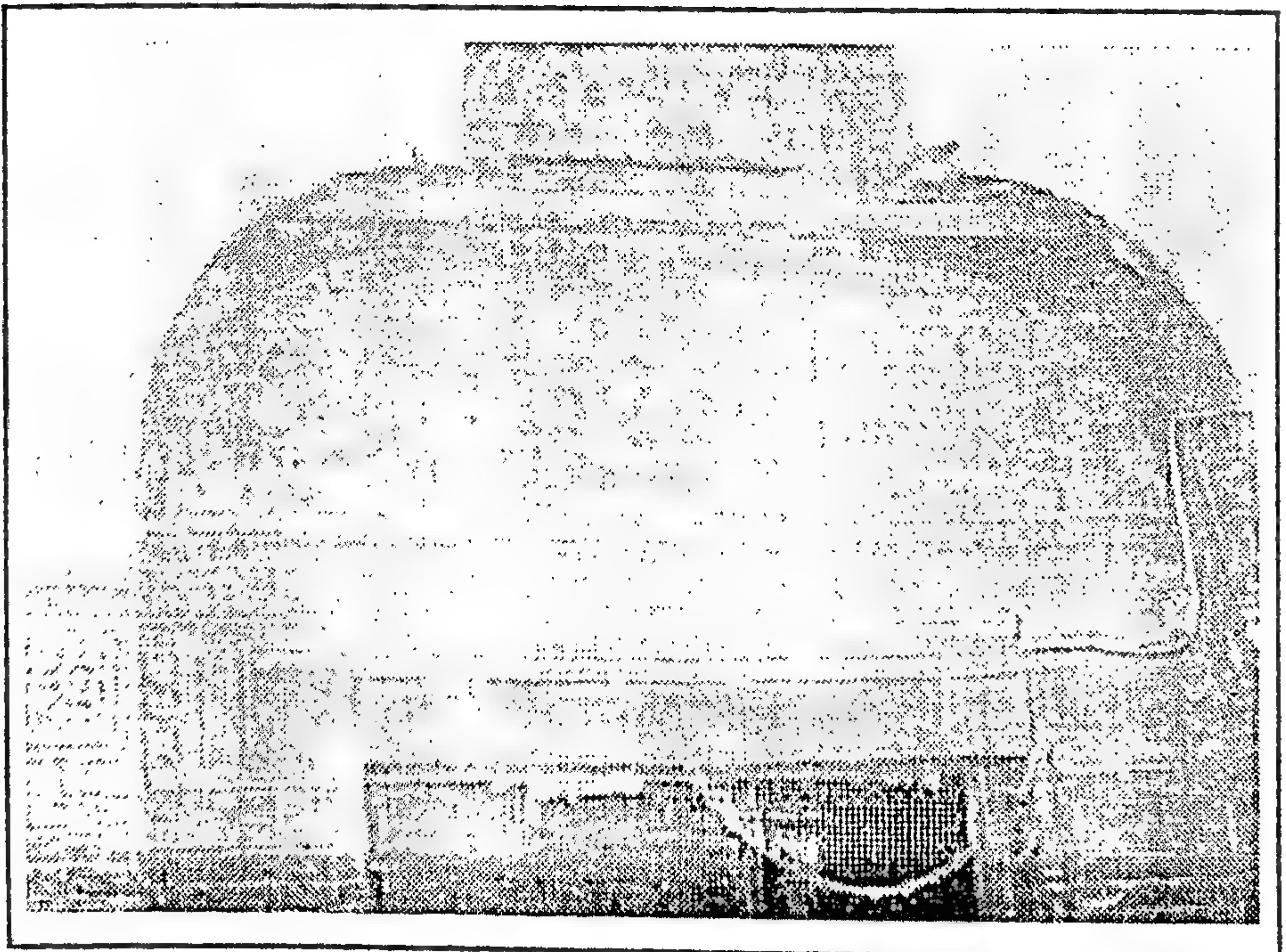
(الوحة ١) : الواجهة الرئيسية لوكالة بيت عودة



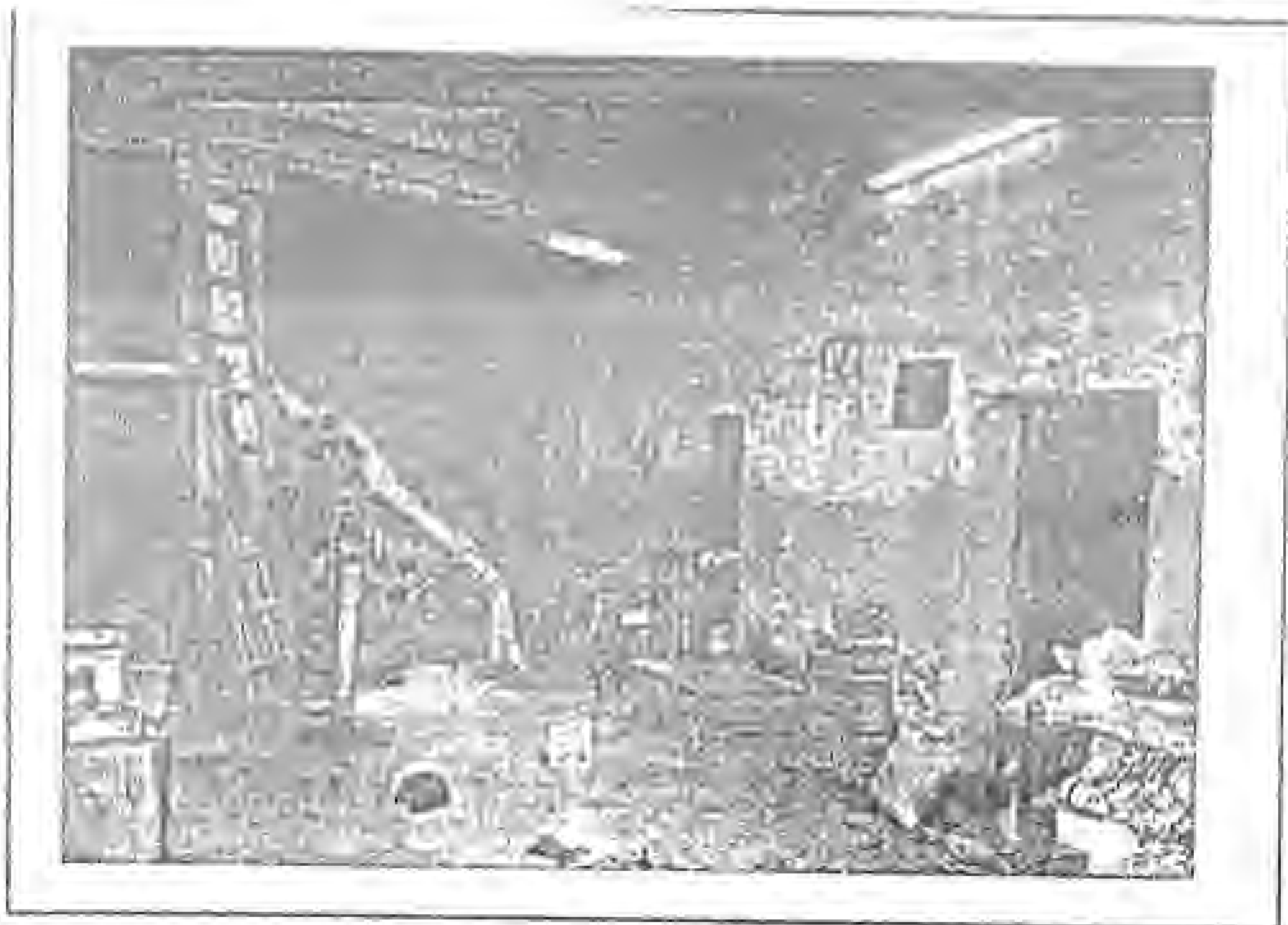
(الوحة ٢) : المدخل الرئيسي لوكالة آل عودة



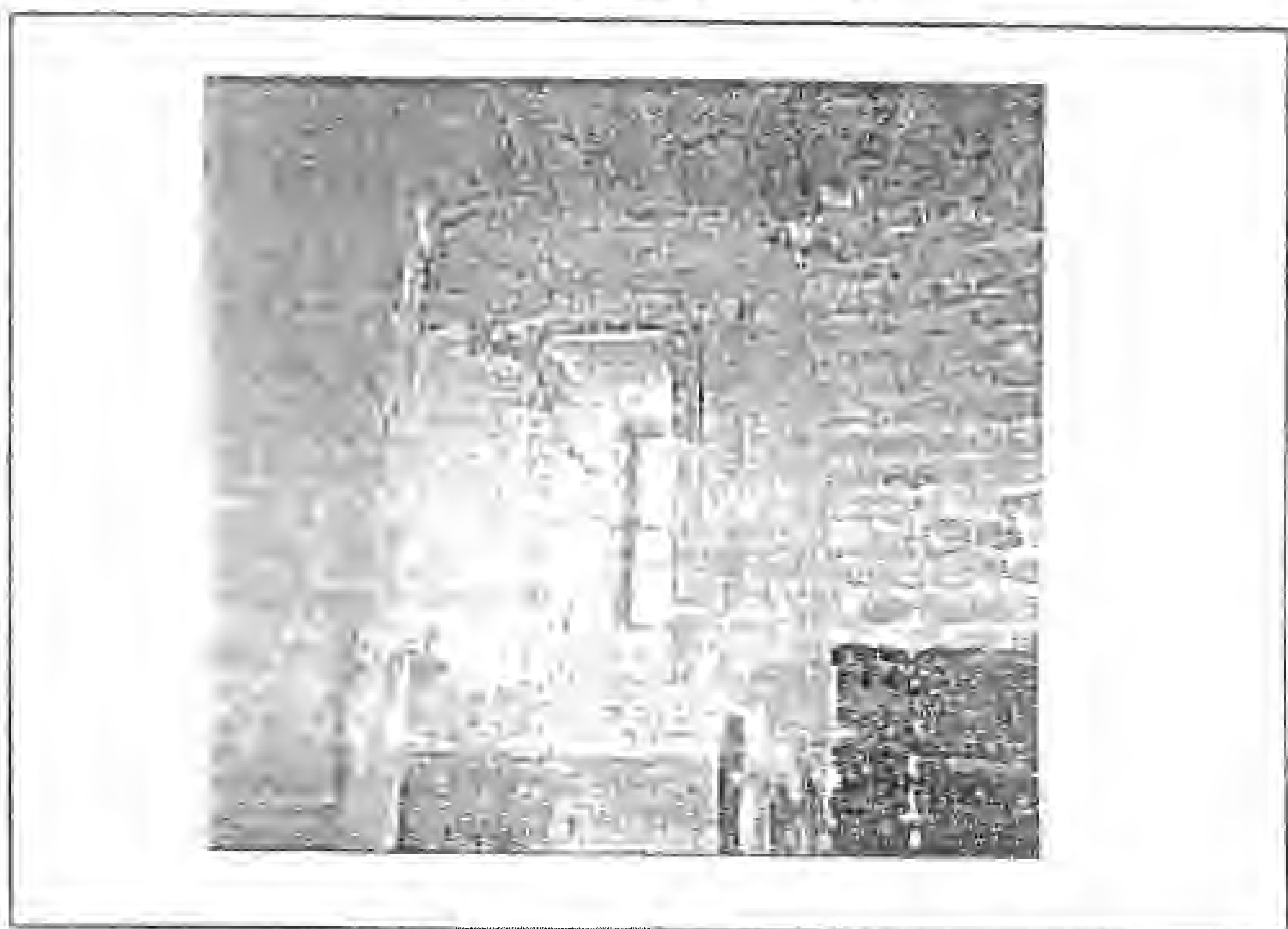
(الوحة ٣) : مدخل وكالة أبي السرور بمدينة قنا



(الوحة ٤) : مدخل وكالة آل القط بمدينة قنا



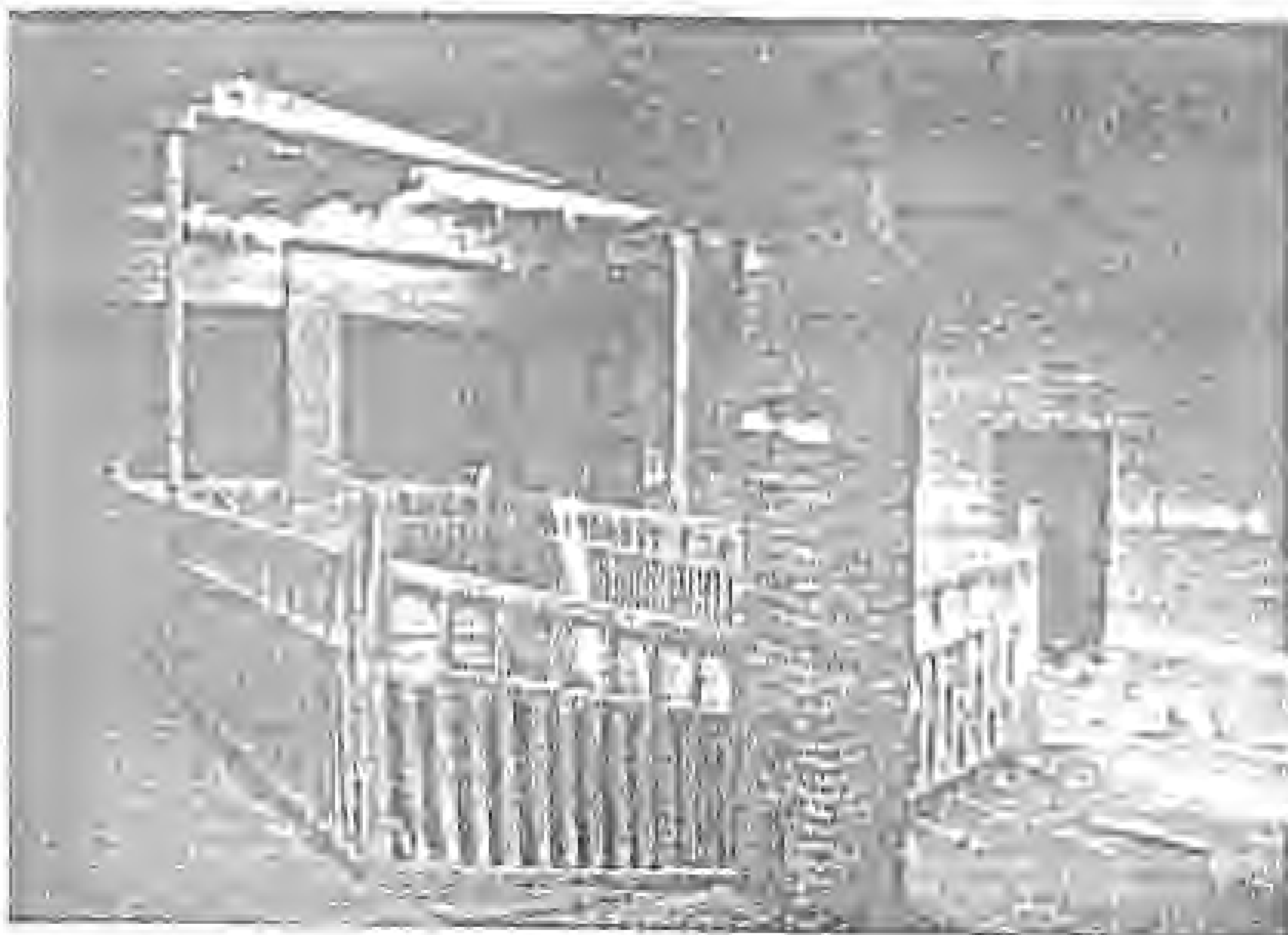
(الوحة ٥) : الدور الأرضى لوكالة آل عودة



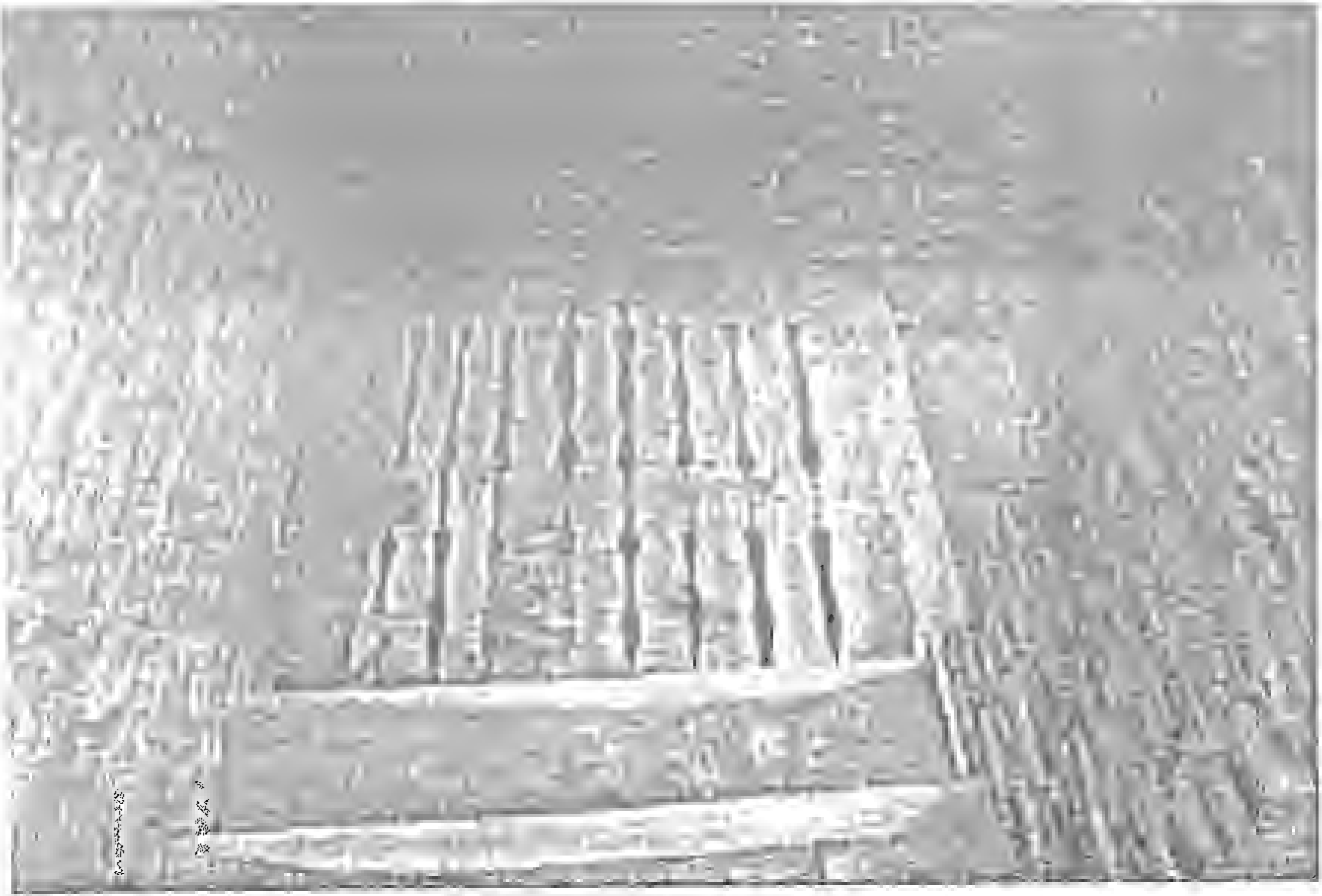
(الوحة ٦) : نافذة حاصل بالدور الأرضى لوكالة آل عودة



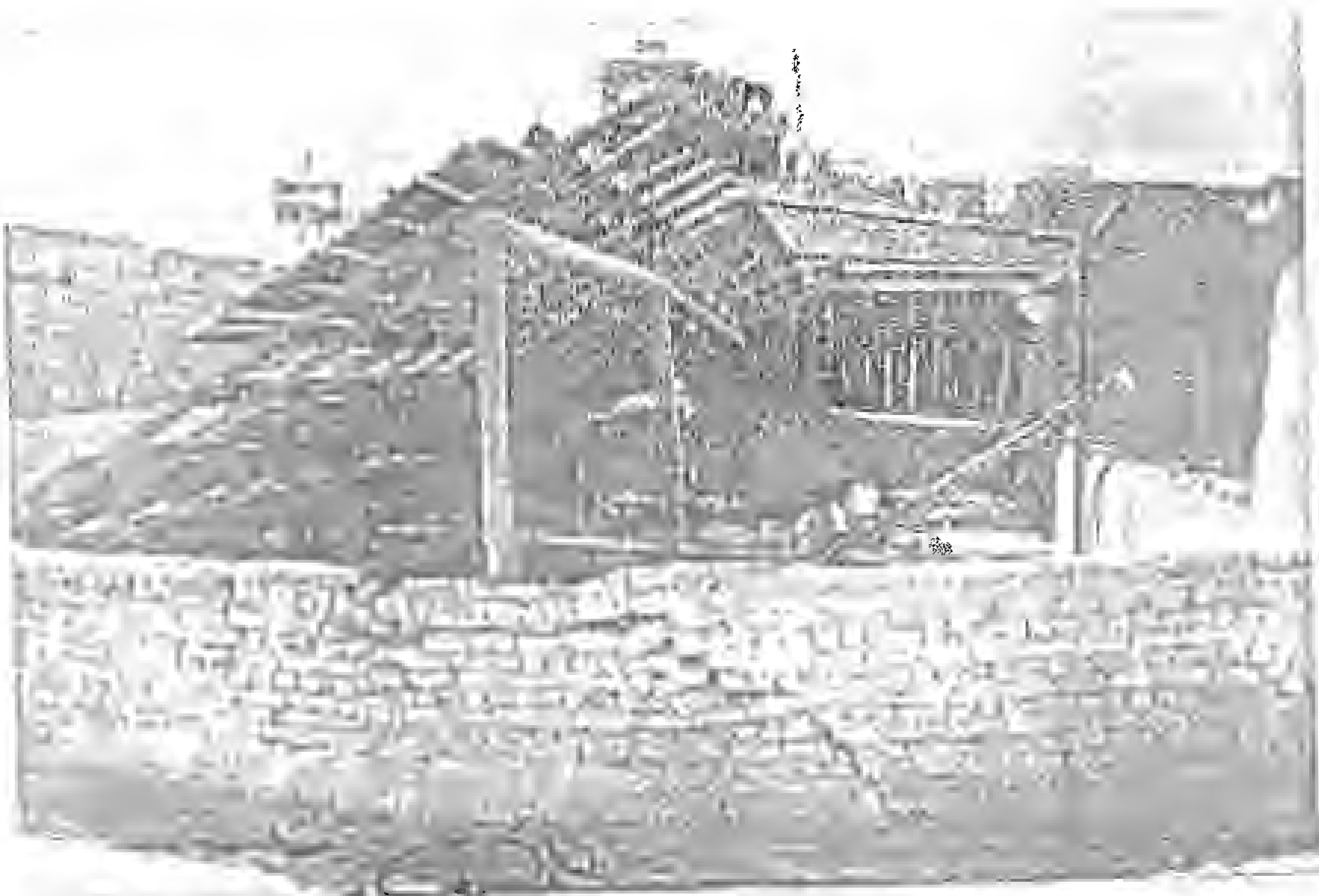
(لوحة ٧) : نموذج من الأسقف الخشبية في وكالة آل عودة



(لوحة ٨) : الدور الأول في وكالة آل عودة



(لوحة ٩) : السلم العلوى المؤدى إلى السطح فى وكالة آل عودة



(لوحة ١٠) : سطح وكالة آل عودة

بایع و مصالحه اعیان بر روی		
۴۸۸	بایع	
۳۰	دلاب خشب	۱
۵	کرسی قدیم	۱
۱۰	فلل شریاب	۵
۵	قلعه شریاب	۱
۵	شماره دهان بدم	۱
۵	اکلیم بدم	۱
۵	مرس فرشتن	۱
۱۰	مخادر	۱
۵	نام فرشتن	۱
۱۰	صندوق خشب	۱
۵	کرسی اکله	۱
۹۰	سجاده مستوی	۱
۸۰	اکلیم قدیم	۱
۵	سایان خب	۱
۵	مرس قدیم	۱
۵	شمعه چنبله	۴
۱۰	صندوق خب	۱
۱۰	طبله عکس	۲
۵	ایرونخاس	۱
۵	سرخ کبله	۱
۱۰	بند قیبه	۱
۵	نوارم جدید مسی	۵
۱۰	کرسی خب	۲
۵	مخارت خب	۲
۱۰	فلان خب	۲
۱۰	لوح خب	۱۰
۲۰	ارومنه لایه	۷
۸۰	نرسی بلدی	۲
۵۰	جامه	۱
۱۰	عاج	۱
۱۰۵	صندوق حصه لفظ	۶
۵	لعدن نخاس	۱
۵	طایفه شرب	۱
۱۰۵	صنیه نخاس	۱
۱۵	صوف شعر	۱
۷۰	طقم عود فضا	۱
۵۰	مغول قلل فضا	۳
۱۰۰	طراوی جز فضا	۱
۵	کنکمه قهوه	۱
۵	کنکمه قهوه	۱
۲۰۷	قراونخاس ط	۹
۴۸۸	بایع	



۷۵/۷۷

[illegible]

١٠٠٠

رقم	اسم	ملاحظات
١	أحمد بن محمد بن أحمد	١١٩١٦
٢	أحمد بن محمد بن أحمد	٢٠٠٤
٣	أحمد بن محمد بن أحمد	٦٠٠
٤	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
٥	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
٦	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
٧	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
٨	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
٩	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١
١٠	أحمد بن محمد بن أحمد	٩٠١

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...
في سنة ١٠٠٠ هـ...

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامي (*)

بعض أضواء جديدة على :

العلاقات التجارية بين مصر والصين في عصر دولة سلاطين المماليك

ترجع علاقة الصين ببلاد العرب إلى أمد بعيد - قبل الإسلام - حيث كانت التجارة بين الصين والهند من جهة وموانئ البحر المتوسط من جهة أخرى في أيدي العرب حينذاك^(١) ، كذلك كانت علاقة الصين بالمسلمين علاقة قديمة ، إذ من المعروف أن الإسلام دخل الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحري الذي كانت تسلكه السفن التجارية^(٢) ، ولهؤلاء التجار الفضل في أن يشتد عود الإسلام ببلاد الصين .

وقد عرفت مصر في المراجع الصينية باسم " هاي - سي " ، أي بلاد غرب البحر ، ووصفت بأن منها يخرج نهر يصب في بحر عظيم^(٣) ، كما كانت الإسكندرية معروفة لديهم باسم " كسند " ، وكانت البضائع تصدر من مصر إلى الصين عن طريق البحر الأحمر ، كما أن مدينة كانتون الصينية كانت معروفة في المصادر العربية باسم " خانقو " وهي من أعظم مراكز التجارة في الهند الصينية^(٤) . وما يؤكد اتصال مصر ببلاد الصين منذ القدم ، وجود

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي .

بعض الزخارف القبطية ذات المسحة المصرية على الرسوم والفنون البوذية ، مما يثبت أن الفنون القبطية المصرية وصلت تلك البلاد (٥).

ولا غرو أن تتوطد الروابط السياسية والعلاقات التجارية بين كلا الدولتين بيد أن العلاقات التجارية كانت أوطد من الروابط السياسية على مر عصور مصر الإسلامية ، ولكن الوضع اختلف فيما بعد ، فى أواخر العصور الوسطى عندما توثقت عرى المحبة وأواصر الصداقة بين سلاطين دولة المماليك بمصر وأباطرة دولة المغول بالصين ، وخاصة فى عهدى كل من أسرتى مينج المغولية الصينية ، وبنى قلاوون المملوكية المصرية ، فكان أوج ازدهار البعثات الدبلوماسية والعلاقات السياسية (٦). ومما لاشك فيه أن تلك العلاقات قد ساهمت مساهمة فعالة فى انتعاش ونمو النشاط التجارى بين كل من الدولتين الصينية والمملوكية ، وارتبط ذلك بميناء عيذاب الذى كان يعد من أهم مراكز التجارة بالبحر الأحمر فى عصر دولة سلاطين المماليك ، وبخاصة فيما تتعلق بتجارة دولة الصين وأيضاً الهند واليمن (٧). وترجع أهمية هذا الميناء إلى أنه كان أكثر الموانئ أمناً على السفن لقلة الشعب المرجانية التى كانت تنبت فى قاع البحر الأحمر حوله ، فضلاً عن عمق وغزارة مياهه . ومن ثم فقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق التجارية أمناً للتجار والملاحين (٨) ، علاوة على ذلك فقد كان أيضاً من أكثر الطرق التجارية أمناً بين الشرق والغرب (٩) لانسداد معظم طرق التجارة العالمية بسبب حركة المغول التوسعية منذ القرن ٧ هـ / ١٣ م ، بحيث لم يبق من الطرق الآمنة إلا الطريق المار بأراضى السلطنة المملوكية ، وهو طريق عيذاب ، قوص ، الإسكندرية أو دمياط (١٠).

وقد تدفقت أحمال توابل تجارة الشرق الأقصى من البهار والفلفل (١١) والقرفة وغيرها لتصل عبر طريق البحر الأحمر إلى ميناء عيذاب ، ثم تنقل فى القوافل البرية إلى ميناء قوص ، ومن هناك تحمل فى النيل على مراكب الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة (١٢) ، تلك التى ترد إليها " متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازى " ، وهنا تكتمل حلقة التجارة العالمية عبر البحر الأحمر النيل - البحر المتوسط (١٣).

وقد لعب الدور الرئيسى فى هذه التجارة تجار الكارم أو الكارمية (١٤) ، وهم كما عرفهم (ذكرهم) المقرئى (١٥) " فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الوارد إلى مصر دون غيرهم من الدول ، من الهند والشرق الأقصى " ، أى أنهم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق بين المحيط الهندى وبين البحر الأحمر ومصر (١٦).

وخلاصة القول فإن هذه الطائفة أو تلك الفئة كان بداية ظهورها فى مصر فى العصر
فاطمى ، وتزايدت أهميتها أيام الأيوبيين والمماليك مما أدى إلى أنهم كانوا أشهر تجار
لمحيط الهندى والبحر الأحمر أواخر القرنين ٧ - ٨ هـ / ١٣ - ١٤ م ، وأوائل القرن ٩ هـ /
١٥ م ، وقد كان هؤلاء التجار يحتكرون تقريباً التجارة مع الهند والشرق الأقصى (١٧) ،
ريكفى أنهم تعلموا استعمال إبرة المغناطيس فى الملاحة البحرية من التجار الصينيين ، وعن
طريقهم نقلت للعرب (١٨) ، مما ساعد على زيادة الرواج التجارى . وكان لهذا أثره فى إثراء
دولة سلاطين المماليك ، كما قاموا بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب مما نمت مكانتهم
التجارية وأصبحوا يمثلون الرأسمالية التجارية آنذاك (١٩) .

وقد اتخذ تجار الكارمية فى العصر المملوكى ، من مدينة قوص (٢٠) مركزاً لنشاطهم
الواسع ، فغدت تلك المدينة المهمة فى صعيد مصر سوقاً تجارياً واسعاً للمنتجات الصينية
والهندية ، وهناك فى قوص كون تجار الكارمية نقابة خاصة بهم ، وذلك للحفاظ على كيانهم
التجارى ، حيث هيمنوا أو سيطروا على تجارة التوابل والفلفل والبخور فى عصر دولة المماليك
البحرية وخاصة إبان عهده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى والسلطان المنصور قلاوون ،
وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك ، وأطلق عليه رئيس
الكارمية (٢١) ، ولا غرو أن نعرف أن هذه الطائفة وتلك الجماعة كانت شديدة الارتباط ببعضها
البعض مدعومة برابطة المصاهرة ، وأن مصر كانت هى المركز الرئيسى لهم (٢٢) .

وقد شهد إقليم قوص أكبر حركة تجارية لتجار الكارم فى عصر دولة سلاطين المماليك حيث
كان سوقاً لتاجرهم التى حفلت بمنتجات أفريقيا الوسطى والمغرب واليمن والحبشة والهند
والصين (٢٣) . وهكذا صار أهم مركز تجارى نهري فى مصر ، لوقوعه عند نهاية طريق القوافل
الممتد ما بين عيذاب والنيل (٢٤) (شكل ١) ويؤكد ذلك المقرئى (٢٥) ، فى أن قوص لعبت
دوراً كبيراً منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى عن طريق تجار الكارم فيقول:
«استمرت بضائع تجارة الكارم تُحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين
وسبعمائة- أى سنة ١٣٥٨م- وتلاشى أمر قوص من حينئذ» .

ومما هو جدير بالذكر أن إقليم قوص تبوأ مكانة عظيمة فى صعيد مصر منذ العصر
الفاطمى حتى العصر المملوكى ، حيث كان والى هذا الإقليم يعهد إليه بحكم الوجه القبلى كله ،
وهو يلى الوزير فى الرتبة تقريباً ويحكم تحت نفوذه مناطق ومديريات عديدة (٢٦) .

كذلك كان يقع على مسئوليته تأمين الطريق التجارى للكارمية ، وحفظ الثغور ، والاهتمام بالأسطول فى هذا الجزء الكبير من الوادى لأنه باب مكة للحجاج ، وباب التجارة مع اليمن والحجاز والشرق الأقصى . وظل ذلك ردحاً كبيراً من الزمن (٢٧) ، وقد زار مدينة قبرص الكثير من الرحالة، وذكرها العديد من المؤرخين وكتب عنها الجغرافيون فأجمعوا على أنها مدينة متسعة المرافق ، كثيرة الأسواق لكثرة الصادر منها والوارد إليها من التجار من كل صوب ، وحذب، من شرق العالم الإسلامى ومغربه من أقصاه إلى أدناه .

هذا بالإضافة إلى أنها ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين وإليها عودتهم ، فهى محط الرحال ومجتمع الرفاق ، فضلاً عن أنها مدينة تجارية عظيمة تقع على البر الشرقى للنيل، ذات مباني كثيرة يسكنها العلماء والتجار وذوى الأموال (٢٨).

وقد أدرك المستشرقون الفرنسيون (٢٩) فى أوائل القرن ١٣هـ / ١٩م ، وكذلك ١٤هـ / ٢٠م مكانة هذه المدينة وأهميتها الاقتصادية والتجارية على مستوى صعيد مصر ، ودورها الحضارى على مر العصور الإسلامية وخاصة العصر المملوكى، عصر الازدهار السياسى والرواج التجارى مع مختلف أقطار العالم الإسلامى (٣٠).

وهكذا كان لموقع مدينة قوص المتميز على النيل أثره الذى جعلها تزدهر اقتصادياً وتنتعش تجارياً وتعمر سكانياً ، وينشئ بها تجار الكارم الفنادق والخانات والوكالات (٣١) على نفقتهم الخاصة، لكى تتم فيها صفقات بيع التوابل والسلع الأخرى وأيضاً لمبيتهم وسكناهم (٣٢)، وقد اهتم سلاطين المماليك البحرية بهذه المنشآت التجارية لخدمة تجار الكارم، فأقاموا العديد منها على شاطئ النيل والكثير على المدن الساحلية مثل دمياط وقوص وجدة وعيذاب وعدن وزبيد (٣٣).

ويُعد عصر الناصر محمد بن قلاوون وأولاده من أهم عصور دولة سلاطين المماليك التى يتجلى فيها نشاط تجار الكارم على أرض قوص ، تلك المدينة التى لعبت دوراً تجارياً مهماً فى تجارة الشرق الأقصى بين الصين وبلاد العراق والشام ومصر (٣٤).

وحفاظاً على النشاط التجارى لمدينة قوص ، صدر مرسوم سلطانى يوضح ويؤكد واجب ودور والى تلك المدينة تجاه تجار الكارمية ، جاء فيه : «وأكرم مقدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك، أنك أول ما قدمناه من المكارم فهم سماء كل نادى، ورفاق كل ملاح وحادى، ولا بد أن يتحدث السمار وتتداول بينهم الأسعار ، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم

ومننا حلية أعناقهم، ومنحنا سبباً لاستجلاب رفاقهم ، فهم من مواد الارفاق وجواد ما يحمل من طرف الآفاق (٣٥).

ولا غرو أيضاً أن يعمل السلطان الناصر محمد بن قلاوون على تأمين الملاحة والتجارة فى شمال البحر الأحمر وجنوبه من الخطر، ويسعى فى سبيل ذلك لجذب التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، يشهد على ذلك المنشور الرسمى الذى أذيع من قبل السلطان:

«... ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفيائها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة لمن فطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر والمقيم بها فى ربيع دائم وخير ملازم، ويكفيها أن بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه .. فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة فى الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلده طيبة ، فى سلامة فى النفس والمال ، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه...».

ومن جهة أخرى فقد اهتمت حكومة الصين بالتجارة اهتماماً كبيراً فعملت على تنشيط أعمالها التجارية بإرسال وفود إلى الخارج من قبل الإمبراطور الصينى يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الإمبراطور ، ومقدار من الذهب والفضة لشراء البضائع وللدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب وترغيبهم فى زيارة الصين (٣٧).

أما عن علاقاتها التجارية مع مصر، فقد انتظمت وتطورت ولعب تجار الكارم دوراً مهماً فى العلاقات الدولية السياسية إلى جانب التجارة (٣٨)، حيث كانت مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك ترسل سفراء من تجار الكارم إلى الصين ، فكانوا يقابلون بحفاوة بالغة وكرم كبير من ذلك أن السلطان برسباى أرسل سفارة إلى الصين فى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م مكونة من بعض تجار الكارم ، كان الهدف الرئيسى منها تقوية أواصر الصداقة بين الدولتين المملوكية فى مصر والمغولية فى الصين، وكان هؤلاء التجار محملين بالهدايا من قبل السلطان المملوكى للإمبراطور الصينى وأسرته، وعند عودتهم كانوا يحملون الكثير من الهدايا لأمرأ وأميرات أسرة السلطان المملوكى من قبل الإمبراطور الصينى (٣٩).

ومما يدل على التواصل الحضارى والتجارى بين مصر وبلاد الصين، ما ذكره ابن بطوطة^(٤٠) عند زيارته لمدينة الخنسا فى القرن ٨هـ / ١٤ م من استقرار بعض التجار المصريين هناك فيقول: «وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيا فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى ، هم كبراء المسلمين، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عصمان المصرى، وكان أحد التجار الكبار^(٤١) استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه- أى ذريته أو أبنائه- بها الجاه والحرمه . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء، والإعانة للمحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع^(٤٢) بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة ، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير».

ويتجلى التواصل الحضارى والتجارى واضحاً بين مصر وبلاد الصين فيما ذكره الخزرجى فى أحداث سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، عند وصول أحد تجار الكارم من الصين إلى اليمن، وكان معه الكثير من السلع من أهمها الحرير والبهار وجملة مستكثرة من الفخار الصينى، وطلب من صاحب اليمن السماح له بمواصلة رحلته إلى مصر^(٤٣).

وخير دليل على عمق المعاملات التجارية بين دولتى سلاطين المماليك فى مصر وأباطرة المغول فى الصين ، هو أن بعثة هيئة الآثار المصرية عثرت فى حفائرها بمدينة قوص فى موسم سنة ١٩٦٦-١٩٦٧م على جرة فخارية أو قدر من الفخار الصينى يحتفظ به الآن متحف جاير أندرسون بالقاهرة^(٤٤) «بيت الكريدلية» (لوحة ١) .

وهذا النوع من الفخار زاد انتشاره فى العصر المملوكى نتيجة للنشاط البحرى التجارى بين الدولتين ، واشتهرت بصناعته بلاد الصين، ويشهد على ذلك ابن بطوطة^(٤٥) الذى زار هذه البلاد فى القرن ٨هـ / ١٤م، ولمس تفوق بلاد الصين فى صناعة الفخار الصينى ، فيقول : «وأما الفخار الصينى فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان، وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم ، ويضيفون إليه حجارة من عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً ، ثم يخمرونه ، فالجيد منه، خمر شهراً كاملاً . ومن التراب يصنعون أواني الفخار الصينى وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنًا ، ويحمل إلى سائر الأقاليم، وهو أبداع أنواع الفخار» . ويستطرد ابن بطوطة^(٤٦) ذاكرًا أكبر مدنها، وأهم أسواقها لبيع الفخار الصينى وهى مدينة صين كلان- صين الصين- وأيضاً مدينة الزيتون ومن هذه المدينة يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن^(٤٧).

وهذا القدر الفخارى أو تلك الجرة الفخارية التى عُثر عليها بحفائر قوص ، ترجع أهميتها فى الزخرفة الكتابية والنقوش الخطية التى نفذت بأسلوب الحز تحت الطلاء العلوى من البدن الكروى وقرب فوهتها العليا . وقوام هذه الزخرفة وتلك النقوش كتابات باللغة الصينية القديمة من مقطعين هما "JI- Shun" بمعنى احترام الموائيق ، ومراعاة العهود (شكل ٢) ، ودلالة هذه العبارة، أن التجار الصينيين على العهد والميثاق فى مراعاة الأمانة والمتانة، مع الاتقان فى صنعهم كما هو معروف عنهم، كذلك إشارة أو علامة على متابعة السلطات للمسلع التجارية لمنع الغش ومحاربتة .

ومما هو جدير بالذكر أنه عندما كثرت التيارات الفنية والأساليب الصناعية التى وردت إلى مصر إبان العصر المملوكى نتيجة عوامل كثيرة، منها اقتصادى لتجمع منتجات الشرق الأقصى التى أصبحت تنتهى فى مصر ، بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والفنية، لوفود أجناس مختلفة ذات حضارات وعادات وتقاليدها متباينة عن حضارة الشرق، لذا صار على الفنان أن يسجل هويته ولغته على عمله (٤٨).

ومن ثم فلا غرو فى معنى هذا الختم أو تفسير تلك الكلمات ، إذا ما عرفنا كما ذكر آنفاً من بدر الدين حى الصينى (٤٩)، أن حكومة الصين كانت تهتم عظيم الاهتمام بالتجارة وتنشيط الأعمال التجارية مع المسلمين عامة ودولة الممالك خاصة، حتى أن امبراطور الصين كان يبعث مع وفوده إلى الخارج خطابات مختومة بخاتم الإمبراطور ومقدار كبير من الذهب والفضة، كدعاية لترغيب التجار الأجانب بزيارة الصين، ووعدهم برخصة خاصة ببضائعهم .

وكما جلب التجار المسلمون فى العصر المملوكى أبداع التحف الفخارية من البلاد الصينية، فقد استوردوا أيضاً أجود أنواع الخزف الصينى منها، وهو ما عرف باسم «السيلادون» (٥٠) ويتميز بأسلوب صناعى وزخرفى اشتهرت بصناعته الصين. ومما يؤكد مدى التواصل الحضارى وعمق النشاط التجارى بين أسرة قلاوون المملوكية فى مصر ، وأسرتى سونج - من مغول- الصين، هو ما عثر عليه أيضاً فى حفائر قوص من تحفتين خزفيتين من صنع الصين من نوع خزف السيلادون يحتفظ بها فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، التحفة الأولى عبارة عن صحن (٥١) من خزف السيلادون الصينى ذى لون أخضر نافض ، له حافة خارجية مسطحة، ويتوسط قاع الصحن من الداخل ، زخرفة نباتية بأسلوب الحز على هيئة مجموعة من الزهور فى باقة واحدة (لوحة ٢) .

أما التحفة الثانية فهي عبارة عن إناء على هيئة مزهرية^(٥٢) من خزف السيلادون الصينى
ذى لون أخضر نافض ، له فوهة متسعة، وبدن شبه كروى به تضييعات بارزة . وهذا البدن
يستدق إلى أسفل حيث القاعدة ، والإناء خلو من الزخرفة اللهم إلا التضييعات (لوحة ٣) .

ولا غرو أن يكون بداية ظهور الخزف الصينى فى القرنين ٨-٩هـ / ١٤-١٥ م من بين
الهدايا التى يرسلها سلاطين مصر إلى ملوك أوربا، ومن ذلك الحين كانت أسواق القاهرة تتزود
دائمًا بالخزف الصينى^(٥٣).

وبالإضافة إلى التحف التطبيقية السابقة الذكر التى عثر عليها بحفائر قوص، والتى تدل
على الترابط التجارى مدعماً بالعهد والمواثيق ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة يحتفظ
أيضاً بمجموعة من القطع النسيجية الحريرية تؤكد عمق العلاقات ومتانة السفارات بين أباطرة
المغول فى الصين وسلاطين الممالك فى مصر، وهذه القطع من صنع الصين باسم السلطان
الناصر محمد بن قلاوون، مهداة من إمبراطور الصين إلى سلطان مصر، وعليها كتابات صينية
معناها «سعادة مكررة» ، «طول العمر» وكان يعتقد فى أول الأمر أنها كتابات كوفية ولكن
ثبت بالدليل أنها كتابات صينية قديمة^(٥٤).

* * *

وخلاصة القول أن العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الصين ازدهرت ازدهاراً كبيراً ، وكان
أوج ازدهارها فى العصر المملوكى وخاصة فى عهدى قلاوون وبرزباى والعصر المغولى وخاصة
فى عهد أسرتى سونج ، ومنج .

ويكفى أن العرب المسلمين فى القرن ٧هـ / ١٣م تعلموا من التجار الصينيين طريقة
استعمال البوصلة البحرية (إبرة المغناطيس) فى الملاحة، مما كان له أثره الواضح فى زيادة
النشاط التجارى البحرى زيادة كبيرة بين البلدين، وترتب عليه أيضاً زيادة الروابط السياسية
وفى العلاقات الدبلوماسية .

الهوامش

- ١ - محمد تواضع، الصين والإسلام، ص ٥ .
- دائرة المعارف الإسلامية ، مج ١٤ ، ص ٤٥٩ .
- Encyclopaedia of Islam vol . Leiden 1986,1, p. 839 .
- ٢- زكى محمد حسن، الصين وفنون الإسلام القاهرة، ١٩٤١م ص ٩ .
- ٣- يقصد باسم «هاى-سى» غرب البحر أى البحر الأحمر، والنهر يخرج منه هو نهر النيل، والبحر العظيم هو البحر المتوسط .
- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية، ط ١ ، ١٩٥٠م، ص ١٣-١٤ .
- ٤- محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص ١٥ .
- ٥- سيدة اسماعيل كاشف ، علاقة الصين بديار الإسلام، مجلة كلية الآثار، ١٩٧٦م، ص ٣٠ .
- ٦- بدر الدين حى الصينى، المرجع السابق ، ص ٤٥ ، ٢٣٩ .
- ٧- سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى دار النهضة العربية ، ١٩٩٤م، ص ٥٤٢ .
- ٨- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ .
- ٩- محمد عبد الفنى الأشقر، تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ٢٩٠-٢٩١ .
- ١٠- سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى، ص ٥٤١ .
- راشد البراوى، فى الاقتصاد الإسلامى دار الحرية، ١٩٨٦م، ص ١٣٠-١٣١ .
- ١١- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م، ص ٣٧٨ .
- ١٢- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م ج ١ ، ص ١٥٥ .

- محمد بركات الببلى، بداية الكارم المؤرخ المصرى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٣، ١٩٩٤م، ص ١٠٦.

١٣- محمد عبد الفنى الأشقر، المرجع السابق، ص ٤٣.

١٤- لقد اختلفت الآراء وتضاربت الأقوال فى معنى كلمة الكارم ونشأتهم وبداية ظهورهم وأصل وجودهم، وللآن لم يحسم النقاش بعد حول كل هذه التساؤلات.

وقد كان أول ذكر للكارمية فى متون الكتب عندما ذكرهم المقرئى فيقول «إن الكارمية جاءوا إلى مصر سنة ١١٨١م أى سنة ٥٧٧هـ وأنهم دفعوا مكوساً عن عدة سنوات قادمة» وهذا التاريخ يثبت أنهم جاءوا فى عهد صلاح الدين الأيوبي.

- المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٧٢-٧٣.

- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٦٤.

- صبحى ليب، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو ١٩٥٢، ص ٥-١٠.

- King, Historical Dictionary of Egypt, Cairo, 1984, p. 384

- الشاطر بوصيلى، الكارمية، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٣، ١٩٦٧، ص ٢١٧-٢٢١.

- جواتيائين، دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، ص ٤٨٥، ص ٤٩٤.

- سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٩٤م ص ٣٠١.

- محمد عبد الفنى الأشقر، تجار التوابل فى مصر، ص ٢٤-٣٢.

- محمد بركات الببلى، بداية الكارم، ص ٨٩-٩٨، ص ١٠٣-١٠٥.

١٥- المقرئى، السلوك، ج١، ص ٨٩٩، هامش (١).

١٦- صبحى ليب، التجارة الكارمية، ص ٦.

١٧- جواتيائين، دراسات فى التاريخ الإسلامى، ص ٤٨٤، ص ٤٩٥.

١٨- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص ٣٠٨.

١٩- شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية عالم المعرفة، الكويت،

١٩٩٠م، ص ٢٦٩-٢٧٠.

٢٠- قوص ، بالضم ثم السكون، وصاد مهملة ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وبينها وبين قفط فرسخ وهي شرقى النيل ، يقال أن كلمة قوص قبطية معناها الدفن ، وسميت كذلك لتخصص إناس من أهلها فى دفن ملوك الفراعنة بعد تحنيطهم، واسمها القبطى Qous، ومنه اسمها العربى ويقال لها قوص برير.

- محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، ق ٢ ج ٤ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤ م، ص ١٨٧ .

٢١- سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ٣٠١ .

- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٤٣ .

٢٢- جواتيائين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص ٤٨٤ .

٢٣- نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ١٤٢-١٤٣ .

٢٤- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

٢٥- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / مكتبة مدبولى، ١٩٩٨ م، ج ١، ص ٥٦٧ .

٢٦- على إبراهيم حسن، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٥٩ .

٢٧- القلقشندى ، صبح الأعشى، ج ٣ ، ص ٥٢٠-٥٢٤ .

- سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص ١١٥ .

- محمد خليل أحمد هميمى، إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط

رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢ م، ص ١٣٧ .

٢٨- لمزيد من التفاصيل راجع:

عائشة التهامى، دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر فى العصور الوسطى، المؤتمر العالمى

لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخول الإسلام مصر، جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ/

سبتمبر ٢٠٠٠، ص ٣٣١-٣٤٠ .

٢٩- جان كيلود جارسان ، قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى ، ١٩٩٤ م،

ص ٣٥٥-٣٧٦ .

- محمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص ٩٨ .

٣١- لم يبق بقوص غير وكالتين هما:

وكالة عوده، وهى تقع بمواجهة المسجد العمرى بقوص ومسجلة فى عداد الآثار الإسلامية تحت رقم ١٣٥ .

وكالة محروس وهى تقع بحارة البومة من شارع القيصرية وكلا الوكالتين جددتا فى العصر العثمانى، ووجودهما يدل دلالة واضحة على الرواج التجارى لهذه المدينة.

٣٢- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص ١٩ .

٣٣- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص ٢٩١ .

٣٤- المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ١٧٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

- عطية القوصى ، من تاريخ بلاد النوبة ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة، ١٩٨١، ص ١١٦-١٢٥ .

٣٥- صبحى لبيب، التجارة الكارمية ، ص ٣٨ .

٣٦- القلقشندى، صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠-٣٤٢ .

٣٧- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص ١٣٤ .

- شوقى عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، ص ٢٥٩ .

٣٨- محمد عبد الغنى الأشقر ، تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، ص ٣٥٦ .

٣٩- بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٤٠ .

٤٠- الرحلة، ص ٦٣٨-٦٣٩ .

٤١- ويذكر ابن حجر عن مكانة التاجر المصرى الكارمى بالنسبة للتاجر الصينى فيقول:

«إن التاجر الكارمى فى مصر يعادل أضخم تجار الصين مالاً وثروة من حيث المكانة المالية والتجارية».

- الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

- أما ابن بطوطة فيذكر أن التاجر الصينى هو:

«وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة، وعاداتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ... ومن كان له خمس عشرة قطعة سموه الستى وهو بمعنى الكارمى بمصر».

- الرحلة ، ص ٦٢٨-٦٢٩ .

٤٢- وقد بلغ عدد المساجد الآن ببلاد الصين نحو ٢٣ ألف مسجد، منها أكثر من ٥٥ في العاصمة بكين، وتعد هذه آخر إحصائية ذكرها رئيس تحرير جريدة الأهرام عند زيارته لدولة الصين في أواخر القرن العشرين.

- إبراهيم نافع ، الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص ١٦٦ .

٤٣- العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٣٥٠ .

٤٤- رقم السجل : ٣٧٩ ارتفاعها : ٥١,٠٠ سم قطر الفوهة : ١١,٠٠ سم

٤٥- الرحلة، ص ٦٣٠ .

٤٦- الرحلة، ص ٦٣٣-٦٣٤ .

٤٧- بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص ١٣١ .

٤٨- سعاد ماهر ، كتاب الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٥٣-٥٤ .

٤٩- المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

٥٠- السيلادون، نوع من الطينة الطبيعية توجد في الصين ذات خواص طبيعية ، تعطى لوناً أخضرًا نافضاً إذا حرقت في درجة حرارة معينة، كما أنها تعطى بريقاً خاصاً فهي ليست في حاجة إلى مادة الطلاء الزجاجى الشفاف.

- ديماند، الفنون الإسلامية، ص ٢١٨ .

- سعاد ماهر ، المرجع السابق، ص ٥٥ .

- Hobson, The Art of the Chinese pottery , pp. 7-19 .

٥١- رقم السجل : ٢٣٩٧٠ قطر الصحن : ٦٩,٠٠ سم ارتفاعه : ٣,٨ سم

٥٢- رقم السجل : ٢٣٩٧١ قطرها : ١٣,٠٠ سم ارتفاعها : ٦٢,٧ سم

٥٣- هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢ ، ص ١٩٠ .

٥٤- بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٣٩ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية

- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن جبیر : الرحلة ، دار صادر، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، الهند، ١٩٢٩م.
- الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦م.
- الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد على الأكوع، جزءان، ١٩٨٣م.
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، الجزء الثالث، ١٤١٣هـ .
- المقرئى: السلوك فى معرفة دول الملوك ج ١ نشر مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٣٨م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ بولاق، ١٢٧٠هـ .

ثانياً : المراجع العربية :

- إبراهيم نافع : الصين معجزة نهاية القرن العشرين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- آمال العمرى (دكتور) : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م.
- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى (دكتور) : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ج ١ ، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م.
- الشاطر بصيلى: الكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣ ، ١٩٦٧م.
- بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م.
- جان كيلود جاراسان (دكتور) : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر فى القرون الوسطى، ١٩٩٤م.
- جواتيائين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، دار الثقافة العربية ١٩٦٦م.

- ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، دار المعارف ، الطبعة الثالث ، ١٩٨٢م.
- زكى محمد حسن (دكتور) : الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١م.
- راشد البراوى (دكتور) : فى الاقتصادى الإسلامى ، دار الحرية ، ١٩٨٦م.
- سعاد ماهر (دكتور) البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- كتاب الفنون الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.
- سعيد عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣ ، ١٩٩٤م.
- مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٤م.
- سيدة إسماعيل كاشف (دكتور) : علاقة الصين بديار الإسلام ، مجلة كلية الآثار ، ١٩٧٦م.
- شوقى عبد القوى عثمان (دكتور) : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية ، عالم المعرفة ، ١٩٩٠م.
- صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مايو ، ١٩٥٢م.
- عائشة التهامى (دكتور) دور قوص كعاصمة إسلامية لصعيد مصر فى العصور الوسطى ، المؤتمر العالمى لجامعة الأزهر بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على دخوله الإسلام مصر ، ٢٠٠٠م.
- عطية القوصى (دكتور) :
من تاريخ بلاد النوبة ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١م.
- أعضاء جديدة على تجارة الكارم والكارمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٢ ، ١٩٧٥م.
- فاروق عثمان أباطه (دكتور) : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م.

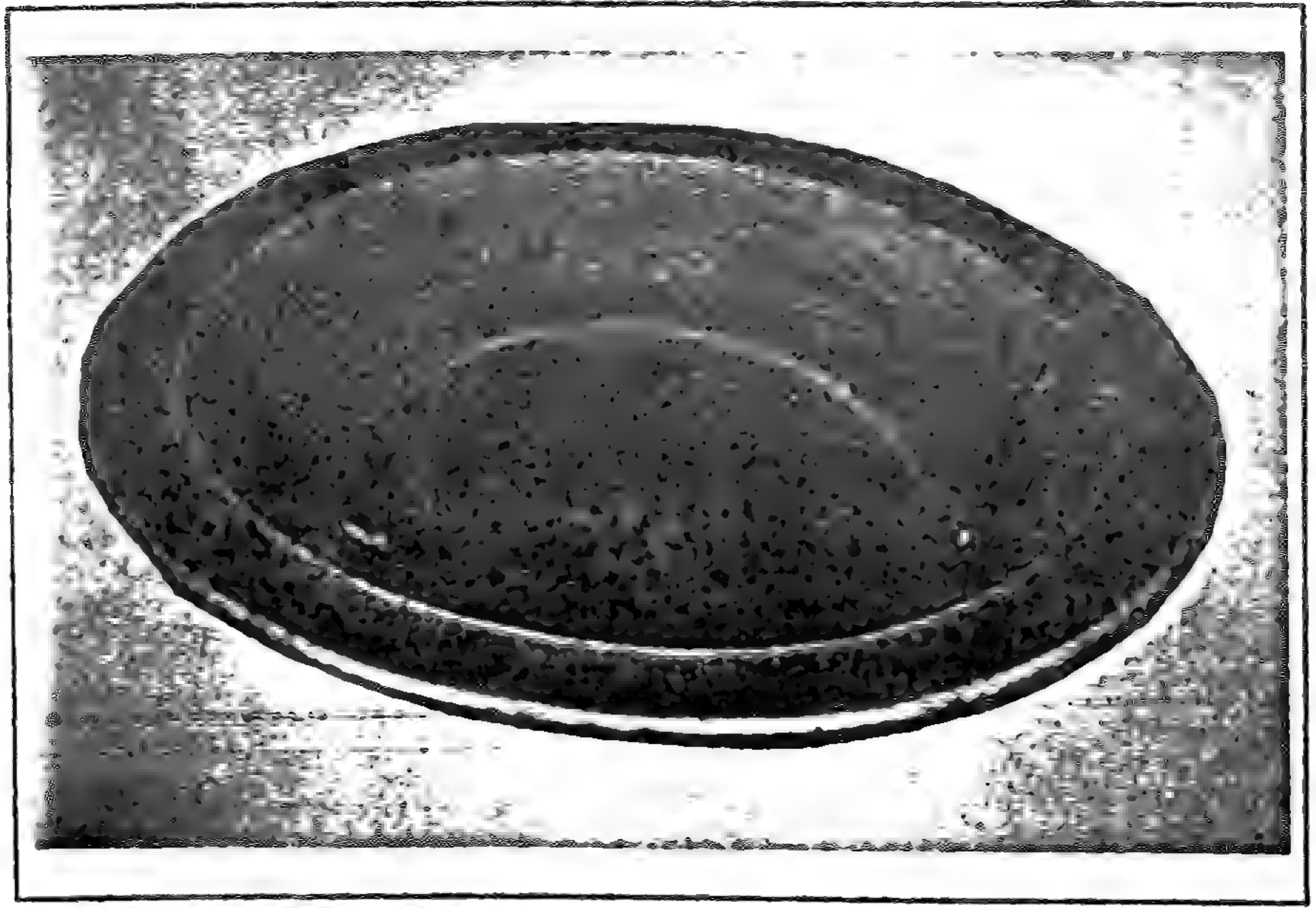
- محمد بركات الببلى (دكتور) : بداية الكارم ومعناه فى العصر الفاطمى، المؤرخ المصرى كلية الآداب- جامعة القاهرة، العدد ١٣ ، ١٩٩٤م.
- محمد خليل أحمد هميمى: إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر الماليك، مخطوط رسالة ماجستير، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٩٢م.
- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق ٢ ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- محمد عبد الغنى الأشقر (دكتور) : تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.
- محمد محمود زيتون : الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة، ١٩٦٤ .
- نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

- Ashtor : The Karimi merchants, JRAS/ 1956 .
- Hobson : The Art of the Chinese potter, London, 1923 .
- The Encyclopaedia of Islam, vol . V, Leiden, 1986 .
- King, J.W: Historical Dictionary of Egypt, American University, Cairo, 1989 .



(الوحة ١) جرة فخارية عليها كتابات أثرية بالخط الصيني عشر عليها بحفائر مدينة قوص
- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة

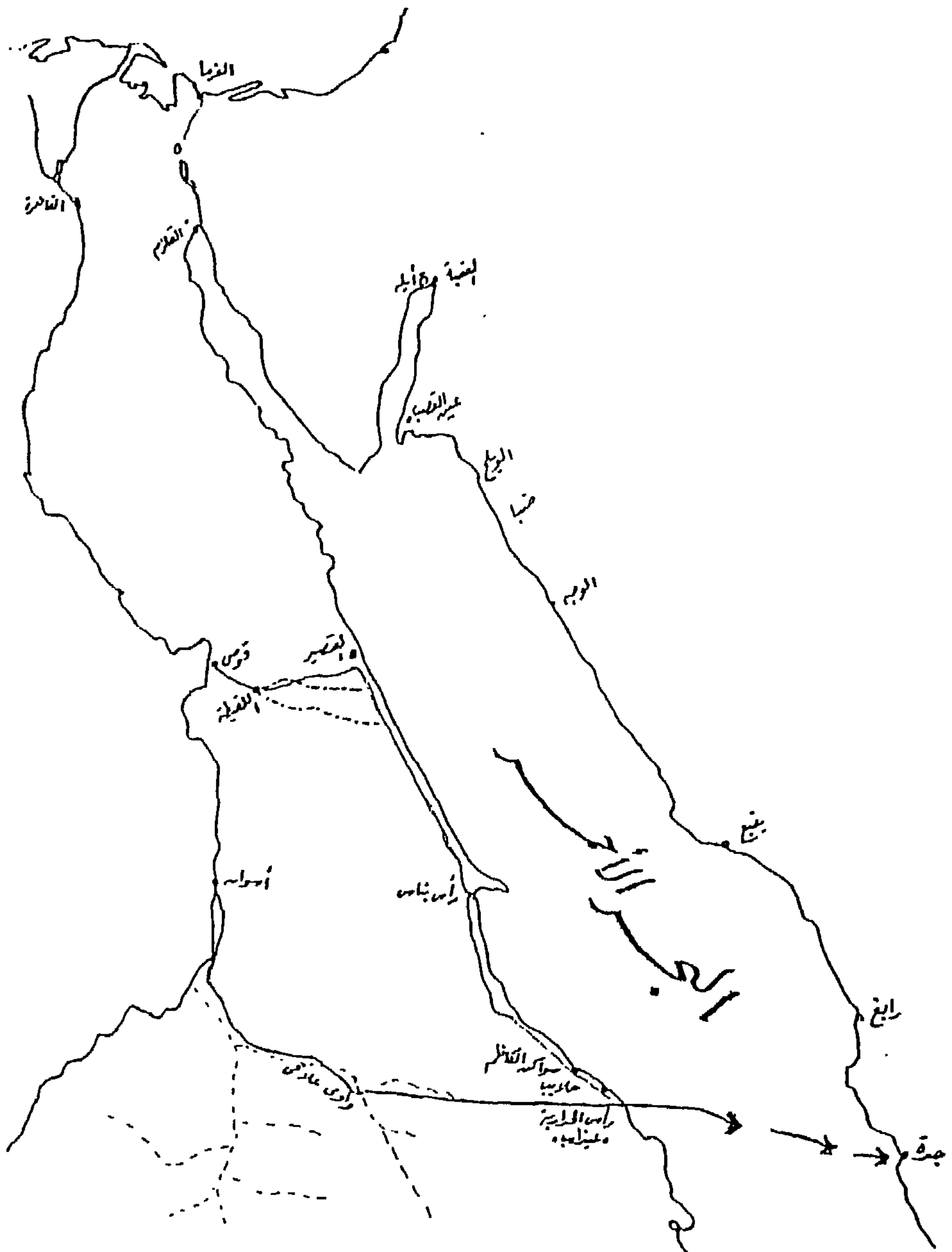


(الوحة ٢) صحن من خزف السيلادون الصيني عشر عليه بحفائر مدينة قوص
- محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة-

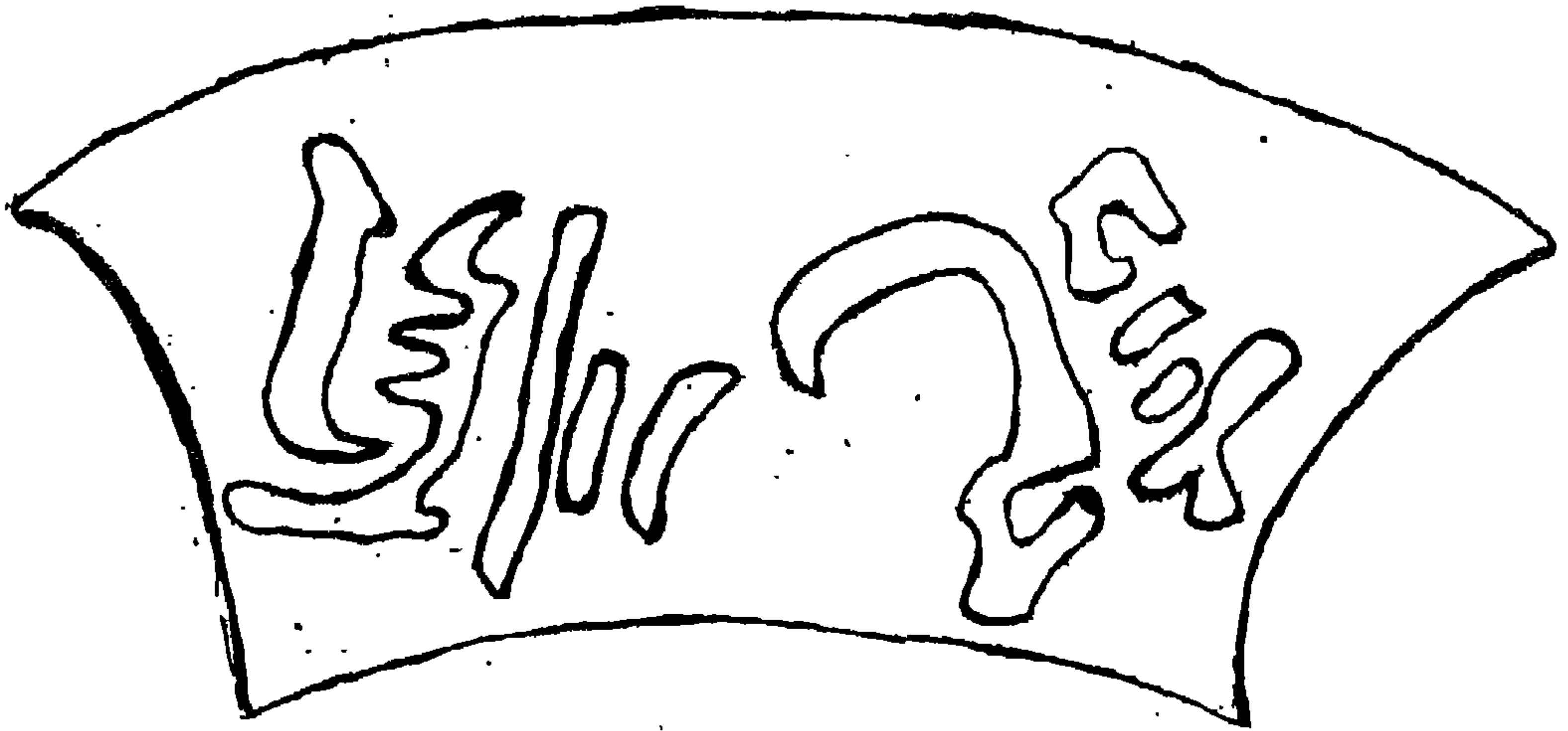


(الوحة ٣) مزهرية من خزف السيلادون الصيني عُثر عليها بحفائر مدينة قوص

- محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة-



شكل (١) خريطة تبين طرق قوافل الحج والتجارة باقليم قوص فى العصور الوسطى



شكل (٣) الكتابة الصينية أعلى البدن بالجرة الفخارية التي عُثر عليها بحفائر قوص

- محفوظة بمتحف جاير أندرسون بالقاهرة-

خاتمة الوجود الإسلامي في غرب الأندلس

اعتلى الملك سانشو الثاني Sancho II المدعو Capello^(١) عرش مملكة البرتغال (١٢٢٣) ^(٢)، بعد وفاة أبيه ألفونسو الثاني (١٢١١-١٢٢٣م)، ليواجه تركة مثقلة بالمشاكل، وخاصة مع رجال الدين ومع عماته . وكان أن بدأ الإصلاح بينه وبين رجال الدين فوق اتفاقاً في قلمريه ١٢٢٣م ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التي حصلوا عليها من قبل، وأن تلغى جميع الاجراءات التي شكت منها الكنيسة ، مع منحهم بعض الامتيازات الجديدة^(٣)، ثم عقد الصلح مع عماته وسلم لهن أراضيهن مع رواتب سنوية. وفي المقابل اعترفن بسلطة الملك على أراضيهن أي الاعتراف بالتبعية الإقطاعية وما تتطلبه من شروط وواجبات^(٤).

أما بالنسبة لحركة الاسترداد البرتغالية فإنها توقفت بعد الاستيلاء على قصر أبي دانس Alcacer de Sol في ١٢١٧م نتيجة لمشاكل ألفونسو الثاني مع رجال الدين ومع إخوته . وعندما نجح ابنه وخليفته سانشو الثاني في معالجة مختلف الشئون والمشاكل التي ورثها مع الحكم عن أبيه قرر أن يمارس حركة الاسترداد ومشاريع غزو أراضي المسلمين للاستيلاء على قلاعهم ومدنهم. وكان ذلك في عام ١٢٢٦م عندما قام بحملته على الباس Elvas .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المشاريع (للفوز) تطلب توافر دعامتين : الأولى أن تكون الأحوال مستقرة في البرتغال وهذا ما تحقق على يديه منذ بداية توليته العرش، الدعامة الثانية هي أوضاع المسلمين في الأندلس والمغرب آنذاك . ومن زاوية الوضع الإسلامى فإن الخليفة المستنصر بالله الموحدى الذى استغرق فى اللهو والحياة العابثة توفى عندما ضربته إحدى الأبقار وذلك فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ الموافق ٦ يناير ١٢٢٤م^(٥). وأما بالنسبة لوضع الخلافة فقد اضطربت الأحوال فى الأندلس وخاصة بعد أن دعا بالخلافة لنفسه أبا محمد بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن صاحب جيان وتلقب بالظافر، والذى اشتهر بالبياسى نسبة إلى مدينة بياسة التى اعتصم بها، وانضم إليه البعض واشتعلت الحروب الأهلية بين المسلمين فى الأندلس الذين انقسموا إلى أقسام اشتد العداء بينها^(٦)، حتى أن بعضهم تحالف مع القوى المسيحية ضد إخوانه من المسلمين^(٧). ومن الطبيعى أن يؤدي ذلك إلى تكالب الممالك المسيحية الأسبانية فى هجماتها على الأراضى الأندلسية.

ومن الإشارات الجديرة بالاهتمام للحميرى والذى أشار أثناء ما كان العادل فى أشد صراعه مع البياسى إلى غزوة على أراضى إشبيلية وخاصته بفحص طلياطة Tejado^(٨)، ويشير إلى أنه فى جمادى الأول ٦٢٢هـ، ١٢٢٥م، قام الروم الغربيون (ويقصد الليونيون) بقيادة مارتين سانشيز Martin Sanchez وهو ابن غير شرعى لسانشو الأول^(٩). ملك البرتغال وعم الملك الحالى سانشو الثانى والذى كان فى خدمة مملكة ليون آنذاك وحينئذ أشار الحميرى أيضا إلى حال الأندلس آنذاك بقوله :

« فأغار الروم الغربيون على تلك الجهة وغنموا ما وجدوا وساقوا ما أصابوا والعادل صاحب المغرب يومئذ بإشبيلية ووزيره أبوزيد بن وجان ومعهما أهل الدولة وأشياخ الأمر ولا غناء لديهم ولا مدفع عندهم إذا كان الأمر قد أدبر وروثق الدولة قد تغير ومن نزلت به من الناس مصيبة سرح لم يرجع مغيثا ولا يجد نصيرا»^(١٠).

ويتضح من إشارة الحميرى مدى ما وصلت إليه حال الأندلس من ضعف وانهيار وما تلا من غزوات فى شرق الأندلس وغزوات فرديناند الثالث ملك قشتالة آنذاك بمعاونة البياسى فى معظمها حتى ١٢٢٦م. والأراضى الإسلامية تتلقى الضربات من شتى الممالك الأسبانية.

هكذا كانت الأندلس مسرحا للفتن والصراعات وكان الملك سانشو الثانى قد وطد حكمه وبدأت خطته فى غزو أراضى الأندلس تضامنا مع باقى غزوات الممالك المسيحية الأخرى وتحقيقا لأحلام ومشاريع مملكة البرتغال، خاصة وأن مملكة قشتالة قد تقدمت تقدما كبيرا ناحية الجنوب واستطاع القشتاليون بمحالفه البياسى أن يستولوا على العديد من المدن والقلاع الأندلسية فى منطقة جيان وقرطبه وأصبحوا يتحركون كما يشاءون فى أراضى الأندلس الوسطى حتى اقتربوا من قرطبة (١١).

وكان التنسيق بين الممالك المسيحية الثلاث (قشتالة - ليون - البرتغال) لحملاتهم جنوب التاجه يتم برعاية البابوية، إذ أن البابا وهو نوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) أرسل مبعوثا إلى مدينة سانت ياقب دى كومبلاستلا Santiago de compostela ثم توجه إلى براغا حيث تقابل مع فريناند الثالث ملك قشتالة فى ربيع ١٢٢٦م ثم قام بزيارة ألفونسو التاسع ملك ليون، وذلك للتنسيق مع سانشو الثانى ملك البرتغال (١٢) لأجل توحيد هجماتهم وتعاونهم ضد الأراضى الإسلامية، وكانت الخطة أنه فى نفس توقيت مهاجمة ألفونسو التاسع لبطليوس يقوم سانشو الثانى بالهجوم على مدينة الباس Elvas (١٣) وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن الهدف من توجه سانشو الثانى إلى هذه المدينة هو منع مساعدة القلاع الإسلامية الواقعة على ضفاف وادى يانة لمساعدة إخوانهم فى الإكسترمادورا الأسبانية (١٤).

وجدير بالذكر أن هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجى الهام تقع على منطقة الحدود ما بين البرتغال وليون. ويفسر ذلك الموقع الخطة الموضوعية المشار إليها سابقا- وتعتبر هذه المدينة قلعة حصينة جدا ومحاطة بجبل وأرضها غنية، وكانت مشهورة بأسوارها الحصينة القوية (١٥).

وعندما جهز الملك سانشو الثانى جيشه كان معه مارتين انيز Martin Anes رئيس أساقفة براغا ومعه دون أبريل بيريز Abril Peres والعديد من النبلاء والفرسان، وتوجهوا إلى قلعة إلباس، وذلك فى شهر يوليو ١٢٢٦م / ٦٢٣هـ. وقد طوق المدينة وحاصرها حصاراً تاماً فى حين تحصن المسلمون فى داخل المدينة ودافعوا عنها باستماتة (١٦). وأشارت الروايات التاريخية إلى ظهور الملك سانشو الثانى (فى أول اختبار له) كفارس وأنه أثبت جدارته كمحارب مثل جده ألفونسو هزى ذلك أنه كان فى طليعة المهاجمين لأسوار المدينة، وعرض نفسه للخطر لقربه من الأسوار حتى أصبح فى مرمى قذائف المسلمين، فأسرع أحد الفرسان ويدعى ألفونسو منديز Alfonso Mendes إلى إنقاذ الملك وكان بدوره قد عرض نفسه للخطر

كبير لاتقاذه^(١٧). وقد شدد الملك الحصار على المدينة ودافع المسلمون ببسالة، ولكن تحصينات إلباس كانت قد دمرت نتيجة للهجمات العنيفة للبرتغاليين، حتى أصبح الدفاع عنها صعباً للغاية . ومع ذلك منذ استمات سكانها فى الدفاع عنها رغم تدمير معظم منازلها من شدة القذف^(١٨).

وتوجد ثلاث روايات حول سقوط المدينة :

الأولى أن سانشو ملك البرتغال اقتحم المدينة واستولى عليها وأجبر سكانها المسلمين على الخروج منها ، ووضع فيها إحدى الحاميات . وأصدر مرسوما نصه :

« أنا سانشو الثانى ملك البرتغال ابن الملك المشهور ألفونسو مع زوجتى الملكة أوراكا ورغبة فى تعمير مدينة الباس التى استوليت عليها من المسلمين قد منحناها إلى الأشخاص التاليين لتعميرها ».

والمرسوم صادر فى عام ١٢٢٦ م ويفهم منه أن المدينة تم الاستيلاء عليها فى هذا العام^(١٩).

وفى الرواية الثانية أنه استولى عليها ثم تركها وانسحب منها واستردها المسلمون مرة أخرى^(٢٠)، ولم توضح الرواية لماذا انسحب منها وتركها .

وأما الرواية الأخيرة فهى أنه لم يستول عليها بل تركها لسبب غير معروف ثم بعد ثلاث سنوات قام بإرسال جيش مرة أخرى بقيادة مارتين انيز Martin Anes الذى نجح فى حصارها والاستيلاء عليها فى سنة ١٢٢٩ م^(٢١).

ويبدو أن الرواية الأولى هى الأقرب إلى الواقع لأن براندو Brando وهو مؤرخ ثبت أنه يعتمد كثيراً فى تاريخه على الاستشهاد بالنصوص والروايات .

وجدير بالذكر أنه بعد الاستيلاء على الباس أعطى الملك كثيراً من الحقوق والامتيازات لسكان إحدى المدن البرتغالية التى تدعى ماربوا Marvao وأيضاً لجماعة رهبان فرسان الاستبارية لتعمير المناطق المحيطة بالباس واستولى أيضاً على قلاع جديدة مثل قلعة بيلامندو Vila Mendo وسالبتيرا دى إكسترموا Salvaterra de extremo^(٢٢).

والواقع أن التعاون كان وثيقاً بين الملك سانشو الثانى وجماعات الرهبان الفرسان فى مهاجمة الأراضى الإسلامية ، إذ أشارت الروايات إلى أنه فى نهائيات عام ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ

فى نفس يوم استيلاء ألفونسو التاسع ملك ليون على مدينة ماردة Merida استولى أيضاً الملك البرتغالى على مدينة جلمانية Juremena (Juromenha) . وجدير بالذكر أن الروايات قد اختلفت فى تاريخ الاستيلاء ما بين ١٢٢٩م وأوائل ١٢٣٠م^(٢٣) وهذا يتفق مع قراءة الأحداث إذ أن سانشو الثانى خرج فى أواخر عام ١٢٢٩م وكان الاستيلاء عليها فى أوئل عام ١٢٣٠م خاصة وأن براندو قد أشار إلى الاستيلاء عليها فى هذا التاريخ الأخير.

وفى أثناء نشاط الملك سانشو فى الأراضى الإسلامية على ضفاف وادى يانة الشمالية توفى ألفونسو التاسع ملك ليون فى عام ١٢٣٠م ورث مملكته ابنه فرديناند الثالث ملك قشتالة ، فتم بذلك توحيد المملكتين واستتبع ذلك النزاعات على الحدود مع مملكة البرتغال . ولكن اتفقوا سريعاً على تقسيم بعض الأراضى التى كانت على الحدود مع المسلمين واتخاذها مجالا ومناطق لفتوحاتهم فى أغسطس ١٢٣١م^(٢٤).

وكان لجماعات الرهبان الفرسان دور كبير سواء فى الاشتراك مع الجيوش البرتغالية فى غزو الأراضى والقلاع الإسلامية أو فى تعمير الأراضى المفتوحة حديثاً وتأسيس القلاع الجديدة على الحدود مع المسلمين (وسيتعاضم دورهم لاحقاً) ولذلك نرى أنه فى مارس ١٢٣٢م منح الملك سانشو الثانى خطاباً (موقع فى قلمرية) بهبة للإستبارية يمنحهم الكثير من الأراضى على الحدود مع المسلمين لتعميرها فأسسوا قلعة جديدة اتخذت اسم اوكراتو(Ucrato)(Ocrato)^(٢٥).

ومن أهم الاستيلاءات التى أشارت إليها الروايات التاريخية ما قام به الملك سانشو الثانى فى عام ١٢٣٢م تنفيذاً لأهدافه وسياسته فى الاستيلاء على الأراضى والمدن الإسلامية، إذ استولى فى الإلتنخو على قلعة شربة Serpa وتقع شرقى نهر وادى يانة إلى الجنوب الشرقى من مدينة باجة . كذلك استولى على قلعة مورا Moura وهى أيضاً شرق نهر وادى يانة إلى الشمال من شربة وإلى الشمال الشرقى من مدينة باجة واللذان استسلمتا له سريعاً وتعتبر هاتان القلعتان من أهم الاستيلاءات فى وادى يانة وعهد بالدفاع عنهما وعن الأراضى المحيطة بهما لجماعة رهبان فرسان الاستبارية بزعامة ألفونسو بيريز فارينا Alfonso Peres Farina^(٢٦)، وكان محارباً له نشاط كبير فى تلك المناطق . ويبدو أن ذلك كان مكافأة لهم على دورهم فى الاستيلاء على هذه القلاع .

وهكذا استمر الملك سانشو الثانى فى حملاته ضد الأراضى والقلاع الإسلامية وتعمير الأراضى المحيطة بها واشراك جماعات الرهبان الفرسان فى نشاطه المكثف ضد المسلمين وقد

أشارت لنا المدونات التاريخية أنه نتيجة لهذا المجهود الكبير الذى يقوم به ملك البرتغال ضد المسلمين ، فإن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) منحه حمايته ورعايته وأعرب عن مساعدته للملك البرتغالى فى حروبه ضد المسلمين والسماح للصليبيين بالاشتراك فى هذه الحروب لمدة أربع سنوات (٢٨).

وهكذا غدت الحرب ضد المسلمين فى الأندلس شعارا تنادى به كل القوى الأوربية آنذاك، واستمرت تحظى بتشجيع الممالك المسيحية الأسبانية مما ترك أكبر الأثر فى أحوال شبه الجزيرة الإيبيرية ذلك أن شبه الجزيرة لم تشهد مثل الحماس والروح والتكالب على الأراضى الإسلامية ، ولذلك تعتبر هذه الفترة ذروة الصراع ضد مسلمى الأندلس .

وفى تلك الحرب العدوانية بدأت تظهر أهمية جماعات الرهبان الفرسان إذ غدت هى التى تتولى القيام بغارات وغزوات ضد القلاع الإسلامية الصغيرة وتشير الروايات التاريخية إلى جماعة رهبان القديس شانت ياقب التى بدأت فى مملكة ليون وصارت لها فروع فى مملكة البرتغال ومن أهم مراكزها الرئيسية مدينة بلماله Palmela وبعد استيلاء الملك الفونسو الثانى على مدينة قصر أبى دانس منحها لجماعة القديس شانت ياقب وكان حاكم هذه المدينة وزعيم الجماعة فى البرتغال هو الفارس بايو بريز كوريا .

(Pelayo Perez Correa) Paio peres Correia (٢٩)

وفى نهائيات ١٢٣٤م استولت تلك الجماعة على إحدى القلاع التى تدعى الجسترل Al-justral وبذلك وصلت الحدود البرتغالية حتى أعالي الألتنجو على طول خط وادى يانة إلى الشرق من نفس هذا النهر (٣٠). وتشجيعا لهذه الجماعة أصدر الملك سانشو الثانى مرسوما فى ٣١ مارس ١٢٣٥م بمنح هذه القلعة إلى جماعة شانت ياقب (٣٢)، وفى نفس هذا العام استولت الجماعة على كل الأراضى المحيطة بوادى سيسمبر Vila de sesimbera (٣٢).

واستمرت حملات البرتغاليين فى عام ١٢٣٦م فى نفس إقليم الألتنجو ، إذ أن الملك سانشو الثانى استولى على مدينة اروشس Arroches (٧ يناير ١٢٣٦م) واستمر فى حملاته حتى استولى على كل الأراضى الواقعة على ضفاف نهر كوا Coa-والتي سوف تحدث نزاعات حولها فى المستقبل مع مملكة قشتالة (٣٣).

وهنا يبرز أمامنا تساؤل له أهمية : وهو ماذا كان موقف المسلمين من هذه الضربات العدوانية الواقع أننا إذا نظرنا إلى مسرح الأحداث نجد أنه ليست مملكة البرتغال وحدها هى

التي كانت تهاجم وتستولى على المدن والقلاع الإسلامية، إذ أن ممالك قشتالة ليون وأرجوان شاركت هي الأخرى في هذه الفترة في العدوان على الأراضي الإسلامية، والمسلمون عاجزون عن وقف هذه الهجمات خاصة وأن الحروب الأهلية والاضطرابات ظلت مستمرة حول منصب الخلافة، مما عرض المسلمين بالأندلس لخسائر فادحة. من ذلك أن السيد أبا العلى ادريس ابن يعقوب المنصور والى أشبيلية وقرطبة دعا لنفسه بالخلافة عقب مقتل الخليفة العادل وتلقب بالمأمون^(٣٤). وفي نفس الوقت دعا لنفسه بالخلافة أيضا أبوزكريا يحيى بن الناصر في المغرب^(٣٥)، وهكذا شغل المأمون بقتال يحيى في المغرب بمساعدة جيش من قشتالة وصراعهما^(٣٦). وبعد ذلك ظهر مدع جديد للخلافة هو السيد أبو موسى عمران بن يعقوب المنصور أخو المأمون...^(٣٧)، كل هذه الصراعات نشبت بين زعماء الدولة الموحدية في نفس الوقت الذي ظهرت ثورات الأندلسيين ضد الموحدين، وكان أهمها ثورة ابن هود وهو عبدالله محمد بن يوسف بن هود، الذي دان له الكثير من مدن وأقاليم الأندلس وأصبح أميراً شرعياً على الأندلسيين، وقد اعترف بسيادة الخلافة العباسية وكان سلطته تمتد في شرق الأندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمرية جنوباً، وفيما بين المرية والجزيرة الخضراء. وفي وسط الأندلس فيما بين قرطبة وغرناطة. وكان يمثل الفكرة الأندلسية القومية والتي تهدف إلى تحرير الأندلس من الموحدين والمسيحيين جميعاً^(٣٨).

وهكذا أصبحت الأندلس مشاركاً للصراعات بين مختلف القوى، كل يسعى لمصلحته الخاصة، وكل عنصر من هذه القوى لا يقوى على مقاومة الممالك المسيحية الإسبانية، خاصة وأنهم في صراعاتهم يحتاجون إلى قوتهم لقتال منافسيهم.

وقد أشارت لنا الروايات البرتغالية إلى نشاط مكثف فيما بين عامي ١٢٣٨م - ١٢٤٠م للبرتغاليين في حملاتهم ضد الأراضي والمدن والقلاع الإسلامية، إذ أن الملك سانشو الثاني توجه بجيشه إلى ضفاف وادي يانة حيث قلعة مارتلة Mertola^(٣٩) وهي من أمنع القلاع وتقع في منطقة حصينة حصانة طبيعية غربي نهر وادي يانة، وتحدها من الشمال الغربي إلى الشمال انهار Cabres et erges وبها حاميه قوية جداً ولها أهمية كبيرة منذ عهد الرومان والقوط ومن المدن التجارية الهامة. وقد نجح في حصارها والاستيلاء عليها^(٤٠). ثم توجه إلى قلعة الفجار دي بنا Alfajar de Pena^(٤١)، وأيمونت Aiamonte على الضفاف الشمالية لوادي يانة وقرب مصب النهر في المحيط الاطلنطي ومنحت تلك القلاع لجماعة القديس شانت ياقب^(٤٢).

وكان أن خرج بايو بيريز وجماعته في عام ١٢٤٠م، وتوجه إلى حقل أوريك Ourique وكان أول مكان وصل إليه هو برج استمبار Torre de Estombar فقام بتدميره وعندما تصدى له المسلمون في ذلك المكان نجح في الانتصار عليهم ثم استولى على قلعة البور Al-vor^(٤٣)، التي تقع بين شلب Silves ولاجوس Lagos، واشتبك هناك مع جيش من المسلمين كان قد تجمع من مدينة شلب وكل المناطق المجاورة وأتى لنجدة القلعة، ولكنه انتصر عليهم أيضاً^(٤٤).

وبعد الهزيمة عرض المسلمون على «بايو» أن يسلموه مدينة كاسيلا Cacela بدلا من مدينتي برج استمبار Torr de Estombar والبور Alvor اللتين استولى عليهما، على أن تعاد المدينتين للمسلمين، وذلك لأن مدينة كاسلا أبعد قليلا من أراضي المسلمين في حين أن المدينتين هما أقرب المدن إلى أراضيهم^(٤٥).

وتوضع إحدى الروايات أن السيد بابو غضب كثيرا من عرض المسلمين بأن يترك هذه الأراضي البعيدة عن أملاكه والقريبة من أملاك المسلمين في مقابل أراضي قريبة من أراضيهم ولكنه رفض لغنى هذه الأراضي وأهميتها^(٤٦)، ويبدو أن رفضه راجع أيضاً إلى أن هاتين المدينتين القريبتين من أراضي المسلمين يمكن أن يتخذها قاعدتين أماميتين للهجوم على أراضي المسلمين وفي نفس القوت فإن الدور على مدينة كاسلا لن يطول.

ثم كان أن واصل بايو حملاته فتوجه إلى ميناء كاسيلا Porte de Casela وهو ميناء هام على المحيط الأطلنطي إلى الغرب قليلا من طبيرة، وهي منطقة قوية حصينة مليئة بالسكان ويستطيع المسلمون المجاورون لها نجدها بسرعة^(٤٧). ومنحت هذه المدن الجديدة أيضاً لجماعة القديس شانت ياقب بزعامة بايو كارير^(٤٨) ويعتبر هذا تشجيعا من الملك البرتغالي سانشو الثاني لهذه الجماعة لكي تستمر في نشاطها وحملاتها ضد المسلمين وتعمير الأراضي المفتوحة.

وقام «بايو» أيضاً بالاستيلاء على كل القلاع المجاورة للمدن السابقة. وكان أهمها على نهر ريباكو Ribacoa مثل فيلار Vilar ومايور Maior وسابوجال Sabugal وجستوسا Ges-tosa وقلعة رودريك Castel Rodrigo^(٤٩).

وهكذا تكالبت الجيوش البرتغالية على المدن والقلاع الإسلامية، فنجد أن بايو وجماعته خرجوا من كاسلا Cacela في عام ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ للاستيلاء على مدينة بادرنى Paderne بما جعل المسلمين يتجمعون من مدن فارو Faro (شتمرية الغرب) ولولى Loule وطبيرة Ta-

vira وتوجهوا للقاء بايو وجيشه فى إحدى الأماكن التى تدعى دسبارتو Desbarato. وحدثت معركة كبيرة بينهم انتصر فيها «بايو» على المسلمين^(٥٠) ثم وصل إلى مدينة بادرنى التى كانت حينئذ تواجه مشاكل داخلية، ولكن سرعان ما اتحد سكانها واتفقوا على مقاومة البرتغاليين. ونتيجة لحصانة هذه المدينة وعلم بايو بتجمع جيش من المسلمين مرة أخرى من مدن فارو وطبيرة وأماكن أخرى مجاورة ، غير بايو اتجاهه إلى مدينة لولى Loule ثم توجه إلى إقليم طبيرة (Tavira Tavila) ويبدو أن الهدف الرئيسى فى تحركاته هى التمهيد لكى يفاجئ مدينة طبيرة وقد وصل إلى إقليم طبيرة وما كاد يصل إلى ذلك الإقليم حتى نظم قواته للمعركة رافعا أعلامه . واستعد المسلمون لمقاومته ونشب القتال وأشارت المدونات البرتغالية إلى أن المسلمين لم يستطيعوا الصمود أمام هجمات البرتغاليين، وأصبح كل واحد من المسلمين يسعى لإنقاذ حياته . وأسفرت الموقعة عن أعداد كبيرة من القتلى والجرحى المسلمين^(٥١).

وعندما وجد بايو أنه يجب عليه أولا القضاء على الجيوش الإسلامية فى ذلك الإقليم قبل أن يحاصر المدينة للاستيلاء عليها تعقب المسلمين ، والتقى مع فلول الجيش الهارب والذي لجأ إلى المكان المسمى فوراديرو Furadero وهناك نشبت المعركة فى منطقة نافورة الأسقف Fon-tedo Bispo وقد قتل عدد من البرتغاليين ولكن قتل من المسلمين كثيرين^(٥٢) وأشار برنداو إلى أن بايو استمر فى تحركاته حتى التقى مع أحد الجيوش الإسلامية فى منطقة رأس مسترى Cabeça do mestre وقد صمد المسلمون فى بادىء الأمر ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فى القتال حتى قدوم الليل، وأصبح الخطر بالنسبة لهم كبيرا مما دفعهم إلى الانسحاب خشية قدوم نجدات للبرتغاليين ثم عاد الجيش البرتغالى فرحا بهذه الانتصارات إلى كاسلا Cacula^(٥٣). ويبدو أن عودته كانت ضرورية لتنظيم جيشه بعد هذه المعارك المتتالية، واستكمال استعداداته من أجل الهدف الرئيسى لحمالاته السابقة، وهو الاستيلاء على كل القلاع والمدن فى الطريق إلى مدينته طبيرة Tavira .

وجدير بالذكر أن هذه المدينة لها أهمية كبيرة إذ أنها تقع على المحيط الأطلنطى إلى الغرب قليلا من مصب نهر وادى يانة فى المحيط. وهى على بعد أربع فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) من مصب النهر المذكور. وقد أشارت المدونات البرتغالية إلى أهميتها وأنها ذات أسوار قوية تحيط بها من جميع الأطراف وقلعتها فى الداخل قديمة وقوية وبها كثير من المباني ولذا فإنها من المدن الحيوية فى تلك المنطقة^(٥٤). وكان المسلمون يعلمون أنها هدف لبايو وجيشه، ولذلك

حاولوا الحصول على هدنة معه لمدة أربعة أشهر كوقت ضرورى لأجل استكمال استعداداتهم وتجهيز الاستحكامات للدفاع عن أراضيهم، وأيضاً من أجل طلب النجدة واحضار المساعدات لكى يستطيعوا الصمود أمام هجمات بايو (٥٦). ولكن بايو لم يستجب لهم ثم خرج مرة أخرى وتوجه إلى طبيرة . وقد توقف فى الطريق فى المكان المسمى المارجين Al-margin لكى نظم قواته، عندما علم أن المسلمين قد تحصنوا فى داخل المدينة ، وصمموا على القتال. فانتظر وصول بعض الامدادات إليه ثم طلب المسلمين فى طبيرة والأماكن المجاورة المفاوضات مع بايو ولكنهم فشلوا (٥٦) (ويبدو أنه أدرك أن المسلمين يريدون اطالة الوقت فى انتظار النجدة) فتوجه سريعاً إلى طبيرة ليهاجمها فجأة، ونجح فى مفاجأة المسلمين فى المدينة. وكانت أبوابها مغلقة وقد فتح المسلمون أحد الأبواب لكى يخرجوا منه لمقاومة البرتغاليين الذين نجحوا فى الانتصار على المسلمين وشدوا الهجوم على المدينة حتى دخلوها وذبحوا كل قادر على القتال فى المدينة كما قتلوا الكثيرين من سكانها (٥٧). وأشارت الروايات إلى أن قائد المدينة والذي يدعى ابن فلول Aben Falule ، نجا بحياته وفر من المدينة (وفى رواية أخرى قتل) واستولوا عليها فى ٩ يوليو ١٢٤٢ (وفى رواية ١١ يوليو) ، فحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا (٥٨)، وقد اختلفت بعض الروايات فى تاريخ الاستيلاء عليها، ما بين تاريخى (١٢٤٢ أو ١٢٤٩م) ولكن يبدو أن الاستيلاء عليها تم فى عام ١٢٤٢ ويؤكد ذلك أن هذه المدينة منحت إلى جماعة القديس شانت ياقب أى جماعة بايو فى وثيقة مؤرخة ٩ يناير ١٢٤٤ وهذا ما يؤكد أيضاً عدد من المؤرخين المحدثين (٥٩).

أما بايو فقد قرر أن لايفقد الوقت ولاعنصر المفاجأة فتوجه بسرعة إلى البور Alvor واستولى عليها مرة أخرى (ويبدو أن المسلمين كانوا قد استعادوا هذه القلعة مرة أخرى لأنه سبق الاستيلاء عليها) ثم توجه إلى حصار مدينة باردنى Paderne وكانت قلعة قوية جداً واستولى عليها أيضاً .

وكانت آخر المشاريع الكبيرة فى عهد الملك سانشو الثانى هو الاستيلاء على مدينة شلب (٦٠)، وهى من أهم مدن غرب الأندلس . وقد أشادت بموقعها وحصانتها وأهميتها وما تتمتع به من ثروات المصادر الإسلامية والمدونات البرتغالية . واحتلت مكانة بارزة فى عهد الموحدين (٦١).

ثم توجه بايو بيريز إلى منطقة شلب . وفى الطريق هاجم قلعة برج استمبار Torre de stombar، وهى القلعة التى كان قد استولى عليها من قبل سنة ١٢٤٠م ولكن المسلمين

استردوها مرة أخرى. وكانت هذه القلعة تابعة لابن عفان Aben Afan حاكم مدينة شلب . ويبدو أنها كانت خطة مأكرة من بايو بيريز إذ أن ابن عفان عندما علم بذلك خرج مسرعا من شلب لإنقاذ هذه القلعة . وعندما علم بايو بخروجه أسرع بجيشه تجاه شلب^(٦٢).

وعندما علم ابن عفان بالموقف أسرع بالرجوع إلى مدينته، فوجد البرتغاليين محاصرين للمدينة وقد هاجموها . وهدموا منطقة في سورها بجوار الباب الذي يدعى زايا (Azaia) Zaya وفي تلك المنطقة بجوار كنيسة سانت ماريا، التقى الجيش المسلم بقيادة ابن عفان بالجيش البرتغالي بقيادة بايو، وانهزم ابن عفان مما جعله يلجأ إلى القلعة داخل المدينة لكي يتحصن في داخلها . ولكنه وجد أنه لا قبل له بقتال البرتغاليين ولا يتوقع انتظار نجدة من المسلمين في تلك المناطق مع صعوبة الاحتفاظ والصمود داخل المدينة^(٦٣).

ولذلك أرسل ابن عفان أحد الفرسان لبحث عن مخرج ونجح في الفرار مع بعض أتباعه ولكنه غرق أثناء عبوره النهر على فرسه في أحد الأماكن العميقة يدعى (حتى الآن) مخاضة ابن عفان Pego de Aben Afan^(٦٤) أما عن باقي المسلمين في داخل المدينة فإنهم دافعوا عن القلعة في حدود إمكانياتهم ولكن لنجح بايو في نهاية الأمر في الدخول والاستيلاء على القلعة. ويشير برنداو إلى أن المسلمين في القلعة طلبوا الرحمة من دوق بايو الذي لم يخل سكانها وسمح لهم بالإقامة^(٦٥)، وكان المسلمون الذين يبقون في المدن ويخضعون للحكم المسيحي، كما يحدث للمستعربين في الأراضي الإسلامية يدفعون جزية سنوية على الرأس^(٦٦). ثم توجه بعد ذلك إلى بادرنى Paderne واستولى على القلعة بالقوة وقتل المسلمين لقتلهم اثنين من الفرسان الرهبان هناك^(٦٧).

وجدير بالذكر أن جميع الروايات البرتغالية اختلفت في تحديد سنوات الاستيلاء على المدن والقلاع الإسلامية ما بين تقديم وتأخير. ولكن يبدو أن هناك بعض التعتيم المقصود من بعض الروايات البرتغالية ، إذ أضافوا الكثير من الاستيلاءات على عهد الملك الفونسو الثالث لسنة ١٢٤٨م والبعض الآخر يرى أنه منذ بداية الحروب الأهلية التجأ الملك سانشو الثاني إلى مملكة قشتالة واستيلاء أخيه على الحكم في سنة ١٢٤٥م ويضع كل حملات بايو في عهد الملك الفونسو الثالث. ويبدو أن بعض المدن قد استولى عليها البرتغاليون في عهد الملك سانشو الثاني ثم استردها المسلمون وتم الاستيلاء عليها مرة أخرى في عهد الملك الفونسو الثالث، ولكن بعد تحقيق وروية اعتمدنا على مقارنة الروايات واستعراض أحداث الروايات نفسها،

التي تنسب هذه الفتوحات إلى عهد الملك ألفونسو الثالث نجد أنها تتناقض في بعض الأحداث، إذ تذكر أحداثا من المعلوم حدوثها في عهد الملك سانشو الثاني . وجدير بالذكر أن برنداو هو أكثر المؤرخين البرتغاليين القدامى دقة حيث يعتمد على الوثائق والنصوص في تأكيد سنوات الأحداث . وعلى سبيل المثال هناك أحداث الاستيلاء على طبيره فقد وضعها في سنة ١٢٤٢ ثم بعدها في نفس العام شلب- كما أشرنا- واتفق في تفاصيل الأحداث مع بعض المؤرخين القدامى وهناك بعض المدونات مثل مدونة الملوك السبعة الأوائل للبرتغال تضع هذه الأحداث في مدونة الملك ألفونسو الثالث، وأيضا مدونة الخمس ملوك الأوائل للبرتغال توضع في عهد الملك ألفونسو الثالث، وكلها حدث في سنوات ١٢٤٩-١٢٥٠ م . ولكن معظم المؤلفات الحديثة وضعت هذه الأحداث في عهد الملك سانشو الثاني اتفاقا مع وثائق برنداو.

ولنا أن نتساءل عن موقف المسلمين من هذه الحملات والغزوات البرتغالية على الأراضى الإسلامية في غرب الأندلس؟

وجدير بالذكر أن هذه الحملات كانت تتواكب مع حملات مملكة قشتالة ومملكة أراجون إذ نجح الملك فرديناند الثالث في الاستيلاء على العديد من القلاع والمدن الإسلامية وأهمها ابده سنة ١٢٣٣ م وقرطبة سنة ١٢٣٦ م^(٦٨)، وخايم الأول ملك أراجون استولى أيضا على العديد من المدن والقلاع الإسلامية، وأهمها الجزر الشرقية وميورقة ومنورقة وبابسة سنة ١٢٣١ م وبلنسية سنة ١٢٣٨ وما حولها^(٦٩). أما بالنسبة للمسلمين فكانت الضربات تتلاحق على جميع أراضى الأندلس مضافا إليها النزاعات والحروب الأهلية التي منعت تضافر وتوحيد جهود القوى الإسلامية ضد نهشات الممالك المسيحية الإسبانية. وبهنا هنا منطقة غرب الأندلس فقد كانت الصراعات قد اشتعلت بين ابن هود وابن الأحمر^(٧٠)، وإذا كان ابن الأحمر قد اعترف بسلطته ابن هود فإنه سرعان ما ظهر قاضى مدينة لبله Niebla شعيب بن محمد بن محفوظ ليدعو لنفسه، وتسمى بالمعتصم فتوجه ابن هود لقتاله وعندئذ امتنع ابن محفوظ في مدينته ونجح في الصمود، مما دعا ابن هود لترك حصارها، ٦٣٢هـ / ١٢٣٥ م^(٧١) وبذلك قامت مملكة ابن محفوظ وعاصمتها لبله. ويمتد هذا الإقليم من رأس القديس فيكنت San Vi-cente إلى الغرب حتى مصب نهر الوادى الكبير ويحده من الشمال سيرا مورينا Sierra Morina ومن الجنوب البحر وإقليمها الحالى يشمل ولبه علاوة على شربة Serpa ومورا. فى الألتخو (البرتغال) وكل الغرب مع مدن فارو وطبيرة ولولى Loule وكاسترومارين Castromarin^(٧٢).

وبهذا يتضح أن منطقة وغزوات البرتغاليين هي أملاك تابعة لمملكة ابن محفوظ في لبله، ولكن لماذا لم يتم بمجهودات في الدفاع عن مملكته؟ والواقع أنه أعلن حكمه في سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م، وكان على صراع مع ابن هود في نفس الوقت، متخوفاً من هجمات ملك قشتالة فرديناند الثالث، فكان لا يستطيع أن يترك عاصمته ليدافع عن أراضيها في مناطق أخرى، خاصة وهو لا يأمن من التحرك منها خوفاً من ابن هود وملك قشتالة ولذلك اعتمد على مبدأ أن تدافع هذه المدن عن نفسها. وكانت كل مدينة تعتمد على الدفاع عن نفسها بمجهود سكانها وحاميتها، وأحياناً عندما يكون الخطر مشتركاً تتعاون القرى والقلاع المجاورة في التصدي للغزوات البرتغالية.

* * *

وقد تعرضت مملكة البرتغال في عام سنة ١٢٤٥م لأحداث هامة، إذ قامت فيها ثورة ضد الملك سانشو الثاني، وكانت بقيادة أخيه الفونسو كونت بولونيا - الذي كان متزوجاً من ماتيلده صاحبة بولونيا وأصبح أميراً على هذه الولاية^(٧٣). وكانت لهذه الثورة أسباب عديدة أهمها العداء والنزاعات بين سانشو الثاني والأشراف (النبلاء)، بالإضافة إلى نزاعاته أيضاً مع رجال الدين، إلى جانب تريض كل من أخويه الفونسو وفرديناند وعمه بدرو، وخضوع سانشو الثاني لنفوذ زوجته، خاصة أنه ليس له ولد. واتفق الجميع على خلع الملك عن العرش. وأيد البابا هذا الطلب واتفق الجميع على عزل الملك وتولية أخيه الفونسو، وصدر قرار البابا في ٢٢ يوليو سنة ١٢٤٥م بعزل الملك سانشو الثاني وتنصيب أخيه مكانه في الحكم، ولم تلبث أن اشتعلت الحروب الأهلية وتحالف الجميع ضد سانشو الثاني، ماعداً قلة من أتباعه من النبلاء، مما اضطره للفرار إلى مملكة قشتالة. ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث. وخرج بجيش، ومعه الفونسو أكبر أبناء الملك فرديناند ووريثه، وزحفوا على البرتغال، ولكن حدثت مفاوضات عرض فيها الفونسو الثالث على الفونسو ولي عهد قشتالة قرار البابا، فوجد نفسه في موقف صعب، مما دفعه إلى العودة دون قتال. وهكذا استمرت النزاعات حول بعض القلاع والمدن، وأهمها قلمريه التي ثبتت على ولائها لسانشو الثاني حتى توفي الأخير في طليطلة يناير سنة ١٢٤٨م^(٧٤).

وجدير بالذكر أن فترة الحروب الأهلية ١٢٤٥-١٢٤٨م لم تشر الروايات إلى أي فتوحات تذكر فيها خاصة وأن الحرب الأهلية استمرت حتى توفي سانشو الثاني في يناير سنة ١٢٤٨م. وعندئذ استقر الملك ألفونسو الثالث في الحكم وبايعه الجميع، وتلقب بلقب الملك في حين أنه كان من قبل يلقب بلقب القائم بشئون الدولة أو نائب الملك^(٧٥).

ومن الأحداث الهامة في غرب الأندلس - ما حدث عندما بدأ الفونسو الثالث حكمه كملك - مشاركة البرتغاليين في حصار مدينة إشبيلية بقيادة بايو بيريز مقدم جماعة القديس شانت ياقب، ومعه عدد كبير من أفرادها، بالإضافة إلى كثير من الفرسان البرتغاليين . وقد أشار برنداو إلى أن المؤرخين الأسبان تجاهلوا دور النبلاء البرتغاليين ، إذ كان لهم دور كبير حيث عبروا نهر وادي يانة واشتبكوا أيضاً في أكثر من موقعة مع ابن محفوظ ملك الغرب الأندلسي، كما اشتبكوا أيضاً مع مسلمي طريانه Triana . وكان لهم نشاط في شغل قوات المسلمين حتى لا يتكثروا في الدفاع عن إشبيلية ، وأيضاً أشار إلى جماعة فرسان رهبان أيبز وزعيمهم مارنين فرديناند مع جماعة فرسان الداوية من مملكة البرتغال شاركوا أيضاً في حصار إشبيلية، والاستيلاء عليها في سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م (٧٦).

وكانت أول مهام الملك ألفونسو الثالث بعد استقرار الأمور ورغبته في أن يضفي على حكمه أهمية وبطولات ، فقرر التوجه إلى الاسكترامادورا لكي يواصل حركة الاسترداد ويضع نهاية للبقية الباقية من الأراضي الإسلامية غرب نهر وادي يانه وقد جمع جيوشه والأموال اللازمة لهذا المشروع فأرسل لجمع الجنود من المدن البرتغالية كما استعان بفرسان جماعات الرهبان ومنهم جماعة أيبز Aviz (قلعة رباح سابقا) وجماعة شانت ياقب وكانت لهما أهمية كبيرة آنذاك في الألتنخو وأراضي الغرب وجماعة الاسبتارية . واشترك كثير من الفرسان المشهورين وكثير من الفرسان الذين شاركوا في حصار إشبيلية والاستيلاء عليها؛ هذا فضلاً عن الأمير بدرو عم الملك (٧٧).

وتوجه في ربيع سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ إلى مدينة فارو Faro (شتمرية الغرب) (٧٨)، خاصة وأن مدينة فارو وإقليمها غدت آخر ما بقي من الأراضي الإسلامية غربي وادي يانة.

وتشير الروايات إلى أنها كانت تابعة لأمير المؤمنين (الخليفة الموحدي في مراكش) وكان يحكمها حاكم يدعى ابن هارون Uben Harron ويخمن برناردو أنه في لقبه un almoxarife por Aloandre يرتبط باسم أمير المؤمنين في المغرب وكان حاكم المدينة لديه عدد كبير من الرجال والأسلحة لأجل الدفاع عنها، وهي مدينة قوية وحاميتها مشهورة بقوتها . وكان سكانها يشعرون بالأمان والطمأنينة لحصانة مدينتهم وكانت المدينة مجهزة وخارجها برج مراقبة وعند رؤية أي خطر تدق الأجراس وتعطى تحذيراً للمدينة (٧٩)، وهكذا أصبحت مدينة فارو ملاذاً وملجأ لكل المسلمين المطرودين أو الذين رفضوا البقاء تحت الحكم المسيحي في كافة

المدن والقلاع التي استولى عليها البرتغاليون. وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى أهمية هذه المدينة وأنها كانت من الموانئ الهامة جداً في غرب الأندلس، خاصة بعد سقوط الموانئ الأخرى وأصبحت هي الميناء الرئيسى غربى وادى بانه. وكانت مجالا للتجارة المزدهرة وقد أشار الحميرى والإدرسى إلى أنه كانت بها المراكب واردة وصادرة ، وبها دار لصناعة السفن وكان من الضروري أن يبدأ الملك البرتغالى بالاستيلاء عليها لأنه بسقوطها سيسهل سقوط توابعها .

وعندما وصل الملك الفونسو الثالث مع جيشه إلى فارو Santa Maria de Faro أمر بتنظيم جيشه وتوزيعه على كل أسوار المدينة لحصارها؛ بعد أن قام بقتل الكثير من السكان والقادة فى المناطق المجاورة لكى لايتكتلوا أو يقدموا مساعدات للمدينة ولكى يفقد المسلمون الأمل فى وصول أو انتظار النجدة عن طريق البحر، أمر الملك أسطولاً من السفن بمحاصرة المدينة عن طريق البحر أى إحكام الحصار عليها برأ وبحراً^(٨٠). ثم شدد البرتغاليون هجومهم على أسوار المدينة ونجحوا فى نقب منطقة من الأسوار ، ولكن نجح المسلمون فى سد الثقب وكان يايو ومجموعته ومعه فرق من الاسبتارية وأبيز قد هاجموا أحد الأبواب ويدعى باب الرهبان Porto los Freires . وفى نفس الوقت أمر الملك أحد النبلاء ويدعى برو اسكرنيو Pero Escrenho بأن يهاجم أحد الأبراج القوية ويسمى برج خوان دى بيم Joao de Baim وكان فى مواجهة قصر الملك حاكم المدينة^(٨١).

أما بالنسبة للسفن الإسلامية فإنها عندما رأت كثرة عدد السفن المسيحية وأنه لا قبل لها بمواجهتها فرت من المواجهة^(٨٢).

وقد عرض الملك ألفونسو الثالث على قائد المدينة ابن هارون أن يستسلم ويسلم المدينة وقلعتها مقابل حريتهم . ولكن رفض حاكم المدينة^(٨٣) هذا العرض . وكان أن استمر الحصار لبضعة أيام قاوم فيها المسلمون قدر طاقتهم، حتى تأكدوا أنهم لن يستطيعوا انتظار النجدة التى كانوا يتوقعوها . وبدأ سكانها فى المعاناة من استمرار القتال، مما دفع ابن هارون لطلب تسليم المدينة والرحيل على شرط أن يخرج المسلمون من فارو ويتجهون إلى أماكن أخرى ومعهم كل أملاكهم . وإذا أرادوا أن يعيشوا فى المدينة عليهم دفع الجزية للملك البرتغالى، (كما كانوا يدفعون من قبل إلى أمير المؤمنين على حد رواية المدونات البرتغالية) ويستطيعون الاحتفاظ بأملاكهم ومنازلهم على أن يكونوا خاضعين للملك ويخدموه فى الحرب ويؤدون

الخدمات المفروضة عليهم ومنها الدفاع أيضا عن المدينة . وقبل الملك ألفونسو الثالث هذه الشروط وبناء عليه بدأت اجراءات التسليم بتقدم عشرة من الفرسان مقابل عشرة من المسلمين لتسليم قلعة المدينة. ولكن حدثت تطورات، إذ أن البعض من جنود القلعة رفضوا الإذعان للتسليم ورفضوا الاستسلام ، مما أعاق دخول الملك إلى القصر خوفا على حياته، وقرر القضاء أولاً على هذه الجماعة الرافضة. وبدأ القتال بمحاولة البرتغاليين فتح أحد أبواب القلعة ولكن المسلمين قاوموا بشدة، ومات من الطرفين كثير من الرجال، مما دفع الملك إلى الصعود بسرعة إلى أحد الأبراج لكي يرى جيشه ويصدر تعليماته حتى تم القضاء على القوة المدافعة عن القلعة، ثم الاستيلاء على المدينة في شهر مارس سنة ١٢٤٩م - ٦٤٧هـ^(٨٥). وقام الملك بتنظيم أحوال المدينة وعين حاكماً للمدينة هو استفاو بيرز Estevao Pires de Tavares وهو أحد النبلاء البرتغاليين الذين حضروا حصار أشبيلية^(٨٦)، وإن كسنت هناك رواية بأن البرتغاليين اقتحموا المدينة وأنها فتحت عنوة، وحدث خلل وهرب سكانها ودخل البرتغاليون وقتلوا كثيراً من المسلمين^(٨٧). ولكن الرواية الأولى لا تختلف كثيراً عن الثانية إذ أجمعت عليها المصادر البرتغالية .

وكان السماح لمسلمي المدينة في البقاء مقابل دفع الجزية ويمثل سياسة اتبعتها كثير من ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية في أنحاء وفترات مختلفة، وذلك لما هو معروف من الاستعانة بالمسلمين في كثير من الصناعات والزراعات لتقدم المسلمين في شتى مجالات الحضارة. ورأت مملكة البرتغال مثل غيرها الاستفادة من هؤلاء المسلمين خاصة في هذه المدينة التي تعتبر من أهم موانئ الغرب ولها نشاط تجاري كبير .

وبعد الاستيلاء على فارو قرر الملك غزو باقي القلاع الصغيرة في الغرب ولذا قسم جيشه إلى عدة جيوش وأرسل أحدها وهو مكون من جماعات رهبان فرسان ابيز بقيادة مقدمهم مارتين فرديناند D. Martin Fernandez لكي يهاجموا مدينة البوقيرة Albuferia فنجحوا في الاستيلاء على المدينة ولكن قبل دخول المدينة حضر الملك وخير سكانها بين الرحيل والبقاء ومنح المدينة لجماعة ابيز، وفي نفس ذلك الشهر ، وهو شهر مارس سنة ١٢٤٩^(٨٧)، توجه جيش آخر من البرتغاليين يتألفون من جماعة القديس شانت ياقب بقيادة بايو إلى مدينة سلير Selir واستولوا عليها^(٨٨)، ثم انضموا إلى جيش الملك وتوجهوا إلى مدينة لولى Loule واستولوا عليها بعد مقاومة ضعيفة من جانب المسلمين ، وقتل عدد من الجانبين ثم استولوا على الجزر Aljezur، فلتة بورشز Porches^(٩٠). وانفصل بايو بجيشه واستولى على مدينة

سان فيكفت San Vicante وكان بها الكثير من المسلمين فقتل وأسر الكثيرين بها^(٩٠).

وجدير بالذكر أن بعض القلاع السابقة كان قد تم الاستيلاء عليها من قبل في عهد الملك سانشو، ولكن يبدو أن المسلمين انتهزوا فرصة الحرب الأهلية الدائرة في البرتغال واستطاعوا استعادة هذه الأراضي والقلاع مرة أخرى.

وقد أشار هرقلانو إلى أن البرتغاليين أخضعوا مرة أخرى قلاع مثل امونت Aiamonte وكاسلا Cacela وطبيرة Tavira ، وهي قلاع كان قد استولى عليها في عهد سانشو الثاني^(٩١)، وجدير بالذكر أن المصادر البرتغالية لم تشر إلى هذه الاستيلاءات أو إلى أحداثها مرة أخرى.

أما آخر ما أشارت إليه الروايات من حركة التوسع البرتغالية فكانت مدينة الفجر Al-faghar وبها مدت البرتغال حدودها حتى شاطئ المحيط في سنة ١٢٥٠م^(٩٢)، بالإضافة إلى عدد من القلاع شرقى نهر وادي يانه مثل أروطه Arode واروسينه Aracena^(٩٣). وهكذا وصلت البرتغال في عهد الفونسو الثالث في سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ إلى حدودها المعروفة وتم إنهاء الوجود الإسلامي غربى نهر وادي يانه.

وجدير بالذكر أنه أثناء هذه الفتوحات الأخيرة وخاصة شرقى وادي يانه حدث نزاع بين مملكة البرتغال ومملكة قشتالة إذ رأت الأخيرة أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق التي تعتبر مجالا لفتوحاتها ، مما جعل النزاع يدب بين البرتغال وقشتالة . وكان ملك البرتغال يرى أن هذه الأراضي هي الامتداد الطبيعي لأملكه^(٩٤).

كذلك رأت مملكة قشتالة أن حقوقها تنسحب أيضاً على بعض القلاع في غرب وادي يانه، خاصة أن بعض المصادر القشتالية أشارت إلى أن بايو كان يعمل لحساب مملكة قشتالة، وأنه استولى على تلك الأراضي باسم مملكة قشتالة . وهناك مدونة قديمة تشير إلى أن بايو استولى على عدة أماكن في الغرب كان قد فتحها لحساب ملك قشتالة^(٩٥).

ويشير دوراتي ردا على ذلك بأن بايو قد انفصل عن تبعية ملك قشتالة وأصبح تابعاً لملك البرتغال^(٩٦)، فهل يعنى ذلك أنه في الفترة السابقة كان بايو يعتبر تابعا لملك قشتالة، والواقع أن بايو كان من أعضاء جماعة شانت ياقب التي كان من مراكزها الرئيسية في البرتغال مدينة بلماله Palmela كذلك أصبح حاكم قصر أبى دانس بعد الاستيلاء عليه في

سنة ١٢١٧م وكان كلما استولى على مدن وأراضى بادر الملك سانشو الثانى وأصدر المراسيم بمنحه هذه المدن والأراضى للدفاع عنها وتعميرها ، ولكن ترى أن وجهة النظر الطبيعية هى أن البرتغاليين استولوا على بعض المناطق من الأراضى التابعة لابن محفوظ وهو على علاقة قوية وتبعية لمملكة قشتالة. وترى الأخيرة أن هذه الأراضى التى كانت تابعة لابن محفوظ فى مناطق ومجال فتوحات مستقبلية لها ، أما الاعتماد على أن بايو يريز كان تابعا لمملكة قشتالة، على أساس أنه كان تحت تبعيته فى حصار إشبيلية فإنه بحكم كونه زعيماً من زعماء جماعات الرهبان الفرسان . وكان يرى ميدانه هو القتال ضد المسلمين سواء أكانوا فى الأراضى التى تعتبر امتداد لمملكة قشتالة أو الأراضى التى تعتبر امتدادا لمملكة البرتغال. ومما يؤكد وجهة نظرنا أن المدونة العامة الأولى لتاريخ أسبانيا تشير إلى أن بايو وهو من جماعة شانت ياقب البرتغاليين ومعه العديد من الفرسان والنبلاء البرتغاليين اشتركوا فى حصار إشبيلية (٩٧) .

وقد فند برنداو هذا الرأى وأشار إلى أن المصادر القشتالية تشير أن الأراضى التى فتحها بايو لاتقع فى مجال فتوحات البرتغال، وأن الأراضى التى اكتسبها كانت تحت رعاية وتبعية فرديناند ملك قشتالة. وعقب برنداو أن هذا بعيد عن الحقيقة (٩٨) .

وهكذا أصبح المسلمون فى غرب الأندلس بين شقى الرعى، أى بين القشتاليين والبرتغاليين. وكان سقوط أشبيلية سنة ١٢٤٨م إيذانا بانتهاء الوجود الإسلامى فى غرب الأندلس ، إذ أن القواعد والمدن الباقية توالى سقوطها . وهكذا تكاملت الفتوحات القشتالية والبرتغالية . وكان المسلمون آنذاك ينحسرون فى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، وهو ما أصبح مملكة غرناطة لبنى الأحمر، وكان المرجع الرئيسى لسقوط هذه القواعد هو الانقسامات والخلافات بين زعماء الموحدين ، وانقسام الأندلسيين فيما بينهم وما ترتب على ذلك من ثورات الأندلسيين ضدهم مما قسم الأندلس فرقا وشيعا.

وهكذا نجحت مملكة البرتغال فى انتزاع القواعد والمدن الأندلسية فى غرب الأندلس حتى وصلت حدودها جنوبا إلى المحيط الأطلنطى ، وإلى حدودها المعروفة ولم يكن ذلك نتيجة لقوة مملكة البرتغال أو نشاط ملوكها فحسب بل لضعف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم منذ موقعة العقاب سنة ١٢١٢م . واتسمت تلك الفترة بتسوية النزاعات بين الممالك المسيحية وتوحيد جهودها وقواها ضد المسلمين فى الأندلس ، استغلالا لهذا الضعف والانقسام الذى اعترى الجبهة الإسلامية فى الأندلس .

الحواشى

١- Capello ذو الثوب الكهنوتى اشتهر بهذا الاسم وأطلقت عليه جميع المدونات هذا الاسم وقد أشار أشباخ والمدونات البرتغالية أنه اشتق من الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة بالإضافة إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل على أثر مرض ألم به- ثوب راهب تبركا بالقدّيس أوغطين ووفاء لنذر نذرتة متى شفى . أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٢١٤ .

٢- أشار دنيس ولد سانتشو الثانى فى ٨ سبتمبر ١٢٠٢ Denis , F: Historia de Portugal. Barce- lone 1845 , p. 18. ويتفق معه أشباخ أنه كان لديه العشرين من عمره حينما خلف أباه نفس المرجع ، ص ٢٠٧ وإن كان المؤرخ دوراتى يشير إلى أنه كان لديه من العمر عند وفاة أبيه ٢٦ عاما Daurte Nunes de Leao . Chronica del Rei Sancho II. Cronicas dos Reis de Portugal . Porto 1975 , p. 125 .

وكانت أمه هى دونيا اوراكا ابنة الفونسو الثامن ملك قشتالة . Duarte . Op. cit, p. 123 .

٣- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر :

Cronica do Rei D. Sancho II . Cronicas dos sete primeiros Reis de Portugal , Lisboa 1952 , pp. 211-217 . Duarte, Op. cit, p. 127 .

أشباخ : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٠٧ .

٤- Herculans , A. Historia de Portugal. T2, Lisboa 1982 , pp. 349-350 .

٥- ابن عذارى: البيان المغرب، القسم الثالث (الموحدين) انطوان ١٩٦٠، ص ٢٤٧، ابن أبى زرع ، الأئيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط ١٩٧٢م ص ٢٤٧ .

Huice : A. M, Historia Politica del Imperio Almohade T2 , tetuan , 1956 , p. 450 .

٦- ابن عذارى: البيان المغرب ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ : ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٢٤٤-٢٤٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٥٩-٣٥٤ : أشباخ : تاريخ الأندلس، ج ٢ ص ١٥٦ وانظر تفاصيل أوضاع الموحدين أيضاً فى :

Herculano, Op. cit. T2 , pp . 365-366, Peres, D. Historia de Portugal, vol 2. Barcelos, 1929 , p. 214 .

٧- ابن عذارى : البيان المغرب، ص ٢٤٩-٢٥٠ : الحميري، صفة جزيرة الأندلس، القاهرة ١٩٣٧، ص ٦٠-٦١ .

Cronica Latina de los Reyes de Castilla, Universidad de cadiz 1984, pp. 65-66 .

٨- مدينة طلياطة «بالأندلس بينهما وبين أشبيلية محلة من عشرين ميلا ومن طلياطة إلى ليلة محلة مثلها» الحميري : نفس المصدر، ص ١٢٨ .

٩- أشار عنان إلى أن مارتين سانشيز هو ابن لسانشو الثاني.

عنان : نفس المرجع ، ص ٣٥٤ وأشار أيضاً ويشى ميرانده Huici في ص ٤٤ أنه ابن سانشو الأول وفي صفحة أخرى وهي ٤٥٤ أشار أنه ابن سانشو الثاني وقد أشار إليه هرقلاتو أنه ابن سانشو الأول، Herculano , Op. cit, pp. 298-299 .

وجدير بالذكر بحثنا من خلال المدونات لم نجد من أبناء سانشو الثاني ما يدعى مارتين ، وهو في الواقع ابنا لسانشو الأول، وقد أشار بيريز أنه عم سانشو الثاني Peres, Op. cit. cit., p.214 وهو أيد ذلك لأنه دوارتي أشار أن سانشو الثاني عندما تولى كان لديه من العمر ٢٦ عاما وهذا ما ينفي أن يكون مارتين ابنا له ولزيد من التفاصيل عن هذه الغزو انظر . Duarte Op. cit, p. 129

١٠- الحميري : نفس المصدر، ص ١٢٨-١٢٩ : عنان : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

١١- بالإضافة إلى روايات ابن عذارى وابن أبي زرع عن هذه الغزوات انظر :

Ganzalez ., J: Las Conquistas de Fernando III en Andalucia , Madrid 1946 , p. 28-37,

Huici, Op. cit, T2 , pp. 454-456 , Fortunato, Historia de Portugal. TI, coimbra 1922 .

pp . 204-205 ,

ولزيد من التفاصيل انظر عنان : نفس المرجع والجزء ص ٣٥٧-٣٦٣ .

١٢- كان سانشو قد تلقى مساعدات من البابا هونوريوس في ١٢٢٥م لأجل أن يتجهز لقتال المسلمين.

Peres. Op. cit, T2 , pp. 214-215 .

١٣- Herculano , Op. cit. T2 . pp. 371-372 , martinz, M. R: Historia del Reino de Bad-

ojoz, Badojoz 1905 , p. 248 .

Serrao , J. V: Historia de Potrugal , vol I , Lisboa 1979 , p. 127 .

-١٤

Herculano , Op. cit, T2 , p. 273 .

-١٥

Brandao , A. Monarquia Lusitana . Parte 4 , Lisboa 1974 , p. 125 CF. also: Fortunato, Op. cit, p. 205 ; Serrao P.OP. cit, p. 127 ; Stephens, H.M; Portugal. London 1891 , p. 75 .

Brandao , A, cronicas de D. sancho II ED. Alfonso III, porto 1946, p .26 ; CF . also -١٧ ; Peres , Op . cit, 12 , p. 215 ; Denis , Op. cit, p. 18 Stephens, Op. cit. Loc cit., Martinez, Op. cit., p. 279-280 .

Herculano , Op. cit. T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit. p. 205 .

-١٨

Brandao , Man ... Lus ... Parte 4, p. 126 ; CF. also ; Peres , Op. cit, p. 215 ; Lomax, -١٩ D.W; La Reconquista. Barcelana 1984 , p. 186 ; Sergio, A; Breve interpretacao da Historia de Portugal . Lisboa (N.D), p. 21 .

أشباح : نفس المرجع ، ص ٢٠٨ .

Beirao , G: Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D), p. 14 .

-٢٠

Herculano , Op. cit. T2 , pp. 374-375 ; Fortunato Op. cit, Loc cit; Serrao , Op. cit. -٢١ p. 128 ; Mattoso, A.G: Historia de Portugal , vol.I . Lisboa 1939 , p. 70 ; Martinz , Op. cit, p. 287 .

Fortunato , Op. cit, p. 208 ; Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonso Henriquez a -٢٢ lo suppression des templiers, Paris 1977 , p. 39 ; Serrao , Op. cit. Loc cit.

Radriego, Op. cit, p. 274 ; Brandao, Cranicas de D. sancho II, p. 40, CF. also : Ser- -٢٣ rao , Op. cit, p. 128 ; Herculano Op. cit, p. 398. ; Peres Op. cit, p. 220 .

Herculano , Op. cit, p. 419 .

-٢٤

Peres, Op. cit, p. 223 ; Fortunato, Op. cit, Loc cit.

-٢٥

-٢٦ نتيجة لنشاط الفونسو بيريز ضد المسلمين فقد تلقب بلقب فارس في جماعة فرسان رهبان الاستبائية والذي أصبح سيد الجماعة في البرتغال وحارب المسلمين مدة ٢٢ سنة على الحدود البرتغالية الإسلامية ثم بعد منحه هاتين القلعتين اختار البقاء في مورا . Moura Peres, Op. cit, p. 223 .

٢٧- أشار دوريك الطليطلى إلى أنه سانشو الثانى استولى على شيرة وعلى قلاع أخرى عديدة دون توضيح Rodrigo , opcit, p. 274 ولزيد من التفاصيل عن هذه الاستيلاءات انظر , Herculono Op. cit, pp. 420-422 Fortunato , Op. cit, loc cit, serraio , Op. cit, loc cit, : stephens, Op. cit, p. 76 .

٢٨- وقد أشار البابا جريجورى التاسع فى مقدمة الرسوم «جريجورى أسقف وخادم خدام الله وكل الأخوة المسيحيين فى مملكة البرتغال يكونوا تحت حمايتنا ورعايتنا مع ملكهم الشهير ملك البرتغال سانشو الثانى ومن أجل حملاته ضد أعداء المسيح وأيضا كل النبلاء فى أراضيهم والذين قادوا الجيوش عن طريق البحر وخدمتهم للكاثوليكية تشملهم بحمايتنا وعائتنا ... الخ» انظر نص هذا المرسوم فى: Brandao , Crônicas de D. S. ancho II , pp. 67-68 ; Basto : Cronica de cinco Reis: de portugal, vol I, porto (N.D), pp. 170-174 . CF. also serraio , Op. cit loc cit .

أشار أشباخ إلى البابا جريجورى الحادى عشر والواقع أنه التاسع، أشباخ، نفس المرجع والجزء ، ص ٢٠٨ .

٢٩- Peres, Op. cit, p. 190 .

أشباخ : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٠٦ .

٣٠- Herculano , Op. cit. p. 433 ; Fortunato , Op. cit, p. 208 ; sergio , Op. cit, p. 21 .

٣١- Brandao, Crônicas de D. sancho II, p. 56 ; Cronica Rei D. A fonso !!!, pp 253-255 . CF. also : serraio , Op. cit, p. 128 ; Beirao, Op. cit, p. 14 .

٣٢- Herculano , Op. cit, loc cit; Peres, Op. cit, p. 224 .

٣٣- Brandaa, Mon Lus ..., parte 4 . p. 140 .

٣٤- ابن عذارى: البيان المغرب- قسم الموحدين، ص ٢٥٣-٢٥٥ ؛ أبى ابن زرع روض القرطاس ، ص ٢٤٩-٢٥٣؛ عنان ، نفس المرجع، ص ٣٦٤-٣٦٥ .

٣٥- ابن عذارى : البيان المغرب.(قسم الموحدين)، ص ٢٥٣، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٤٧-٢٤٩ .

٣٦- ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٢٥٠-٢٥١ ، عنان : نفس المرجع ص ٢٦٨-٢٦٩ . Huici, Op. cit . pp. 473-474 .

٣٧- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٢٥٣ ؛ عنان : نفس المرجع ، ص ٣٨٢ .

٣٨- لمزيد من التفاصيل عن ابن هود وثورته انظر:

ابن أبي زرع : روض القرطاس : ص ٢٥٢-٢٥٣ ، ص ٢٧٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٧٧-٢٨٦ ؛ عنان : نفس المرجع ، ص ٤١١-٤١٥ ؛ أشبناخ ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

Castro, Op. cit, pp. 69-70 .

٣٩- أشار إليها الحميري ، « على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس ، ضفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٥ وأشار إليها الإدريسي » حصن مارتلة المشهور بالمنعة والحصانة ضفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس تحقيق دوزي امستردام ١٩٦٩م ، ص ١٧٩ ولمزيد من التفاصيل عن المدينة وحصانتها وأثارها انظر دراسة : . Pavon: B; Ciudades Y Fortalezas Lusomusulmanas, Madrid 1993, pp. 34-46

٤٠- Brandao , Crônicas de D. sancho II, p. 65 ; CF. also ; Fortunato , Op. cit., p. 208 ; coelho , Op. cit, p. 323; sergio , Op. cit, p. 27 .

٤١- أشار براندو إلى أنه توجد إحدى الروايات أنه تم الاستيلاء عليها في عام ١٢٣٤م عندما أسبغت البابوية رعايتها على الحروب الصليبية في البرتغال.

Brandao Mon... Lus .., p. 141 .

٤٢- Brandao , crônicas de sancho II, pp. 65-67 ; CF. also : serrao , Op. cit, p. 129 ; Lo-max, Op. cit, p. 188; peres, Op. cit, p. 244 ; castro , Op. cit, pp. 71-72 .

أشبناخ : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٤٣- البور تقع على بعد ١٦ كم من شلب ويشير هرقلاتو إلى أن هذه القلاع (البور) كانت أسست لخدمة القرى المجاورة ومركز للدفاع عنها.

Herculano , Op. cit, p. T2, p. 45 .

٤٤- Duarte, Op. cit, p. 173 ; Cronica del Rei D. Alfonso III. p. 256 ; crónica Reinos de Portugal, p. 204 ; CF. also : collho , Op. cit, p. 324 .

٤٥- Cranico do Rei D. Alfonso III, p. 256 , Brndao, crônicas de sancho II, p. 69 .

Coelho , Op. cit, p. 324 .

٤٦-

٤٧- Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 260 ; CF. also ; serraio , Op. cit, p. 129 , Fortunato, Op. cit., Loc cit; Peres, Op. cit , p. 224 ; mattsoso, Op. cit, pp. 70-71, Stephens, Op. cit, p. 78 .

أشباح: نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

٤٨- Brandao , Cronicas de sancho II, p. 67 .

٤٩- Serraio, Op. cit, p. 129 .

قلعة رودريك في غير قلعة مدينة رودريك Ciudad Rodrigo والأخيرة تقع في مملكة ليون .

- وجدير بالذكر أن جميع الروايات اختلفت في سنوات وترتيب الاستيلاءات على المدن والقلاع الإسلامية وإن كانوا اتفقوا أنها ما بين ١١٣٨-١١٤٢ م .

٥٠- Brandao , Cronicas de Sancho II, p. 69 ; Cronica Do Rei D. Alfonso III, p. 257 ; Cronica de cinco Reis de portugal, p. 205 .

٥١- Duarte, Op. cit, pp. 173-174 ; Cronica do Rei P. Alfonso III, pp. 266-267 , CF also. Coelho , Op. cit, p. 325 .

٥٢- Coelho , Op. cit loc cit.

٥٣- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 70.

٥٤- Ibid p. 72 .

٥٥- Brandao , Mon ... Lus .., T4, pp. 146-147 ; CF. also ; Coelho, Op. cit, Loc cit.

٥٦- Duarte, Op. cit , pp 174-175 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, p. 202 .

٥٧- هناك رواية أنه قرر الانتقام من سكان المدينة لأنه قد أرسل خمس فرسان مع بدرو رودريك لاستطلاع أحوال المدينة ولكن قتلهم المسلمين في منطقة انتس Antes فانتقم من المسلمين في تلك المدينة.

Cronica de cinco Reis de Portugal, pp. 208-209 , CF. also : Coelho , p. 328 .

- بحثنا عن اسم ابن فلول من خلال ما أتبع لنا من المصادر ولم نعر على أي معلومة عنه أو اسمه.

٥٨- Brandao , Cronica de Rei Di . Sancho II, p. 71 ; Duarte, Op. cit, p. 176 ; coelho ,

Op. cit Loc cit, castro Op. cit, p. 699 Fortunato, Op. cit, p. 208 .

- والاستيلاء على المدينة أضيفت إليه بعض الأساطير مثل أسطورة السبع صيادين (قناصين) ويطولاتهم في الاستيلاء على المدينة.

Denis, Op. cit, p. 22 .

وإن كان دنيس Denis قد وصف الاستيلاء عليها في عهد الفونسو الثالث .

Brandao : Cranio de Sancho II, p. 74- CF - also : serrao Op. cit, p. 129 ; castro ,

Op. cit, p. 69 ; Fortunato, Op. cit p. 208 sergio , Op. cit, p. 21 .

٦٠- يشير إليها الإدريس بقوله : «حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ولها غلات وجنات وشرب أهلها من واديها الجارى بجنوبها وعلى أرجاء البلد والبحر منها غربا على ثلاثة أميال ولها مرسى في الوادى وبها الانشاء والعود بجبالها كثير يحمل منها إلى كل الجهات والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة بديعة المباني مرتبة الأسواق وأهلها سكان قراها عرب من اليمن وغيرها وهم يتكلمون بالكلام العربى الفصيح الصريح... ومدينة شلب على اقليم الشنشين وهم اقليم به غلات التين الذى يحمل إلى أقطار الغرب.

- الادريسى : صفة المغرب ، ص١٧٩-١٨٥ ولزيد من التفاصيل عن مدينة شلب انظر الحميرى: نفس المصدر، ص١٠٦ : أبو الفدا : تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص١٦٧ .

٦١- لمزيد من التفاصيل عن أهميتها وأحداثها انظر بحثنا عن مدينة شلب بين البرتغاليين والصليبيين والموحدين ١١٨٩-١١٩١م . ألقى هذا البحث في الندوة التاريخية الأولى للعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى من ٢٠ أكتوبر ١٩٩٢م بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

٦٢- Duarte , Op. cit, p. 177 ; cronica do Rei D. Afons III v pp 269-270, cronica de cin-co Reino de Portugal , p. 214 .

٦٣- Brandao, Cronicas de D. Sancho II, pp. 72-73 ; cronica do Rei D. Alfonso III, p. 270; coelho , Op. cit., p. 330 .

٦٤- Duarte, Op. cit., p. 178; Coelho, p. cit, Loccit. -٦٤

Brandao , Cronicas de D. sancho II, 73 . -٦٥

Marques, Op. cit, p. 164 . -٦٦

Coelho , Op. cit, loc cit .

-٦٧

٦٨- لمزيد من التفاصيل انظر بحث جونثالث عن فتوحات الملك فرديناند الثالث في الأندلس .

Gonzales, J. Las conquistas le Fernando III 3n Andolucia, Madrid, 1946 .

عنان : نفس المرجع ج٢ ، ص٤١١-٤٢٠ .

٦٩- ابن أبي زرع ، روض القسـرطاس ، ص٢٧٣-٢٧٥-٢٧٧ ؛ عنان : نفس المرجع، ج٢ ، ص٤٣٨-٤٤٤ .

- Masia, A: Introduccion a la Historia de Espana, Barcelana 1943 , pp. 190-191 .

٧٠- لمزيد من التفاصيل أنظر ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص٢٧٧-٢٨٦ ، عنان : نفس المرجع ، ص٤١١-٤٣٦ .

٧١- ابن عذاري: البيان المغرب ، قسم الموحدين، ص٣٢٢ ، ابن أبي زرع ، روض القسـرطاس، ص٢٧١ ، عنان ، ص٤١٦ .

٧٢- Castro: Niebla, p.71 وهي رسالة عن مدينة لبله.

٧٣- كان ألفونسو متزوجا من ماتيلده صاحبة هولونيا وورثتها وأصبح أمير لهذه الولاية وكان وثيق الصلة بالكنيسة حتى أنه وعد بأن يقود حملة إلى المشرق لمحاربة المغول وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمي الأندلس، ولمزيد من التفاصيل انظر Cronica Do Rei D. Alfonso III, pp. 24 - 252 .

أشباخ ، نفس المرجع ، ص٢١٢ .

٧٤- انظر تفاصيل الحروب الأهلية والنزاعات بين الملك سانشو الثاني وأخيه ألفونسو الثالث ثم وفاة سانشو في:

Duarte, Opcit, pp 134-138 ; Cronica do Rei D. Alfonso III, pp. 229-241 ; Brandao , Cronica de Rei D. Sancho II, pp. 90-110 ; CF also : castro , Op. cit., pp. 72-73 ; Val-deavellano, Op. cit., pp. 135-136 ; Molina, Op. cit, p. 30 .

- أشباخ ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢١١-٢١٤ .

- أشباخ : نفس المرجع، ج٢، ص٢١٥ .

٧٦- Brandao , Cronicas de Rei D. sancho II, p. 139; Cronica do Rei D. Afonso III, p. -

253 , Pimera cronica general de Espana , p. 765 ; CF. also : Lafeuent , Op. cit, pp.

398-399 ; Serrao, Op. cit, p. 137-138 ; Schantal , Op. cit, p. 47 ;

Isidorò de las cagigas, sevilla Almohadey Ultimos anos de su vida nusulmano ,

Madrid 1951 , pp. 31-33 .

Duarte , Op. cit, p. 181 ; Herculano , Op. cit, pp. 19-20 , Peres, Op. cit, p. 244 . -٧٧

-٧٨- أشار إليها الحميري بقوله «شنتمرية على معظم البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد وفي مدينة متوسطة القدر حسنة التربة، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب وارده وصادرة وهي كثيرة الأغراب والتين وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا. وهي مدينة أولية وبها دار صناعة للأساطيل وبازائها جزائر في البحر» ضفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤-١١٥ ، الإدريسي: نفس المصدر، ص ١٧٩ .

Brandao , Cronicas, p. 148 ; CF . also : coelho , Op. cit, p. 331 . -٧٩

Brandao, Cronicas, p. 150 ; CF also : Denis, Op. cit, p. 21; serrao , cit, p. 138 ; For- -٨٠
tunato , Op. cit, p. 215 .

Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF . also : coelho , Op. cit., p. 33 . -٨١

Coelho , Op. cit., p. 331-332 . -٨٢

Ibid. -٨٣

Brandao , Cronicas, p. 150 ; Duarte Op. cit., p. 182 ; CF . also ; Herculano , Op. cit, -٨٤
T3 . p. 20 ; Mattoso, Op. cit, p. 71 ; Peres Op. cit, p. 254 .

- عنان : نفس المرجع ج٢ ، ص ٤٩٢ ، أشباخ ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٢١٥ .

- وهناك رواية أن تم الاستيلاء على المدينة في شهر يناير سنة ١٢٤٩م . . Coells, Op. cit, 333 .

Brandao, Op. cit, pp. 150-151 ; coelho, Op. cit, pp. 332-333 . -٨٥

Coelho , Op. cit., p. 332 . -٨٦

Brandao , Mon .. lus parte 4, pp. 182-183 . Duarte , Op. cit, p. 183 ; CF . also : Her- -٨٧
culano, Op. cit, T3 . pp. 21-22 ; Peres, Op. cit., p. 254 ; Stephens, Op. cit, p. 80 ; cas-
tro , Op. cit, p. 72-73 .

Duarte , Op. cit ., p. 182 ; CF . also : coelho , Op. cit, 331 . -٨٨

Brandao , cronicas , pp 151-152 ; cronica do Rei D. Alfonso III, p. 278 ; CF also : -٨٩

Fortunato , Op. cit., p. 216 ; coelho , Op. cit, p. 216 ; Beirao , cit, p. 17 .

Duarte, Op. cit, loc cit ., cronica do Rei D. Alfonso III, p. 278; CF . also : serrao -٩٠

Op. cit, p. 138 .

Herculano , Op. cit., T3, p 21 ; CF. also : Stephens, Op. cit, p. 80 . -٩١

Herculano , Op. cit, T3, pp. 21-22 . -٩٢

Serrao , Op. cit., p. 138 . -٩٣

أشباح ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٤٩٣ .

Castro, Op. cit., p. 70 ; Fortunato, Op. cit., p. 216 . -٩٤

Serrao, Op. cit, p. 138 . -٩٥

Duarte, Op. cit., p. 181 ; CF. also . -٩٦

Primera cronica general de Espana, pp. 766-767 . -٩٧

-Brandao, Cronicas de D.S ancho II, pp. 148-149 . -٩٨

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر البرتغالية والأسبانية :

- Brandao , A:

1- "Monarquia Lusitana Parte 3, Parte 4, Lisboa 1973 .

2- Crônicas de D. Sancho II ED . Alfonso III, Porto 1946 .

- Cronica de cinco Reis de Portugal,

Edicoa M. Basto, vol I, Porto (N.D).

- Cronica Latina de los reyes de castilla.

Traoduccion luis chorlo Brea, un . de cadiz 1984 .

- Crônicas dos sete primeiros Reis de Portugal.

1- Cronica do Rei D. Sancho II.

2- Cronica do Rei F. Alfonso III .

Edicao Critica carlos do silva tarouca, vol I.

- Duarte Nunes de leao :

Crônicas dos Reis de portugal .

1- Chronica del Rei D. Sancho 11 .

2- Chronica del Rei D. Alfonso 111 Porto 1975 .

- "Primera Cronica general de Espane"

Publicada P or Ramon Menendez Pidal T2, Madrid 1955 .

- Rodrigo Jimenes de Rada

"Historia de los hechos de Espana" Madrid 1982 .

ثانيًا : المصادر العربية :

- ابن أبي زرع : (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) أبو الحسن علي بن عبدالله
« الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »
الرباط ١٩٧٢ .
- ابن الخطيب : (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله
« أعمال الأعلام، أو تاريخ أسبانيا الإسلامية » بيروت ١٩٥٦م.
- ابن عذاري : (ت ٧١٢ / ٣١٢م) أبو عبدالله محمد المراكشي
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب القسم الثالث (تاريخ الموحدين) نشر
- وثنى ميراندة تطوان ١٩٦٠م.
- أبو الفدا : (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل
« تقويم البلدان » باريس ١٨٩٠م.
- الأدرسي : (ت ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) الشريف محمد بن عبد العزيز
« صفة المغرب وأرضي السودان ومصر والأندلس ووصف أفريقيا وإسبانيا » .
تحقيق دوري امستردام ١٩٦٩م.
- الحميري: عاش في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، أبي عبدالله محمد
بن عبدالله بن عبد المنعم
« صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار » تحقيق
ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧ .

- Beirao, G :

Historia breve de Portugal, Lisboa (N.D).

- Cagigas:

Sevella Almohade Y ultimos anos de su vida Musulmana., Madrid 1951 .

- Castro : F. R:

Niebla Musulmana (Siglos VIII - xIII, Madrid 1993 .

- Chantal : S

Historia de Portugal, 400, Borcelone 1960 .

- Coelho : A. B:

Portugal na Espanha Arabe, vol 2 , Lisboa 1989 .

- Denis: F:

Historia de Porugal, Barcelona 1845 .

- Fortunato de Ameida:

Historia de Portugal" tl, Coimbra 1922 .

- Gonzalez: J:

Las conquistos de Fernando III en Andalucia" madrid 1946 .

- Herculano : A

Historia de Porugal, t2 , t3 , Lisboa 1982 .

- Huici : M

Historia Politica del Imperio Almohade , t2 , Tetuan, 1957 .

- Lafuente : M;

Historia general de Espana " t1, Barcelona 1877 .

Les Hospitaliers de la morte de D. Alfonson Henriquez a la suppression des templiers, Paris 1977 .

- Lomax, D:W:

la Reconquista " Barcelona 1984 .

- Mattoso, A.G.

“Historia de portugal” vol I, lisboa 1939 .

- Marques, O

Historia de portugal lisboa 1976 .

- Martins, M: R:

“Historia del Reinado Badajoz” Badajoz 1905 .

- Masia, A.

Introduccion ala Historia de Espana, Barcelona 1949 .

- Molina, R:

Portugal , sevilla 1979 .

- Pavon , P:

Ciudades Y fortalezas lusomusulmanas Madrid 1993 .

- Peres, D:

“Historia de Portugal” vol 2, Barcelos 1929 .

- Sergio, A:

Breve interpretacao da Historia de Portugal Lisboa (N.D).

- Serrao, J.V:

- Historia de Portugal vol I , lisboa 1979 .

- Shantal, S:

Historia de Portugal , Barcelona 1960 .

- Stephens , H.M:

Portugal London 1891 .

- Valdevellano , L.G:

Historia de Espana , Antigua Y Medievel, Madrid 1980 .

رابعاً: المراجع العربية والمترجمة:

- محمد عبدالله عنان:

عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، القاهرة، سنة ١٩٦٤ .

- أشباح :

تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين، القاهرة ١٩٩٦ .

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر *

أوروبا (الحضارة والحرب) فى كتابات المثقفين المصريين إبان الحرب العالمية الثانية

تعد الفترة الممتدة من مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فترة التجارب والتأسيس فى نظرة المجتمع المصرى إلى الحضارة الغربية^(١). فقد أحدثت الحملة صدمة ثقافية عبر عنها الجبرتى عند زيارته المجمع العلمى الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها إلى مصر (بأنه رأى عجباً وشاهد أعمالاً لا قبل لأمثالنا بها) على حد تعبيره^(٢).

نافذة على الغرب

وربما كان المغزى الأول للحملة أنها أوضحت بشكل صارخ أن مصر أصبحت جزءاً جوهرياً من تطلعات السيطرة الأوربية الغربية حرياً وسياسياً واقتصادياً^(٣).

كما كان من نتاج الحملة أيضاً أن أول نافذة تفتح لمصر على الغرب كانت نافذة فرنسية فحدث التصور بأن حضارة الغرب ما هى إلا الحضارة الفرنسية ، لذا كانت الاستعانة خلال فترة التحديث بالمخترعات والنظم الفرنسية، بعد أن أدرك محمد على بأنه لابد له من الأخذ بأساليب الحضارة الأوربية. وكان استدعاء الأجانب وإرسال البعثات هو بداية حلقة جديدة من

* مدرس التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

حلقات اتصال العقل المصرى بأوروبا. وامتازت هذه الحلقة بالكثافة والتنظيم^(٤) وهكذا انتقلت العلاقة من لقاء الدهشة إلى اللقاء المدروس عن طريق البعثات. ويمكن القول بأن التأثير الأوربي سرى فى كيان المجتمع المصرى عن طريق البعثات وعودة المبعوثين بالجديد إلى أرض الوطن^(٥).

ومثل عصر إسماعيل عصر الانفتاح على أوروبا والنقل منها فى كافة نواحي الحياة. وكانت له مقولة بأن «مصر لم تعد فى أفريقيا بل أنها أصبحت بالفعل جزءاً من أوروبا»^(٦).

التيار الليبرالى وحضارة أوروبا :

ثم ظهر التيار الليبرالى قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان أحمد لطفى السيد ومعاصروه مثل طه حسين وهيكمل وعباس العقاد قد اعتقدوا مبدأ الحرية التى أصبحت محور تفكيرهم^(٧). وعبر هؤلاء عن أفكارهم على صفحات المجلات والجرائد وفى كتابة القصص والروايات التى تتبنى أفكارهم وقضاياهم .

وقد رأى هؤلاء أن طريق النهضة المصرية ينبغى أن يبدأ من حيث بدأت النهضة الأوربية . ولم يأبه هؤلاء باتهامهم بأنهم ناقلون لتعاليم إفرنجية، فقد كانت حجتهم أن طبيعة الموقف الحضارى أن تنقل الأمة آثار الأمم المتقدمة عليها فهذا وحده شرط السبق والابتكار، وهذا يعنى رفضهم لطمس الذات^(٨).

وكان هذا الجيل الليبرالى المتطلع عبر البحر المتوسط إلى أوروبا هو الذى رأى فى معاهدة ١٩٣٦ تقدماً وتصحيحاً لمسار العلاقة بين مصر وأوروبا^(٩).

فنجده طه حسين يرحب كمعظم رجال جيله بمعاهدة ١٩٣٦ ويستقبلها بالتفاعل دون أن تخدعه الأوهام عن حقيقتها^(١٠).

وقد اعتبر طه حسين أن المعاهدة وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى اتفاقية مونترو ١٩٣٧ بمثابة عهد جديد للتصالح الحضارى الدائم بين مصر وأوروبا بعد أن انتهى خصامهما السياسى. فكتب فى كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) ١٩٣٨ يقول : «هل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع^(١١)، وهكذا أصبح أمامنا طريق واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم

لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»^(١٢).

ورغم إعجاب طه حسين بحضارة أوروبا فإن منهجه كان الأخذ بأسباب تقدم أوروبا وحضارتها وليس النقل والمحاكاة بما يدخل فى إطار التقليد الأعمى : فقد تساءل : لماذا هذا التقليد للأجنى ؟ إننا لن نستطيع محاكاتهم إلا إذا التقينا بأنفسنا ثقافياً وأصبحنا مساوين للأجنى بحيث لايجرؤ أن ينظر إلينا باحتقار^(١٣).

ولاشك فى أن هذا الاتجاه كان مرفوضاً من قبل الكتاب المثقفين ثقافة حقيقية ، ففى مقال كتبه أحدهم ورمز لاسمه بحرف (ع) (جلسنا نتحدث فمال بنا الحديث فيما مال إلى مبلغ شعورنا بقوميتنا ومبلغ حرصنا على مظهرها .. وكانت أشد الأقوال إبلاماً لنفوسنا أننا قوم نتلاشى فى غيرنا ويسهل على أية قوة أن تسوقنا حسبما تريد. وقطع النقاش دخول صديق فى رفقته شاب أراد أن يمنح هؤلاء المحاورين دليلاً مادياً على ما يختلفون عليه، فأخذ يتحدث فى عبارات عربية إنجليزية مكرراً قوله .. «لما كنت فى إنجلترا» كأنما يخشى أن ينسى المستمعون أنه كان هناك !! وختم الصحفى مقاله بأنه فى المصريين من سافروا فتلقوا العلم فى أوروبا ثم عادوا إلى وطنهم محتفظين بمظاهر قوميتهم فإن قلداو غيرهم قلدهم فى العظام وأخذوا عنهم ما يشرفهم، ونبذوا ما يشينهم)^(١٤).

وعودة إلى رأى الليبراليين ممثلاً فى طه حسين نقول بأنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن مصر تنتمى إلى الغرب لا إلى الشرق. أما المنطلق الحضارى لهذه الدعوة فيتلخص فى الفرضية القائلة بأن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط^(١٥). وعليه فالعقل المصرى- عبر هذه الرابطة المتوسطية- عقل أوربي غربى يشارك أوروبا جذورها الحضارية منذ اليونان والرومان^(١٦).

ولذلك كان طه حسين من المؤيدين لدراسة الإنسانىات الغربية، وكان فى رأيه أن دراسة أرسطو وشيشيرون تعنى إنشاء جسر جديد بين مصر والبحر والمتوسط بما يعنيه ذلك من تقوية للجسور القديمة بينهما^(١٧).

وهكذا نستطيع القول بأن هؤلاء الليبراليين اتجهوا فى فترة ما بين الحربين اتجاهاين: فقد توخوا من جهة خلع السيطرة السياسية الأوربية عن بلادهم. لكنهم أقروا من جهة أخرى بتفوق المدنية الأوربية، كما أنهم اعتقدوا بأن معونة أوروبا ضرورية لتحقيق الاستقلال^(١٨).

ولأن فترة ما قبل الحرب شهدت حالة من الاضطراب فى البيئة الحضارية للأمة نتيجة وجود تيارات فكرية متباينة ^(١٩) فطبيعى أن نجد فريقاً مخالفاً لهذه التيارات يبدأ رحلة البحث عن الانتماء والهوية بدلاً من التحقيق عبر المتوسط ومحاولة التطابق مع أوروبا فى الهوية، إلى مد البصر عبر سيناء نحو إنتماء العروبة والإسلام.

وكان المازنى من الداعين إلى الفكرة العربية، وعندما نشبت المعركة الشهيرة بين طه حسين وساطع الحصرى حول الفرعونية والعروبة كان توفيق الحكيم يرقب تلك المعركة ويطرح فكرة «التوفيقية بين مصر والعروبة» ^(٢٠).

وكانت الطبقة الوسطى الجديدة هى التى وعت الواقع بحكم موقعها الاقتصادى والثقافى، وهى التى رأت ضرورة التوفيق بين النقائص الفكرية والحضارية المتصارعة بإعتبارها فئة عربية مسلمة منغرسه الجذور فى تاريخها وعقيدتها من ناحية، وباعتبارها من ناحية أخرى طليعة اجتماعية مخلصه انفتحت على قبس من روح العصر الحديث وشعرت بوطأة الغرب الحديث وخطره وأهميته وحاجتها إليه وأعجابها العظيم بإنجازاته، كل ذلك ممتزج بكرهها الشديد له لتسلطه وغطرسته وتفوقه الذى لا يحتمل .

ومن هنا كانت النبذة الحادة فى صوت هذه الطبقة ضد الاستعمار والغرب، واللهفة فى الوقت ذاته للتحضر والتحديث وربط روائع الحضارة العربية الإسلامية بمكتشفات أوروبا الحديثة ^(٢١).

روح الشرق

ونلمح أن قضية الاهتمام بالروحانيات، من صفات الشرق، كانت من القضايا التى تناولها الكتاب فى تلك الفترة، وفى كتاب «الشرق والغرب» كتب أحمد أمين بأن الغرب يأخذ بالسببية ولا يعنى بخبرات هذا العالم وأن روحه علمية وتفكيره فى الشؤون الاقتصادية تفكير عقلى فى حين أن الشرق لا يفتقر إلا إلى اقتباس روح الغرب العلمية ويعطى العالم ما عنده من «روحانيات وأديان وتأملات» ^(٢٢).

أما العقاد فأحتج بأن الأوربيين «قد خدعونا ، فصدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس، وإننا أهل روح ولسنا أهل مادة». ويرى العقاد أن الأمة كلها من أوروبا نفسها، فقبل اتصال أوروبا بالشرق لم يقل أحد إن الشرقيين أهل أحلام وخيالات وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع ^(٢٣).

ولا يعنى هذا أن العقاد كان يرفض اهتمامنا بالشعر والأدب. فعندما نشر «أحمد الصاوى» مقالاً فى الأهرام يناشد الشباب المصرى على هجرة الأدب والشعر والانصراف إلى العلم والاختراع ، وختم مقاله بقوله «أسكتى إذن يا آلهة الشعر، لقد ذهب أوانك وتلاشى سلطانك وأخرجى أيتها الأرض شباباً واقعيّاً قوياً يفل الحديد بالحديد والنار بالنار لا بالقصائد والأشعار»^(٢٤). عندئذ احتج العقاد على ذلك، واشترك فى الرأى مع الزيات فى رفض العلم المجرد والمدنية القاسية التى لا روح فيها ولا مبدأ . حيث أنه لابد للفكر أن يكون له نصيب من الروح كما أن له نصيبه من المادة^(٢٥).

سنوات التكوين

وإذا كانت تلك هى فكرة كبار مصر ومثقفىها فى تلك الآونة ، فماذا عن فتية مصر وشبابها فى تلك الفترة ؟! إننا يمكن أن نجد فى ذكرياتهم وماضيهم نفس الإعجاب والانبهار الواعى أيضاً ، ولكن بروح شابة فتية ... وإذا كان المبعوثون والكتاب قد سجلوا آراءهم وفقاً لما شاهدوه فى سفراتهم ، فالشباب شاهد أوربا أولاً من خلال الكتب والروايات. يقول «لويس عوض» : أنا كنت عارفاً ل لندن قبل ما أسافر من مصر، بس عن طريق الكتب والروايات ، كنت أرسم فى خيالى خرائط لوستمنستر وبيكاديللى».

«لما كنت فى ثانوى كان فيه مجلات مصرية تسأل : إذا كنت ولدت فى غير القرن العشرين متى تحب أن تولد ؟! كنت أفكر أن أعيش فى عصر الثورة الفرنسية عشان أقرأ روسو وأكتب بنفسى على حيطان التويلرى بالطباشير (الحرية والإخاء والمساواة)»^(٢٦). وبعد ما أتيحت لكاتب هذه السطور زيارة الأماكن التى قرأ عنها سجل مشاهداته فكتب عن كمبريدج : «شفتها زى ما تصورت مش فى التفاصيل؛ لكن فى الجو والأبعاد والظل والألوان .. فيه حاجات كثيرة فى كامبريدج تخليها قرية من قرى العصور الوسطى».

إقرأ شعر «توماس جراى» «تلاقى فيه أوصاف كثيرة تنطبق على كمبريدج»

وعن زيارته لكنيسة الملك كتب : «دخلت كنيسة الملك عشان أدرس العمارة القوطية.. أشوف الكنيسة طويلة قوى وعالية قوى، تملأنى الرهبة، ولو كان السقف سانداه عواميد كان تحول إلى سقف معبد وثنى لإله خلقه ضيق يحب الانتقام ، لكن الفراغ الكامل بين الحيطان والسقف أكدوا فى نفسى الخشوع .. حيث إزاي الفن القوطى العمودى فن مسيحى»^(٢٧).

ومع انبهار الكاتب بما شاهده لم يخف استياءه من فكرة الناس فى أوربا عن مصر حيث كانت فكرة كثيرين منهم «أنها صحراء واسعة سخنة ومغروز فى وسطها هرم ونخل» (٢٨).

«فنظرة هؤلاء الشباب للقاهرة كانت مليئة بالإعجاب فقد كتب عبدالله عنان يصفها قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بأن العهد بلغت فيه قمة البهاء وال عمران فقد كانت يومئذ مدينة عظيمة- جميلة نظيفة تغطى شوارعها الكبرى المحلات الكبرى والمقاهى الأرستقراطية والمسارح التى تعرض أحدث الأعمال الأوربية» (٢٩).

وكان لعنان اهتماماته فى مختلف المكتبات الأوربية مثل مكتبة الفاتيكان بروما والمتحف البريطانى ومكتبة أكسفورد بالإنجلترا ومكتبة باريس الوطنية ومكتبة فينيا الوطنية- ومكتبة ليدن الهولندية (٣٠).

ولأن تخصصه الأول كان فى الدراسات الأندلسية فقد سجل إعجابه بمكتبة قصر الأسكوريال الشهيرة التى تتضمن مخطوطات أندلسية ومغربية بالإضافة إلى إعجابه بالشعب الأسباني وكتابه ومفكره الذين يروج إنتاجهم فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية (٣١).

ومثل الاهتمام والقراءة باللغات الأجنبية جانباً مهماً من تكوين الشباب بإتقان اللغة الإنجليزية راجع إلى رأى كتبه محمد حسين هيكل فى إحدى مقالاته بأن الأديب العربى لا يمكن أن يستغنى عن القراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل (٣٢).

أما سهير القلماوى فرأت أن القراءة باللغة الإنجليزية فتحت أمامها أبواب الثقافة العالمية على مصاريعها، ساعدت على إنعاش ثقافتها القومية وفتحتها على أفاق بعيدة (٣٣).

وسجل مصطفى سويرف انبهاره بالأدب الإنجليزي وخصوصاً أدب أوسكار وايلد (٣٤).

بين الأصالة والانبهار

ولقد شهدت تلك الفترة تيارات فكرية متناثرة سياسية واجتماعية ودينية، بعضها يمثل منظمات وقوى سياسية واجتماعية وبعضها يمثل اتجاهات فردية فى الإطار العام لحركة الفكر المصرى (٣٥).

فكان للتيار الإسلامى رأى فى تلقى العلم من الغرب؛ فكتب أحد أقطابه . «إن الإسلام يتسامح فى أن يتلقى من غير المسلم فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية وأمثالها.. ولكنه لا يتسامح فى أن يتلقى

أصول عقيدته ولانظام حكمه ولاموحيات فنه وأدبه من مصادر غير إسلامية». وفي الوقت نفسه يصف سيد قطب الحضارة الغربية «بجاهلية العصر الحديث» ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية. و«من ثم تجب الحيلة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية من أية ظلال فلسفية تتعلق بها»^(٣٦). وفي ذلك تأكيد من أصحاب هذا الفكر على ضرورة النقل من الغرب مع توخي الحذر خلال ذلك.

وإذا كنا قد عرضنا لموقف تيار آخر تجاه حضارة أوربا فقد كان هناك دلائل على محاولات التوفيق بين المقتبس والموروث، فقد كتب البشري في مذكراته عن ثقافة المدنية الحديثة، التي وجدها في النخب الاجتماعية الجديدة وأساليبها الحديثة في نشر الثقافة والمعارف والصحافة، وما تنقله من صور المجتمع الغربي والإذاعة ونغمات الموسيقى الأوربية والمسرح وتراجم الأدب الأوربي^(٣٧). وفي الوقت ذاته رأى أن أجل ما كان له في جيل المطرشين أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوى العمائم في حاضرهم ومستقبلهم ورغم ما أندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوربا، ذلك الانبهار الذي يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن في الاختيار، رغم كل ذلك فقد كان موصول العروق بالرؤوس المعجمة مقراً ومعتزاً بينوته لهؤلاء^(٣٨).

وقد وضحت مسألة الصراع بين الارتقاء في أحضان الغرب أو العودة إلى التراث والكلاسيكيات حتى في كتابات الروائيين ففي رواية «قنديل أم هاشم» عرض «يحيى حقي» مسألة الاختيار، فالبطل القادم من دراسته في أوربا يعود إلى احترام المقدسات بعد أن كان رافضاً لها. وسلط حقي بذلك الضوء على الصراع الذي يعانيه شعب بأسره في الاختيار بين الكفاءة التي يستحضرها من مصدر غريب عن كيانه وبين الأصالة التي لا توجد إلا في هذا الكيان^(٣٩).

الحرب :

وفي الوقت الذي انشغل الكتاب المثقفون بما يجب أن تكون عليه علاقة مصر بحضارة أوربا وعلمها، كانت الأزمة الدولية على أشدها، وكان شبح الحرب يبدو قوياً في الأفق، وبدأت القارة الأوربية في أوضاعها السياسية والعسكرية الجديدة بنفس الصورة التي كانت تظهر بها

قبل نشوب الحرب الأولى فقد ظهرت فى تلك الفترة كتلتان من الدول الأوربية : كتلة الدكتاتورية ممثلة فى محور برلين- روما ، وكتلة الدول الديمقراطية ممثلة فى محور لندن- باريس الأولى ليست فى الواقع إلا صورة جديدة للتحالف الثلاثى الذى عقد فى أواخر القرن التاسع عشر بين ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا . والكتلة الثانية وهى محور لندن- باريس ليست إلا امتدادا وتجديداً للوفاق الودى الشهير الذى عقد بين إنجلترا وفرنسا ١٩٠٤ ، وكان أساساً لتحالف الدولتين فى الحرب العالمية الأولى^(٤٠).

وكان موقف مصر الدولى غير واضح من الحرب والأطراف المتصارعة فيها فى البداية. كان موقف مصر غاية فى الدقة والحساسية ، فالذين يقولون بأن مصر ليس لديها ما تكسبه بل لديها كل ما تفقده بسبب ذلك، كانت رغبة مصر فى التعاون مع بريطانيا تعلو وتنخفض حسب سير معارك الحرب نفسها^(٤١). وأصبحت انتصارات الألمان فى الميادين المختلفة تشعر مصر بأن اشتراكها فى الحرب إلى جانب الإنجليز مراهنة على الجواد الخاسر، لذا أصبح مبدأ «تجنب مصر ويلات الحرب» هو المبدأ المسيطر على السياسة المصرية خلال الحرب. ويكفى ما تقوم به قوات بريطانيا فى صحراء مصر وفى منطقة القناة بالإضافة إلى المساعدات التموينية، فكل ذلك يكفل لمصر أن تكون لها مطالبها فى أعقاب الحرب^(٤٢).

وهكذا أخذت الحرب العالمية الثانية تضغط بظلمها الثقيل على البلاد وأعلنت الأحكام العرفية، وفرضت الرقابة على الصحف وأخذت أنوار السلام تنطفىء حتى عم الظلام العالم كله.

ويصف محمد ذكى عبد القادر شعوره بقوله :

«خيل لى أنتى وقد بدأت استقر فى حياتى بعض الشئ ، بدأت أنعم بهدوء الخاطر، أمارس عملى فى استمتاع ، وأبنى حياتى فى سلام كأن الحرب قد جاءت لتفسد كل ما غزلت.. كأنها جاءت من أجلى أنا وحدى».

ولاشك فى أن جانباً كبيراً من الخوف لم يكن شخصياً بقدر ما كان تمرداً على واقع تعيشه البلاد تحت الاحتلال حيث تساءل الكاتب «ما ذنبنا نحن حيث نعيش؟ ألمانيا وفرنسا بينهما ثار قديم ، وبريطانيا دولة ذات امبراطورية تريد أن تحافظ عليها ، وما لنا نحن ؟!! ولكننا حلفاء بريطانيا .. حلفاء بالنبوت. وهكذا حظ الضعفاء من الشعوب»^(٤٣).

ويمضى الكاتب يصف فى حسرة وألم كيف امتلأت القاهرة بالجنود البريطانيين والاستراليين وغيرهم، وصارت الأضواء مغطاة باللون الأزرق الكثيب بالمقاهى والمحال العامة التى كانت تتلأأ بالأضواء أصبحت كثيبة، وانطوت المدينة الساهرة الفاتنة على نفسها، اجترت أحزانها فى داخل قلبها وطوت صدرها على مآذنها وقبابها وكفائها وأثارها ومفاخرها، تريد أن تزود عنها الشر النازل من السماء^(٤٤).

إذا انتقلنا إلى كاتب آخر هو الدكتور محمد حسين هيكل نجده لم يشغل نفسه بنشاط سياسى يذكر لعدة شهور بعد إعلان الحرب، حتى فكر فى العودة إلى الكتابة والاهتمام بكتابه «حياة محمد» و«فى منزل الوحي»، وقراءة المصادر العربية والأجنبية.. ويقول هيكل: أن جو الحرب العالمية الذى أحاط به فى أثناء هذه القراءة كان له أثره فى معاونته على الاندماج فى العمل حتى شعر أن يعيش فى ذلك الصدر الأول للإسلام يجاهد مع المجاهدين ويغزو مع الغزاة الفاتحين^(٤٥).

وقبل أن تجذبنا أحداث الحرب التى لانهاية لها فى تلك الفترة أود أن أرصد صدى إعلان الحرب على اثنين من شباب المثقفين فى تلك الفترة نقلا عن مذكراتهم.. فيقول أنور عبد الملك: «بداية الحرب العالمية، الظلام يسود القاهرة والإسكندرية، بدأت ألتهم الكتب السياسية والفلسفية.. كما فعل على ما اعتقد معظم الجيل الذى كان على موعد مع القدر، كان التساؤل هو: ما العمل؟ كيف يمكن الإفادة من صراع الدول الكبرى لزعة قبضة الاستعمار البريطانى الحديدية على أرضنا والقضاء على الاحتلال. ثم ما معنى التحرير أو الاستقلال الحقيقى؟!^(٤٦).

أما طارق البشرى فكتب عن مصر والحرب هذه «إنها نقطة تقاطع المكان والزمان مع بداية إدراك الصبى بجماعته وأمته لم تكن مصر فى هذه الأيام محتلة فقط بمثل ما عرفت من قبل لأن الاحتلال كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الحركة وكان ذا وجود كثيف وحركته تضاعف من كشافته.. وشارك الإنجليز فى الاحتلال أصناف وألوان من جند الحلفاء من الأمريكين والهنود الأفارقة»^(٤٧).

وبدأ الوجود الاستعمارى بصورته الغليظة أمام العيان بغير غطاء وبغير تجميل وظهرت شخصيتان عظيمتان فى الوعى الاجتماعى: شخصية «غنى الحرب» بجهله وفظاظته وسوقيته وشخصية «أرست الحرب» بإباحيتها وكل منها ثمرة وجود أجنبى بفيض وثمره حرب لا ناقة لنا فيها وجمل»^(٤٨).

وقد بدأ تأثير الحرب سريعاً وواضحاً في كافة جوانب الحياة، فهي هو أحمد حسن الزيات يشعر بقسوة الحرب على الصحافة وقطع الوارد عنها من الورق والحبر وأدوات الطباعة بالإضافة إلى صعوبة نقل الصحف . كما أن «الناس شغلوا بأخبار الحرب وأطوارها عن النظر في الأدب / للباب والفن الخالص، فلم يقرأوا إلا ما يتصل من قريب أو بعيد بهذه القيامة القائمة» (٤٩).

وأطلقت الحرب العنان لخيالات الكتاب لتأملها ودراستها. فعندما قال بعضهم بأن عدوى الحرب انتقلت للبشر من الحيوان؟! تساءل العقاد: «أين هو الحيوان الذي يحشد الأسراب والقطعان لقتال سرب أو قطيع من جنسه؟ بل أين هو الوحش الذي يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش في الغاب؟! فالحرب كما نعلمها في ميادينها البشرية إنما هي خاصة من خواص أبناء آدم!! هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض ويخرجون على نية القتال» (٥٠).

أما المازني فقد كتب عما ذكرته الصحف البريطانية عن الجديد في هندسة البناء نتيجة للحرب من حيث إقامة مباني ذات طبقات ممتدة في جوف الأرض يلجأ إليها الناس ويحتمون بها من الغارات الجوية، وتساءل المازني: «أترى سيعود الإنسان إلى حياة الكهوف؟! كيف تكون الحياة في المستقبل البعيد، إذا بقيت الحروب تدور بين جماعات الإنسان؟ أحسب أن اندساس الإنسان في جوف الأرض سيكون بداية انحطاطه. فما أغرب أن يكون رقيه الغلبي مفضياً إلى انحداره وهويده؟ وتلك جناية استخدام العلم في الحرب» (٥١).

وكان الزيات أيضاً ممن أزعجتهم سطوة الآلة وسرعتها، فقد تعجب من إعجاب الناس من السرعة الخاطفة عبقرية العصر ومزيتته!! فقد رأى أن هذه السرعة ليست عبقرية ولا مزية وإنما هي مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة: «فالحرب الحديثة لاتعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح وإنما تعتمد على سرعة الدواليب في الطائرة والسيارة والدبابة والغواصة، فأصبح الفرق بين الآلة والسيف في حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل في حصد الحنطة» (٥٢).

ويبدو أن غضبة الزيات على العلم كانت من القوة بحيث دعت العقاد إلى مهاجمة العلم هو الآخر وتمنى لو أن العالم «كر إلى عصر الجمل والحصان، وحرب السيف والسنان، ومدنية القلب واللسان، لينجو هذا العالم الذي يدمر ما يعمر، ويخلص من هذه الحضارة التي تأكل

ما تلد . وإن لم يكن العلم هو المسئول الأول عما يحدث : « فلو كر العالم إلى عصر الجمل والحصان وحرب السيف والسنان لما رضى الزيات، لأن هولاكو وتيمور قد صنعا بالحصان والسنان ما لم يصنع قادة هذا الزمان . . فأين يذهب العلم المسكين مع الإنسان » (٥٣).

المحور .. أما الحلفاء ؟

وكان طبيعياً أن يناقش هؤلاء الكتاب المثقفون مبادئ الأطراف المتصارعة فى محاولة لفهم تداعيات هذه الحرب واستقراء نتائجها . . ففى مقال للدكتور جواد على أوضح فيه الأفكار والمبادئ الهتلرية التى تقول بأن اقتصاديات الشعب مرتبطة بقوة وسلامة العنصرية فيه، وبما أن لكل شعب فكر خاص وعقلية تميزه عن الشعوب الأخرى فاقتصاديات كل أمة ونظمها التجارية يجب أن تكون وفق نظمها وقواعدها السياسية والاجتماعية والتاريخية .

كما أوضح أن فقر ألمانيا فى المواد الأولية يدعوها إلى إيجاد مصادر لها فى الخارج وهى المستعمرات ، حيث قسمت ألمانيا مبدئياً العالم إلى قسمين : أمم متحضرة مستهلكة ومصدرة وأمم كتب عليها أن تشتغل لتزويد هذه البلاد المختارة ؟ (٥٤).

وعلق العقاد على ما نشره جواد على من آراء للنازية وخصوصاً رأى القائل « بأن الهتلرية ترى أن خير حل لمشكلة العمل والعمال هو الاعتراف بمبدأ الملكية الشخصية ورأس المال، ولكنها ترى أن صاحب المال أو العمل من جهة أخرى هو مدير لماله أو لمعمله، أو قائد يتصرف به وفق الأنظمة والقوانين ، وكل من يحاول استغلال ماله عن طريق يخالف مبادئ النازية نصيبه العقاب الصارم أو الإعدام ».

فيرى العقاد أن ما ذكره هو حبر على ورق ؛ لا أثر له فى عالم الواقع. فهناك ألوف العمال الذين قتلوا بمحاكمة أو بغير محاكمة أو الذين أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال أو حرموا العمل فى أنحاء البلاد كافة لأنهم يطالبون أصحاب المصانع والشركات بحقوقهم. بينما لم يحدث أن قتل صاحب مصنع واحد أو قتل أو أرسل إلى معسكرات الاعتقال أو أغلق مصنعه لأنه ظلم العمال أو حرمهم حصتهم من الربح والأجر المعقول (٥٥).

وكان لعرض كتاب عبدالرحمن بدوى عن الفيلسوف الألمانى « نيتشه » صده لدى القراء الذين كانوا مهئين نفسياً لرفض التعاليم النازية وقسوتها. فالجرب التى تلقى بظلالها القاتمة عليهم هى عقيدة النازية التى تدعو الأمم للتنكر للسلام وعدم التجهم للحرب (فالسلام يقتل

حيوية الأمم المترفة المستسلمة.. فألمانيا تبتغى تقسيم العالم من جديد ، والشعب الألماني خلق للسيادة فلا بد أن يبسط سلطانه على العالم ليهيئ حضارة أعلى. وفي سبيل فرض السيادة على الدنيا لابد لألمانيا من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار، وبالإطلاع على مبادئ نيتشه في القيم الأخلاقية لانستطيع أن ندهش لتصرفات الألمان في أي بلد اجتاحوه. فعند نيتشه الضعيف يسمى العجز «إحساساً» ويسمى عدم القدرة على الانتقام «صبراً» ويسمى عجزه «تواضعاً». فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولا يبتغون إلا الظفر وتحطيم كل من يقف في سبيل تحقيق مثلهم السامية في الحياة، غير حافلين بدموع تسكب أو دماء تسفك ، لأن قلوبهم الصخرية وعواطفهم المتحجرة تملأها المطامع والغايات^(٥٦).

وكان ادعاء ألمانيا النازية التي أشعلت الحرب بأن غايتها من الحرب هو تحرير الشعوب وإقامة العدل بين الناس مبالغة دعت الكثيرين إلى رفض تصديقها تماماً^(٥٧).

وكان الزيات من الرافضين لخداع دول المحور فقد رأى في الإخلاص الإيطالي للإسلام والعطف الألماني على العرب دعاية موجهة رغم أن هناك بعض المخدوعين صدقوها فرددوا مقولة خاطئة بأن فيالق الدوتشي وكتائب الفوهرر لم تحشد في صحراء مصر وجبال البلقان ، إلا لتنقذ العرب والمسلمين من عذاب الديمقراطية البريطانية^(٥٨).

واقترن رفضه لدول المحور بإعجاب شديد بالتجربة البريطانية في الحرب «فعندما وقعت انجلترا بسطوتها وقوتها في مواجهة القوة الهتلرية وانهارت حليفاتها (فرنسا) في الحرب، طورت من جيشها وأسطولها بحيث استطاعت في أقل من خمسة أشهر أن تفسد على هتلر خطة الغزو التي أعدها»^(٥٩).

وترتفع نبرة الانبهار ببريطانيا في قوله : إن الله أمد الإنجليز بجيوش لا تقهر من الصبر والشقة بالنفس والإيمان بالله والحرية والديمقراطية ، فياليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع، حالفناهم كذلك على الآداب والخلق . لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء فأصبحنا وآسفاه بضلالات الأذهان عبرة للضعفاء»^(٦٠).

نتائج الحرب

ولقد وجدت الحرب من يدافع عنها أيضاً فخشونة الحرب وقسوتها كان لها تأثيرها الإيجابي على الشعوب، وكما يرى كاتب هذا المقال أن ألمانيا ألقت بسلاحها ١٩١٩ فشرطت عليها شروط وفرضت عليها الغرامات وأرادت أن تدفع عنها هذا الإجحاف فلم يسعها إلا قانون الخشونة فلجأت إليه وفرضته على الناس فرضاً، فشاع مبدأ: المدفع قبل الزيد. وبدأت مرحلة التسليح وإنهاء قوة ألمانيا .

أما فرنسا فلم توفق إلى ما وفقت إليه ألمانيا في الاستعداد لهذه الحرب والأخذ بالخشونة، فسلمت في أولى مراحلها . أما إنجلترا التي تمتعت بشمار انتصارها في الحرب الأولى فقد تباطأت لذلك في الاستعداد عن ألمانيا، ولكنها سارعت إلى اللحاق بركب التسليح فلما وقع حمل الحرب على كاهلها وحدها لم تنؤ به ووجدت فيها ألمانيا خصماً يساجلها ثباتاً بثبات ومقاومة بمقاومة^(٦١) .

ورغم إعجاب الكاتب بقانون الخشونة فإن الحرب دفعته إلى التأمل والتساؤل: «أخير هذه الحرب أم شر؟ فالشعوب التي كانت حرة استعبدت ، ومن هذه الشعوب شعوباً كان في إطلاق حريتها مجال فسيح لابتكار ما يفيد المدنية، فإذا علم المتحاربون ما في قانون القوة من قدرة على احترام الحرب وسعوا للتخلص منه، كانت هذه الحرب التي أثمرت هذه الثمرة بركة على الناس: فرمى خسر قانون القوة بعض الانتصار وكسب قانون العدل أنصاراً جديداً .. وخطونا خطوة في سبيل السلام»^(٦٢).

وفاق «سيد قطب» «محمد عرفة» في رأيه فلم يقل بأن للحرب والخشونة إيجابيات بل قال بأن للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هي تفوقها بالتأكيد . ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب تريباً لسموم السلام. «ف نجد فرنسا بعد الهزيمة وهي أشد حيوية وأكثر يقظة وأخذ كل فريق فيها يعمل لفرنسا وحدها لا لنفسه أو لحزبه ، أما ألمانيا فقد صنعت عام ١٩١٩ ما تصنعه فرنسا اليوم فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة ، ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس (هتلر) لانتفع بها العالم في التعمير بدل التخريب. أما في مصر ففيها من ويلات السلم ما لا يتصوره عقل . وفيها مشاحنات ومنازعات وفحش من الفقر والغنى .. ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيص والدعة المريضة والأمان التافه»^(٦٣).

غير أن قطب وصل حد المبالغة فى القسوة مع نفسه ومع بلاده فيقول : « علم الله لقد كانت أكبر أمنية لى أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة واحدة تظهرها كما تظهر النار الخبث وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة... اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركائنا ثائراً أو زلزالاً محطماً أو كارثة من كوارثك الرحيمة التى تنقذ بها عبدك من نعومة الأمن وويلات السلام» (٦٤).

حتمية المكان :

وكان للجغرافيين أيضاً تأملاتهم ودراساتهم للحرب باعتبارها مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض وبالتالي يمكن دراستها من جوانب متعددة فيدرسها علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة وحتى علماء النفس من حيث سلوك الأفراد والأمم .

أما علماء الجغرافيا فعليهم دراستها على أساس أن الإنسان لا يحارب فى الفضاء وإنما يحارب فى (المكان). وظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب ، إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها ، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها .

ولذا نجد الجغرافى القدير سليمان حزين يكتب عدة دراسات عن أهمية موقع مصر فى الحروب العالمية (٦٥). فيستعرض الحروب التى مرت بها مصر عبر تاريخها الطويل منذ حروب الإسكندر الأكبر مروراً بالحروب الصليبية ثم العصر الحديث وحملة نابليون التى نبهت الأذهان فى تلك المرحلة المخرجة إلى أهمية موقع مصر . وخرج «حزين» من الدراسة بحقيقة تختص بمصر وموقعها الجغرافى تقول بأن لم تحدث حرب عالمية بالمعنى الكامل الصحيح لهذه الكلمة ومنذ فتح الاسكندر باب هذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفاً فيها ولم تستطع مصر بموقعها الجغرافى الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التى دفعت إليها دفعاً أو انسأقت إليها انسياقاً (٦٦).

ورأى حزين أنه مهما قيل فى أسباب الحرب العالمية الثانية، فقد كان الغرض الأول منها هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصائر الأمم، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق. ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق، وجسراً تمتد من فوقه قنوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطمعاً للطامعين (٦٧). وهكذا نجد أن لهيب الحرب قد امتد إلى مصر والشرق الأوسط أكثر من أى جهة أخرى، وكان ذلك أمراً طبيعياً .

وإذا نحن راعينا كثرة مداخل الإقليم وأهميته الفريدة فى صلات الغرب والشرق، فإنه كان طبيعياً أيضاً أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما يزيد عن تأثير غيره من أقاليم الأرض وشعوبها، فقد أطعمت الحرب الظافرين فى هذا الأقليم ومراكزه العسكرية وموارده الكثيرة. وهكذا لم تكن تلك الحرب الجبارة وحدهم وإنما شارك فيها واكتوى بنارها الشرق الأوسط، وأمه وكانت مشاركتهم بمواردهم وأرزاقهم وأرواحهم^(٦٨).

وأعقاب الحرب:

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بدأت كتابات المثقفين تتناول قضايا جديدة تتعلق بآثار ونتائج الحرب عالمياً وموقع مصر من هذه النتائج.

فكانت خسارة ألمانيا فى الحرب الثانية تطرح فكرة أن الهزيمة العسكرية وحدها لا تكفى لانتزاع فلسفة القوة من عقلية الشعب الألمانى، بل قد تغدو الهزيمة ذاتها عاملاً فى إذكاء هذه الروح العنيفة، كما حدث عقب الحرب الأولى حيث أصبحت الهزيمة مبعثاً لفورة جديدة من القوة وشهوة الانتقام والسيادة^(٧٠).

لذا كانت دعوة الحلفاء لاتخاذ إجراءات نزع سلاح ألمانيا وتدمير قواها العسكرية ومواردها الاقتصادية.

وكان العامل الاقتصادى واضحاً منذ بداية الحرب التى لم تعد حرب مواقع عسكرية صحيحة، بل هى حرب اقتصادية فقد كانت ألمانيا بموقعها الجغرافى وظروفها الاقتصادية وضعف مواردها الأولية فى مركز أضعف من إنجلترا وفرنسا اللتين كانتا تسيطران على مستعمرات واسعة^(٧١). ولذا دخلت الحرب فى محاولة لشق طريقها إلى مغانم الاستعمار وتحقيق التفوق الاقتصادى^(٧٢).

وقام الحصار الذى ضربه الحلفاء حول ألمانيا خلال الحرب دليلاً على ذلك فقد استطاع هذا الحصار الخفى أن يمنع عن ألمانيا المؤن والأطعمة والزيت والمعادن الواردة من وراء البحار^(٧٣) غير أن الحياة الاقتصادية لم تتصدع فى ألمانيا وحدها، بل فى كافة أنحاء أوروبا، الأمر الذى يدعو إلى تعمير أوروبا ثانية عن طريق نزع سلاح ألمانيا نزاعاً دائماً وبذل عون لدول أوروبا لتعزيز قدرتها الصناعية مما يرفع من مستوى معيشتها حتى لا يكون الفقر والعوز فيها تربة تنبت فيها بذور الحرب مرة أخرى^(٧٤).

نحو نظام عالمى جديد:

كان الجميع يحلمون طوال أيام الحرب بعالم جديد تسود فيه العدالة الاجتماعية فى كل أمة. ولعل الهفوة الأولى التى ارتكبتها أوروبا بعد الحرب الأولى هى معاهدة فرساي التى فشلت فى تقليم أظافر ألمانيا وفى وضع أساس نظام عالمى جديد (٧٥).

وأصبحت ضرورة إيجاد عصابة جديدة للأمم هى محور كتابات الصحفيين والمثقفين فى أعقاب الحرب، على اعتبار أن المشاكل لا تحل والعالم لا يهدأ حتى تتغير عقلية الشعوب الكبيرة وعلى الأخص قاداتها (٧٦).

واتسمت الكتابات عن النظام العالمى الجديد بمقارنته مع عصابة الأمم خوفاً من أن تكون هيئة الأمم المتحدة هى عصابة الأمم القديمة متشحة فى ثوب جديد.

وحذر «عبدالله عنان» من كون نظام العصابة الجديدة يحتكم إلى قوة عسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة، فإذا كان هذا الأمر يبدو من بعض الوجوه ميزة عملية فإن من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسىء استعمال هذه القوة (٧٧).

وأضاف بأن تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها، فإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحريتها فى ظل هذا الصرح الدولى الجديد، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة وكان مصيرها المحتوم ما صرت إليه عصابة الأمم القديمة (٧٨).

وبذات الفكر تابع «محمود عزمى» أعمال المجالس واللجان فى الأمم المتحدة وأعلن عن خشيته أن تكون الليلة شبيهة بالبارحة ، أى أن الأمم المتحدة لا يميزها عن عصابة الأمم إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية، أما الرغبة فى سيطرة «العظيمات» على «الصغيرات» فواحدة (٧٩).

غير أن الكاتب شعر ببادرة تفاؤل نظراً للعلنية التى تمتاز بها الأمم المتحدة ، والتى كان من شأنها أن تجعل مناقشاتها فى مداول الساسة والعلماء والمفكرين بمجرد انعقادها ، مما يكون له أثره فى دفع هؤلاء فى مختلف البلاد فى رعاية فكرة التعاون العالمى والمشاركة فيه (٨٠).

أما الكاتب «محمد عوض محمد» فاهتم فى مقاله بدراسة نتائج الاستعمار الذى أشاع الفوضى والفساد فى الشئون والعلاقات الدولية، وبعد تعريفه للانتداب وأنواعه وكيفية

تطبيقه على يد عصبة الأمم القديمة، أوضح رأيه بأن الانتداب منذ طبق لم يكن سوى ثوب جديد تسترت به الشهوة الاستعمارية «ستراً جيداً أو ستراً رديئاً» ولم يتفاعل الكاتب هو الآخر كثيراً بعد دراسته للفروق الجوهرية بين النظام العالمى الجديد وعصبة الأمم القديمة^(٨١).

وبانتهاء الحرب واجهت مصر صعوبة فى استمرار علاقتها بالغرب، فإذا كان الغرب الذى اتخذت منه مصر معلماً قد خرج من الحرب العالمية الثانية حائراً مرتبكاً فاقداً للثقة فى نفسه، فكيف يمكن لهم أن يظلوا من أتباعه؟!.

وكما رأينا أصبح البحث عن حلول لمشاكل أوروبا والعالم قضية أساسية فى كتابات المثقفين المصريين، وفقدت أوروبا هيبتها السابقة، وأصبحت كلمة «الجللاء» فى أعقاب الحرب تعنى الرغبة الحقيقية فى التخلص من التبعية السياسية والثقافية لعالم لم يعد مبهرراً كما كان.

الحواشى

- ١- عزت قرنى : فى الفكر المصرى الحديث - محاولات فى إعادة التفسير القاهرة ١٩٩٥، ص ١٦١ .
- ٢- دار الهلال : التكوين .. حياة المفكرين والأدباء بأقلامهم - القاهرة ١٩٩٨، ص ٣١٦ .
- ٣- عزت قرنى : نفس المرجع ص ١٦٢ .
- ٤- نفسه ص ١٦٤ .
- ٥- لمزيد من التفصيل عن البعثات فى عصر محمد على، انظر : أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على- القاهرة ١٩٣٨ . وأيضاً : جمال الدين الشبال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ١٩٥١ .
- ٦- جاك بيرك : مصر . الأمبرالية والثورة . ترجمة : يونس شاهين القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٣٦٤ .
- ٧- ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢١٣ .
- ٨- عزت قرنى: نفس المرجع ص ١٨٥ .
- ٩- محمد جابر الأنصارى: تحولات فى الفكر والسياسة فى الشرق العربى (١٩٣٠-١٩٧٠) الكويت، ١٩٨٠، ص ٩٥ .
- ١٠- جاك بيرك : نفس المرجع ص ٣٦٣ .
- ١١- الأنصارى : نفس المرجع ص ٤٠ .
- ١٢- البرت حورانى : نفس المرجع ص ٣٩٤ .
- ١٣- جاك بيرك : نفس المرجع ص ٣٦٣ .
- ١٤- مقال بامضاء (ع) وعنوانه (صنع فى إنجلترا) الرسالة : مجلة أسبوعية - العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير سنة ١٩٤٠ ، ص ١٥ .
- ١٥- الأنصارى : نفس المرجع ص ٩٤ .
- ١٦- نفسه ص ٩٥ .
- ١٧- جاك بيرك : نفس المرجع ص ٣٦٤ .
- ١٨- حورانى : نفس المرجع ص ٣٨٧ .

- ١٩- قسطنطين زريق : الوعي القومي -نظرات فى الحياة القومية ١٩٤٠ ص ٧٧ .
- ٢٠- لمزيد من التفصيل انظر محمد جابر الأنصارى ص ١٤٠-١٤٩ . وأيضاً عاصم الدسوقي: مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٦ ص ٣٦٣ وص ٢٧١ .
- ٢١- الأنصارى : نفس المرجع ص ١٦٣ .
- ٢٢- حورانى : نفس المرجع ص ٣٩٤ .
- ٢٣- عباس محمود العقاد : لانخدع أنفسنا حتى يخدعونا - مجلة الرسالة- العدد ٣٦٧ الأثنين ١٥ يوليو ١٩٤٠ ص ١١٥٠-١١٥١ .
- ٢٤- عباس محمود العقاد: العلم أم الأدب- الرسالة- العدد ٣٦٥- الإثنين أول يولية ١٩٤٠ ص ١٠٩ .
- ٢٥- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة- الرسالة العدد ٣٦٢ الإثنين ٧ من يولية ص ٩٦٢ .
- ٢٦- لويس عوض: مذكرات طالب بعثة. القاهرة ١٩٦٥ ص ١٢٩ / ١٣٠ .
- ٢٧- نفسه ص ١٤٦-١٤٧ .
- ٢٨- نفسه ص ١٥٨-١٦٠ .
- ٢٩- محمد عبدالله عنان : ثلثا قرن من الزمان : القاهرة - بدون تاريخ ص ١١٥ / ١١٦ .
- ٣٠- نفسه ص ١٦٥ .
- ٣١- نفسه ص ١٤٤ .
- ٣٢- دار الهلال : التكوين .. شكرى عياد ص ٢١ .
- ٣٣- نفسه ، سهير القلماوى ص ٢٧٣ .
- ٣٤- نفسه ، مصطفى سويف ص ٧١ .
- ٣٥- عاصم الدسوقي: نفس المرجع ص ٢٦٩ .
- ٣٦- سيد قطب : معالم فى الطريق: دمشق ص ١٧٠-١٨٥ الأنصارى: نفس المرجع ص ٢٤٩-٢٥٠ .
- ٣٧- التكوين : طارق البشرى ص ٣٦ .
- ٣٨- نفسه : ص ٣٠ / ٣١ .
- ٣٩- جاك بيرك : نفس المرجع ص ٣٧٢ .

٤- الموقف الدولى واحتمالات الحرب والسلام- مجلة الثقافة السنة الأولى- العدد ١٩ . الثلاثاء ٩ مايو ١٩٣٩ .

٤١- عاصم الدسوقي: نفس المرجع ص ٣٤٣ .

٤٢- محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية - الجزء الثانى (يولية ١٩٣٧ - يولية ١٩٤٥) القاهرة ، ص ١٥٩ / ١٦٠ .

٤٣- محمد ذكى عبد القادر : أقدام على الطريق . القاهرة ص ٣٧٣ .

٤٤- نفسه ص ٣٧٤-٣٧٥ .

٤٥- محمد حسين هيكل : نفس المرجع ص ١٥٩ .

٤٦- التكوين : أنور عبد الملك ص ٢٨٣ .

٤٧- نفسه : طارق البشرى ص ٤٠ .

٤٨- نفسه ص ٤١ .

٤٩- أحمد حسن الزيات : الحرب والصحافة ، الرسالة ، العدد ٣٣٩ الأثنين أول يناير ١٩٤٠ .

٥٠- العقاد : الإنسان والحيوان والحرب الرسالة . العدد ٣٣٩ .

٥١- إبراهيم عبد القادر المازنى: الحرب ومستقبل الإنسان . الرسالة : السنة الثامنة - العدد ٣٥٠ - الإثنين ١٨ مارس سنة ١٩٤٠ ، ص ٤٨٥-٤٨٦ .

٥٢- أحمد حسن الزيات : من مزايا عصر السرعة . الحرب بين أمس واليوم . الرسالة العدد ٣٦٢ : الإثنين ١٠ يونيه ١٩٤٠ ص ٩٦٢ .

٥٣- عباس محمود العقاد : العلم المسكين. الرسالة العدد ٣٦٣- الإثنين ١٧ يونيه ١٩٤٠ ، ص ١٠١٧ .

٥٤- جواد على: عقيدة النازى المالية - الرسالة. العدد ٣٥٢ الإثنين أول أبريل سنة ١٩٤٠ ص ٥٧٧ / ٥٧٩ .

٥٥- عباس محمود العقاد : عقيدة النازى المالية . الرسالة . العدد ٣٥٣ الإثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٠ ص ٦٠٣-٦٠٤ .

٥٦- عبد المجيد نافع : ألمانيا بين نيتشة وهتلر «دين القوة» الرسالة ، العدد ٣٧٥ ص ٤٨،٤٥ .

- ٥٧- محمد عوض محمد : شئون الحرب وشئون السياسة : الثقافة العدد ٣٢٠ - الثلاثاء ١٣ فبراير ١٩٤٥ ص ١٦٦ .
- ٥٨- أحمد حسن الزيات: أمة التوحيد تتحد، الرسالة العدد ٣٨٤ الإثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٠ ص ١٦٧٤ .
- ٥٩- الزيات : : إنجلترا هي المثل . الرسالة العدد ٣٨٦ الإثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠ ص ١٧٣٠ .
- ٦٠- نفسه ص ١٧٣١ .
- ٦١- محمد عرفة : خواطر فى الحرب. الرسالة . العدد ٣٨٦ الإثنين ١٦ سبتمبر ص ١٤٥٥ .
- ٦٢- محمد عرفة : خواطر فى الحرب . الرسالة . العدد ٣٧٧ الإثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ ص ١٤٨٢ .
- ٦٣- سيد قطب : ويلات السلم : الرسالة ، العدد ٣٩٤ الإثنين ٢٠ يناير ١٩٤١ ص ٦٨ / ٦٩ .
- ٦٤- سيد قطب : نفس المرجع ص ٧٠ .
- ٦٥- سليمان حزين : بين الحرب والجغرافيا - الحروب العالمية وموقع مصر . الكاتب المصرى . العدد السابع أبريل ١٩٤٦ ص ٤١٤ .
- ٦٦- سليمان حزين : نفس المرجع ص ٤١٩ / ٤٢٤ .
- ٦٧- سليمان حزين: الشرق الأوسط والحرب- الكاتب المصرى العدد الثامن مايو ١٩٤٦ ص ٥٨٦-٥٩٠ .
- ٦٨- سليمان حزين : نفس المرجع ص ٥٩٠-٥٩٢ .
- ٦٩- محمد عبدالله عنان : نهاية ألمانيا النازية والمعضلة الألمانية الحقيقية «الثقافة العدد ٣٣١-٣٣٠- الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص ٤٧٤ .
- ٧٠- نفسه ص ٤٧٥ .
- ٧١- الصراع الاقتصادى أبرز مظاهر الحرب العالمية . الثقافة - السنة الأولى- العدد ٤٩ الثلاثاء ديسمبر ١٩٣٩ ص ٢ / ٤ .
- ٧٢- عبدالله عنان : نهاية ألمانيا النازية- الثقافة- العدد ٣٣١ الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥ ص ٤٧٤ .
- ٧٣- كيف حاصر الحلفاء ألمانيا : نقلاً عن إدارة الاقتصاد الخارجى بالولايات المتحدة- المختار- أبريل ١٩٤٥ .
- ٧٤- فؤاد صروف : المشكلة الاقتصادية الكبرى فى التسوية العالمية بعد الحرب- المقتطف المجلد ٦ - ١- ١ مايو ١٩٤٥ ص ٤٢٠-٣٢٣ .

- ٧٥- مقدمة لتاريخ الحرب العالمية الثانية- المقتطف أول يناير ١٩٤٠ ص ٩ .
- ٧٦- أحمد أمين : العالم الجديد- الثقافة العدد ٣٣٨ - الثلاثاء ١٩ يونيو ١٩٤٥ ص ٦٧٠ / ٦٧١ .
- ٧٧- عبدالله عنان : عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة - الكاتب المصرى مجلد ٢ العدد ٦ مارس ١٩٤٦ ص ٢٦٨-٢٧٠ .
- ٧٨- نفسه ص ٢٧١ / ٢٧٥ .
- ٧٩- محمود عزمى : انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم المتحدة - الكاتب المصرى- المجلد الثانى- العدد ٧ أبريل ١٩٤٦ ص ٣٨٩ .
- ٨٠- نفسه ص ٣٩٠ / ٣٩١ .
- ٨١- محمد عوض محمد : الانتداب والوصاية والاستعمار - الكاتب المصرى المجلد الثانى العدد ٧ - أبريل ١٩٤٦ ص ٤١٣ .

مصادر البحث

دوريات:

- الأعداد من ديسمبر ١٩٣٩ حتى مايو ١٩٤٦ .
- الرسالة : مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون .
- الثقافة .
- الكاتب المصري : مجلة أدبية شهرية .
- المختار
- المقتطف .

مراجع عربية :

- ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ - بيروت .
- جاك بيرك : مصر - الأمبريالية والثورة - ترجمة - يونس شاهين - القاهرة ١٩٨٧ .
- دار الهلال : التكوين - حياة المفكرين والأدباء بأفلامهم - القاهرة ١٩٩٨ .
- سيد قطب : معالم في الطريق - دمشق ١٩٦٥ .
- عاصم الدسوقي : مصر في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ - القاهرة ١٩٧٦ .
- عزت قرني : في الفكر المصري الحديث - محاولات في إعادة التفسير - القاهرة ١٩٩٥ .
- قسطنطين زريق : الوعي القومي - نظرات في الحياة القومية - ١٩٤٠ .
- لويس عوض : مذكرات طالب بعثة - القاهرة ١٩٦٥ .
- محمد جابر الأنصاري - تحولات في الفكر والسياسة في الشرق العربي ، ١٩٣٠ - ١٩٧٠ ، الكويت ١٩٨٠ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية - الجزء الثاني - يولييه ١٩٣٧ - يولييه ١٩٥٢ - القاهرة .
- محمد زكي عبد القادر : أقدام على الطريق - القاهرة .
- محمد عبدالله عنان : ثلثا قرن من الزمان - القاهرة بدون تاريخ .

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم *

الحملة الفرنسية على مصر حلقة في التنافس التجارى الدولى

نجحت البرتغال فى الوصول إلى رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨م والدوران حول القارة الأفريقية بهدف اكتشاف عالم البهار، وبالتالى تحويل التجارة إلى الطريق الجديد، والقضاء على طريق التجارة القديم عبر البحر المتوسط، وكان أن أدى هذا التحول إلى الدخول فى صراع مع دولة سلاطين الماليك فى مصر حتى انتهى الصراع بهزيمة الماليك فى موقعة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩م، مما أدى إلى انهيار دولتهم لتحل محلها الدولة العثمانية التى تزعمت الدفاع عن ديار الإسلام ضد المخططات البرتغالية الحبشية لغزو الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وتدميرها.

وقد قام السلطان العثمانى سليم الأول ومن بعده ابنه سليمان بتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية، ومنع السفن المسيحية من الدخول فيه حفاظا على المقدسات الإسلامية والعربية. ولما كان طريق التجارة القديم عبر مصر أقصر كثيرا من الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فقد حاولت الدول الأوروبية السعى لدى السلطان العثمانى لتسهيل مرور تجارتها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، ونجحت فرنسا فى عام ١٥٣٥ فى الحصول على امتياز باحتكار التجارة فى المنطقة وحق حماية الرعايا الكاثوليك فى أراضى الدولة العثمانية^(١).

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة.

ولما كانت فرنسا إحدى دول البحر المتوسط فقد رأت تجنب المنافسة بين إنجلترا وهولندا، حيث أن كلا منهما كانت تسعى إلى السيطرة على طريق رأس الرجاء الصالح، لذا رأت فرنسا أن تولى كل اهتمامها نحو إحياء الطريق البرى عبر مصر والبحر المتوسط، وذلك حتى تتمكن من تحقيق منافسة تجارية مع الدول الأخرى، خاصة هولندا وإنجلترا .

وقد ساعد الموقع الجغرافى فرنسا فى السيطرة على الطريق البرى مثلما ساعد الموقع البحرى كلا من هولندا وإنجلترا ومكنهما من التحكم فى رأس الرجاء الصالح^(٢).

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أخذت فرنسا تحتل المكانة التقليدية لكل من البندقية ونابلى ، خاصة بعد تحالفها مع السلطان العثمانى ، وصارت الدولة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى البلاط العثمانى ، وصاحبة حق رعاية الكاثوليك داخل الإمبراطورية العثمانية^(٣).

وكان أن بدأ الصراع منذ ذلك القرن بين الدول الأوربية من أجل السيطرة وبسط النفوذ ومحاولات التوسع للحصول على امتيازات من حكام المنطقة ، وإحياء الطريق البرى الذى يوفر المسافة بين أوربا والشرق، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد الثورة الفرنسية التى أحدثت انقلابا فى العلاقات السياسية فى أوربا كما أنها كانت ضربة قاصمة وجهت للنظم الملكية السائدة. وكان على القوى الأوربية أن تقف أمام أفكار الثورة التى دكت عروش الملكية. وقد دفع هذا الصراع القوى الأوربية إلى السيطرة على طرق المواصلات عبر مصر والشرق لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة، ولتأمين التجارة عبر هذه الطرق، ومن هنا جاء التفكير فى ضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند، وكان تاليران وزير الخارجية الفرنسى قد أدرك فوائد المستعمرات للدول الأوربية، وكانت الحكومة والرأى العام الفرنسى يميلان إلى القيام بعمل حربى حاسم، وغزو إنجلترا فى عقر دارها ، لكن نابليون أقنع حكومة الإدارة بخطورة ذلك، وأوضح أن غزو مصر لا يقل أهمية وأثرا عن غزو إنجلترا ذاتها، واستجابت حكومة الإدارة لثقتها فى عبقريته العسكرية^(٤).

من هنا كانت فكرة الحملة الفرنسية على مصر والتى أصبحت مجرد حلقة فى سلسلة الصراع الدولى للسيطرة على طرق المواصلات البرية ولاحتكار طريق التجارة عبر مصر، ومحاولة الحصول على امتيازات من حكام المنطقة للسيطرة على هذا الطريق البرى الهام.

وفى هذا السياق نحاول فى هذا البحث إلقاء الضوء على عدد من النقاط الأساسية والتى

تتمثل فى:

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر .

ثانيا : الحملة البريطانية للسيطرة على الطريق البرى .

ثالثا : اشتداد الصراع بين الدولتين أثناء الحملة وبعدها .

رابعا : الآثار التى ترتبت على هذا الصراع حول طرق التجارة البرية .

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر:

أدى تحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر إلى انزال الضرر البالغ بجمهورية البندقية ودولة المماليك فى مصر، يضاف إلى ذلك أن الصراع الحرى العنيف بين البندقية والدولة العثمانية الفتية التى ابتلعت شرق أوربا قد أجبر الأولى على الاعتراف بالأمر الواقع أى التفوق العثمانى فى هذا الجزء من البحر المتوسط ^(٥).

ومنذ القرن السادس عشر أقامت جالية فرنسية فى مصر، وكانت مصر إحدى ركائز الشرق التى أقامت بها الدول الأوربية وكالات تجارية، وحصلت الدول الأوربية على امتيازات تجارية تسمح للسفن الأوربية على حق تفريغ ركابها وبضائعها فيها ^(٦).

وكانت فرنسا أولى الدول التى حصلت على امتياز من السلطان العثمانى وذلك بمقتضى اتفاق عقد فى عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا فرانسوا الأول وسلطان القسطنطينية. وقد ضمنت هذه المعاهدة لرعايا فرنسا فى الدولة العثمانية حق الإقامة فى الثغور والمدن لأغراض التجارة كما ضمنت سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، وحرية العبادة لهم، وأن يخضعوا فى معاملاتهم الشخصية لقضاء القنصل الفرنسى، وألا يدفعوا رسوما جمركية تزيد عن ٣٪ من قيمة المتاجرة ، كما لا يتعرض عمال السلطان لتركات من يموت منهم ^(٧).

ولم يلبث أن حصل التجار الإنجليز على امتياز فى عام ١٥٨٠، كما حصل الهولنديون أيضا على امتياز فى عام ١٦٢٢ مثل امتياز الفرنسيين. وهذا يوضح أن الدول الأوربية المتنافسة كانت تحاول الحصول على امتيازات من الباب العالى حتى لا تتعرض تجارة أى منهم إلى مضايقات من الدول الأخرى. ويعطى هذا التنافس أهمية كبرى للطرق التجارية عبر مصر، خاصة بعد أن أغلق السلطان العثمانى البحر الأحمر، وجعله بحيرة إسلامية. وكان الهدف من هذه الامتيازات تنشيط التجارة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية دون أن تعطى للتجار الأجانب أى حق استعلاء على الرعايا المحليين .

وقد أثار فرانسوا الأول ملك فرنسا استنكار جزء من العالم الإسلامى لأنه أقام علاقات مع الدولة العثمانية رغم أن هذه المعاهدة ليست رسمية، لأن هذه الامتيازات إنما هى إنعامات يمنحها السلطان بصفة مؤقتة، ويجب أن تنال موافقة خلفائه . وفعلا وافق عليها السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٦٩ ، وباختصار فإنه منذ المعاهدة بين فرنسا والسلطان العثمانى حصلت الدول الأوربية على امتيازات مماثلة^(٨).

والمعروف أن هذه الامتيازات أعطت الدول الأوربية حق البيع والشراء فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، كما تمتع التجار بإعفاء من غالبية أنواع الضرائب، مع حق ممارسة الشعائر الدينية بحرية^(٩).

وكان النشاط التجارى الأوربى فى مصر فى فترة الحكم المملوكى العثمانى، خاصة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، يتجدد تباعا لمصالح الدول الأوربية خاصة انجلترا وفرنسا، وكانت هذه المصالح تتمثل فى التنافس على احتكار طريق السويس البرى، ورغم كشف طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة لم تتحول عن الطريق البرى عبر برزخ السويس، وظل الإنجليز والفرنسيون يستخدمون هذا الطريق^(١٠).

والواقع أن فرنسا أولت عناية خاصة بإحياء طريق السويس البرى منذ أواخر القرن السادس عشر خاصة عندما آلت المستعمرات البرتغالية- وأهمها جزر الهند الشرقية- إلى أسبانيا . وفى هذا الوقت فكر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فى توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط فى عام ١٥٨٦ حتى يستطيع الأسطول العثمانى الوصول إلى البحر الأحمر ، ومطاردة سفن البرتغال والأسبان فى مياه المحيط الهندى^(١١).

لقد أصبح فتح الطريق البرى من قواعد الدبلوماسية الفرنسية فى القرن السابع عشر، ولاسيما فى عهد لويس الرابع عشر وخلفائه ، وسعت فرنسا لدى السلطان العثمانى حتى يوافق على فتح الطريق التجارى عبر مصر ، وعندما أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ لم يكن الغرض احتكار جزء من تجارة انجلترا فحسب، بل كان الهدف احتكار نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر المارة بطريق رأس الرجاء الصالح^(١٢).

ورغم نشاط شركة الهند الشرقية فإنها لم تستطع أن تركز اهتمام فرنسا على إحياء الطريق البرى. وكان فقدان الممتلكات الهندية الفرنسية بعد ذلك بمائة عام قد بدد اهتمامات فرنسا بالطريق البرى، وتحول هذا إلى تنافس تجارى وعسكرى مع إنجلترا^(١٣).

وسوف نحاول تتبع محاولات الفرنسيين لإحياء الطريق البرى، بل واحتلال مصر إذا لزم الأمر، ويظهر هذا بشكل جلى من خلال كتب ومذكرات الرحالة والسياسيين والتجار، الذين كان لجهودهم الأثر الأكبر فى لفت أنظار الحكومات الفرنسية لأهمية هذا الطريق البرى. وجاءت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث لوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ من خلال الحملة الفرنسية التى أصبحت إحدى حلقات التنافس الدولى على طرق المواصلات البرية، بل وفاتحة سياسة استعمارية أوربية ليس على مصر فحسب، بل على كل المنطقة العربية باعتبارها شريان الحياة فى طرق التجارة العالمية.

أولا : استمر اهتمام فرنسا بمصر عندما صدر كتاب فى عام ١٦٦٥ يحمل عنوان «رحلات مسيو دى تيفينو فى المشرق» والذي اشتمل على وصف مصر بدقة فضلا عن مدنها الرئيسية، والأثار الموجودة بها، وتفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية، والاحتفالات الدينية فى مصر.

ثانيا : ظهر اهتمام فرنسا بمصر وآثارها وعظمتها عندما قام الفيلسوف الألمانى ليبنتز فى عام ١٦٧٢ بزيارة إلى باريس ليسلم لويس الرابع عشر مذكرة يقترح فيها بوضوح إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة ويقول «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة فى تنفيذه. إن مصر من بين جميع بقاع العالم هى الأفضل موقعا من أجل السيطرة على الدنيا وعلى التجار، والحال أنها خالية من أى دفاع، ولاتنتظر سوى وصول جيش تحرير لكى تنهض»^(١٥).

إن هذه العبارات توضح مدى الاهتمام الذى أولته الدول الغربية لأهمية مصر، ومكانتها فى عالم التجارة وذلك فى القرن السابع عشر، ويزداد هذا الاهتمام كلما دخلت أوربا فى صراعات وثورات اجتماعية وسياسية.

وكان ليبنتز يعرف علاقات الدولة العثمانية السيئة مع فرنسا، لكنه أكد أن مصر منذ قديم الزمن هى أرض العلوم، وعرين المعجزات الطبيعية، ولذا يجب على المسيحيين عدم فقدان هذه الأرض المقدسة التى تربط أسيا بإفريقيا خاصة وأنها تتوسط البحرين الأبيض والأحمر، وتعد مستودعا لفلال الشرق، ومخزنا لكنوز أوربا والهند.

ثم عاد هذا الفيلسوف الألمانى ليؤكد مرة ثانية أنه بدلا من الهجوم على هولندا مباشرة، فإنه من الأفضل هزيمتها عن طريق مصر. ذلك لأن هذا المشروع سيؤمن امتلاك الهند وتجارة أسيا والسيطرة على الكون^(١٦).

ولم يهتم لويس الرابع عشر بآراء ليبنز ولا حتى باستقباله أو الرد عليه، بل اكتفى بإخطار أمير المقاطعة الألمانية التى يعيش فيها بأن زمن الحروب الصليبية قد انتهى، ولم يعد يطابق ذوق العصر، وفضل الملك شن الحروب فى أوروبا (١٧).

ثالثا : فى عهد لويس الخامس عشر تحسنت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، ولم يحدث أى تطور فى مشروع غزو مصر. وحاول لويس الخامس عشر فى عام ١٧١٤ تجديد معاهدة الامتيازات التى سبق أن وقعت فى عام ١٥٣٥ مع العثمانيين، والتى أعطت لفرنسا حق حماية المسيحيين فى سائر أرجاء الدولة العثمانية. لكن هذا أثار انجلترا التى ظلت تخشى ازدياد النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية مما يهدد طريقها الملاحى عن طريق البحر الأحمر مثلما يهدد مصالحها فى الهند (١٨).

رابعا : ظل الحال على هذا المنوال حتى جاء لويس السادس عشر فتكررت النداءات والحجج لاحتلال مصر، فى الوقت الذى ازداد ضعف الدولة العثمانية بسبب حربها مع النمسا وروسيا (١٩).

وفى عام ١٧٧٦ قام البارون دى توت بإعداد مذكرة أكد فيها أن مصر مليئة بالثروات ويمكن غزوها بسهولة ، وإذا لم تستول عليها فرنسا فإن انجلترا سوف تفعل ذلك، وتحدث بسهولة عن فتح مصر واحتلالها فى مذكراته التى نشرها فى أربعة أجزاء فى عام ١٧٨٤ (٢٠). وتأثر وزير الحربية بهذه المذكرة ، وأرسل البارون دى توت إلى مصر، ثم عاد إلى باريس أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بفكرة مشروعه . لكن انشغال فرنسا فى حروب مع انجلترا جعل من الصعب التخلّى عن أى جزء من الجيش فى هذه الفترة، وتأجلت فكرة احتلال مصر لكن المشروع ظل ماثلا فى أذهان الساسة والمفكرين الفرنسيين .

خامسا : فى عام ١٧٨٧ ألف الرحالة فولنى قصة بعنوان «الرحلة فى مصر وسوريا» ووصف حالة مصر السيئة ، وحاول أن يصف العلاج لهذه الحالة بخروج المصريين من تحت السيادة العثمانية ودخولهم تحت لواء دولة أخرى تكون صديقة للمصريين وذات حضارة . ونهضة أدبية وعلمية وفنية، حتى تتمكن هذه الدولة من إحياء التراث المصرى القديم، والتنقيب عن الآثار المغمورة فى الدلتا والصعيد ، وكشف رموز اللغة والكتابة الهيرغليفية .

وهكذا رسم فولنى صورة عن بلاد يطحنها البؤس والأمراض والفوضى ، لكنه تحدث عن التجارة والمكوس والضرائب ، كما تحدث عن تحصينات ميناء الاسكندرية، وقدم وثيقة فريدة للفرنسيين الذين يحلمون بغزو مصر . وتأكيذا لهذه الرغبة من فولنى فقد ألف الرحالة سافارى أيضا كتابا نشره فى ١٧٨٥ وتحدث فيه عن خصوبة أرض مصر ووفرة غلاتها وسهولة غزوها والاستيلاء عليها (٢٢).

وفى هذا الكتاب الذى حمل اسم «خطابات عن مصر» دعا إلى غزو مصر لأنها ستكون مركز التجارة فى العالم، والجسر الذى يربط أوروبا وآسيا (٢٣).

وعلى العموم فإن كتابات هؤلاء الرحالة كانت مقدمة جوهريّة لغزو مصر، حيث بلغ الضيق بهؤلاء التجار الفرنسيين حدا جعلهم يطالبون بإرسال قوات عسكرية لتأديب المماليك ولتأمين مصالحهم (٢٤).

لقد جمع فولنى كل الآراء التى تدعو فرنسا لاحتلال مصر ولخصها فى عدة نقاط :

أ- أن مصر تنتج المحاصيل التى تحتاجها فرنسا كالشعير والأرز والقطن والعنب وقصب السكر وغير ذلك .

ب- أن احتلال مصر سوف يمكن فرنسا من الحصول على السلع القادمة من أفريقيا كالعاج والتبر والرقيق .

ورغم هذه المزايا فقد أشار فولنى إلى أن احتلال مصر سوف يجعل فرنسا تدخل فى حروب مع الأتراك والإنجليز والمصريين . ولن تنجح فرنسا فى احتلال مصر نظرا لاختلاف الدين والعادات والتقاليد. وطالب فرنسا بأن تركز على تحسين الإنتاج داخل بلادها وتبتعد عن الاستعمار فى هذه الفترة.

سادسا : عندما استولى على بك الكبير على السلطة فى مصر عام ١٧٦٨ قام بالقبض على التجار الفرنسيين ، وانسحبت القنصلية الفرنسية من القاهرة إلى الاسكندرية ومعها غالبية التجار، وقرر بعضهم البقاء فى مصر على مسؤولياتهم . ومن هؤلاء التاجر تشارل ماجالون الذى كان يقوم بعمل القنصل. وقد لعبت هذه الشخصية دورا حاسما فيما بعد خاصة بعد قيام الثورة الفرنسية ، وإضعاف الجالية الفرنسية، وقيام المماليك بابتزازهم، وكان الفرنسيون يشترون الأسلحة ويتدربون على استخدامها ساعتين يوميا (٢٥).

ونجح ماجالون فى عقد ثلاث معاهدات مع مصر فى يناير ١٧٨٥ ، الأولى مع مراد بك الذى تعهد بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها فى مصر ، وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى على مصر و ٤٪ للبيك الحاكم و ٣٪ إذا كانت التجارة مصدرة إلى فرنسا . أما المعاهدة الثانية فقد وقعها مع يوسف كساب ملتزم الجمارك العام وفيها تعهد يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ٥٪ من قيمة المتاجر المفرغة فى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب (العربان) وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل (٢٦) .

لكن هذه المعاهدات لم تكن ذات قيمة تذكر لأنها لم تحدث أى تغير فى موقف فرنسا تجاه مصر ، ولم يتحسن هذا المركز التجارى . وهذا ما جعل الجالية الفرنسية تتخذ خطوة أكثر إيجابية تجاه مصر والطريق البرى .

سابعاً : وفى عام ١٧٩٠ أرسلت الجالية الفرنسية التماساً إلى الجمعية التأسيسية والغرفة التجارية بمرسيليا ، تطلب فيه فرض حصار بحرى على مصر ، مما يتيح لفرنسا الاستيلاء على الطريق إلى الهند . وهكذا تحول التجار إلى خبراء فى الخطط الحربية الاستراتيجية ، كما قاموا بتحديد عدد القطع البحرية اللازمة لتنفيذ هذا العمل ، لكن لم يصل أى رد لأعضاء هذه الجالية (٢٧) .

وفى عام ١٧٩٣ تقدم أعضاء الجالية الفرنسية بالتماس آخر ، ولم يكن المطلوب هذه المرة مجرد حصار بحرى بل الاحتلال الصريح الواضح . لكن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الالتماس أيضاً ، ونشط ماجالون وكتب إلى سفير فرنسا فى القسطنطينية يقول « أرجوك أيها المواطن ألا تتقاعس عن المعاونة فى اعطاء مصر لفرنسا ، فهذه هى أجمل الهدايا التى يمكنك منحها لها ، وسيجد الشعب الفرنسى فى هذا الكسب موارد هائلة » (٢٨) .

وأوضح مجالون أهمية الطريق التجارى عبر مصر ، وقال أنه إذا أصبح الفرنسيون سادة البحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين ، وأن يطردوهم من الهند . وهكذا خرجت نوايا فرنسا تجاه مصر من حيز التفكير إلى حيز التصريح (٢٩) .

ثامناً : لقد وجد ماجالون من يستمع إليه أخيراً ، وذلك عندما أصبح تاليران وزيراً للعلاقات الخارجية ، وطلبت منه الحكومة كتابة مذكرة توضيحية عن أوضاع الطريق التجارى

عبر مصر. وقام تاليران بإعداد المذكرة التى اقتبس فيها الكثير من آراء ماجالون، وقدمها إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨. وكان هذا التقرير دعوة إلى احتلال مصر، وأشار تاليران فى تقريره إلى أن مصر بلاد غنية، كما أن موقعها الجغرافى يجعل منها المركز التجارى الطبيعى للعالم، فإذا ما قامت فرنسا بتحقيق الاستقرار والأمن بها تتمكن الملاحاة المتجهة إلى الهند من التخلّى عن طريق رأس الرجاء الصالح (٣٠).

وأوضح تاليران أن فرنسا سوف تفقد إن أجلا أو عاجلا مستعمراتها فى أمريكا، وأنه لا يوجد تعويض أفضل من مصر. أنها بلاد يسهل أخذها، ولن تدخل الإمبراطورية العثمانية فى حرب للدفاع عنها لأنها سوف تنهار بعدة مدة لا تزيد عن خمسة عشر عاما. وبالتالى فإن على الجمهورية الفرنسية أن تأخذ منها ما يناسبها. وهو يقصد بذلك أن تكون مصر فى أولى الأوليات من هذه الأنقاض. وأقر هذا الغزو هنرى لويس الذى أكد أن الغزو واجب تحتمه الثورة الفرنسية، نصيرة حقوق الإنسان، والتى تسعى إلى نقل الحضارة إلى منابعها الأولى فى مصر (٣١).

تاسعا : تحمس كل من تاليران ومعه الجنرال نابليون لمشروع غزو مصر، ولم يلبث أن صار هذا المشروع حديث رجال الإدارة والسياسة والصحافة، كما حاز على تأييد الأوساط الشعبية الفرنسية، ومن ثم دخل المشروع فى دور التنفيذ.

وفى ١٢ أبريل ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة قرارا بتشكيل جيش الشرق - تحت قيادة نابليون بونابرت - لغزو مصر، وأوضحت حكومة الإدارة الأسباب التى دفعتها إلى إرسال حملة على مصر لمعاينة بكوات الممالك أصحاب السلطة فى مصر، كما أشارت إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح والذى يعرقل وصول الفرنسيين إلى الهند (٣٢).

وهكذا اتضحت سياسة فرنسا من خلال الرحالة والمفكرين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، التى كانت تهدف إلى تحويل تجارة فرنسا الشرقية إلى الطريق البرى عبر مصر، وذلك لمنافسة التجارة التى تمر فى طريق رأس الرجاء الصالح. وقد اتضح أيضا أن الحكومة الفرنسية لم تفكر أساسا فى تشجيع التجارة مثلما فكرت فى القضاء على نفوذ كل من هولندا وإنجلترا (٣٣).

وباختصار فإن فكرة الحملة الفرنسية على مصر، وفكرة السيطرة على طريق التجارة عبر مصر، قد وجدت تأييدا ودعما من كل المفكرين عبر سنوات طويلة. وكلما اشتد الصراع بين

فرنسا والدول الأخرى كلما ازداد الاهتمام بالفكرة، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث هي التي أحييت الفكرة وإعادتها إلى الأذهان . وكانت محاولات إنجلترا للسيطرة على هذا الطريق هي التي حفزت على القيام بالحملة^(٣٤).

ثانيا : المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى:

من المعروف أن التجار البريطانيين وصلوا إلى مصر متأخرين عن التجار الفرنسيين، وذلك لأن بريطانيا لم تدخل ميدان البحر المتوسط إلا فى فترة متأخرة ولأن التجار لم يكن لهم اهتمام بالتجارة الأوربية قبل القرن السادس عشر . ولكن حدث بعد اتحاد إنجلترا سياسيا إثر حرب الوردتين (١٤٥٥-١٤٨٥) أن أخذت تتطلع إلى الطرق البحرية لزيادة مواردها.

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن الإنجليزية تتاجر على الساحل الأوربي بل وفى مدخل البحر المتوسط، مما تسبب فى إزعاج السفن الأسبانية والفرنسية. لكن بريطانيا أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ لاحتكار التجارة الشرقية.

وسوف نحاول فيما يلى إلقاء الأضواء على المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى والدخول فى منافسة مع الدول الأخرى.

أولا : فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تكونت شركة الليفانت، وأدى قيامها إلى بداية علاقات دبلوماسية تجارية مع الدولة العثمانية. وقد حاولت الحكومة الفرنسية عرقلة نشاط هذه الشركة الإنجليزية، ونجحت فى ذلك إلى حد ما ، لكن السلطان العثمانى اعترف فى عام ١٥٨٣ بالسيد وليم هاريون سفيراً لبريطانية فى الأستانة ، وتعد هذه الخطوة بداية مرحلة جديدة من العلاقات البريطانية مع الشرق الأدنى^(٣٥)، وهو الأمر الذى ظهر فى الاهتمام البريطانى بتعيين قنصل لها فى مصر عام ١٥٨٣، كما أرسلت إنجلترا سفينة محملة بالقصدير والرصاص إلى الاسكندرية.

ثانيا : فى عام ١٥٨٧ ظهرت طلائع السفن البريطانية فى الاسكندرية، وبدأ التجار الإنجليز يمارسون نشاطهم فى مصر رغم فرض رسوم وصلت إلى ١٠ ٪ على تجارتهم ، وهى بالطبع نسبة أعلى من النسبة التى تدفعها فرنسا، على أن الأصواف الإنجليزية لم تجد الزواج المطلوب فى مصر، فى حين أخذ التجار الفرنسيون ينظرون بعين الشك والريبة إلى التجار الإنجليز ، وأخذوا يخلقون لهم الدسائس والمكائد عند السلطات المصرية، وهكذا اضطر التجار

الإنجليز إلى مغادرة مصر، كما أغفلت شركة الليفانت القنصلية الإنجليزية في عام ١٦٠١، وعهدت برعاية مصالحها إلى القنصل الفرنسي.

ثالثا : في عام ١٦٩٧ عادت شركة الليفانت تمارس نشاطها من جديد، وعينت ميلز فليتود قنصلا للإشراف على مصالحها في مصر، ولكنه وجد معارضة من القنصل الفرنسي هناك، وأيضا من القنصل الفرنسي في الأستانة، رغم صدور قرار من السلطان في عام ١٦٩٨ بالاعتراف رسميا بالقنصل الإنجليزي في القاهرة، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على العداء الدفين الذي كان يكتنه القنصل الفرنسي سواء في مصر أو الأستانة لأي نسلط قنصلي انجليزي، حتى لاتجد فرنسا من ينافسها على طرق المواصلات التي وضعتها في حساباتها منذ القرن السادس عشر . ويفسر هذا الموقف بدايات الصراع والتنافس على الطرق البرية عبر مصر والبحر الأحمر.

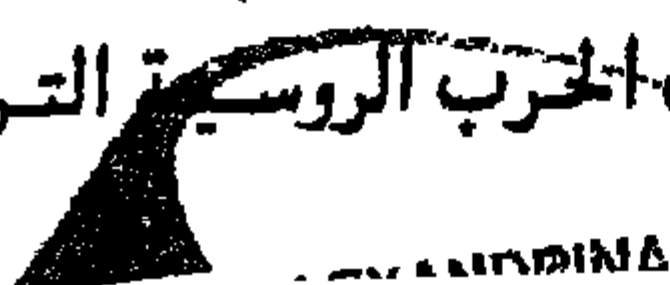
رابعا : عندما قامت حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٤) حاولت إنجلترا الاستفادة من هذه الحرب بتدعيم نشاطها التجاري، لكن لم يؤثر ذلك على ما حققته فرنسا من مكاسب تجارية وظلت التجارة الإنجليزية ضئيلة وأخذت تتناقص تدريجيا حتى أنه في عام ١٧٥٦ لم يكن في مصر سوى تاجر إنجليزي واحد.

خامسا : عندما قامت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) تركت أثارها على التجارة الإنجليزية التي أخذت في الازمحلال. ولكن حدث بعد توقيع معاهدة باريس ١٧٦٣ أن تغير الموقف وأصبحت هذه نقطة تحول في نظر إنجلترا إلى الطريق البري عبر مصر، لأن هذه المعاهدة أطلقت يد إنجلترا في الهند، حيث اقتصر اهتمام الحكومة البريطانية على أصلح الطرق وأقصرتها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود بين الهند وإنجلترا وكانت الرسائل تصل في خلال ثلاث وستين يوما أي حوالي ربع المدة للرحلة عن طريق رأس الرجاء الصالح^(٣٦).

سادسا : وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر تجدد اهتمام الإنجليز بمصر وبطريق السويس البري، وكان السبب في ذلك يعود إلى :-

أ- زيادة أهمية موقع مصر الجغرافي أثناء حرب السنوات السبع باعتبارها حلقة هامة في طريق المواصلات بين بريطانيا والهند، خاصة عند نقل البريد.

ب- استقلال على بك الكبير بمصر عام ١٧٦٩ واشتعال الحرب الروسية التركية



(١٧٦٨-١٧٧٤) مما أضعف الدولة العثمانية ، وخشية بريطانيا من وقوع مصر تحت سيطرة دولة قوية مما يؤثر على مصالحها في الهند .

ج- رغبة بعض التجار الإنجليز فتح طريق مباشر بين الهند والسويس ، وتشجيع على بك لفتح هذا الطريق ، وإرسال خطاب إلى وارن هسيتينج حاكم البنغال في مارس ١٧٧٥ لعقد اتفاقية للتجارة والملاحة مع حكام الماليك ، خاصة مع محمد أبى الذهب، وتأكيد اتفاقية جيمس بروس عام ١٧٧٣ (٣٧).

سابعاً : لم تكن إنجلترا تهتم بالناحية التجارية فحسب، وإنما كان هدفها الوصول إلى المستعمرات . وكان التجار الإنجليز مجرد مغامرين . وقد ظهرت مجموعة من الرحالة والتجار الذين حاولوا تحقيق مكاسب تجارية لإنجلترا، ومن هؤلاء الرحالة البريطاني جيمس بروس الذى كان يعمل فى قنصلية إنجلترا فى الجزائر، وحضر إلى القاهرة فى يونيه ١٧٦٨ ولم يجد بها أحداً . وقابل على بك وعقد معه معاهدة ١٧٧٣ أعطت للسفن البريطانية حق الدخول شمالاً حتى مرفأ السويس . وبذلك أصبح العلم البريطانى أو الأعلام الأجنبية التى رفرت فى البحر الأحمر بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه السفن الأجنبية (٣٨).

وبعد رحيل على بك نجح بروس فى عقد اتفاق مع محمد أبى الذهب فى فبراير ١٧٧٥، وفى هذا الاتفاق أمكن السماح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى السويس ، وعدم التعرض للتجار الإنجليز بالأذى. هذا فضلاً عن تحديد الرسوم الجمركية بحيث لا تزيد عن ٨٪ على التجارة الواردة إلى السويس، مع فرض خمسين ريالاً أسبانيا كرسوم ميناء لكل سفينة (٣٩).

ثامناً : لما ازداد نشاط التجار الإنجليز فى السويس، تقدم السلطان العثمانى فى عام ١٧٧٥ بطلب إلى حكومة لندن يطلب فيه منع السفن الإنجليزية من الوصول إلى السويس أو القيام بأى نشاط تجارى هناك. ووافقت حكومة لندن على هذا الطلب بشرط أن تطبق نفس الشروط على سفن الدول الأخرى. ولكن رغم صدور قرارات الحكومة البريطانية فقد ظلت السفن الإنجليزية تصل إلى السويس حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى وقف الاتجار فيما وراء جدة. وهكذا أدت المعارضة العثمانية للسفن الإنجليزية إلى فشل المعاهدات مع الماليك (٤٠).

تاسعاً : لقد كان هذا النشاط الإنجليزى فى مصر سبباً فى إثارة فرنسا خاصة عند قيام جورج بولدوين بتنظيم خط منتظم من المواصلات بين الهند وبريطانيا ، وبدأت السلطات الإنجليزية فى الهند فى الاعتماد على طريق البحر الأحمر ومصر (٤١).

وأمام قسوة الحكام المماليك عاد النشاط الإنجليزي لمصر بعد عام ١٧٨٥ . لكنه لم يعد تجاريا بحتا، بل أصبح يحمل الطابع السياسى. ودخلت الحكومة البريطانية نفسها فى هذا المجال. وقد أصبحت مصر حلقة من حلقات الصراع العنيف بين فرنسا وإنجلترا حول الهند، فضلا عن أن مصر خرجت من سياستها الجامدة فى علاقاتها مع الدول الأجنبية. وتخلت عن سباتها العميق، وأصبحت تتأثر بالأحداث الأوربية الدولية. ولهذا استدعت التاجر البريطانى جورج بولدوين وطلبت منه أن يكتب تقريرا عن النشاط الفرنسى فى مصر^(٤٢).

عاشرا : قدم بولدوين تقريره فى عام ١٧٨٥ ونشر هذا التقرير فى كتاب بعد ذلك تحت اسم «مذكرات سياسية بخصوص مصر» ، وفى هذا التقرير وجه الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى وحاصلاتها التجارية وأهميتها بالنسبة لفرنسا ، وما يمكن أن يؤدى إليه احتلال الفرنسيين لها. وقد أدى هذا التقرير إلى ضرورة مواجهة إنجلترا للنشاط الفرنسى فى مصر، وعقدت فعلا معاهدات مع شركة الهند الشرقية وقررت إنجلترا وضع خطة تقوم على أساس إرسال جورج بولدوين إلى مصر ليكون قنصلا لها، وتكون مهمته التفاوض مع المماليك لعقد معاهدة تجارية، وإرسال تقارير عن النشاط الفرنسى فى مصر^(٤٣).

وفى عام ١٧٦٨ وصل بولدوين إلى مصر وتقلد مهام منصبه. وحاول عقد معاهدة مع القبطان باشا الذى جاء للقضاء على مراد بك، لكن فشلت المفاوضات لأن القبطان باشا عاد إلى بلاده بسبب الحرب الروسية التركية. وعاد مراد بك بجيوشه ودخل القاهرة ووقع معاهدة مع بولدوين فى عام ١٧٩٤ . وقام بولدوين بإرسال هذه المعاهدة إلى حكومة لندن ، لكن الحكومة قابلتها بنوع من الفتور وعدم الاهتمام وذلك بسبب خوف بريطانيا من تحول التجارة الفرنسية إلى البحر الأحمر ومصر بعد حرب السنوات السبع، فضلا عن انشغال بريطانيا وفرنسا فى حروب بعد عام ١٧٩٣ وحاجتهما إلى جهود عسكرية لمراقبة مصالحهما فى الأستانة، وعلى الطريق البحرى حول القارة الأفريقية ، يضاف إلى ذلك تلك الفوضى السائدة فى مصر فى ظل حكم كل من ابراهيم بك ومراد بك ، وهو الأمر الذى انعكس بشكل واضح على الطرق التجارية^(٤٤).

والجدير بالذكر أن وزير الخارجية البريطانية أمر بإغلاق القنصلية البريطانية فى فبراير ١٧٩٣ لأنها تتطلب نفقات تفوق وجودها فى مصر ، كما أقيل بولدوين ، الذى استمر رغم

ذلك فى مصر ولم يغادرها إلا فى أبريل ١٧٩٦ ، أى قبل وصول الحملة الفرنسية بشهور قليلة^(٤٥).

واستمر بولدوين يحذر بريطانيا من مخططات فرنسا فى مصر ، لكن دون جدوى ، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٠١ ليكون ضمن الحملة التى جاءت لإخراج الفرنسيين منها^(٤٦).

وهكذا تخلت إنجلترا عن فكرة تقوية نفوذها فى مصر ، ولم تستمع إلى نداء رجال التجارة والقناصل ، حتى فاجأتها فرنسا بتلك الحملة على مصر ، وهى التى تمثل دورا جديدا من أدوار السباق بين إنجلترا وفرنسا حول الفتح والاستعمار منذ القرن السابع عشر ، وخلال القرن الثامن عشر ، والذي اتخذ طورا جديدا بعد الثورة الفرنسية التى قضت على النظام القديم وأعلنت الجمهورية ، وكان أن تألبت الدول الأوربية عليها ، ودخلت مع إنجلترا فى حرب سجال بعد أن صارت إنجلترا العقبة الكتود بسبب موقعها الجغرافى. ومن ثم فكرت حكومة الإدارة الفرنسية فى ميدان آخر يمكن أن تقهر فيه إنجلترا . وكان أفضل ميدان هو ضربها فى مستعمراتها فى الهند بالاستيلاء على مصر ، فكانت الحملة الفرنسية التى تعد فصلا جديدا من فصول الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية^(٤٧).

وفى أبريل ١٧٩٨ قررت حكومة الإدارة غزو مصر ، وصدرت التعليمات إلى نابليون بتجهيز الحملة وقيادتها . وتضمن البيان سوء معاملة التجار الفرنسيين ، كما تعرض للاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح ، وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند ، وطلبت حكومة الإدارة ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند.

وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق ، فى الاستيلاء على مالطة ومصر وطرده الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق^(٤٨).

هذه هى الدوافع الحقيقية للحملة الفرنسية التى لم تكن سوى مرحلة من مراحل الصراع الدولى على طرق المواصلات ، والحصول على امتيازات تجارية وصناعية ، أى أن الحملة الفرنسية تدخل فى إطار الصراع الإنجليزى الفرنسى ، ورغبة فرنسا فى السيطرة على طرق التجارة للهند. ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر تعد نقطة تحول خطيرة فى حياة مصر والشرق العربى كله ، حيث أظهرت بشكل قاطع الأهمية الاستراتيجية لهذه البلاد المطللة على البحر المتوسط والواقعة على الطريق الهام المؤدى إلى الهند^(٤٩).

ثالثا : الحملة واشتداد الصراع بين الدولتين :

خرجت الحملة الفرنسية من ميناء طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ ، فوصلت إلى جزيرة مالطة ، وقامت باحتلالها ، فى حين كان الأسطول الإنجليزى يراقبها فى البحر المتوسط ، ويرغب فى تحطيمها . وبينما الحملة الفرنسية مشغولة فى مالطة ، وصل الأسطول الإنجليزى إلى الاسكندرية لبدأ مرحلة من الصراع حول طرق المواصلات بين الشرق والغرب. ويتمثل هذا الصراع فى النقاط الآتية :

أولا : بعد أن وصل الأسطول الإنجليزى إلى سواحل مصر لم يجد الأسطول الفرنسى ، فأقلع الإنجليز للبحث عن الأسطول الفرنسى ، وعندما وصل نابليون إلى الاسكندرية اختار منطقة العجمى ، لإنزال الجنود والعتاد والمهمات ليلا، ولكن عندما علم الأميرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزى بقدوم الفرنسيين إلى مصر، عاد إلى سواحلها . وفى أول أغسطس ١٧٩٨ وقعت موقعة أبى قير البحرية وفتحت النيران من الجانبين، وقتل أمير البحر الفرنسى وانفجرت بارجته ، وهكذا قضى على الأسطول الفرنسى بأكمله فيما عدا أربع بوارج اضطرت إلى الانسحاب بسرعة جنوب مالطة. وغنم الإنجليز ست سفن فرنسية. وكانت هذه العملية ضربة قوية أصابت الحملة الفرنسية على مصر، وقضت على وسائل اتصال الحملة بفرنسا ، وأدى هذا إلى انخفاض الروح المعنوية عند الفرنسيين، وخضوع مصر لعملية الحصار البحرى وما كان لهذا من أثر على طرق التجارة العالمية (٥٠).

وفى نفس الوقت رأت حكومة بومباى بعد وصول الحملة إلى مصر ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لمنع أى محاولة فرنسية للوصول إلى الهند من جهة والحماية جهودها الرامية إلى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية على وجه الخصوص . ولهذا تحركت قوة من الهند بقيادة الكولونيل جون موراي واتجهت نحو المدخل الجنوبى للبحر الأحمر واحتلت جزيرة ميون أو بريم الواقعة فى أضيق نقطة فى بوغاز باب المندب، وذلك فى اليوم الثالث من مايو ١٧٩٨ وظلت حتى أوائل سبتمبر من نفس العام (٥١).

ثانيا : عندما تحطم الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير بفضل التفوق البريطانى، تشجعت كل من الدولة العثمانية وشعب مصر على التصدى لهذه الحملة، رغم المبادئ التى أعلنها نابليون وأنه جاء لتأديب المماليك وثار المصريون ثورتهم الأولى رغم مجهودات الفرنسيين فى

التقرب منهم وتحركت ثورة المصريين بشكل تلقائي وبدون تنظيم، لكنهم بسرعة تجمعوا أمام الأزهر ، حيث بدأ الصدام مع القوات الفرنسية .

وساعدت الدماء التى سالت فى المعركة على زيادة الحماسة ، فانتشرت الثورة وامتدت إلى الأقاليم وفى الإسكندرية ورشيد والبحيرة، وكانت المقاومة التى لقيتها الحملة الفرنسية فى الصعيد لا تقل فى ضراوتها عن تلك المقاومة التى واجهتها فى الدلتا. وكان أن نجح الثوار نتيجة انهيار الروح المعنوية للفرنسيين ، بعد أن حطم الإنجليز أسطولهم فى مياه أبى قير.

ثالثا : تشجعت الدولة العثمانية لإخراج الحملة من مصر ، وأحس نابليون أنه لا بد من مواجهة هذا الخطر فى الشام قبل أن يصل إلى مصر خاصة وأن الإنجليز شاركوا العثمانيين فى هذا التحرك الذى امتد إلى العريش، فكان قرار نابليون القيام بحملته على سوريا. وبعد معركة العريش التى انهزمت فيها القوات العثمانية استولى الفرنسيون على غزة والرملة وبافا، التى شهدت أسر ثلاثة آلاف أسير عثمانى وقتلهم رميا بالرصاص مما أثار حمية الحامية العثمانية فى عكا ، فاستبسلت فى الدفاع عن عكا وساعد أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينة عكا وجود الأسطول الإنجليزى بقيادة السير سيدنى سميث أمام الميناء ، ومنع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر، بل إن الأسطول الإنجليزى كان قد أسر السفن الفرنسية التى حملت المدفعية والذخائر واتجهت بها جنوب سواحل سوريا ، وسلمها إلى أحمد باشا الجزار الذى دفع بها عن عكا أمام الفرنسيين، وأمام فشل نابليون فى حصار عكا اضطر إلى العودة إلى مصر وبعد أن فقد ما يزيد عن ألفى قتيل وألف رجل ماتوا بالأمراض فضلا عن حوالى ٢٥٠٠ جريح .

وهكذا عاد نابليون مهزوما بعد مائة وخمسة وعشرين يوما ليواجه المقاومة المصرية فى الصعيد والدلتا ، وكانت تهدد أمن القوات الفرنسية هذا فى الوقت الذى نزلت قوات عثمانية فى منطقة أبى قير فى شهر يونيه ١٧٩٩ واحتلت قلعة أبى قير لاتخاذها قاعدة لهم ضد الفرنسيين ، لكن نابليون هاجم هذه القوة وهزمها ، مما زاد من شعور المصريين بالعداء ولم يلبث أن اضطر نابليون إلى العودة إلى أوروبا بسبب الاضطرابات هناك وهزيمة الجيوش الفرنسية فى كل من إيطاليا والنمسا . وقد ترك نابليون مصر يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ومعه عدد من كبار الضباط (٥٢).

رابعا: فى عهد كليبر- خليفة نابليون فى مصر- قامت ثورة القاهرة الثانية، مما اضطره إلى

الاتصال بالدولة العثمانية من أجل التفاوض والصلح الذى انتهى باتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . وتقدمت الحكومة العثمانية لاستلام القاهرة لكن بريطانيا أعلنت رسميا عدم موافقتها على اتفاقية العريش لأنها ترى ضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط بالنسبة للحملة الفرنسية . وأعلنت انجلترا أنها سوف تضبط فى البحر الأحمر كل سفينة تحمل جنودا فرنسيين ، وتعتبر من عليها أسرى حرب . وأمام هذا الوضع تقدمت قوة عثمانية إلى القاهرة لكن المدفعية الفرنسية أوقعت بالقوات العثمانية خسائر جسيمة ، واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من موقعة عين شمس التى كانت الشرارة التى أشعلت ثورة القاهرة الثانية وما تلاها من أحداث ذلك أنها كانت أقوى من ثورة القاهرة الأولى نتيجة انضمام بعض العثمانيين والمماليك ، واستمرت هذه الثورة ثلاثة وثلاثين يوما . وفى صبيحة يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى الروضة لاستعراض كتيبة الأروام التى جندها الفرنسيون ، وفجأة اقترب منه أحد الشبان ، وأخرج خنجرا وطعن به كليبر الذى سقط مضرجا بدمائه وأسلم الروح^(٥٣).

خامسا : وكان أن تولى الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، ولكنه لم يكن ذا كفاءة عسكرية كبيرة ، وبالتالي فإنه رتب الأمور على أساس إبقاء الاحتلال الفرنسى فى مصر ، وقيام مشروعات اقتصادية من موارد مصر . لكن الوقت كان ضيقا إذ جاءت قوات عثمانية وبريطانية إلى مصر لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم بقوة السلاح من مصر . وتحت ضغط الإنجليز اضطر مينو إلى قبول الرحيل عن مصر بعد أن بدأت القوات العثمانية والإنجليزية فى الزحف جنوبا نحو القاهرة التى احتلها العثمانيون والإنجليز .

وفى ٢٣ يونيو ١٨٠١م بدأ التفاوض بين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز على أساس جلاء الفرنسيين عن البلاد . وبعد مفاوضات امتدت لمدة أربعة أيام تم الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية عن مصر على أساس انسحاب القوات الفرنسية فى مدة لا تتجاوز خمسين يوما على نفقة الحلفاء وتم توقيع الاتفاق فى ٢٧ يونيو ١٨٠١ ، وخرجت الحملة بعد ثلاث سنوات . وكان خروجها من مصر بفضل الجهود الضخمة التى بذلتها انجلترا فى محاولاتها للحفاظ على طرق المواصلات البرية إلى الهند . وبالتالى فإن الحملة الفرنسية لفت أنظار العالم إلى أهمية موقع مصر الجغرافى ، واشتداد الصراع الدولى على هذه الطرق ، خاصة بعد

رحيل الحملة . ولم يكن الإنجليز يهتمون بجلاء الفرنسيين عن مصر قدر اهتمامهم بمنعهم من تهديد المصالح البريطانية في الشرق وكان أن فرضت إنجلترا حصارا على سواحل مصر (٥٤).

سادسا : بعد رحيل الحملة سادت مصر فترة من الصراعات الداخلية بين المماليك والعثمانيين والمصريين . وكانت الحملة قد لفتت الأنظار إلى أهمية مصر في المجالات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والمعنوية ، فظهرت على أنها مركز هام ، ونقطة اتصال بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وطريق رئيسي يصل أوربا بالشرق الأقصى ، هذا إلى أن مصر ظهرت على أنها سوق توزيع له قيمته بالنسبة لتصريف المنتجات الأوربية ، ومنطقة إنتاج مواد خام تحتاج إليها الصناعات الأوربية . وبعد رحيل الحملة أخذت كل من الدولتين إنجلترا وفرنسا في التفكير في العودة إلى مصر . ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١ فقد ظلت رغبتهم في العودة إليها والتحكم في طريق البحر الأحمر شديدة ، وأوقد نابليون الكولونيل سبتياني إلى مصر للتعرف على البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك في نهاية عام ١٨٠٢ م . وظل نابليون حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر ، وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر ، كما كان يرسل مبعوثه لجمع البيانات والمعلومات الهامة . لعرقلة مصالح ومساعى أعدائه البريطانيين في هذه المناطق (٥٥).

وحاولت كل من إنجلترا وفرنسا عن حليف قوى يضمن لها العودة ، فتحالف الإنجليز مع زعيم المماليك الألفي ، وتحالف الفرنسيون مع خصمه البرديسي بك . لكن الأمور آلت في عام ١٨٠٥م إلى محمد علي الذي حاول الفرنسيون والإنجليز التقرب منه . ولما أظهر تعاونا مع فرنسا أرسلت إنجلترا حملة فريزر عام ١٨٠٧ لمساعدة زعيم المماليك الألفي بك لتقلد السلطة ، ولكنه كان قد مات قبل وصول الحملة الإنجليزية التي منيت بالفشل نتيجة المقاومة الشعبية المصرية في رشيد مما أجبرها على الرحيل . ورغم هزيمة حملة فريزر فإن بريطانيا كان لها السيادة البحرية في البحر المتوسط حيث احتل الإنجليز جبل طارق عام ١٧٠٤ واحتلوا جزيرة مالطة عام ١٨٠٧ وضموها إلى مستعمراتهم أثناء انعقاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ (٥٦).

أما في مصر فقد واصل محمد علي سياسته الرامية إلى التحالف مع فرنسا ، وهو ما أزعج إنجلترا التي وقفت له بالمرصاد في كل توسعاته ، سواء في الجزيرة العربية ، أو في الشام أو في الخليج العربي . ولما أحست بخطورة تحركاته على مصالحها وطرقها التجارية ، خاصة بعد احتلال عدن عام ١٨٣٩ ، قامت بإجبار محمد علي على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ وهي التي

قلصت كل جهوده ، وحرمته من كل انتصاراته، وجعلته حاكما على مصر فقط . كل هذا من أجل الحفاظ على طرق المواصلات التي أبرزت الحملة الفرنسية أهميتها بالنسبة لطرق المواصلات إلى الهند^(٥٧).

سابعاً : كانت الحملة فاتحة الصراع على مصر، وظهرت أهميتها بعد رحيلها -فى عهد عباس حلمي الأول (١٨٤٨-١٨٥٤)- حيث نجح الإنجليز خلال فترة حكمه فى التفوق على فرنسا ، خاصة عندما توطدت الصداقة بينه وبين قنصل بريطانيا العام فى مصر وهو شارل مري وحصلت بريطانيا على موافقة لإنشاء سكة حديدية فى مصر لخدمة المصالح البريطانية ، ولتسهيل سرعة نقل التجارة والجنود البريطانيين بين إنجلترا والهند^(٥٨).

ثامناً : عندما تولى اسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ظهر التنافس بين الدولتين إنجلترا وفرنسا ، وكان يختلف عن سابقه حيث ظهر طموحه ومشروعاته الكبرى التى كلفته مبالغ ضخمة جعلت النفوذ الأجنبى يتغلغل داخل مصر . واشتدت الأزمة المالية التى أجبرت مصر على بيع حصتها فى قناة السويس، واشترتها إنجلترا حتى تكون شريكا لفرنسا فى إدارة القناة. ومع اشتداد الأزمة المالية، وتشكيل صندوق الدين ولجان التحقيق الدولية حاول اسماعيل إيقاف هذا النفوذ الأجنبى، وتحريك القوى الوطنية المصرية . وكان أن قامت إنجلترا وفرنسا بالضغط على السلطان العثمانى حتى عزل اسماعيل عام ١٨٧٩ . وتطورت الأمور بثورة الشعب المصرى بزعامة أحمد عرابى، الذى واجه تدخلا عسكريا سافرا من إنجلترا التى احتلت مصر عام ١٨٨٢ . وخرجت مصر من الناحية العملية عن سلطة الدولة العثمانية، واستقر الاحتلال نهائيا بالاتفاق الودى بين الدولتين عام ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا حيث اطلقت فرنسا يد إنجلترا فى مصر مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش، وظلت مصر من الناحية النظرية ولاية عثمانية حتى إعلان الحماية على مصر فى عام ١٩١٤ لتنتهى قصة الصراع الطويل على طرق المواصلات عبر مصر بدخول مصر تحت الاحتلال البريطانى^(٦٠).

رابعاً : الآثار التى ترتبت على الصراع حول طرق التجارة البرية :

من هذا العرض للحملة الفرنسية باعتبارها حلقة من حلقات الصراع الدولى على طرق المواصلات بين الشرق والغرب تتضح عدة أمور لها آثارها على المنطقة وعلى طرق المواصلات البرية ومن هذه الآثار :

أولاً : أدى هذا الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية إلى محاولة الدولتين إنجلترا

وفرنسا توثيق علاقاتهما بالسلطات الحاكمة فى مصر ابتداء من القرن السادس عشر، خاصة بعد انهيار دولة المماليك وتولى الدولة العثمانية الدفاع عن ديار الإسلام، وإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوربية، وقيام الدولتين بعقد معاهدات مع الحكام الموجودين فى مصر خاصة على بك ومحمد أبو الذهب وإبراهيم بك ومراد بك بقصد تسهيل مرور التجارة عبر مصر، رغم أن طريق رأس الرجاء الصالح كان ميسورا بالنسبة لإنجلترا وهولندا لكنه أطول كثيرا من الطريق البرى عبر مصر .

ثانيا : أثبتت الدراسة أن كلا الدولتين حاولتا إرسال الرحالة والمستكشفين والتجار الذين أكدوا أهمية احتلال مصر باعتبارها مفتاح الشرق، وكانت فرنسا أسبق فى هذا المضمار خاصة بعد مسيو دى تيفيو وليبنز وفولنى وماجالون. وأكد الرحالة ضرورة احتلال مصر حتى تضمن فرنسا السيطرة على الطريق التجارى وضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند.

ثالثا : عندما أحست إنجلترا بمحاولات فرنسا إغلاق الطرق أمام بريطانيا كان رد الفعل الطبيعى أن تحاول إرسال عدد من التجار والقناصل لوقف هذا المد الفرنسى، فضلا عن محاولات إنجلترا الاستيلاء على منافذ طرق التجارة، خاصة الاستيلاء على جبل طارق فى مدخل البحر المتوسط وعدن فى مدخل البحر الأحمر، وفرض الحماية على المشيخات العربية، سواء فى الخليج العربى أو فى أطراف الجزيرة العربية هذا كله بالإضافة إلى تكوين الشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الليفانت من أجل السيطرة على منافذ التجارة البرية عبر مصر والعالم العربى .

رابعا : كانت الحملة الفرنسية على مصر سابقة خطيرة فى تاريخ العلاقات الدولية، خاصة بين إنجلترا وفرنسا، وكان قدوم الحملة صدمة حضارية أصابت المجتمع المصرى ولفتت انتباهه إلى تخلفه الشديد إبان الحكم العثمانى. وكان لابد من محاولة مواكبة التطورات الدولية وإحياء طرق التجارة البرية.

وقد تجلّى هذا فى عصر محمد على الذى وجد تنافسا من الشركات الأجنبية لحفر قناة السويس للسيطرة على طرق التجارة . ولكن محمد على كان حريصا على استقلال مصر، وقال عبارته المشهورة « لا أريد بسفورا آخر فى مصر » لأنه كان يخشى من وقوع مصر تحت سيطرة أى من الدولتين إنجلترا وفرنسا، كذلك ورفض إعطاء امتياز حفر قناة السويس لأى منهما، وحافظ على استقلال مصر، مما زاد من غضب إنجلترا التى ظلت تضرر له العداء وحرمته من

كل انتصاراته، وأجبرته فى معاهدة لندن على التوقيع داخل مصر حتى لا يؤثر على طرق المواصلات عبر مصر .

خامسا : أثبتت هذه الدراسة أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بداية مرحلة جديدة لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى الفريد فى طرق المواصلات البرية. وكانت بداية محاولات جادة من أجل السيطرة عليها. وإذا قارنا فترة الحملة وما كان بعدها نجد الفرق شاسعا بين المرحلتين ، حيث كانت فترة ما قبل الحملة مجرد محاولات من قبل الرحالة والتجار، لكن بعد الحملة كان الطابع السياسى هو السائد والمحرك لكل الأحداث التى تلت الحملة . وكانت الحملة نقطة التحول، وبداية الأطماع الأوربية فى مصر والعالم العربى والأفريقى. ولم تتوقف هذه المحاولات إلا بسيطرة بريطانية على مصر عام ١٨٨٢م ، وانتصار أصحاب الطريق البرى والسكك الحديدية على أنصار الطريق البحرى وحفر قناة السويس .

هوامش البحث

- ١- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني ١٥١٧-١٨٨٢، ص ٧١ .
- ٢- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٩٢ ، ص ٢٢٢ .
- ٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٩ ، ص ١٨٨ .
- ٤- أحمد زكريا الشلق: معالم التاريخ المصري الحديث والمعاصر، ص ٣٨ .
- ٥- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٧٢ .
- ٦- روبر سوليه : مصر : ولع فرنسي ، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص ١٤ .
- ٧- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص ٢٢٨ .
- ٨- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص ٧٣ .
- ٩- Henry , Lamba: De l'evolution Juridique des Europeens en Egypt, Paris 1896 p. 205.
- ١٠- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٧٧ .
- ١١- جلال يحيى : المجلد في تاريخ مصر، ص ٥٢ .
- ١٢- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .
- ١٣- روبر سوليه : مرجع سابق ، ص ١٦ .
- ١٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٧٠ .
- ١٥- عمر السكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩١٦ ، ص ١٧ .
- ١٦- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .
- ١٧- Deherain , Henry : L'Egypt, Turque p. 202 .
- ١٨- فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١١ ، ص ٧٣ .
- ١٩- روبر سوليه : مرجع سابق ، ص ٢٤ .
- ٢٠- جلال يحيى: مرجع سابق ، ص ١٥٣ ، وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سابق ، ص ٢٠١ .
- ٢١- حراز : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .
- ٢٢- حلمي محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٩٦ .
- ٢٣- Jean Marir Carre : Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypt le Cairo, 1956 , p. 36.

- ٢٤- حراز : مرجع سابق ، ص ٧٧ .
- ٢٥- Francais Charles , Roux : les Origins de l'Expedition d'Egypt, paris 1916 , p. 39.
- ٢٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص ٢٣٠ وأيضاً عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨ ضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص ٢٥٤ .
- ٢٧- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .
- ٢٨- روبرت سوليه : مرجع سابق، ص ٣٠ .
- ٢٩- فاروق أباطة : مرجع سابق ، ص ٧٩ .
- ٣٠- جلال يحيى : مرجع سابق ، ص ١٥٤ .
- ٣١- Henry Laurens : L'Exepdition d'Egypt Paris , 1989 , p. 230 وأيضاً عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص ٢٠٣ .
- ٣٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .
- ٣٣- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق، ص ٢٢٢ .
- ٣٤- Ghorbal Shafik : The Beginnings of the Egyption Quastion and the Rise of Mahemet Ali 1928 , p. 3 .
- ٣٥- السيد رجب حراز: مرجع سابق، ص ٨٠. Coupland R: East African and its Invaders, p. 362.
- ٣٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .
- ٣٧- نفس المرجع السابق عمر عبد العزيز ص ٢٢٧ .
- ٣٨- فاروق أباطة : مرجع سابق، ص ٥٧ .
- ٣٩- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٨٤ .
- ٤٠- عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص ١٩٦ .
- ٤١- محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ١٩٠ .
- ٤٢- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص ٨٩ .
- ٤٣- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص ٢٢٨ .
- ٤٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ٩٢ .
- ٤٥- محمد أنيس : مرجع سابق، ص ١٩ .

الشام فى سنة ثلاث وثمانائة على يد تيمورلنك ويعلو هذه الوكالة رباى تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا وأنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير.

ب- (وكالة الجوانية) هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون كان موضعها عدة مساكن فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وبنائها فندقا وربعا بأعلاه فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليه ما يصل إلى القاهرة وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته إلى وكالة قوصون وجعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين فاستمر الأمر على ذلك (٣١).

ووكالتا قايتباى (٣٢) الأولى بالأزهر خلف الجامع الأزهر (٣٣)، والثانية (٣٤) على الشارع الأعظم التجارى الرئيسى للقاهرة فى حينه بالقرب من باب النصر، ووكالة المستخرج التى تقع بجوار قصر بشتاك والمطلة على شارع المعز لدين الله الفاطمى، والتى اشتراها السلطان قانصوه الغورى من الشيخ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن زين الدين عبدالقادر بن شمس الدين محمد الشهير بابن الموقع بمبلغ ٢٥٢٠ دينارا ذهبيا (٣٥).

هذا وفى نهاية عصر المماليك الجراكسة نجد قمة العمارة التجارية والنضج الهندسى والجمالى فى وكالة السلطان الغورى (٣٦) والتى تقع بشارع التبليطة خلف خان الزراكشة بالأزهر وهى تتكون من خمس طوابق (٣٧)، الأرضى والأول: حواصل لتخزين البضائع، والثلاثة الباقية أروقة (رباع) لسكن التجار، وكل رواق يتكون من ثلاث طوابق، يتم الاتصال بينها بسلم داخلى يتغير موقعه بين كل طابق وآخر، وهى فى حالة ترميم وتجديد الآن (٣٨).

أما فى العصر العثمانى فقد زادت أعداد الوكالات، ويكفى للتدليل على ذلك وجود عشر وكالات (٣٩) فى هذا العصر أى فى القرون (١٠-١٢ هـ / ١٦-١٨ م) بالإضافة إلى الوكالات القديمة السابقة.

كما ذكر المقرئى بعض الأسواق وهى قرينة الوكالات بينهما اتصال لا ينقطع نذكر منها نقلا عنه (٤٠):

قال ابن سيدة والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث والجمع أسواق وفى التنزيل إلا أنهم لياكلون الطعام ويمشون فى الأسواق والسوقة لغة فيها والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان الذكر والانثى فى ذلك سواء وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقاً أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتاً وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر وسأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلاً إلى ذكره إن شاء الله تعالى .

* (القصبة) قال ابن سيدة قصبة البلد مدينته وقيل معظمه والقصبة هى أعظم أسواق مصر وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسى ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المأكول والمشرب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء ما فيها من الأشخاص وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى يأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل ومن أدرك الناس قبل هذه المحن وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف لم يستكثر ما ذكرناه ، وقد اختل حال القصبة وخرب وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعاش ، ويقال لهم أصحاب المقاعد وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم وإقامتهم من الأسواق لما يحصل بهم من تضيق الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت وقد ذهب والله ما هناك ولم يبق إلا القليل وفى القصبة عدة أسواق منها ما خرب ومنها ما هو باق وهذه بعضها .

* (سوق باب الفتوح) هذا السوق فى داخل باب الفتوح من حد باب للفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفاميين والشرابحية وغيرهم وهو من أجل أسواق القاهرة وأعمارها يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ولشراء أصناف الخضروات وليس هو من الأسواق القديمة وإنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عندما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث وفيه إلى الآن بقية صالحة .

* (سوق المرحلين) هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحرى المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما يحتاج إليه يقصد من سائر إقليم مصر خصوصاً فى مواسم الحج فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن ، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز بالبلاد الشامية صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها فيما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشئ اليسير من الثمن فاختل من ذلك حال المرحلين وقلت أموالهم بعد ما كانوا مشهرين بالغناء الوافر والسعادة الطائلة وخرب معظم حوانيت هذا السوق وتعطل أكثر ما بقى منها ولم يتأخر فيه سوى القليل .

* (سوق خان الرواسين) هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش قيل له ذلك من أجل أن هناك خاناً تعمل فيه الرؤس المغمومة ، وكان من أحسن أسواق القاهرة فيه عدة من البياعين ويشتمل على نحو العشرين حانوتاً مملوءة بأصناف المأكول وقد اختل وتلاشى أمره .

* (سوق حارة برجوان) هذا السوق من الأسواق القديمة وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة المستنصر وقد كانت الشدة العظمى بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر وأقام هذا السوق برأس حارة برجوان قال ابن عبدالظاهر والسويقة المعروفة بأمر الجيوش معروفة بأمر الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر وهى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكمى وهكذا نشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة فإن فيها والحد القبلى ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش وسوق حارة برجوان هو فى الحد القبلى من حارة برجوان وأدركت سوق

حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول بحارة برجوان حمامات يعنى حمامى الرومى وحمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة وبها فرنان ولها السوق الذى لا يحتاج ساكنها إلى غيره وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين إلى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بيعاى لحم الضأن السليخ وبيعاى اللحم السميط وبيعاى اللحم البقرى وبه عدة كثيرة من الزياتين وكثير من الجبانين والخبازين واللبنانيين والطباخين والشوايين والبورادية والعطارين والخضرين وكثير من بيعاى الأمتعة حتى أنه كان به حانوت لا يباع فيه إلا حوائج المائدة وهى البقل والكراث والشمار والنعناع وحانوت لا يباع فيه إلا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل وسمعت من أدركت أنه كان يشتري من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة عنها يومئذ دينار ونصف وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النئ والمطبوخ إلى ثلث الليل الأول ومن قبل طلوع الفجر بساعة وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق ولم يبق لها أثر وتعطب بأسره بعد سنة ست وثمانمائة ، وصار أوحش من وتد فى قاع بعد أن كان الإنسان لا يستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهاراً إلا بمشقة وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لا يتفرغ من الوزن ولا يزال مشغولاً به ومعه من يستحثه ليزن له فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوا دار بهذا السوق مدرسة وعمر ربعاً وحوانيت فتحابى بعض الشئ ، وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة .

العناصر المعمارية للمنشآت التجارية:

وردت فى المصادر مسميات عديدة لنوع من المنشآت التجارية كالمخان - الفندق - القيسارية - الوكالة ، ولم توضح المصادر أية فروق بينها جميعاً ، لاسيما وأن المطلوب من بنائها هو إيجاد مكان لعرض السلع ، وإقامة التجار الأغراب عن المدن فى راحة تامة ... وعقد الصفقات التجارية الكبيرة وقد خطط المهندس المعماري لتلك المنشآت أن يكون فى كل منها:

- ١- حوانيت لعرض البضاعة .
- ٢- فناء أوسط يتم إنزال البضائع به .
- ٣- الخواصل لتخزين البضاعة بها .
- ٤- مصادر المياه اللازمة للمنشأة (مساه الشرب، الصرف الصحى) .
- ٥- الأروقة أو الرباع لإقامة التجار، أو عامة الناس.

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن معظم الوكالات الكبيرة في العصر المملوكي وما بعده كانت تتركز في حي الأزهر وبولاق حيث المساحة والأرض الواسعة بالإضافة إلى، أن بولاق كانت ميناء لاستقبال السفن التجارية القادمة من الشمال أو الجنوب في نهر النيل حيث تمتلئ الوكالات بالسلع والبضائع .

أما وكالات العصر العثماني فمعظمها يقع وسط المدينة بالقاهرة العثمانية ... وإذن فوكالات العصر المملوكي بشقيه وخاصة من نهاية ق ٩هـ وأوائل العاشر نهاية ق ١٥هـ وأوائل ق ١٦م كانت تتكون من خمسة طوابق ، وقناء كشف سماوى مستطيل الشكل محاط بمجاز دائري ، يطل على هذا الفناء ببائكة من العقود المحمولة على أعمدة ودعامات، ويفتح على هذا المجاز حواصل الطابق الأرضي والأول، أما الطوابق الثلاثة الباقية فتحتوى على أروقة خصصت لسكن التجار أو الأهالي، وتلمس كل هذا في وكالة الغورى ، وهى بحالة جيدة الآن (٤١)، وأما مدخلها فيفتح على شارع التبليطة (شارع الشيخ محمد عبده الآن) .

وهذا الشكل والأسلوب الكائن بوكالة الغورى * وجد أيضا في وكالة الخروب (٤٢) ووكالة سليمان (٤٣) باشا ووكالة حسن باشا الوزير (٤٤).

أما وكالات العصر العثماني فهى أصغر حجما عنها في العصر المملوكي كما أشرنا ، ويمثل هذا النوع من الوكالات وكالة جمال الدين الذهبى، فهى تتكون من فناء كشف سماوى مستطيل الشكل يفتح عليه حواصل الدور الأول مباشرة ، وذلك بسبب صغر المساحة المقام عليها الوكالة.. (٤٥). ونجد على مثالها وكالة ذو الفقار (ق ١٢هـ / ١٨م) .

ومهما يكن من أمر فإن وكالات هذا العصر - بصفة عامة- تتكون من فناء أوسط مستطيل عادة أو مربع الشكل، يحيط به في الطابق الأرضي مجموعة من الحواصل مقبية السقف وحوانيت ، ومدخل الوكالة يميز بزخارف حجرية وهندسية ، وقد جعلت الحواصل الداخلية مخازن للبضائع ، والحوانيت الخارجية الواقعة على الشارع المسلوك لعرض البضائع فى الخارج على المارة من الناس.

* راجع ترجمته فى هذا البحث ، د. حسن الباشا : قنصوة الغورى وعمائره فى موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ج ١ ص ٣٤١-٣٥٧ ط ١ سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مكتبة الدار العربية للكتاب- القاهرة.

أما الأدوار العليا فكانت سكنا للتجار الوافدين بتجارتهن إلى القاهرة ، وأكثر من ذلك أنها جعلت سكنا للعامة ، أو رباعا يسكنها الأهالي كما ذكر ذلك المقرئى -وأشرنا إلى ذلك- عند ذكره لوكالة قوصون التى كان يعلوها ربع يشتمل على ٣٦٠ بيتا يسكنها حوالى أربعة آلاف شخص وعادة ما يكون بالوكالة صهرج يمد السكان بالمياه اللازمة ، ويوجد بها أحيانا مصلى أو مسجد يكون بوسط الوكالة .. (٤٦).

وبشئ من التفصيل أتناول كل عنصر من العناصر السابقة وهى:

١- الحوانيت : جمع حانوت (دكان) وتتكون عادة من مساحة مستطيلة الشكل، وسقفه قبو مغطى عادة بالبلاط الكدان أو الحجر الجيرى واللون الأبيض أو الأصفر أو الرمادى أو المجزع (٤٧)، وتوجد الحوانيت فى كل منشأة تجارية لعرض السلع والبضائع الكائنة بها، وعادة ما تكون مفتوحة على الشوارع الرئيسية التى يسلكها المارة لتلفت أنظارهم وتجذبهم لابتياح هذه السلع ويظهر ذلك واضحا فى وكالات قايتباى والغورى وجمال الدين الذهبى وغيرها.

٢- الفناء الأوسط : كان على هيئة مستطيلة الشكل وهو قاسم مشترك بين جميع المنشآت التجارية وكان يوجد به مبان دينية فى وسطه، فالفنادق التى كانت بالشغور بنيت فى وسطها الكنائس لتأدية الطقوس للتجار المسيحيين، وكذلك المسجد أو المصلى لإقامة شعائر الإسلام وفروض العبادة فى مكان عملهم وبجانب تجارتهم. (٤٨). أو فوارة أو فسقية فى الوسط (٤٩)، وأحيانا تكون به حديقة صغيرة كما فى بعض الفنادق .

٣- الخواصل : جمع حاصل وهو المخزن (٥٠) وعادة ما تكون فى الطابق الأرضى من الوكالة أو الفندق أو القيسارية أو الخان وعادة ما تكون مستطيلة الشكل سقفها قبو نصف إسطوانى ذو باب بمصراع واحد يفتح على الصحن يعلوه نافذة للتهوية والإضاءة ، وأحيانا تشمل الخواصل الطابق الأرضى والأول الذى يليه ، واستخدمت فى خزن السلع لحفظها (٥١).

٤- مصادر المياه : كانت بالمنشآت التجارية عادة آبار توجد فى أفنيته أو فى «الدركة» وهو المكان الذى يلى المدخل مباشرة، وقد يلحق بأحد أركان المنشأة سبيل لشرب المارين على الطريق ، وإمداد ساكنيها بالمياه العذبة الصالحة للشرب والوضوء، وبها صهرج (٥٢) يملأ سنويا فى موسم الفيضان ، وقد يوقف المنشئ الوكالة على مصالح السبيل لاستمرار تأدية وظيفته كصدقة جارية للتقرب إلى الله تعالى كما تنص على ذلك بعض الحجج الشرعية.

٥- الأروقة : جمع رواق ويتكون من إيوان^(٥٣) أو إيوانين متقابلين بينهما دور قاعة^(٥٤) فى الوسط وشبابيك وطاقات مطلة على الواجهة الرئيسية أو مطلة على الفناء الأوسط الداخلى كما فى وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر ومنافع وحقوق^(٥٥).

وعادة ما تكون هذه الأروقة بالأدوار العليا تعلو الحواصل كالكائن فى وكالة الغورى حيث يسكن التجار علوها بعد أن يضعوا بضائعهم فيها، واستمر ذلك فى العصر المملوكى وامتد فى العصر العثمانى بتلك المنشآت، بل أكثر من هذا نصت بعض الوثائق على إنشاء رباغ فوق المنشآت التجارية ، وذلك للاستفادة القصوى منها لملّاكها^(٥٦) وقد ذكر المقرئى أن وكالة «قوصون» كان يعلوها ربع يتكون من ٣٦٠ بيتا (رواقا) يسكنها أربعة آلاف شخص ما بين رجل وامرأة وصغيراً^(٥٧).

موظفو المنشآت التجارية :

يحتاج العمل فى المنشآت التجارية إلى جيش من الموظفين فى وظائف كثيرة ومتنوعة ، ولا بد لاستمرارها فى أداء وظيفتها الحيوية اليومية المنوطة بها، لا بد من وجود موظفين وسرّتهم حسب أهميتهم :

- ١- القنصل . ٢- السماسرة والدلالون . ٣- البواب . ٤- المتسبب . ٥- المثلّمن .
- ٦- المترجم أو الترجمان . ٧- العتالون أو الحمالون . ٨- ناظر الأسواق . ٩- كاتب الجرايد بالسوق - مدولب الوكالة . ١٠- شاد السوق . ١١- الشهود العدول أو شهود الوزن . ١٢- العاشر أو العاشر أو مستوفى الضريبة .

وأفصل فى شرح هذه الوظائف بعض التفصيل :

- ١- القنصل : هو النائب عن دولته فى دولة أخرى يرعى حقوقها وتجارتها ويدافع عن رعايتها وهو دون الوزير المفوض ومرتبته دون مرتبة السفير^(٥٨)، وأصلها اللاتينى Consui يعنى مستشار ، ويعنى بها فى زماننا هذا ممثّل الدولة^(٥٩) وقد اصطلح أرباب السياسة على أن القنصل مأمور ترسله دولة إلى دولة أخرى أجنبية لحماية حقوقها وتجارتها وتبعتها ، وكان فى الدولة الرومانية صاحب المقام الأول من الولاية وتكون له سلطة الملك لمدة سنة^(٦٠).

بينما يرى القلقشندي : أن القنصل هو الذى يرعى مصالح دولته فى البلد الموجود به، وهو من ألقاب زعماء النصارى^(٦١) وتلك وظيفة لا توجد إلا فى الفنادق الموجودة بالشغور^(٦٢) وقد

يعقد القنصل اتفاقيات تجارية هامة نيابة عن بلده، ففي عهد السلطان برسبای وفد إلى مصر مبعوث فلورنسا لعقد اتفاق تجارى مع السلطان برسبای، فيصف المراحل التي مرّ بها حتى وصل إلى رؤية السلطان، حيث بدأ بمقابلة الدوادار.

٢- السماسرة والدلالون والمتسببون : جمع سمسار ودلال ومتسبب، فالسمسار هو وسيط بين البائع والمشتري لتسهيل الصفقة وهذا اللفظ فارسي معرب أما السمسرة فهي الحرفة بعينها (٦٣).

وفي حديث قيس بن أبي عروة : « كنا قوما نسمى السُّماسرة بالمدينة في عهد رسول الله ﷺ فسمانا النبي ﷺ التجار (٦٤) ». والسمسار في البيع هو الذي يدخل بين البائع والمشتري متوسطا لإمضاء البيع . والسمسرة البيع والشراء (٦٥).

أما الدلال : فهو لفظ مرادف للسمسار ويعنى الجمع بين البيع والشراء، وهو ما يتنادى على السلعة لتباع بالممارسة والحرفة منها هي الدلالة (٦٦) وجمعها دلالون (٦٧).

أما المتسبب فهو مفرد المتسببة وهم فئة من التجار وتقول العامة لما في أيديهم « سبوبة » ويعرفهم ابن إياس بأنهم أشخاص يعملون في هذه المهنة، كانوا يرتزقون عن طريق التجارة أو يقومون بدور الوساطة أو السمسرة بين البائع والمشتري (٦٨).

وهذه الوظائف منفرد أو مجتمعة وجدت في المنشآت التجارية سالفة الذكر، وهم الوسطاء بين البائع والمشتري ومهمتهم هي تسهيل عقد الصفقات التجارية وإيجازها، وكان لكل سوق سمسار معين يتبعه سماسرة يختص كل منهم بسلعة معينة (٦٩).

ولهذه الفئة صفات اتصفت بها حددتها كتب الحسبة وأوجب عليهم أن يكونوا ثقة من أهل الدين والأمانة وصدق القول، ولا ينبغي لأحدهم أن يزيد في سلعة ما ولا يكون شريكا فيها، وأن يكون عف النفس واللسان، بصيرا بالشيء المبيع حسناته وسيئاته، يبصر المشتري بكل شيء عن المبيع ويراقب الله تعالى في عمله (٧٠).

٣- البواب : هو الحاجب الذي يحجب الناس ويمنعهم من الدخول إلا بإذن وهو ملازم الباب والبوابة بتخفيف الواو وظيفة لحقت بالمنشآت المدنية في العصور الوسطى وتعنى في اللغة حافض الباب أي حارسه، وإذن هي تطلق على الجزء ويراد به الكل أي المنشأة التي بها الباب وهو المدخل لهذه المنشأة (٧١). وعلى شاغل هذه الوظيفة مراقبة الداخلين والخارجين . ويسهر على الحراسة ويفتح باب المنشأة في وقت معلوم ويغلقه في وقت معلوم من الليل أو بعد صلاة

العشاء، ويوقظ من يريد الإيقاظ في وقت طلبه، ويحصل الإيجار من السكان، ويلزمه المبيت بالقرب من الباب لسمع من يطرقه ويفتح للسكان . عندما يتأكد من سماع صوتهم، ويوقظ السكان وينبهم إذ شب حريق في المكان^(٧٢) هذا وقد تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما تخرت بعض الوكالات وأصبح الناس يدخلونها ولا بواب بها^(٧٣).

٤- المترجم أو الترجمان : هو الذى بيّن الكلام وأوضحه أو هو المفسر للسان ونقل الكلام من لغة إلى أخرى^(٧٤) وكلمة ترجمان مرادفة للمترجم ، والجمع تراجم وتراجمة، ويظهر أن الترجمان نوعان : أحدهما من أهل البلد بصير بلغة الأغراب وثانيهما من الأجانب بصير بلغة أهل البلد الذى يزوره ويسمى ترجمان الاقرنج^(٧٥).

٥- المثمن : وهو الذى يقوم السلعة ويحدد ثمنها حسب درجة جودتها من عدمه^(٧٦)، وعمله فى المنشآت التجارية وفى العصور الوسطى كان يقوم بتقدير الشئ، المبيع ليتمكن مقايضته بالمقابل له ، وربما كان موظفا حكوميا مهمته مراقبة عملية تبادل السلع والتجارة وحركتها فى المنشأة وغالبا ما كان ذلك فى الفنادق أكثر^(٧٧).

٦- العتال أو الحمال : هو الذى يحمل الأشياء على كتفه أو رأسه أو ظهره وينقلها من مكان إلى آخر بأجرة^(٧٨) ومن الطبيعى أن توجد تلك الوظيفة فى المنشآت التجارية والأسواق لحمل البضائع لمن يشترون^(٧٩). وقد وجدت هذه الوظيفة على شاهد قبر مؤرخ سنة ٢٤٢هـ ٨٥٦م باسم سعيد بن ميمون الحمال وعلى النسيج والخزف ذى البريق المعدنى بمتحف الفن الإسلامى^(٨٠).

٧- القبانى: نسبة إلى القبان وهو ميزان بالغ الدقة فى تقدير الوزن^(٨١) ومن المؤكد أن وظيفة القبانة وجدت فى المنشآت التجارية حيث يعتبر صاحبها طرفا محايدا بين البائع والمشتري ، وكان من صفاته : أن يكون ثقة مشهورا بالأمانة دينًا ، وعلى المحتسب ألا يمكن القبان من الوزن أو الكيال من الكيل أو القياس من القياسة أو غيرهم ممن يندرج عملهم تحت تلك الوظيفة إلا إذا كان مشهودا له بثبوت أمانته وعدالته^(٨٢).

وقد وجدت كتابة أثرية على ميزان قبان محفوظ فى متحف الفن الإسلامى نصها : صاحبه محمد بن محمد القبانى عمل الفقير أحمد البرنبالى^(٨٣).

٨- مدولب الوكالة: هو الشخص الذى يقوم بادارة الآلة المعروفة بالدولاب وهو اسم آلة تدبرها الدابة لسقى الأرض، وجمعه دواليب لفظة فارسية معربة ، وقد وجدت هذه المهنة فى الوكالات وكذلك الحمامات ومطابخ السكر وغيرها^(٨٤).

٩- شاد السوق : صاحب هذه الوظيفة مكلف بالتفتيش والإشراف على إدارة السوق ومنها شاد البحر أى له حق الإشراف على الموانئ أو شاد الجوالى وشاد الأقواد وشاد الأوقاف وشاد الخاص وشاد الشوانى وشاد المسابك وشاد المهمات وشاد العمائر وشاد الدواوين ... الخ وقد شاع استخدام هذه اللفظة فى دولة المماليك، وهو اسم فاعل من شد الشيء بمعنى قواه وامتد، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت معاونة للمحتسب فى الأسواق (٨٥).

١٠- الشهود العدول أو شهود الوزن : أصحاب هذه الوظيفة كانت مهمتهم الشهادة على صحة عقد البيع فى العمليات التجارية والشهادة أمام القضاة بصدق ذلك من عدمه فى حالة النزاع والخصومة بينهم، وكان لهم ديوان خاص بهم وقد عبر القلقشندى عنهم بالشهود والمعدلين (٨٦) وعرفوا أيضا بالعدول أو العدل أو المعدل (٨٧) وكانت المحاكم تعينهم بعد أن تتأكد من ثبوت عدالتهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح والتعديل ليحصل لهم الوثق بهم (٨٨). وهم أنواع كثيرة فمنهم : شهود السبيل ، وشهود القيمة ، وشهود المماليك وشهود البيمارستان ، وشهود دواوين المال وشهود الطراز، وشهود دار الضرب وشاهد الخزانة... الخ (٨٩).

١١- ناظر الأسواق : هو الرئيس والمسئول الأول عن كل ما يجرى فى الديوان، ويرجع إليه الموظفون ، ولا بد من توقيعه الرسمى على الإيراد والمنصرف فى الديوان، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات (٩٠) وصاحب هذه الوظيفة وعمله لا بد أن يكون فى أماكن البيع ، ويعاون المحتسب ومن مهامه الإشراف على العمليات التجارية ومراقبة الأسواق (٩١) وأنواع النظارة كثيرة منها : نظارة : الجيش ، نظارة الخاص ، ونظارة الموارث ونظارة الزكاة ونظارة الكسوة ونظارة الدواوين ، وناظر النظار وغير ذلك (٩٢).

١٢- كاتب الجرائد بالسوق : وظيفة كتابة أسماء العملاء فى السوق على قوائم يمكن الرجوع إليها عند الحاجة (٩٣) والجرائد جمع جريدة وهى الصحيفة التى تسجل فيها المنشورات ، ولهذه الوظيفة مسميات كثيرة منها : كاتب الجيش وكاتب السر... الخ (٩٤).

١٣- العاشر أو العاشور : ووظيفته تحصيل العشور أو المكوس على البضائع المستوردة وعمله ومكانة فى الوكالات والأسواق وعلى بوابات القاهرة (بوابة المتولى، وباب الفتوح وباب النصر وغيرها، وآدابه ومظاهر رفقته فى استيفاء العشور تحدثت عنها كتب الحسبة وكتب الفقه

بالتفصيل وقد تجلّى ذلك فى تنوع الاستيفاء وفى التفريق بين ما تنقسم عنه ومالاتنقسم وفى أخذ البديل مكان العين وتجلت أيضا فى تحريم القبالة وهى تضمين مناطق الجمارك للأفراد ، ويتم الإشراف عليها منهم بدلا من إشراف الدولة، ولا يخفى أن ذلك يدعو إلى تعسف الأفراد المشرفين على استيفاء الضرائب أملا فى الحصول على أرباح أكبر^(٩٥).

هذا ... لقد كانت الوكالات أسواقا كبيرة للجملة ، ولا يخفى أن البيع أو الشراء بها مما يصحبه دواما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل^(٩٦) البرية والبحرية التى ترتبط بالقاهرة لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية.

وستترجم لبعض أصحاب الوكالات الكبيرة الشهيرة لبعض السلاطين والتى ما زالت موجودة إلى الآن . ونحن نترجم لثلاثة من سلاطين المماليك الجراكسة أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة وهم :

السلطان برسباى الدقماقى :

هو الملك الأشرف برسباى بن عبدالله أبو النصر الدقماقى الظاهرى الجركسى ، سلطان البلاد المصرية والشامية والثامن من ملوك الجراكسة.

أخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القريم ، فاشتراه بعض التجار متوجها به إلى بلاد الشام، فاشتراه فى الطريق نائب ملطية الأمير دقماق المحمدى، ثم أرسله هدية إلى الظاهر برقوق ضمن هدايا أخرى هائلة.

وقد أعتقه برقوق وتنقلت به الأحوال ليكون ساقيا فى دولة الناصر فرج ، ثم فرّ إلى نوروز وشيخ إلى أن قتل فرج ، فعاد معهما إلى مصر، ولازال فى الترقى والصعود حتى أمير مائة ومقدم ألف، فولى نيابة طرابلس ثم عزل وقبض عليه وسجن . ثم عاد إلى مصر صحبة السلطان ططر، إلى أن مات ططر ، فأصبح هو المتكلم على ابنه الصغير^(٩٧).

لكن رأى أهل الدولة وأصحاب الحل أو العقد فيها أن تكون السلطة لشخص كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ، وينظر فى أحوال الناس، ويدير الأمر، وينصر المظلوم. وقد وقع اختيار كبار الأمراء على «برسباى» لكونه متصفا بصفات الكمال من الدين والفقه والمهابة وطهارة الذيل واللسان ، وقوة القلب والجنان^(٩٨). ولقب بـ «الأشرف» وكنوه بـ «أبى النصر»، وبولايته سكنت الفتن واستقرت الأحوال، فتولى السلطنة بذلك يوم الأربعاء ٨ من ربيع الآخر ٨٢٥ هـ ١٤٢٢ م^(٩٩).

صفاته : كان «برسبای» ملكا جليلا مهابا، عارفا متواضعا حسن الخلق، شهما شجاعا ذا شيبة نيرة وهيئة حسنة متجملا فى حركاته، لا يتعاطى شيئا من المسكرات، محافظا على ناموس الملك، محبا لجمع المال، مكثرا من المالك، ويحب العلماء وأهل العلم.

من محاسنه : إبطال عادة تقبيل الأرض، وكانت هذه عادة من قبله من الملوك مكتفيا بتقبيل اليد، وحسن النقود حتى كانت نقوده من أجد الذهب والفضة. وكان الناس يرغبون فيها ويتكالبون عليها، وكان كثير البر والصدقات مع لين الجانب ، ولولا كثرة طمعه لكان عظيما من عظماء التاريخ^(١٠٠).

ومن محاسنه : كذلك مرسومه إلى حاجب حجابہ الأمير «قرقماس» سنة ٨٣٢هـ- ١٤٢٩م، بإراقة الخصور وحرق من الحشيشة المغيرة للعقول شيئا كثيرا، وتتبع مواطن الفساد ومنع الناس من الاجتماع بها^(١٠١).

ومن محاسنه : أنه أدب الفرنج ، وحارب القبارصة فى ثلاثة غزوات أسر فى ثالثتها «جانوس» ملك قبرص وأتى به مكبلا بالسلاسل إلى مصر ذليلا وعلق خوذته على باب مدرسته الأشرقية ، ثم عفا عنه ورسم له بما يكفيه حتى فك أسره ورجع، وثبت أركان دولته فهابها الجميع^(١٠٢).

أما عيوبه : فالمظالم التى أحدثها فى شهر المحرم ٨٣٢هـ- ١٤٢٨م وهى إلزامه للتجار العراقيين بدفع ثلاثة دنانير ونصف عن كل حمل يتبضعون به من تجارة الهند بمكة بدلا من حضورهم إلى القاهرة، وألزم سائر التجار بالحضور للقاهرة لدفع الجمارك على بضاعتهم، صحبة ركب الحج ، وعين أعوانه لحراستهم وحفظهم حتى لا يستطيع أحدهم الفرار أو البقاء بمكة.

وألا ينصب قبانى لوزن بضاعة أحد من التجار بالاسكندرية، ومنع كافتهم من بيع البهار للفرنج الذين ألزمهم بشراء الفلفل السلطانى من جدة بسعر ١٢٠ دينا للحمل، وكانت قيمته مع التجار بثمانين ، فأخذ الفرنجة البضاعة إلى بلادهم ، ولم يشتروا أو يبيعوا للتجار، وحصل بذلك لهم ضرر كبير^(١٠٣).

ولما بلغ السلطان مدى كثرة الربح الذى يحصل عليه تجار الشام فيما يجلبونه من الأقمشة أمر السماسرة بمنعهم من البيع ويكون كل هذا النوع متجرا للسلطان ورسم لأمرء الشام بعدم

دخول هؤلاء التجار إلى القاهرة بأقمشتهم ، فأرجعهم بتجارهم في البراري وخرت مدن الشام من هذا النوع من الأقمشة وغيرها وبطلت صناعة النسيج كذلك وضع الناس من هذه الأحوال.

وكذلك احتكر السكر لباع في المتجر السلطاني فلايجرؤا أحدا على شرائه إلا من متجر السلطان وكذلك احتكر الفلفل ، وبذلك تسبب في خراب بيوت التجار وهجرهم القاهرة، وكان هو في الحقيقة سببا في اتجاه البرتغاليين من حينئذ في البحث عن طريق بديل للتجارة غير مصر (١٠٤).

ومن عيوبه كذلك : توسيطه لطبيبيه (أى قطعه لوسطهما بالسيف) وهما الرئيس «زين الدين خضر» والرئيس «شمس الدين بن العفيف الأسلمى» ، وذلك عندما حصلت له «مليخوليا» ، في مرض موته ، وذلك لشدة عليه ، وكان ذلك في ٤ شوال سنة ٨٤١هـ- ١٤٣٧م فاستسلم الثانى وثبت حتى صار قطعتين ، أما خضر فراع وجزع جزعا شديدا ودافع عن نفسه وكثر صياحه وبكاؤه ، فتكاثروا عليه ووسطوه توسيطا مروعا وذلك لتلويده واضطرابه (١٠٥).

أما جلوسه للحكم، فقد كان يوم السبت والثلاثاء ، وكان يجمع معه القضاة الأربعة، ثم تركهم وجلس وحده . فقد نادى فى يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٨٤٠هـ بجلوسه مع القضاة الأربعة بمجلسه : «من له ظلامة ، من قهر من غبن عليه بالأبواب الشريفة» (١٠٦). وكانت سفرته المشهورة إلى ديار بكر سنة ٨٣٦هـ - ١٤٣٢م .

وكانت وفاته يوم السبت ١٣ ذى الحجة ٨٤١هـ - ١٤٣٨م بعد أن اختلط عقله وابتلى بالصرع، وكانت مدة سبطنته ١٦ سنة و٨ شهور، وكان سنه قد تخطى الخامسة والسبعين بخمسة أيام (١٠٧)، ودفن بتريته بالصحراء وكان السلطان قد رسم ألا تخرج امرأة من بيتها مطلقا، فكانت الغاسلة إذا خرجت إلى ميت أخذت ورقة من المحتسب فتجعلها على رأسها حتى تستطيع المرور من السوق، وسلط أعوانه بتشديد القبض علىهن ، فمن خرجت ضربت ضربا مبرحا ، فامتنعت النساء من الخروج ووقفت الأسواق من بيع العطور، وكان ذلك برأى القضاة وذلك لخروجهن متبرجات متزينات ، كما رسم ألا يلبس فلاح زنطا مطلقا (١٠٨).

منشآته وحبه للعمارة : كان برسباى ممن يعشقون العمارة ولعا بها ، وتعتبر منشآته من أشهر آثار العصر المملوكى ، فمن المدارس التى أنشأها:

١- المدرسة الأشرفية بالقاهرة (١٠٩)، عند سوق الوراقين بشارع المعز لدين الله الفاطمى (١١٠)، وسميت الأشرفية نسبة إلى منشؤها الأشرف برسباى، وتمت عمارتها على أكمل وجه ، وكان السلطان يقوم بنفسه بمباشرة العمل بها.

ففى يوم الخميس مستهل رجب ٨٢٦هـ - ١٤٢٣م رسم السلطان بهدم الحوانيت بخط الصنادقيين إلى رأس الحريريين وما جاورها من الأملاك والأوقاف لكى يبنى المدرسة والمسجد فى هذا المكان، وكان المشرف على عمارتها «الزنى عبد الباسط» ، فدفع ثمن الأملاك التى هدمت والأوقاف التى استبدلت، وأظهر اهتماما ونهضة كبيرة ، ونقل التراب والطين المتخلف من الحفر، ونقل الحجارة وعملها جيّرا، ورسم بعدد من الحمير والجمال لنقل ذلك.

وفى يوم السبت ٢٦ شوال من نفس هذه السنة ، ركب السلطان إلى مدرسته بعد الظهر ومعه جماعة قليلة من غير أن يعلم أحدا، ودار فى المدرسة ورجع (١١١). ولما تمت عمارتها وكملت عين بها أرباب الوظائف ، ففى يوم الخميس ٣ من رجب سنة ٨٢٧هـ عين لهذه المدرسة شيخا هو «علاء الدين على بن الرومى الحنفى» (١١٢)، وحضر السلطان والقضاة مجلس علمه، فبعد الاستفتاح خطب خطبة بليغة تضمنت مدح السلطان، ثم شرع يتكلم فى قوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ (التوبة / آية ١٨) وخلع السلطان وأنعم عليه فى شهر رمضان بالقمح والسكر والذهب ، ولما سأله السفر للحجاز أعطاه هجينا ومبلغ من المال قدره ١٥٠ دينارا ذهبيا (١١٣).

وفى ٩ رمضان ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م قرر السلطان بها ثلاثة دروس فجعل للشيخ «شمس الدين بن على القابانى الشافعى» (١١٤) درسا ومعه عشرون طالبا، وشيخ المالكية «عبادة بن على ابن صالح الزرزاى» (١١٥) المولود ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م ومعه عشرة طلاب، أما الحنابلة فشيخهم زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعروف بالزركشى (١١٦)، المولود سنة ٧٥٨هـ - ١٣٥٧م ومعه عشرة طلاب (١١٧).

وقد أثبت السلطان وقفيتها وفى جدرانها بكتابة بارزة من بدن الحجر داخل المقصورة حرصا على بقاء أوقافها ، ومع هذا لم يقد ذلك فائدة ، فقد لحقها ما لحق بغيرها من الاضمحلال والضعف.

المرتبات : يصرف لإمام هذا المجتمع شهريا ألف درهم ، وثلاثة أرطال خبز يوميا وللخطيب خمسمائة درهم شهريا ، وثلاثة أرطال خبز يوميا ، وللمدرس الحنفى ثلاثمائة درهم فى كل شهر وستة أرطال خبز يوميا ، وللمدرس الشافعى مائة درهم شهريا وستة أرطال خبز يوميا ، وللمدرس مالكى وحنبلّى كل منهما خمسون درهم شهريا وستة أرطال خبز لكل منها ، ولخمس وستين طالباً سبعة آلاف وخمسمائة درهم شهريا ، وخمسة وتسعون رطلا من الخبز يوميا (١١٨) ، ولخازن الكتب ٣٠٠ درهم شهريا ، ٣ أرطال خبز يوميا .

الصوفية بالمدرسة الأشرفية : قرر السلطان برسباى فى حجة وقفه شيخا للصوفية رجلا من أهل العلم حنفى المذهب ، موصوف بالديانة ، ويكون عالما بالأصلين قادرا على إلقاء الدروس على الطلبة ، « من الكشاف للزمخشري ، ومن المفتاح للسكاكى ، ومن الهداية فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة ، ومن البزدوى فى أصول الفقه » . وعدد الصوفية الذين معه خمسة وستون صوفيا .

« يجلس لهم كل يوم بالجامع المذكور مدرسا بكرة النهار يقرؤون عليه شيئا من العلوم الشرعية على ما جرت به العادة بالقاهرة المحروسة .

ويصرف لهذا الشيخ فى كل شهر من الفلوس الجدد المضروبة والمختومة معاملة الدينار المصرية أو ما يقوم مقامها من النقود ، ثلاثة آلاف درهم ، ومن الخبز القرصة المستخرج من دقيق ستة أرطال (١١٩) .

وشرط برسباى أن يكون الطلبة والأساتذة كلهم من الصوفية ، كما شرط أن كل من يتقاضى خبزا لا بد أن يحضر درس التصوف بعد صلاة العصر ، على أن يجتمعون هم وشيوخهم من كل مذهب فى كل يوم بالجامع المذكور ويفرق عليهم الربعات الشريفة ، ويقرأ كل منهم حزبا من القرآن العظيم (١٢٠) .

كما عين السلطان الشيخ « شرف الدين موسى الرومى » مكتبا لتعليم أرباب الوظائف وغيرهم تحسين الخط العربى « ويصرف له فى كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود ، وفى كل يوم من الخبز القرصة ثلاثة أرطال ، ليتعاهد أرباب الوظائف بالجامع المذكور بتعليم رسم الكتابة على العادة فى مثل ذلك » (١٢١) .

٢- مدرسة السلطان برسباى بسرياقوس: كملت عمارتها فى ربيع الآخر ٨٤١هـ ١٤٣٨م

وقفها على الصوفية بخانقاه سرياقوس على الطريق السلوكية ، وقرر السلطان لها إمام للصلوات الخمس وخطيبا وقراء يتناوبون القراءة فى المصاحف . وقيل أنه تنهى فى نقشها وزخرفتها^(١٢٢) . وذرعت فجاءت خمسين ذراعا ، وبعض الباحثين يطلقون عليها مسجدا والبعض الآخر مدرسة ، والصحيح أنها مجمع دينى يشتمل مدرسة وكتاب وسبيل ومنبر للخطابة وخانقاه ، للصوفية ، ويرى بعض الباحثين أن السبب فى بناء هذا المسجد أنه عند خروجه لغزو قبرص نزل بخانقاه سرياقوس سنة ٨٢٩هـ ، ونذر لله إن أحياء وظفر بعدوه الملك (جان دى لوزنيان) وأسرته ، ليعمرن فى هذا المكان مدرسة وسبيلا ، ولما تم له النصر وفى بنذره ، والمسجد مربع الشكل ، مساحته بالمتر ١٤٧٤ .

ومن ولى مشيخة هذه المدرسة (الخانقاه) القاضى «محب الدين بن رسول الكرادى» القرمشى الأصل الحنفى ، المعروف بابن الأشقر المتوفى يوم ١٢ رجب ٨٦٣ هـ - ١٤٥٩ م^(١٢٣) .

٣- مسجده بباب النصر : قرر فيه إمام للصلوات الخمس ، ومؤذن وعلى المؤذن - بالإضافة إلى عمله بإعلام الناس بوقت الصلاة - تعليم الأيتام الموجودين المقررين بالمسجد وهم عشرة^(١٢٤) .

على أن حجة وقف السلطان برسباى تجعل الإمام لهذا المسجد هو المؤذن وهو نفسه مؤدب الأطفال به ، وشرطت أن يعلمهم كتاب الله العزيز والخط العربى والاستخراج (الحساب)^(١٢٥) على أن يصرف له فى كل شهر خمسة عشر درهما وزنا بصنج الفضة ، ومن الخبز القرصة كل يوم رطلان .

على أن يصرف للأيتام جميعهم خمسة عشر درهما لكل واحد منهم فى الشهر درهما ونصف درهم ، ولكل واحد منهما رطلان من الخبز القرصة يوميا بالسوية بينهم ، وللأيتام كذلك من الفلوس الجدد مائتى درهم ليكمل لكل يتيم منهم درهم ونصف فضة وعشرون درهما فلوسا فى كل شهر ورطلان خبزا فى كل يوم .

ويزيد على مبارك فى خطته إمام للمسجد ويعطيه مائة درهم فضة ، وليس هذا الإمام موجودا بحجة برسباى ، ولا أدرى من أين أتى بهذا الإمام ، ولعله اطلع على الحجة الأصلية ورأى فيها الإمام وسقط هذا الإمام من الكاتب لحجة الوقف المنقولة عن الأصلية^(١٢٦) .

٤- مسجد وتربة وزاوية بالصحرَاء^(١٢٧) : وقد عين السلطان برسباى لهذه المدرسة المجاورة

للتربة إماما وخطيبا ومدرسا حنفيا ومعه سبعة عشر طالبا. على أن يصرف لكل منهم: الإمام: خمسة وثلاثون درهما نقرة جيدة شهريا، وثلاثة أرطال خبز يوميا، وفي نظير قراءته في المصحف كل جمعة خمسون درهما شهريا.

الخطيب: مرتبه مائة درهم شهريا فقط وليس له خبز لأنه لا يحضر يوميا.

المدرس الحنفى: مرتبه شهريا خمسة وسبعون درهما، وثلاثة أرطال خبز يوميا.

أما الطلاب السبعة عشر: فلهم مائتا درهم شهريا، وواحد وخمسون رطلا من الخبز يوميا (١٢٨).

هذا وقد وقف السلطان برسباي على منشآته التعليمية وغيرها أرضا بالجيزة والغربية والدقهلية والمنوفية وأسيوط وغيرها وعقارات بالقاهرة وغيرها (١٢٩).

هذه تقريبا أهم منشآته، وله منشآت مدنية كثيرة منها: قنطرة المجذوب بمدينة أسيوط فقد جاء في محاضر حفظ الآثار أنها انشئت في عصر برسباي، وذلك لوجود رسم «فهد» على هذه القنطرة، وهو الرنك (الشارة والعلامة) المميزة لبرسباي، ويؤكد ذلك ويرشحه ويقويه وجود أملاك برسباي في زمام ناحيته رقة (١٣٠) ودرنكة والتي تقع حاليا بحوض «الزمار» الذي يقع جنوب هذه القنطرة مباشرة، بالإضافة إلى وجود أراضي أخرى في ناحية قريبة من هذه المنطقة (١٣١).

وللسلطان برسباي منشآت أخرى منها تجديدات بالحرم الشريف والجامع الأزهر، وبعض المساجد بمصر، وغير ذلك من أنواع البر والقربات (١٣٢).

أما مجالس علمه فكانت لاتنقطع ومنها على سبيل المثال:

مجلس في شهر شعبان ٨٢٧هـ - ١٤٢٤م، أمر السلطان فيد بقراءة صحيح البخاري من أول شعبان بحضور القضاة الأربعة من كل مذهب، وحضر شيخ الإسلام «ابن حجر العسقلاني». وكان القارئ للبخاري -أمام السلطان- نور الدين السويفي، وحضر السلطان معهم في القصر البراني الكبير.

واستمر المجلس لمدة شهرين يحضره المذكورون كل يوم، وفي ختامه خلع السلطان على أكثر من عشرين فقيها، لكل منهم صوف طرى بسنجاب مربع، وخلع على شمس الدين الهروي كاملية خضراء بفرو سمور وعلى القاضي «البدر العيني» بصوف سنجاب مربع، وكذلك على

القارىء والمادح . كما فرق على الطلبة من سائر المذاهب لكل واحد منهم أكثر من مائة فلوس، بالإضافة إلى كسوة أيتام مكاتبه والتوسعة عليهم فى شهر رمضان المعظم (١٣٣).

أما المجلس الآخر والذي حدث فيه نقاش واستفتاء : فكان فى ختم البخارى بالقلعة فى ٢٣ من شهر رمضان ٨٤١هـ - ١٤٣٨م ، فقد اجتمع فيه الأعيان وقضاة القضاة الأربعة على العادة وعدد من مشايخ العلم والطلبة، وقد سأل السلطان فى هذا اليوم عن كثرة الوباء وهل هذا بسبب ارتكاب المسلم للذنوب فيعاقبه الله بالطاعون أو غيره، وقد أجابه بعض العلماء : « أن الزنا إذا فشى فى الناس سلط الله عليهم الطاعون ، وأن النساء يتزين ويتبهرجن وعشين فى الطرقات مهتوكات ، لم يخف منهن غير رقعة وجههن، وغالبهن سافرات الوجوه».

وهنا برز أحد العلماء متصديا لهذا العالم، بأن هذا الكلام على عمومه، ويجب أن يمنع فقط المتبرجات ، أما العجائز ، ومن ليس لهن من يقوم بمصالحهن فلايمنعن من الخروج .. واختار السلطان منع النساء مطلقا من الخروج إلى الأسواق، ظانا منه أن منعهن يوقى الطاعون، وقد اتفق مع قضاة الشرع على منع النساء من الخروج ، وشددوا فى ذلك، وهددوهن بالقتل ، ونادوا بذلك فى القاهرة المحتسب والوالى والمشاعلى، وصاروا يتبعون من خرجت فيشخنونها ضربا وسجنا حتى امتنعن نهائيا (١٣٤).

* * *

والثانى من أصحاب الوكالات بالقاهرة : السلطان أبو النصر « قايتباى » :

أعظم رعاية العلم والفن والعمائر على الإطلاق من السلاطين الجراكسة، الملك الأشرف الجركسى الظاهرى -نسبة إلى الظاهر جقمق- السادس عشر من ملوك الجراكسة، ويلقبه بدون حصر بالأشرف أبى النصر، خاتمة العظام ونايغة النظام، ولد فى ٨٢٠ هـ ، واشتراه الأشرف برسباى من التاجر «محمود بن رستم» سنة ٨٣٩ هـ، وحبس بطبقة الكازية من أطباق القلعة إلى أن ملكه جقمق وأعتقه وجعله خاصكيا ، ثم داوآدار صغيرا، وصار يتدرج فى الوظائف ويكافح إلى أن نقله الظاهر قريبا مكانه فى الاتابكية لما تسلطن ، ولم تطل أيامه فيها إلى أن تسلطن يوم الاثنين ١٢ رجب ٨٧٢ هـ - ١٤٦٨ م .

ولما استقر فى المملكة صار يعزل ويبقى، وببذل وبأخذ ويتحرى لما يراه العدل، والتقريب والتهديد والإرشاد والتمهيد والتلبث والتثبيت ، كان من رأيه وأسلوبه وتدبيره وتقريره مع حرمة الزائدة ، خافه الناس لعظمته ووفاء العظماء بالاسترضاء . سار فى الناس السيرة الحميدة واجتهد فى بناء المشاعر العظام وأزال الكثير من الفساد وقطاع الطرق والمناسر واستقرت الدولة غالب أيامه (١٣٥).

صفته : طويل القامة ، عربى الوجه، مصفر اللون، نحيف الجسد ، شائب اللحية، شجاعا عالما بأنواع الفروسية (١٣٦).

صفاته : كان غاية فى الثبات والتجلد وصدق العزيمة، رايته منتصبه دائما ، راقيا فى تربية مماليكه ، ويختار جلساءه ، عفيف يقظ بكاء ، يحب العلماء ويهوى مجالستهم، ويطلع كتب العلم والرقائق ، وسير الخلفاء والملوك ، ويسأل القضاة وغيرهم الأسئلة الجيدة. يكره التهويش ورفع الصوت العالى بدون فائدة (١٣٧)، يمدحه الشعراء فلايلتفت إليهم، ويقول لهم لو مدحتهم النبى ﷺ لكان أفضل، كثير الاطلاع فى الكتب، له أذكار وأوراد.

عمائره الدينية والمدنية: له مبرات وعمارات شتى فى مصر والمدينة ومكة وغيرها ففى مصر جدد بعض ما تهدم من جامع عمرو بن العاص ، والمشهد النفيسى، والإيوان النفيسى كله المجاور لقبة الشافعى، وعمر القبة والمنبر من جامع الناصرى وجملهما بالرخام . وعمر إيوان القلعة ، وربعين متقابلين وجامع بجزيرة الروضة، وجامع بقلعة الكيش، وجامع بباب القرافة، وإيوان القلعة الكبير، والميدان الناصرى بالنصارية بعد أن كان مهجورا ، كما أنشأ عدة قناطر وجسور بالأقاليم ، ورسم أيضا جامع الأمير زياد بالمنيا (١٣٨)، وجامع بسلامون الغبار (١٣٩)،

والمدرسة المتبولية بدمياط (١٤٠)، وحصنا بالاسكندرية ، ومدرسة بالقرب منه، وحصن ثغر دمياط وحصن ثغر رشيد (١٤١). والمقام الدسوقي بدسوق ، والمقام الأحمدي بطنطا ، وزاوية اليسع والزاوية الحمراء ، والمقام الزيادي بين دهروط وطنبدا بالوجه القبلي (١٤٢). وبطنبدا زاوية للعريان، وقناطر عشرة متلاصقة ، وجسور بالجيزة وبرجا محكما برشيد والاسكندرية ، وعدة سبل وعدة مكاتب للأيتام تعلوها ، أحدها بدرب الأتراك بالأزهر، وعند الفراغ منه سقى الناس السكر عدة أيام بجواره ربع متسع جدا، وخان للمسافرين ، وحوض لسقى الدواب وحوانيت ووكالة ، وغيرها وفي وسطها حوض وحوش للدواب، وحفر بها بئرا كذلك، وعمل خانا وقرنا وطاحونا ورباع، وكان يوسع الشوارع ويزيل الموانع (١٤٣).

اصلاحاته بالجامع الأزهر : جدد مطهرة الجامع الأزهر ليعم الانتفاع بها، وأمر بهدم الخلاوى المتجددة بسطحه ، بعد ضعف عقود وسقفه ، وجمع العلماء بمجلسه لذلك. وجدد أروقة المغاربة والأتراك والشوام. وعمل ترايزين حول صحن الجامع ما زال اسمه ورنكه منقوشا عليه للآن، كما جدد باب الأزهر والمئذنة الرشيقة المركبة فوقه (١٤٤).

أنشأ تربة بالصحرَاء بجوارها مدرسة تقام فيها الجمعة والجماعات ويجتمع بها الصوفية وبها خزانة كتب شريفة منيفة (١٤٥)، وعمل بجوارها ريعا للصوفية بجواره سبيل، وحوض للدواب، يعلوه كتاب للأيتام، ومدرسته التى بالكبش للجمعة، والجماعات والطاعات ، وهدم مسجد سلطان شاه ووسعه ، وجامع شاكر الذى بقنطرة قديدار، وبنى زاوية ظاهر الخانقاه بجوار زاوية النهيتى بها فقراء مقيمون ، شيخهم «محمود العجمي» (١٤٦)، كما أكمل فى رمضان ٨٨٦هـ - ١٤٨١م، قبة الأمير يشبك بن مهدي المعروفة بالقبة الفداوية، فإنه مات قبل أن يكملها (١٤٧).

عمائره بمكة والمدينة : عمر مسجد الحيف ببنى، وحفر صهريجا بنمرة ذرعه عشرون ذراعا، وعمر بركة خليص ، وأجرى العين الطيبة إليها ، وأصلح المسجد الذى هناك، وأجرى عين عرفة بعد انقطاعها أكثر من قرن، وعمر سقاية سيدنا العباس، وأصلح بئر زمزم والمقام، وفى سنة ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م جهز منبرا عظيما للمسجد الحرام، وفى كل سنة يرسل للكعبة الشريفة كسوة فائقة ، وأنشأ بجانب المسجد الحرام مدرسة عظيمة وبجانبيها رباطا مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، وسبيلا عظيما للعام والخاص، ومكتب للأيتام، بل بنى المسجد الحرام بعد حريقه .

وبالمدينة المنورة مدرسة بديعة، وعمر مدرسة بغزة ، ورمم الجامع الأموى بدمشق ومدرسة كبيرة ببيت المقدس (١٤٨)، وغير ذلك كثير (١٤٩) مما يطول شرحه (١٥٠).

مجالس العلم لدى السلطان قايتباى : تعددت مجالس السلطان قايتباى ، وكان أغلبها فى أول الشهور العربية للتهنئة بحلولها وكان بعضها يطلب عقده لظروف طارئة ، وكانت معظم مجالسه لأخذ رأى القضاة واستشاراتهم كلما عن له أمر من الأمور، مثل النظر فى شئون الدولة خاصة تصرفات القضاة حيال الأحكام والأوقاف ، وكذلك أخذ الفتاوى لتنفيذ أحكام الشرع، أو مناقشة مسائل بعينها، كجمع المال لمحاربة الأعداء والنفقة منها على الجنود وغير ذلك .

وغالبا ما خذل السلطان فى مجالس الشورى هذه فلم يحظ رأيه بالتأييد (١٥١) ، وكانت مجالس العلم لا تنقطع بأمر السلطان سواء حضر أو كان مسافرا ، وفى رمضان ٨٨٢هـ- ١٤٧٨م كان السلطان مسافرا ، وجرت العادة أن يختم البخارى بالقلعة ، لكن نظرا لسفر السلطان احتفل به هذا العام بالجامع الأزهر، وحضر القضاة الأربعة، ووزعت عليهم الخلع والصرر على العادة ودعا الحاضرون للسلطان بسلامة العودة (١٥٢).

ومن الذين درسوا بمجلس الأشرف قايتباى ، الشيخ «محمد بن على الحسينى القاهرى الشافعى» ويعرف بابن قمر والمولود سنة ٨٠٣هـ- ١٤٠٠م ، ت فى ١٣ جمادى الأولى ٨٧٦هـ- ١٤٧١م) واشتهر بالحديث الذى أذن له ابن حجر فى تدريس فنونه، وهو أحد العشرة الذين أوصى لهم بعد موته ووصفهم بالحديث ، وقد درسه بالظاهرية القديمة وجامع الحاكم والخانقاه البيبرسية الذى كان شيخا لها وأحد صوفيتها، واستفاد منه الطلبة ، وألف كثيرا من الكتب، ورغب أخيرا عن كتبه ووظائفه (١٥٣).

إلا أن بعض الفقهاء لاقى منه العنت والإرهاق ، فقد صادر بعضهم وقطع مرتباتهم من اللحم، بل أراد أن يسترد منهم ما أخذوه فيما مضى . وذلك لوقوفهم ضده الوقفات المشرفة الجريئة ممتنعين عن الإفتاء على هواه، ومنهم شيخ الإسلام أمين الدين الاقصرائى «الذى رفض رفضا قاطعا اعتداء السلطان على الأوقاف، بحجة حرب شاه سوار أو حسن الطويل، وهذا الموقف يدل على انتصار الفقهاء على السلطان ويطشه .

وكذلك الشيخ «سراج الدين العبادى الشافعى» تحدث حديثا طويلا مع السلطان، قايتباى حثه فيه -وخشّن له القول- فى عدم إهانته للفقهاء ... ولكنه ضرب بكلامهما عرض الحائط

وأهان القضاة فى أحد مجالسه (١٥٤). كما عارضه أيضا الشيخ القاضى عبد الغنى بن تقى المالكى بأخذه أجرة الأملاك سنة كاملة وأنها ستثقل كاهل الشعب، وإن كان لابد فليكن خمسة أشهر فقط فاضطر إلى الرضوخ والموافقة.

بر السلطان قايتباى وعطفه : فى سنة ٨٧٢هـ ١٤٦٨م حج السلطان قايتباى - ولم يحج من السلاطين الجراكسة غيره- فرتب لأهل الحرمين ثمانية آلاف أردب من القمح تعم الغنى والفقير والحر والعبد والذكر والأنثى.

وفى شوال ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م خرج السلطان للحج، ولم يشعر بخروج المحمل أحد، ثم قدم فى المحرم ٨٨٥هـ - ١٤٨٠م رسول من عند السلطان يخبر بأنه دخل المدينة الشريفة وزار القبر الشريف، وأنعم بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار، وأنه وصل إلى الينبع قاصداً العقبة، وأنه رحل عنها وسيصل عما قريب . وكان من ثمرات هذه الرحلة أنه تبرع بستين ألف دينار ذهب من ماله الخاص دون بيت مال المسلمين، يشتري بها ربايع وأماكن وغير ذلك ، ويصرف من ريعها على فقراء المدينة من الدشيشة والخبز والزيت يوميا، وشرع السلطان بنفسه فى بناء الرباع (الوكالات) التى أنشأها بباب النصر (١٥٥) وفى غيره من أنحاء القاهرة وما زال مبنى ريع باب النصر قائما للآن وعليه نقوش تؤيد وقف إيرادها على شراء قمح دشيشة لفقراء الحرمين (١٥٦).

كما كان السلطان قايتباى يعطف على ذوى الحاجات والمعوزين وأرباب الديون وصحائفه مليئة بالحسنات ، ومنها مثلا : إطلاقه لبعض المساجين بسجن المقشرة، وكان أحدهم به منذ ثلاثين سنة لعجزه عن سداد ديونه، فسددها عنه السلطان وأطلقه، كما وزع نحو من ثمانمائة دينار على المدينة والفقراء.

وقد استن سنة جميلة من التوسعة على الفقهاء والعلماء فى شهر رمضان بتوزيع العطاء عليهم واستمر ذلك معمولا به حتى وفاته ، ولما سقط أحد التجارين ممن يعملون فى طباق الماليك بالقلعة ومات لتوه ، والتمس أهله صدقات السلطان سارع بمنحهم مائة دينار، وثيابا وثلاثة دنانير أشرفية لتجهيز الميت، كما بر رجلا فقيرا بعشرة دنانير وخمسة أراذب قمح لأنه أنجب أربعة أولاد وهو فقير (١٥٧).

رحلات السلطان : كان للسلطان قايتباى رحلات كثيرة طوال العصر، وتكرر نزوله من القلعة ليل ونهار حتى خرج عن الحد - كما يقول ابن إياس - ولما كان يكوب السلاطين فيما

مضى نادرة من النوادر ، اضطر المؤرخون المعاصرون إلى ترك ذكر ركوب السلطان ونزوله من القلعة ولم يحصوا ذلك. وعاب عليه ابن تغرى بردى ذلك بقوله : « أنه لم يَبْتُ أمرا ولا ردع مفسداً » طبعاً لكثرة أسفاره وخروجه ، ولم تظهر لها نتائج طيبة على الأقاليم التى زارها ، بل شملها الخراب لكثرة النفقات والنهب والهدايا للسلطان ، ولما علم المفسدون منه ذلك ازداد طمعهم وكثر شرهم على الناس ، وقطعوا الطرق ، بل تعدى بعضهم على أعوان السلطان وحاشيته .

بينما يعلق « الجوهري » المؤرخ القريب من السلطان : « أنه كان فى ضيق من فتنة شاه سوار وغيره ، وأنه أراد إظهار قوته حتى لا يطمع فيه أحد ، كما كان يتفقد أحوال دولته التى ترامت أطرافها من حدود الفرات إلى بلاد النوبة ، وتفقد أحوال الرعية ، وغالباً ما كان ينزل متخفياً ويسأل عنها بنفسه ، مما كان سبباً فى رفع كثير من المظالم وإعادة الحق إلى نصابه » كما كان يتفقد مشروعات التعمير الكثيرة التى اقترحها ، مما كان له أكبر الأثر فى إنجازها على وجه السرعة ، وغالبها أعمال عم بها الخير جل البلاد ، ولم يتخرج السلطان فى رحلاته هذه من زيارة المرضى من الأمراء وهذا وفاء منه لزملائه الذين خدموا معه » (١٥٨).

حبه للصوفية : كان السلطان قايتباى يحب الصوفية ويعتقد بهم ، وقد بنى للشيخ عبد القادر الدشظوطى مسجداً بباب الشعرية (١٥٩) ، ما زال قائماً للآن تقام به الجمع والصلوات ، وكان قايتباى يعتقد غاية الاعتقاد ويمثل لأمره ويقبل يده (١٦٠) ، وقد قطع بعض المؤرخين بولاية قايتباى وصلاحه ، وبشره أيضاً بالسلطنة بعض الأولياء قبل أن يليها بزمان طويل ، ولكنه كان يطلب منهم إخفاء ذلك حتى لا يتعرضوا وإياه لنقمة السلاطين القائمين بالأمر.

ولما ثار الخلاف والجدل فى المحرم ٨٧٥هـ - ١٤٧١م بين العلماء بسبب قصائد ابن الفارض ، وكان السلطان متعصباً له ، وقد صرح العلماء بفسقه وتكفيره ، ونسبوه إلى من يقول بالحلول والاتحاد ، تدخل حينئذ وألقى بثقله فى المسألة وعمل على حسم الفتنة (١٦١).

وكان دائماً يزور الصوفية فى أماكنهم ويزور أضرحة الأولياء فى المحرم ٨٨٨هـ - ١٤٨٣م لما نزل السلطان لمعاينة الجسور ببلدة سنيت من الغربية عرج على طنتدا لزيارة مقام سيدى أحمد البدوى. وفى المحرم ٨٩١هـ - ١٤٧٦م توجه إلى قبة يشبك بن مهدى بالمطرية ، وفى

عودته نزل عن فرسه وزار تربة الطاهر برقوق ، وأمر برعاية مصالح الصوفية بها وعمل لها منبرا من الحجر ما زال موجودا للآن (١٦٢).

ولم يورق صفوه إلا حربه مع شاه سوار الذى دوخ الدولة واستنفذ كثيرا من أليتها وضاع فيها أعظم الأمراء، وكذلك حربه مع حسن الطويل ومع العثمانيين .

مرضه ووفاته : انتاب السلطان أمراض ووعكات كان آخرها مرض موته ، فقد رفسه فرس الأمير أزيك فكسر ساقه، ولما لم يتمالك نفسه من السرور بانتصاره على العثمانيين ركب فرسا يتنزه به فى القلعة، انقلب به الفرس فانكسرت رجله وأغمى عليه، وحمل إلى الدهيشة وهو فاقد الوعي. وقد حاول المماليك الجلبان اغتيال السلطان أثناء نومه على الدكة فى الحوش السلطاني زمن الصيف وفشلت هذه المحاولة ، ثم انتقل من هذا المكان، وفى الصباح وجد ثلاثة أسهم نشاب بالمخدة التى ينام عليها ، فكتم الخبر، ونزل السلطان إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد لم يكثرث بذلك وزادوا فى الطفيان ، فحزن السلطان وزاد حزنه فمرض بالحمى، ولزم الفراش وأصيب بإسهال مفرط أقعده عن الحركة فتنازل لابنه محمد عن العرش وسنه يومئذ ١٤ سنة .

وفى ٢٧ ذى القعدة ٩٠١هـ - ١٤٨٦م مات السلطان قايتباى وله من العمر نحو من ٨٤ سنة. وكانت مدة سلطنته ٢٩ سنة ، ٤ شهور ، ٢٠ يوما، ويكون مولده على ذلك سنة ٨١٧هـ، لأن السخاوى ذكر مولده سنة بضع وعشرين وثمانمائة ، وقال إن ترجمته تحتل عدة مجلدات . ولم يخلف السلطان غير ابنه محمد وسيرته العطرة وأعماله المعمارية التى خلدت اسمه والخيرات الكثيرة التى ما زالت قائمة (١٦٣) ودفن بتربيته التى أنشأها بالصحراء وقبره ظاهر يزار (١٦٤).

والثالث من أصحاب الوكالات الشهيرة بالقاهرة: السلطان «قانسوه الغورى»:

السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانسوه بن عبدالله الجركسى المشهور «بالغورى» (١٦٥)، نسبة إلى طبقة الغور أحد طبقات القلعة بمصر، والتي كانت معدة لتعليم المؤدبين، وقد سماه ابن طولون «جندب» وجعل «قانسوه» لقباله.

ولد فى حدود ٨٥٠هـ - ١٤٤٦م، وترقى فى المناصب حتى أصبح نائب «طرسوس» ولما انتزعها منه جماعة ابن عثمان هرب إلى حلب، ثم عاد إليها بعد انتصار الجيش المصرى على الروم، ولما استولوا عليها مع غيرها هرب منها إلى حلب، ولما انتصر عسكر مصر عاد إليها ثانيا، ثم أعطى نيابة ملطية، فلما مات السلطان «قايتباى» جاء إلى القاهرة ووقعت له عدة وقائع فى دولة الناصر محمد بن قايتباى، ثم أعطاه مقدمة ألف، وفى دولة «جانبلاط» أعطى وظيفة نوبة أبنوب، ثم تنقلت به الأحوال حتى أصبح سلطانا (١٦٦).

قد تلا وفاة السلطان «قايتباى» عهد من الاضطراب والفوضى، تداول أمر مصر وما يتبعها فيه خمسة سلاطين، فقد خلفه ابنه محمد لمدة ستة أشهر وخلع ليعود ثانية إلى الملك بعد خمسة أشهر، فيقتل بعد ثمانية عشر شهرا سنة ٩٠٤هـ - ١٤٩٩م، وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى خلال ثلاثين شهرا.

فلما اختفى ثالثهم «طومانباى» هربا من المماليك بعد أن وثبوا عليه فى سلخ شهر رمضان سنة ٩٠٦هـ - ١٥٠١م ليلة عيد الفطر وأشيع ذلك فى الصباح، اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطانا ينتهى هذا الاضطراب بولايته، ووقع اختيار الأمراء عليه بعد أن تعصب له «قيت الرجبى» أمير سلاح، و«مصر باى» أحد الأمراء وقالوا: ما نسلطن إلا هذا، فامتنع وبكى بكاء شديدا وهم يسحبونه من طوقه، حتى مزقوا ملوطته وأجلسوه بالقوة وتوسموا فيه الضعف فى المستقبل، وظهر لهم بعد ذلك على عكس هذا التصور. وقد حضر القضاة الأربعة يتقدمهم خليفة الوقت وعقدت البيعة للغورى بعد أن كتبوا محضرا بخلع العادل وأنه سفاك للدماء.

وكانت سلطنة الغورى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ٩٠٦هـ - ١٥٠١م، ثم ألبسوه خلعة السلطنة وهو يمتنع ويبكى، ولقبوه بالأشرف، وسما فى علوه وأشرف وكنوه بأبى النصر قانسوه الغورى، وبه صارت مصر مشرقة بالغورى (١٦٧).

ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت له الأصوات بالأدعية الفاخرة وزالت الشكوك والظنون وقرّت به العيون . وكان الناس يظنون أن هذه السلطنة على غير أساس لأنها جاءت على غير قياس فصار منه بعد ذلك الهزل جد، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد، فزال عنه الإضرار والبأس ، وامتلات منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ، ولم يظهر برأسه الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده (١٦٨).

وصفه : كان الغورى طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون مدور الوجه (١٦٩)، مشحم العينين جهورى الصوت، مستدير اللحية، لم يظهر بلحيته شيب إلا قليلا، مهيبا مبجلا فى المواكب ملء العيون فى المنظر (١٧٠).

حبه للتنزه والموسيقى والرقص والحفلات : كان السلطان الغورى يحب الموسيقى والغناء ويعرفهما جيدا ، وقد اتفق المؤرخون على ولعه بالموسيقى ، وشهدت به سيرته ، فاذا أراد الاستراحة من عناء العمل خرج إلى مقياس النيل بالروضة أو إلى قبة الأمير يشبك بن مهدى بحدائق القبة وأحضر المطربين والعازفين .

ففى يوم عاشوراء من المحرم سنة ٩١٨هـ - ١٥١٢م نزل هو وحاشيته إلى المقياس نزهة هناك، فجلس بقصره ومد سباطه الحافل بأنواع الأطعمة ، وحضر أمامه أرباب الآلات الموسيقية والمغنون ، وحضر شخص يدعى على باى من المضحكين الفكهين والذى يعمل عفريتا فى المحمل عند دوراته ، فرقص أمام السلطان ورقص كرتباى من الأمراء واقباى الطويل أمير آخور ثانى، ثم بركات المحتسب ثم عبد العظيم الصيرفى الذى كان جسيما فعندما رقص ضحك عليه السلطان (١٧١).

وكانت هذه الاحتفالات تعود على العامة بالفرج والخير، إذ كانوا يأكلون ما بقى من سباط السلطان من اللحم والحلوى وغيرها الكثير وحينما يعود من نزحته يوزع عليهم النقود .

ففى ثانى يوم عيد الأضحى ذى الحجة ٩١٥هـ - ١٥١٠م توجه السلطان فى نزهة إلى قبة يشبك بالمطرية ، وهناك مدت الأسطة الحافلة، وأحضر جماعة من المغنيين وأصحاب الآلات الموسيقية ، وطلب إلى بعض الأسراء أن يرقصوا فرقصوا أمام السلطان. وبعد صلاة العصر - وفى طريق عودته إلى القلعة- صار يوزع على الفقراء ومن يقف له من الناس من كيس ذهب كان فى جيبه « يعطيهم من يده بغير واسطة بحسب ما يقسم لهم » (١٧٢).

صدقاته على الفقراء : كان يتصدق بيده كثيرا على الفقراء والمساكين والمعوزين ، فكان دائما يطلب الفقراء ويجمع معهم الخرافيش عند سلم المدرج، وعندما اجتمع منهم الجم الغفير « صار يوزع عليهم الصدقات، وهو راكب فرسه لكل صغير وكبير » من رجل وامرأة يعطى كلا منهم أشرفيا ذهبيا « وقد مات من شدة الزحام فى هذا اليوم ثلاثة من الفقراء ، وقد بلغ ما فرقه نحو ثلاثة آلاف دينار وارتفعت له الأصوات بالدعاء (١٧٣).

كما كان يدفع ديون المساجين تخفيفا عنهم قربة لله تعالى، وفى شهر شعبان سنة ٩١٢ هـ - ١٥٠٧ م عرض السلطان المحابيس والنساء المسجونين بالحجرة ، فأطلق جماعة منهم بعد أن صالح عنهم أرباب الديون من ماله الخاص (١٧٤).

وفى رمضان ٩١٥ هـ تصدق على نحو سبعين إنسانا ما بين رجال ونساء من المغاربة ، الذين قصدوا الحج فى هذه السنة ، ورسم لهم لكل واحد منهم أشرفيا ثمن بسقماط (١٧٥).

ولما كان النيل بمصر فى العصر المملوكى سيفيا ذو حدين ، إذ نقص ماؤه هلك الزرع والضرع، وإذا زاد ماؤه حدثت الخسائر أيضا ، من أجل هذا كان السلطان الغورى يتصدق على الفقراء بعد قراءة القرآن والدعاء بزيادة النيل أو هبوطه .

ففى نهاية سنة ٩١٥ هـ - ١٥١٠ م زاد النيل زيادة يخشى منها الغرق والتلف، فطلب الغورى من القضاة الأربعة والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس ليدعوا الله تعالى بهبوط النيل فذهبوا إلى هناك وياتوا بالمقياس يدعون ويبتهلون . وقرأ السلطان فى هذه الليلة ختمة شريفة، بعد أن مد وسحاطا فاخرا «فانهبط النيل إلى ما يقرب من نصف ذراع فكان من العجائب» (١٧٦).

وفى جمادى الآخرة ٩١٩ هـ - ١٥١٤ م عاد أحد الأمراء من الصعيد ومعه عدد من مشايخ العربان بسبب ٧٠ ألف أردب من القمح قد تأخرت عليهم، ولما عرضوا على السلطان مقيدين قال : « أطلقوهم جميعا فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » (١٧٧).

هوايات الغورى : كانت هواياته كثيرة منها : حبه لسماع الطيور المغردة ذات الألوان البديعة ، ونشق الأزاهير العطرة والبخور والمسك والعود، يحب رؤية الأزهار والفواكه ، يلبس فى أصابعه الخواتم البياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . ويستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، ويستعمل الأشياء المفرحة (١٧٨).

أما ولعه وهوايته لغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور فكان غاية في ذلك، وهذا المؤرخ المعاصر ابن إياس يحدثنا عن ذلك في حوادث سنة ٩١٢هـ - ٩١٥م فيقول : « في شعبان سنة ٩١٢هـ وصل إلى الغورى من بلاد الشام صناديق خشب فيها أشجار بطينها ما بين فراصية وتفاع شامى وكمثرى وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض وسوسان وزنبق وسفرجل وكروم وعنب وغير ذلك من أشجار جوز الهند بطينها، فزرع ذلك جميعه بالميدان ، وكانت نحو من مائة وخمسين حملا ، حتى صار هذا الميدان من جملة متنزهات القاهرة التى تشبه غوطة دمشق ما بين أشجار ومياه جارية (١٧٩). وفي سنة ٩١٥هـ أبنعت هذه الأشجار وأخرجت الشتلات أنواع الأزهار ما بين فل وورد وزنبق وياسمين وبان وسوسان وورد أبيض لم يجد بمصر مثله » فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس وسيفرش فوقها مقعدا مخمل بنطع ويجلس عليه تظله فروع الياسمين وتقف حوله الممالك الحسان بأيديهم المنشآت ينشون عليه وحوله أقفاص بها طيور المسموع ما بين هزازات وشحارير وفواخت وقمارى وغيرها ، كذلك حوله بين الأشجار أنواع من الدجاج الحبشى والبط الصينى . وقد صار هذا الميدان جنة الله على وجه الأرض (١٨٠).

أبناء الغورى : لم نعثر فى بدائع الزهور أو مجالس السلطان الغورى على أبناء له إلا بنت ذكرها ابن إياس فقال : « فى يوم ٢٨ شوال ٩١٠هـ توفيت للسلطان ابنة كانت مستحقة للزواج فأخرجت فى بشخانة زركش ، وقداستها كفارة ، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ، ودفنت داخل القبة بمدرسة أبيها ، وكانت جنازتها مشهودة (١٨١).

اهتمامه بالنواحى الاقتصادية : كان السلطان الغورى مهتما بالنواحى الاقتصادية لدولته من كل ما يدر له دخلا يتقوى به على الأخطار المحيطة بدولته من الحرب البحرية مع البرتغاليين بالإضافة إلى تخرش العثمانيين بالثغور والمنافذ الشمالية للدولة المملوكية.

ومن هذه الإصلاحات : ترميم وتجديد وإصلاح قنطرة اللاهون بالفيوم التى أنشأها السلطان بيبرس البندقدارى ، ونظرا لأهميتها البالغة لإقليم الفيوم توالى عليها الإصلاحات إبان العصر المملوكى. ولما زار الغورى إقليم الفيوم سنة ٩١٨هـ - ١٥١٢م وجد هذه القنطرة فى حالة تصدع شديد نتيجة لقطع جسر اللاهون وجسر بحر يوسف ، فأمر أحد المقدمين الأمير « أرزمك » الناشف بإصلاحها فأصلحت.

ولكن هذه القنطرة دب فيها الخراب والتلف فى العصر العثمانى نتيجة لتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية وإهمال شأن الترع والجسور والقناطر والعيون فى هذا العصر.

وكان الغورى كثيرا ما يفرض على الزراع الغرامات الفادحة ليستعين بها على الإصلاحات الطارئة، وربما سخر جمالهم وبغالهم وغيرها للعمل فى هذه المنشآت، أو يطلب إليهم كميات من التبن أو الغلال أو الفاكهة، أو يفرض ضريبة على أرض الإقطاع معجلة قبل حلول موعد استحقاقها، فيصيبهم الضرر البالغ، وقد يفضل بعضهم الهرب والفرار أو الهجرة إلى ناحية أخرى لعدم استطاعته الوفاء بالدين (١٨٢).

أما عن منشآته فهى كثيرة جداً (١٨٣) منها: مسجد بحى «الشرابشين»* (الغورية الآن) والقبه والكتاب والسبيل ومدرسته المواجهة للمسجد، وجامعا عند القلعة، وبنى خان الخليلى من جديد، بعد أن آل للسقوط، وخانا، وأحواضا فى طريق الحج عند العقبة، ورباطا وممارستانا فى مكة، وأنشأ الميدان عند القلعة، وقصرا عند المقياس بالروضة ووكالة (١٨٤)، بحى الغورية (١٨٥)، وأخرى بالمحلة الكبرى، كما عمر قاعة البيسرية، وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة، كما أنشأ عدة قناطر وأبنية أخرى، وبنى دائرة الحجر الشريف، وباب إبراهيم، وجعل علوه قصرا شاهقا وتحتة ميسأة، وجدد بعض أروقة المسجد الحرام، وأنشأ مجرى الماء من مصر إلى القلعة، وعمر بعض أبراج الاسكندرية، والمثدنة المعتبرة ذات الرأسين بالجامع الأزهر (١٨٦)، كما بنى مصطبة السلطانية بدلا من الدكة، كما أقام عدداً من المنشآت الحربية كالأبراج والمكاحل والأسطول (١٨٧).

أما مدرسته (١٨٨): فقد انتهى العمل من بنائها وزخرفتها فى ليلة عيد الأضحى سنة ٩٠٨هـ - ١٥٠٢م، وعمل السلطان احتفالا وعمل وليمة حافلة حضرها الخليفة «المستمسك بالله يعقوب» والقضاة الأربعة وأعيان مصر من المشايخ والأمراء والقراء والمباشرين والوعاظ، وزينت الدكاكين من باب زويلة إلى الشرابشين* وعلقت القناديل المضاءة.

وكان صاحب هذه المدرسة هو الطواشى «مختص» (١٨٩)، الذى كان رأس نوبة السقاة، وكان قد وضع أساسها تمهيدا لإتمامها، لكن الغورى تغير خاطره عليه، ولما قبض عليه وصادره قرر عليه مالا، فأعطاه هذه المدرسة من جملة المال، وكان قد بنى منها شيئا فهدمه الغورى

* الشرابشين : هو حى الغورية وهو شهير (بالطرايش).

وأضاف إليها سوق الجملون وما حوله ، فاتسعت ، وتناهى فى بنائها وزخرفتها فجاءت فى غاية الحسن والرونق والظرف.

وقد شنع بعض الناس على الغورى فى بنائه هذه المدرسة من مصاريف جاءت من المصادرات ومن وجوه المظالم ، فقد أخذ رخامها من أماكن متعددة بأبخس الأثمان ، وقد خرب قاعة «شموال» اليهودى الصيرفى وأخذ رخامها وأبوابها، بل خرب عدة قاعات أخرى وقد سعى بعض الظرفاء هذه المدرسة «بالمسجد الحرام» لما وقع فيها من اغتصاب الأرض ومصرفها من مال فيه شبهات ، ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله : «وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس..» (١٩٠).

ولما كملت عمارة هذه المدرسة ببناء مدفن له - لم يدفن فيه - وعقد فوقه قبة وأنشأ بها صهريجاً ومكتباً، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية يحضروا بكرة والعصر» ، أى يحضرون فى الصباح الباكر دروساً معينة، وابتدى بعد العصر - تشبه الفترة المسائية فى بعض مدارسنا حالياً - دروساً أخرى. وجعل «قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف» شيخ الحضور بالنهار، ومحِب الدين الحلبي الإمام شيخ الحضور فى العصر ، ثم نقل إليها الآثار الشريفة التى كانت برباط الآثار بعد أن استفتى العلماء مخالفاً بذلك شروط الواقف ، كما نقل إليها المصحف العثمانى وربعة شريفة كتبت بماء الذهب ، كانت موجودة بالخانقاه البكتيرية بالقرافة كان الواقف قد اشتراها بألف دينار ، وبعد نقل هذه الأشياء أصبحت هذه المدرسة من محاسن الزمان، خاصة أن هذا الخط من هذه الناحية محتاجاً إليها لعدم وجود مدارس أخرى سابقة فيها ، وعد ذلك من جملة سعد الغورى.

وكان أصل هذا المكان قيسارية للأمير على، فاستبدلت من وقف «الناصر محمد بن قلاوون». أما القاضى «البرهان بن أبى شريف» فقد ترك منصب قاضى القضاة ليتفرغ لمشيخة هذه المدرسة.

وكانت زيارات السلطان الغورى لمدرسته لاتنقطع ويعطى فيها لأيتام المدرسة وصوفيتها الكسوة وغيرها. كما أعطى لمطبخ الأزهر فى رمضان ستمائة أردب قمح ومائة قنطار عسل وستمائة وسبعين ديناراً على أن يصنع من القمح خبزاً يفرق على من به (١٩١).

وقد ارتفعت الأصوات له بالدعاء والزغاريد من الطيقان فى يوم ٣ جمادى الآخرة ٩١٧هـ / ١٥١٢م حيث زار المدرسة وأنعم على صوفيتها وعلى مشايخ الدرس لكل واحد منهم عشرة

دراهم كما أنعم على أيتام المكتب والقراء والوعاظ والبوابين والفراشين، فكان جملة ما فرق في هذا اليوم نحواً من خمسمائة دينار^(١٩٢).

وفي ١٩ رمضان ٩١٩هـ - ١٥١٤م زار الغورى مدرسته ، وعرض عليه أطفال المكتب: فرسم لهم بكسوة العيد^(١٩٣)، وقد أوقف على مدرسته ومسجده وكتابة الأوقاف الكثيرة.

ومن منشآته : المصطبة بدلا من الدكة السلطانية التى يجلس عليها الغورى للحكم بين الناس، فقد بناها بالحجر الفص النحيت، وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى والمرسينى وغيره، وتقش بروازها بالذهب، وجعل لها أفرىزا وكساه بالذهب ونقش عليه اسمه فجاءت فى غاية الحسن لم يعمل مثلها قط ، ولا سبق إليها^(١٩٤).

أما جامع الغورى المشهور الآن بحى الغورية على مدخلها من شارع الأزهر على يمين المتجه إلى باب زويلة، فقد جاء فى غاية الأبهة والعظمة والحسن والبهاء والزخرفة، وقد صنع له مئذنة لها أربعة رؤوس وهو أول من اتخذ ذلك^(١٩٥).

وأول من خطب بهذا الجامع هو العلامة «الشهاب أحمد بن الفرفور الدمشقى الشافعى» فى جمعة مستهل ربيع الآخر سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٤م، وحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة، برهان بن أبى شريف الشافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى، وحضر غالب الأمراء والشيوخ والجم الغفير من أعيان الناس، وزينت منطقة الغورية كالمعهد ، وخلع السلطان على جملة من الأعيان منهم ابن الشحنة الحنفى لكونه أفتى بصحة الجمعة فى هذا الجامع ، وعلى اينال شاد العمارة بامرة عشرة، وجملة من النجارين والبنائين والمرخين والمهندسين من أرباب الصنائع الذين عملوا الجامع، وأنعم على جملة الفعلة لكل واحد منهم ألف درهم^(١٩٦).

وفى شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ - ١٥٠٦م مالت مئذنة هذا الجامع وتشققت وآلت للسقوط ، فرسم السلطان بهدمها بعد أن ثقلت من علوها لكونها ذات أربع رؤوس فلما هدمت أعيدت على الصحة، وقد بنى علوها بالطوب الملبس بالقيشانى الأزرق . وقد نظم للشيخ بدر الزيتونى الأديب قصيدة مطولة فى هذا الجامع منها:

وأنشأ بمصر جامعا لم يزل بيتا يذكر الله معمر

والقبة الزرقاء وصهرىجها والماء والكيزان والزير

كأن برد الثلج فى مائه لكل عطشان ومحرر. الخ القصيدة^(١٩٧)

وفى شهر شوال سنة ٩١٧هـ - ١٥١٢م ظهر فى بقية هذه المدرسة- التى انشأها السلطان - تشقق فاحش حتى آلت للسقوط، فأمر السلطان بهدمها فهدمت من سفلىها، ثم علقت ورمت ترميما حافلا (١٩٨).

وفصل المسجد عن المدرسة شارع الغورية، حيث تتقابل هاتان المنشأتان العظيمتان شامختان إلى اليوم، والآن يتم تبييض الجدران وترميم المتهدم منها، ويوجد تحت الجامع طابق ينزل إليه بسلم، قال بعض العاملين بالمسجد أنه سجن كان الغورى يسجن به المتمردين وأرباب الجرائم.

تدين الغورى وحيه للعلماء وبره بهم: كان السلطان قانصوه الغورى ديناً محافظاً على فروض الدين، شديداً على من يفرط فيه، وكان يعتبر من علماء الدين بمصر، ذلك لأنه كلما نزلت بالبلاد نازلة أو قرعتها قارعة، وكلما حزبه أمر فزع إلى قراءة القرآن والحديث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما سار الغورى على العادة القديمة بقراءة البخارى فى القلعة وختمه باحتفال مهيب فى نهاية رمضان.

فى حوادث رجب ٩١٥هـ - ١٥١٠م نجده يأمر الناس بألا يتجاهروا بالمعاصى. ولا يمشى أحد بسلاح بعد المغرب وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع (١٩٩). وقد وصف العلامة «الشويفى» مترجم الشاهنامة الفارسية إلى اللغة التركية بأمر الغورى- صلاة السلطان ودعائه وتهجده بالليل فى خاتمة الشاهنامة (٢٠٠).

وكان الغورى يبر العلماء حينما تضيق بهم الحال، فالقاضى فخر الدين بن العفيف، الذى كان يشغل منصب كاتب الممالك، وقف للغورى لما ضاقت الدنيا فى وجهه وأظلمت وشكا، ضيق ذات يده وفقره، رسم له بجامكية «ألفى دينار فى كل شهر وزيديتين لحم فى كل يوم» (٢٠١).

كما تحمل الضرائب المتأخرة عن الفلاحين المقيدى بالسلال قائلا: «أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى» (٢٠٢).

وكان يحب الصوفية ويجلهم ويحسن إليهم فعند مروره إلى قناطر السباع وقف وبصحبه الأمراء عند مدرسة ابن الزمن ليزور الشيخ «سويدان» الذى يقيم بهذه المدرسة (٢٠٣)، إلا أنه -لدواعى الأمن- ألغى مولد سيدى أحمد البدوى، حيث كانت العربان تائرة فى البلاد والطاعون يعمل عمله بالقاهرة (٢٠٤).

مناظرات العلماء فى مجلس السلطان الذى تعصب لضرب عنق أحد العلماء شتم سيدنا ابراهيم الخليل : فى شهر جمادى الأولى ٩١٣هـ - ١٥٠٨م أشيع أن خطيباً بأحد الجوامع يسمى «علاء الدين النقيب الحنفى المحلى» أطال لسانه ووقع بكلام فاحش فى حق سيدنا ابراهيم الخليل ، فضبط عليه ذلك ، فاستتابه بعض القضاة ، وحكم القاضى ، «شمس الدين الحلبى» بحقن دمه ، لكن السلطان الغورى لما علم بهذه الواقعة استشاط غضبا فتعصب للخليل ، وأراد ضرب عنق هذا الرجل ، وجمع لذلك مجلسا من القضاة الأربعة فى الدهيشة بحضرته ، وحضر العلماء والقضاة المفصولون وغيرهم ، وتباحث العلماء فى هذه المسألة ، وتمخض المجلس عن تشوب الخلاف والمشاجرة بين القضاة ، فالشيخ «زكريا الأنصارى» قال : مذهبنا أن هذا القائل إذا تاب إلى الله واستغفر تقبل توبته ووافقه على هذا رأى بعض العلماء ، وخالف بعضهم الآخر ومنهم «عبد البر بن الشحنة» الذى وقع التشاجر بينه وبين الشيخ «نور الدين المحلى» وأحظر كل من العلماء بقوله فى هذه المسألة ، وينفض هذا المجلس عن أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، والسلطان مصمم على ضرب عنقه ، لكنهم أخذوا هذا القائل إلى السجن (٢٠٥).

مجالس العلم لدى الغورى : للسلطان الغورى مجالس كثيرة كان يجتمع معه فيها نخبة كبيرة من علماء عصره ، ويكثر فيها المناقشات والمجادلات للبحث فى مسائل شتى. ومن العلماء الذين اشتركوا فى هذه المجالس «عبد البر بن الشحنة» قاضى قضاة الحنفية ، والشيخ «حسين حلبى» و«شمس الدين السمديسى» و«البرهان بن أبى شريف» و«جلال الدين السيوطى» (٢٠٦) ، والشيخ «محب الدين المكى» والشيخ «ابن أبى الحسن» ، والشيخ «عبد الرازق» والشيخ «على الأخمى الحنفى» والشيخ «كمال الدين البرقوقى» (٢٠٧) والشيخ «كورانى» والشيخ «كمال الدين الطويل» وغيرهم . وكان هؤلاء العلماء المذكورين هم رؤساء الجلسة الذين يديرون الحوار.

أما المسائل التى نوقشت مع السلطان فكثيرة ، منها فتاوى وقصص ونواد وحكايات وتفسير وحديث ، وتاريخ وسيرة يتخللها نكات وألغاز وغير ذلك. ومن الألغاز التى قيلت فى أحد المجالس:

١- ما اسم شىء قد غدا نزهة للنفس محبوب لدى الأزمنة

وإن ترد تصحيف مقلوبه تجده شهرا من شهور السنة

فقليل هو البحر (٢٠٨).

٢- ما اسم شيء أكلنا ناعم فى الحلق لين

كيف يخفى عنك هذا وهو فى التصحيف «بين» (٢٠٩)

وهناك كتابان سجل فيهما كثير من مسائل هذه المجالس، وبصوران تصويرا حسنا بعض أحوال مصر السائدة فى عصر الغورى وهما:

١- كتاب «نفائس المجالس السلطانية فى الأسرار القرآنية» ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وعشر روضات . وكانت المجالس تنعقد فى كل أسبوع مرة أو اثنين أو ثلاثة... ألف هذا الكتاب العلامة حسين بن محمد الحسينى (٢١٠).

٢- «الكوكب الندى فى مسائل الغورى» ويحتوى هذا الكتاب على ألفى مسألة وأجوبتها (٢١١).

اهتمام السلطان قنصوه الغورى بالعلماء : عاش زمن الغورى عدد كبير من العلماء والأئمة الفضلاء الذين زاولوا القضاء والفتوى والتدريس ونذكر منهم على سبيل المثال المشهورين : جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ - ١٥٠٦م) المؤرخ المحدث المفسر الموسوعى، زين الدين زكريا الأنصارى الصوفى (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م) وقاضى قضاة الشافعية والفقيه البليغ شهاب الدين القسطلانى المحدث صاحب «ارشاد السارى» فى صحيح البخارى (ت ٩٢٣هـ - ١٥١٧م، فخر الدين عثمان الدينى ، شيخ الحديث فى زمانه (ت ٩٠٩هـ - ١٥٠٤م) ، وقد تتلمذ له فيه طبقات من الرجال ، نور الدين الأشمونى (٢١٢) العلامة فى النحو والقراءات والأصول وفقه الشافعية (ت ٩٢٠هـ - ١٥١٤م) ، أما ابن اياس الحنفى المؤرخ (ت ٩٣٠هـ - ١٥٢٤م) فقد شاهد عصر الغورى بعينه ولمسه بيديه وكتب كتابه المستفيض «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فى عصر الغورى ومن سبقوه ونهاية دولة وبداية دولة جديدة (٢١٣).

أما عن المعلمين (المهندسين) والرؤساء (الأطباء) فكثيرون جدا منهم: المعلم حسن بن الصياد (المهندس البارع) والذى صنع (ماكيثا) نموذجاً مجسماً من الجبس لمدينة الاسكندرية يتضمن كل ما بالمدينة من الأبراج والأبواب والمنارة وغير ذلك، وقد أقام هذا النموذج فى المطرية وزاره الغورى فى شعبان ٩١٦هـ - ١٤١١م وأعجب بدقة فنه وصناعته.

أما المعلم عبد القادر الشماع فقد كان خبيراً وناطقة فى التقويم والفلك (ت ٩١٨هـ - ١٥١٢م) والأمير إينال شاد العمائر السلطانية وكان عليماً بالهندسة خبيراً بفن البناء.

أما الأطباء فمنهم : (١) الرئيس بركات السكندرى (ت ٩١٥هـ - ١٥١٠م) ، (٢) شمس الدين القوصونى (ت ٩١٧هـ - ١٥١٢م) ، (٣) عبد القادر القطبى (ت ٩١٩هـ - ١٥١٤م) .

ومن عالـج الغورى من الكـحالين (أطباء العيون) حين ارتخاء جفونه ، القوصونى المذكور وصـلاح الدين الشامى ، وعبد الرحمن الشريف ، وتقى الدين المنوفى (٢١٤).

شعراء عصر الغورى وأدبائه : كان من هؤلاء الحافظ الراوية ، والزاهد المتصوف والمؤلف البارـع والأديب المـفـن والشاعر البارـعـى. ومن هؤلاء من قصد القصائد الطويلة أو نظم المقطوعات، ومنهم من شطر البردة النبوية ومنهم من خمـسها وغير ذلك ، ومنهم من أولع بالتورية والفكاهة والتضمين وما إلى ذلك، ونذكر منهم على سبيل المثال:

عبد القادر الدماصى (ت ٩١٥هـ - ١٥١٠م) كان شاعرا ناثرا ومحاضرا فكها، نظم فى الألغاز والخوانيات. جلال الدين النصيبى (ت ٩١٦هـ - ١٥١١م) برع فى العلوم الدينية والعربية ، زاول التأليف ونظم فى الغزل وغيره ، وخمس إحدى قصائد الشاب الظريف. علاء الدين بن ملك الحموى (ت ٩١٧هـ - ١٥١٢م) كان فقيها حنفيا خبيرا بالنحو والأدب والعروض ، له عدة قصائد فى مدح الرسول ﷺ وديوان شعر كبير . عائشة الباعونية الشيخة العالمة المتصوفة المتوفاة (٩٢٢هـ - ١٥١٦م) نظمت شعرها فى التصوف والزهد والمدح، أجادت المديح النبوى ولها فيه بديعتان ، ولها أيضا شعر فى الرصف والألغاز . الناصرى محمد بن قتصوه بن صادق (ت ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م) قال الشعر فى النقد الاجتماعى، والوصف والمدح، شارك بشعره فى أحداث بلاده فى هذا العصر ، بكى مصرع السلطان الغورى بكاء مرا، ونكبة البلاد من بعده . جمال الدين السلمونى (ت ٩٣٠هـ - ١٥٢٤م) وكان من أبرز شعراء عصر الغورى ، هجاء نقادا لاذع النقد والهجاء وفد مرة على بيت قاضى القضاة شهاب الدين ابن الفرفور فمنعه حاجبه من الدخول فكتب أبياتا قال فيها:

ببـابكم كلب عقور مسلط عديم الحيا والعقل فى البعد والقرب

ومن يربط الكلب العقور ببابه فإن بلاء الناس من رابط الكلب

فترضاه القاضى وصالحه (٢١٥).

مكانة الغورى العلمية : يظهر لنا من تاريخ الغورى، ومن أقواله التى تضمنها الكتابان نفائس المجالس والكوكب الدرى ، ومما كتبه الشريفى مترجم الشهنامة ، أن السلطان الغورى كان ذا حظ من علوم التوحيد والفقه والتفسير مشاركا فى علوم العربية (٢١٦) من نحو وبلاغة وغيرها، إلا أنه كان مولعا وشغوبا بقراءة كتب التاريخ والسيرة (٢١٧) وكان يعرف عدة لغات أجنبية (٢١٨)، وله ملكة أدبية زينت له المشاركة فى النظم أحيانا، كما كان يحب الموسيقى وله ألحان يتغنى بها (٢١٩).

وكان القضاة الأربعة وغيرهم لا يتخلفون عن حضور مجالس الغورى ، إلا أن هناك نخبة ممتازة من العلماء أمثال السخاوى والسيوطى والقسطلاتى وزكريا الأنصارى تورعوا عن حضورها ولم تذكر أسماءهم إلا نادرا (٢٢٠).

ترجمته للشهنامه للفروسى: كان سبب ترجمته لها من اللغة الفارسية إلى اللغة التركية أن الغورى كان يقرأ كثيرا ، ولديه خزانة فيها ضروب الكتب (٢٢١) وكان بها نسخة من الشهنامه ، فأمر الشريفى بترجمتها إلى اللغة التركية ، وتعتبر ترجمتها التى استغرقت نحو عشر سنين عملا أدبيا ممتازا ، حبذا لو كان ذلك إلى اللغة العربية إذن لأضفى ذلك على الحركة الأدبية فى عصره رونقا وبهاء (٢٢٢).

شعره وموشحاته : للغورى عدة قصائد وموشحات ، القصيدة الأولى اثنان وعشرون بيتا أولها :

يا ملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم الرحمن (٢٢٣)

يدعو الله فيها أن يؤلف بين قلوب جنده ويجمعهم حوله . والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتا حث فيها على إحياء ليلة النصف من شعبان ودعاء له ولجنده ورعيته أولها :

لله فى أيامنا نفحات من ذكرنا تزكوبها الأوقات

وله عدة موشحات بالعربية ، منها واحد مكون من عشرة أبيات من نغم الحسينى : أوله

ربنا آدم لنا نعمما جدت لى بها كرمما

اثنا عشر بيتا من نغمة عشاق العجم : أوله :

جل من وهبما ملك مصر واكتسبما

اهتمامه بتعليم الماليك : يرى السلطان أن تعليم الماليك وتربيتهم تربية دينية سليمة يخلق فيهم حب الوطن والولاء له ولذلك اهتم بتعليمهم عند الفقهاء وإحضارهم من حين لآخر إلى مجلسه ليقروا أمامه ويمتحنهم (٢٢٤).

فى المجلس العاشر وكان إمام المجلس سيدى على الأخميمى ، وطلع الشيخ عباس مع مملوكين ، واحد منهما حفظ عبادات مذهب أبى حنيفة والآخر حفظ القرآن الكريم . ووجود الماليك فى مجلس السلطان يدل دلالة قاطعة على اهتمامه بتعليمهم وتربيتهم (٢٢٥).

محاسن الغورى ومساوئه : أشرنا فيما سبق إلى أن للغورى صفات تدل على رقة طبعه ورقة إحساسه وولوعه بالجمال والاستمتاع بزينة الحياة الدنيا . ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالما جبارا سفاكا للدماء قاسيا على الضعفاء . وبالإضافة إلى أنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب ، كان له اعتقاد فى الصالحين ، يعرف مقادير الناس على قد طبقاتهم يمسك لسانه عن سب الناس فى شدة غضبه ، قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه (٢٢٦) ، غير كثيف فى الطبع فى ذاته ، ولديه لين جانب ورياضة ، ولم يكن عنده شحم ولا تكبر نفس عكس طبع الأتراك (٢٢٧) .

وكان وفيا لإخوانه ورجاله الذين أخلصوا له ولم يغدر بهم ولا نوى ذلك لهم ولا أضمر لهم حقداً ، أو دبر ضدهم مؤامرة كأسلافه ، بل كان مأمون الجانب فيما يتصل بهم عطوفا عليهم (٢٢٨) .

غير أنه بجوار هذه المحاسن كانت له مساوئ كثيرة تغطى على محاسنه .. ومن المساوئ جنوحه إلى حياة عابثة لاهية ، وسخائه على حفلاته وخاصته وعماراته (٢٢٩) ، وشحه وبخله على جنده وعسكره الذين لم يكفوا عن الثورة مطالبين بالنفقة حتى اجترأوا عليه واستهانوا بواجبهم ، كذلك الضرائب الظالمة والمصادرات الجائرة وسوء ظنه ومبادرته إلى العقوبة ، كما أباح لنفسه جمع المال بأى طريق ، لذلك سمح بغش وتزييف العملة والرشوة التى استشرت فى كل شئ ، حتى القضاة الذين سعوا إلى وظائفهم لدى السلطان بالرشوة ، وترك لأمرائه دولته الحبل على الغارب ، ليتدخلوا فى القضاء ، فتصدوا للفصل فى القضايا لقاء الأجور الباهظة والرشوة (٢٣٠) .

لكننا أمام هذه المساوئ لانستطيع ولا ينبغى أن ننسى - فى مقام التاريخ محاسن وعظمة هذا السلطان خاصة إذا أدركنا الظروف والملابسات التى صاحبت سلطنته من أول سلطنته ، عاش بقية حياته مدافعا عن بلاده ما دامت مفاجآت الحوادث تدعوه إلى الدفاع الشديد الغيرة عليها ، سريع الغضب إذا اعتدى على أطرافها معتد أثيم . ولوصفا له الدهر ونفوس من حوله لغير بهم وجه التاريخ .

لقد سار بنفسه إلى حلب - وهو طاعن فى السن - على رأس حملة كبرى ، فشهد معركة مرج دابق وعابن النصر ، لكن الخيانة والغدر لاحقته ، وفرقت الدسائس بين صفوفه ، ففر جنوده لايلوون على شئ ، أما هو فقد لقى حتفه وهو يشهد خاتمته بعد أن ثبت وسط المعركة واقفا كعلمه ، وبقيت سيرته عظة وعبرة لمن يعتبر .

الأعمال الخيرية للتجار الكارمية^(٢٣١) وغيرهم من كبار التجار:

تمهيد:

فى العصر المملوكى عامة والجركسى خاصة أصبح تاجر الكارم هو صاحب القوافل الهائلة التى كان يحميها بخيالة وجند يعملون لحسابه الخاص، ولهم وكالات ضخمة فى مدينة القاهرة وغيرها .

وقد حقق هؤلاء التجار من وراء عملهم هذا فى تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة ، فقد بلغت ثروات بعضهم مليون دينار، وبلغت ثروات البعض الآخر أضعاف ذلك بكثير وقد تعذر إحصاء ثروات بعضهم^(٢٣٢).

أما عن اهتمام سلاطين الممالك بهذه الطائفة، فقد قدموا لهم التسهيلات اللازمة حيث خصصوا لهم موظفا حكوميا كبيرا هو «مستوفى البهار والكارم» يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم، وقد حدثنا القلقشندي عن وظيفة هذا الرجل فقال: «إن موضوعها: التحدث عن أصل التجارة الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة، وتجعل تبعا لها ، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعا لها، وتارة تنفرد عنها حسبما يراه السلطان»^(٢٣٣).

ومن الاهتمام بهذه الطائفة أقام الممالك لهم الفنادق والوكالات داخل البلاد، يمارسون فيها نشاطهم التجارى بمختلف أنواعه، كما بنى الكارمية أنفسهم بعضا من هذه الفنادق على نفقتهم الخاصة، كانت تتم فيها صفقات بيع التوابل وطلع الشرق الأخرى لتجار أوروبا، ولم تكن هذه الفنادق فى القاهرة وحدها، بل كانت لهم فنادق داخل الاسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى ودمياط وقوص وعيذاب ومكة وعدن والهند^(٢٣٤).

كيان الكارمية التجارى:

ولما كانت المراكز التجارية الكارمية هى: عدن ، وجدة ، وعيذاب ، والسواحل العربية للمحيط الهندي ، فقد ظل النشاط قائما فى تلك المراكز حتى انتقل مركز تجارة العالم من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط، مع قيام دولة الممالك فى مصر ، وكان طبيعيا أن يتخذ العاملون فى هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من البحر المتوسط، ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ليتخذوها موطنًا وسكنًا لهم ، وأصبح بعضهم يسمى بحسن كارم ومحمد حسن كارم.

واستجابوا بذلك النشاط للاتصال العالمى بين الشرق والغرب ، فأصبحوا كبار التجار المشتغلين بتجارة الشرق العالمية، وأصبح التاجر الكارمى فى العصر المملوكى الجركسى خاصة هو تاجر التوابل و سلع الشرق الغالية الثمن.

ويرجع تمتع هؤلاء التجار بالأمان على أنفسهم وعلى أحوالهم فى تلك المناطق الإسلامية وإتاحة فرص الكسب الواسع لهم إلى إقرار النفوذ المصرى لهم فى العصر المملوكى الجركسى قبل نهايته فى البحر الأحمر، وفى تنظيم شئون التجارة فى اليمن وغيرها من بلدان ذلك البحر وموانيه (٢٣٥).

أهم مميزات الكارمية :

كان يجمع الكارمية جلهم طائفة واحدة قوية تشبه الآن إلى حد كبير نقابة التجاريين، أو الغرفة التجارية ، وكان لهذه الطائفة رئيس يقوم بالإشراف عليها ويحل مشاكلها ويسمى بعدة أسماء منها «رئيس التجار» ، و«وكيل التجار» أو «شهبندار التجار» ، وكانت هذه الرئاسة وراثية يرثها الابن عن الأب جيلا بعد جيل.

وكان ابن رئيس التجار الكارمية يتعلم أصول هذه التجارة باشتراكه فى رحلات تجارية بعيدة وهو فى سن مبكرة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء للعائلات التى تولت رئاسة الكارمية فى العصر المملوكى ، أمثال عائلات: الخروبي والمحلى والدماينى وغيرهم.

وكان أهم ما يميز هذه الطائفة اتحادها رغم تعدد أجناسها وارتباطها مع بعضها برباط المصاهرة مسلمين كانوا أم يهودا ، وشاهد ذلك تلك المصاهرات التى ظلت قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، كذلك جمعت بينهم الأخطار التى كانوا يتعرضون لها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى سواء كانت هذه الأخطار طبيعية كالأعاصير والرياح وارتفاع الموج والشعب المرجانية من ناحية أو من جهة متجربة البحار وقراصنتها، كذا كان الاشتراك فى تجارة واحدة تتخذ لها طريقا واحدا، يحتاج بالضرورة إلى قيسام طائفة تضم هؤلاء التجار وتحافظ على تجارتهم ومصالحهم (٢٣٦).

تجار الكارم ومساعدتهم لحركة العلم والعلماء ومآثرهم وأفضالهم :

كان لتجار الكارم مآثر وأيادى بيضاء على المجتمعات والشعوب التى عاشوا فيها أو حلوا بها، لما كانوا يتمتعون به من ثروات طائلة ، ويتحلون به من أخلاق فاضلة وتقوى زائدة، فكانوا يقيمون بإقراض المحتاجين بدون ربح (٢٣٧).

أولاً: قاموا بنقل طلاب العلم على سفنهم من الراغبين في طلبه إلى الجامع الأزهر بالقاهرة في صورة علمية جميلة، وبعد أن ينتهى هؤلاء الطلاب من دراستهم ويريدون العودة إلى بلادهم أعادوهم مرة أخرى من حيث أتوا تدريباً في رحلات علمية أيضاً، كما كانوا ينقلون على حسابهم بعض العلماء الذين يريدون الحج والمجاورة في بيت الله الحرام بمكة.

ثانياً : كانوا يقومون بشراء المخطوطات التي نسخت حديثاً وظهرت في أسواق البلاد التي يتجرون فيها، إلى راغبي العلم والمعرفة، وبعضهم نقلوا إلى السلاطين والأمراء الممالك أندر وأنفس المخطوطات مكلفين بذلك منهم، بل أنهم أنفسهم اقتنوا أعظم الكتب والمخطوطات في مكتباتهم الخاصة ليطلع عليها كل من أراد، وأيضاً كنوع من البركة والجمال، الذي تزدان به قصورهم.

ثالثاً : خصص أغلبهم جزءاً من ثروتهم لإنشاء المدارس والمساجد والزوايا والمستشفيات وترميمها بالقاهرة ومكة والمدينة.

رابعاً : اهتم رجال الكارم بدراسة علوم الدين عامة والحديث خاصة، كما سهروا على العناية بتعليم أبنائهم تعليماً خاصاً، بإحضار الأساتذة والمشايخ لهم في قصورهم ولم ييخلوا عليهم في هذه الناحية، وكانوا يبتاعون لهم المخطوطات بأغلى الأثمان لتنشئتهم تنشئة دينية طيبة (٢٣٨).

ومن يدرس تاريخ حياة هذه الطائفة بالتفصيل، يجد أنهم لم يقتصرُوا على العمل في تجارة الكارم في البحار فحسب، بل كانوا أيضاً أصحاب وكالات وحوانيت في داخل البلاد بالقاهرة وغيرها، وكان منهم من يعمل أيضاً بالتدريس والقضاء إلى جانب عمله بالتجارة. وبالجملة فقد كان رجال الطائفة الكارمية في العصر المملوكي الجركسي خيرة رجال عصرهم مكانة وعلماً وخلقاً (٢٣٩). وما يقوم به رجال المال والأعمال الآن من بناء المدارس والمستشفيات في مصر يذكرنا بتجار الكارم وأعمالهم الجليلة في خدمة العلم والعلماء والدين الإسلامي.

والآن سنذكر أمثلة لبعض التجار الذين قاموا بإنشاء المساجد والمدارس وغيرها رعاية للعلم: على سبيل المثال لا الحصر وحسبما أسعفتنا به المصادر المعاصرة:

١- برهان الدين المحلي التاجر (٧٤٥-٨٠٦هـ / ١٣٤٤-١٤٠٣م) : إبراهيم ابن عمر بن علي التاجر الرئيس برهان الدين المحلي الخواجا العظيم (٢٤٠) قيل إنه من ذرية طلحة بن عبيدالله، انتهت إليه رئاسة التجار في زمانه وبلغ من الحظ في المتجر وسعة المال إلى الغاية، وكان عنده حشمة ومرؤة وخير معروف وبر وعظمت منزلته بمصر وغيرها، جدد بمصر جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٢٤١) وبنى عدة أملاك تعرف به (٢٤٢)، أنشأ مدرسة بمصر العتيقة وقف

عليها الأوقاف الكثيرة وعين بها المدرسين ومنهم «شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني»
سمع منه صاحب المدرسة ترجمة العلامة البخارى سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٣م.

ولم يزل على رياسته حتى (ت فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ - ١٤٠٤م) وذكر ابن اياس
وفاته فى ذى الحجة من نفس السنة . وقد مدحه البدر الدمامينى بشعر قال فيه:

ياسريا معروفة ليس يحصى ورئيسا زكى بفرع وأصل

مذعلا فى الورى ملك عزا قلت هذا هو الوزير المحلى (٢٤٣)

٢- بعض الأبناء لم يلتزم بوصية والده فى تكميل المدارس والإنفاق من أوقافها على
العلماء والطلاب .

فالحسن بن سويد بدر الدين المصرى، تاجر الكارم (ت فى أوائل صفر ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م)
بنى مدرسة مقابل حمام جندر بالقاهرة ، مات قبل تكميلها ، وأوصد لإكمالها مبلغ أربعة
آلاف دينار، ولكن أولاده ألغوا التدريس الذى كان بها وحوكوها إلى مسجد (٢٤٤).

٣- محمد بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق المحب أبو
القاسم بن الفاضل الشمسى النورى (٢٤٥) الميمونى القاهرى المالكى ، ولد بالميمون فى رجب
٨٠١ - وتوفى فى ٤ جمادى الأولى ٨٥٧هـ - ١٣٩٩-١٤٥٣م) ، قدم القاهرة ولازم البساطى
فى الفقه والعلوم العقلية، وغيرها وأذن له فى الإفتاء والتدريس، درس كذلك على الجمال
الافقهسى والشهاب الصنهاجى والشمس الشطنوفى وغيرهم كثيرون جدا، ألف كثيرا من
الكتب والقصائد. كان متواضعا مع الطلبة كبيرهم وصغيرهم مفرطا فى الانبساط معهم، باذلا
جاهه لمن يقصده ، ذا كرم بالمال والإطعام . يتكسب من التجارة بنفسه وبغيره ، وقد أغناه
ذلك عن الالتفات إلى وظائف الفقهاء ، عرض عليه السلطان جقمق قضاء القدس فامتنع
وقضاء مصر فرفض، ولما حضروا إليه بمربعة فيها مرتب العينى فى الجوالى* بعد موته فى كل
يوم دينار قال: «إن جقمق يريد أن يستعبدنى فى موافقته بهذا المرتب».

بنى بخانقاه سرياقوس مدرسة وقف عليها كل ما كان فى حوزته من أملاك.

ومن شعره فى المدح :

وأفضل خلق الله بعد نبينا عتيق ففاروق فعثمان مع على

وسعد سعيد وابن عوف وطلحة عبيدة منهم والنهير فتم لى (٢٤٦)

٤- أما محمد بن محمد بن محمد الفارسكورى البساطى المتوفى قريبا من سنة ٨٨٠هـ ١٤٥٦م أحد المتمولين من بيت تجارة ووجاهة . كان أبوه على قاعدة تجارة دمياط ، يقال إنه كان يسبك الفضة وبييعها للهنود ، وغيرهم ، وكان يستأجر الغيطان ونحوها ، ترقى حتى زادت أمواله على الوصف، بحيث قيل أنه وجد خبيثة فى بعض المعاصر «بنى مدرسة بدمياط وعمل بها شيخا وصوفية» (٢٤٧).

٥- إبراهيم بن حسن برهان الدين المناوى ثم القاهرى التاجر (ت فى رجب ٨٧٥هـ- ١٤٧١م) عشق التجارة ، فرزقه الله منها حظا وبركة، لإخلاصه لأهل العلم والفقراء ، وصحب الشيخ الغمرى ، وقام لجامعه فى القاهرة بمصاريف كثيرة كزيت الوقود، وتسبيل الماء كل يوم والطعام ليلة الميعاد من كل شهر، والبخارى فى الأشهر الثلاثة رصد له ريعا بالقرب منه ورزقه حبسها عليه وغيره من القُرب . وصار بيته موردا للصالحين ، بل محلا لإقامة غيرهم بعياله (٢٤٨).

٦- عبد الرشيد البرلسى ثم السكندرى التاجر (توفى بمكة فى شوال ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م) بنى فى رشيد مدرسة لطيفة علو صهريج بناء مع بيتين آخرين» (٢٤٩).

٧- وتاجر الخيل محمد الشمس بن المرزعة (٧٩٠-٨٨٩هـ- ١٣٨٨-١٤٨٤م)، كان رجلا خيرا، بدأ بتجارة الخيل، وكانت هذه التجارة فى هذا العصر رائجة رابحة جدا لحاجة أهل العصر إليها للركوب فى الأسفار ونقل البريد والحجيج بالإضافة إلى الحروب والتجاريد التى لم تنته طوال هذا العصر ، فحصل له منها رواج عظيم واتسعت دائرته «بحيث ابتنى مدرسة بخط الحجارين بالقرب من دار الخلافة فى طريق المشهد النفيسى».

٨- وهذا قبانى من أصحاب الحرف هو محمد المدعو بركات بن ولى الدين بن شمس الدين بن عبدالكريم القليوبى (ت ٨٩٦هـ- ١٤٩١م) القبانى بباب الفتوح، كان صوفيا بسعيد السعداء خيرا يقرأ القرآن وشهد الجماعات، أصلح مسجدا تجاه خان الوراق ، وخلوة فوق سطح جامع الحاكم (٢٥٠).

وهذا أحد الأمراء المماليك الصغار الذى كان يخدم عند التاجر نور على الطنهدى، وهو الأمير عنبر الطنبدى الطواشى أعتقه كبير التجار، وخدم عند الأمراء حتى أصبح نائب مقدم المماليك السلطانية (٨٦٧هـ- ١٤٦٣م) بنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة (٢٥١).

الحواشي

- ١- الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح - القاهرة دار التراث العربى د.ت مادة (وكالة).
- ٢- صحيح البخارى ج٣ ص ٢٠ دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان .
- ٣- الفكر الاقتصادى عند الخلال من خلال كتابه «الحث على التجارة والصناعة والعمل تحقيق الدكتور / ضيف الله بن يحيى الزهرانى مكة المكرمة سنة ١٤١٦هـ مطابع الصفا ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
- ٤- سورة البقرة ، من آية ٢٨٢ .
- ٥- سورة النساء، من آية ٢٩ .
- ٦- سورة الجمعة، من الآيتين ٩ ، ١٠ .
- ٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٥ ص ٤١٠ تحقيق أحمد شاكر دار المعارف - القاهرة .
- ٨- الضريك : كأمير : يعنى الأحمق القاموس المحيط للفيروز آبادى ، أبوبكر أحمد بن محمد الخلال (ت ٣١١هـ) : الحث على التجارة والصناعة والعمل ص ٦ . نشر مكتبة القدسي والبدین طبع مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨هـ .
- ٩- الخلال ... نفس المرجع ص ٦ .
- ١٠- نفس المرجع ص ٩ .
- ١١- نفس المرجع ص ١٢ .
- ١٢- نفس المرجع ص ١٣ .
- ١٣-١٤- نفس المرجع ص ١٤ .
- ١٥-١٦- سمي وكيلاً لأن موكله قد وكل إليه القيام بأموره وشئونه ، فهو موكل إليه لأمر، وهى تعنى بذلك أن يعهد الإنسان إلى غيره أن يعمل له عملاً ما سواء أكان بأجر أو بدونه ، وكأن تعهد «العروس» إلى ولى أمرها من أب أو أخ أو قريب أن يعقد قرانها على زوجها فى الحال أو المآل، ومن ثم فالذى يقوم بهذا العمل هو «الوكيل» أو «الموكل إليه» فى أداء هذا العمل وللاستزاده (راجع : ابن منظور «لسان العرب ج١١ مادة (وكل) بيروت ، دار صادر بيروت سنة ١٩٥٦م. أيضاً : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ج٢ مادة (وكل) ، د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية الدار المصرية اللبنانية ط أولى سنة ١٩٩٣م ، ص ٥٢ وما بعدها .

١٧- القيسارية: مصطلح غير عربى، دخل اللغة العربية بالتقادم وهو مشتق من اسم «قيصر» (Cesar) و«قيصرية» (Cesarie) وهذا المصطلح يعنى سوقا صغيرة مخصصة لبيع السلع اليومية الطازجة كالخضر والفاكهة ومشتقات الألبان من زبد وسمن وجبن وقشدة وحليب وغيرها وعليها بوائك من الخشب لحماية الناس من حرارة الشمس وسقفها جملونى لحماية من بداخلها من ماء المطر، وتحتوى القيسارية على محلات للبيع وورش ومخازن، وفى الطابق العلوى يوجد- غالبا- مساكن يشغلها أصحاب هذه المحلات - راجع كتابنا «الجامع الأحمدي شقيق الجامع الأزهر» ص ٤٨٨ طبعة أولى سنة ١٩٩٠م ، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ط القاهرة - الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م ص ٢٩٥-٢٩٦ : د. صالح لمعى مصطفى : التراث الإسلامى المعمارى فى مصر ص ٧٥ بيروت ، جامعة بيروت سنة ١٩٧٥ م ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية سنة ١٩٧٠م ص ٥٤ هذا وقد عرّفها باحث آخر حيث ذكر أنها نسبة إلى «بازيلوس» امبراطور القسطنطينية والذي يعادل لقب قيصر روما ، وهذا الاسم أطلق على الأسواق القائمة فى وسط المدينة التى تحف بها البوائك والتى تحولت فى المصطلح الدارج إلى قيسارية راجع : سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون فى دولة الإسلام الاسكندرية - منشأة المعارف سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٠٩ وذكر صاحب معجم البلدان أنها منسوبة إلى مدينة «قيصرية» الموجودة على ساحل بر الشام فى فلسطين . (ياقوت الحموى : معجم البلدان طبع طهران سنة ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٢١٤ . أما الفندق : فهى كلمة فارسية تساوى كلمة «خان» ذكرها ابن منظور فى لسانه وأضاف أن الفندق فى لغة أهل الشام «خان» ومن هذه : الخانات التى يتزلها الناس مما يكون فى الطرق والمدائن وله معان أخرى (ابن منظور : لسان العرب مادة (فندق) ، عبد القدوس الانصارى : الفنادق والفندقة فى بلاد العرب . والاسلام (مجلة الفيصل) س ١٤١ يونية سنة ١٩٧٧ م ص ١٦ ، وبصفة عامة فهو مكان مهياً لاقامة المسافرين من التجار (للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص ٣٧ ، ٤٥ ، مرجع سابق .

١٨- المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٨٢ ط. بولاق .

١٩- د. حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية - القاهرة دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩ ، ص ١٩٢ ، د. آمال العمري : أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية (أبحاث الكتاب الذهبى فى الاحتفال الخمسينى لكلية الآثار) جامعة القاهرة - كلية الآثار سنة ١٩٧٨ ، ص ٦٧-٧٠ .

٢٠- نعيم زكى فهمى - طرق التجارة الدولية ... ص ٢٩٦ مرجع سبق، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة إبان العصر العثمانى ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية) تونس سنة ١٩٨٨ ، ص ٤٨١ .

٢١- ابن الصيرفى : الخطيب الجوهري على بن داود: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ، دار الكتب سنة ١٩٧٠ م ج ١ ص ٢٧١-٢٧٢ .

٢٢- جرابار ، أوليج : تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ، إحسان صدقى العمدة، مراجعة فؤاد زكريا - الكويت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٩٧٨ ، ج ٢ ص ٤٥ .

٢٣- ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢، المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٥١ ، د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص ١٦٠ ، وكانت هذه الوكالة بجوار دار الضرب على يمتة السالك من رأس الخراطين إلى سوق الخياميين والجامع الأزهر للاستزادة راجع : د. آمال أحمد حسن العمري : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى - جامعة القاهرة - كلية الآثار سنة ١٩٧٤ م رسالة دكتوراه ٢ مجلد غير منشورة ص ١٦٨ .

٢٤- تولى الخلافة بعد موت والده سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م وكان عمره حينذاك خمس سنوات قتل سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م بعد أن حكم مصر تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف ، ومن آثاره الخالدة على الزمن الآن الجامع الأقمر أثر رقم ٣٣ بشارع المعز لدين الله الفاطمى [ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ، ص ٢٩٩ ترجمة رقم ٧٤٣ طبع القاهرة النهضة العربية سنة ١٩٤٩ تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد، المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، نفس المرجع السابق ج ١ ص ٣٥٧ ، ج ٢ ص ٢٩٠-٢٩١ .

٢٥- ابن أبيك الدوادار : كنز الدرر وجامع الغرر ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ج ٧ ص ٣٠٤ تحقيق د سعيد الفتاح عاشور - القاهرة ، المعهد الألمانى للآثار سنة ١٩٧٢م، د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر- القاهرة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٣ ، ج ١ ص ١٧١ .

٢٦- دكتور محمد الإسكندراني: اكتشاف رأس الرجاء الصالح وأثره على العلاقات التجارية بين العالم الإسلامى والغرب بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين بجامعة الأزهر فى ذى الحجة سنة ١٤١٨ هـ أبريل سنة ١٩٩٨م ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

٢٧- أحمد عبد الحميد خفاجى : طبعة التجار فى مصر المملوكية وأثرها فى المجتمع المصرى (مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا) ع ١ ص ٦٨ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .

٢٨- خطط المقرئى، ج٣ ص١٤٩-١٥١ طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٥هـ .

٢٩- راجع خطط المقرئى ، ج٣ ص١٤٠-١٤٨ ، طبعة النيل .

٣- أنشأها الأمير قوصون سنة (٧٤٣هـ / ١٣٤١م) أثر رقم ١١- أى قبل موته فى هذه السنة، وقد خربت هذه الوكالة سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) أيام السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق من حيث وجود هجوم تيمور لملك على الشام وتخریبها ، وفتن الخراب بين الأميرين نوروز الحافظى ، وشيخ المحمودى، وعم الغلاء والفناء، ولم يفيض النيل فى هذا العالم . للاستزادة عن الأمير قوصون . المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص٩٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ . طبع بولاق .

- عبداللطيف ابراهيم : ثلاث وثائق ققهية (مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة) . مج ٢٥ ، ج١ مايو ١٩٦٣ ، ص١٢٩ ، د. رفعت موسى محمد الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية ص٥٥ مرجع سابق .

٣١- المقرئى : الخطط نفس المرجع ج٣ ص١٤٠ وما بعدها .

٣٢- للاستزادة عن السلطان قايتباى وآثاره المعمارية انظر : حسنى محمد نريصر منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة دراسة معمارية أثرية - كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م (رسالة دكتوراه غير منشورة) د. عبد الرحمن عبد التواب قايتباى المحمودى - الأعلام ، طبع الهيئة العامة للكتاب وترجمتنا له فى هذا البحث .

٣٣- أثر رقم ٧٥ (٨٨٢هـ - ١٤٨٠م) هذا ولم يبق منها الآن إلا الطابق فوق الأرض والسبيل الملحق بها ، ويطلق عليها العامة وكالة «حلة» .

٣٤- أثر رقم ٩ (٨٨٥هـ - ١٤٨٠-١٤٨١م) .

٣٥- سجل هذا البيع فى الوثيقة رقم ١٤١ ج أوقاف ، وذكرت هذه الوكالة فى وثيقة ٨٨٢ أوقاف ، وقد أرخها الدكتور أحمد محمود عبد الوهاب المصرى بنهاية القرن ٩هـ / نهاية ق ١٥ أو أوائل ق ١٦ راجع رسالته: العمارة فى وثائق الغورى الجديدة بوزارة الأوقاف - جامعة أسيوط - آداب سوهاج سنة ١٩٨١ م ، ص٤٢ - ٤٥ .

٣٦- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م) .

٣٧- صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الإسلامى ... ص٦٠ مرجع سابق .

٣٨- تقوم وزارة الثقافة الآن على قدم وساق بترميم وتجديد هذه الوكالة بعد أن فرغت منها أصحاب الحرف التقليدية (النحاس والزجاج وخشب الخراط والحزف والحلى الشعبية وغير ذلك) ، ونقل منها كذلك جمعية «أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة» ومرسمها الحر (الباحث) .

٣٩- راجع : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، القسم الثانى- الترتيب التاريخى ص ١٠-١٤ بينما يذكر د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم أن عددها أربعة عشر من خلال الوثائق وهم : وكالة الزيت ، وكالة الغورية ، وكالة باب الشعرية، وكالة الماوردى، وكالة الجراكسة ، وكالة الكعكيين وكالة السكر ، وكالة المرجان ، وكالة الجلاية ، وكالة ذو الفقار ، وكالة الحشر، وكالة الشرايى ، وكالة أحمد المراكشى، وكالة المغاربة راجع: د. عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثمانى (مجلة كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر) ع ٣ سنة ١٩٨٥م ، ص ٢٩٩-٣٠٠ . لكن أدموند بوتى ذكر ستة عشر وكالة فى القاهرة وبولاق (ق ١٠هـ - ١٦م) وهم : وكالة حسن الباشا الوزير (أثر رقم ٥٣٨) سنة ٩٩١هـ ١٥٨٣م وكالة الخروب ((أثر رقم ٥٣٦ ق ١٠هـ - ١٦م) وكالة سليمان باشا (أثر رقم ٥٣٩) (٩٤٨هـ ١٥٤١م) وجميعهم فى بولاق (ق ١١هـ / ١٧م) وكالة الوش أثر رقم ١٩ (١٠٨٤هـ - ١٦٧٣م) بينما ذكرت فى فهرس الآثار الإسلامية وكالة أودة باشى، وكالة مصطفى بيد طبطبى أثر رقم ٢٧٢ (١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م) بباب النصر ولم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية ، وكالة عباس أغا (أثر رقم ٣٩٦) (١١٠٦هـ / ١٦٩٤م)، وكالة النقادى (أثر رقم ٣٩٧) (١٠٢٨هـ - ١٦١٨م) وكالة جمال الذهبى (أثر رقم ٤١١) - (١٠٤٢هـ - ١٠٤٥هـ / ١٦٣٢-١٦٣٥م) ، وكالة محمد بن (أثر رقم ٥٠٠) (ق ١١هـ - ١٧م) ولم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية، وكالة الحرمين (أثر رقم ٥٠١) (ق ١١هـ - ١٧م) وكذلك لم تذكر فى فهرس الآثار الإسلامية وكالة التوتنجى أثر رقم ٥٤٨ (ق ١١هـ / ١٧م) أما القرن ١٢هـ ١٨م فقد حاز على ثلاث وكالات هى وكالة نفيسة البيضاء (أثر رقم ٣٩٥) (١٢١١هـ / ١٧٩٦م) وكالة بازرة (أثر رقم ٣٩٨) (ق ١٢هـ ١٨م) وكالة الشرايى أثر رقم ٤٦٠ (١١٤٧هـ / ١٧٣٤م) راجع د. رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت ص ٦٠ حاشية ١ .

٤٠- المخطوط ج ٣ ص ١٥٣-١٥٤ طبعة النيل .

٤١- أثر رقم ٦٤ (٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٤-١٥٠٥م).

٤٢- أثر رقم ٥٣٦ (ق ١٠هـ - ١٦م) .

٤٣- أثر رقم ٥٣٩ (٩٤٨هـ / ١٥٤١م) .

- ٤٤- أثر رقم ٥٣٨ (٩٩١هـ / ١٥٨٣م) .
- ٤٥- للتوسع راجع د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية - مرجع سابق ، ص ٦١ ، ٦٢ .
- ٤٦- راجع ملحق رقم وثيقة من أربع صفحات لحوانيت ورباع وحجرات سكنت بالأهالي في وكالات تابعة لرواق المغاربة بالأزهر ، وينفق ريعها على مصالحه وطلاب العلم المجاورين به .
- ٤٧- د. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم : المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية القاهرة - الجامعة الأمريكية سنة ١٩٩٠م ص ٢٢ .
- ٤٨- د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٦٠ ، د. آمال أحمد حسن العمرى : المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكى رسالة دكتوراه - غير منشورة - كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ .
- ٤٩- أنبوب ينطلق منه الماء إلى الفسقية فإذا كان ثابتاً أطلق عليه نوار والمتحرك منه يسمى دارة (د. محمد محمد أمين المصطلحات .. نفس المرجع ص ٨٥ ، ٨٧) .
- ٥٠- مازال الناس في بعض قرى مصر يطلقون على المكان الذى يضعون فيه قمون البيت من أرز وقول وذرة وغيرها حاصل ويعنون به «المخزن» .
- ٥١- كما في وكالة الغورى بشارع التبليطة بالأزهر (راجع د. مجاهد توفيق الجندى: المعمار المسلم سبق العالم الغربى فى تشييد الأسواق التجارية المتكاملة - جريدة الإيمان الكويتية (العدد ٨٨٥٨ الجمعة ١٧ من شوال سنة ١٤٢١هـ ٢ يناير سنة ٢٠٠١ م ص ٤) .
- ٥٢- الصهريج : هو خزان أرضى للمياه يبنى بالطوب الآجر والغافقى فى تخوم الأرض لحفظ المياه، وله قبة غير عميقة مقامة على دعائم وقناطر من الحجر الفص النحيت ، وتغطى فوهته بخرزة من الرخام أو الحجر الصند المستدير الشكل (د. عبداللطيف إبراهيم : وثيقة قراقجا الحسينى أمير أخور كبير ص ٢٠٣ مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة مج ١٨ ج ٢ ، د. مجاهد الجندى : الجامع الأحمدى ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
- ٥٣- الرواق : يطلق على المساحة المحصورة بين صفين من العقود ، وهو القاعة أو الايوان أو الغرفة ، وفى العصر المملوكى كان يختلف معنى الرواق فى المسجد عنه فى المنزل وفى المساجد كان معناه المسطحات المستقيمة التى بين الأعمدة وفى المنازل الوحدة السكنية أو بعضها (صالح لمى : التراث المعمارى الإسلامى ص ٩٥) .

- ٥٤- الدرقاعة هي الجزء الذي يتوسط القاعة أو المسجد أو المدرسة ، وعنها يمكن الدخول إلى أجزائها ويكون مستوى أرضية الدرقاعة منخفضا عن مستوى أرضية الأواوين بمقدار درجة سلم ... للاستزادة أ.د. محمد محمد أمين : المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ص ٥٠ ، د. مجاهد توفيق الجندى : الجامع الاحمدى شقيق الجامع الأزهر ص ٤٨٧ طبع أولى سنة ١٩٩٠ م ، وثروت عكاشة : القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ص ٨٦ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ م .
- ٥٥- الحقوق هي غرفة الخدمات (المعيشة) توجد دائما مع كلمة منافع (د. صالح لمعى مصطفى التراث المعماري الاسلامي في مصر ط. بيروت سنة ١٩٧٥ ، ص ١١٨) .
- ٥٦- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية ص ٦٩ الدار المصرية اللبنانية ط. أولى سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .
- ٥٧- الخطط المقرزية ج ٢ ص ٩٣ طبع بولاق مرجع سابق .
- ٥٨- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ج ٢ مادة (قنصل) .
- ٥٩- طوبيا العيسى : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ص ٥٩ .
- ٦٠- نفس المرجع ص ٥٩ .
- ٦١- صبح الأعشى ج ٨ ص ٥٣ طبع دار الكتب المصرية . وللتوسع راجع : صبحى لبيب: الفندق ظاهرة سياسية ص ٢٩٥-٢٩٩ .
- ٦٢- دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى... ص ٧٧ دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢ م .
- ٦٣- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ج ١ مادة سمسر .
- ٦٤- ابن منظور : لسان العرب مج ٤ مادة سمسر .
- ٦٥- نفس المرجع .
- ٦٦- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ج ١١ مادة (دلال) ، الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ ، ص ٦٤ .
- ٦٧- السبكى : تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ - معيد النعم ومبيد النقم تحقيق محمد على النجار وأبوزيد شلبى ومحمد أبو العيون القاهرة ، والخانجي سنة ١٩٤٨ م.، ص ١٤٣-١٤٤ .
- ٦٨- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ص ٣٠٤ ، د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ٩٩١ .

٦٩- د. رفعت موسى محمد مجبور : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية - مرجع سابق - ص ٧٤ ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : نشوء الرأسمالية المصرية المحلية خلال العصر العثماني - مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر سنة ١٩٨٥ عدد ٣ ص ١٩٦ .

٧٠- ابن الاخوة : محمد بن محمد أحمد القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة . تحقيق روين لبوى بكيرج - دار الفنون سنة ١٩٣٧ ص ١٥٢-١٥٣ .

٧١- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية مادة (بواب) .

٧١- السبكي : معيد النعم - نفس المرجع ص ١٤٤-١٤٥ وللاستزادة د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ١ ص ٣٢٠-٣٢٣ .

٧٣- تدهورت أحوال صاحب هذه الوظيفة عندما أصبح البواب يتقاضى مرتبا لا يكفيه وأولاده خبزاً فقط في الشهر فترك الباب وصار يبحث عن رزقه ومن هنا تنذر العامة بقولهم لمن يدخل بدون إذن : هي وكالة من غير بواب (الباحث) .

٧٤- ابن منظور : لسان العرب مجلد ١٢ مادة (ترجم) ، المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية ج ١ مادة (ترجم) .

٧٥- ابن طولون الدمشقي شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى - القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٤م ج ٢ ص ١١١ . وللتوسع راجع: القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣-١٢٥ ط. دار الكتب المصرية .

٧٦- ابن منظور : لسان العرب ط ١ بيروت دار صادر . دار بيروت ١٩٥٦م مجلد ١٣ مادة (ثمن) مرجع سابق والمعجم الوسيط ج ١ مادة (ثمن) .

٧٧- صبحي لبيب : الفندق ظاهرة سياسية ... ص ٢٩٤ .

٧٨- د. حسن الباشا في الفنون الإسلامية والوظائف .. ج ١ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

٧٩- ابن طولون الدمشقي : مفاكهة الخلان ، نفس المرجع ج ٢ ص ١١٠-١١١ ، أحمد المصري - العمارة في وثائق الغوري ... ص ١٩ .

٨٠- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ١ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

٨١- نفس المرجع ج ٣ ص ٨٩٢ .

- ٨٢- أحمد المصري - العمارة فى وثائق الغورى ... ص ١٧ ؛ ابن الاخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ص ٨٤ ، صبحى لبيب ، الفندق ظاهرة سياسية ص ٢٩٤ .
- ٨٣- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٩١ ؛ والبرنبالى: نسبة إلى «برنبال» بلدة تتبع مركز منية النصر دقهلية تنقسم إلى برنبال القديمة وبرنبال الجديدة، راجع : دليل المحافظات والأقسام والشيخايات ص ٢٧ رئاسة مجلس الوزراء / مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار. مصلحة الأحوال المدنية.
- ٨٤- ابن منظور : لسان العرب مج ١ مادة (دلب) - محمد على الأنسى : الدرارى اللامعات فى منتخبات المفات مادة (دولاب) ص ٢٦٢ .
- ٨٥- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية مادة (شد) ، د. حسن الباشا الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦٠٤ ، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .
- ٨٦- صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٠ مرجع سابق .
- ٨٧- د. محمد محمد أمين : الشاهد العدل فى الشرع الإسلامى- دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك (مجلة الدارة السعودية) س ٨ ع ٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢ م ص ١٢٦ .
- ٨٨- د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ... ج ٢ ص ٦١٩ .
- ٨٩- السبكى : معبد النعم ... ص ٦٣ ، ٦٤ ، د. حسن الباشا الفنون والوظائف ص ٦١٨-٦٢٢ .
- ٩٠- النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٢هـ : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٣ ص ٢٩٩ القاهرة- دار الكتب المصرية.
- ٩١- ابن الصيرفى : نزهة النفوس ... مرجع سابق ج ١ ص ١٣٢ .
- ٩٢- عن هذه الوظائف راجع القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، ج ٤ ص ٣٣ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ج ٥ ص ٤٦٥ ، ج ٦ ص ٣١ ، ج ١١ ص ٣٥٣ .
- ٩٣- ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ج ١ ص ١٤٨ .
- ٩٤- د. حسن الباشا : الفنون والوظائف ج ٣ ص ٩٠١ - ٩٢٠ .
- ٩٥- دكتور عمر عبد العزيز العانى: العاقات التجارية بين المسلمين وغير المسلمين فى الفقه الإسلامى- بحث قدم للمؤتمر الدولى حول التاريخ الاقتصادى للمسلمين فى الفترة من ٢٨-٣٠ ذى الحجة سنة ١٣١٨هـ (٢٥-٢٧ أبريل سنة ١٩٩٨ م) مركز صالح كامل وقسم التاريخ فى كلية اللغة العربية

بالقاهرة - وقسم التاريخ فى كلية الدراسات الإنسانية بنات جامعة الأزهر ملخصات البحوث ص ٢٦، ٢٥ .

٩٦- من الطرق التجارية إلى وكالات القاهرة درب الأربعين الذى ربط تجارة غرب أفريقيا والسودان بها قرونا طويلة ... لقد سرنا عليه فى رحلة علمية لقسم التاريخ والحضارة فى كلية اللغة العربية يوم ٢٧ يناير / ١ فبراير ٢٠٠١ فى زيارة لمحافظة الوادى الجديد وأطلعنا على بعض القلاع الإسلامية وقرية المكس.

٩٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ج ٧ ص ٢٣٨-٢٣٩ .

٩٨- نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ أهل الزمان لابن الصيرفى ج ٣ ص ٥ ، النجوم الزاهرة، ج ١٤ ص ٢٤٢ .

٩٩- خطط على مبارك ، ج ١ ص ٤٤، ٤٥ ، راجع فى صفاته وأولاده : النجوم الزاهرة، ج ١٥ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

١٠٠- البدر الطالع ، ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

١٠١- نزهة النفوس ، ج ٣ ص ١٤٤ .

١٠٢- راجع غزواته الثلاثة فى : نزهة النفوس ، ج ٣ ص ٧٦ وما بعدها ، والغزوة الثالثة ص ٨٤ ، وما بعدها ، ص ٢٥٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، وكذلك النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧٠ ، الغزوة الأولى، والثانية ص ٣٧٦ ، والثالثة وفيها بعض أعيان الفقهاء ص ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ .

١٠٣- راجع نزهة النفوس ج ٣ ، ص ١٨٥ حيث جمع السلطان تجار الكارم وألزمهم بأوامره ومرسومه .

١٠٤- راجع : نزهة النفوس ، ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٨٥ .

١٠٥- شذرات الذهب، ج ٧ ص ٢٣٩ .

١٠٦- نزهة النفوس، ص ٣٧٧ .

١٠٧- راجع ترجمته بالضوء اللامع ج ٣ من ص ٨-١٠ .

١٠٨- خطط على مبارك ، ج ١ ص ٤٥ .

١٠٩- أثر رقم ١٧٥ .

١١٠- تقع الآن فى شارع المعز لدين الله الفاطمى فى التقاطع بين شارعى الأزهر والموسكى بجوار الحناوى صاحب محل العطر هناك ، الاسحاقى: أخبار الأول، ص ١٤٨ .

١١١- النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ . نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٦ .

١١٢- راجع النجوم الزاهرة ج ١٦ ص ١٨٠ .

١١٣- نزهة النفوس ، ج ٣ ص ٥٣ .

١١٤- العلامة القاياتى: محمد بن على بن محمد بن يعقوب من محمد الشمس أبو عبد الله بن النور القاياتى القاهرى الشافعى، ولد سنة ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م بالقائيات من أعمال البهنساوية، درس الفرائض على عمه الذى كان ماهرا فيها بالقاهرة، تكسب بالزراعة ثم نزل طالبا بالمؤيدية ، ثم مدرسة المحدثين بالبرقوقية ، ثم مدرس الشافعية بأشرفية برسباى ، ثم شيخ سعيد السعداء ثم مدرس بالغرابية، خطبة الظاهر جتمق للقضاء فباشره بعفة ونزاهة ولم يأذن إلا قليل من النواب، نظم الأوقاف وعمرها ونظر فى مصالحها وصرف لمستحقيها ثم تعين أخيرا لتدريس الفقه بالصلاحية والشيخونية، ثم مشيخة البيبرسية ونظرها (ت فى محرم ٨٥٠هـ - ١٤٤٦م) وكان عالما علامة غاية فى التحقيق وبالتدقيق وجودة الفكر، وكانت طريقته فى التدريس أحسن قبل القضاء لتصديه للعلم ليل نهار (الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوى).

١١٥- ولد بزرازرا من قسرى مصر، ثم رحل إلى اليمن مع البدر الدمامينى، درس الفقه المالكى بالشيخونية والبرقوقية والأشرفية ببرسباى ، أفتى وانتفع به الطلبة (ت ٨٤٦هـ - ١٤٤٠م)، راجع ترجمته بأنباء الغمر (وفيات ٨٤٦هـ) ، والضوء اللامع ج٢ ص ٦٦ ، البقاعى: عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران ، ترجمة رقم ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ٢٧٩ .

١١٦- كانت الزركشة صنعة والده، رحل فى طلب العلم إلى دمشق ونابلس واسكندرية ودمياط ، والصعيد ، ترجمته فى أنباء الغمر رقم ٧ فى وفيات ٨٤٦هـ ، البقاعى: مرجع سابق، ترجمة رقم ٢٧٢ ، ص ١٧٩ .

١١٧- نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

١١٨- خطط على مبارك ، ج٤ ص ٥٨ ، حجة وقف برسباى.

١١٩- حجة برسباى رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ٥٠٥ ميكروفيلم ص ١٧٩ . المجلس الأعلى للثقافة .

١٢٠- حجة برسباى رقم ٨٨٠ أ ، أوقاف ، ص ١٨٤ .

١٢١- راجع ص ١٩١ من نفس الحجة ، ويلاحظ أن هذه هى الحجة الوحيدة التى ذكرت خطاطين يعلمون أرباب الوظائف بهذه المدرسة تحسين الخط خاصة.

١٢٢- نزهة النفوس، ص ٣٩٥ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة . ص ٣٢٢ ، حسن عبد الوهاب ، مساجد القاهرة ، ص ٢٢٩ ، د. سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

- ١٢٣- النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ص ٢٠٤ ، الضوء اللامع ، ج ٨ ص ١٤٣ .
- ١٢٤- خطط على مبارك ، ج ٤ ص ٥٩ .
- ١٢٥- راجع حجة برسبای ، بأرشف وزارة الأوقاف .
- ١٢٦- راجع حجة برسبای رقم ٨٨أ ، أوقاف ، المصدر السابق .
- ١٢٧- أثر رقم ١٧١ .
- ١٢٨- راجع حجة برسبای نفس المرجع ، خطط على مبارك ، ج ٤ ص ٥٩ ، د. ابراهيم طرخان : مرجع سابق ، ص ٢١٨ وما بعدها ، ص ٣٢٢ .
- ١٢٩- الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ٥٨ .
- ١٣٠- راجع : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان ص ١٨٥ .
- ١٣١- د. سعاد ماهر ، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ص ٥٣، ٥٢ .
- ١٣٢- للسلطان برسبای مصحف بمعرض دار الكتب برقم ١٩ مصاحف .
- ١٣٣- نزهة النفوس ، ج ٣ ص ٥٥ .
- ١٣٤- المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
- ١٣٥- النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، عبد الرحمن عبد التواب : قايتباى المحمودى ص ٩ وما بعدها .
- ١٣٦- راجع الملاحق .
- ١٣٧- الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢٠١-٢١١ ، الاسحقى ، أخبار الأول ، ص ١٥٠ ، البدر الطالع للشوكانى ، ج ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ .
- ١٣٨- راجع د. سعاد ماهر : الجمهورية العربية المتحدة ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ، ومدفون بهذا المسجد زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكى ، وقد أعلا بناءه من جديد السلطان قايتباى ، كما هو مدون على اللوحة المثبتة داخل الضريح .
- ١٣٩- سلامون الغبار : إحدى قرى مركز بسيون محافظة الغربية وقد زار الباحث القرية بصحبة عمدتها الشيخ محمد الجندى سنة ١٩٨٠م .

١٤٠- على مبارك : المخطوط ، ج ١١ ، ص ٥٢ ، د. سعاد ماهر، محافظات الجمهورية ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٩ (ق) . أوقاف بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ٨٨١هـ، تحقيق د. محمد محمد أمين .

١٤١- شذرات الذهب ، ج ٨ ص ٨ .

١٤٢- التحفة السنية ، ص ١٦٦ .

١٤٣- الضوء اللامع ، مرجع سابق نفس الجزء والصفحات ، تاريخ التربية فى مصر، ص ٢١٨-٢١٩ .

١٤٤- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر، ص ٥١ ، ١٠٥ ، ١١٠ .

١٤٥- راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة رقم ٨٨٦ أوقاف ، ٥٠٣ ميكروفيلم المجلس الأعلى للثقافة .

١٤٦- المخطوط التوفيقية ، ج ١ ص ٤٦ .

١٤٧- قايتباى المحمودى ، ص ٨٤ .

١٤٨- شذرات الذهب، ج ٨ ص ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، راجع حجة وقف السلطان قايتباى على هذه المدرسة ، رقم ٨٨٧ أوقاف ٤٩٤ ميكروفيلم .

١٤٩- راجع عمائر السلطان وأماكنها بمصر فى: قايتباى المحمودى من ص ١٨٦-١٩٣ للعمائر الدينية والتعليمية ، من ص ١٩٤-١٩٨ للعمائر المدنية، من ص ١٩٨-٢٠٠ للأسبلة التى يعلوها الكتاتيب ، ومن ص ٢٠٠-٢٠١ لأعمال الرى، ومن ص ٢٠١-٢٠٤ للعمارة الخيرية ، ومن ص ٢٠٤-٢٠٥ لعمائره بالشام، ومن ص ٢٠٥-٢٠٨ لأعماله بالحجاز. أما عمائر رجال الدولة ووجهاء مصر فى عهده فمنها : (١) مسجد المرأة ((فاطمة الشقراء) بشارع تحت الربع ، (٢) مسجد تميم الرصاصى بحى السيدة زينب ، (٣) مسجد وسبيل قمران الأحمدي بالسيدة زينب ، (٤) مسجد وقبة جاثم البهلوان بأول شارع السروجية ، (٥) مدرسة أبوبكر مزهر بالخرنفش (راجع : عارف رزق : رسالة ماجستير عن هذا المسجد رقم ١٠٣٦ بجامعة القاهرة ، (٦) مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر (حسن عبد الوهاب : ص ٢٦١ ، ٢٦٦) ، (٧) مسجد السلطان أبى العلا (٨) تكية أحمد أبوسيف بالقرافة الشرقية ، (٩) زاوية فاطمة أم خوند بباب الشعرية (١٠) مسجد بدر الدين الوفائى بشارع الزوايب بحى الخليفة، (١١) مسجد ازدمر بشارع صلاح سالم بجوار مجرى العيون (١٢) مدرسة الأمير أزيك اليوسفى بحى السيدة زينب ، (١٣) ضريح الشرفا بالقلعة ، (١٤) مقعد الأمير ماماي ببيت القاضى

بالجمالية ، بالإضافة إلى آثار الأمراء التى عفا عليها الزمن كجامع أزيك بن ططخ بالأزبكية وحوضه وسبيله ببركة الحاج .

١٥٠- للسلطان قايتباى وثائق وقف بأرشف وزارة الأوقاف بالقاهرة على منشآته هذه مسجلة تحت أرقام : ٨١٠ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٩١٢ (ق) ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ .
ج ولم ينشر منها سوى جزء من الوثيقة رقم ٨٨٦ والوثيقة رقم ٨٨٧ انظر د. عبد اللطيف ابراهيم على : كتاب مؤتمر الآثار الثالث فى البلاد العربية ١٩٥٩م كما يوجد مجموعة منها بمحكمة الأحوال الشخصية تحت أرقام ١٨٧ محفوظة ٢٨ ، ١٩٧ ، محفوظة ٣٠ ، ٢١٠ محفوظة ٣٣ ، ٢١٥ محفوظة ٣٤ .

١٥١- راجع مجالس : ذى القعدة ٨٧٢هـ، ربيع الآخر ٨٧٣هـ، ربيع الآخر ٨٧٥هـ، ربيع الآخر ٨٧٦هـ، ٢٥ من جمادى الأولى ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٦هـ ، ١٠ رجب ٨٧٦هـ ، شوال ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٦هـ، رجب ٨٧٧هـ، المحرم ٩٠٠هـ، فى كتاب قايتباى المحمودى ص ٤٨-٦٣ . وفى هذا المجلس الأخير سأل السلطان الشيخ جلال الدين السيوطى عن أى سنة سنّها الرسول ﷺ ولم يفعلها ، فلم يجبه السيوطى، وكان لدى السلطان كتاب «حيرة الفقهاء» ثم أجاب السيوطى بعد ذلك بأن السلطان يقصد الأذان ، فأنه سنة ولم يفعله ، والأصح أنه أذن فى وقت أورد فى ذلك الحديث، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة.

١٥٢- قايتباى المحمودى ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

١٥٣- الضوء اللامع ، ج ٨ ص ١٧٦-١٧٨ ، فقرة ٤٣٨ .

١٥٤- قايتباى المحمودى، ص ١١٨ .

١٥٥- الخطط التوفيقية ، ج ١ ص ٤٦ .

١٥٦- راجع قايتباى المحمودى، ص ٨٠-٨٣ ، إلا أن بعض الأهالى يستعملون هذا الربع الآن فى عمل ورش الحديد وغيره، كما يربون فيه أنواعا من الحمام ، وهو ظاهر للعيان، ولمن أراد الاطلاع على ذلك فليذهب إلى هناك ليرى مدى الاستعمال السئ لهذه الآثار النادرة الآن (الباحث) . وهذا الربع يقع على يمين الداخل من باب النصر .

١٥٧- قايتباى المحمودى، ص ٣١-٣٢ .

١٥٨- راجع رحلاته بالتفصيل فى المراجع المعاصرة، قايتباى المحمودى ، ص ٦٣-٨٥ ، وهذه سنوات خروجه ورحلاته : فقد كان أول ركوبه من القلعة فى شعبان ٨٧٢هـ، وفر صفر ٨٧٣هـ خرج للترهة ،

وفى ربيع الأول ٨٧٣ هـ خرج إلى خانقاه سرياقوس، وفى شوال ٨٧٣ هـ توجه إلى قليوب وقناطر أبى منجا ، وفى ذى القعدة ٨٧٣ هـ توجه إلى طرا فى ضيافة ، فى نفس الشهر والسنة سافر إلى بحيرة تنيس على حين غفلة وانقطع خبره عن الناس مدة ، وصلى العيد بفارسكور ، وفى جمادى الأولى ٨٧٤ هـ نزل بركة الحاج ، وفى جمادى الآخرة ٨٧٤ هـ توجه إلى خليج الزعفران للنزهة ، وفى ذى القعدة من نفس السنة خلع الصوف ولبس البياض وابتدأ ضرب الكرة مع امرائه ، وفى ربيع الأول ٨٧٦ هـ ذهب للنزهة إلى طرا، والمطرية ، وفى جمادى الآخرة ٨٧٥ هـ سار إلى الخانكة والعكرشا وهو راكب الهجن ، وفى رجب ٨٧٥ هـ توجه إلى الأهرام، وفى ذى القعدة ٨٧٦ هـ نزل فى ضيافة ، وفى المحرم ٨٧٦ هـ توجه إلى شبين القصر وقد شب عليه فرس نفسه وكسر ساقه ، وفى ربيع الآخر ٨٧٦ هـ نزل إلى خليج الزعفران للنزهة ، فوجد امرأة ميتة فأم الجماعة وصلى عليها ، وهذه حسنة من حسناته ، ومكرمة توضع فى سجلاته . وفى رجب ٨٧٦ هـ نزل للمحاكمات ، وفى صفر ٨٧٧ هـ توجه إلى دمياط ورشيد وتوجه وركب البحر، واستغرقت الرحلة ١٣ يوما . وفى جمادى الأولى ٨٧٨ هـ توجه إلى طرا ، وفيه أيضا توجه إلى خليج الزعفران، وفى ربيع الآخر نزل إلى شبرا بعد أن أشيع سفره إلى الشام، فى جمادى الآخرة ٨٨٠ هـ توجه إلى طرا فى ضيافة وقد لدغته نحلة تورم منها وجهه وعاد لتوه . وفى جمادى الآخرة ٨٨٠ هـ توجه إلى دمياط، ثم ذهب إلى مكان ليصيد فيه السمك البورى وعان كيف يصاد وهو راكب مركب صغير ، وفى رجب ٨٨٠ هـ سافر لبيت المقدس خلصة وزار الخليل ومكث بالقدس ثلاثة أيام، وقد أمر ببناء جامع بالقرين وهو مار بهذا البلد، وفى ذى القعدة ٨٨٠ هـ سافر للفيوم للمرة الثانية وشاهد الطاحون الذى أنشأه خيريك من حديد ويدور بالماء ، وفى شعبان ٨٨١ هـ نزل للرماية . وفى رمضان ٨٨١ هـ أشيع بين الناس أن السلطان ارتدى زى المغاربة ونزل إلى الجامع الأزهر، وصلى به، وكان يسأل فى بعض الطرقات الناس عن سيرة نفسه، ووقع له مع الناس فى هذا الأمر أشياء عجيبة وسمعهم وهم ينتقدونه .

١٥٩- أثر رقم ١٢ .

١٦٠- قايتباى المحمودى ص ٤٢ .

١٦١- راجع أحداث هذه الواقعة فى المراجع المعاصرة ، قايتباى المحمودى ص ٤٢-٤٥ .

١٦٢- المرجع السابق ص ٨٥ .

١٦٣- خطط على مبارك ج ١ ص ١٤٧ .

١٦٤- شذرات الذهب ج ٨ ص ٩ ، قايتباى المحمودى ص ٨٦-٨٨ ، خطط على مبارك ج ١ ص ١٤٧ . وقد أحسنت وزارة المالية حينما صورت مسجد السلطان قايتباى على الورقة الجديدة فئة الجنيه وذلك كنوع من التخليد لآثارنا الإسلامية ، وكنوع من تشجيع السياحة الدينية فى مصر التى ترتبط بذكرىات هذا السلطان العظيم (الباحث) .

١٦٥- ضبط الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة الغورى بفتح العين لا ضمها ، وبين أن حجته فى ذلك مصحف فى دار الكتب المصرية كتب باسم الغورى عليه بهذا الضبط ، ويرشح هذا رأى ويقويه أبيات كثيرة فى الشاهنامه التركية جاء فيها القافية مع كلمات مثل ثور وغور ، وأن الاسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب (راجع ص ٨ من كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام) .

١٦٦- شذرات الذهب ، ج ٨ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٢ ، الأشرف قنصوه الغورى للدكتور محمود رزق سليم ، ص ٣٠-٣٣ ، الاسحاقى : أخبار الأول ، ص ١٥٢ .

١٦٧- د. عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغورى ، ص ٩ وما بعدها . د. محمود رزق سليم المرجع السابق ، ص ٣٣-٣٥ .

١٦٨- بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠٦ هـ.

١٦٩- راجع صورة الغورى فى أول كتاب مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام.

١٧٠- بدائع الزهور ، ج ٦ ص ٨٧ (حوادث سنة ٩٢٢ هـ) .

١٧١- بدائع الزهور ، ج ٤ (ط ألمانيا) ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، مجالس السلطان الغورى ، ص ١٥-١٧ ، الأشرف قنصوه الغورى ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

١٧٢- بدائع الزهور (ط ألمانيا) ، ص ١٧١ ، ج ٤ .

١٧٣- المرجع السابق ، ص ٩٤ ، مجالس السلطان الغورى ، ص ٣٢ .

١٧٤- المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

١٧٥- نفس المرجع والصفحة.

١٧٦- المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٧٢ ، مجالس السلطان الغورى ، ص ٣١ .

١٧٧- الأشرف قنصوه الغورى ، ص ١٨٥ .

١٧٨- بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٨٦ حوادث سنة ٩٢٢ هـ .

١٧٩- بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤١ ، وراجع الأشرف قنصوه الغورى ، ص ٩١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
وللشاعر بدر الدين الزيتونى من أدهاء العصر قصيدة طويلة فى منشآت الغورى (بدائع الزهور) ج ٤
ص ١٠٢ .

١٨٠- وقد تهكم اسماعيل شاه الصفوى ببستان الغورى هذا وانشغاله بغرس الأشجار بقصيدة أرسلها
إليه وقد رد عليه شعراء العصر بعدة قصائد رنانة راجعها فى : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٢١-٢٢٧ (ط
ألمانيا) ، مجالس الغورى ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

١٨١- بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٧٧ ، د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وآثارها وفنونها ،
ص ١٤٣-١٥٣ .

١٨٢- الأشرف قنصوه الغورى ، ص ٧٠ .

١٨٣- راجع عن منشآت الغورى ، المرجع السابق ، من ص ٨٧-٩٩ .

١٨٤- يقال أن عدد حجراتها يبلغ ٣٦٥ حجرة بعدد أيام السنة .

١٨٥- تقع هذه الوكالة خلف تكية محمد بك أبو الذهب ، وبها الآن مراسم الفنانين التشكيليين ، وقد قام
الباحث سنة ١٩٦٥م بعرض انتاجه الفنى حينما كان طالبا بمعهد طنطا الدينى الثانوى ، وقد حصل
الباحث على الجائزة الأولى فى الفنون العملية ، وقابل فضيلة المرحوم الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر
واستلم منه الجائزة ميدالية ذهبية وأسبوع إقامة بمدينة البعوث الإسلامية لمشاهدة معالم القاهرة . وقد
أحسنت الحكومة صنعا حينما أعادت الصناعات التقليدية التى كانت فى عصر الغورى إلى هذه
الوكالة على يد معلمين فى فنون الخيام وحفر الخشب (أويمة) والزجاج الملون المعشق بالجص وحفر
وتكفيت النحاس بالفضة وصناعة الصدف والخشب الخرط والخزف ، وغير ذلك لأطفال صغار ، فأحيوا
بذلك صناعات خان الخليلى التى كادت أن تنقرض ، وهى مزار سياحى محلى ودولى ، ومازلنا فى
دراستنا الميدانية لمادة الآثار والعمارة والكتابة والفنون الإسلامية لطلاب شعبه الحضارة والدراسات
العليا بكلية اللغة العربية تكون هذه الوكالة ضمن خطة الدراسة فى كل فصل دراسى (الباحث).

١٨٦- شذرات الذهب ، ج ٨ ص ١١٣-١١٧ ، مجالس الغورى ، ص ٢٣ .

١٨٧- د. حسن الباشا : القاهرة ، ص ١٥٢ . وهذه المثلثة من التحف الإسلامية النادرة فى العالم
الإسلامى ، فقد زخرفت بتليسات القيشانى الأزرق ، وفى بدنتها الثانية سلمين للطالع والنازل لا يرى
أحدهما الآخر ، وهى حيلة فنية معمارية للمهندس الذى صنعها ، وقد صعد الباحث إلى الرأسين ونبه
إلى خطورة تآكل الحديد وسقوط الرأسين ، فقامت هيئة الآثار مشكورة بعمل تبرايزين ورمت الجزء
المتآكل منها .. إلا أن سلامها كانت مليئة بالقطط الميتة والقذورات (الباحث) .

١٨٨- راجع عنها من الناحية المعمارية والفنية : د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ وما بعدها .

١٨٩- ترجمته فى بدائع الزهور ، جزء ص ٨٠ ، الأشرف قنصوه الغورى ، ص ٨٨ .

١٩٠- راجع : بدائع الزهور ، جزء ص ٥٢ ، ٥٣ .

١٩١- راجع : بدائع الزهور ، جزء ص ٣٩٩ ، مجالس الغورى ، ص ٢٥-٢٧ ، د. عبد الرحمن زكى : القاهرة ، مرجع سابق ، ص ١٦٧ ، شذرات الذهب ، ج ٨ ص ١١٤ .

١٩٢- راجع : بدائع الزهور ، جزء ص ٢٣٦ ، حجة وقف الغورى رقم ٨٨٣ أوقاف ، ٥٠٠ ميكروفيلم بتاريخ ٢٠ صفر ٩١١ هـ ، المجلس الأعلى للثقافة .

١٩٣- راجع : بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، حجة وقف الغورى رقم ٤٨٨ ، ١٩ ميكروفيلم .

١٩٤- راجع : حجة وقف الغورى رقم ١٣٠ ، أوقاف ، ٥٠١ ميكروفيلم ، بدائع الزهور : جزء ص ٢٠٣ .

١٩٥- بعد زيارة الباحث لمسجد السلطان الحنفى بالناصرة بالقاهرة ، وجد مثذنة أيضا لها أربعة رؤوس .

١٩٦- د. عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ، ص ٢٤ ، الأشرف قنصوه الغورى ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

١٩٧- بدائع الزهور ، ج ٤ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

١٩٨- راجع : بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٢٤٩ ، مجالس الغورى ، ص ٢٥ ، ويتكون هذا الجامع من صحن

يحيط به أربعة أواوين أكبرها الايوان الشرقى ، ويغطيها جميعا سقف ذو نقوش بموهة بالذهب ،

وللصحن منور مستطيل لامثيل له . وأرضية الاواوين مغطاة برخام مختلف الألوان بديع الصنع .

ومكتوب على الجدران آيات بالخط الكوفى المغربى يقال أنها تمنع الذباب والهمام والحشرات ، وقد

صليت به أكثر من مرة فوجدت ذلك صحيحا عكس غيره ، وقد اعتدى بعض التجار على جزء من

المسجد واستولى عليه ، وعمل به دورة مياه ، وكان الجامع مخزنا لتجار البهارات إلى أن تمكنت

هيئة الآثار ووزارة الأوقاف من تنظيفه ، وبالجامع سلم يوصل إلى البئر وسلم آخر يوصل إلى مكان

عميق تحت المسجد قيل أنه سجن ، كان الغورى يضع به أرباب الجرائم (الباحث) ، راجع : القاهرة

لشحاته عيسى ابراهيم ص ١٥٠ وما بعدها ، د. حسن الباشا : القاهرة ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

١٩٩- بدائع الزهور ، فى حوادث هذه السنين ، مجالس الغورى ، ص ٣٠-٣١ .

٢٠٠- ص ١١٦٣-١١٦٤ .

٢٠١- بدائع الزهور ، جزء ص ٣٢١ .

- ٢٠٢- المرجع السابق ، جء ص ٣٢٧ .
- ٢٠٣- المرجع السابق ، جء ص ٢٠٢ (ط ألمانيا) .
- ٢٠٣- المرجع السابق، ص ٣٠٩ .
- ٢٠٥- بدائع الزهور ، جء ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .
- ٢٠٦- راجع ، ص ٦٠٥ من كتاب نفائس المجالس تأليف حسين بن محمد الحسيني ، تحقيق عبد الوهاب عزام .
- ٢٠٧- ص ٧٢ ، ٧٩ .
- ٢٠٨- أى أن كلمة بحر إذا صحت أصبحت «رجب» راجع ص ٣٣ من نفائس المجالس.
- ٢٠٩- فليل هو التين، راجع المرجع السابق ، ص ٥١ .
- ٢١٠- راجع ص ٤٨ من مجالس السلطان الغورى.
- ٢١١- راجع ص ٥٢ ، ٥٣ من المرجع السابق .
- ٢١٢- قام الزميل أمين عبدالله سالم المدرس المساعد بكلية اللغة العربية فى «بى العرب» منوفية بإعداد رسالة ماجستير عن «تنبيهات الأشمونى على ألفية ابن مالك لأبى على الأشمونى» نوقشت سنة ١٩٧٨م ويوجد منها نسخة بكلية اللغة العربية بالقاهرة (الباحث) .
- ٢١٣- تراجم هؤلاء : الأعلام فى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ، ج ١ .
- ٢١٤- راجع ص ٢١-٢٣ من كتاب «الأشرف قنصوه الغورى» لمحمود رزق سليم .
- ٢١٥- تراجم هؤلاء موجودة بالتفصيل فى الكواكب السائرة للغزى ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ من كتاب الأشرف قنصوه الغورى ، وسنتحدث عنهم بالتفصيل عند ذكر الأدباء فى هذا العصر .
- ٢١٦- راجع ص ٢٠ من كتاب النفائس .
- ٢١٧- بدائع الزهور، حوادث رمضان ٩٢٢هـ، مجالس السلطان الغورى، ص ٢٠ .
- ٢١٨- راجع نفائس المجالس، ص ١٣٢ .
- ٢١٩- الأشرف قنصوه الغورى، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .
- ٢٢٠- مجالس السلطان الغورى ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
- ٢٢١- تبلغ هذه الكتب حوالى ٢٧ ألف كتاب ، ما زال بعضها داخل الصناديق كما أخبرنى بذلك المسئول

عن مكتبة قصر ثقافة الغورى، وهى بعض الكتب التى عثر عليها بمدرسة الغورى وكانت تتكون خزانة كتبها بعد أن استولى السلطان سليم على مصر وأخذ منها إلى استنبول كل غال ونفيس (الباحث) .

٢٢٢- الأشرف قنصوه الغورى، ص ١٩١، مجالس الغورى، ص ٤٥، ٤٦ .

٢٢٣- راجع ص ٤٣، ٤٤، مجالس السلطان الغورى.

٢٢٤- راجع ص ٥١ من كتاب مجالس السلطان الغورى، شذرات الذهب، ج ٨ ص ١١٤ .

٢٢٥- راجع ص ٦١ من كتاب نفائس المجالس.

٢٢٦- راجع ص ٦٦، ٧٥، ٨٦ من الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، مرجع سابق .

٢٢٧- راجع : ص ٣٤ من مجالس السلطان الغورى.

٢٢٨- الأشرف قنصوه الغورى: ص ١٩١، ١٩٢ .

٢٢٩- للسلطان الغورى الآن حى بالقاهرة يعرف «بالغورية» نسبة إليه ، وقد تغنى الناس قديما وحديثا بالغورية . (الباحث) .

٢٣٠- بدائع الزهور ، حوادث رمضان ٩٢٢هـ، الأشرف قنصوه الغورى ص ١٩٣ وما بعدها ، مجالس الغورى، ص ٣٦، ٣٧ .

٢٣١- تنسب تجارة الكارم إلى «الكارمية» وهم كما تحدثنا عنهم الوثائق ، فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من السلع الأخرى، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى (المجلة التاريخية، مجلد ٢٢، د. عطية القوصى ، ص ١٧، ١٨) . وقد كان المحيط الهندى منذ القدم هو السوق التجارى الكبير الذى كانت تتجمع فى موانئه سلع الشرق الأقصى والهند وغيرها ، وقد اتخذ تجار سلع الشرق قواعد لهم فى موانئ ساحل الهند الغربى، وفى الخليج العربى، وعند مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وكانت سفن الكارم تتردد على أكثر من عشرين ميناء على سواحل الهند الغربية .

وبرغم أن تاريخ نشأة تجار الكارم لم يتحدد بعد ، فإنه من المعروف أن هذه الجماعة نشأت فى المحيط الهندى وعلى الشاطئ الغربى للهند، وأنها وجدت هناك فى بداية الأمر على صورة ما ثم تطورت مع الزمن ومع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم هو ما تعرف به هذه الجماعة ، وتوارثه من جاء بعدهم أو من تحولت إليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها (الشاطر بصيلى : الكارمية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ١٣ ، ١٩٦٦م، ص ٢١٧) .

محاولات تفسير كلمة الكارمية: (المجلة التاريخية ، عدد ٢٢ ، ١٩٧٥م، ص ٢٤، ٢٥) لم يصل

المؤرخون بعد وحتى الآن إلى تفسير جازم لتسمية هؤلاء التجار بهذا الاسم، ويبدو أنه اسم عام لأنه ليست هناك كلمة في اللغة العربية بهذا المعنى، وقد تعددت محاولات تفسير هذه الكلمة، فقد نقل (كاترميير) ما أورده القلقشندي من أن هذا الاسم مأخوذ عن (الكانم) وهي منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، وأن هذا الاسم انتشر بين من اشتغلوا بتجارة البهار، بعد أن وقع فيه تصحيف وأصبح كارم (صبحى ليبى: التجارة الكارمية ص٦ وتجارة مصر فى العصور الوسطى، مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثانى، ١٩٥٢م).

ويفترض ليتمان أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجر التجار نفسها، إذ وجد أن لفظ (كورارما) الأمهرية تعنى الحبهان وهو من التوابل التى تاجروا فيها، ثم حرفت هذه الكلمة وأصبحت (كارم) وأطلقت على هؤلاء التجار (صبحى ليبى، ص٦)، والتفسير الجديد لكلمة (كارم) الذى أورده جواتين المستشرق، مفاده أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا، ولكنه هندي، ذلك لأن لغة جنوب الهند (التامل) توجد بها كلمة (كاريام)، وهى تعنى فيما تعنى من أشياء أخرى: «الأعمال» أو الأشغال، ولما كانت أعمال أهالى الساحل الهندى الغربى مع تجار الشرق الأوسط تتعلق بالتجارة، فمن المحتمل أن أصحاب هذه السفن أو التجار الذين عملوا فى ذلك المضمار قد عرفوا وأطلق عليهم أهالى الهند هذا الاسم. وجاء مع هذه التفسيرات تفسير جديد آخر وهو الأكثر قبولا من غيره أورده الأستاذ الشاطر بصيلى، فى مقال له عن الكارمية (ص١٧) ورد فى ذلك التفسير أننا إذا قسمنا لفظة (كارم) قسمين لوجدناها تتكون من (كار) فى المقطع الأول ثم (يم) فى المقطع الثانى، وكان معناها الحرقه أو العمل أو التجارة أو الوظيفة... الخ، و(يم) معناها المحيط أو البحر البعيد الشواطىء، أو النهر الكبير، ثم سقط حرف الياء من (كاريم) فأصبحت (كارم) وأن معنى الكلمة- حسب هذا التفسير- هو حرفة التجارة فى أعالي البحار.

٢٣٢- مجلة الجمعية التاريخية، مجلد ٢٢، ١٩٧٥، ص٣٢، ٣٣.

٢٣٣- صبح الأعشى، ج٢ ص٣٢.

٢٣٤- مجلة الجمعية التاريخية، مصدر سابق، ص٣٠، ٣١.

٢٣٥- صبح الأعشى، المرجع السابق، ج٢ ص٢٦.

٢٣٦- صبح الأعشى - نفس المرجع ج٤ ص٢٧.

٢٣٧- يذكر السخاوى فى ترجمة رئيس التجار على بن محمد النور بن الجلال الطنبدى المصرى «أنه كان يقرض الناس من المحتاجين بدون ربح وكان حسن المعاملة كثير البر»، الضوء اللامع، ج٦ ص٣٠.

٢٣٨- يحدثنا ابن الصيرفى عن غياث الدين محمد بن خواجا على بن نجم الكيلانى المولود فى حدود ٧٧٠هـ- ١٣٦٨م، كان أبوه من أعيان التجار فأشغله بالعلم بحيث كان يبتاع له الكتاب الواحد بمائة دينار . نزهة النفوس، ج٢ ص ٤٣١ .

٢٣٩- الضوء اللامع، ج٣ ص ٣٢ ، ٣٣ .

٢٤٠- بدائع الزهور ، ج١ قسم ٢ (ط ألمانيا) ص ٦٩١ .

٢٤١- نزهة النفوس ، ج٢ ص ١٩٣ .

٢٤٢- المنهل الصافى ، ج١ ص ١١١ ، ١١٢ .

٢٤٣- بدائع الزهور ، ج١ قسم ٢ (ط ألمانيا) ص ٦٩١ .

٢٤٤- الضوء اللامع ج٣ ص ١٠١ ، نمرة ٤٠٦ .

٢٤٥- نوير: قرية من صعيد مصر الأدنى على مسافة يوم للراكب منها إلى القاهرة، والميمون: قرية أقرب للقاهرة من النوبة بنحو نصف بريد. الضوء اللامع ، ج٩ ، ص ٢٤٦-٢٤٨ ، نمرة ٥٩٨ .

٢٤٦- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

٢٤٧- الضوء اللامع ، ج١ ص ٤١ ، ٤٢ .

٢٤٨- محمد محمود زيتون : إقليم البحيرة ، ص ٤٨٥ .

٢٤٩- الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ١٠٦ ، نمرة ٣٦٩ .

٢٥٠- المرجع السابق ، ج١٠ ، ص ٧٠ ، نمرة ٢٣٨ .

٢٥١- النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٣١٨ .



صورة للسلطان أبو النصر الأشرف قايتباي

والأصل في أرشيف الباحث عن صورة بالمتحف الحربي . المرجع رسالتنا
للدكتوراه غير منشورة «الحركة العلمية في عصر سلاطين المماليك البرجية
ودور الأزهر فيها» كلية اللغة العربية سنة ١٩٨١م ج ٢ ص ١٠٥٠ .

راجع التقرير التاسع والأربعون بعد المائة للقومسيون الثانى محضر الجلسة نمرة ٥٧ رقم ٣ ص ٧٦-٧٧ (المجموعة التاسعة) من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية ، وتقرير القومسيون الثانى عن سنة ١٨٩٢ أفرنكية .

(٣) وكالة قايتباى بالتشروحيه

فى أثناء منى وزير القومسيون الثانى وقف أمام بقايا وكالة قايتباى بعناية الكايبه الحفر البارزة على أعتاب الموارد التى كانت حاملة للدور الأول المتلاشى بالكامل وهذه الكتابة هى المنقوشة عنها فى تقريره نمرة ١٤٦ فلو قايه وحفظ تلك الكتابة يستحسن القومسيون أخذ تعهد على كل سكان وملاك الوكالة بعدم تسمير أو تركيب أى شىء على الاعتاب وهذا هو نص الكتابة المذكورة

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه سيدنا ومولانا ومالك رقاينا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين صاحب الديار المصرية والبلاد الشاميه والأعمال الفرائية والقلاع الرومية والحصون الامم اعيلية والثغور السكندرية صاحب السيف والقلم والتبيل والعلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم صايب البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين)

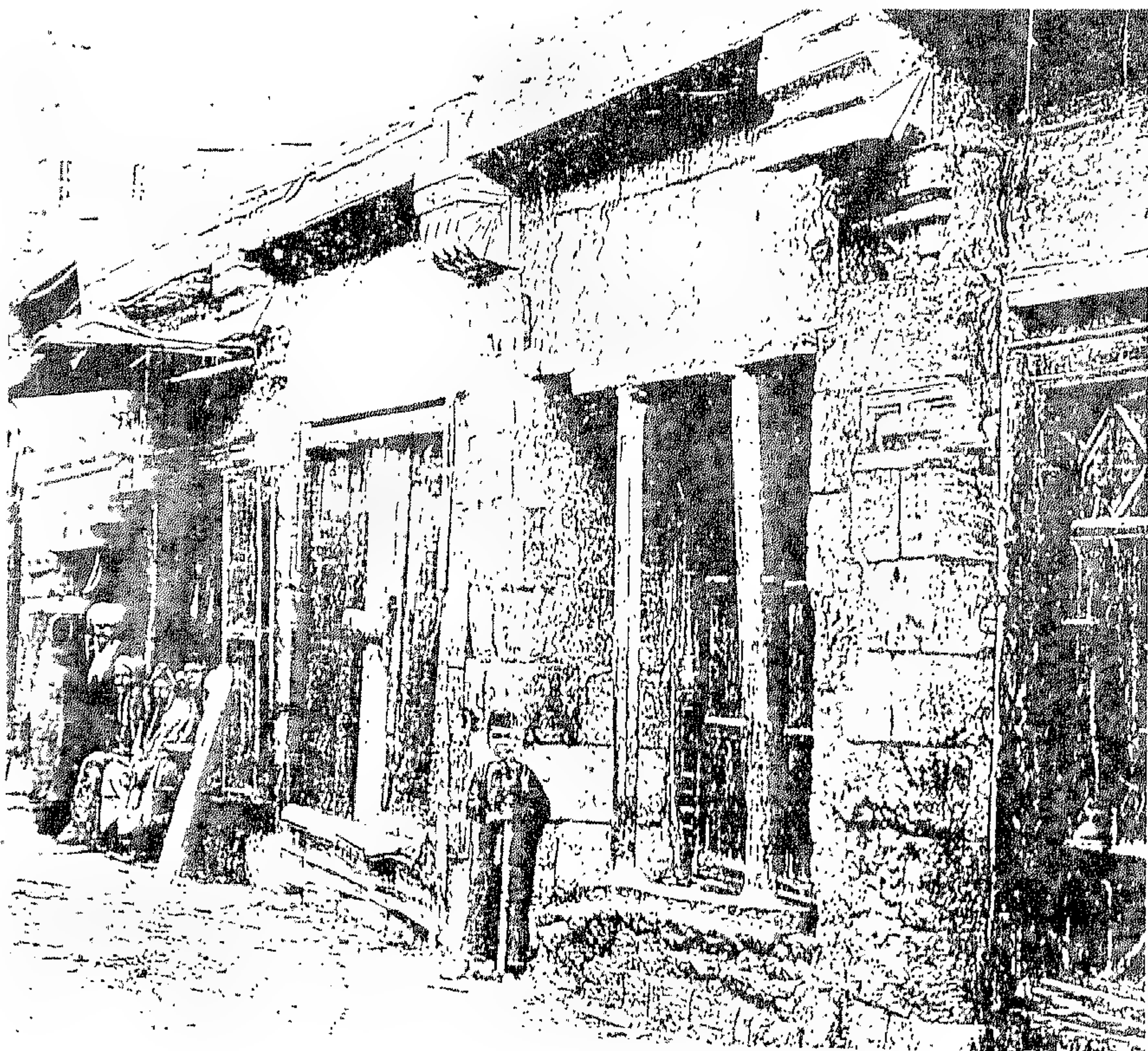
(اللهم آدم العز والبقاء والعلو والارتقاء والنصر على الأعداء بسيدنا ومولانا ومالك رقاينا السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين حامي حوزة الدين أبو الفقراء والمساكين كهف الارامل والمنقطعين منصف المظلومين من الظالمين الملك المكرم وانجا فان المعظم أبو المعالي والهم سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم أفضل من حكم فى عصره بالحكم عبيدك وابن عبيدك القائم بشريعتك وفرضك سيفك المرفف السلطان المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى عز نصره)

نص اللوحة التأسيسية لوكالة قايتباى وهو شىء نادر لا وجود له الآن فى بقاياها (الباحث)

التقرير السادس والخمسون بعد المائة للقومسيون الثانى محضر غرة ٥٩ رقم ٥ ص ٧٢ ، ٧٥
والصورة بعدهما من المجموعة العاشرة من محاضر لجنة حفظ الآثار القديمة العربية وتقارير
القومسيون الثانى سنة ١٨٩٣ أفرنكية .

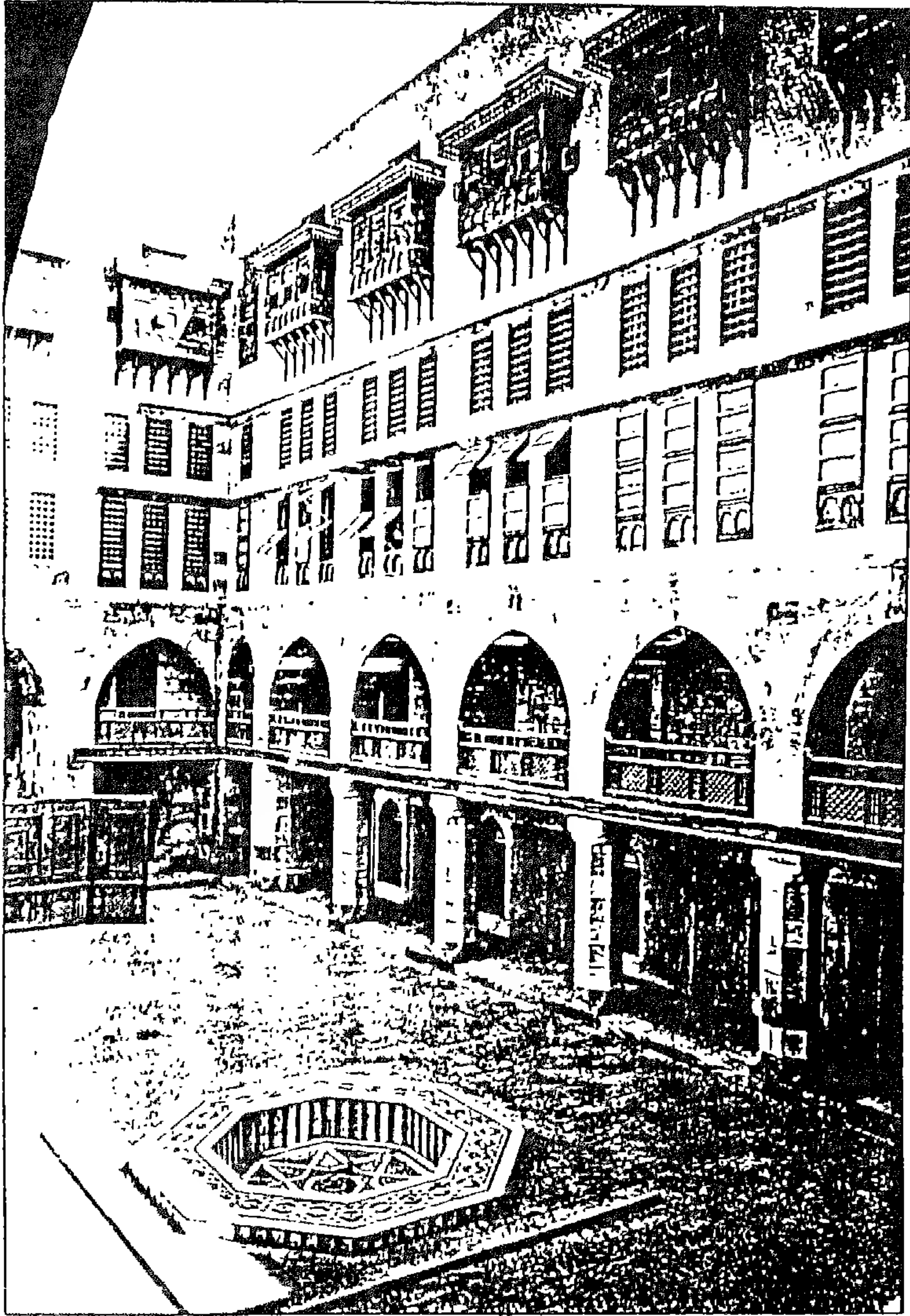
(٥) وكالة قايتباى

طلبت نظارة الاشغال العمومية سرعة هدم الجزء المخل من المنزل وقف مناو وباحالة هذا
الطلب من ديوان الاوقاف على مهندس الاثار رأى أن المنزل المذكور هو بقايا وكالة
السلطان قايتباى التى تكلمت عنها اللجنة أخيرا وقد أجرى حالا شد وصلب الجزء المقول
عنه ولما عاين القومسيون الثانى الوكالة يوم تاريخه وجد أن الدورا الارضى لهذا الاثر
غائصة فى الارض أكثر من متر ونصف وقد أثرت عليه الترميمات المتعددة تأثيرا جسيما
وصار فى حالة التلف الزائد الامر الذى يوجب تجديد وجهته بأكملها حفظا لاعتاب الابواب
وعليه يطلب القومسيون من اللجنة عدم تسجيل هذا المكان ضمن الاثار اللازمة حفظها
وانما يصير التشديد فى نقل الاقريز الخشب المستطيل الموجود عليه كابة (انظر التقرير
غرة ١٥٠) الى الاتي كخانة العربية وان كل الاجزاء الصناعية الثمينة يجرى اعادة استعمالها
فى العمارة الحديدية التى فى عزم الحكومة عملها على ذمة الكتبخانة الحديدية والاتي كخانة
العربية انا اقتضت الحال لهدم هذا المحل ولهذا الغاية يقتضى فك كل مبادئ الادوات
المذكورة بغاية الاعناء ونقلها الى مخزن الاوقاف لحفظها به كما هو لازم ووقايتهم من التلف
والتاثيرات الجوية وقبل الهدم يتعين على المسيوهرتس أن يأخذ بعض مناظر
بالفتوغرافيه من الوجهة الموجهة ويجهز الرسومات الضرورية التى يمكن بواسطتها معرفة
المحل الذى كانت كل قطعة محفوظة فيه ثم اعتمد القومسيون تمكليف الشدة الوقية
التى أمر بها المهندس البالغ قدرها ٧٠٠ ملجم



وجهة وكالة السلطان قايتباى بشارع السروجية بالقاهرة سنة ١٨٩٣م

(فتوغرافية ليكچيان وشركاه)



(لوحة 317) مصر - القاهرة

وكالة الفوري - منظر داخلي - ٩٠٩-٩١٠ هـ / ١٥٠٣-١٥٠٤ م
 نقلا عن د. حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية
 ص ٢٤١ مكتبة الدار العربية للكتاب مجلد ٤ ط أولى سنة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م



(السلطان الفورى)

نقلا عن كتاب مجالس السلطان الفورى للدكتور عبد الوهاب عزام
المرجع رسالتنا للدكتوراه «الحركة العلمية فى مصر فى عصر سلاطين
المعاليك البرجية ودور الأزهر فيها» ج ٢ ص ١٠٥٤ سنة ١٩٨١م كلية اللغة
العربية جامعة الأزهر غير منشورة

د. جمود بن محمد بن علي النجدي *

منهجية ابن العبري التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبية مقارنة بمنهجية ابن الأثير

أولا : المقدمة :

مما لا شك فيه أن عقيدة المرء تؤثر على فهمه ورؤيته للأحداث والتطورات ، وبالتالي نظرته وتصوره لها. ومن الأمور البارزة في تاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية أحداث الحركة الصليبية وتطوراتها التي صبغت الحياة السياسية بل ورسمت مساراتها في عدة ميادين؛ كان أبرزها ميدان فلسطين وبلاد الشام.

وأظنه واضحا أن تأثيرات الحركة الصليبية لم تقتصر على ميدانها أو ميادينها بالمفهوم الجغرافي ، بل إنها تجاوزتها إلى المناطق الأخرى المتاخمة بل وغير المتاخمة، والاختلاف يكمن فقط في درجة ومستوى التأثير.

عاشت الحركة الصليبية في ميدان فلسطين وبلاد الشام قرنين من الزمان، وأرخ لهذه الحركة الكثيرون من المعنيين بالتاريخ منهم من ينتمى إلى الجانب الإسلامى ومنهم من ينتمى إلى الجانب النصراني، وهذا الاختلاف في الانتماء الدينى بالنسبة لمؤرخى الحروب الصليبية

* أستاذ مشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود بالتصميم كلية العلوم الاجتماعية.

يقدم فرصة جيدة لتقويم العديد من الدراسات التاريخية المقارنة سواء بالنسبة لأفراد من المؤرخين أم بالنسبة لمجموعة المؤرخين على الجانبين، وأمر طبيعي أنه من غير الممكن تقديم دراسات مقارنة فى الإطار الثانى دون الاعتماد على دراسات مقارنة للمبرزين من أفراد المؤرخين فى كلا الجانبين.

وتمشياً مع هذه القاعدة ، فإن البحث الذى أقدمه فى هذه الصفحات يعنى بدراسة منهجية مؤرخ مقارنة بمنهجية مؤرخ آخر كلاهما من المؤرخين الذين أرخوا للحروب الصليبية، أحدهما مسلم والثانى نصرانى عاشا فى فترتين متقاربتين من الناحية الزمانية، وفى منطقتين متقاربتين أيضاً من الناحية الجغرافية، وكان لكل من المنطقتين إسهامهما فى تشكيل بعض مسارات الحركة الصليبية وتحديد أبعادها .

وإضافة إلى ما سبق فإن كلا المؤرخين قد انتهت حياتهما فى فترة الصراع الذى كان محتدماً بين المسلمين والصليبيين، والاختلاف بين المؤرخين فى هذه الجزئية يتمثل فى أن أحدهما وهو ابن الأثير أمضى حياته فى المنطقة الإسلامية، بينما أمضاها الآخر وهو ابن العبرى فى نواح كانت غالباً خاضعة للصليبيين أو لحلفائهم.

واختلاف آخر بين المؤرخين هو أن لكل منهما نظرتة المختلفة عن الآخر فى أحداث الحروب الصليبية ، وبالتالى اختلاف منهجيتيهما التاريخية حولها؛ وإذا كان تركيز هذه الدراسة على منهجية ابن العبرى، فهى أيضاً بيان لمنهجية ابن الأثير لأن المقارنة تستدعى توضيحاً لهذه المنهجية فى الحدود التى نتعرف من خلالها على منهجية الأول اعتماداً على ما أورده فى تاريخه من أحداث خاصة بالحروب الصليبية تتوافق مع الأحداث التى أوردها ابن الأثير ، وبهذا تكون المقارنة- من وجهة نظرى- أمثراً دقة وأكثر موضوعية.

ولقد بدأت بتوضيح منهجية ابن الأثير ثم أعقبت ذلك ببيان منهجية ابن العبرى وذلك لسببين أرى أهميتهما:

أولهما : أسبقية ابن الأثير الزمنية مولداً ووفاة وتأليفاً لكتابه ، وأيضاً كونه أكثر قرباً للأحداث .

وثانيهما : أن ابن الأثير وبالتحديد كتابه (الكامل فى التاريخ) ، وهو موسوعى مفصل يعد أصلاً لكتاب ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول)، وهو مختصر موجز ، فقد نقل ابن العبرى معظم معلوماته إن لم يكن جميعها والخاصة بأحداث الحروب

الصليبية عن ابن الأثير حتى أنه استخدم ألفاظه وعباراته وجمله وكلماته فى كثير من الأحيان .

هذا ويلزم قبل الحديث عن عناصر المقارنة بين منهجيتى المؤرخين أن أمهد لذلك بحديث موجز عنهما وعن كتابيهما .

ثانياً : المؤرخان والكتابان :

فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسائة (١١٦٠م) ولد أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى الذى حمل فيما بعد لقب عز الدين، وعرف واشتهر بابن الأثير الجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر الذى ولد فيها ، وهى إحدى البلدات أو المدن الصغيرة التابعة لمدينة الموصل حاضرة ديار ربيعة فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة الفراتية (١) .

وبعد سنوات الطفولة انتقل صاحبنا مع أبيه وأخويه إلى مدينة الموصل، وكانت آنذاك تماثل مدينة حلب إلى حد كبير فى كون كل منهما مركزاً من مراكز المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي ولاسيما فى إمارة أنطاكية الصليبية (٢) .

وفى حياته يذكر عن ابن الأثير أنه زار العديد من المراكز أو المدن الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقدس وغيرها، وبعض هذه الزيارات تمت بوصفه مبعوثاً من قبل هذا أو ذاك من الحكام المسلمين ؛ على حين كانت الزيارات الأخرى التى قام بها من أجل إكساب شخصيته العلمية - ولاسيما فى مجال التاريخ - المزيد من الصقل والإثراء .

وفى سنواته الأخيرة تنقل مؤرخنا بين كل من حلب ودمشق والموصل، وفى هذه الأخيرة ، وفى شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة (١٢٣١م) وافته منيته بالغاً من العمر خمسة وسبعين عاماً وثلاثة شهور، ودفن فيها (٣) .

وبعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرخوا - لفترة زمنية طويلة من الحروب الصليبية كما أن كتابه (الكامل فى التاريخ) يعد من أهم مصادر التاريخ الإسلامى عامة وفترة الحروب الصليبية بصفة خاصة.

هذا عن ابن الأثير؛ أما عن ابن العبري: فهو أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملقب المشهور بابن العبري نسبة إلى قرية (عبرا) وهى إحدى قرى ملطية (٤) المولود فيها سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية (١٢٢٦م) ، وكانت نشأته فيها حيث درس اليونانية والسريانية والعربية ، وعلوم أخرى مثل الطب والفلسفة واللاهوت.

وبسبب ظروف الغزو المغولي هربت أسرته إلى أنطاكية ، وارتحل منها إلى طرابلس ، وتنقل بين بلاد الشام وبلاد شمال العراق حتى عيّن في إحدى بلداتها (جوباس) رئيساً لأساقفة الشرق^(٥) ، واستمر فيه حتى وافاه الأجل في بلدة مراغة من أعمال أذربيجان^(٦) سنة خمس وثمانين وستمئة للهجرة (١٢٨٦م) .

ويعد ابن العبري من أهم المؤرخين النصارى الذين أرخوا - كما هو ابن الأثير - لمعظم أحداث فترة الحروب الصليبية، كما يعد كتابه (تاريخ مختصر الدول) أهم مؤلفاته التي ألفها وزادت على الثلاثين كتاباً^(٧) .

ويوجد بين المؤرخين ابن الأثير وابن العبري العديد من عناصر التشابه فكل منهما عني بالتأليف في حقل التاريخ، والاختلاف بين المؤرخين في هذه الجزئية يكمن في مستوى الاهتمام، فابن الأثير جعل من التاريخ اهتمامه الأول، ولهذا جاءت كافة مؤلفاته في التاريخ على اختلاف أنواعه العام منها والخاص ؛ أما ابن العبري فقد شكل التأريخ واحداً من مجالات اهتماماته العلمية، وبما أتى في مكانة تالية لتلك الاهتمامات .

وكلا المؤرخين يوضع ضمن مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، فابن الأثير كان نصيبه من القرن المذكور ثلاثين سنة على حين كان نصيب ابن العبري عمره كله والذي تجاوز ستين سنة، وهذا الاختلاف في نصيب كل منهما من سنوات ذلك القرن لا يؤبه به كثيراً إذا ركزنا على سنوات النضج، أو السنوات التي اقتصرت فيها مقومات المؤرخ بالنسبة لكل منهما، وفي هذه الحالة يتساوى المؤرخان على وجه التقريب .

وكل من المؤرخين أمضى حياته في منطقة يمكن أن توصف بأنها ساخنة سواء في ذلك بلاد الشام والجزيرة الفراتية بالنسبة لابن الأثير، أو أنطاكية ومدن عدة في شمال العراق وأرمينية بالنسبة لابن العبري ، وكل منهما عرف بالتنقل بين العديد من المدن والمراكز الحضارية والسياسية في منطقته .

والاختلاف الجوهرى الذى نلاحظه بوضوح من خلال تتبع حياة المؤرخين يتمثل في الصبغة الدينية التي غلبت على الحياة الوظيفية لابن العبري، والتي أوصلته إلى مركز مرموق في سلم المناصب الدينية لجماعة اليعقوبية أو السريان النصرانية^(٨)، وهذا لانجد له نظيراً بالنسبة لابن الأثير.

والقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الذى عاش فيه المؤرخان كان محكوماً بمجموعة من المسارات السياسية ، وأحد هذه المسارات الصراع الذى كان محتدماً بين المسلمين والصليبيين ، وهذا يعنى أن كلا من المؤرخين كان معاصراً لحقبة من حقبة الحروب الصليبية ؛ فابن الأثير كان معاصراً لمرحلتين من مراحل الحروب الصليبية ^(٩)، مرحلة صلاح الدين الأيوبي ^(١٠)؛ والتي كانت موازين القوى فيها تشير إلى تفوق المسلمين ، ومرحلة العادل الأيوبي وابنه الكامل، وفيها وبالذات فى عهد الكامل تراجعت القوة الإسلامية بما أتاح للصليبيين الاستفادة من هذا التراجع.

أما ابن العبري فنجد أنه كان معاصراً لإحدى فترات الحروب الصليبية التى اتسمت بتحسين ميزان القوى لصالح المسلمين؛ ففى منتصف العقد الثالث من عمره وقعت أحداث الحملة الصليبية السابعة ، وهى الحملة التى اندحر فيها الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ^(١١)، وفى بدايات العقد الخامس من عمره ، وتحديدأ سنة ست وستين وستمائة للهجرة (١٢٦١م) نجح المسلمون بقيادة السلطان المملوكى بيبرس البندقدارى ^(١٢) فى تحطيم الوجود الصليبي فى أنطاكية التى عاش فيها ابن العبري سنوات لا يستهان بها ، وقد ترتب على انتصار المسلمين أن عادت أنطاكية إلى واقعها السابق منطقة إسلامية.

وقبل إنهاء الوجود الصليبي فى أنطاكية بحوالى عامين وجهت قوات الظاهر بيبرس ضربة شبه قاضية للكيان النصراني المتمثل فى مملكة أرمينية النصرانية ^(١٣) والتي كانت ملطية وجوباس داخلتان فى نطاقها .

ومما لاشك فيه أن تدمير انطاكية والنكبات التى حلت بمملكة أرمينية قد انعكست أحداثهما بشكل مباشر على نفسية ابن العبري، ولا يمكن استبعاد أن تكون قد أثرت على تاريخه ، وليس مستغرباً أيضاً أن يكون انقطاعه فى بعض الأديرة قد جاء تعبيراً عما كان يعتل فى داخله من حالة انهزامية.

ونترك المؤرخين ونلتفت إلى كتابيهما اللذين سنستخرج منهما عناصر المقارنة وبخصوص هذا الجزئية أقول :

إن كتاب ابن الأثير يحمل عنوان «الكامل فى التاريخ» على حين يحمل كتاب ابن العبري عنوان «تاريخ مختصر الدول»، وهذا يعنى أنه جاء مختصراً أو موجزاً مقارنة بكتاب ابن الأثير غير أن هذا التفاوت لا يشكل عقبة فى الوصول إلى عناصر المقارنة التى أستخدمها ،

ولكى تتضح هذه العناصر بأسلوب علمى سليم يلتزم الحيادية والموضوعية المطلوبة، فإننى أرى أن تتركز عناصر المقارنة على أقسام ثلاثة تبعاً لطبيعة الأحداث وإطارها الزمنى إذ أنها تنقسم إلى أحداث رئيسة وأخرى ثانوية، ومن أجل تيسير المتابعة فإنه بالنسبة للأحداث الرئيسية من الأفضل تقسيم الفترة الزمنية إلى مرحلتين المرحلة السابقة على صلاح الدين، ثم المرحلة الأيوبية، وليس من الضروري التقيد بهذا التقسيم بالنسبة للأحداث الثانوية، وعلى هذا يكون لدينا ثلاثة أقسام تتركز عليها عناصر المقارنة.

يتبقى بعد ذلك أمران من الضروري الإشارة إليهما، أولهما أن ابن الأثير قد اتخذ من النظام الحولى أساساً لهيكليته كتابه ، وهذا ما نجده لدى ابن العبري ولكن فى إطار الدول التى أرخ لها والتى ابتدأها بالدولة الأولى، واختتمها بالدولة العاشرة^(١٤). الأمر الثانى يتصل باللغة التى كتب بها الكتابان ، فاللغة الأساسية التى ألف بها ابن الأثير كتابه هى اللغة العربية على حين يذكر عن ابن العبري أنه ألف كتابه فى الأصل باللغة السريانية ثم نقله إلى اللغة العربية وذلك فى أواخر حياته، وذلك بناءً على طلب البعض من وجهاء العرب ، يقول العالم الذى وقف على طبع الكتاب فى صورته العربية^(١٥) «وقد ضمنه أموراً كثيرة لا توجد فى المطول السريانى، ولا سيما فيما يتعلق بدولتى الإسلامى والمغول وتراجم العلماء والأطباء».

ثالثاً : تأريخهما للفترة السابقة على صلاح الدين الأيوبي:

يصل المدى الزمنى للمرحلة السابقة على صلاح الدين بالنسبة للحروب الصليبية إلى حوالى ثمانين سنة^(١٦)، والأحداث الرئيسية فى أثنائها متعددة يأتى فى مقدمتها تأسيس الإمارات الصليبية الأربع (الرها، أنطاكية ، بيت المقدس، طرابلس)^(١٧)، ثم بعد ذلك انتهج الصليبيون فى كل إمارة سياسة التوسع على حساب القوى الإسلامية المجاورة؛ والتى كان عليها بالضرورة مقاومة هذا التوسع والتصدى له، وهو ما يعبر عنه إسلامياً بالجهاد.

وبعد حوالى ثلاثين سنة من بداية تأسيس تلك الإمارات الصليبية أخذ يظهر على الساحة الإسلامية وفى إطار الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين زنكى^(١٨) وذلك فى منطقة لها مركزان أحدهما مدينة الموصل فى الجزيرة الفراتية وثانيهما مدينة حلب شمال بلاد الشام، وهذا يعنى أن المنطقة التى سيطر عليها عماد الدين كانت متداخلة فى حدودها مع الكيانين الصليبيين فى

كل من الرها وأنطاكية. اتخذ عماد الدين زنكى من الجهاد ضد الصليبيين طابعاً أساسياً لسياسته ، وفى إطار علمياته الجهادية نجح فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٥م) فى استرداد القسم الأكبر من إمارة الرها الصليبية، وبعد حوالى ست سنوات أكمل ابنه نور الدين محمود^(١٩) المهمة الجهادية وتمكن من إزالة بقية إمارة الرها المتمثل بالجزء الشامى من الإمارة^(٢٠) بعاصمته تل باشر^(٢١).

ومن الأحداث الرئيسة البارزة فى عهد نور الدين محمود الحملة الصليبية الثانية والتي استهدفت دمشق، وذلك كى يعوض من خلالها الصليبيون ما ضاع منهم فى الرها، ونعرف أن الفشل كان من نصيب الصليبيين فى هذه الحملة، وبعد إخفاق الحملة الصليبية الثانية فى تحقيق أهدافها اتخذ الصراع بين الصليبيين ونور الدين محمود شكل منافسة أو سباق حاد من أجل بسط السيطرة المباشرة على مصر، والتي كان النظام الحاكم فيها- وهو النظام الفاطمى- يتهدد للسقوط ويترنح منذ سنوات.

وفى حمى هذا التنافس سقطت الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) لحساب نور الدين محمود مما يعنى اكتمال تطويق الوجود الصليبي من بيت المقدس جنوباً وحتى أنطاكية فى الشمال .

وبعد حوالى سنتين آل حكم مصر إلى صلاح الدين الأيوبي فى خطوة بالغة الأهمية فى تشكيل بداية الحقبة الأيوبية^(٢٢).

* * *

١- هذه بصورة عامة الأحداث الرئيسة فى إطار الصراع بين المسلمين والصليبيين إبان المرحلة السابقة على صلاح الدين، وقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبري للمرحلة المشار إليها؛ فبالنسبة للحملة الأولى أرخ لها ابن الأثير فى مقدمة تأريخه لأحداث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (١٠٩٨م)^(٢٣)، وذلك بدرجة مناسبة من التفصيل حيث غطى تطورات القتال الذى دار بين الصليبيين وقوات أنطاكية تحت قيادة حاكمها من قبل السلاجقة ياغى سيان^(٢٤)، حاكم الموصل وممثل الدولة السلجوقية ضد الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية منذ عدة أسابيع .

ويتفق ابن العبري مع ابن الأثير فى التأريخ لاستيلاء الصليبيين على أنطاكية وذلك فى

شكل خبر موجز دون أى تفاصيل (٢٦)، والخبر الذى أورد ابن العبرى فى سطر واحد يمثل تلخيصاً لما أورده ابن الأثير مفصلاً فى عدة صفحات - قرابة أربع صفحات - .

ونتحرك مع تأسيس إمارة أنطاكية خطوة أخرى نحو جولة القتال الثانية التى انتهت بانتصار حاسم للصليبيين وبالتالى البداية الفعلية لتأسيس إمارة أنطاكية.

وبخصوص هذه الجزئية نجد أن ابن الأثير قد أرخ لهذه الجزئية فيما يزيد قليلاً على صفتين (٢٧) بينما أرخ ابن العبرى لذات الحدث فى حوالى نصف صفحة وتحديدًا فى أربعة عشر سطرًا أى أربعة عشر مثلاً لما أرخ به لجولة القتال الأولى؛ بل وفى نفس الموضع (٢٨)، وما أرخ به ابن العبرى للجولة الثانية استقاه بل وأخذ بعض عباراته حرفياً من ابن الأثير، وهذا النقل ليس مستغرباً من ابن العبرى إذ أنه من الأمور المسلم بها اعتماده على ابن الأثير كمصدر معلومات لكثير من الأحداث ومنها الأحداث المذكورة آنفاً .

غير أن التساؤلات التى تفرض نفسها تنصب على التباين الحاد فى مستوى المعالجة ، فإذا كان ابن العبرى قد أشار لجولة القتال الأولى باقتضاب شديد اتخذ شكل سطر واحد، فكيف نفسر إسهابه فى التأريخ لجولة القتال الثانية الذى استنفذ فيه أربعة عشر سطرًا ؟ وهل يحمل هذا الإسهاب نوعاً من السخرية بالقائد المسلم كربوغا وإدارته للمعركة ؟. أم يبرز اعتزاز ابن العبرى بالقوة الروحية للنصرانية متمثلة فى أحد الرهبان الذى وصفه بقوله : « وكان داهية من الرجال » ؟ .

أم يغمز ابن العبرى من خلال ذلك إلى الروح الانهزامية التى سيطرت على الجنود المسلمين فولوا منهزمين قبل أن يخوضوا المعركة !!؟ .

تساؤلات عدة يطرحها تباين ابن العبرى فى مستوى المعالجة ، وإذا كان من الصعب أن نختار التعبير الحقيقى؛ فإنه من السهل أن نؤكد أن منهجية ابن العبرى ومعالجته لهذه الجزئية غير مستقيمة ، وأن فيها من الانحياز لأبناء ديانته، والسرور لنتائج الأحداث ما هو واضح لا لبس فيه .

٢- ونتحرك مع الزمن قليلاً بعد تأكيد الصليبيين سيطرتهم على أنطاكية، فنجد أن ابن الأثير قد أرخ لسيطرة الصليبيين على معرة النعمان (٢٩) مشيراً إلى المقاومة التى بذلها أهلها ضد الغزاة وموضحاً أيضاً المذبحة المروعة التى ارتكبها الصليبيون مع أهلها، وقد غطى ابن

الأثير ذلك فى نصف صفحة (٣٠) بينما غطى ابن العبرى أحداث معرة النعمان فى سطر واحد فقط (٣١)، وهو بهذا الإيجاز الشديد أفرغ الحدث من مقوماته الأساسية ، وأظهر تغاضياً متعمداً عن أمور لا يريد ذكرها ، ولا سيما المذبحة التى ارتكبتها الصليبيون ضد الأهالى، وهذا التجاهل يبرز تعاطف ابن العبرى مع إخوانه فى العقيدة ، وفى إطار هذا أيضاً يتجاهل المقاومة الشديدة التى أبدتها أهالى المعرة فى مواجهة الصليبيين، ومنطلق ابن العبرى فى تجاهل المقاومة الإسلامية هو نفسه منطلق تجاهله للمذبحة ، بمعنى أن ما يحمل إيجابية للمسلمين ينبغى تجاهله بالدرجة ذاتها التى يجب فى إطارها تجاهل الصور القاتمة أو السلبية بالنسبة للصليبيين، وهذا يعنى أن تعاطف ابن العبرى مع الصليبيين يقابله درجة من عدم التعاطف مع المسلمين، وبكل وضوح يقلل هذا الموقف من موضوعية ابن العبرى وحياديته فى تناوله للأحداث.

٣- وإذا انتقلنا إلى السنة التالية سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة (١٠٩٩ م)، حيث بدأ الصليبيون فيها تأسيس مملكة بيت المقدس ، وتتمثل نقطة البداية فى هذا التأسيس فى الانتصار الذى أحرزه الصليبيون على القوات الإسلامية المدافعة عنها والتى كانت تابعة للدولة الفاطمية.

ولقد أرخ كل من ابن الأثير وابن العبرى بما عرف عن أسلوب كل منهما بين التفصيل والإيجاز (٣٢)، وهذا أمر طبيعى ، ولكن الذى يثير التساؤل حقاً هو أن ابن العبرى أرخ فى كتابه للمذبحة التى أوقعها الصليبيون بالمسلمين فى بيت المقدس، وذلك على النقيض من تجاهله للمذبحة التى ارتكبوها بحق المسلمين فى معرة النعمان، ولا يمكن الزعم بأن ابن العبرى قد أحيط علماً بما جرى للمسلمين فى بيت المقدس؛ على حين أنه لم يكن يعرف شيئاً عن مذبحة المعرة، وذلك لسبب بسيط يتمثل فى حقيقة أن مصدر معلوماته فى الحدثين واحد هو ابن الأثير .

ولا يبقى أمام الباحث سوى محاولة تفسير التناقض ، وفى هذا الجانب يمكن القول بأن ابن العبرى تجاهل مذبحة المعرة نظراً لأن المدينة تحتل مكانة ثانوية مقارنة بمكانة القدس التى سيؤرخ لمذبحتها من قبل الجميع ، أما المعرة فنظراً لثانويتها فقد ليؤبه بالتأريخ لمذبحتها ؛ ويحتمل إن هو أقدم على ذلك أن يكون الشاهد الوحيد على جريمة بشعة ارتكبتها إخوانه فى النصرانية.

٤- معروف فى التاريخ أن إمارة الرها الصليبية قد اسقطت على مرحلتين جرت أحداث المرحلة الأولى فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م) حينما هاجم عماد الدين زنكى ورجاله مدينة الرها وانتزعوها من حاكمها الصليبي جوسلين الثانى (٣٣)، أما المرحلة الثانية فإنها ترتبط بجهود نور الدين محمود فى سنة ست وأربعين وخمسمائة (١١٥١-١١٥٢م) حيث تجمع المصادر التى أرخت للمرحلة الثانية أن نور الدين قد منى بالهزيمة أول الأمر، ثم وضع خطة لأسر حاكمها جوسلين الثانى، وفعلاً نجحت الخطة وترتب عليها هزيمة الصليبيين ومن ثم إزالة الوجود الصليبي فى القسم الثانى من الرها الصليبية واستعادة حاضرتة تل باشر.

ونرجع لابن العبري فنجد أنه قد أرخ لمرحلتى السقوط، وجملة ما دونه بخصوص هذا الحدث يتفق مع ما دونه ابن الأثير (٣٤) مع ملاحظة الفرق بينهما فى الإيجاز والتفصيل، وأيضاً أن كثيراً من الألفاظ والعبارات التى استخدمها ابن الأثير قد استخدمها ابن العبري، وهذا يؤكد أن ابن العبري قد نقل معلوماته بصورة مباشرة من ابن الأثير، ولا يستبعد أن كليهما قد استفادا من مصدر آخر هو على الأرجح ابن القلاسى الذى كان معاصراً لهذه الأحداث (٣٥).

هذا بالنسبة للمحدث أما التعليق عليه وإبراز قيمة أسر جوسلين فى ترجيح كفة انتصار المسلمين، فقد أورده ابن الأثير (٣٦) على حين تجاهله ابن العبري تجاهلاً تاماً، ولا شك أن لهذا التجاهل مبرراته عند ابن العبري، ونستأنس بالنصوص من كلا المصدرين لبيان ذلك، فهذا ابن الأثير يعلق على نجاح خطة نور الدين فى أسر جوسلين الثانى قائلاً (٣٧):

«وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين قاسى القلب، وأصابت النصرانية كافة بأسره».

أما ابن العبري فنجد أنه قد أرخ لمرحلتى إسقاط الرها وذلك بصورة موجزة للغاية بالنسبة للمرحلة الأولى حيث قال (٣٨):

«وفى سنة تسع وثلاثين فتح أتابك عماد الدين زنكى مدينة الرها من الفرنج».

أما بالنسبة للمرحلة الثانية فنجد ابن العبري يلجأ إلى تفصيل نسبي استفادة أو نقلاً عن ابن الأثير، والتفصيل الذى جاء يرتبط ارتباطاً مباشراً بتعاطفه مع الصليبيين حيث يقول (٣٩):

«فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملةهم سلاح دار نور الدين، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال له: هذا سلاح دار زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه».

أما ابن الأثير فيقول ^(٤٠): «فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر جمع كثير، وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه».

ومن المقارنة بين ما أورده ابن العبرى وما أورده ابن الأثير يتضح أن الألفاظ والعبارات التى استخدمها ابن العبرى هى نفسها التى استخدمها ابن الأثير مما يؤكد أن ابن العبرى قد استفاد منه فى معلوماته، والفرق البارز بين المؤرخين يتمثل فى حقيقة أن ابن الأثير كان متوازنًا فى عرضه للأحداث، ولم يمل أو يتحيز إلى الجانب الإسلامى على حساب الجانب الصليبي، وعلى العكس من ذلك كان ابن العبرى الذى دفعه ميله أو تحيزه إلى إخوانه فى العقيدة الصليبيين إلى إغفال ما يسىء إليهم أو يقلل من شأنهم، وفى ذات الوقت حرص على كشف كل ما ظنه مسيئًا إلى المسلمين.

٥- فى الفترة الواقعة بين مرحلتى إسقاط الرها الصليبية، وتحديدًا فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (١١٤٨م) وقعت أحداث الحملة الصليبية الثانية ^(٤١) التى استهدفت دمشق مدينة وإمارة بهدف تعويض الخسارة التى لحقت بالصليبيين نتيجة ضياع الرها.

كان المتوقع من ابن العبرى الذى أرخ لمرحلة إسقاط الرها، أن يؤرخ للحملة الثانية غير أنه تجاهلها تجاهلاً تاماً، وكأنها لم تحدث مع ملاحظة أن ابن الأثير قد أرخ لها وبتفصيلاته المعهودة، ولا يصح لأحد أن يزعم أن تجاهل ابن العبرى لهذه الحملة يعود لتفاهة الحدث وقلة أهميته، إذ أنه حدث أساسى من أحداث الحروب الصليبية، ثم لا يغيب عن أذهاننا أن ابن العبرى قد أرخ لأحداث تعد ثانوية للغاية.

والتفسير المنطقى والمقبول لهذا التجاهل يكمن فى حقيقة واحدة ولاشئ سواها، تتمثل فى الفشل الذريع التى منيت به الحملة على الرغم من الحشد الهائل الذى سخر لها والتى عقد عليها الصليبيون الكثير من الآمال أقلها أنها ستعوضهم عن خسارتهم بضياع الرها بالاستيلاء على دمشق، ولكن لم يستحسن ابن العبرى هذا الخسران فأثر تجاهله، حتى ولو كان

على حساب الحقيقة والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبري هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى التأريخ والأمانة العلمية، واتخذ ابن العبري هذا الموقف الذى يتنافى والحيادية فى التأريخ للأحداث، وليته اقتدى بابن الأثير فى حياديته وترفعه عن التأثر بالعواطف بل ليته استفاد من مؤرخ صليبي اشترك مع ابن الأثير فى المعاصرة لعدة عقود ذلك هو وليم الصورى^(٤٢) الذى أرخ لأحداث الحروب الصليبية بدرجة معقولة من الحيادية وخصص عدة صفحات للتأريخ للحملة الصليبية الثانية^(٤٣)؛ بل إنه كتب فى التعليق على إحدى الهزائم التى حاقت بالصليبيين قائلاً^(٤٤):

«ولقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من أشد الخطوب، وفى نكبة كانت من أقبح النكبات التى حاقت بالصليبيين ، ذلك أن بسالتهم التى كانت حتى هذه اللحظة مضرب الأمثال عند الشعوب هوت إلى الحضيض ، وأصبحت سخرية فى عيون الأمم النجسة (يقصد المسلمين) بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها .»

أفلا يحق للباحث أن يقول بأن تأريخ وليم الصورى - وهو صليبي - للحملة الثانية ولل فشل الذريع الذى منيت به يمثل شهادة تدين ابن العبري، وتدين تجاهله المتعمد لهذه الحملة التى تمثل نقطة تحول فى مسار الحروب الصليبية .

رابعاً : الفترة الأيوبية:

أقصد بالفترة الأيوبية تلك الحقبة التى تبدأ من انفراد صلاح الدين الأيوبي بحكم مصر عقب وفاة نور الدين محمود فى شهر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة (١١٧٤م) ، وتنتهى بمعاهدة يافا التى عقدت بين المسلمين والصليبيين فى ربيع الأول من سنة ست وعشرين وستمائة (مارس ١٢٢٩م) وهذا يعنى أن المدى الزمنى لهذه الفترة يصل تحديداً إلى سبع وخمسين سنة^(٤٥).

والفترة الأيوبية متخمة بالأحداث الهامة والتقلبات المثيرة، وفى مقدمة هذه الأحداث نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية مما كان عاملاً مؤثراً فى الانتصار الإسلامى فى حطين^(٤٦) وهى المعركة التى انتصر فيها المسلمون انتصاراً مؤزراً تحت قيادة صلاح الدين أثمر عن نتائج إيجابية عديدة جاء نى مقدمتها استرداد المسلمين بيت المقدس.

ثم كانت غلبة الصليبيين فى معركة عكا^(٤٧) فى أعقاب الحملة الصليبية الثالثة مما ترتب عليه مكاسب عدة لصليبي الجنوب أو بيت المقدس، أما فى الشمال فقد خصص صلاح الدين

سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) للجهاد ضد أنطاكية، وقد تحقق للمسلمين فى هذه الناحية مكاسب لكنها كانت أقل شأنًا مما تحقق لهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ختم صلاح الدين جهاده ضد الصليبيين بصلح الرملة^(٤٨) الذى تم التوصل إليه فى شهر شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة (٢ سبتمبر ١١٩٢م).

وتبعًا لبنود صلح أو هدنة الرملة تجدد النشاط العسكرى بين الجانبين لفترة، ثم فى أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) بدأت طلائع قوات الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى شمال الدلتا المصرية، وهى التى شهدت عدة أحداث هامة أحدثت تغييراً مثيراً لصلاح المسلمين.

كان من أحداث هذه الحملة استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط ومن ثم توغل قواتهم جنوباً صوب العاصمة المصرية، وفى الطريق تصدت لهم القوات الأيوبية فى منطقة شكلت ما يمكن أن نسميه خط الدفاع الثانى والتى كانت مدينة دمياط قبله قد شكلت خط الدفاع الأول، وفى منطقة خط الدفاع الثانى حقق المسلمون انتصارهم الأول على قوات الحملة، وبعده توالى الهزائم على الصليبيين، وزاد من تأزم موقفهم إغراق مدينة دمياط وإغلاق خط الرجعة أمامهم، ورضخوا لشروط الهدنة التى أملاها عليهم ومن مركز قوة الملك الكامل الأيوبي^(٤٩)، وكان أولها انسحابهم من أرض مصر مما يعنى هزيمة مريرة وفشلاً ذريعاً لأحلامهم وأهدافهم من الحملة على مصر.

وبعد سنوات، وفى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) شهدت سواحل أرض فلسطين الحملة الصليبية السادسة، والتى تتمثل أحداثها الرئيسية فى حدثين أولهما استعانة السلطان الأيوبي الملك الكامل بالإمبراطور الألمانى فردريك الثانى^(٥٠) كى يساعده فى مواجهة منافسيه من زعماء البيت الأيوبي، أما الحدث الثانى فهو تخلى الزعيم الأيوبي عن بيت المقدس للإمبراطور الألمانى والذى يعد العنصر الأساسى فى هدنة بافا^(٥١) التى عقدت بين الجانبين فى ربيع الأول سنة ستة وعشرين وستمائة للهجرة (مارس ١٢٢٩م).

* * *

١- كانت أحداث الفترة الأيوبية متزامنة مع المؤرخ ابن الأثير فى فترة نضجه وتشكيل مقوماته بوصفه مؤرخاً، فقد كان حينما وقعت معركة حطين فى أواخر العقد الثالث من عمره؛ أما ابن العبرى فكان يعبر السنوات الأولى من عمره مع أحداث الحملة الصليبية السادسة، وإذا صح للباحث أن يقول عن ابن الأثير أنه كان معاصراً للفترة الأيوبية، فإن ابن العبرى كان

قريب العهد بها، إضافة إلى أنه عاصر المرحلة اللاحقة بما فيها من أحداث الحملة الصليبية السابعة وإسقاط أنطاكية الصليبية .

على أى حال فالعنصر الأساس لهذه الدراسة هو المقارنة بين المؤرخين فى تأريخهما لأحداث المرحلة، ونبدأ بابن الأثير فنجد قد أرخ لكل أحداثها ^(٥٢)، وأهمها الجهود التى بذلها صلاح الدين الأيوبي من أجل مواجهة الخطر الصليبي بإعادة بناء الجبهة الإسلامية ، ومن ذلك نجاحه فى ضم دمشق وحصاراته لحلب ^(٥٣) ثم ضمها ، وأيضاً نجد ابن العبري قد أرخ ^(٥٤) لهذه الحوادث ناقلاً ذلك بصورة نصّيه إلى حد كبير عن ابن الأثير، ومستخدمًا ألفاظه التى عبر من خلالها عن تطورات الأحداث ، ويتبين لنا ذلك من قول ابن الأثير عن الحدث الأخير وهو حصار حلب سنة تسع وسبعين وخمسائة (١١٨٣م) ^(٥٥):

«إنه يسلم- عماد الدين - حلب ، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، وباعها بأوكس الأثمان، أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع... فعجب الناس كلهم من ذلك ، وقبحوا ما أتى ، حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجانة وماءً ، وناداه أنت لا يصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب، وأسمعوه المكروه».

أما ابن العبري فيقول ^(٥٦):

«فتقرر الصلح أن يسلم حلب إلى صلاح الدين، ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج، وجرت اليمين على ذلك ، فباعها بأوكس الأثمان؛ أعطى حصناً مثل حلب ، وأخذ عوضها قرى ومزارع، فقبح الناس كلهم ما أتى».

وكما هو واضح فقد اعتمد ابن العبري على معلومات ابن الأثير، وحتى ألفاظه فى التاريخ لهذا الحدث، ولكن انفرد ابن الأثير بإبراز إيجابية هذا الحدث بالنسبة لدولة صلاح الدين قائلاً ^(٥٧):

«واستقر ملك صلاح الدين بتملكها ، وكان مزلزلاً ، فثبت قدمه بتسليمها ، وكان على شفا جرف هار».

وهذا التعليق من ابن الأثير يحمل مبالغة واضحة ، فقد كان ملك صلاح الدين يزداد رسوخاً وثباتاً سنة بعد أخرى منذ انفراده بحكم مصر أواخر سنة تسع وستين وخمسائة، ولا يغيب عنا أن ابن الأثير فى هذا التعليق كان متحاملاً على صلاح الدين ، وذلك لاعتقاده أنه لم يحفظ جميل أستاذه نور الدين، فعامل ابنه بصورة غير لائقة ، وعلى هذا الأساس فإن

تجاهل أو إغفال ابن العبري لتعليق ابن الأثير لا يخرج عن أحد أمرين أولهما : أن هذا الإغفال جاء تمشياً مع أسلوب الإيجاز الذي اختاره لكتابه ، وفي هذه الحالة يلزم أن نصمت إذاً؛ وثانيهما : أن يكون هذا التجاهل قد حدث لكى لا يقع فى سقطة علمية، وفى الحال يكون التجاهل أمراً طيباً جديراً بالإشادة^(٥٨).

٢- بعد إعادة بناء الجبهة الإسلامية تتابعت سلسلة من الأحداث أبرزها معركة حطين فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) وما ترتب عليها من مكتسبات فى مقدمتها استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس .

وبالنظر إلى موقف مؤرخينا من هذه المعركة نجد أن ابن الأثير قد أرخ لأحداث السنة المشار إليها بدرجة وافية من التفصيل^(٥٩)، وفى إطار هذا التفصيل أبرز عوامل الهزيمة التى لحقت بالصلبيين فى معركة حطين ومن أبرزها حرمان الصليبيين من مصادر المياه، وهو سلاح استخدمه صلاح الدين بقدرة فائقة ، ثم تحدث عن الأسرى الصليبيين ، وعدّد من أسر من زعمائهم وطوائفهم .

أما ابن العبري فموقفه غريب جداً من هذه المعركة حيث نجد أنه تجاهل الإشارة إليها تجاهلاً تاماً بحيث لم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد؛ هذا على حين أنه أرخ لأحداث ثانوية سبقت المعركة، وأخرى أقل شأنًا أيضاً أعقبت المعركة ، فمن الأحداث التى أرخ لها^(٦٠) قبل معركة حطين استيلاء قوات صلاح الدين على طبرية^(٦١)، ومن الأحداث التى أعقبتها استعادة المسلمين لعدد من المدن الإسلامية من بينها قيسارية وحيفا وبافا وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من المدن والبلدات الإسلامية ، وابن العبري فى هذا ناقل عن ابن الأثير فى كل معلوماته التى أوردها^(٦٢).

فما هى مبررات ابن العبري فى إغفال مثل هذا الحدث الهام واهتمامه بدلاً من ذلك بأحداث ثانوية؟! .

إن فكرة الإيجاز أو التلخيص التى اتسم بها منهج ابن العبري فى تأليف كتابه تعنى بدهة التركيز على الأحداث الأساسية ، وتجاهل الأحداث الثانوية غير أن ابن العبري انتهج أسلوباً متناقضاً تماماً، وليس له من تبرير سوى أن قلمه لم يطاوعه فى أن يبرز كارثة حاقت بالصلبيين كتلك التى ألت بهم فى معركة حطين ، وهذا يعنى رضوخه لعواطفه الدينية، وهذا الرضوخ ينافى الموضوعية المطلوبة من المؤرخ فى معالجة الأحداث التاريخية.

٣- وفي الوقت الذي تجاهل فيه ابن العبري معركة حطين، نجده يؤرخ وبدرجة غير مألوفة من التفصيل عن ظروف استرداد صلاح الدين لبيت المقدس (٦٣)، وهو الحدث الذي وقع بعد معركة حطين بعدة أسابيع (٦٤)، ومن الأمور التي حرص على تسجيلها القتال الشديد التي احتدم بين المسلمين والصليبيين على مشارف المدينة، كما سجل الحوار الذي دار بين صلاح الدين وباليان بن نيوزان (٦٥) وما ورد فيه قول الأخير (٦٦):

«أيها السلطان ، أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان؛ فإن رأينا أن الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ، ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً ، ولا تسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الأقصى ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا، وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله وفوت أعزاء أو نظفر كرماء».

وأورد ابن العبري هذا النص وفيه ما لا يخفى على فطنة القارئ الكريم من اعتزاز وتفخر من الزعيم الصليبي، ودعاية للقوة الصليبية وتقليل من الانتصار الإسلامي ، وكأنى بابن العبري قد جعل من نفسه أو من كتابه صورة دعائية لوجهة النظر الصليبية، وتعاطفاً مع أبناء عقيدته وتبريراً للظروف التي أدت إلى هزيمتهم. وهذا يتناقض مع الحيادية والموضوعية المطلوبتين في المؤرخ عند معالجته أحداثاً تقوم على التباين الديني كأحداث الحروب الصليبية.

لقد سجل ابن العبري القواعد التي على أساسها تم استسلام الصليبيين (٦٧)، ولكنه تجاهل عن عمد عدداً من الحقائق أو المعلومات ذات الصلة باستعادة المسلمين لبيت المقدس، وبالرجوع إلى ابن الأثير (٦٨) وهو الأصل الذي نقل عنه ابن العبري معلوماته السابقة نلاحظ هذا التجاهل بالمعلومات المتصلة بإحدى السيدات الروميات من نساء ملوك الروم، وأيضاً المتصلة بملكة القدس، وكذلك ما يتصل ببطريك الفرنج من معلومات.

ونخلص من هذه الجزئية أن ابن العبري سجل حقائق وتجاهل أخرى سجل ما رأى فيه نقاطاً إيجابية للصليبيين، وتجاهل ما قد يحسب نقاطاً مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبي؛ سجل استماتة الصليبيين في القتال لأن هذه الاستماتة تحسب لهم، وسجل الحوار الذي أورده على لسان باليان لأنه رأى فيه عبقرية أقنعت صلاح الدين بقبول فكرة استسلام الصليبيين وتبريراً مقنعاً لهزيمتهم، وفي الوقت نفسه نراه يتجاهل التصرفات النبيلة التي

صلاح الدين إزاء الصليبيين وفي كل هذا منافاة للموضوعية التي يلزم أن يتحلى بها المعنى بالتأريخ والحيادية التي ينبغى أن ينهجها من يؤرخ للأحداث ويرصد تطوراتها.

أما عن موقف المؤرخين حول معركة عكا الذروة فيما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة أو الرد الصليبي على انتصارات صلاح الدين الأيوبي، ففي نصوصهما عن هذه المعركة والمفاوضات التي أعقبتها يجد الباحث تشابهاً شديداً بين ما دونه ابن الأثير^(٦٩) وما دونه ابن العبري^(٧٠) باستثناء كلمة «غدروا» التي أوردها ابن الأثير وكررها أكثر من مرة في ثنايا المفاوضات التي جرت بين صلاح الدين وقادة الصليبيين تعبيراً عن عدم التزام الصليبيين بتعهدهم بعد تسلمهم عكا، وغدرهم بمن فيها من المسلمين، وحذف ابن العبري لهذه الكلمة يبرز تعاطفه مع إخوته في العقيدة، وكأنه بذلك يريد أن ينفي عنهم صفة الغدر.

وإذا كان ما سبق عن موقف المؤرخين من الأحداث المتصلة بملكة بيت المقدس، فمن المناسب التعرف على هذا الموقف من الأحداث المتصلة بأنطاكية، والنشاط الجهادي الذي بذله صلاح الدين ضد الصليبيين في المناطق الشمالية.

٤- وفي هذا الصدد نجد أن ابن الأثير قد فصل الحديث عن جهاد صلاح الدين وما بذله في سنة أربع وثمانين وخمسائة (١١٨٨م) من نشاط حربي في مواجهة الوجود الصليبي في إمارة أنطاكية، وما ترتب عليه من استعادة معظم المدن والمواقع التابعة لأنطاكية والتي قال عنها ابن الأثير^(٧١):

«وهي جميعها من أعمال أنطاكية، ولم يبق لها سوى القصير وىغراس ودرىساك».

هذا وقد استنفذ تأريخ ابن الأثير لهذه العملية الجهادية عدة صفحات زادت على سبع صفحات، أما ابن العبري فقد قفز على هذه الأحداث بحيث اختصرها في سطر وثلاث كلمات فقط قائلاً^(٧٢):

«وفي سنة أربع وثمانين فتح صلاح الدين جبلة واللاذقية وصهيون وشُغْرَبَكاس ودرىساك وىغراس والكرك وصفد».

ويغلب على الظن أن ابن العبري قد لجأ إلى هذا الاختزال الشديد للأحداث كي لا يبرز أو يؤرخ للعديد من الصور المؤلمة لهزائم الصليبيين في أنطاكية، وفي إطار هذا الاختزال تجاهل عبارة ابن الأثير التي اتخذت شكل إحصائية أو تقرير ختامى، وكأنى بابن العبري لا يريد

لقلمه أن يسجل حالة التردى التى وصل إليها الصليبيون فى إمارة أنطاكية التى أمضى فيها حقبة من حياته .

٥- ومن الأحداث الهامة المتصلة بالحملة الصليبية ما يتعلق بالجهود التى بذلها صلاح الدين فى تحصين مدينة القدس فى مواجهة القوات الصليبية التى استهدفتها بعد الاستيلاء على عكا، وقد ترتب على هذا التحصين فشل المحاولات الصليبية اقتحام المدينة المقدسة، وقد أرخ ابن الأثير لهذا الأمر بدرجة مناسبة من التفصيل^(٧٣) على حين تجاهل ابن العبرى الموضوع برمته، وهذا يتسق مع طريقته فى تجاهل النقاط السلبية بالنسبة للصليبيين، ومما يساعدنا فى هذا الاستنتاج أننا نجد ابن العبرى يؤرخ بتفصيل غير مسبوق^(٧٤) عن نجاح الصليبيين فى معركة عكا، وذلك فى السطور التى تسبق مباشرة الحديث عن تحصين القدس، وهو بهذا ينتقى الأحداث التى يؤرخ لها بحيث تكون من النوع الذى يسجل انتصاراً أو غلبة للصليبيين، أما تلك التى تفيد إخفاقاً أو فشلاً أو هزيمة لهم فإنه غالباً ما يتجاهلها أو يسقطها من تأريخه، وإذا وجد نفسه مضطراً إلى ذكرها فإنه يشير إليها إشارة عابرة أو بطريقة مختزلة يترتب عليها إخلال بالمعنى المقصود، وهذا الأسلوب لا يتوافق مع الحيادية والموضوعية اللتين يجب على المؤرخ التحلى بهما عند تدوين التاريخ.

أما آخر الأحداث الهامة المتعلقة بالحملة الصليبية الثالثة فهو صلح الرملة^(٧٥) الذى ختمت به تلك الحملة، وعن هذا الحدث نجد أن ابن الأثير يؤرخ له بصورة مناسبة^(٧٦) حيث أوضح أن المبادرة فى طلب الهدنة جاءت من جانب ملك إنجلترا^(٧٧) الذى دفعته ظروف متعددة إلى اتخاذ المبادرة؛ كما يبين ابن الأثير التنازلات التى قدمها ريتشارد قلب الأسد وأورد تفاصيل لها أهميتها بالنسبة للحدث فى ذاته، وهى أيضاً هامة بالنسبة لدارسى التاريخ إذ أنها تلقى مزيداً من الضوء على المفاوضات التى تمت بين الجانبين، كما تعرفنا بوضعهما فى المواجهة العسكرية، ولعلنى فى إبراز نص ابن الأثير حول الحدث المذكور ما يوضح ما ذهبت إليه، يقول ابن الأثير^(٧٨):

«وسبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر، وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر، وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه، وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين فى الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولاً...، فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة، ونزل عن تنمة عمارة عسقلان، وتخلّى عن غزة والداروم والرملة».

وفى إطار تعليق ابن الأثير على الصلح، وعلى لسان الزعيم الصليبي باليان بن بارزان نقل ابن الأثير قوله لصلاح الدين^(٧٩):

« ما عمل أحد فى الإسلام ما عملت، ولاهلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلهم أنت، وبعضهم مات، وبعضهم غرق».

ونتبين أهمية هذا النص الذى أورده ابن الأثير من أهمية الإحصاء الذى انفرد به عن ضخامة الخسائر البشرية التى تكبدها الصليبيون، وكانت السبب المباشر لطلبهم الصلح مع صلاح الدين .

ونلتفت إلى ابن العبرى فنجد أنه أرخ للصلح أو الهدنة فى سطر واحد فقط^(٨٠)، ومن السهل على الباحث أن يدرك سر تجاهله للتفاصيل المرتبطة بالهدنة سواء فى أسبابها أو فى نتائجها إذ أنها تفاصيل تبرز تغيراً لا يستهان به فى موازين القوى لصالح المسلمين ، وإلا لما أقدم ريتشارد على التنازلات التى قدمها، وهى تنازلات تتصل بالسيادة والأرض كما هو واضح من نص ابن الأثير.

٦- توفى صلاح الدين فى شهر صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة (فبراير ١١٩٣م) أى بعد حوالى ستة أشهر من عقد صلح الرملة ، وبعد وفاته تتابعت سلسلة من التطورات الداخلية فى دولة صلاح الدين ، كما جرت تطورات سياسية على الجانب الصليبي، ولايعنى البحث الذى بين أيدينا هذه أو تلك حتى جاءت سنة ستمائة من الهجرة (١٢٠٢-١٢٠٣م)، وفيها جرت أحداث الحملة الصليبية الرابعة، وهى الحملة التى أسفرت عن استيلاء الصليبيين على الإمبراطورية البيزنطية وبالتالى تأسيس نظام كاثوليكي^(٨١) عمر حوالى ستين سنة.

أرخ ابن الأثير^(٨٢) للحملة الصليبية الرابعة، وقدم فى ثنايا تأريخه معلومات مفيدة ، وكذلك أرخ ابن العبرى^(٨٣) لهذه الحملة أيضاً، ولكن بدرجة تكاد تكون تفصيلية على غير عادته، ومن ذلك تأريخه للمعاملة القاسية التى عومل بها الناس على يد الصليبيين وزعمائهم، ولم يسلم من ذلك رجال الدين البيزنطيون، ولا كنيستهم آياصوفيا ولا أناجيلهم ولا صلبانهم.

صحيح أن ما أرخ ابن العبرى لمذبحة القسطنطينية قد نقله بصورة شبه كاملة عن ابن الأثير

وذلك على غير المؤلف من هذ المؤرخ الذى تجاهل من قبل المذبحة التى ارتكبها الصليبيون مع مسلمى معرة النعمان ، وذلك على الأرجح كى لايجعل من نفسه شاهداً على جرائم إخوانه فى العقيدة، أما إذا تعلق الأمر بنصارى الشرق (الأرثوذكس) (٨٤) - وهو منهم - فسيكون الأمر مختلف تماماً، وسيميل لصالحهم على حساب الصليبيين وهم (كاثوليك) ، ثم لانتسى أنه كان أحد رجال الدين النصارى ممن يحملون لكنيسة آيا صوفيا ورجال الدين النصارى فيها انتماءً روحياً وفكرياً وزمالة قديمة.

٧- أما عن الحملة الصليبية الخامسة فالعجيب تجاهل ابن العبرى هذه الحملة تجاهلاً يكاد يكون تاماً حيث أسقطها من مؤلفه وكأنها لم تكن (٨٥)، ولكن سرعان ما يزول هذا التعجب إذا عرفنا - كما سبق أن أشرت - أنه قد تجاهل الحملة الصليبية الثانية، والقاسم المشترك بين الحملتين - وهو ما دعى ابن العبرى إلى الصمت عن تأريخ الحملة - هو الفشل الذريع الذى منيت به الحملتان، وعجز قادتهما عن تحقيق أى من الأهداف التى كانت مؤملة منهما.

والغريب فى الأمر أن ابن العبرى قد أرخ وشىء من التفصيل (٨٦) المثير للانتباه للاجتياح المغولى لمناطق المشرق الإسلامى، وذلك ضمن أحداث سنة سبع عشرة وستمائة (١٢٢٠-١٢٢١م) ، فأرخ لسقوط بخارا، وكذلك سمرقند وغيرها من مدن وأقاليم إسلامية علماً أن الحملة الصليبية الخامسة امتدت أحداثها من أواخر سنة أربع عشرة وستمائة (١٢١٨م) إلى سنة ثمانى عشرة وستمائة (١٢٢١م) ، أى أن أحداث الاجتياح المغولى تقع زمنياً مع أحداث الحملة الصليبية الخامسة.

وكما سبق أن أشرت فقد أرخ ابن العبرى ضمن أحداث سنة ثمانى عشرة وستمائة لنهاية الحملة ، وبالتحديد لانسحاب الصليبي من مدينة دمياط التى سبق أن استولى عليها فى السنة قبل الماضية ، وقد نقل ما دونه من معلومات عن ابن الأثير ، ولكنه حذف ما لم تقبله عاطفته الدينية، وبالذات فى إغفاله الإشارة إلى رهائن الصليبيين وكانوا عشرين من قادتهم فى مقدمتهم ملك عكا (٨٧) ونائب البابا (٨٨)، وأيضاً إغفاله ذكر حالة الفرح والابتهاج التى عمت المسلمين نتيجة لانسحاب الصليبيين ، ولتكون هذه المقارنة أكثر وضوحاً أورد ما قاله المؤرخين عن ذلك الانسحاب ، يقول ابن الأثير (٨٩):

«وتموا الصلح على تسليم دمياط، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ، انتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن

على تسليم دمياط؛ ملك عكا، ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكًا، وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها، فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين... وكان يومًا مشهودًا».

ويقول ابن العبري (٩٠):

«فأجابوا- يقصد الصليبيين - إلى الصلح على تسليم دمياط وإطلاق ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وإطلاق ما بأيدي المسلمين من أسراهم، وقرر الصلح عامًا مع الدكاد نائب البابا، وملك عكا، وملوك فرنجية ومقدمى الداوية والاستبارية».

ونظرة إلى النصين نلاحظ أن عاطفة ابن العبري الدينية لم تطاوعه في تسجيل موقف مهين بالنسبة للصليبيين، كما لم تطاوعه في تصوير ابتهاج المسلمين وفرحهم، وبين هذا وذاك كان صمت ابن العبري على حساب الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية.

٨- ونقطع من الزمن حوالى ثمانية أعوام، وبالتحديد إلى منتصف سنة خمس وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) حيث شهدت سواحل بلاد الشام بداية الحملة الصليبية السادسة^(٩١)، وذلك بوصول مقاتلين من قوات الإمبراطور الألماني فردريك الثانى، وأهم ما يميز هذه الحملة أنها كانت هادئة ومع هدوئها حققت مكاسب مهمة على حساب المسلمين، وفي مقدمتها تسليم مدينة القدس للإمبراطور الألماني، وذلك فى الأول من ربيع الثانى من سنة ست وعشرين وستمائة (فبراير ١٢٢٩م) (٩٢).

لقد أرخ كل من ابن الأثير^(٩٣) وابن العبري^(٩٤) للحملة الصليبية مع تباينهما فى ذلك من حيث التفصيل والإيجاز كما هى عادة المؤرخين، ويعنينا من هذا التاريخ تأريخهما لنتائج الحملة بصفة خاصة، والتباين الشديد بينهما فى هذه الجزئية بالذات رغم اعتماد ابن العبري فى معلوماتها على ابن الأثير إلا أنه كان بعيداً جداً فى تفكيره وأهدافه ومضمون معلوماته عن ابن الأثير، الأمر الذى يعطينا مثلاً واضحاً على أهمية الفكر التاريخى لدى المؤرخ، وأهمية الصياغة فى التعبير عن هذا الفكر (أهدافه ومراميه)، ولأهمية ما أرغب توضيحه فى هذه المقارنة بالذات أورد نصى المؤرخين عن هذه الجزئية، ومن ثم أعلق عليهما، وأرغب من القارئ الكريم التدقيق جيداً فى النصين والتوقف عند كل كلمة فيهما.

بقول ابن الأثير:

«فلما اجتمعا (يريد الملك الكامل الأيوبي وأخاه الملك الأشرف) ترددت الرسل بينهما وبين الأتبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وملطية وغير ذلك بيد المسلمين، ولا يسلم للفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه».

ويقول ابن العبري:

«وفى سنة خمس وعشرين وستمائة ترددت الرسل بين الفرنج والملك الكامل فى طلب الصلح فاتفق على تسليم البيت المقدس إلى الفرنج فتسلموه ومواضع كثيرة آخر من بلاد الساحل، وإنما أجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال والأموال، فخاف على بلاده أن تؤخذ عنوة فأرضاهم بذلك».

نصان قصيران ولكنهما يكشفان للباحث عن حقيقة خطيرة، فإلى جانب عدم دقة ابن العبري فى تحديد سنة الصلح وجعلها سنة خمس وعشرين وستمائة وهى سنة ست وعشرين وهذا مأخذ له أهميته، فهو أيضاً قد عمد إلى التزييف بل إلى قلب الحقائق رأساً على عقب، وليس هذا الحكم من باب التحامل على ابن العبري، فما أردته من إيراد النصين وتدقيق القارئ الكريم فيهما وفى كلماتهما إلا لتأكيد هذه الحقيقة.

إنه من خلال نص ابن الأثير والذي أيدته المصادر الصليبية^(٩٥) نعرف أن الذى تم التنازل عنه هو بيت المقدس ومواضع يسيرة لا تذكر، وأن عدة بلدات مثل الخليل ونابلس والغور قد بقيت بأيدي المسلمين، بل وفوق ذلك فإن الحرم القدسي بما حواه من مسجد الصخرة والمسجد الأقصى قد بقيا تحت السيادة الإسلامية.

غير ابن العبري لم يرق له حجم هذه التنازلات، فجاءت عبارته «فتسلموه ومواضع كثيرة آخر»، ومن أجل إحكام التضليل والتزييف أضاف عبارة من بلاد الساحل، وفرق كبير بين الحقيقة ومقصد ابن العبري.

هذه ناحية، وناحية أخرى يبرز من خلالها التزييف المتعمد من ابن العبري، وتتمثل فى إظهار أى الجانبين كانت ظروفه أشد ضغطاً عليه ودفعاً له إلى طلب الصلح، فإبن العبري ودون لبس يصرح أن الكامل إنما أجابهم لما رأى من كثرة عساكرهم وإمداد البحر لهم بالرجال... على حين أن ابن الأثير وبوضوح أيضاً لم يشر إلى هذه الناحية، بل ما ألمح إليه هو تحسن

الوضع العسكرى للملك الكامل فى الفترة الأخيرة عنه مع بداية الحملة، وقد برز هذا التحسن بعد مؤازرة أخيه الملك الأشرف له فى مواجهة الصليبيين.

وإضافة إلى هذا تبرز مصادر أخرى إسلامية وغير إسلامية ضعف موقف الإمبراطور الألمانى وأن الوقت ليس فى صالحه والضغط تزداد عليه، وأنه ليس لديه القوة الكافية التى يستطيع بها تحقيق أى انتصار ولو كان هزلاً على المسلمين .

يقول رنسيमान (٩٦):

«على أن فردريك تعرض للضغط فترة من الزمن ، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفى للقيام بحملة كبيرة».

وما أشار إليه رنسيमान تحدث عنه عدد من المؤرخين المسلمين (٩٧) بدرجة جيدة من التفصيل والوضوح، والنص على تسليم القدس، وأن تبقى خراباً ولا يحدد سورها، وعليها والى من المسلمين يكون مقره البيرة، وأن الحرم الشريف بما حواه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى يكون بيد المسلمين، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، وأن ما حصل عليه الفرنج إضافة إلى القدس مجموعة قرى معدودة تقع فى الطريق بين عكا والقدس كى لاتكون مصدر تهديد للعابرين من الصليبيين بين المدينتين.

واعتقد أن صلحاً هذه شروطه أو بنوده ليس فيه من المكاسب سوى الحد الأدنى منها، وما أوردته المصادر الإسلامية من تفصيل حول شروط الصلح ليس تعاطفاً منها مع الكامل الأيوبي لأن أصحابها مسلمون لا يستبعد تعاطفهم معه بل هى الحقيقة التاريخية التى نقلتها تلك المصادر بكل أمانة وصدق ، ومع هذا يمكن حسم مثل هذا الاتهام لو حدث من خلال الوثيقة التى أخذت شكل خطاب استعطاف بعث به الإمبراطور الألمانى إلى الكامل الأيوبي فى بعض مراحل المفاوضات، وأنه يكشف بوضوح وصراحة أن حاجة الإمبراطور إلى الهدنة كانت تفوق بكثير حاجة الكامل الأيوبي إليها، كما يكشف عن حرج موقف الإمبراطور أمام شعبه وأمام البابوية التى أصدرت بحقه قرارى حرمان ، وسمحت بالاعتداء على ممتلكاته ؛ وما جاء فى هذا الخطاب (٩٨):

«وأنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خائياً انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس

فهى أصل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر».

ونخلص مما سبق إلى القول بأن ابن العبرى قد عمد إلى تشويه الحقائق وتزييفها ، وهذا يدفع إلى عدم الثقة فى تاريخه لبعض الحوادث ولاسيما تلك التى تمس عواطفه الدينية.

خامساً : المؤرخان والأحداث الثانوية:

إيفاءً بمتطلبات منهجية البحث يلزم أن نتعرف على موقف المؤرخين المذكورين بالنسبة لعدد من الأحداث الثانوية، حتى وإن جاءت المعطيات خفيفة الدلالة فيما نحن بصددده فاليعذر القارىء الكريم ذلك رغبة فى استيفاء كافة المواضع التى تتحقق من خلالها عناصر المقارنة المطلوبة بين المؤرخين، ويؤيد هذه الرغبة توفر أحداث عديدة منها ما يتصل بالفترة السابقة على صلاح الدين، ومنها ما يتصل بالفترة الأيوبية جمعتها من وجهة نظرى صفة الثانوية من حيث الأهمية، وأعلق عليها معتمداً على تسلسلها الزمنى.

١- الحدث الأول يتعلق بالفاطميين ودورهم فى إثارة الحروب الصليبية، وإذا كان ابن الأثير قد أبان شكه وعدم تأكده من حقيقة هذا الدور (٩٩)؛ فإن ابن العبرى قد تجاهل هذه الإشارة وأعرض عنها ، وقد يكون بهذا محققاً حيث رأى أن ابن الأثير قد أورد هذا الحدث فى إطار الشك مبتدئاً حديثه بكلمة (وقيل)، ومختتماً إياه بكلمة (والله أعلم) ، ولعل هذا الشك هو ما دعى ابن العبرى إلى تجاهل الحدث وعدم التأريخ له.

٢- الحدث الثانى هو حقيقة تعهد قادة الحملة الصليبية الأولى للإمبراطور البيزنطى (١٠٠)، والتمثل فى حلفهم له أن يسلموا إليه أنطاكية ، وهو التعهد الذى أوردته المصادر الصليبية (١٠١).

فإن الأثير قد أورد هذا التعهد فى قوله عن الإمبراطور البيزنطى (١٠٢):

« لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لى أنكم تسلمون إلى أنطاكية».

أما ابن العبرى فقد أغفل الإشارة إلى هذا التعهد (١٠٣)، وهذا الإغفال مستغرب منه بحكم نصرانيته الشرقية الأرثوذكسية ، وانتماؤه الدينى والعاطفى لها ضد الغربية الكاثوليكية.

٣- أما الحدث الثالث فعن استيلاء الفاطميين على بيت المقدس فى شعبان من سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٦م) فى أجواء الحملة الصليبية الأولى، وهو الحدث الذى أوردته مصادر كثيرة إسلامية وغير إسلامية ومن بينها ابن الأثير^(١٠٤) وابن العبري^(١٠٥)، وإذا كان هذا الأخير قد أرخ للحدث بالفاظ ابن الأثير تقريباً، ومع أنه قد جعل تاريخ هذا الحدث سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وما فى ذلك من خلل منهجى وعدم دقة فى تتبع الأحداث، فالتساؤل الذى يرد هو لماذا أرخ ابن العبري للاستيلاء الفاطمى على بيت المقدس فى الوقت الذى تجاهل فيه الإشارة إلى تعهد القادة الصليبيين على أنفسهم للإمبراطور البيزنطى؟ ويستطيع البعض أن يجب على هذا التساؤل بأن الاستيلاء الفاطمى على بيت المقدس حدث بارز عرفه الجميع بينما التعهد كان محصوراً فى دائرة ضيقة، وقد يفسر آخرون موقف ابن العبري من الحدثين بأنه أرخ للحدث الذى يوضح حالة العداء والانشقاق بين المسلمين فى حين تجاهل الحدث الذى يبرز حالة العداء بين النصارى، وكذلك التعهد الذى قطعه قادة الصليبيين على أنفسهم، وفى حالة عدم وفائهم به يعنى نقطة قائمة فى تاريخهم، وهو لا يريد لمثل هذه النقاط أن تظهر وإن ظهرت فلا يكون ظهورها من قبله.

٤- ومن الأحداث الثانوية وقوع حاكم الرها الصليبي القمص بردويل (بلدوين)^(١٠٦) فى أسر المسلمين سنة سبعة وتسعين وأربعمائة (١١٠٤م)، ثم إطلاق سراحه فى سنة اثنتين وخمسمائة (١١٠٨م)، وعن الحدث بشقيه نجد أن ابن الأثير^(١٠٧) قد أرخ له بينما ابن العبري تجاهل الحديث عنه، وليس مقبولاً أن يقال إن عدم إشارة ابن العبري إلى الحدث ناتج عن عدم معرفته وهو الناقل من ابن الأثير أولاً ولأهمية الحدث ثانياً وكون الحدث على درجة كبيرة من الأهمية، وارتباطه بأكثر من سنة وبعده من قادة الصليبيين من ناحية ثالثة، وفى ضوء هذه الاعتبارات فإن الأقرب إلى القبول هو أن ابن العبري تجاهل الخبر لأنه يمثل نقطة قائمة فى تاريخ الصليبيين، وليس لهذا التجاهل من تبرير آخر يمكن الاطمئنان إليه.

٥- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وخمسمائة (١١٠٩م) استيلاء طنكرى^(١٠٨) حاكم أنطاكية الصليبية على عدد من الثغور الإسلامية فى بلاد الشام، وقد أرخ ابن الأثير^(١٠٩) وبدرجة مقبولة من التفصيل لهذا الاستيلاء ضمن أحداث السنة المذكورة والسنة التالية، وقد التفت ابن العبري^(١١٠) هو الآخر لهذا الأمر، وتحدث عنه بصورة موجزة تتفق وطبيعة تأريخه، وطالما أنه يمثل انتصاراً صليبيّاً وهزيمة للمسلمين، ففيما بين كلمات النص

الذى تضمن الحدث يلمس القارىء غبطة ابن العبرى وفرحه لهذا الانتصار، وحرصه على إبراز ضعف المسلمين سواء كانوا من أتباع السلطنة السلجوقية أم الخلافة الفاطمية.

٦- ومن أحداث السنة المذكورة سنتى خمس وخمسمائة وست وخمسمائة الحملات الحربية التى قادها مودود (١١١) حاكم الموصل بدعم وتوجيه من السلطان السلجوقى (١١٢) ضد مدينة الرها وتوابعها، فعن هذه الحملات (١١٣) نجد أن مؤرخينا لم يؤرخا للحملة الأولى فى سنة ثلاث وخمسمائة (١١٠م)، وانفرد ابن الأثير فى التأريخ (١١٤) للحملة الثانية فى سنة خمس وخمسمائة مبرزاً إخفاق المسلمين فى استعادة المدينة، وانسحابهم منها لملاقاة الصليبيين الذين تجمعوا للدفاع عنها. أما عن الحملة الثالثة فى أول السنة التالية، فإضافة إلى تأريخ ابن الأثير لها (١١٥) نلاحظ أن ابن العبرى لم يغفل التأريخ (١١٦) لهذه الحملة لأن فيها انتصاراً صليبيّاً على المسلمين، وما تأريخه لها إلا انسجاماً مع عاطفته الدينية التى بادرت إلى تسجيل الانتصار الذى حققه الصليبيون على المسلمين، وهذا واضح جداً فى أمر هذه الحملات، فالنجاحات التى حققها المسلمون فى الحملتين السابقتين رغم فشلهم فى استعادة المدينة لا تستحق من ابن العبرى الرصد والتأريخ حتى ولا الالتفات والإشارة إليهما دون نجاحاتهما، ولا مبرر لهذا عند ابن العبرى سوى ما ذكر من أن عاطفته الدينية وفرحه لتحقيق أى انتصار على المسلمين سببان كافيان فى نظره للتأريخ ورصد الأحداث بدلاً من الأمانة والحيادية.

٧- فى سنة سبع عشرة وخمسمائة (١١٢٣م) استولى بلك بن بهرام بن أرتق (١١٧) على حلب بهدف دعم الجهاد الإسلامى فى مواجهة التوسع الصليبي، وفى السنة التالية استشهد وهو محاصر لمنبج، فعن هذين التطورين نجد كلاً من ابن الأثير وابن العبرى (١١٨) يؤرخان لهما حسب منهجيتيهما فى التفصيل لابن الأثير والإيجاز لابن العبرى، ولكن بالنسبة للحدث الثانى نلاحظ أن ابن العبرى من خلال مقارنة نصه بنص ابن الأثير عن ذات الحدث قد تجاهل الجزئيات المتصلة بالصليبيين، وعلى الأرجح أنه حرص على هذا التجاهل لأن الهزيمة لحقت بهم، وهو لا يريد لقلمه أن يسجل انتكاستهم، وهذا يعنى أنه جعل عواطفه أو ميوله تتحكم فى تأريخه للأحداث، وما يتبع ذلك من مجافاة للموضوعية والحيادية.

٨- وبعد سنتين أى سنة عشرين وخمسمائة (١١٢٦م) استشهد قسيم الدولة آقسنقر البرسقى (١١٩) حاكم الموصل، وقد أرخ لهذا الحدث كل من ابن الأثير (١٢٠) الذى ألحق به

تفصيلات عديدة لها فائدتها ، وكذلك ابن العبري ^(١٢١) ، ولكنه لم يلق بالاً للتفصيلات التي أوردها ابن الأثير - خصوصاً وأنه ينقل عنه - عدا جزئية واحدة يبدو أنها راقته له واتفقت مع ميوله ، وهي المتعلقة بالصلبيين ، ومعرفتهم خبر استشهاد قسيم الدولة قبل معرفة ولده عز الدين مسعود ^(١٢٢) بذلك .

وللباحث أن يتساءل عن حقيقة الدوافع التي دعت ابن العبري إلى اختيار هذه الجزئية دون الجزئيات الأخرى التي ألحقها ابن الأثير بخبر استشهاد البرسقي ، وأظنه ليس من قبيل المجازفة أن أقول بأن الدوافع تتلخص في إعجاب ابن العبري بالصلبيين ومهارتهم في التجسس أو تصيد الأخبار ، وهو ما لم يكن متوفراً للمسلمين ، وهذا بدوره يؤكد انسياق ابن العبري وراء عواطفه وميوله الدينية .

٩ - وعن استشهاد عماد الدين زنكي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (١١٤٥م) ، فقد أرخ مؤرخانا ^(١٢٣) لهذا الحدث ، وكما هي عادة ابن العبري فقد استقى معلوماته عن ابن الأثير ، وأيضاً استخدم مفرداته وعباراته ، وفوق كل ذلك استخدم جملة الاعتراضية ، وفي إطار هذا التقيد الشديد حذف كلمة واحدة لم تطاوعه عواطفه على ذكرها ، وهي كلمة الشهيد التي أوردها ابن الأثير صفة لعماد الدين ، وأسقطها ابن العبري ، وجاء هذا تعبيراً عن ما كان يكرهه من عدم ارتياح أو بغض لعماد الدين ، وما ذلك إلا لأن عماد الدين قد وجه إلى الصليبيين العديد من الضربات .

ونلاحظ أيضاً أنه اختلف مع ابن الأثير في توقيت هذا الحدث فجعله قبل سنة من حدوثه أي في سنة أربعين وخمسمائة (١١٤٤م) ، ولا مبرر لهذا الاختلاف ، فإن لم يكن سقط نظر من ابن العبري ، فهو بالتأكيد مثال على موقفه السيء من الشهيد عماد الدين وسوء نظره وعدم ارتياحه له .

١٠ - ومن الأحداث المرتبطة بسنة أربع وأربعين وخمسمائة (١١٤٩م) غزو نور الدين محمود لإمارة أنطاكية ، فقد غزاها مرتين حقق فيهما انتصارين كبيرين ، وبالنظر إلى مؤرخينا نجد أن ابن الأثير قد أرخ للغزوتين بشيء مناسب من التفصيل ^(١٢٤) أما ابن العبري فنجد أنه يؤرخ فقط للغزوة الأولى ^(١٢٥) متجاهلاً الثانية ، ويبدو أن تجاهله لها ارتبط بروعة الانتصار الذي تحقق فيها لدرجة الإشادة الكبيرة من الشعراء ، وهنا يبرز تحكم ميول ابن العبري في رؤيته للأحداث وفي تأريخه لها .

١١- وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (١١٥٧م) تملك نور الدين محمود حصن شيزر^(١٢٦)، وبالنظر إلى ابن الأثير نراه يؤرخ لهذا التطور بدرجة جيدة من التفصيل^(١٢٧)، وأبرز العامل الأساسى فى حرص نور الدين على تملك شيزر، وهو اتصال أصحاب الحصن بالصلبيين وتعاونهم معهم مما يعنى عقبة فى المخططات الجهادية لنور الدين، كما أرخ أيضاً للحدث الذى زامن هذا التطور، وأعنى به الزلزلة التى دمرت كثيراً من المدن الشامية، ومن بينها حصن شيزر.

أما ابن العبرى والذى نقل معلوماته عن ابن الأثير، فنراه يؤرخ للزلزلة والأضرار التى اقترنت بها^(١٢٨) دون أن يلتفت إلى التطور الذى جرى فى حصن شيزر، وهو بهذا يعبر بطريقة غير مباشرة عن كراهيته لما حدث، وعدم رضاه للنتائج المترتبة عليه، وما فيها من أضرار بالمصالح الصليبية.

١٢- ومن أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٦٤م) تدخل كل من نور الدين والصلبيين فى شؤون مصر الفاطمية، وملحظ تأريخ ابن الأثير^(١٢٩) لإحدى مراحل هذا الصراع وبدايات هذا التدخل، وتابعه فى ذلك ابن العبرى^(١٣٠)، ولكن بإيجاز يتفق وطبيعة كتابه.

ومن أحداث السنة المذكورة انتزاع نور الدين لحصن حارم^(١٣١) وقلعة بانياس^(١٣٢) وهما الحداث اللذين أرخ لهما ابن الأثير^(١٣٢) وأبرز قيمتهما فى إرغام الصليبيين على الانسحاب من مصر، أما ابن العبرى فقد تجاهلها تماماً، وهذا التجاهل تعبير عن عدم رضاه على الانتصار الإسلامى والهزيمة الصليبية، والتطورات التى أعقبت ذلك، وبالذات الخسائر التى لحقت بالصلبيين نتيجة ضياع الموقعين، وعدم تأريخ ابن العبرى لما فيه قوة للمسلمين وانتصار لهم أحد الأمثلة العديدة التى يبين فيها كرهه للمسلمين وتعاطفه مع الصليبيين، وهو ما أملت عليه عواطفه الدينية.

١٣- وعن تأريخ الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة خمس وستين وخمسمائة (١١٦٨-١١٦٩م) ونجاح المقاومة الإسلامية بقيادة صلاح الدين فى صدها وإحاق هزيمة قاسية بالصلبيين، فقد أرخ ابن الأثير لتفاصيل هذه الحملة^(١٣٤)، ويُن الرابطة بين هذه الحملة ونجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر فى تاريخ سابق، وقد قام بتغطية جيدة للحدث وتطوراته اللاحقة حتى نهاية الإخفاق الصليبي وهزيمتهم، ومن ثم انسحابهم من مصر.

أما ابن العبري فكما هي عادته غالباً فقد تجاهل الحملة، ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد، ولا يفسر تجاهل مؤرخ لحدث له أهميته في التاريخ عموماً وفي تاريخ الفترة خصوصاً إلا لأسباب ذاتية تتعلق بالمؤرخ نفسه، إذ كيف تطاوعه نفسه، وبوافقه قلعه على تسجيل الهزيمة لإخوانه في العقيدة، وهي شر هزيمة عبّر عنها ابن الأثير بقوله :

«رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ، ووجدوا بلادهم خراباً ، وأهلها بين قتيل وأسير».

وهذا يعنى أن ابن العبري لم يتخلص من عواطفه وميوله وأحقاده على المسلمين وبغضه لهم وجزعه من انتصاراتهم، مما جعله يقف وبكل وضوح مع المعسكر الصليبي ضد المسلمين.

١٤- ومن الأحداث الثانوية المقايضة التي تمت بين صلاح الدين وعماد الدين زنكى (١١٣٥) ضمن جهود الأول في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وسبق أن ذكرت بأن مؤرخينا قد أرحا لهذه المقايضة ، وأوردت نصيهما في هذا الشأن (١١٣٦)، والذي نلاحظه من نص ابن الأثير أنه سقّه في جزئية منه قبول عماد الدين لهذه المقايضة ، ونقل ابن العبري هذا التعليق بالفاظه من ابن الأثير، ومعروف أن هذا الأخير كان يميل إلى البيت الزنكى ويتعاطف مع ذرية عماد الدين مؤسس هذا البيت ، ويرى أن صلاح الدين لم يتعامل معهم بالمستوى اللائق الذي كان يجب عليه ويستحقونه ، نظراً لأن كبير البيت الزنكى ومن بعده ابنه نور الدين هما صاحباً الفضل في إقامة الدولة الأيوبية، لذا نجد في تأريخه غمزات وإشارات ذات دلالة على هذا الموقف من ابن الأثير والمقايضة التي تمت، وتقبيحه لها يمكن أن تندرج في هذا الإطار .

وابن العبري - الذي ينقل عن ابن الأثير- يحرص على أن يؤرخ لمثل هذه الأحداث التي تظهر الانقسام بين المسلمين وقادتهم ، وتحط من شأنهم وشأن صلاح الدين بصفة خاصة، وهذا ليس لأنه ينقل عن ابن الأثير كل شيء، ولكن لأنه يختار ما ينقل وفق مزاجية مرتبطة بعقيدته وميوله وعاطفته من ناحية، ولأنه باستيلاء صلاح الدين على حلب يكتمل طوق الحصار حول الصليبيين من ناحية ثانية، وفي هذا تفوق حاسم لصلاح الدين عليهم، وهذا ما لا يستسيغه ابن العبري ولا يطمئنه ولا يرضيه وهو المتعاطف مع الصليبيين.

١٥- ومن أحداث سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة (١١٨٦م) ما أقدم عليه أرناط (١١٣٧) حاكم الكرك من نقضه الهدنة (١١٣٨) التي كانت معقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية، وهو ما شكل السبب المباشر للتطورات التي وقعت في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، وأبرزها معركة حطين التي انتصر فيها المسلمون ، وانتزعوا بيت المقدس من

الصلبيين، فقد أرخ ابن الأثير لتصرف أرناط تفصيل مناسب ، وذلك تحت عنوان (غدر أرناط) (١٣٩)، أما ابن العبري فقد تجاهل هذا الحدث تمامًا رغم أنه أرخ لأحداث أقل شأنًا وقعت في السنة نفسها أوفى السنة السابقة عليها (١٤٠).

١٦- ومن الأحداث المتصلة بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م) استعصاء مدينة صور (١٤١) على صلاح الدين وجنوده حين حاول فتحها، فقد أرخ مؤرخانا للحدث (١٤٢) ناقلًا ابن العبري التفصيلات التي أوردها ابن الأثير في هذا الشأن .

١٧- ومن أحداث سنة أربع وثمانين وخمسمائة (١١٨٨م) الهدنة التي وافق صلاح الدين على عقدها مع حاكم أنطاكية الصليبية (١٤٣)، فقد أرخ لها كل من ابن الأثير (١٤٤) وابن العبري (١٤٥)، ولكن في الوقت الذي يوضح فيه ابن الأثير أن المبادرة في ذلك جاءت من قبل الحاكم الصليبي، نلاحظ أن ابن العبري يبدأ نصه لهذا الحدث بقوله : «وهادن صلاح الدين»، فكأنه يحيل المبادرة بالهدنة إلى صلاح الدين دون أن يوضح التطورات التي مهدت لها، وجعلت حاكم أنطاكية يبادر إلى عقدها مع صلاح الدين، وهذا ينسجم مع أسلوب ابن العبري في إظهار القوة الصليبية وتفوقها على المسلمين.

ومن أحداث السنة ذاتها موقف صقلية وملكها وليم الثاني (١٤٦) من انتصار حطين، وهزيمة الصليبيين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧م)، ففي الوقت الذي يورخ فيه ابن الأثير (١٤٧) لهذا ضمن أحداث سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩م) نجد أن ابن العبري يتجاهله ولا يشير إليه ولو بعبارة مقتضبة ، ولعل مرد هذا التجاهل هو أن قوات صقلية لم تحقق نجاحًا يذكر ضد القوات الإسلامية.

١٨- ومن الأحداث الثانوية المرتبطة بسنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧م) انتزاع الملك العادل الأيوبي (١٤٨) مدينة يافا من الصليبيين ، وتمكن الصليبيين من السيطرة مؤقتًا على بيروت، وقد أرخ ابن الأثير (١٤٩) لهذه التطورات وبتفصيل مناسب أوضح فيه أن الصليبيين بعد أن أخذوا بيروت رحلوا عنها كي يدافعوا عن صور التي هاجمتها القوات الإسلامية، وهذا يعنى أن أخذ الصليبيين لبيروت كان مؤقتًا حيث استعادها المسلمون بعد وقت قصير؛ أما ابن العبري فيؤرخ (١٥٠) وبصورة مقتضبة جدًا لبعض هذا الحدث دون تطورات، فيذكر استعادة يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين، وهذا يعنى أنه تجاهل بقية الخير أى عودة بيروت للسيادة الإسلامية، وهذا نوع من التحريف لم يجد ابن العبري غضاضة في ارتكابه انسياقًا وراء عواطفه الدينية وميوله للصليبيين.

سادسا : الخلاصة :

من خلال المقارنة السابقة يمكننى تحديد قاعدتين أساسيتين توضحان منهجية ابن العبرى مقارنة بمنهجية ابن الأثير وذلك على النحو التالى:

أولاً: يمكن أن نصف ابن الأثير بأنه مؤرخ شامل إذ أنه غطى كل أو معظم الأحداث التى تجمعت لديه وذلك فى إطار الترتيب الزمنى، والأحداث التى أعنيها تشمل الأحداث السياسية والاجتماعية والعلمية سواء فى ذلك ما يتصل بالدول والأسر الحاكمة، وأيضاً ما يتصل بالأفراد، ولاسيما النابهين منهم هذا بالنسبة لابن الأثير.

أما بالنسبة لمعاصره ابن العبرى فإنه على العكس من ذلك فى كثير من الأمور إذ يمكن وصفه بأنه مؤرخ انتقائى، ينتقى أحداثاً بعينها ويؤرخ لها دون النظر إلى أهميتها، وهذا يعنى أن تكون بعض الأحداث التى انتقاها وأرخ لها أقل أهمية من أحداث أخرى تجاهلها أو لم يعتن بها.

ثانياً: تحلى ابن الأثير بدرجة عالية من الموضوعية والشجاعة حينما أرخ لأحداث تبدو مؤلمة بالنسبة له كونه مسلماً، وأبلغ مثال على ذلك تأريخه للنكسات التى منى بها المسلمون فى الصراع الدائر بينهم وبين الصليبيين، وكذلك تأريخه للاجتياح المغولى لأقطار المشرق الإسلامى، وهذه خاصية إيجابية تحسب لابن الأثير وتجعله مصدراً موثقاً به، كما تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم ابن الأثير.

أما ابن العبرى فلم يكن يتحلى بهذه الخاصية؛ بل على العكس من ذلك آثار التجاهل أو الصمت إزاء الأحداث التى لم ترق له، أو كانت مؤلمة بالنسبة له بوصفه نصرانياً، وأبرز الأدلة على ذلك تجاهله لسقوط إمارة أنطاكية الصليبية سنة ست وستين وستمئة للهجرة (١٢٦٨م)، وكان عمره وقتها يزيد على الأربعين سنة، أى أنه كان ناضجاً فكرياً وعلمياً، واقتربت شخصيته كمؤرخ من الكمال، وفوق هذا وذاك ما هو معروف من أنه أمضى فى أنطاكية سنوات هامة من فترة شبابه.

ومع كل هذه الاعتبارات تجاهل ابن العبرى الحدث، ولم يؤرخ له، ولم يكن من تفسير لذلك سوى رضوخه لشعوره الدينى، وحزنه على سقوط السيطرة الصليبية على إمارة أنطاكية واستعادة المسلمين لها.

ومثل هذا الحدث ليس بالأمر السهل فهو ليس حدثاً ثانوياً ، بل هو بالغ الخطورة والأهمية فى تطورات الأحداث والصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين بصفة خاصة، وابن العبرى الذى التزم الصمت إزاء حدث من هذا النوع أو تجاهله، نراه يؤرخ للاجتياح المغولى لأقاليم المشرق الإسلامى، ويسارع إلى تأريخ الاستيلاء المغولى لبغداد (١٥١) سنة ست وخمسين وستمائة هجرية (١٢٥٨م) ويتفصيل غريب يخالف منهجه وأسلوبه فى تأليف الكتاب.

وليس لهذا من تفسير أمام الباحث أو المتفكر لموقف ابن العبرى سوى القول إن عاطفته الدينية قد تحكمت فيه وأثرت عليه ودفعته إلى نوع من التشفى من المسلمين ومن خلافتهم العباسية، وببساطة شديدة فإن تجاهل أحداث والتركيز على أحداث أخرى يعنى الافتقار إلى الموضوعية والحيادية اللتان تستدعيان من المؤرخ أن يرتفع بعواطفه وميوله عن التأثير بالأحداث سواء بالسلب أو بالإيجاب .

هاتان هما القاعدتان الأساسيتان اللتان يمكن من خلالهما التفريق بين منهجيتى المؤرخين ابن الأثير وابن العبرى ، وفى إطارهما ورغبة فى معرفة مزيد من التفصيل عن منهجية ابن العبرى التاريخية يمكن تقديم العناصر الآتية (١٥٢):

١- تاريخ ابن العبرى بما حواه من معلومات لا يرضى نهم الباحث المتخصص ولا يشفى غليلاً له، ولا ميزة أو سمة يختص بها عن غيره من المصادر التاريخية، ومؤلفه بمعاصرتة للأحداث ومهنته وصلاته الشخصية لم يستثمرها فى تدعيم الثقة فى الكتاب وإثراء معلوماته وإكسابه شخصية مستقلة.

٢- نقل ابن العبرى عن ابن الأثير القسم الأكبر من معلوماته، ويلحظ الباحث أنه نقل حرفى أو يكاد يكون حرفياً ودون تغيير.

٣- نقل ابن العبرى عن ابن الأثير، ولكن مع حذف جزئيات أو كلمات لا تتوافق مع عاطفته الدينية وميوله نحو الصليبيين .

٤- التباين الكبير فى مستوى المعالجة التاريخية لدى ابن العبرى ، وذلك لأمر ما فى ذهنه أو تأثراً بعاطفته وفكره الدينى، والمثال الصارخ على هذا التباين تأريخه لجولتى الصراع الذى خاضه الصليبيون من أجل الاستيلاء على أنطاكية، فمعالجة من سطر واحد للجولة الأولى تتباين كثيراً مع معالجة من أربعة عشر سطرًا للجولة الثانية ،

وكذلك تأريخه لمذبحة القسطنطينية التي أوقعها الصليبيون ضد النصارى الأرثوذكس ،
 فى حين يتجاهل مذبحة معرة النعمان التي ارتكبتها الصليبيون ضد مسلمى هذه البلدة ،
 وهذا تباین حاد فى مستوى المعالجة تتصل بالمنهجية التي سار عليها ابن العبرى فى
 نظرتة للأحداث من ناحية ، وفى تأليف كتابه من ناحية ثانية و فرّق كبير بين الإيجاز
 الشديد والمخل أحياناً وبين الإسهاب المفرط فى أحيان أخرى ، وهذه الملحوظة تنسحب
 على كثير من الأحداث التي عالجها ، كما تنسحب أيضاً على تركيزه على قضايا معينة
 وتجاهله لقضايا أخرى .

٥- يلجأ ابن العبرى إلى التغاضى أو التجاهل المتعمد بالنسبة لأحداث بعينها ، وهذا خلل
 خطير فى منهجية المؤرخ وأمانته وصدقه مع نفسه ومع الآخرين .

٦- يفتقر ابن العبرى إلى التوازن فى نقل المعلومات ، وتتضح هذه السلبية فى تأريخه
 لمرحلتى إسقاط الرها الصليبية واستعادتها ، ولاسيما أنه نقل المعلومات الخاصة
 بالمرحلتين عن ابن الأثير .

٧- يؤخذ على ابن العبرى صمته التام إزاء أحداث رئيسة وجوهرية ، وهذا يعنى أن تأريخ
 ابن العبرى أو شهادته للأحداث- وهو المعاصر لها- يشوبها قدر كبير من عدم الأمانة
 والصدق ، وهما يقتضيان قول الحقيقة حتى مع النفس ، وما صمته عن الحملة الصليبية
 الثانية التي منيت بالفشل الذريع ، وسكوته عن معركة حطين التي تجاهلها تماماً مع
 أنها واحدة من أخطر وأهم الأحداث فى تاريخ الحروب الصليبية ، إلا دليلاً على أن ابن
 العبرى قد انحرف وراء عواطفه الدينية وميوله النفسية والفكرية مع الصليبيين وضد
 المسلمين .

٨- يعاب على ابن العبرى أنه فى انتقائه للأحداث التي يؤرخ لها ، وتلك التي يتجاهلها
 يرضخ لعواطفه الدينية فهي ميزانه فى نظرتة للأحداث ، وهذا الرضوخ منافي
 للموضوعية التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ ، ومن الأمثلة الدالة على هذه السلبية
 تجاهله للتصرفات النبيلة التي عامل بها صلاح الدين الأيوبي عدداً من نساء الروم
 اللاتي كن يقمن بالقدس وقت فتحها ، وكذل معاملته لملكة القدس ، وابن العبرى لا يريد
 أن يسجل ما قد يحسب نقاطاً مضيئة للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبي .

٩- مع إيجاز ابن العبري للمعلومات واختزاله الشديد لها يقع فى أخطاء تاريخية لاتقع من معاصر لها وقريب الصلة بها، ومما يؤكد وقوع الخطأ منه تعارض معلوماته مع المصدر الذى نقل عنه وهو ابن الأثير، وهذا يناقى الأمانة العلمية التى يجب أن يلتزم بها المؤرخ ويحرص عليها.

١٠- وأخيراً يعمد ابن العبري أحياناً إلى تزيف المعلومات أو قلب الحقائق دفاعاً عن الصليبيين وتأييداً لهم وبسبب هذا يفتقر إلى معايير تماسك الذات والأمانة التى تميز بها المؤرخون الأقدمون ، وقسوة الصليبيين وقادتهم وغدرهم عنده فى أحيان كثيرة لم تكن موضع لوم أو ملاحظة تجعله يعمل على تسجيلها أو التأريخ لها، وهذا المسلك من ابن العبري مسلك خطير ينبغى للباحثين بصفة خاصة التنبيه لمثل هذا المزلق الذى وقع فيه ، وترتب عليه تشويه للتاريخ وتزيف لحقائقه ، وإخلال بالنتائج المترتبة عليها.

هذا بصورة عامة أبرز العناصر التى تبينتها فى منهجية ابن العبري التاريخية تجاه أحداث الحروب الصليبية فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) مقارنة بابن الأثير وأحداث الحروب الصليبية فى كتابه (الكامل فى التاريخ) .

الهوامش

١- يطلق إقليم الجزيرة الفراتية على الأجزاء الشمالية من المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات ابتداءً من إلتقائهما جنوباً وحتى اقترابهما من بعضهما شمالاً، وهي المنطقة المحصورة بين جبال كردستان شمالاً ونهر دجلة شرقاً وأرض السواد جنوباً ونهر الفرات غرباً ، وقد قسمت قديماً إلى ثلاثة أقسام:

* القسم الجنوبي الشرقي والمعروف بديار ربعة وحاضرتة مدينة الموصل .

* القسم الجنوبي الغربي والمعروف بديار حضر وحاضرتة مدينة الرقة.

* القسم الشمالي من الجزيرة والمعروف بديار بكر وحاضرتة مدينة آمد أو مدينة ميفارقين.

ولمزيد من التفاصيل عن جغرافية الجزيرة الفراتية وتاريخها فضلاً أنظر:

- المقدسى : شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، سنة ١٩٠٦م، ص ١٣٦، ١٣٨ .

- أبو الفداء: المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، تقويم البلدان، باريس ، ١٨٤٠م، ص ٢٧٧ ومابعدها .

- كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.

- محمد يوسف غندور : تاريخ جزيرة ابن عمر، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

- عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠م.

- عصام الدين عبد الرؤوف : فى بلاد الجزيرة ، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٥م.

٢- أنطاكية : قصبة إقليم العواصم شرق حلب بينهما مسيرة يومين (٣ فراسخ = ٩ أميال = ١٤,٥ كيلومترا) وبينها وبين البحر ستة أميال ، وهى عبارة عن سهل طوله ثلاثة أميال تحيط بها استحكامات طبيعية حصينة تربطها عدة طرق باللاذقية غرباً والاسكندرونة وميناء السويدية شمالاً وبدمشق جنوباً . ذات أهمية استراتيجية وعسكرية وتجارية وصناعية وكذلك دينية.

بدأ الصليبيون حصارهم لأنطاكية فى الثالث عشر من ذى القعدة ٤٩٠هـ (الحادى والعشرين من أكتوبر ١٠٩٧م)، ومع ضخامة قواتهم التى زادت على ثلاثمائة ألف شخص ، فإنهم لم يحكموا حصارهم لها معظم مساحتها ومناعة حصونها وطبيعتها الجغرافية ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها رغم المساعدات المتكررة من الصليبيين والأرمن والبيزنطيين إلا بعد أكثر من سبعة أشهر

وبالتحديد في الأول من رجب سنة ٤٩١ هـ (الثالث من يونية سنة ١٠٩٨ م)، ونتيجة لخيانة أحد الحراس الأرمن وتآمره مع الصليبيين .

لمزيد من المعلومات عن أنطاكية وتاريخها فضلاً أنظر:

- ابن القلاسي أبو يعلى حمزة بن أسد الدين بن على بن محمد (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ م.

- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩ م.

- جمال محمد الزنكي: مؤيد الدين ياغى سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى ٤٧٧-٤٩١ هـ / ١٠٨٥-١٠٩٨ م، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية عشرة ١٤١٧-١٤١٨ هـ، الرسالة السادسة والعشرون بعد المائة.

Downey (G), A History of Antiochin Syria from seleucus to the arab conquest, princeton, 1961 .

٣- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠ م، ج ٣، ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

٤- ملطية : تقع عند سفح جبل طوروس ، من أهم مدن الحدود أو الثغور الإسلامية بين بلاد الشام والدولة البيزنطية ذات أهمية عسكرية وزراعية ، كانت في زمن المؤرخ (القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) إحدى مدن مملكة أرمينية النصرانية في آسيا الصغرى، والتي كانت في تحالف عسكرى مع إمارة أنطاكية الصليبية ، وهى الآن على بعد فرسخين (ستة أميال = ٩,٦ كيلومترات) من موقعها القديم المسمى الآن إسكى شهر، وعلى بعد فرسخ واحد (ثلاثة أميال - ٤,٨ كيلومترات) من الجسر القديم المسمى قرق كزفوق نهر طوخمد صو قرب ملتقاء مع نهر الفرات.

- (ياقوت ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٨ م) معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م، ج ٥ ، ص ١٩٢ : لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٥٢-١٥٣) .

٥- فى تاريخ متأخر انقطع ابن العبرى فى بعض الأديرة واختير أسقفًا على جوياس من أعمال ملطية، وأخذ يترقى فى الوظائف الدينية حتى حصل على رتبة جائلين أى رئيس رؤساء الكهنة السريانيين فى بلاد المشرق (العراق وفارس وغيرهما).

- (الأدب أنطون صالحاني اليسوعي، ترجمة ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول ط الثانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، ص د؛ محمد عزيز، العرب في المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص ١٣٦).

٦- مراغة: من مدن أذربيجان تقع على بعد سبعين ميلاً (١١٢ كيلاً) جنوب تبريز، على نهر صافي الذي يصب في بحيرة أرمية، تشتهر بزراعتها، أصبحت مركزاً لإقليم أذربيجان في العهد المغولي، وفي ظاهرها المرصد الفلكي الذي بناه نصير الدين الطوسي للإيلخان المغولي هولاكو.

أما إقليم أذربيجان فهو من أقاليم فارس الشمالية الغربية يحده شرقاً بحر خوارزم (بحر قزوين)، وغرباً عراق العجم وأرمينية الصغرى، وجنوباً إقليم الجبال (کردستان)، وشمالاً إقليم الران (ياقوت، ج ١، ص ١٢٨، ج ٥، ص ٩٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٩٣، ص ١٩٨-١٩٩).

٧- يعد كتابه في التاريخ باللغة السريانية أهم كتبه، وقد أكمل به تاريخ المنطقة من وفاة ميخائيل السرياني حتى وفاته سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م، وهو في جزئين خصص أولهما للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بينما جعل الثاني في قسمين خصصهما للأحداث الدينية، فضلاً عن:

- شاعر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٤٥٥.
- سهيل زكار، أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام، من حصاد ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م، ص ١٣٢.

- محمد عزيز، العرب في المصادر السريانية، ص ١٣٦.

٨- اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البرادعي (بارادبوس، ت ٥٧٨م)، وهم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزية)، ومنطقتهم تمتد بين أنطاكية والرها شمالاً وحتى القدس جنوباً، ومراكزهم كانت في أسيا الصغرى حول ملطية وفي قليقية، في شمال بلاد ما بين النهرين، وكان كرسى البعاقبة في عكا وبيت المقدس، وأكبر المناصب عندهم البطريركية، ثم منصب المفيان وتحت رئاسته عدد من الأساقفة.

(القلقشندي أهر العباس، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج ١، ص ١١٠-١١١؛ ستيفن رنسيومان، الحضارة البيزنطية، ترجمة

عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط الثانية ١٩٩٧م، ص ١٣٤ : الأب أنطون صالحاني، ترجمة ابن العبري، ص د، ص هـ).

والسريان هم المتحدثون بالسريانية، وهي فرع من الآرامية إحدى اللغات السامية التي تحدث بها سكان سورية والجزيرة الفراتية والمناطق المجاورة لهما، وكتبوا بها خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد وحتى ما بعد الفتح الإسلامي، وكان السريان يعيشون في بلاد الشام منذ القرن الأول للميلاد، وهم فئتان السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك، وما زال بعضهم يتحدث بها حتى الآن.

(سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية، ص ١٢١، أغناطيوس يعقوب : البراهين الحسية على تعارض السريانية والعربية، دمشق، ١٩٦٩م، ص ٢٣).

٩- كان ابن الأثير يناهز الثلاثين من عمره حينما وقعت معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م).

١٠- صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان من الأكراد الروادية إحدى بطون قبيلة الهذبانية التي كان موطنها الأصلي بلدة دوين في إقليم أذربيجان قرب تفليس، ولد ليلة انتقال أسرته من تكريت إلى الموصل سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م)، وبعد سنتين انتقل مع والده إلى بعلبك ثم إلى دمشق حيث عاش فيهما طفولته وشبابه، ثم إلى مصر حيث عاش فيها رجولته وجهاده إلى أن توفاه الله فجر يوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ (أوائل سنة ١١٩٣م) وعمره قريب من سبع وخمسين سنة.

(ابن وصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٤٢٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٧٧؛ أبوشامه : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجليل، بيروت، ١٢٨٨هـ، ج ٢، ص ٢١٨).

١١- الملك الفرنسي القديس لويس التاسع (التقى المتحمس) ابن لويس الثامن ولد في ٢٥ أبريل ١٢١٤م في بواي، تولى الملك في ٨ نوفمبر ١٢٢٦م، جرد إضافة إلى الحملة السابعة حملة ثامنة على تونس سنة ٦٦٨هـ (١٢٧م) غادراً بما قطعه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين، وكان فيها هلاكه في المحرم سنة ٦٦٩هـ (٢٥ أغسطس ١٢٧٠م).

(جان سيردي جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٥٣، ص ٣١٣؛

Brunschvia (ROBERT), La berberic orientale sous les Hafside vol . I , Paris, 1940, pp. 59-62 .

١٢- السلطان المملوكى بيبرس بن عبدالله البندقدارى التجمى ركن الدين أبو الفتح أصله من القفجاق ، ولد سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م) ، وحمل إلى القاهرة واشتراه الأمير أيدكين البندقدارى ، ثم أخذه الصالح نجم الدين الأيوبي، تسلطن فى سبع عشر ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) واستمر حتى وفاته يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) .

(محمد بن شاکر الکتبی، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان بن عباس، دار الثقافة ، بیروت ١٩٧٣م، ج١ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن تغرى بردی جمال الدین أبو المحاسن یوسف بن عبدالله الظاهری (ت ٨٧٤هـ / ١٣٥٤م) المنهل الصافی والمستوفى بعد الرافى ج١ ، تحقيق أحمد یوسف نجاتی، دار الکتب المصریة، القاهرة، ١٣٧٥ ، ص ٢٠٣) .

١٣- لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الجانبين فضلاً أنظر:

- ابن عبدالظاهر ، محى الدين أبو الفضل عبدالله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢) ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ.

- المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ / ١٤٤٢م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) .

- فايز نجيب اسکندر: مملكة أرمينية الصفري بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٠م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور : (سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصفري) ضمن كتاب دراسات وبحوث فى تاريخ العصور الوسطى، بیروت ١٩٧٧م، ص ٢٢٥) .

١٤- جعل ابن العبرى الدولة الأولى هى دولة الأولياء قبل الدخول إلى أرض الميعاد، وجعل الدولة العاشرة هى دولة المغول، وقبلها دول ملوك العرب المسلمين ، فضلاً انظر الكتاب ، ص ٣، ص ٩٣ .

١٥- الأب أنطون صالحانى اليسوعى مقدمة الكتاب ص و.

١٦- ابتداء من سنة ٤٩١هـ إلى سنة ٥٦٩هـ (١٠٩٧-١١٧٤م) .

١٧- لمزيد من التفاصيل حول التأسيس فضلاً انظر:

- ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق .

- فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زيادة العسلى، دار الشروق، بيروت ١٩٩٠م.

- ستيفن رنسيومان : تاريخ الحروب الصليبية ج١ ، ترجمة السيد الباز العرينى، ط الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١ الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٧٨م.

١٨- أبو الجود أبوسعيد عماد الدين زنكى بن آق سنقر بن عبدالله قسيم الدولة، كان مولده فى حلب سنة ثمانين وأربعمائة ، وهو وحيد والده، كان صغيراً عندما قتل والده، وحافظ عليه مماليك أبيه حتى نشأ وكبر. تسلم ولاية البصرة صغيراً ، ثم ملك الموصل ثم الجزيرة، وماردين ثم حلب ثم دمشق وأجزاء من بلاد الشام، كان سياسياً محنكاً ومجاهداً عظيماً ضد الصليبيين تحقق على يديه لأول مرة توحيد الجبهة الإسلامية وتحقيق أول انتصارات المسلمين عليهم ، قتله أحد مماليكه وهو محاصر لقلعة جعبر ليلة الأحد سادس ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) .

(ابن القلائسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٤ وما بعدها؛ ابن الأثير، الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليعات ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢ / ١٩٦٣م، ص ٥ ، ص٢٤ ص٣٢ وما بعدها؛ ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ، بغية الطلب فى تاريخ حلب، نشر بعض تراجمه سهيل زكار ضمن كتابه الحروب الصليبية، بيروت ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٢٥ وما بعدها) .

١٩- أبو القاسم ، نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى كان مولده سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكانت نشأته فى الموصل ثم بدمشق ، كان عادلاً زاهداً عابداً مجاهداً له جهاد حربي مشهود ضد الصليبيين، كانت وفاته يوم الأربعاء حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة فى قلعة دمشق.

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٤ ، ١٨٨ ؛ أبوشامة ، الروضتين، ج١، ص ٥ ، ص٢٤ وما بعدها).

٢٠- معروف أن إمارة الرها الصليبية كانت تتكون من قسمين أحدهما شرقى وبه مدينة الرها ويقع فى الجزيرة ، والثانى غربى وبه مدينة تل باشر الواقعة فى بلاد الشام إلى الشمال من حلب.

لمزيد من التفاصيل فضل انظر:

- عليّة عبد السميع الجنزورى ، إمارة الرّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.

- عماد الدين خليل، الإمارات الأرمنية في الجزيرة والشام، ص ١٩٩ وما بعدها .

٢١- تل باشر : شمالى حلب بينهما مسيرة يومين (٣ فراسخ = ٩ أميال = ١٤,٥ كيلومتراً)، أهلها نصارى أرمن ، فيها أسواق ومزارع وفيها قلعة حصينة، تعرف الآن بتل باجر تتبع إدارياً منطقة جبل سمعان إحدى محافظات حلب.

(ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٠؛ سهيل زكار، الحروب الصليبية ج٢، ص ٥٦٢، حاشية (١)).

٢٢- عن تلك الأوضاع وتطوراتها فضلاً انظر : الدراسة الجيدة- من وجهة نظرى- التى قام بها على بيومى : الدولة الأيوبية فى مصر ، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.

٢٣- الكامل فى التاريخ ، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ج ٨ ، ص ١٨٥، ١٨٨ .

٢٤- ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى من أمراء السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى، الذى منحه حكم أنطاكية بعد مقتل سليمان بن قتلش ابن عم السلطان، الذى استولى عليها من البيزنطيين سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥م، كان ذا رأى وحزم وشجاعة، قتل على بعد فرسخ من أنطاكية، تركه غلماناه مغشياً عليه متأثراً بضيق أنطاكية، فوجده على هذه الحال أحد الأرمن فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الفرنج.

(ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٨٦) .

٢٥- قوام الدولة أبوسعيد كربوقا كان من أمراء السلطان ملكشاه السلجوقى، كانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) على بعد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً = ١٩,٣ كيلومتراً) من مدينة خوى، من أعمال أذربيجان بعد أن وصلها مريضاً، وكان السلطان السلجوقى بركيارق بن ملكشاه قد بعثه للاستيلاء عليها.

(ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ، ص ٢١٠) .

٢٦- ص ١٩٦ .

٢٧- ج ٨، ص ١٨٥-١٨٧ .

٢٨- ص ١٩٦-١٩٧ .

٢٩- معرة النعمان تقع على الطريق بين حماة وقنسرين، كانت بداية الحروب الصليبية، مدينة عامرة مزدهرة ذات كثافة وأهمية تجارية وزراعية.

(ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ / ١٠٠٨م) سفر نامه ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ١١؛
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦).

٣٠- ج ٨، ص ١٨٧-١٨٨.

٣١- ص ١٩٧.

٣٢- ابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٩؛ ابن العبري، ص ١٩٧.

٣٣- جوسلين الثاني من أم أرمنية هي أخت ليون الأرمني، وهو بهذا من أمراء الفرنج الذين ولدوا في الشرق اتصف بالبراعة الحربية مع حب اللهو والإسراف في الشراب، أقام إقامة مترفة على شواطئ الفرات، تزوج من بياتريس أرملة حاكم صهيون، ورث عن والده جوسلين الأول الذي قتل عند دلك سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) حب رعاياه له، ولكن كان يميل إلى حياة الراحة والهدوء وكانت تنقصه روح التصميم، كان شديد العداء للمسلمين، كثير الغدر والمكر لهم، أسره نور الدين محمود سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وقضى سنواته مسجوناً في حلب حتى هلك.

(ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ١٥٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٩٣؛ عليه
الجنزوري، إمارة الرها، ص ٢٩٦-٢٩٧، ص ٣٢٥).

٣٤- ابن العبري، ص ٢٠٦-٢٠٧؛ ابن الأثير، ج ٩، ص ٨، ص ٢٩.

٣٥- أبويعلی حمزة بن أسد الدين بن علي بن محمد التميمي، ولد بدمشق سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧٩م شغل العديد من المناصب مثل رئاسة ديوان الإنشاء، كانت وفاته بدمشق سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)، مؤرخ ثقة، له عناية بالحديث، كان أديباً، له إنشاء جيد وشعر حسن.

(خير الدين الزركلي، الأعلام، (ط الخامسة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، مج ٢، ص ٢٧٦).

٣٦- ج ٩، ص ٢٩.

٣٧- ج ٩، ص ٢٩.

٣٨- ص ٢٠٦.

٣٩- ص ٢٠٧ .

٤٠- ج ٩ ص ٢٩ .

٤١- عن الحملة الصليبية الثانية وأحداثها فضلاً أنظر:

- ابن القلاسى : ذيل تاريخ دمشق .

- وليم الصورى: الحروب الصليبية: ترجمة حسن حبشى ، ج٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٢م.

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٦٠٦ وما بعدها.

- رنسيما ن : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ، ص ٣٩٧ وما بعدها .

٤٢- ولد وليم الصورى فى مدينة القدس سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) ، لم يكن حريصاً على ذكر أصله حيث بقى مجهولاً كما أن نشأته فى مدينة القدس كانت مجهولة سوى أنه كان حتى الخامسة عشرة من عمره يعيش حياته فى رغد من العيش بعدها سافر إلى إيطاليا وفرنسا للعلم، فدرس اللاهوت والفلسفة والرياضيات، وعاد إلى الشرق ليتقلد عدة مناصب هامة حيث شغل وظيفة رجل القانون الكنسى فى عكا ورئيساً لشمامسة بيت لحم وصور، ثم مربيًا ومعلمًا لبولدين الرابع ملك بيت المقدس، ثم مستشاراً للمملكة الصليبية ورئيساً لأساقفة صور، مات سنة ١١٨٠م (٥٧٦هـ) فى بيت المقدس ألف عدة مؤلفات كان أهمها كتابه فى تاريخ الحروب الصليبية (Gesta Hierosolymit orum regus) الذى ترجمه الدكتور حسن حبشى فى أربعة أجزاء بعنوان (الحروب الصليبية) عن الترجمة الإنجليزية التى عنوانها:

(AHistory of deeds done beyond the Sea Columbia university. Press. 1943).

فضلاً انظر : (مقدمة الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ج ١ ص ٥ ، ٤٣ ؛ حسين محمد عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص ٣٤، حاشية رقم (١٧) .)

٤٣- الحروب الصليبية، ج٣ ، ص ٢٦٩ وما بعدها (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م) .

٤٤- الحروب الصليبية، ج٣ ، ص ٢٨٠ .

٤٥- عن تطورات هذه الفترة وتفاصيل أحداثها فضلاً أنظر:

- ابن واصل ، مفرج الكروب .

- أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين.

- المؤرخ المجهول : ذيل كتاب وليم الصورى (مخطوط روثلان) ترجمة وتعليق أسامة زكى زيد، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ .

- رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ، ج٣ .

٤٦- حطين : قرية غرب بحيرة طبرية غنية المرعى وفيرة المياه بها قبر النبى شعيب عليه السلام، أخذت شهرتها من المعركة التى قادها صلاح الدين رحمه الله وانتصر فيها المسلمون على الصليبيين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٤هـ (٤ يوليو ١١٨٧م) واسترد المسلمون نتيجتها بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين فيها .

لمزيد من التفصيل عن معركة حطين (مقدماتها ، نتائجها) فضلاً انظر:

- ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سير صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامى فى العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٠٣هـ.

٤٧- عكا: كانت من أحسن بلاد الساحل (ساحل بلاد الشام) وأعمرها، حصينة واسعة ذات نشاط زراعى وتجارى (ياقوت ، المعجم ، ج٤ ، ص ١٤٣). استولى عليها الصليبيون للمرة الثانية بعد جهاد إسلامى مشرف ، وبعد حصار دام بدأ فى الثامن من رجب سنة ٥٨٥هـ (أواخر أغسطس سنة ١١٨٩م) ، وانتهى نهار الجمعة السابع عشر من جمادى الآخر سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١٩٩١م) . لتفصيلات أوسع عن أحداث عكا فضلاً انظر:

- ابن شداد : النوادر السلطانية .

- أبوشامة : الروضتين .

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ .

٤٨- الرملة مدينة قديمة فى أرض فلسطين بينها وبين القدس مسيرة ثمانية عشر يوماً (٢٧ فرسخاً = ٨١ ميلاً = ١٣٠ كيلومتراً) مدينة واسعة معمورة خربها صلاح الدين خوفاً من استيلاء الصليبيين

عليها، واستمرت خراباً حتى منتصف القرن السابع الهجرى. (ياقوت ، المعجم ، ج٣ ، ص٦٩-٧٠)، وفيها تم عقد الصلح أو الهدنة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد بدءاً من يوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ (الثانى من سبتمبر ١١٩٢م) ، واستمر ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ونص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وتبقى المدن والجهات الأخرى تكون للمسلمين. لتفصيلات أكثر عن هذه الهدنة فضلاً انظر:

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٨٦٠ ، ٨٦٥ .

- فايد عاشور ، الجهاد الإسلامى، ص٢٣٤ ، ٢٤٤ .

٤٩- الملك الكامل أبو المعالى محمد بن محمد بن أيوب بن شادى ، ولد فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) ، وحكم بعد وفاة والده العادل الأيوبي سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) ، مات مريضاً عصر الأربعاء الواحد والعشرين من رجب سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ، كان عظيم القدر جميل الذكر محباً للناس والعلماء والفضلاء ومجالستهم ومحاورتهم، كان حازماً ذا حنكة ودراية محباً للسلم كارهاً للحرب .

(ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج٥ ، ص٧٩ ، ٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٥ ، ص١٥٦ وما بعدها).

٥٠- الإمبراطور الألماني فردريك الثانى بن هنرى الرابع، ولد من أب ألماني وأم نصف إيطالية فى ديسمبر ١١٩٤م، وتوج إمبراطوراً بمساعدة البابوية سنة ١٢٢٠م حتى عام ١٢٥٠م حيث كانت وفاته . أصبح ملكاً بالوصاية على مملكة بيت المقدس عام ١٢٢٥م، تبنى وتعلم فى صقلية قريباً من المؤثرات العربية فتشاً محباً للعلوم والجدل والرياضيات واللغات ومنها العربية.

(سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٠ ، ٩٥٢ ، ستيفن رنسيمن ، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٠٥ وما بعدها).

٥١- يافا من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا تعد ميناءً لبيت المقدس بينهما مرحلتان (١٦ فرسخاً = ٤٨ ميلاً = ٧٧,٢٣ كيلومتراً).

(ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٢٦؛ الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى)، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس، ط الثانية ،

مكتبة لبنان، ، بيروت سنة ١٩٨٤م، ص ٦١٥).

وعن اتفاقية يافا فضلاً انظر ص ٢٩ الجزئية الثامنة.

٥٢- فى الجزئين الثامن والتاسع .

٥٣- كان ضم صلاح الدين لمدينة دمشق سنة ستين وخمسائة (١١٧٤م) أما محاولاته ضم حلب فكان أولها فى ٣ جمادى الآخر سنة سبعين وخمسائة (١١٧٤م)، وآخرها فى صفر سنة تسعة وسبعين وخمسائة (١١٨٣م) . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك فضل انظر:

- ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ .

- أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٥ وما بعدها .

- على بيومى: قيام الدولة الأيوبية فى مصر.

- وفاء محمد على: قيام الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

٥٤- فى الصفحات ٢١٥ ، ٢٤٥ .

٥٥- ج ٩ ، ص ١٦٢ .

٥٦- ص ٢١٩ .

٥٧- ج ٩ ، ص ١٦٢ .

٥٨- لمزيد من الضوء عن هذه الجزئية فضلاً انظر عرض الأحداث الثانوية الجزئية رقم (١٤) .

٥٩- ج ٩ ، ص ١٨٦-١٨٢ .

٦٠- ص ٢٢٠ .

٦١- طبرية : من أعمال الأردن، بلدية تطل على البحيرة المسماة باسمها يطل عليها جبل الطور، بينها وبين بيت المقدس مسيرة ثلاثة أيام (٥ ، ٤ فرسخ = ١٣ , ٥ ميل = ٢١ كيلومترا) اشتهرت بعيونها الحارة وحماماتها (ياقوت ، المعجم ، ج ٤ ، ص ١٧) . ذات تاريخ وجهاد فترة الحروب الصليبية، استعادها المسلمون يوم الخميس السابع من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٢٨ يونية سنة ١١٨٧م) ، وكانت إحدى أهم مصادر المياه التى سيطر عليها المسلمون فى المنطقة، وبعدها بأيام كانت معركة حطين الفاصلة.

(ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ٢ ، ص ١٨٩؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامى، ص ١٢٥) .

٦٢- ص ٢٢٠ .

٦٣- ص ٢٢٠-٢٢١ .

٦٤- حسمت معركة حطين في ٢٥ ربيع الآخر (يوليو ١١٨٧م) بينما استردت بيت المقدس في ٢٧ رجب من العام نفسه (أكتوبر ١١٨٧م) .

لمزيد من التفاصيل فضلاً انظر:

- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٥ وما بعدها.

- ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ٢٣٤ .

- سهيل زكار : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار إحسان، دمشق، ١٤٠٤هـ.

- عبدالله ناصح علون : صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٦٥- بالبيان الثاني دي إبلين، وفي المصادر الإسلامية بالبيان بن بارزان أو بيرزان، صاحب الرملة، خلف والده بالبيان الأول دي إبلين في حكمها سنة ١١٦٩م، كان من الأمراء القلائل الذين لجؤا من معركة حطين سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس لأخذ زوجته الملكة ماريّا كومنين أرملة عموري الأول وأولاده ولكنه خان وعده لصلاح الدين وبقي في بيت المقدس يعمل على تحصينها والدفاع عنها، كان أحد الموقعين على هدنة الرملة مع صلاح الدين (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٨١، ص ٨٦٣) .

٦٦- ص ٢٢١ .

٦٧- ص ٢٢١ .

٦٨- ج ٩ ، ص ١٨٤ .

٦٩- ج ٩ ، ص ٢٠٨، ٢١٠ .

٧٠- ص ٢٢١-٢٢٢ .

٧١- ج ٩ ، ص ١٩٣ .

٧٢- ص ٢٢٢ .

٧٣- ج ٩ ، ص ٢١٤ ، ٢١٧ .

٧٤- ص ٢٢٢ .

٧٥- فضلا انظر الحاشية رقم (٤٨) .

٧٦- ج٩ ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

٧٧- ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧-١١٩٩م) توج خلفاً لوالده هنرى الثانى ملكاً على إنجلترا فى سبتمبر سنة ١١٨٨م، وقاد مع الملك الفرنسى فليب أغسطس الحملة الصليبية الثالثة، وصفه ابن شداد بأنه شديد البأس عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، وأنه دون ملك الفرنسيين ولكنه أكثر مالاً وأشهر فى الحرب والشجاعة. قتل فى مارس عام ١١٩٩م.

(ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٤٩-٢٥٠؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٨٣٦ وما بعدها) .

٧٨- ج٩ ، ص ٢٢١ .

٧٩- ج٩ ، ص ٢٢٢ .

٨٠- ص ٢٢٣ .

٨١- الكاثوليكية ، إحدى العقائد النصرانية ، تسمى كنيسة الغرب اللاتينى، انفصلت عن الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) عام ١٠٥٤م لأسباب عديدة أهمها ما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام ، تتبع النظام البابوى فى روما الذى يقوم على مجمع كنائس مكون من مجلس الكرادلة الذى يرأسه البابا، وله الحق فى إصدار إرادات بابوية سامية هى حسب زعيمهم إرادات إلهية.

لمزيد من المعلومات فضلاً انظر:

- محمد أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.

- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ط الثانية ، مكتبة النور، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

- أليكس جورانسكى : الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ، ترجمة خلف محمد الجراد، ط الثانية، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ١٤٢١هـ.

٨٢- ج٩ ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

٨٣- ص ٢٢٧-٢٢٨ .

٨٤- الأرثوذكسية : إحدى العقائد المذهبية للنصرانية بعد انقسامها عام ١٠٥٤م، وتشمل نصارى الشرق، تسمى كنيستها بالكنيسة الشرقية أو اليونانية، أو كنيسة الروم الشرقيين كان مقرها مدينة القسطنطينية، ثم أصبحت موزعة على عدة كنائس مستقلة عن بعضها فى عدد من الدول الآسيوية، والأفريقية، والملاحظ أن نصارى الشرق يتصفون بصفات خاصة بهم تميزهم عن نصارى الغرب، وذلك من حيث توزيعهم إلى طوائف مختلفة قائمة بذاتها تستند كل منها إلى تاريخها الخاص بها، وكل كطائفة تتمتع بهيكلية كهنوتية وتشريعات كنسية ومحاكم مذهبية خاصة بها.

لمعلومات أوسع فضلاً انظر:

- محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية، الرياض ١٤٠٤هـ، ص ٤٦ .

- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ص ١٤٠ .

- أدفون أرباط: المسيحيون الشرقيون (دراسات ومناقشات ، بيروت (ب-ت) ، ص ١٥ .

٨٥- ص ٢٣٧، وقد أشار إلى نهايتها فقط كما سيتضح ذلك بعد قليل.

٨٦- ص ٢٣٣ ، ٢٣٦ .

٨٧- كان يوحنا دويرين (١١٤٨-١٢٣٧م) ملكاً على عكا، كما كان وصياً على مملكة بيت المقدس (١٢١٠-١٢٢٥م) .

٨٨- كان الكاردينال بيلاجيوس مندوباً عن البابا (هونوريوس الثالث)، وقائداً أعلى للصليبيين فى حملتهم على مصر ، وكان المسئول الأول عن فشل الحملة الصليبية. (سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٩٢٠ وما بعدها) .

٨٩- ج٩ ، ص ٣١٨ .

٩٠- ص ٢٣٦-٢٣٧ .

٩١- لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة فضلاً انظر:

- ابن واصل، مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٩٤٥ ، ٩٧٢ .

- رنسيमान ، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ، ٣١٧ ، ٣٤٢ .

٩٢- حدث هذا نتيجة اتفاقية يافا التي عقدت بين الجانبين فضلاً عنظر : ص٢٩ الجزئية الثامنة.

٩٣- ج٩ ، ص٣٧٨ .

٩٤- ص٢٤٤ .

٩٥- Setton, (K.M.): A History of the Crusades. pansylvania. 1958. vol , 2. pp. 454-457 .

- رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٣٠-٣٣١ .

٩٦- تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٢٩ .

٩٧- فضلاً عنظر :

- ابن واصل مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٤١ .

- أبو الفداء : المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، ج٣ ، ص١٤١ .

- ابن أبيك : أبوبكر عبدالله بن أبيك الدودار (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) : كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص٣٢٦ .

- المقرئ : السلوك ، ق١ ، ج١ ، ص٢٣٠ .

٩٨- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠١ : رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٢٩ ؛ Setton, Op. cit. vol . 2 . p. 454 .

٩٩- ج٨ ، ص١٨٦ .

١٠٠- كما هو معروف تنقسم الحملة الصليبية الأولى إلى شعبتين ، الأولى ما عرف بالحملة الشعبية أو حملة الدعاة أو حملة بطرس الناسك ، وقبلها حملة جوتيه سائر أفرار على رأس فريق من الرعايا وصل بهم إلى القسطنطينية ، والثانية ما عرف بحملة الأمراء التي تألفت من عدة مجموعات رأس كل مجموعة أحد الأمراء الأوربيين ، فكان على المجموعة الأولى الأمير جودفري بوايون ورفقته أخوه بلدوين البولوني وعدد آخر من الأمراء ، ومجموعة ثانية وصلت إلى القسطنطينية بحراً هي ما عرف بالحملة النورمانية بقيادة بوهيمند النورمانى بن روبرت جسكارد ومعه عدد كبير من الأمراء والدوقات الأوربيين ، ومجموعة ثالثة وفدت من إقليم هروفانس تحت زعامة ريموند الرابع (ريموند الصنجيلي) أمير تولوز و هروفانس ، وصحبته الأسقف هوى (Adhemar de monteil) السدنى

اختاره البابا نائباً عنه فى القيادة العليا للحملة الصليبية، ثم وصلت أخيراً الحملة الفرنسية لتلتقى مع بقية المجموعات الصليبية على شاطئ البسفور، وكانت بقيادة الأمير روبرت بن وليم الفاتح أمير نورمانديا، ومعه أيضاً عدد من الأمراء الفرنسيين، وقد تعهد أولئك الأمراء قادة المجموعات الصليبية للإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١-١١١٨م) وأقسموا له بيمين الولاء والتبعية للإمبراطورية البيزنطية (فضلاً انظر المصادر التالية).

١٠١- من المصادر الصليبية :

- المؤلف المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٧ وما بعدها .

- فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص ٤٠ وما بعدها .

- وليم الصورى: الحروب الصليبية، ج ١، ص ١١٢ وما بعدها .

- ولزيد من المعلومات عن ذلك فضلاً انظر:

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٠ وما بعدها .

- ونسيان : الحروب الصليبية، ج ١، ص ١٨٩ وما بعدها .

١٠٢- ج ٨، ص ١٨٦ .

١٠٣- ص ١٩٦ .

١٠٤- ج ٨، ص ١٨٩ .

١٠٥- ص ١٩٧ .

١٠٦- الأمير بلدوين الثانى دو بورج أمير الرها من كبار الأمراء الصليبيين الذين شاركوا فى توجيه الحملة الصليبية الأولى، أشاد بجهوده المتوخون فى التقريب بين النصارى الشرقيين والغربيين، ومن ذلك زواجه من مورفيا بنت جبريل حاكم ملطية الأرمنى، تم تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس فى أبريل سنة ١١١٨م بعد وفاة ابن عمه بلدوين الأول، كان له جهود فى توحيد الصليبيين بعد أن صار وصياً على عدد من الإمارات الصليبية فى الرها وانطاكية، وقع فى أسر المسلمين أكثر من مرة كان أولها بعد معركة حران (البليخ) فى ٧ مايو سنة ١١٠٤م، الثانية وهو يهاجم خرتبرت فى ١٨ أبريل سنة ١١٢٣م، وأطلق سراحه أواخر يونيو سنة ١١٢٤م، وأخيراً هلك فى بيت

المقدس في ١٢ أغسطس سنة ١١٣١م بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة.

(سعيد عاشور) الحركة الصليبية، ج١، ص ٤٢٥، ٥٢١.

١٠٧- ج٨، ص ٢٥٣.

١٠٨- تنكرد : تانكريد بن المركيز أمير أنطاكية الصليبية (١١٠١-١١١١م) أحد الأمراء النورمانديين المشاركين في الحملة الصليبية الأولى ضمن المجموعة النورمانية، وأحد الأمراء المخلصين لقائد المجموعة جودفري بوايون لذا أقطعه إقليم الجليل وأسس فيها إمارة له أضاف إليها فيما بعد حيفا والمناطق المحيطة بها ، ثم أصبح وصياً على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهموند ، ثم أميراً عليها تحت لقب الأمير الكبير أو خادم الله كان من المتحمسين لحرب المسلمين، وله طموحات سياسية كبيرة جعلته في حروب دائمة مع المسلمين والبيزنطيين وحتى الصليبيين ، كانت نهايته في ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ م دون أن يترك وريثاً يرثه في إمارته الصليبية.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٥١ ، ٤٠٩).

١٠٩- ج٨، ص ٢٥٩، ٢٦١.

١١٠- ص ١٩٩.

١١١- الأتابك شرف الدولة مودود بن ألتونتكين ، أصبح أميراً على الموصل سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) بعد أن نجح في القضاء على عصيان أميرها السابق جاولي سقاو الذي استقل بها عن التبعية للسلطان السلجوقي ، قتله أحد الباطنية الحشاشين في دمشق وهو خارج من صلاة الجمعة وكان صائماً وذلك آخر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ، ودفن في أصبهان ، كان خيراً عادلاً كثير الخير كثير الجهاد للصليبيين الذين فرحوا كثيراً لمقتله.

(ابن القلاسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧-١٨٨؛ سبط ابن الجوزي: شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م، ج٨ ، ق ١ ، ص ٥٠-٥١ ؛ عفاف صبرة ، الأمير مودود بن ألتونتكين ، مجلة الدارة، العدد الثاني ١٩٨٦م، ص ١٠٩ وما بعدها) .

١١٢- السلطان أبوشجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي خطب له بالسلطنة في جامع بغداد في سابع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة له آثار حسنة وسيرة طيبة وسياسة حكيمة وجهاد مشكور، مرض مرضاً طويلاً أدى إلى وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي

الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة بمدينة أصبهان، وله من العمر سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

(ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٧١، (٧٣).

١١٣- بدأت الحملة الأولى في شوال من سنة ٥٠٣ هـ (أبريل سنة ١١١٠)، واستمرت المحاصرة مدة ثلاثة أشهر تقريباً انتهت بانسحاب الجيش الإسلامي أواخر ذي الحجة (١٩ يوليو)، وتركت آثاراً واضحة عليها من الناحيتين السكانية والاقتصادية، والحملة الثانية بدأت أوائل سنة ٥٠٥ هـ (يوليو سنة ١١١١م) واستمرت مدة خمسة وأربعين يوماً انسحب المسلمون بعدها بعد أن وجدوا صلابة في الدفاع عنها وكثرة الجنود والمؤن داخلها، وكانت الثالثة في المحرم سنة ٥٠٦ هـ / يونيو سنة ١١١٢م، ولم تستمر سوى أيام، وهي التي نال الصليبيون فيها من جيش مودود.

لمزيد من المعلومات عن ذلك فضلاً انظر:

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٩ وما بعدها .

- عليه الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، ص ١٣٠ وما بعدها .

١١٤- ج ٨ ، ص ٢٦٢ .

١١٥- ج ٨ ، ص ٢٦٥ .

١١٦- ابن العبري، ص ١٩٩ .

١١٧- نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق ، كان أميراً على خرتبرت وماجاورها ، ثم تولى إمارة حلب، وكان له فيها جهاد مشكور ودور بارز في محاربة الصليبيين، قتل وهو محاصر لمنبج في ربيع الأول من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة للهجرة (١١٢٤م)، وحمل إلى حلب حيث دفن فيها .

(ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣١٥؛ عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية، ص ٢٧٤).

١١٨- ابن الأثير، ج ٨، ص ٣١٢، ص ٣١٥؛ ابن العبري، ص ٢٠٢ .

١١٩- أبوسعيد سيف الدين آق سنقر البرسقي الغازي كان مملوكاً تركياً للأمير برسق من كبراء محالبيك السلطان محمد السلجوقي، كان ديناً عادلاً خيراً لين الأخلاق حسن المعاملة والعشرة، كثير الجهاد،

ولى العراق والموصل وحلب وجهات أخرى فى العراق والشام. قتله أحد الباطنية الحشاشين فى الموصل بعد صلاة الجمعة ثامن ذى القعدة سنة عشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٦م) .

(ابن العديم ، بغية الطلب، تحقيق سهيل زكار (كتاب الحروب الصليبية) ج٢، ص ٧١٩ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص ٣٢٠ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ، ج١، ص ٢٤٢) .

١٢٠- ج٨ ، ص ٣٢٠ .

١٢١- ص ٢٠٢ .

١٢٢- عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقى صاحب الموصل، وليها بعد وفاة أبيه، وكان فى إمارة حلب عندما علم بوفاة والده، فلم يختلف عليه أحد، واستقامت أموره وخطب للسلطان السلجوقى محمود بن محمد كان شجاعاً شهماً طموحاً مات بمرض مفاجئ وهو محاصر الرحبة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة للهجرة (١١٢٧م) .

(ابن الأثير ، الكامل، ج٨ ، ص ٣٢٣؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج١ ، ص ٢٤٣) .

١٢٣- ابن الأثير ، ج٩ ، ص ١٣-١٤ ؛ ابن العبرى، ص ٢٠٦ .

١٢٤- ج٩ ، ص ٢٥-٢٦ .

١٢٥- ص ٢٠٧ .

١٢٦- شيزر : مدينة قديمة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال حماة ، تقع على أكمة صخرية على الضفة الغربية لنهر العاصى الذى يلتف حولها من ثلاث جهات مما زادها منعة وتحصيناً ، عدت زمن الحروب الصليبية مركزاً هاماً لإمارة بنى منقذ التى ضمت كلاً من أفامية وكفر طاب واللاذقية.

(محمد محمد مرسى الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٨٠، ص ٤٦-٤٧) .

١٢٧- ج٩ ، ص ٥٣-٥٥ .

١٢٨- ص ٢٠٨ .

١٢٩- ج٩ ، ص ٨٤-٨٥ .

١٣٠- ص ٢١٢ .

١٣١- حصن حارم من أعمال حلب ، بينها وبين أنطاكية يتبعه بلدة صغيرة تحيط بها الأشجار ونهر صغير، يقع الحصن على رابية صخرية مرتفعة محمى من جميع الجهات بخندق عميق منحوت فى الصخر، كان حصناً مثلث الشكل ثم أصبح دائرياً بأربعة أبراج مربعة الشكل .

(ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٠٥ ؛ أسامة زكى بدر، صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨١م، ص ١٥٣ حاشية (١).

١٣٢- قلعة بانياس ، مدينة صغيرة من أعمال دمشق إلى الغرب منها لها قلعة حصينة يحيط بها نهر بردى .

(الخميرى ، الروض المعطار، ص ٧٣) .

١٣٣- ج٩ ، ص ٨٦-٨٧ .

١٣٤- ج٩ ، ص ١٠٥-١٠٦ .

١٣٥- أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى، ولى حلب بعد وفاة ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، وعندما عرف عجزه عن حمايتها والدفاع عنها سلمها إلى صلاح الدين ثامن عشر صفر سنة ثمانية وخمسمائة للهجرة، وانتقل إلى سنجار حتى كانت وفاته فى المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة للهجرة (١١٩٧م)، كان خيراً ديناً عادلاً كثير الصدقات، كانت ولايته ثلاثين سنة.

(أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٢٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج٢ ، ص ٣٣٠-٣٣١) .

١٣٦- فضلا انظر ص ١٨-١٩ .

١٣٧- أرنات فى المصادر الإسلامية (ريجنالد) أورينو دوشاتيون ، وقبل مجيئه إلى بلاد الشام كان اسمه (Le Prince arnould seigneur de Carac) فارس فرنسى قدم أنطاكية وأصبح أميراً عليها ثم أصبح أميراً لحصن الكرك، ظل فى قبضة المسلمين سنين طويلة أسيراً فى قلعة حلب، حتى أطلق سراحه سنة ١١٧٧م لم تفلح فى تهذيب سلوكه وتأديبه ، كان ذا سياسة طابعها الحماس والتطرف ، لقي منه المسلمون والصليبيون كثيراً من الغدر والخيانة قتل بيد صلاح الدين بعد انتصار حطين يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧م) .

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٧٤٠) .

١٣٨- عقدت هذه الهدنة أول سنة ٥٧٦هـ (مايو سنة ١١٨٠م) بطلب من الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بعد الضربات القوية التى وجهها صلاح الدين ضد الصليبيين فى عدد من الجهات التى استولوا عليها، والملاحظ أن هذه الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها، مما جعل صلاح

الدين فى حلر من مهاجمة الصليبيين فى شمال بلاد الشام، فاضطر ريموند الثالث أمير طابلس إلى عقد هدنة ماثلة مع صلاح الدين.

(أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٦ : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٩٧ : سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٧٣٥) .

وفى صيف سنة ٥٧٦هـ / ١١٨١م تناسى أرناط الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وقام ومعه قوة من رجاله بالتوغل فى صحراء العرب (شمال غرب شبه الجزيرة العربية) حتى تبماء، وكانت واحة لها أهميتها فى طريق الحاج بين بلاد الشام والمدينة المنورة ، وكان فى نيته أن يزحف بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وعندما فشل هدفه اكتفى بالاستيلاء على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة، وسلب ما تحمله من مال ومتاع وقتل وأسر من كان فيها. لمزيد من التفصيل عن ذلك فضلاً انظر:

- ابن الشداد : النوادر السلطانية : ص٧٤ .

- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص١٢٧ ، ١٣٢ ، ص١٩٤-١٩٥ .

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٧٢٩ وما بعدها .

- يوسف درويش غوانم : إمارة الكرك فى العصر الأيوبي. عمان، ١٩٨٢ م.

- محمود رزق محمود : العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين عام ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م.

١٣٩- ج٩ ، ص١٧٤ .

١٤٠- ص٢١٩-٢٢٠ .

١٤١- مدينة صور من أعمال الأردن تبعد عن بيروت جنوباً بسبعة أميال، وعن صيدا ستة أميال يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، لذا كانت حصينة جداً منيعة لا يمكن أخذها بسهولة، (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٣٣؛ أسامة زكى بدر، صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، ص١٠).

١٤٢- ابن الأثير ، ج٩ ، ص١٨٦-١٨٧ ، ابن العبري، ص٢٢١ .

١٤٣- كان بوهيموند الثالث (١١٤٥-١٢٠١م) أميراً على أنطاكية (١١٦٣-١٢٠١م) قد اضطر إلى مهادنة صلاح الدين بسبب الهجمات المتتالية والناجحة التى حققها صلاح الدين ضد أملاك هذه الإمارة والحصون والقلاع التابعة لها، وعقدت بين الطرفين هدنة مدتها ثمانية أشهر.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٨٠٠) .

١٤٤- ج٩ ، ص ١٩٥ .

١٤٥- ص ٢٢٢ .

١٤٦- الملك وليم الثانى المولود سنة ١١٦٦م، كان ممن سارع فى تلبية نداء الصليبيين لحمايتهم والدفاع عنهم بعد حطين واستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان أول من استجاب لتلك الدعوة، فعقد صلحاً مع البيزنطيين، وأرسل إلى بقية ملوك أوروبا يدعوهم للتضامن معه فى مشروع حملة صليبية ضد المسلمين واستعادة بيت المقدس، ولم ينتظر رد أولئك الملوك بل بادر بإرسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس ، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية، وكان مما حال دون اشتراك الملك الصقلى فى الحملة الصليبية الثالثة هو انشغاله بالعلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم كانت وفاته فى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩م سبباً فى فشل أهدافه.

(سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٠٩-٨١١ : ستيفن رنسيان ، الحروب الصليبية، ج٣ ، ص ٢١) .

١٤٧- ج٩ ، ص ١٩٩ .

١٤٨- الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد بن أيوب بن شاذى بن مروان ، ولد بدمشق فى المحرم سنة أربعين وخمسائة، وكانت وفاته بعالقين - قرية بظاهر دمشق- فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة (١٢١٨م) ونقل إلى دمشق حيث دفن فى قلعتها وله من العمر خمساً وسبعين سنة وشهوراً، كان ذا رأى وتدبير ومعرفة وحنكة حسن السيرة ، جميل الطوية وافر العقل حازماً فى الأمور ذا دين وصلاح محب للعلماء.

(ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٢٧٠، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج٥ ، ص ٧٤) .

١٤٩- ج٩ ، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

١٥٠- ص ٢٢٥ .

١٥١- ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ .

١٥٢- تشكل الأحداث التى وردت فى الصفحات السابقة أمثلة لهذه العناصر مما لا يخفى على فطنة القارئ الكريم .

قائمة المصادر والمراجع *

أولاً : المصادر:

- ابن الأثير: عز الدين على بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :
الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن زبى بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٦م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس بن هارون (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) :
تاريخ مختصر الدول، نشرة الأب أنطون صالحانى اليسوعى، ط الثانية ،
المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٨م.
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) :
بغية الطلب فى تاريخ حلب ، بعض تراجم نشرها سهيل زكار ضمن كتاب
الحروب الصليبية، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- ابن القلانسي : أبويعلى حمزة بن أسد الدين بن على (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة
الأميرية، القاهرة ١٩٥٧م.
- أبو الفداء : المؤيد إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) :
تقويم البلدان، باريس ، ١٨٩٠م .
- أبوشامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) :
الروضتين فى أخبار الدولتين التورية والصلاحية، دار الجليل، بيروت، ١٢٨٨هـ.

- جوانفيل : جان سير دى جوانفيل (كانو موجوداً سنة ٧١٨هـ / ١٣١٩م) :
- مذكرات جوانفيل (القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.
- الحميرى: محمد بن عبد المنعم (ت أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجرى):
الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤ .
- الشارترى : فوشيه (كان موجوداً سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م) :
- تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة زياد جميل العسلى، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠م.
- الصورى: وليم (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م) :
- تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد ﷺ وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد. ترجمة حسن حبشى تحت عنوان الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢-١٩٩٤م .
- المقرئى: تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) :
- السلوك لمعرفة دول الملوك - القسم الأول- تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٦هـ.
- المؤرخ المجهول: ذيل كتاب وليم الصورى (مخطوط روثلان) ترجمة أسامة زكى زيد، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- ياقوت : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى (ت ٦٢٦ع / ١٢٢٨م) .
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

ثانياً : المراجع :

- أسامة زكى زيد : صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨١م.
- حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- ستيفن ونسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرنى، ط الثالث، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- على بيومى مهران: قيام الدولة الأيوبية فى مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة، ١٩٥٢م.
- عليّة عبد السميع الجنزورى : إمارة الرّها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- فايد حماد عاشور : الجهاد الإسلامى فى العصر الأيوبي، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ .
- محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية، الرياض ، ١٤٠٤هـ.
- محمد عزت الطهطاوى : النصرانية والإسلام، ط الثانية، مكتبة النور، القاهرة ١٤٠٧هـ.

Settoh , (K.M.) A History of the crusades, pensylvania, 1958 .

ثالثًا : البحوث والمقالات :

- الأب أنطون صالحانى اليسوعى : ترجمة ابن العبرى فى كتابه (تاريخ مختصر الدول).
- سهيل زكار : أضواء على بعض المصادر السريانية لتاريخ العرب والإسلام ، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ٥-٧ شعبان ١٤١٩هـ / ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨م.
- محمد عزيز : العرب فى المصادر السريانية المعاصرة للخلافة العباسية، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب.

رقم الإيداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

دار رونايرت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق
